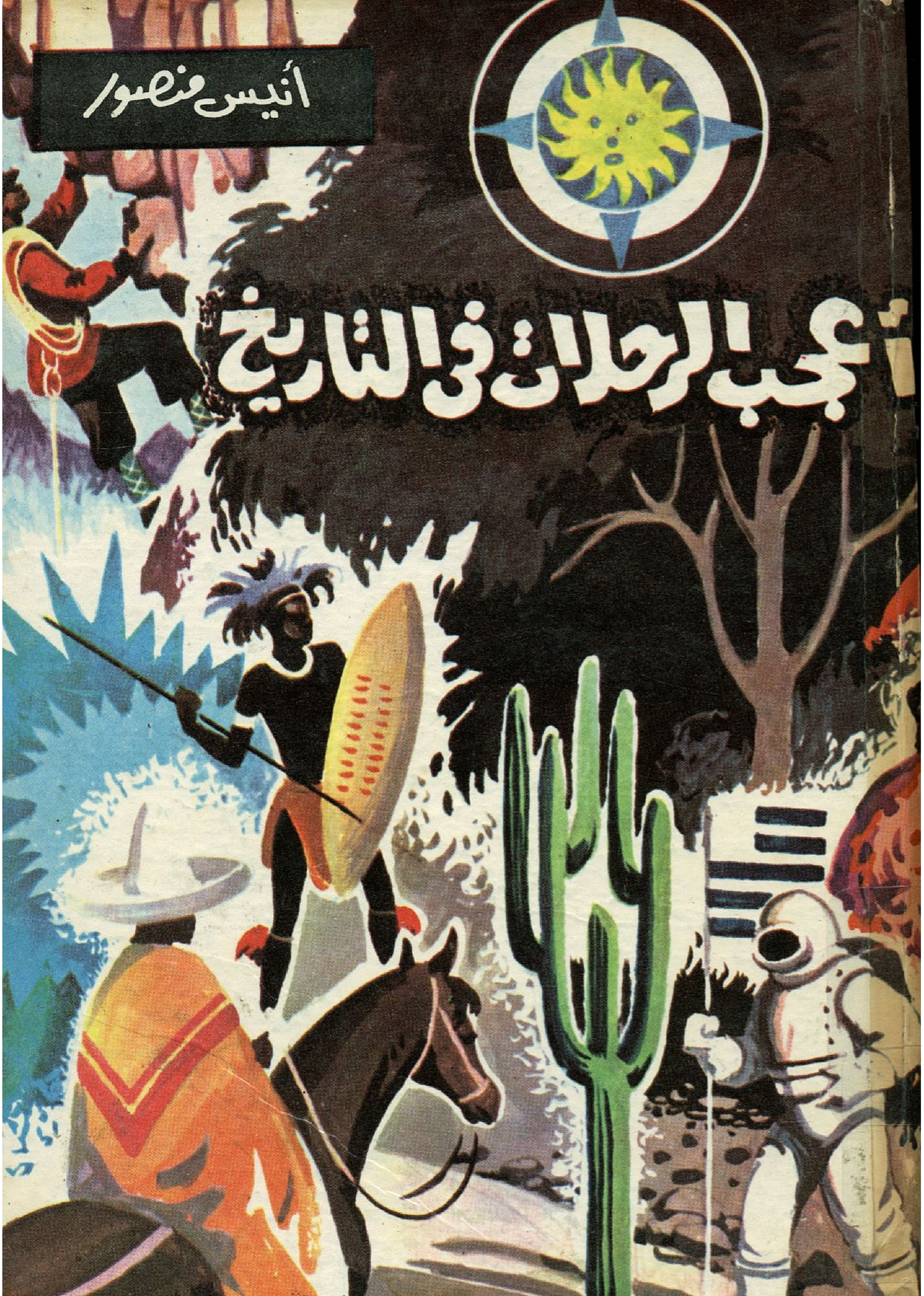
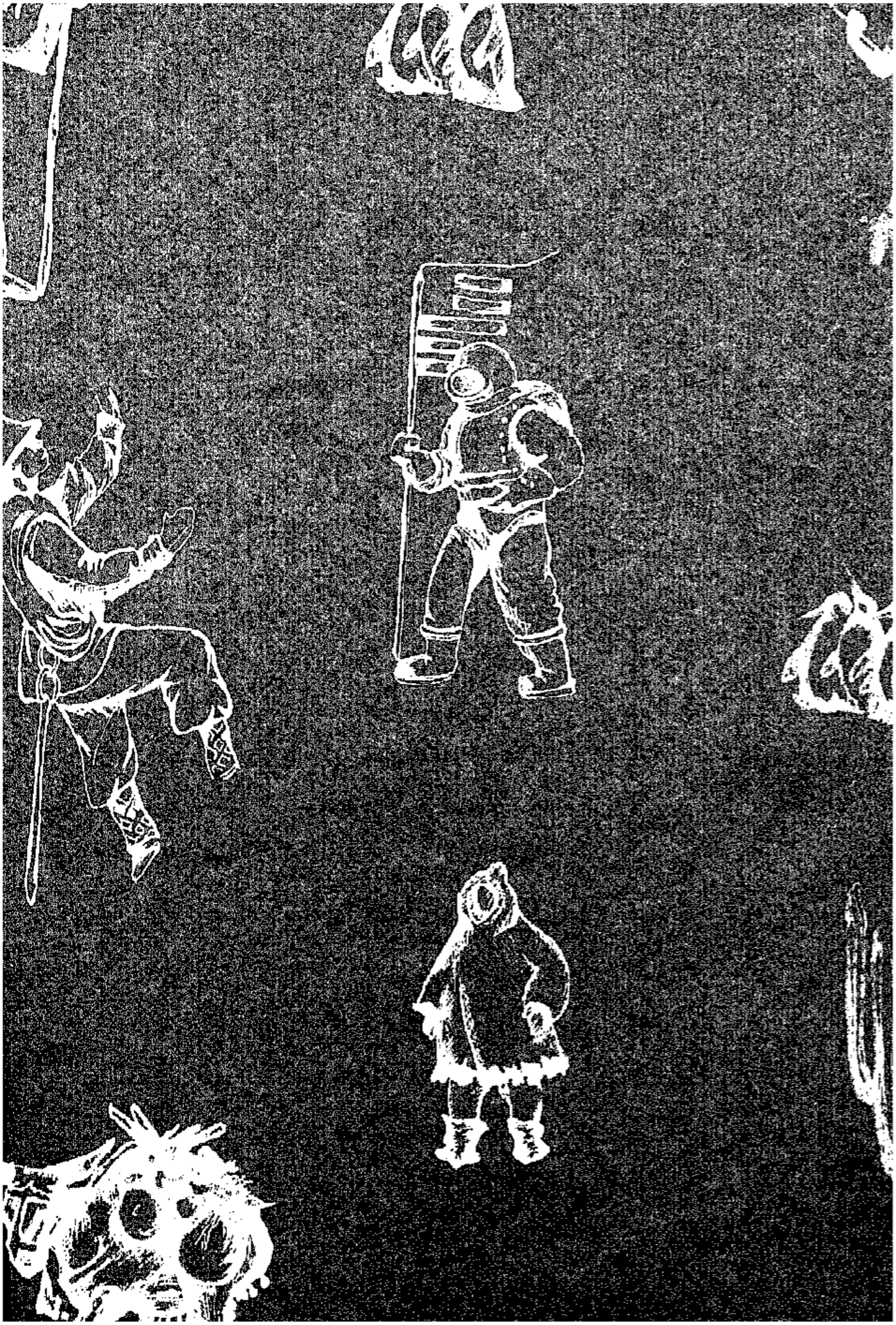
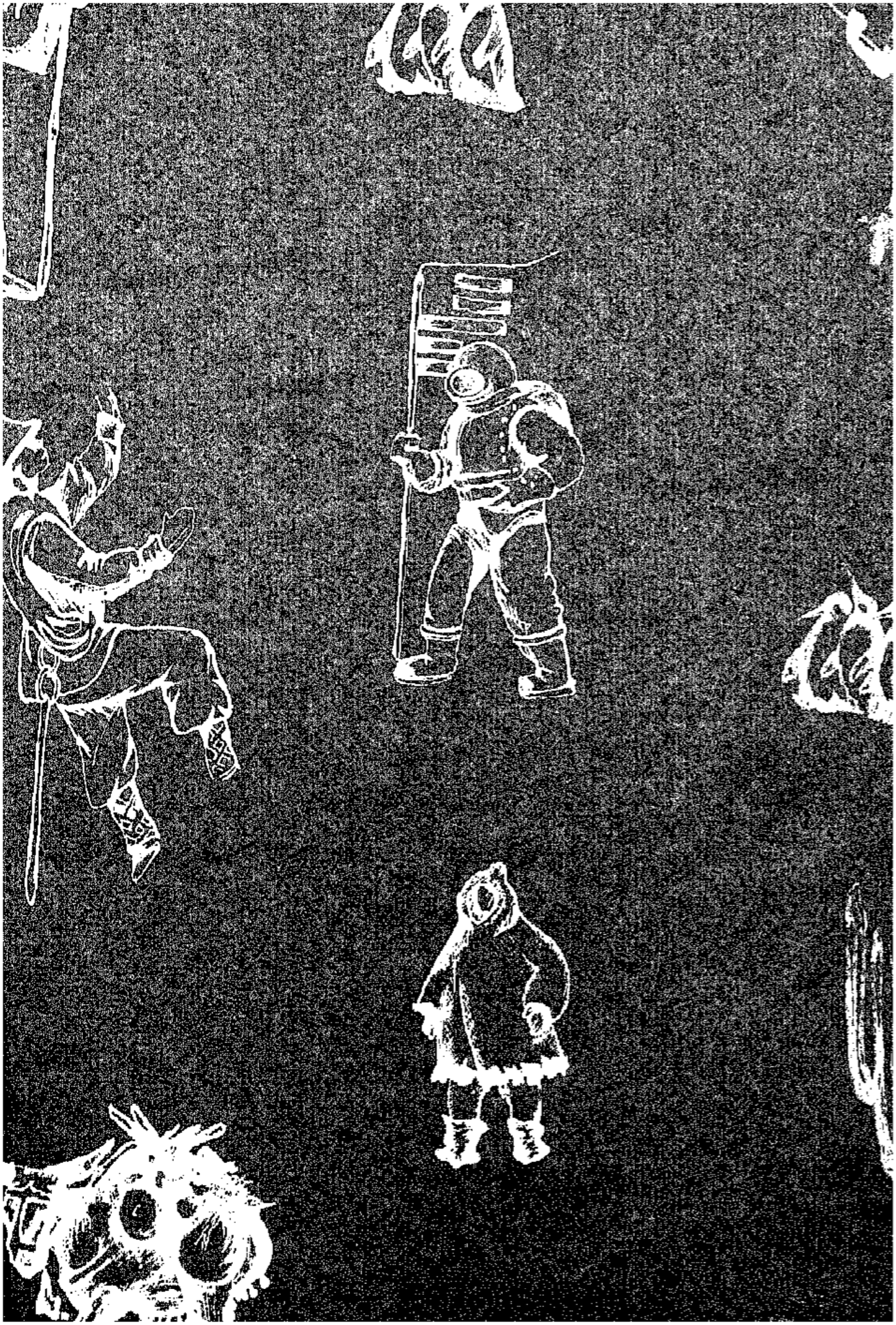

أنيس منصور
أعجب الرحلات في التاريخ





الطبعة الأولى ١٩٧٢
الطبعة الثانية ١٩٧٣
الطبعة الثالثة ١٩٧٦
الطبعة الرابعة ١٩٧٧
الطبعة الخامسة ١٩٧٩

أنيس منصور

أعجب الرحلات في التاريخ

المكتب المصري الحديث

● الغلاف بريشة الفنان الكبير : بيكار

الناشر : المكتب المصري الحديث
٢ شارع شريف عمارة اللواء بالقاهرة تليفون ٧٥٤١٢٧
٧ شارع نوبار بالاسكندرية تليفون ٢٦٦٠٢

محتــويات الــكتاب

طيور غريبة ...
على شجرة المسافرين

هنالك ثلاثة أنواع من الرحلات :

— أن تسافر . .

— وأن تقرأ الكتب . .

— وأن تقرأ كتب الرحلات[1] !

والذى يسافر إلى الأماكن البعيدة يريد أن يعرف . . يريد أن يفهم . . يريد أن يرى الجانب الآخر من الجبل أو النهر أو من البحر . . والجانب الآخر من الإنسان ومن تجاربه من أجل الحياة والتقدم . .

وهناك فرق بين أن تسافر لترى البلاد ، وبين أن تسافر لتعرف الناس

والذى يسافر كثيراً يعرف الكثيرين ، ولكنه يصادق القليلين . . والمثل الإغريقى يقول : إن الحجز المتحرك لا ينبت عليه العشب — أى عشب الصداقة والمحبة والهدوء . . ولكن هل من الضرورى أن ينبت العشب على الحجر . . ليس ضرورياً . . يكفى أن الحجر يتحرك ويتنقل ويذهب هنا ، ويصطدم هناك . . ولكنه يمضى ويسجل فى أعماقه هذه الفوارق العريضة العميقة بين شعب وشعب . . وبين تجارب شعب وتجارب شعب آخر . . أى ما الذى فعلته الشعوب فى تاريخها . . وبتاريخها أيضاً . .

المهم أن يتحرك . .

---

(١) راجع كتبى : « حول العالم فى ٢٠٠ يوم » و « بلاد الله خلق الله » و « اليمن ذلك المجهول » و « أطيب تحياتى من موسكو » .

والذى يسافر إلى بلاد أخرى ويعود يحدث أهله عما رأى ، هو فيلسوف والذى يروح ويجئ ولا يقول . . إنه صعلوك فقد استمتع واكتفى !

وفى الصفحات الأولى من ملحمة « الألياذة » نجد الشاعر الأعمى هوميروس يتحدث عن البطل فيقول : إنما راح وصارع وتعذب وانتصر وسجل ما رأى ليعود ويقول للناس شيئاً جديداً مثيراً ممتعاً !

وكثيرون راحوا وجاءوا . . وجاءوا كما راحوا ، لم يتغير منهم شئ . . وسبب ذلك أن نفوسهم صماء . . لم تنفتح على شئ ، ولم يتسلل إليها شئ . . والمثل القديم يقول : حمار سافر ، فلن يعود حصاناً !

وعندما شكا أحد تلامذة سقراط من أن السفر لم يفده ولم يغيره قال له سقراط : من الطبيعى ألا يفيدك السفر شيئاً ، لأنك سافرت مع نفسك !

فالطبيعى جداً أن يسافر الإنسان . . أن يرحل . . أن يذهب بعيداً عن بيته ووطنه . . ليرى ويعرف . . إنه حب المعرفة . . إنها المغامرة . . إنه المجهول الذى يتحدانا ونتحداه . . إنها متعة المعرفة والخوف منها معاً . . ولذلك فالرحلة هى مزيج من الرغبة والرهبة . . من الشجاعة والخوف . . ولكن الإنسان يفضل دائماً أن يعرف المجهول مهما كان الثمن . . وكثيراً ما دفع المسافرون أرواحهم من أجل أن يعرفوا . . وماتوا وهم يعرفون أكثر . . ولابد أن تعاستهم الوحيدة هى أن الموت حرمهم من أن يقولوا ما الذى رأوه . .

وكثيرون رأوا . . وعادوا يقولون . . إن المؤرخ هيرودوت جاء إلى مصر . . وعاد ورأى العجائب . . وكتب . . وكان يتغنى بما رأى فى مهرجان الألعاب الأوليمبية . .

والأسكندر الأكبر جاء إلى واحة سيوة . . وطلبت إليه إحدى الآلهات أن ينفرد بها . . وهمست فى أذنه بسر الكون . .

والقائد هانيبال أقسم أن يعبر البحر وأن يجعل الأمواج بساطاً إلى روما . . حتى يقضي على كل روماني وحتى يمسك في يديه مصير مدينةروما إلى الأبد.

— . . والرحالة الإيطالي ماركو بولو . . أهانته فتاة يحبها ، فأقسم ألا يعود إلى بلاده إلا وهو بطل تتعلق بحذائه عشرات الفتيات الجميلات . . ويرفضهن جميعاً !

وعاد ولم يجد الفتيات . . ولم يحزن على ذلك . . فالذي رآه أروع . . وأصدق . .

وابن بطوطه هاجمه الهنود ومزقوا مذكراته كلها . . وعاد ليروي ما حدث له في عشرين عاماً من الذاكرة . .

والرحالة ابن جبير الكناني الأندلسي الشاطبي قد تعب كثيراً من رحلاته في الشرق الأوسط . . ولكنه في النهاية سعيد بما رأى . . ويشكر الله على ذلك . . وفي نهاية رحلته يقول :

فألقت عصاها واستقر بها النوى

كما قر عيناً بالإياب المسافر

« والحمد لله على الصنع الجميل الذي

أولاه ، والتيسير والتسهيل الذي

والاه ، فكانت مدة مقامنا من موعد

خروجنا من غرناطة إلى وقت إيابنا

هذا ، عامين كاملين وثلاثة أشهر

ونصفاً ، والحمد لله رب العالمين »

وكل هؤلاء المسافرين المغامرين يتحدثون عن عذابهم بلذة . . ولو

خبرناهم أثناء رحلاتهم الطويلة أن يعودوا لرفضوا . . فهم يريدون أن يستمروا . . أن يمضوا حتى نهاية الرحلة . . أو نهاية الحياة . .

وفى كل كتب الرحلات هذه العبارة : لا أعرف ماذا حدث . . وكيف حدث . . ولكنى قررت أن أتوكل على الله حتى النهاية . .

فمثلا فى « رحلة كون تيكى » للرحالة النرويجى تورهايردال يقول : كان ذلك يوم ١٧ مايو . . إنه عيد الاستقلال . . ونحن فى عرض المحيط . . لا أعرف كيف حدث ما حدث . . كيف وجدت نفسى فى المحيط على زورق خشبى . . معى ببغاء وخمسة من البحارة . . ولما سألت واحداً منهم قائلا : كيف حدث ما حدث ؟ كان رده : « لا أعرف ، إنها فكرتك المجنونة . . ولكنها رائعة ! »

ولابد أن البحار هايردال قد اعتاد على هذا الجنون عندما عبر المحيط مرة أخرى بالزورق « رع » المصنوع من أعواد البردى . .

ويقال إن هيرودوت المؤرخ الكبير جاء إلى مصر هرباً من البوليس . . فقد اتهموه بالاشتراك فى مؤامرة . . وقد حاول هيرودوت أن يجعل لرحلته إلى مصر معنى نفسياً أو فلسفياً . . مع أنه ليس إلا مجرماً هارباً ، حاول أن يستفيد من منفاه !

ولابد أن صاحب هذا الرأى لا يقبل أن يسافر أى إنسان لمجرد السفر والمعرفة . . فلابد أن يكون هناك سبب . . فالغرض من السفر هو أن يخفف الإنسان من عذابه . . أن يلقى بهمومه على الشواطئ الجديدة . . ويرميها على الوجوه الجديدة . .

هذا المعنى أيضاً نجده فى الصفحة الأولى من « ألف ليلة وليلة » . . فهذه الليالى هى شكل أدبى لكى يروى لنا المؤلف المجهول حوادث ونوادر . . وعادات غريبة فى بلاد غريبة . . وليس صحيحاً أن هذه الليالى كانت

بسبب خيانة زوجة الملك شهريار أو زوجة أخيه الملك شاه زمان . . فألف ليلة وليلة تبدأ بأن الملك شهريار قد اشتاق لأخيه الأصغر شاه زمان . . وطلب إليه أن يجئ لزيارته . . وأعد الملك الأصغر خيامه وخيوله . . وفى آخر لحظة تذكر شيئاً – وكان لابد أن يتذكر هذا الشئ – وعاد إلى القصر ليجد زوجته بين ذراعى خادم زنجى . . فقتل الاثنين . . وسافر حزيناً إلى أخيه شهريار . . وعندما دعاه أخوه إلى الصيد والتخفيف عن نفسه ، اعتذر الأخ الأصغر وذهب الأخ الأكبر وحده . . وتصادف – ولابد أن يتصادف طبعاً – أن نظر الملك الأصغر من النافذة . . فوجد زوجة أخيه ومعها عشرة من الخدم الزنوج .. وتبادلوا عناقها جميعاً .. وكانت صدمة . وأحس الأخ الأصغر بأن مصيبته هو أهون من مصيبة أخيه . . وروى لأخيه ما حدث ولم يصدق . . وقرر أن يرى بعينه . . وتوارى ورأى – مصيبة أخرى !

ومن هذا الشعور بالهوان والخيبة واليأس تنبع قصص « ألف ليلة وليلة » فقد قرر الأخوان أن يسافرا إلى بلاد أخرى وشعوب أخرى . . ليريا إن كان هذا ما تفعله النساء مع كل الرجال أو أن هذه هى حال الدنيا . . أو حال دنياهما فقط . .

وتحت إحدى الأشجار وجد الأخوان فتاة جميلة ينام على ساقها عفريت فخافا . . ولكن الفتاة طلبت إليهما أن يهبطا وأن يعانقاها الواحد بعد الآخر . . وإلا أيقظت العفريت . . واقتربا منها . . وعانقاها ، الواحد بعد الآخر . . وأطلعت الأخوين على عقد به ٥٧٠ خاتماً . . قد أخذتها جميعاً من أناس عانقوها الواحد بعد الآخر ، بينما كان العفريت نائماً على ساقها . . وخلع كل منهما خاتمه . . وأعطاه للفتاة !

ومن المنطق أن يقول أحد الأخوين : إذا كان هذا هو حال المرأة مع عفريت فما الذى تفعله المرأة مع أى إنسان ؟

وعاد شهريار إلى بيته وقتل الزوجة وخدامها . . وراح كل ليلة يتزوج فتاة ويقتلها .. حتى جاءت شهرزاد تروى أكثر من مائتى قصة فى « ألف ليلة وليلة » وتروى له عجائب الدنيا لكى ينساها . . لقد اشترت حياتها بالرحلات والمغامرات . .

أما المعنى العام لهذه الليالى كلها فقد جاء فى صفحاتها الأولى هكذا :

لا تأمنن إلى النساء	ولا تثق بعهودهن
فرضاؤهن وسخطهن	معلق بصدورهن
يبدين وداً كاذباً	والغدر حشو ثيابهن
بحديث يوسف فاعتبر	متحذراً من كيدهن
أو ما ترى أبليس	أخرج آدماً من أجلهن؟!

والذى حدث للملكين ليس إلا « حيلة » أدبية لاستدراج القارئ . . وبعد ذلك تتحول الليالى إلى مغامرات فى البر والبحر وبين الناس . . وفيها شعر وخيال وفيها حقائق تاريخية جغرافية وموعظة أخلاقية !

وكثير من النوادر العجيبة التى دخلت فى عالم الخيال ، قد أعاد روايتها «ابن بطوطة» فى رحلته .. فهو يحدثنا عن الأحجار التى سقطت من السماء .. وعن النساء اللائى لهن ثدى واحد .. وعن العفاريت التى تحكم جزر المالديف فى المحيط الهندى ..

وكل صاحب رحلة يروى ما شاهد على طريقته وبأسلوبه .. ولكن من الضرورى أن يكون صادقا . وأن يضع الصدق فى براويز فنية .. والذى يقرأ « رحلات جيلفر » للكاتب الساخر الكبير سويفت يجد هذه العبارة فى نهاية الكتاب : (لو كان الأمر بيدى لأصدرت قانونا يحتم على كل رحالة أن يقسم بالله العظيم أن يقول الحق ولا شئ إلا الحق قبل أن ينشر ما رأى وما سمع » !

ومن الغريب أن هذه العبارة قد جاءت فى نهاية رحلات لا أساس لها من الواقع ، وإنما هى خيال الأديب الكبير الساخر – ومن المؤكد أنه يسخر من العلماء الجامدين الذين لا يصدقون ما يقوله الرحـالة المغامرون . . ولا يحبون شاعرية المسافر الذى بهرته الأشياء والأشخاص والمواقف !

وليس المهم أن يسافر الغريب إلى أرض غريبة . وإنما أن يعود إلى بلده ليقول .. لعل أحداً ينتفع بما قرأ .

وكثير من الناس لم يروا بلادهم وإنما فتحوا أعينهم وقلوبهم على الخارج وأقفلوها على أنفسهم .. وكان القديس أوغسطين ينصح تلامذته بقوله : بل اجلسوا .. اجلسوا .. وما هذه الأنهار والجبال والوديان والنجوم والفتيات.. بلادكم أولى بكم .. بل نفوسكم أعمق .. فانظروا فيها ..

وهو يدعو تلامذته إلى أن يتأملوا الإنسان نفسه .. فى النفس أعماق وألغاز ، أصعب مما فى هذا الكون كله . ولابد أن يستعين الإنسان بغيره على أن يفهم نفسه .. يستعين بالكتب .. أى بمؤلفى هذه الكتب .. ولذلك فقراءة الكتب : رحلات أخرى فى عقول الآخرين .. ووسيلة إلى الرحلات فى أعماقنا .

أما كتب الرحلات فهى أعماق الآخرين .. وأعماقنا نحن أيضا .. وأعماق هذه الدنيا .. ولذلك كانت أروع الرحلات هى التى نقوم بها فى رحلات الآخرين .. نرى بعيونهم ونسمع بآذانهم ، نرتمى على أحضانهم ونمشى على الدنيا معا .. وفى ذلك متعة للخيال وتشويق للإرادة .. أن نفعل مثلهم ... نسافر مثلهم .. ونكتب مثلهم .. وننفع بلادنا فى النهاية ..

ولاخوف إذا سافرنا .. ولاخوف إذا قصرت رحلاتنا .. ولا ضرر إذا لم ننجح كما نريد .. وإنما المهم أن نروح ونجئ .. أن نرى ونروى .. أن نعيش ونثير .. أن ننتفع وننفع ..

ولا أزال أذكر ما قاله الحريرى فى كتاب « المقامات » :

نقل ركابك عن ربع ظمئت به إلى الجناب الذى يهوى به المطر
فإن رددت فما فى الرد منقصة عليك ، قد رد موسى قبل والخضر

ونحن فى عصر الرحلات والمغامرات العلمية بين الأرض والكواكب الأخرى .. وإذا كنا لا نعرف الكثير من هذه الكواكب ، ، فلأن هذه الرحلات من الأسرار العلمية .. فأمريكا وروسيا ، لا تسمحان إلا بالقليل من المعلومات ..وحتى لو سمحت الدولتان ، فإن رواد الفضاء ليسوا من الأدباء أو الشعراء ولذلك لا يعرفون كيف يصفون .. حتى الجملة الوحيدة التى قالها أول إنسان وضع قدمه على القمر كانت قد كتبت له قبل أن يرتفع عن الأرض.. فلما رددها أخطأ فى النحو . !

ولكن المسافر ، يجب أن يكون قادراً على الاحتمال . وقادراً على الملاحظة . وقادراً على أن يروى بعد ذلك . وأن يكون ممتعا .. وهناك عشرات سافروا وغامروا ورأوا عجائب الدنيا القديمة والجديدة .. وأساءوا فهم ما رأوا .. وبرعوا فى فهم ما رأوا .. ولكنهم دائما يستحقون الإعجاب . ويستحقون أن نلتفت إليهم وأن نتعلم منهم .. وأن نلاحقهم جريا وراءهم بأقدامنا وعقولنا وخيالنا ..

ولما بدأ الإنسان حياته على هذه الأرض كان صياداً يرحل من مكان إلى مكان ولذلك يجب أن يبدأ كل طفل حياته وكذلك كل شاب : أن يسافر فى بلاده ليعرفها .. وأن يسافر إلى بلاد أخرى ليعرف ويقارن ويعود ليصلح نفسه وغيره .. وليضيف إلى تاريخ بلاده .. تجارب الآخرين .. فليس أروع من السفر .. وليس أحب من المسافرين الذين يقولون ويقدرون على ذلك ..

وفى جزيرة مدغشقر يوجد نوع من أشجار الموز .. الشجرة مرتفعة جداً ولها أوراق ملتوية كأنها ذراعان تحتضنان شيئا .. أما هذه الأوراق فتهبط

عليها الأمطار . وتنزل الأمطار إلى حوض فى نهاية الأوراق . ويظل المطر فى هذا الحوض ترتوى منه الشجرة فى وقت الجفاف . وقد سميت هذه الشجرة باسم « شجرة المسافرين » لأنها مثل المسافرين تدخر الماء لوقت الحاجة .. ولأن الكثيرين من المسافرين الذين لا يجدون الماء يبحثون عنه فى هذه الشجرة .. يرتوون ثم يتمددون تحتها وينامون ..

وهناك أسطورة تقول إنه إذا نام تحت الشجرة مسافر واحد ، فإن نوعا من الطيور يقف على هذه الشجرة .. وهذا الطير لا يقف على الشجرة إلا إذا كان النائم من بلاد غريبة ..

فما أكثر الطيور على أشجار المسافرين فى كل مكان !

وكان المصريون
يطلقون طيورا من حجر

حدث له هو أيضا ما حدث لمحمد على الكبير عندما سقط فى الماء ، امتدت إليه أيدى البحارة .. وأنقذوه ثم أعادوه إلى الشاطئ فقد كان هارباً .

واختلف المؤرخون فى السبب الذى هرب منه المؤرخ الإغريقى هيرودوت الذى ولد سنة ٤٨٠ ق.م .

قالوا : هارب من ديون !

وقالوا : هارب من فضيحة أخلاقية .

وقالوا : بل من مؤامرة سياسية .

وعندما سئل بعض أقاربه أكدوا أنه مجنون ـ وأنه يحدث نفسه كثيراً وأنه يمشى أثناء النوم .. ولذلك فعندما حاول الهرب من « تركيا » إلى أى مكان فى العالم ، كان طبيعيا أن يفعل ذلك . أليس مجنونا !

ولكن هيرودوت لم يكن مجنونا إلا بالسفر .. إلا بأن يعرف من أين يجئ هؤلاء الناس الذين يراهم يعبرون الدردنيل .. إنهم بيض وسمر وصفر وسود .. طوال وقصار وعيونهم سوداء وزرقاء . . وشعرهم أسود وأصفر . ولا توجد بينهم نساء .. ولا أطفال ..

قرر الشاب هيرودوت أن يسافر .. ووجد نفسه ، وهو فى العشرين بين ركاب إحدى السفن . تمارض فى الأيام الأولى حتى لا يسألوه عن أى شئ . إن كانت معه فلوس . أو كان مسافراً أو مهاجراً . أو حتى من هو ولماذا ترك بلاده مع أنه ليس تاجراً ولا جنديا . وكان هيرودوت يخاف على شئ تعلق فى عنقه : إنه كيس من القماش ملأه بألواح من الشمع ليسجل عليها ملاحظاته . وعرف هيرودوت أنه مسافر إلى مصر .. وكان سعيداً . وطلب إلى المسافرين أن يستمعوا إليه وهو يغنى .. ويقال إن صوته جميل .

ولا يحدثنا هيرودوت عن السفينة أو البحر . فقد اتجهت عيناه وخياله إلى مصر والشواطئ المصرية والمعابد والأسرار . ويبدو أنه نزل عند رشيد . وأقام فى أحد الفنادق هناك . الفندق صغير من ست غرف . لكل واحد غرفة . ومن الغريب أن الناس يتحدثون بعضهم إلى بعض دون سابق معرفة . والمصريون كما يقول كرماء . كل واحد يعطيك ما فى يده وهو لا يعرف من أنت .. وإنما يحس أن من الواجب أن يفعل ذلك وإلا اعتبروه بخيلا — وهذه رذيلة كبرى !

ولم يمض وقت طويل على بقاء هيرودوت فى مصر حتى قال : « إنها أجمل بلاد الله . وفيها من العجائب والأسرار ما يعجز القلم عن وصفه » .

ولاحظ هيرودوت أن المصريين عموما فى غاية الرشاقة . رجالا ونساء . وبسرعة أدرك الفوارق بين المصريين وبين كل شعوب العالم . يقول هيرودوت إنه ذهب إلى الأرض التى جرت عليها إحدى المعارك الحربية بين المصريين والفرس . ولاحظ أن جماجم الفرس قد وضعت فى جانب .. وجماجم المصريين فى الجانب الآخر .. وأن جمجمة الجندى الفارسى هشة لدرجة أننا إذا ألقينا عليها حجرا ثقبها .. أما جمجمة الجندى المصرى فيصعب أن نثقبها بحجر . وسأل هيرودوت رجال الدين : ما السبب ؟ فقالوا إن المصريين يحلقون رؤوسهم تماما وتظل معرضة للشمس مدى الحياة وهذا يجعلها أكثر صلابة . أما الفرس فيضعون العمائم على رؤوسهم .

يقول هيرودوت : يبدو أن هذا سبب وجيه !

واندهش هيرودوت وهو يمشى فى شوارع المدن والقرى المصرية ... البيوت منعزلة بعضها عن بعض .. والمعابد كثيرة . والموسيقى تخرج من وراء كل باب ونافذة .. وهناك انحلال شديد . أو كما يقول هيرودوت : لم أكن أتصور أنه من الممكن أن يكون للإنسان حريات شخصية إلى هذه الدرجة !

ويقول أبو التاريخ هيرودوت : « جو مصر مختلف عن كل أجواء

الدنيا والنهر كبير واسع ملئ بالحياة والحركة .. والناس لهم عادات غريبة . إن المصريين يختلفون عن كل الشعوب الأخرى .. الرجال يذهبون إلى السوق ، والنساء يجلسن يغزلن فى البيت . الرجل يحمل الأشياء على رأسه ، أما المرأة فتحملها على كتفيها .. الرجال يذهبون إلى دورة المياه ويجلسون ، أما المرأة فتذهب لتقف .. المصريون يتناولون طعامهم خارج البيت ، ولكن يحرصون على النوم فى الداخل . لأن المصرى يرى أن كل ما هو خاص جدا ، يجب أن يتم فى سرية .. المرأة المصرية لا يمكن أن تكون راهبة أو كاهنة وهذا أفضل .. الرجال فقط . رجال الدين فى العالم كله يطلقون شعورهم والمصريون يحلقون تماما . الرجال يضعون الباروكة فى الجنازات ، بينما فى العالم كله لا يفعلون ذلك .. كل الشعوب الأخرى يضعون حيواناتهم فى الزرايب ، المصريون ينامون مع حيواناتهم .. المصرية عندما تعجن فإنها تعتمد على ركبتيها ولكن لا مانع عندها أن تمد يدها إلى الطين أو إلى روث البهائم ثم تعود إلى العجين مرة أخرى .. الرجال يلبسون الثوب من قطعتين ، والمرأة من قطعة واحدة .. المصريون يكتبون من اليمين إلى اليسار ، والشعوب كلها تكتب من اليسار إلى اليمين . المصريون عندهم نوعان من الكتابة : مقدسة وعادية .. المصريون يرون أن الطهارة ضرورة صحية ومقدسة أيضا » .

وهيرودوت شاب دقيق الملاحظة . وكان يسأل دائما لكي يعرف . وعندما لا يقتنع يقول : سمعت الكهنة يقولون ذلك .. أو قال لى واحد من الكهنة ..

وقد لاحظ هيرودوت فى مصر عددا كبيرا من رجال الدين .. ملابسهم نظيفة وفى صحة جيدة . . ويستحمون مرتين فى اليوم بالماء البارد حتى لا يكون فى ملابسهم قمل أو براغيث ــ فأمام الآلهة يجب أن يكون الكاهن نظيفا تماما .. والكهنة يعيشون مجانا : طعامهم وملابسهم . والذى يزور الكاهن فى معبده يزور رجلا غنيا أمامه الطعام من كل لون : دواجن وفاكهة

ولحوم ساخنة . وباردة — ولا بد أن هذا منظر لا يمكن أن ينساه رجل جاء من الشاطئ الآخر . وليس معه مليم واحد . وإنما يكتسب قوته من تدريس اللغة اليونانية . ومن كرم رجال الدين ... ولذلك كثيرا ما يتحدث هيرودوت عن الولائم والطعام الكثير الذى يتناوله المصريون أو الذى رآه على مآدب الأغنياء .. ومن الغريب أن الأغنياء لا يأكلون كل هذا الطعام . ولذلك يسأل هيرودوت نفسه هذا السؤال الخالد : لماذا يقدمون طعاما كثيرا يفيض عنهم ، وهم يعلمون ذلك ؟!

وقد لاحظ أن المصريين يحبون الحفلات والمهرجانات .. الغناء .. والرقص .. والخمر . ولكن من الملاحظات العبقرية لهيرودوت : أنه نظر إلى وجوه المصريين فوجد عليها مسحة من الحزن . ويقول : إذا نظرت إلى سيدة من بعيد ، وكانت تضحك أو تغنى .. فإنك لا تعرف — حقيقة — إن كانت تبكى أو تندب عزيزا عليها .

ولكن إذا اجتمع الناس فالرجل يمسك المزمار والمرأة تمسك الصاجات وينهض الرجال يرقصون .. والنساء يرقصن .. ولاحظ أن الرجل هو الذى يرفع ثوبه — على سبيل الإغراء — إذا رقص !

أما عيد المصابيح فالمصريون يضعون فى أيديهم آنية قد امتلأت بالزيت وفيها شموع تظل مشتعلة طول الليل .. وحول الشموع ترقص الفتيات والرجال يرقصون ويغنون ويتساقطون من الضحك والانسجام — وكلهم يشربون الخمر .

وقد أطلعه بعض رجال الدين على الطقــــوس السرية للآله أوزوريس بشرط أن يكتم السر .. وكتم السر . ولم يذكر شيئا واحدا مما رأى .

وأطلعه الكهنة المصريون على أسرار كثيرة لهذا الكون ولتحويل المعادن إلى ذهب .. وكان هيرودوت عند وعده . لم يقل شيئا[1] !

(١) راجع كتابى « الذين هبطوا من السماء » .

ولكنه ذكر أنه رأى نوعا من الأفاعى تطير .. ورأى الكهنة يطلقون طيورا مصنوعة من الحجارة ، فإذا هى تطير . ولم يستطع هيرودوت أن يعلق على ذلك .. ولكنه عندما عاد إلى أثينا راح يروى ما رأى لشباب أثينا أثناء الألعاب الأوليمبية .

واندهش هيرودوت عندما رأى تماسيح النيل .. وربما كان هيرودوت هو المسئول وحده عن نشر حكاية التماسيح فى نيل مصر .. فقد ظل الناس يعتقدون أن التماسيح تبكى طول الليل فى القاهرة .. مع أننا لا نراها إلا فى حديقة الحيوان .. ومن مئات السنين . وقد وصفها هيرودوت فقال : التمساح له عينا خنزير .. وأسنانه كثيرة .. وليس له لسان (؟!) وهو الحيوان الوحيد فى العالم الذى يحرك فكه العلوى؟! .. والتمساح لايرى فى الماء .. وإنما يرى على الشاطئ فقط .. وفى مدينة أسوان يأكل المصريون التمساح ولا يرونه مقدسا .

ولسبب غير معروف هاجم هيرودوت الملك خوفو .. أو على الأصح تأثر برأى الكهنة فى هذا الملك .. فهم يرون أنه ملك سافل منحط حقير — هذه كلمات هيرودوت أيضا . فهو الذى سخر الشعب فى بناء الهرم الأكبر . وأنفق ميزانية الدولة .. ويقول هيرودوت إن من عادة المصريين أن يطلبوا إلى البنت أن تساعد والدها ، أما الولد فليس مضطرا إلى ذلك .. ولهذا كان من الطبيعى أن يطلب الملك خوفو إلى ابنته الجميلة أن تساعده .. وتحيرت الفتاة ما الذى تصنعه . . فأشار أبوها إلى جمالها وهو يقول : أليس لهذا الجسم الجميل ثمن ؟

ثم تقدم الذين يريدون أن يدفعوا الثمن ..

وساعدت ابنة فرعون والدها ..

ويروى هيرودوت أن الهرم الأكبر معجزة فى البناء . ويرى أن نقل الأحجار هو المعجزة .. لذلك لابد أن يكون الهرم قد بنى أول الأمر على

شكل مصطبة ثم رفعوا إلى جوارها التراب .. ومن التراب المرتفع كانوا يرفعون الأحجار مستخدمين آلات رافعة من الخشب .. وقد بنى الهرم أكثر من مائة ألف عامل .. وكانوا يعملون ثلاثة شهور كل سنة ولمدة عشرين عاما .. أما الطريق الذى رصفه العمال ليدحرجوا عليه الأحجار فقد كان معجزة هندسية .

وعرف هيرودوت من الكهنة أن المهندس الذى بنى الهرم أراد أن يبين للأجيال القادمة كيف صنع العمال المصريون هذه المعجزة وأى نوع من الطعام كانوا يأكلون .. فسجل كميات البصل والفجل والثوم التى استهلكها العمال .. وبعملية حسابية بسيطة يمكن معرفة كم تكلف بناء الهرم الأكبر ..

ثم يعود هيرودوت يهاجم الملك خوفو ويروى عنه قصة لها نظير فى التوراة فيقول إن خوفو أصابه الفقر فى آخر أيامه .. ولم يجد غير ابنته . وأعطت ابنته جسمها لأغنياء مصر .. ودفعوا .. ورضى الأب .. ولكن لسبب غريب أيضا أصرت الابنة أن تبنى هرما صغيرا . وأن تكون أحجار هذا الهرم بعدد عشاقها .. وعدد لعناتها على أبيها ، أو لعنات الأجيال القادمة .. ويقول هيرودوت إنها أقامت هرما صغيرا ..

اندهش هيرودوت جدا عندما سمع هذه القصة .. ولما رأى الكهنة دهشته قالوا له : إذا لم تصدقنا فلنذهب معا إلى الهرم .

وضاق هيرودوت بما سمع . فاعتذر .. ولو ذهب لرأى تمثال أبو الهول.. ولكن هيرودوت لم ير هذا التمثال الجميل ولم يعرف أن له وجودا .

وفى اليوم التالى ذهب هيرودوت إلى حيث يوجد الهرم الثانى .. يقول : من المؤكد أنه أصغر من الهرم الأول..هذا مؤكد فقد قست قاعدة كل منهما .

أما الهرم الثالث فقد سمع هيرودوت من الكهنة أن له قصة أخرى .. فقد أقامته الغانية رادوبيس . كانت غنية .. وكانت تحرص على مالها .. وقد

ساعدت فى إقامة بعض المعابد فى بلاد اليونان . ولما سأل هيرودوت عن مدى ثرائها .. ثم عرف .. استبعد أن تكون هذه الغانية هى التى أقامت الهرم الثالث .. لأنه يتكلف أموالا لا يملكها فرد .. بل تملكها دولة ..

ولابد أن هيرودوت وجد أن قصة بناء الأهرامات من السهرات الحمراء مكررة وسخيفة .. وأن الكهنة يحقدون على ملوكهم لأنهم يعجزون عن إقامة أهرامات أكبر وأجمل .. أو أن الكهنة لم يعد لهم هذا الدور القوى فى الحكم .. ربما ..

وكأن هيرودوت يتحدث عن السفن الشراعية اليوم .. فهو يصف السفن الشراعية .. ويصف معاكسة الريح لها .. ونزول الناس إلى الشاطئ وسحب السفن الشراعية ضد الهواء إلى جنوب مصر وشمالها .

وكل ما رآه هيرودوت فى مصر قد هزه وأثاره وأسعده .. ولكن شيئا واحدا لم يتحمله : البعوض .. إنه كثير جدا فى شمال مصر وجنوبها .. والناس يضعون (الناموسية) على فراشهم .. والناموسية هى نفس الشبكة التى يستخدمونها فى الصيد .

ويقول هيرودوت وكان البعوض يتسلل إلى ما وراء الشبكة ويلسع ..

ولاحظ هيرودوت أن المصريين يسهرون فى الأماكن العالية .. وسبب ذلك أن البعوض لا يستطيع أن يرتفع إليهم . وحتى إذا كاد النوم يغلبهم عادوا إلى بيوتهم .. فلا يشعرون بلسع البعوض ..

ولابد أن المؤرخ هيرودوت قد عانى الكثير فى رحلته إلى مصر وبلاد الشرق الأوسط . ولكنه لم يذكر لنا شيئا عن نفسه . ما الذى كان يلبسه .. أين يأكل ويشرب وينام وماذا تناول : وكيف يكتسب قوته .. وما وسائل المواصلات بين مدن مصر ، وبين مصر والدول الأخرى .. هل ركب الحمار أو الحصان .. هل سار على قدميه ؟

هل مرض ؟ كيف عالجوه .. ثم كيف سجل هذا التاريخ فى النهاية .. وكيف كان يسجل ملاحظاته أولا بأول .. هل صحيح أنه تزوج سبعا من النساء أو أنه وعد واحدة بالزواج ثم هرب منها إلى مصر ؟

إذن فالمؤرخ هيرودوت هو نوع من المؤرخين الذين ينشغلون بالعالم عن أنفسهم . هناك نوع آخر تشغلهم أنفسهم عن العالم .. هذا ينبع من الواقع .. وذلك ينبع منه الواقع .

ولكن لا يزال المؤرخ الإغريقى هيرودوت صاحب أجمل وأمتع رحلة قديمة إلى مصر .. وأخطر رحلة أيضا .. فكثير من ملاحظاته التى نقلها بحسن نية ظلت عالقة بأقلام وأذهان الأوروبيين أكثر من ألفى سنة كما هى — تماسيح النيل على شواطئ القاهرة مثلا ..

خرج ولم يعد ...

أصغر وأعظم رحل !

عندما انتصر الإسكندر الأكبر فى أكبر معاركه فى الهند اعتقل عشرة من الفلاسفة . وقال لهم : سوف أقتل صاحب الإجابة السيئة . إذن أمامكم أقسى امتحان ! .

واختار واحدا منهم قاضيا . وبدأ فى الامتحان . والسؤال الأول — للفيلسوف الأول : أيهم أكثر عددا : الأحياء أو الأموات ؟ وكان الجواب : الأحياء لأن الأموات لا وجود لهم .

السؤال الثانى : أيهما أكبر .. حيوانات البر أم حيوانات البحر ؟

ورد الفيلسوف : بل حيوانات البر .. لأن البحر جزء من البر ؟

السؤال الثالث : كيف تستطيع أن تقنع إنسانا بأن يثور ؟

الجواب : بأن أؤكد له أن الإنسان يجب أن يعيش كريما أو يموت كريما .

السؤال الرابع : ماهى أخبث الحيوانات ؟

والجواب : التى لم نكتشفها بعد ..

والسؤال الخامس : أيهما أسبق .. الليل أو النهار ؟

وكان رد الفيلسوف الخامس : النهار أسبق من الليل بيوم واحد !

ولما لاحظ أن الإسكندر لم يقتنع بهذا الجواب عاد يقول : لاتؤاخذنى إذا كان الجواب غريبا . فالسؤال غريب أيضا !

ثم كان السؤال السادس : ما الذى يفعله الإنسان ليكون محبوبا ؟

وكان الرد : بأن يكون قويا لا مخيفا ..

أما السؤال السابع فهو : كيف يكون الإنسان إلها ؟

والجواب : بأن يصنع المستحيل !

والسؤال الثامن : أيهما أقوى الحياة أو الموت ؟

وكان الرد : الحياة أقوى لأنها تحمل كل المصائب ومع ذلك تستمر وتحرص على الاستمرار .

أما السؤال التاسع فكان : إلى متى يحرص الإنسان على حياته ؟

وكان الرد : إلى أن يشعر بأن الموت أفضل من الحياة ..

ثم اتجه الإسكندر الأكبر إلى الفيلسوف العاشر وقال له : ما رأيك ؟ ونهض الفيلسوف مذعورا ليقول له : مولاى .. عفوا ليس قبل أن أعرف رأيك فى كل ما سمعت !

ولكن الإسكندر أطلق سراح الفلاسفة ومنحهم الكثير من الهدايا . ولم يكن ممكنا لفتى إغريقى — ابن الحضارة العظيمة وتلميذ الفيلسوف أرسطو — أن يقتل فيلسوفا لأنه قال شيئا لم يعجبه . أو لم يقنعه . بل إن الإسكندر قبل قيامه بغزواته فى آسيا . قد رأى رجلا متمددا فى الشمس . واقترب منه وسأله من أنت ؟ فقال : إنسان . وسأله : وماذا تريد ؟ فقال : ألا تحجب عنى الشمس .

وأعجبته هذه الإجابة وسأل عنه فقيل له إنه الفيلسوف ديوجين . وقال الإسكندر : لو لم أكن أنا الإسكندر العظيم لتمنيت أن أكون فى قوة هذا الرجل ..

ولم يكن فى ذلك الوقت قد تجاوز العشرين !

ويقال إن الإسكندر الأكبر قد سأل الفيلسوف العاشر : هل رأيت أعظم منى ؟ ويقال إن الفيلسوف العاشر قد فكر لحظة ثم قال : أنت أعظم إنسان فى بلادك .

ولم يسترح الإسكندر إلى هذا الجواب . ولكنه هز رأسه . وقال : يبدو أن الحق معك .. أنا أعظم إنسان هناك .. ولكن هنا .. الشمس أعظم . والجوع أبشع !

ولكن الإسكندر كان يعتقد أنه أعظم قائد فى كل العصور . فهو فى طفولته قد أقنعته أمه أنه ابن كبير الآلهة . وكان الإسكندر يحزن كلما انتصر أبوه فى معركة عسكرية ويقول : إذا انتصر أبى ، فما الذى يتركه لى بعد ذلك؟

إنه أصغر مسافر وأكبر قائد ..

وقد ولد الإسكندر الأكبر فى اليوم الذى احترق فيه معبد ديانا . وكسبت خيول والده فى الألعاب الأوليمبية .. وقال الكهنة : إن مولده حدث جليل .

ويقال إن أنفاسه كانت عطرية . وملابسه أيضا . ويقال إن رأسه ثقيل لدرجة أن عنقه لا يقوى على حمله ولذلك كان يميل به إلى ناحية اليسار . وكان إذا مشى أسرع . ولما سألوه : ولماذا لا تشترك فى الألعاب الأوليمبية وكان جوابه السريع : هاتوا لى عددا من الملوك !

وكان أبوه يقول : إن ولدى هذا تضيق عنه مملكتى ؟

وفى السادسة عشرة من عمره تركه أبوه ملكا على البلاد . وكان يتصرف كأنه ملك . وكانت قراراته غريبة عجيبة . وكان يجلس إلى جواره أعظم فلاسفة الإغريق : أرسطو ..

ولا أحد يدرى بالضبط ما الذى خطر على رأس هذا الشاب سنة ٣٣٤ ق.م . وهو فى الثانية والعشرين من عمره ، على رأس جيش كبير . أعظم الجيوش الأوروبية فى ذلك الوقت .. ما الذى يريده من السفر بقواته إلى آسيا ..

هل يريد أن « يعرف » نهاية العالم .. مجرد معرفة .. هل ذهب لينتقم من الفرس الذين أحرقوا أثينا منذ قرن ونصف قرن .. هل ذهب ينشر الحضارة الإغريقية فى الإمبراطورية الفارسية فى آسيا وشمال أفريقيا .. هل هى مغامرات الشباب : خمر وذهب وعطور ونصر فى النهاية .

إنه رفض أن يحدثه إنسان فى شئ وقواته تعبر الدردنيل . . فى سفن .. وعلى ظهور الخيول .. ثلاثون ألف جندى وأربعة آلاف حصان .. وألوف يحملون الرماح التى طولها ١٨ قدما ومئات من المهندسين وعشرات من الفلاسفة وعشرات من السكرتارية وأربعة آلاف جندى من الحرس الخاص . ونساء وأطفال يمشون وراء هذه القوات أو وراء الشاب العظيم المغامر . ولم يخطر على بال هذا الشاب أنه ذهاب بلا عودة .. فلن يرى الإسكندر أرضه حيا بعد اليوم .

وعلى عادة الإغريق انطلقت سفينته به بعيدا عن الشاطئ .. ثم عادت لتقترب منه قليلا قليلا .. ويمد رمحه الطويل ويلمس الشاطئ .. رمزا على أنه سوف ينال بسهولة كل ما يريد .. وقد نال ما يريد ، ولكن بصعوبة وعندما نظر الإسكندر إلى الشاطئ وجد بعض الشبان يستحمون فقال وهو حزين : ما أتعسنى لقد نسيت أن أتعلم السباحة !

أما الإمبراطورية الفارسية فى ذلك الوقت . فقد كانت واسعة منهارة تضم أرض العراق وسوريا وليبيا وما بين النهرين وغربى الهند . وقد هاجمها الإسكندر فى وقت كانت تتداعى . وكان الإسكندر حريصا على أن يكون إغريقيا مائة فى المائة .. فى الطعام والشراب واللهو والصلوات . وكانت ترافقه معشوقته الجميلة تاييس وكان هو أيضا ليس ملكا طول الوقت .. إنه ملك على الرجال . ولكن مع محبوبته هو مواطن آخر .. وعندما لاحظت محبوبته تاييس أن فى خيمتها ثقبا تتسلل منه الشمس أشارت برجلها إليه .. وضحك الإسكندر ليقول : هذا الثقب أستطيع أن أسده .. أما قرص الشمس

فليس فى قدرتى بعد أن أحطمه . ويقال إن تاييس بكت . فوعدها بأن يطفئ الشمس .

وسافر الإسكندر إلى مصر وأقام فيها أكثر من سنة .. واستطاع بذكائه الخارق أن يختار المكان المناسب لإنشاء مدينة الأسكندرية ، وهى واحدة من تسع مدن تحمل اسمه . وجمع المهندسين والجغرافيين ، ولاحظوا أن الأرض سوداء . وأنهم لا يستطيعون أن يخططوا للمدينة فأتوا بكمية من الدقيق ينثرونها على الأرض .. وفجأة جاءت الغربان وأكلت الدقيق . وانزعج الإسكندر . ولكن علماء الفلك قالوا له : سوف تكون هذه المدينة جنة يعيش عليها الإنسان والحيوان والطيور .

وفى إحدى الليالى سمع الإسكندر صوتا يناديه فى أعماقه . ونهض وسأل حبيبته تاييس إن كانت هى التى نادته . ولكنه وجدها نائمة .. تتقلب ثم طلب المزيد من النبيذ والقبلات . وخرج الإسكندر من خيمته ليسأل إن كان أحد قد ناداه .. ثم عاد يسمع الصوت يطلب إليه أن يذهب إلى واحة سيوه .. وأن يزور معبد الإله آمون .. وسار الإسكندر مع بعض أتباعه على شاطئ البحر . ثم نزل إلى الجنوب على حدود ليبيا . وكان يخاف من الرياح الرملية ومن العطش . ولكن الإسكندر آمن بأنه ابن الآلهة . وأن هذا الصوت الذى ناداه لا يمكن أن يكون شيطانا . وترك الخيول وركب الجمال . وسار فى نفس الطريق الذى هلك فيه جيش قمبيز قبل ذلك .. ثلاثون ألفا من قوات الفرس دفنت فى الصحراء . ولكن الغربان كانت تقوده .. فإذا أخطأ فى الاتجاه راحت الغربان تنعق . فإذا ضل أحد من رجاله تصايحت الغربان حتى يعود إلى الطريق السليم .

وفى معبد آمون سمع الإسكندر من الكهنة أن الإله يريد أن يراه على حدة . ودخل الإسكندر واقترب وسأل الإله : إن كان الذين قتلوا قد لقوا ما يستحقون من عقاب ؟ ورد الإله : نعم . كلهم !

ولا احد يعرف كيف كان شعور الإسكندر عندما نصبه كهنة امون إلها ! إن صناعة الإله والتأليه هى إحدى حيل المصريين القدماء .. إنها السم المقدس الذى يعطونه للإنسان لـكى يتعالى على البشر . ويموت لا هو إنسان ولا هو إله ..

وشرب الإسكندر هذه الجرعة .

وكان من عادة الإسكندر أن يكتب الكثير من الرسائل فكتب إلى أمه يؤكد لهـا أن الفراعنة يقولون أيضا إنه إله ابن كبير الآلهة . ثم قال لهـا : وهناك أسرار أخرى سوف أحكيها لك عندما أعود .

ولم يعد ومات وسره معه ..

وعندما اتجه الإسكندر بعد ذلك إلى أطراف الإمبراطورية الفارسية بلغه أن أستاذه العظيم أرسطو قد نشر بعض محاضراته . فكتب إليه الإسكندر عاتبا يقول : « عتاب من الإسكندر إلى أرسطو . لم تحسن صنعا أن نشرت بعض محاضراتك فقد كان من الواجب عليك أن تجعلها سرا نباهى به الأمم . ولا أزال أفضل أن تكون لى قوة العلم لا قوة السلاح » .

وعندما علم الإسكندر أن أحد أصدقائه فى أثينا فشل فى إقناع فتاة بالزواج منه . بعث إليه بهذه الرسالة ..

« هناك طريقتان لإقناع الفتاة بأن تكون لك : أن تعطيها الكثير من الهدايا وأن تحبها .. ولا توجد طريقة ثالثة . لأن الناس قد ولدوا أحرارا .. »

وفى إحدى المعارك الكبرى مع الملك دارا تذكر أنه يجب أن يبعث رسالة إلى أحد أصدقائه فى موضوع مضحك . كتب يقول بعد نهاية المعركة : « أعرف أن حصانك ضاع . سيكون لك واحد أفضل منه . وهذا إقرار منى بذلك .. » .

وبعد أن فرغ من هذا الخطاب قال لأحد حراسه : أريد أن أذوق طعم الملك . فقال الحارس : أنت ملك دائما يامولاى .. ولكن الإسكندر قال :

« فقط عندما أستحم بالماء الدافئ .. وأضع العطر وأنظر فى عينى الفتاة التى أحبها وأنام فى أمان .. هذا هو الملك ! » .

وقبل أن يذهب الإسكندر إلى حمامه قال له أحد الضباط : مولاى ... الوقت مناسب للهجوم على الملك دارا .. ليلا ، وكان رد الإسكندر : أيها القائد العظيم إن الإسكندر لا يسرق النصر .. إننى سوف أهزمه نهارا . سوف أجعله يرى نفسه منهارا . ويرانى منتصرا .

وفى بلاد « العراق » أحس الجنود أن هذه هى نهاية العالم . وأنهم تعبوا . وأنهم يحملون الكثير من الهدايا . وأن خيولهم قد تعبت .. وأن بعض الخيول قد ماتت وأنهم يحملون هداياهم ويتساقطون تحتها . وطلبوا إليه أن يعودوا ولكن ليس الإسكندر هو الذى يعود .. وليس هو الرجل الذى يقترح عليه أحد فكرة أو خطة . فإن الإسكندر يحرق كل ما معه من هدايا .. ويفعل الضباط والجنود ذلك .

وكان من عادته أن يعطى الهدايا لكل من حوله .. بشرط أن يطلبوا منه ذلك . لأنه يحب أن تمتد إليه الأيدى . وأن يرى الامتنان فى عيون الجميع .. ولكن واحدا من أصدقائه لم يحصل على هدية . لأنه لم يطلب . وفى مرة كان يلعب مع الإسكندر الكرة .. فصرخ فيه الإسكندر : لماذا لا تعطينى الكرة ؟ وكان رده : ولكنك لم تطلبها منى !

وفهم الإسكندر المعنى الذى يريد . ثم قال له : إننى أريد أن أرى امتنانك أنت أيضا !

نحن الآن فى سنة ٣٢٠ ق.م .. وقد انتصر الإسكندر على الفرس فى معركة أسوس . وجاء المرزبان — أى حاكم المدينة — يعرض عليه عددا من الأميرات .. ولكن الإسكندر قال : الإنسان لا يستطيع أن يكون ملكا على هذا العدد من النساء .. فالنساء يردن الرجل لا الملك !

وأمضى الإسكندر ثلاث سنوات فى هذه الأرض يروح ويجئ .. ولا أحد يعرف بالضبط كيف كان يتحرك .. فلم تكن هناك خريطة معه . وإنما كان يمشى بالسماع . ويتجه تبعا لمعلومات العلماء المرافقين له . وقد أمر الإسكندر ضباطه بأن يرتدوا ملابس الفرس . وأن يعاملوا الناس بالرفق .. ولا ينسوا أنهم أبناء الحضارة الإغريقية .

ومرض الإسكندر .. وطلب الطبيب .. وشكا له .. وقال للطبيب لا أريد أحدا يعرف دائى أو دوائى . فإن كان العلاج ناجحا فانشره على كل الجنود .

وبعد يومين شفى الإسكندر . وجاء الطبيب يستأذن فى إذاعة الدواء ولكن الإسكندر قال : بل أنا الذى سوف أعلن ذلك .. وجمع الضباط وقال لهم : علاجى هو .. الفاكهة .. والنوم العميق .. والنصر !

وكان من عادة الإسكندر أن يملى على المؤرخين المرافقين له بعض ملاحظاته على الحياة والناس . فقال مثلا إنهم هنا فى حاجة إلى نسائنا .. وإلى أفكارنا وإلى حضارتنا ..

ولم يضيع الإسكندر وقته فقد أمر ببناء مدن تحمل اسمه .. بل إن حصانه عندما مات .. وكان الحصان فى الثلاثين من عمره . قد أقام مدينة تحمل اسمه .. وكذلك كلبه أقام له مدينة تحمل اسمه .

ولم يكن جنوده يعرفون أن هذا الشاب قد قرر أن يذهب إلى الهند نهاية الدنيا فى ذلك الوقت . وأن يرى المحيط الذى هو آخر العالم . هكذا قال له العلماء والفلاسفة — إنه يريد أن يلمس بعينيه نهاية العالم ..

وكل ما نعرفه عن رحلات الإسكندر الأكبر أنه اتجه إلى الشمال .. إلى ممر خيبر .. وأنه حاول طويلا أن يمر .. ولكن القبائل هاجمته .. وقتلت الكثير من جنوده .. ولكنه فوجئ بواد صغير .. وفى هذا الواد أناس شعرهم أصفر وعيونهم زرقاء ويعبدون إله الإغريق .. وأنهم تساقطوا راكعين ساجدين

عندما رأوه .. وهناك عشرات الزهرات الإغريقية على أشجار اللبلاب .. وصنعوا منها تيجانا لهم ولقائدهم .. ثم شربوا ورقصوا حتى تعبوا .. أياما طويلة.. وفجأة انهارت الحجارة من قمم الجبال على الإسكندر وجنوده .. وأصر الإسكندر على أن يكون فى مقدمة الذين يتسلقون الجبل .

ثم اشتبك فى معركة دامية مع الملك بوروس . وكان بوروس يعتمد على جيش كبير . وكانت الفيلة تتقدم الجنود . وانتصر الإسكندر — ووقع الملك أسيرا .. واستدعاه الإسكندر قائلا : كيف تتوقع منى أن أعاملك ؟ فأجاب الرجل : كملك طبعا ..

وجعله نائبا له على المملكة الهندية . وتعب الجنود . ونفقت الخيول .. وأصروا على العودة . وصرخوا .. وتظاهروا . ودخل الإسكندر خيمته . وراح يبكى ويتمرغ على الأرض ويقول : ماذا ستقوله الأجيال القادمة عنا إننا انتصرنا معا . وكسبنا لأمتنا ما لم يكسبه أحد منا .

وفى يوليو ٣٢٦ ق.م .. قرر الإسكندر أن يعود من نفس الطريق الذى طوله ١٢ ألف ميل والذى قطعه فى ثمانى سنوات ..

وتوقف الإسكندر عند قبائل تعيش على الأسماك فقط .. أظافرها طويلة وشعورها أيضا .. وبيوتها مصنوعة من المحار وفى عيونهم بريق غريب .. ولكن وجوههم شاحبة وأصواتهم صارخة . ونساءهم جميلات وفى برودة السمك — هذا تعبيره ..

وأنشأ الإسكندر مدينة خامسة تحمل اسمه ..

وانزعج الإسكندر عندما عرف أن بعض فقراء الهنود يعرضون بناتهم للبيع .. أما الطريقة فهى التى أزعجته .. فالفتاة تخلع ملابسها تماما .. وتقف وقد أدارت ظهرها للزبون .. ويقلب الزبون فى جسمها .. ثم يطلب إليها أن تجلس ويقلب فى صدرها .. فإذا أعجبته اشتراها .. ولم تنس له معشوقته تاييس

ماقاله تعليقا على هذا الموقف الشائن .. قال الإسكندر : لو كان من يتزوج يفعل ذلك . لسقطت فى الامتحان أكثر النساء .. والرجال أيضا ..

أما طريق العودة فقد كان أقسى مما يتصور الإسكندر . فالطريق طويل . والجنود مرهقون . والخيول تكسرت . والهدايا ثقيلة . والشعوب تضربهم بالطوب والحجارة والسهام والنبال .. والشمس تكوى الجميع . والعطش يحرقهم ليلا ونهارا . والإسكندر يصر على أن تعسكر قواته بعيدا عن المجارى المائية حتى لا تتلوث المياه بأقدام الرجال والخيول .. والرسائل تروح وتجئ بينه وبين أثينا .. وما يزال الإسكندر يلعن أباه بين قواده لأنه طلق أمه وتزوج امرأة أخرى اسمها كليوبطرة .

وفى إحدى المعارك فى طريق العودة جرح الإسكندر . وانهال أحد الهنود عليه ضربا بالعصا . والتوت ذراع الإسكندر ورقبته . وخرج الجنود يبكون على قائدهم وبعد أيام ظهر لهم سليما .. ولكن جروحه كانت أعمق !

ولم ينس الإسكندر أنه سمع من فيلسوف هندى أنه أعظم الناس فى بلده .. وأنه قد تراجع أمام قواته .. وأنه فى طريق العودة .. وأنه لم ينتصر على آسيا وإنما أفزعها فقط . ولم ينس أحد أصدقائه عندما غضب منه ، أن صارحه بقوله إن الإنسان عندما يكون فى عظمتك وفى قوتك ، يكون وبالا على نفسه وعلى غيره .. والجنود هم الذين يدفعون الثمن عادة !

وفى إحدى الليالى من أبريل ٣٢٣ ق.م . جاء أحد الفلاسفة المرافقين له .. وأتى بجلد حيوان سلخوه وألقى به أمام الإسكندر . ثم وقف بقدميه على جانب منه فارتفع الجانب الآخر . ثم عاد فوقف على الناحية الثانية . فارتفع الطرف الآخر .. ونظر الإسكندر وكان مريضا محموما لا يفيق من الخمر ولا من الحمى . وقال له الإسكندر :

ـ ماذا تريد أن تقول ؟

وهنا قفز الفيلسوف بقدميه فى منتصف الجلد . وبقى بعض الوقت فاعتدل الجلد وظلت أطرافه كلها مرتفعة عن الأرض بدرجة واحدة . وقال للإسكندر :

ـ إذا أنت بقيت فى أطراف مملكتك ثارت عليك .. ولذلك يجب أن تبقى فى منتصف مملكتك .. هنا .. فى بابل !

وكأنما كانت نبوءة .. فقد مات الإسكندر فى بابل يوم ٢٢ أبريل .. فى الثانية والثلاثين من عمره !

نزيل فندق

أبي الثناء

زقاق القناديل

التفوا حوله ، واستحلفوه أن يكتب قصته ، ويحكى حكايته . وانحنى الرجل وقال : أفعل ذلك إن شاء الله . وسجل رحلته الطويلة فى كتاب عنوانه « رسالة اعتبار الناسك ، فى ذكر الآثار الكريمة والمناسك » .

فقد كان الغرض من رحلته أن يؤدى فريضة الحج فى الأراضى المقدسة واستغرقت رحلته الأولى ثلاث سنوات .

بدأها فى فبراير سنة ١١٨٢ وهو فى السابعة والثلاثين من عمره .

أما هذا الرجل المغربى فاسمه بالكامل : أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكنانى الأندلسى الشاطبى البلنسى ، طويل القامة أجش الصوت أزرق العينين ذهبى الشعر ، قال عنه أحد أصدقائه : لو كانت لى عيناه ما أطبقتهما قط .. فهما من آيات الله ! ..

ولكن ابن جبير كان يطبق عينيه كثيرا حتى لا يرى ما يؤذى إيمانه . حتى إنه عندما رأى زفافا فى الشام ضبط نفسه معجبا بمشية العروس فاستعاذ بالله من الفتنة ، وأغمض عينيه ولم يكمل وصف الزفاف ! .

وعندما كان فى مكة سمع عن أميرة من الأميرات أنها تخرج ليلا ، وقال الناس لابد أنها قد غضبت مع زوجها وراحت تبحث عن غيره ، وقال آخرون بل ذهبت تتصدق على الفقراء واستعاذ ابن جبير من سوء الظن ، ولم يكمل سماع قصة الأميرة من أحد !

أما الذى ملأ عينيه فى الدنيا كلها فالمساجد والمقابر والأضرحة .. وجمال الطبيعة وهولها أيضا !

ولو سئل ابن جبير عن العذاب فى الدنيا ما معناه لقال : إنه البحر وركوب البحر وموج البحر .. والسفن الشراعية !

فى رحلته الكثير عن وصف الموج والعواصف وسقوط أشرعة المراكب والخوف من الضياع فى الليل والنهار وقد استغرقت الرحلة من الشاطئ الأسبانى إلى الاسكندرية ثلاثين يوما وقد توقفت السفينة الشراعية عند جزيرة صقلية وكان ابن جبير فى رحلته يدعو للمدن التى يراها أو يدعو «عليها» .. فيقول : أعادها الله أو أبادها الله .. أو أبادها الله وأعادها ، وهو كثير الدعاء لكل الناس بأن يغفر لهم الله أو يعفو عنهم أو يهديهم سواء السبيل .

وكانت الرحلة مؤلمة مفزعة حتى مياه الاسكندرية ..

ولو سئل ابن جبير بعد خروجه من ميناء الاسكندرية إن كان العذاب معناه ركوب البحر ، لقال بل العذاب هو الجمارك !

فى ميناء الاسكندرية — فى ذلك الوقت أيضا — جاء رجال الميناء وفتشوا الركاب ، ومدوا أيديهم إلى ملابسهم ، وإلى ما معهم من متاع .. ثم أتوا بالمصحف ، واستحلفوهم إن كان لديهم شئ آخر ويقول ابن جبير « وضاعت أشياء كثيرة ، ثم أطلق سراحهم بعد موقف من الذل والخزى العظيم » ..

ويرى ابن جبير أن صلاح الدين الأيوبى ذلك الحاكم العادل لا يعرف ماذا يجرى فى ميناء الاسكندرية . ولو عرف لقضى على هذا الهوان !

وكانت الاسكندرية رائعة فى عينه .. بيوتها فوق الأرض وتحت الأرض والمياه تصل إلى كل الآبار ، ومن أهم معالم الاسكندرية المدارس والمحارس — أى بيوت المغتربين ، وفيها الكثير من المستشفيات ، وفيها ألوف المساجد ويقول «من الغريب أيضا فى أحوال هذا البلد تصرف الناس فيه بالليل كتصرفهم

بالنهار فى جميع أحوالهم ، .. أى يناموت نهارا كما ينامون ليلا ويعملون ليلا ونهارا .. »

وفى الطريق إلى القاهرة توقف لصلاة الجمعة فى مسجد بمدينة طندته — طنطا — وكان الخطيب فصيحا ، وأروع ما أعجبه فى الطريق مدينة قليوب فأسواقها جميلة وبها مسجد كبير ..

أما القاهرة فقد أذهلته لكثرة مبانيها ومساجدها وشوارعها ونيلها الواسع ، وهداه المغاربة إلى فندق جميل أقام فى غرفة فوق الباب والفندق اسمه « أبى الثناء » فى زقاق القناديل ..

ولم يفته طبعا أن يزور مسجد الحسين حيث وضع رأس الحسين بن على بن أبى طالب فى تابوت من الفضة مدفون تحت الأرض .

أما عجائب الدنيا كلها فقد وضعها المصريون فى « القرافة » أو الجبانة « ففيها قبور الأنبياء وأهل السنة والصحابة والتابعين والعلماء والأولياء ذوى الكرامات الشهيرة والأنباء الغريبة .. فيها قبور النبى صالح وروبيل بن يعقوب وآسيا امرأة فرعون » .

وقد أعجب ابن جبير بمستشفى المجانين ، ففيه غرف نظيفة وأسرة وفيرة ، وفيه خدام يسهرون على هؤلاء المرضى ..

ورأى أهرامات الجيزة ، ويقول « للناس فى أمرها اختلاف : فمنهم من يجعلها قبورا لعاد وبنيه ومنهم من يزعم غير ذلك .. وبالجملة فلا يعلم شأنها إلا الله عز وجل » .

وعلى مسافة « غلوة » — أى قصيرة — من الأهرام يوجد « أبو الأهوال — أى أبو الهول ..

ولا نهاية لما قاله ابن جبير عن مساجد القاهرة وقلاعها .. ولكن من

الأشياء العجيبة التى رآها ابن جبير سور « العجوزة » . أو العجوزة ... وقد سمع فى مصر أن العجوزة هذه قد حكمت مصر وأنها جعلت حولها سورا يمتد من القاهرة إلى أسوان .. ولم يبق من هذا السور إلا جزء ضئيل ، والباقى تحول إلى رمال الصحراء ! !

وحكاية « العجوزة » هذه أنه عندما غرق فرعون فى البحر الأحمر هو وجيوشه .. لم يبق فى مصر فى ذلك الوقت غير الخدم والعبيد والنساء والأطفال ، وخاف الجميع على مصر ، ورفضوا أن يولوا عليهم خادما أو عبدا أو طفلا يحميهم ، وإنما اختاروا سيدة اسمها « دلوكة » .. هذه السيدة كانت عجوزا قد جاوزت المائة عام ، حكمت مصر ، وأقامت حولها هذا السور الذى أحاط بها من كل جهاتها .. أما مصر فقد حماها الله !

وركب زورقا فى النيل فى طريقه إلى قنا ومنها إلى ساحل البحر الأحمر إلى الحجاز ، ولكن أشنع ما رأى فى النيل : هجوم بعض رجال الأمن على المسافرين ، فتشوهم ، أدخلوا السكاكين فى أمتعتهم ، فتساقط الأرز والقمح وقد انزعج ابن جبير لما حدث .. ورأى فى ذلك شيئا شنيعا وقال : كيف يفعلون ذلك والله قد نهى عن التجسس . !

ويؤكد ابن جبير أن الملك صلاح الدين يستحيل أن يعرف هذا الذى يجرى فى بلاده .. لأنه رجل عادل .

أما مدينة قنا فقد أعجبت ابن جبير وهذا الإعجاب هو مقياس للقيم الأخلاقية والدينية عنده . يقول : « مدينة قنا من مدن الصعيد .. بيضاء أنيقة المنظر ذات مبان جميلة ، ومن مآثرها المأثورة صون نساء أهلها والتزامهن البيوت ، فلا يظهرن فى زقاق من أزقتها وكذلك نساء مدينة دشنة » .

وبعد ابن جبير بمئات السنين جاء الكاتب الفرنسى جوستاف فلوبير وأقام فى مدينة قنا وأعجب بها وبلياليها الساحرة حيث الغناء والطرب والحظ ..

وعبر البحر إلى الأراضى المقدسة . ولو سئل ابن جبير إن كان العذاب معناه رجال الجمارك لقال : بل الحج هو العذاب نفسه ! ..

فقد رأى من الهو'ن والأهوال ما لا يستطيع أن يصفه ، فالجو حار .. والصحراء مؤلمة وموجعة .. وهى الضياع لكل أجنبى .. وفى الطريق إلى مكة يتعرض الحجاج للصوص يخطفون ويسرقون ويقتلون . . وسمع من الناس أن خير الطرق إلى الأراضى المقدسة أن يدخلها الناس من ناحية بغداد فى حمى أمرائها .

يقول عن الأراضى المقدسة : حسبك من بلد كل شئ فيه مجلوب حتى الماء والعطش أشهى إلى النفس من الماء . فأقمنا بين هواء يذيب الأجسام وماء يشغل المعدة عن اشتهاء الطعام ، والشاعر يقول : ماء زعاف وجو كله لهب ..

ولم يعجبه الناس ، لا حياتهم ولا أسلوبهم ، ولا معاملتهم للذين جاءوا من أقصى الأرض .. وقال ابن جبير ليريح نفسه : « لا إسلام إلا ببلاد المغرب لأنهم على جادة صحيحة ، وما سوى ذلك مما بهذه الجهات الشرقية فأهواء وبدع ، وفرق ضالة وشيع .. إلا من عصم الله ! » .

ولكن هذا العذاب يهون أمام مكة والمدينة .. فمن أجل مكة والمدينة ركب البحر والنيل والصحراء وجف ريقه واشتعل صدره ونام على الأرض وأكل ما لا يحب .. وفى طريقه إلى مكة يقول : « دخلت مكة .. والبدر قد ألقى على البسيطة شعاعه ، والليل قد كشف عنا قناعه ، والأصوات تصك الآذان بالتلبية فى كل مكان » .

وفى مكة ذاب ابن جبير فى الأماكن المقدسة ، صلى وبكى ، وصلى وحمد الله ودعا للمسلمين بالنصر ، ودعا لصلاح الدين وكل الأمراء بتقوى الله ورأى كل شعوب الأرض حول الكعبة وحول زمزم ..

ولم يسعد بطعام أكله مثل سعادته بالبطيخ ، فلم يكن قد ذاقه من قبل فهو مبهور بطعمه ورائحته ، بل إن الإنسان ليأكل البطيخ ورائحته الجميلة تسبقه .. أما البلح الرطب فهو « فى غاية الطيب واللذاذة » ..

ورغم انشغال ابن جبير بالأماكن المقدسة وبالنظر إلى الناس والاستماع إلى كل ما يقال حوله ، فإنه انفجر ضاحكا مرة واحدة فى كل هذه الرحلة .. وذلك عندما جاء الوفد اليمنى لأداء العمرة .. فهم يأتون إلى هذه البلاد يبيعون ما معهم من طعام ويشترون به الملابس ، لأنهم يجيئون عراة ، وصفهم ابن جبير فيقول : « عرب صرحاء فصحاء حفاة أصحاء ، لم تسدهم الرقة الحضرية ، ولا هذبتهم السير المدنية ، ولا سددت مقاصدهم السنن الشرعية ، فلا تجد لديهم من أعمال العبادات سوى صدق النية » ..

وهم يشدون أنفسهم بسلسلة واحدة حول الكعبة ، فإذا تعثر واحد منهم سقط الباقون فوقه ، وإذا التفوا حول الكعبة واستلموا الحجر الأسود فلن يستطيع إنسان أن يقترب لا من الكعبة ولا من الحجر ، وهم لا يحسنون الصلاة .. بل إنهم يسجدون دون ركوع .. وإذا سجدوا فهم ينقرون الأرض . ثم يرفعون رؤوسهم . ويتكلمون أثناء الصلاة ، ثم يعاودون السلام .. ولكنهم يبكون فتتمزق القلوب لما يقولون ، ويقال إن النبى عليه الصلاة والسلام قال : علموهم الصلاة يعلموكم الدعاء .. وقال أيضا : الإيمان يمان — أى الإيمان فى اليمن !

وقد سقطوا حول الكعبة ، فضحك ابن جبير لأول مرة ! .

ولم يسترح ابن جبير لإقامته فى بغداد . فقد رأى المدينة خرابا . لم يبق فيها غير هذا الاسم ، أما الناس فكرههم جميعا ، وحكم عليهم بعنف . فيقول : « أما أهل بغداد فلا تكاد تلقى منهم إلا من يتصنع بالتواضع رياء ، وتذهب بنفسه عجبا وكبرياء ، يحتقرون الغرباء ، ويظهرون لمن دونهم الأنفة والإباء .. ويستصغرون عمن سواهم الأحاديث والأنباء ، وقد تصور

كل منهم فى معتقده وخلده ، أن الوجود كله يصغر بالإضافة لبلده ، فهم لا يحبون فى الدنيا أرضا غير أرضهم ، كأنهم لا يعتقدون أن لله بلادا أو عبادا سواهم .. » .

وعندما سافر إلى الشام ، أعجبته مدينة حمص ، وسأل واحدا من أهلها هل عندكم مارستان — أى مستشفى ؟ وكان رد الرجل : إن حمص كلها مارستان ! .

ولم يفهم النكتة ولذلك لم يضحك !

أما حفلة الزفاف التى رآها فقد أعجبته لأنها مختلفة عن زفاف المسلمين فأهل العروسين يقفون صفين ، وتجئ العروس وقد لبست فستان الزفاف الشفاف ، ومن ورائها فتيات جميلات وعلى رأس العروس تاج من الذهب ..— والعروس تمشى تتبختر — والعياذ بالله — ولم يكمل ابن جبير الفرجة على حفلة الزفاف ، فالذى رآه هزه وحركه .. إنه الشيطان فى ثوب الزفاف ، ولم تعجبه « الآلات اللهوية » — أى الموسيقى ! .

ويعود ابن جبير إلى البحر الهائج المائج . . وإلى السفينة الشراعية التى انكسرت أكثر من مرة ، وصرخ الناس واستعاذوا بالله ، ومضت السفينة لا أحد يدرى أين ترسو..قالوا فى مصر ..وقالوا فى إيطاليا.. وقالوا بل قد ضاعت تماما .. ولكن السفينة بعد أيام طويلة أليمة رست فى ميناء على ساحل صقليه .. وهناك رأى جبل النار — أى البركان المعروف الآن باسم استرومبولى ، وهو يقذف الحمم فى البحر .. وفى هذه الجزيرة يعيش عدد كبير من المسلمين وهناك ملك اسمه غليام — أو غليوم الطيب ، وهو يعتمد على المسلمين فى كل شئ .. فى حراسته وفى مطبخه ..

واتجهت السفينة إلى الأندلس .. وعاد ابن جبير إلى الرحلات مرتين بعد ذلك .. وفى المرة الثالثة توفى سنة ١٢١٧ فى مدينة الاسكندرية .

ولو سئل ابن جبير الآن ألا يزال العذاب عندك معناه الحج ، لقال : أن يموت الإنسان فى الاسكندرية !

فلم يمش فى جنازته إلا رجل واحد جاء يستعجله أن يدفع ما عليه .. لقد كان أحد رجال الجمارك ! ..

خيط الحرير ...
الذى
طوله عشرون سنة !

لم تكن الفتاة الصغيرة تعنى أى شئ عندما أشارت إلى البحر وهى تتحدث إليه . . فلا هى طلبت إليه أن ينتحر ولا أن يركب السفينة إلى أى مكان فى العالم . . ولا قصدت الفتاة أن يبحث له عن مكان آخر بعيد عن قلبها كأن يذهب إلى الصين مثلا . . ثم إنه إذا لم يعجبها فهناك عشرات الفتيات يعجبن به . . لا هى فكرت فى هذا كله ، ولا هو ولكن غضب الفتاة عند الرجل الإيطالى معناه غضب الدنيا . . فالشاعر دانتى كره الحياة والآخرة لأن محبوبته بياتريتشه قد هجرته . . والشاعر الإيطالى بترارکه قد أبکى الدنيا لأن حبيبته لورا لم تأت فى موعدها . . وكذلك الفنان العظيم بوكاتشيو . . ولو كانت ليلى تزوجت المجنون لاستراح الاثنان . . وما كان هذا الشعر الجميل . . ولا كانت ملحمة دانتى ولا روائع بترارکه . . ولا سافر هذا الفتى الإيطالى « ماركو بولو » من مدينة البندقية إلى آخر الدنيا . . وكان آخر الدنيا فى ذلك الوقت هو بلاد الصين . .

فلم يكد ماركو بولو يسمع القصص التى رواها أبوه وعمه اللذان جاءا من الهند والصين وكان فى الخامسة عشرة من عمره حتى قرر أن يسافر معهما . وربما كان ماركو بولو هو أول شاب فى التاريخ قرر أن يتزوج من أية فتاة أخرى ، ويأخذها معه إلى أقاصى الأرض . . ولكن الأب ضحك وهو يقول له : صحيح أن الطريق اسمه خيط الحرير . . ولكن هذا الخيط من نار . . محرق . . قاتل . . كأنه أفعى ناعم ولكنه مهلك . . تعال وحدك . . فلا مكان للنساء إذا أردت الشهرة والمال !

وبدأت الرحلة الطويلة فى سنة ١٢٧١ من مدينة البندقية إلى عكا وكان الأب يؤكد لابنه : سوف تنسى . . سوف تنساها . . ففى الدنيا ما هو أجمل وأفضل . . وسوف ترى العجائب . . سوف تنسى !

ومن مدينة عكا اتجهوا مرة أخرى إلى تركيا . . إلى أرمينيا . . إلى بلاد الفرس . . إلى بخارى وسمرقند . . ثم إلى الهند وبلاد المغول والصين — هذه الكلمات استغرقت سطرين . . ولكن آل بولو قطعوها فى عشرين عاماً ذهاباً وإياباً . .

وفى الليل ، كل ليلة كان ماركو بولو يطلب إلى والده وعمه أن يرويا له شيئاً مما رأى الاثنان ومما سيرى هو . . وقد سمع منهما عن القوافل التى تذهب بالعطور والذهب والحرير وتجارة الرقيق . . واللصوص يقطعون الطريق والرقاب أيضاً . . والثلاثة معاً هم أول أبناء أوروبا الذين سافروا إلى هذه الأماكن النائية من العالم القديم . . ولكن ماركو بولو لا ينسى أبداً هذه الفتاة كارلينا التى رفضته وهى تعلم أنه وحيد . . فأبوه فى الصين وأمه ماتت قبل عودته بأيام . . ولكن الفتاة الإيطالية رفضت أن تتزوج شاباً هجم عليها فى الطريق وعانقها بالقوة . . إهانة لم تغفرها له ! (وهذا ما فعله مواطن آخر بعد ذلك بستة قرون : موسولينى !) .

وكان الفتى ماركو بولو شديد الملاحظة . ولكنه لم يكن مثقفاً . فلا تقرأ له كلاما عن الأدب أو الفن أو الفلسفة فى هذه البلاد . . ولكنه يسجل فقط ما رأى . . ويقول إن هذا رآه بنفسه ، أو سمع عنه . . فمثلا عندما ذهب إلى أرمينيا مر بالقرب من جبل أرارات الذى استقرت عليه سفينة نوح . . قال إن أناساً رأوا السفينة عند قمة هذا الجبل . . وأنها ما تزال هناك — (والذى رواه ماركو بولو قد قاله قبل ذلك المؤرخ اليهودى يوسيفوس . . وظل الناس يعتقدون فى ذلك حتى هذا القرن . . ولكن حدث فى سنة ١٨٢٩ أن ذهب البروفيسور باروت وتسلق أرارت وارتفاعه ١٦ ألف قدم ولم يجد هذه

السفينة . . ولكن عاد العلماء يشككون فى أنه وصل إلى القمة . . وحاول آخرون . . واستخدمت طائرة هليكوبتر فى رؤية القمة عن قرب . . ولكن السحب الكثيفة والجليد والعواصف منعت الطائرة من رؤية شىء بوضوح . . والكثيرون يؤمنون بأن سفينة نوح أو جزءاً منها ما يزال هناك !)

وماركو بولو هو أول أوروبى مر بمدينة باكو ورأى آبار البترول . . ووصفها وصفاً مضحكاً لأنه ساذج ، فهو يقول : الزيت لونه أسود بنى ويشتعل دائماً . . وهو لا يستخدم فى الطعام . . وإنما يستخدمه الناس فى دهان الجمال والحمير . . ويقولون إنه مفيد للبشرة . .

ومن القصص التى سمعها ماركو بولو ، وهو فى طريقه إلى الصين ، أن القائد المغولى هولاكو قد جاء إلى مدينة بغداد وأهلكها وأهلها . . وأن الخليفة المستنصر قد حاول — يائساً — أن يقف فى وجه هولاكو . . ولكنه لم يكن يعرف معنى أن يكون الإنسان قائداً مغولياً . . ويقال إن حوارا دار بين هولاكو والخليفة . . قال هولاكو : هذا الذهب الذى جمعته لماذا لم تعلم به شعبك كيف يقاوم الغزاة ؟ . . ولم يرد الخليفة . . ويقال إن هولاكو أدخله فى خزائنه الذهبية وتركه حتى يموت . . ويقال إن هولاكو أذاب الذهب وأمره أن يشربه فمات . . ويقال إنه وضعه فى سجادة ولفها حوله . . ثم ربطها . . ودحرجه حتى الموت !

***

وكانت وجهة الثلاثة هى الصين . . حيث الخاقان — ملك الملوك فقد أكرم الأب والعم . . وطلب إليهما أن يعودا . . وكان هذا الخاقان — أوكو بلاى خان — محباً للأوروبيين . . وكان مثقفاً . . وكان من أمنياته أن يستعين برجال الدين المسيحيين ليقاوم رجال الدين البوذيين . . كان يريد أن يستخدم سحرا آخر . . ولذلك طلب من آل بولو أن يأتوا له بالمبشرين من المسيحيين . . وحملهم أمانة الاتصال بالبابا . . ولكن البابا مات . . ومعهم رسائل تؤكد أنه مات وأن البابا الجديد لم يتم اختياره بعد .

وفى طريقهم قاطعهم اللصوص . . وقتلوا بعضهم . . وسرقوا ما معهم وأسروا بعض الخدم . . وباعوهم . . ولم يبق من قافلة آل بولو سوى سبعة أشخاص .

ومن الغريب أن ماركو بولو كان يعتقد أن هؤلاء اللصوص يستخدمون السجن فى إثارة الغبار والضباب . . فقد لاحظ أن هؤلاء اللصوص خلقوا ضباباً لا وجود له . . هذا الضباب أخفاهم . . وهربوا . . وكانت لدى اللصوص القدرة على تبديد الضباب أيضاً . . بالأمر يروح وبالأمر يجيء . . وشئ من هذا قاله المؤرخون بعد ذلك فى سنة ١٧٦٢ عندما قامت حرب أهلية بالقرب من مدينة بخارى (أزبكستان السوفيتية الآن) . . فقد استخدمت القوات التى هاجمت المدينة السحر الأسود فى خلق ضباب جاف ؟!

وفى الطريق كان ماركو بولو يسمع قصصا عن هولاكو وجنكيز خان وتيمور لنك والإسكندر الأكبر .. إن هؤلاء الأربعة قد ملأوا الطريق دما ودمارا — فخيط الحرير ، ليس خيطا ولا حريرا .. إنه خيط الموت والأشباح !

وسمع ماركو بولو عن قصة الشجرة المقدسة التى وقف تحتها الإسكندر الأكبر ويقال إن هذه الشجرة لها قدرة عجيبة على قراءة ما يدور فى رأس من يقف تحتها ويقال إن الإسكندر سأل الشجرة بصوت مرتفع : قولى لى يا شجرة هل سأكون ملك الملوك وأعود سالما إلى وطنى ؟ وأجابت الشجرة ؛ : نعم .. و .. لا .. ستكون ملك الملوك .. ولن تعود إلى وطنك !

ومات الإسكندر قبل أن يصل إلى وطنه !

وسألها ماركو بولو : هل سأكسب المال وأتزوج كارلينا . وقالت الشجرة نعم .. و.. لا .. ستكسب المال ولكن لن تتزوج هذه الفتاة !

ورأى ماركو بولو الجنة التى صنعتها جماعة من الإسماعيلية فى جنوب بحر قزوين .. جنة ،، أشجار وأنهار .. وطيور مغردة .. والناس يرتدون الملابس البيضاء .. ويتعاطون الحشيش . وسمع ماركو بولو أن لهذه الجماعة رجلا اسمه

« شيخ الجبل » . هذا الرجل يطعمهم ويسقيهم ويمتعهم ثم يأمرهم بأن يقتلوا أى إنسان .. فيقتلونه .. اسمهم الحشاشون .. (وقد قتلوا بعد ذلك شاه إيران والوزير الأكبر فى مصر واثنين من الخلفاء فى بغداد وقتلوا كونراد ملك القدس . وعندما ذهب كونت شامبانيا أيام الحروب الصليبية قابل شيخ الجبل . وأطلعه الشيخ على الجنة . ثم أشار إلى شابين يرتديان الملابس البيضاء قد جلسا على حافة إحدى القلاع . فارتمى الشابان على الأرض . وماتا فورا — إنها الطاعة العمياء ! ومن عادة شيخ الجبل أن يأتى بأتباعه ويعطيهم الحشيش وينقلهم إلى هذه الجنة يأكلون ويشربون ويغنون مع النساء ويرقصون : وفجأة يلقى بهم خارج الأسوار . فإذا أفاقوا وجدوا أنفسهم على أرض الحقيقة المؤلمة . وهنا يقول لهم شيخ الجبل : إذا أردتم دخول الجنة فاقتلوا فلانا . ويقتلون فلانا ويعود بهم إلى الجنة !

أما الطريق الذى سار فيه آل بولو فطوله ثلاثة آلاف كيلو متر . وهم يقطعون منه عشرة كيلو مترات فى اليوم الواحد ولذلك استغرقوا سنة فى الذهاب واستخدموا الثيران فى نقل متاعهم والخيول فى نقلهم ، والبغال فى نقل أتباعهم وخدمهم !

وكان عليهم أن يمروا بصحراء جوبى . صحراء جافة عارية تماما ملتهبة . وكان ماركو بولو يعتقد أن هذه الصحراء مليئة بالعفاريت . يكفى أن واحدا من أية قافلة يتخلف عنهم ليضيع إلى الأبد . وهو يضيع لأن أشباحا تظهر له . وهذه الأشباح تحدثه وتستدرجه إلى طريق آخر . ومن الغريب أنه رأى جيوشا وطبولا ومعارك لا وجود لها .. ثم أنه استمع إلى موسيقى غريبة قادمة من أماكن متفرقة فى هذا الطريق . ولكنه خاف أن يروى ما يفزعه لوالده وعمه . وقبل ماركو بولو وصف لنا الرحالة الصينى « فاه ين » صحراء جوبى هذه بأنها مليئة بالعفاريت .

ولابد أن الخوف هو الذى صور له هذه الأيام الثقيلة . فالجو حار جدا .

والطيور الجارحة فى كل مكان . وفى الطاريق بقايا أجساد إنسانية . ولابد أنه السراب أيضا . الذى ساعد على هذه المخاوف الصوتية والضوئية معا ! — ثم لا ننسى أنه أوروبى وحيد وأنهم فى العصور الوسطى .. وأنهم بقعة بيضاء تتحرك فى محيط من الناس الصفر !

وأخيرا وصلوا جميعا إلى بكين ..

وقدم الأب بولو ابنه ماركو بولو إلى الخاقان . وعلم الابن أن يسجد وأن يقبل الأرض بين يدى الخاقان . وفعل . ولكن الإنجليز بعد ذلك بمئات السنين ضاقوا بهذه العادة فاخترعوا المخدة التى يضعها كل إنسان تحت جبهته عندما يسجد للملك الملوك .. ثم اخترعوا أن يركع الإنسان ويحنى رأسه على صدره .. ثم الرجوع فقط .. ثم الانحناء وهم واقفون !

وفرح الخاقان بالابن . وأعجب به واندهش كيف أنه استطاع أن يتكلم اللغة المغولية بهذه السرعة . وقرر الخاقان أن يلتحق الابن بالعمل فى البلاط الملكى . وتردد الابن لحظة . لكنه أبدى سعادته . وأما سبب تردده فقد قاله لوالده عند العودة إلى البندقية . فقد سمع الابن من أحد العرافين فى الهند أنه سوف يدخل السجن . ولذلك كان شديد الخوف من أية مسئولية !

ولم ينس ماركو بولو أن يتحدث عن المغول . انه معجب بشجاعتهم وخفتهم . ولكنه لا يحب إسرافهم فى الزينة . وتعليق ما لديهم من الذهب على ملابسهم . وهم فى نفس الوقت لا يستحمون مدى الحياة . فهم يعتقدون أن الإنسان عندما ينزل النهر ، فإنه يغضب أرواح النهر . ولذلك لا يستحمون أما إذا طالت رحلاتهم على ظهور الخيل ، فإن الواحد منهم يأتى بسيفه ويضرب شريانا فى جسم الحصان ثم يشرب دمه .. وهذا يرويه !

الأوربيون بعد ذلك معذورون عندما لم يصدقوا كل ما رواه ماركو بولو . فهو يحدثهم عن أشياء عجيبة . ولذلك أطلقوا عليه اسم : ماركو المليونير — أى ماركو صاحب المليون حكاية !

فقد حدثهم عن استخدام العفاريت فى تحريك أدوات الطعام . لأنه رأى بعينه كيف أن الأطباق والأكواب تطير دون أن يمسها أحد . ورأى قطع الشطرنج تتحرك ويطرد بعضها البعض دون أن يقترب أحد منها .. ورأى الأطباق الفارغة تمتلىء ثم تقترب من يدى الخاقان .. (حدث فى أيام شارل التاسع فى فرنسا أن جاء الساحر سيزار ماليتسو وحرك الأطباق الموجودة على المائدة دون أن يمسها وبعد ماركو بولو بسبعين عاما روى لنا ابن بطوطة فى رحلته كيف أنه رأى رجلا مرفوعا فى الهواء .. وكيف أنه رأى حبلا مرفوعا فى الهواء . . وكيف أن طفلا تسلق هذا الحبل هاربا من أبيه . وكيف أن الأب طارده ومعه السكين . واختفى الاثنان . وتساقطت ذراعا الطفل وساقاه .. وأخيرا رأسه وهو ينزف دما . ثم نزل الأب وجمع هذه الأطراف وغطاها ونهض الطفل !)

وصفحات كثيرة يروى فيها ماركو بولو إعجابه الشديد بالخاقان . أو على الأصح يبادله الإعجاب . وهو لم يرفى كل ما فعله الخاقان عيبا . فمثلا عندما ينتقل الخاقان من قصره الصيفى إلى قصره الشتوى ، يرشون الطريق كله بلبن الحمير إرضاء لأرواح الأرض . وينتقل الخاقان فى غرفة من الخشب تجرها أربعة فيلة والغرفة مطعمة بالذهب . وكانت للخاقان أربع زوجات، ومئات من الخدم .

ويروى لنا فى الفصل الخامس عشر من كتابه الذى أصدره فى جزءين : كيف أنه أصبح موظفا فى القصر الإمبراطورى . وكيف أنه أصبح قادرا على التحدث باللغات الفارسية والمغولية والعربية . ثم كيف عينه ملك الملوك قنصلا سنة ١٢٧٧ .

ومن الحكايات التى أفزعت ماركو بولو قصة الوزير الذى اسمه أحمد هذا الوزير قد رشحته إحدى زوجات الخاقان . فقد كان جميلا مهذبا رقيقا . وقد أحبه الخاقان . وترك له كل السلطات يفعل بها وبه ما يشاء . وتضايقت حاشية الخاقان . ولكن أحمد لا يعبأ بشئ . وتكاثرت الشكايات ولكن الخاقان لا يسمع . ولا يصدق ما يسمع . وأخيرا سافر الإمبراطور . وعلم

ماركو بولو بمؤامرة على حياة أحمد ولكنه لم يتدخل . إنه يخاف من السجن . وفى إحدى الليالى جاء اثنان عند منتصف الليل إلى الوزير أحمد يقولان له إن ولى العهد قد عاد فجأة . وأنه يريد أن يراه . وخرج أحمد للقاء الأمير . ولكن الحراس رفضوا إدخاله لأن الأمير لم يصل . ولكنه أصر على دخول قصر ولى العهد . ودخل إلى إحدى الغرف وكان الضوء شاحبا ولم ير بوضوح إن كان الجالس أمامه أمير أو أى إنسان آخر .. وسجد أحمد وقبل الأرض وأحنى رأسه ينتظر أوامر الأمير . وتقدم أحد المتآمرين وأطاح برأسه !

وانكشفت المؤامرة . وقتل الخاقان مئات من رجال القصر !

ومن عجائب الدنيا التى اندهش لها ماركو بولو ولم يفهمها : العملات الورقية كيف يبيع الإنسان الذهب مقابل هذه الأوراق . أو كيف يشترى بها أى شئ .. وعلى الرغم من أن ماركو بولو من أسرة من التجار الناجحين ، فإن عقله لم يستطع أن يفهم معنى هذه الأوراق المالية وأنها « تعهدات » بالدفع . وهو معذور لأن هذه العملات لم تكن مستخدمة فى أوروبا فى ذلك الوقت .. وإن كان الإمبراطور فريدريش الثانى قد استخدم عملات من الجلد .

وأعجب جدا بنظام البريد فى الصين . وكيف أنهم يستخدمون الخيول لمسافة معينة . ثم يغيرون الخيول وهكذا — وكيف أنهم استخدموا الحمام الزاجل أيضا . (وإن التاريخ يؤكد لنا أن العرب هم أول من استخدم الحمام الزاجل بدلا من الطائرات فى كل شئ . ومن أشهر حوادث التاريخ أن الخليفة العزيز قد طلب إلى الوزير الأكبر فى بعلبك بلبنان أن يبعث له بعض حبات الكرز . فأتى الوزير بحبات الكرز ووضع كل حبة فى كيس من الحرير وعلقه فى ساق حمامة من الحمام الزاجل .. وأرسل للخليفة سربا يضم ٦٠٠ حمامة ! وفوجئ الخليفة قبل أن يتناول طعام العشاء بأن الفاكهة قد وصلت من لبنان !)

وقابل ماركو بولو رجلا تاجرا اسمه محمد ذو الفقار وكان هذا الرجل

مشرفا على مناجم الفحم . ومسئولاً عن صناعة الحرير . وكان مأخوذا بدقة الخيوط التى لا تقبل الاحتراق !

ومن أهم الأعمال التى كلفه بها الخاقان أن يقود عشرين سفينة إلى جزيرة سيلان . ووصلت السفن إلى شواطئ الجزيرة . وسأل ملك الجزيرة عن سبب وجود هذه السفن ورد ماركو بولو بأنه سيعرف بعد أيام . فقد كان من عادة الخاقان أن يبعث رجاله فى مهمة لا يعرفونها ومعهم الأوامر . ولكن هذه الأوامر لا يطلعون عليها إلا بعد أن يصلوا إلى المكان الذى عينه لهم . ويفتح ماركو بولو صندوقا به الأوامر الإمبراطورية . وكان الأمر : أحضر لى أسنان بوذا وخصلة من شعره ووعاء الطعام الذى كان يتناوله !

وكانت هذه المخلفات جميعا قد احتفظ بها ملك سيلان . ويقال إنه زيف بعضها وباعها للملك سيام . ثم باعها مرة أخرى لماركو بولو . واندهش ماركو كيف أن بوذا له أسنان فيل !! وكان رد ملك سيلان أن بوذا قد حل فى أجسام كثيرة : جسم فيل .. ثم جسم إنسان .. وأنه عندما مات كان فى جسم فيل ولذلك فأسنانه أسنان فيل ..

ويبدو أن ماركو بولو قد سافر من مدينة كالومبو — العاصمة الآن — إلى مدينة كاندى — التى كان يسكنها أحمد عرابى باشا ولايزال بيته فيها حتى الآن — هناك فوجد مخلفات بوذا فى إحدى القلاع . ولكن ماركو بولو حدثنا فقط عن « قمة آدم » أو جبل آدم — وقد رأيته أنا عندما سافرت إلى جزيرة سيلان سنة ١٩٥٩ . أما الجبل ففى أعلاه بحيرة . ويقال إن هذه البحيرة هى الأثر الباقى لقدم آدم عندما وطئها لأول مرة !

أما سعادة الخاقان فلا توصف — كما يقول ماركو بولو . فقد عرض هذه المخلفات على الشعب . ووقف الناس طوابير طويلة يرونها . والطبول تدق . والموسيقى تملأ الشوارع . ويزداد حب الناس للإمبراطور . ويزداد ضيق الناس

برجال الدين الذين أكدوا لهم أنهم هم الذين استخدموا السحر فى الحصول على المخلفات الأصلية وليست الزائفة !

ومات هذا الخاقان بعد ذلك !

وكانت صدمة لآل بولو . وبعد شهور من وفاة الخاقان جاء خاقان جديد وتقدم الثلاثة يطلبون الإذن فى العودة إلى بلادهم . وقال الأب بولو إن له زوجة وأولادا لم يرهم . وهو كاذب طبعا فقد ماتت زوجته . وليس له غير هذا الابن . ولكن الخاقان الجديد رفض . وقال لهم : إن كان الذهب أعطيتكم أكثر وإن كانت الزوجة فهنا كثيرات . وبالاختصار : لا .. ولكن كلمة « لا » فى الشرق لا تعنى هذا المعنى . ولذلك عاد الثلاثة يطلبون العودة . ووافق الملك . — وودعهم وأعطاهم الهدايا من الذهب والأحجار الكريمة وبكت نساء القصر ورجاله على فراقهم . وطلب إليهم أن يأخذوا عروسا معهم لأحد أقاربه من الحكام فى فارس . بعد أن ماتت زوجته . وكانت العروس فى السابعةعشرة من عمرها .

وكانت العودة بطريق البحر فى يناير سنة ١٢٩٢ . ومنحهم الخاقان الجديد لوحات من الذهب الخالص مكتوبا عليها الإذن بالسفر وضرورة تأمينهم طول الطريق . وبعث معهم هدايا ورسائل إلى البابا وملوك فرنسا وأسبانيا والجلترا .. ثم أعطاهم ١٤ سفينة بها ٦٠٠ رجل . وعندما وصلت بعض هذه السفن إلى منطقة الخليج كان عددهم جميعا ١٨ نسمة !

وعندما وصلوا إلى أرض فارس كان الحاكم الذى حملوا له العروس قد مات عن ٧١ عاما ، بسبب إسرافه فى تعاطى السوائل المقوية جنسيا . وأعطوا العروس ووصيفتها لابنه .. وبكت العروس عند وداع ماركو بولو فقد أنقذ حياتها أكثر من مرة .

وفى سنة ١٢٩٥ وصلوا جميعا إلى مدينة البندقية ، أى بعد أكثر من عشرين عاما . ويقال إنهم دقوا باب البيت. ولكن أحدا لم يعرفهم . ويقال إنهم اضطروا

أن يخلعوا ملابسهم المغولية . وعرفهم أهل البيت . وتحدثت المدينة عن ثرائهم وتلفت الأب والعم عبثا عن ماركو بولو . لقد اختفى يبحث عن فتاته . وبعد لحظات عاد حزينا . لقد ماتت الفتاة بعد سفره .. لقد ألقت بنفسها فى الماء حزنا وندما على أنها رفضته زوجا لها . من يدرى فربما لو تزوجها ما كانت هذه الرحلة !

.. وتحققت نبوءة الشجرة ..

وبعد سنة من الإقامة فى البندقية دارت معركة بحرية بين سفن جنوده المعادية لمملكة البندقية . وتولى ماركو بولو قيادة سفن البندقية . ووقع أسيرا ... ودخل السجن . — وتحققت نبوءة العراف الهندى .

وفى السجن لقى أديبا اسمه روستيكللو أملى عليه مذكراته هذه . وكتبها هذا الأديب بلغة إيطالية بها كثير من العبارات الفرنسية . واستغرقت عملية الإملاء هذه ثلاث سنوات . خرج بعدها ماركو بولو ومعه هذا الكتاب وأعطاه للناس يقرؤونه ويتداولونه حتى كادت سطوره أن تتلاشى .. وعاش ماركو بولو بعد ذلك ربع قرن لا نعرف عن حياته شيئاً !

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب قد امتلأ بكثير من الخوارق ، وأن بعض العلماء قد شكك فى قيمتها ، فقد ظل المرجع الجغرافى الوحيد لكثير من المدن مئات السنين !

ولهذا الكتاب مقدمة وجهها ماركو بولو إلى الحكام ورؤساء الدول يقول لهم فيها : إن السفر هو أعظم متعة فى الدنيا .. وإنه من الخير للحكام والرؤساء وللإنسانية أن يسافروا وأن يفتحوا الأبواب لغيرهم لكى يسافروا أيضا !

تحفة النظار
في غرائب الامصار
وعجائب الأسفار!

كان هذا الشاب أكثر اهتماما بالناس . ومعه حق . فالدنيا من صنع الناس . ملابسهم تدل عليهم . وطعامهم وشرابهم ، ومعاملتهم لضيوفهم ولنسائهم ، وحيواناتهم .. إنه يختلف عن الرحالة الأندلسى ابن جبير الذى كان أكثر اهتماما بالمدن والمساجد . إن هذا الشاب أبو عبد الله بن إبراهيم اللواتى – نسبة إلى قبيلة لواته إحدى قبائل البربر – المعروف بابن بطوطة والملقب بشمس الدين (١٣٠٤ – ١٣٧٧) .

فقد كان فى الثانية والعشرين من عمره عندما بدأ أطول رحلة قام بها الإنسان فى العصور القديمة . طولها ٧٥ ألف ميل و٢٩ عاما تزوج فيها ٢٣ مرة وأنجب سبعين ولدا وبنتا .

ولقد ولد ابن بطوطة فى مدينة طنجة متدينا متفقها شديد الرغبة فى المعرفة وفى السفر . أى فى المعرفة عن طريق السفر . قرأ رحلات ابن جبير وتأثر بها ونقل عنها أيضا .. بدأ رحلته بالسفر إلى الأراضى المقدسة . ومن الغريب أن رجلا تنبأ له بأنه يعبر البحر الأحمر من الشاطئ المصرى .. وأنه سوف يحج عن طريق الشام . وقد حدث له ذلك ..

ورحلات ابن بطوطة متعة حقيقية . فكلها حكايات ونوادر وخرافات سمعها وصدقها . أو لم يتسع وقته لكى يتحقق منها . ولكنه ينقلها دائما كما هى .

فمثلا فى مصر سمع عن رجل اسمه الشيخ جمال الدين بن الساوى من دمياط جميل جدا . هامت به النساء . بعثت سيدة من دمياط بخادمتها تقول له إنها تلقت خطابا من ابنها وتريده أن يقرأه لها وحاول الشيخ ثم طلبت

إليه أن يفعل ذلك بالقرب من باب البيت حتى تسمع الأم صوته ، وذهب الشيخ وتقدمت الخادمات وهجمن عليه . وكتفته السيدة . ولكن الرجل لم يستطع وأخيرا طلب إليهن أن يدخل دورة المياه . وحلق لحيته وشاربه وشعره وحاجبه وخرج كأنه قرد .. وهربت النساء منه !

ويقول ابن بطوطة إن هذا الشيخ جمال الدين كان يستطيع أن يأتى بلحية سوداء أو بيضاء كما يحلو له !

ويقول ابن بطوطة إنه كان فى الطريق إلى جزيرة سيلان عندما شاهد البحارة جزيرة صغيرة انزعجوا منها . فلم يكن ذلك فى حسابهم . وكانت الريح ترميهم على الجزيرة .. وفجأة اكتشفوا أن هذه الجزيرة ليست إلا طائرا ضخما اسمه : الرخ .. ومن الغريب أن البحارة راحوا يصلون ويبكون وكل واحد منهم ينذر لله أن يتصدق بكذا وكذا . والناس فى حالة من الفزع الرهيب . ولكن ابن بطوطة كان مشغولا بتسجيل المبالغ التى نذرها البحارة !

وعندما جاء ابن بطوطة إلى الإسكندرية سمع عن أحد المصريين أنه استطاع أن يتسلق عمود السوارى عاريا . والتف الناس حوله فى دهشة كيف استطاع . ويقول ابن بطوطة لابد أنه لف حوله حبلا وعقده ثم تسلل إلى أعلاه . وسحب الحبل وأخفاه ليضاعف دهشة الناس . أو أن هذا الرجل فقير يريد حسنة من الناس أو يريد أن يلفت إليه العيون (فعلت ذلك فى لندن الراقصة المصرية دولت سليمان عندما صعدت عارية تمثال نلسون سنة ١٩٥٧ !)

ويروى ابن بطوطة أنه سمع فى مدينة بخارى أن رجلا طيبا مؤمنا اسمه أدهم الزاهد قد وجد تفاحة فى مجرى النهر . فأكلها . ثم ذهب يسأل عن صاحب البستان القريب الذى جاءت منه . وعرف أن صاحب البستان سيدة فقالت له : هذا البستان أملكه أنا والسلطان وأنا نزلت لك عن حقى فى التفاحة. فاذهب إلى السلطان وبحث عن السلطان . وعرف أنه على مسافة بعيدة . فذهب إليه . وحكى له ما حدث . وأعجب به السلطان . وزوجه ابنته .

وظل هذا الرجل الطيب بعيدا عن الزوجة تسعة أيام يصلى . وعندما طلب الإذن بالسفر قرر السلطان ألا يتركه حتى يبيت مع ابنته فى فراش واحد . وفعل ومات ..

وقصص أخرى ونوادر كثيرة الواحدة بعد الأخرى فى مئات الصفحات فرحلة ابن بطوطة رحلة فى عادات الناس وتقاليدهم .. وهو يصف لك الطعام وكيف يصنعونه والشراب وكيف يعصرونه . ثم يحدثك عن شجرة « القات » ويسميها شجرة التنبول ويقول إنها تقوى الذهن وتملأ النفس بالحيوية الجنسية .

وكان لابن بطوطة طريقة معروفة فى كل البلاد التى يذهب إليها إنه يسأل عن القاضى : السلام عليكم — وعليكم السلام .. أنا فلان قادم من الغرب فى طريقى إلى مكة والمدينة .. أو كنت فى مكة والمدينة . ويكون الجواب : أهلا وسهلا .. ضيفا علينا ثلاثة أيام . ويقول ابن بطوطة : إن معى عددا كبيرا من الأتباع والخدم والدواب ويقول القاضى أو السلطان : كلهم ضيوفى !

ولا يجد ابن بطوطة حرجا فى أن يقول له : ولكن هناك مشكلة بسيطة .

ويقول المضيف : بسيطة إن شاء الله .

— إننى مدين لفلان بعشرين ألف دينار .

— ويقول المضيف ندفعها عنك بإذن الله !

وهكذا فى كل رحلة ابن بطوطة التى استغرقت أكثر من تسعة آلاف يوم لم يدفع فيها مليما واحدا من جيبه .. وإنما هو بلطفه وظرفه وبراعته ينقل الفلوس من جيوب السلاطين والقضاة إلى أكراش التجار . فى إحدى المرات فى الهند ، كان مدينا بمبلغ خمسين ألف دينار . فنظم فى السلطان قصيدة سخيفة . السلطان لا يعرف العربية . إنه يعرف اللغة الأردية فقط . وأمسك السلطان بطرف القصيدة وأمسك ابن بطوطة بالطرف الآخر . ثم طلب إلى المترجم

أن ينقلها له بأمانة . ولم يهتز السلطان . وحزن ابن بطوطه . وأخيرا قرر السلطان. أن يصرف له هذا المبلغ . ولكن الطريق بين قرارات السلطان والخزانة طويل جدا ولابد أن يعطى هو أيضا مما أعطاه السلطان !

وفى أكثر من مرة كان يدعى المرض وعندما يسأل عنه السلطان يقول : قلبي يوجعنى يامولاى !

ويشير ابن بطوطه إلى جيبه !

وكان ابن بطوطه يعمل قاضيا للمسلمين فى كل البلاد التى ذهب إليها وكان إذا سمع عن شئ غريب . طلب أن يراه أو يكون قريبا منه . كانت حياته كلها من أجل السفر ومن أجل أن يرى أكثر ليروى للناس بعد ذلك . وإذا وجد الطريق صعبا أو مليئا باللصوص طلب من الله أن ينقذ البشرية من هؤلاء السفاكين ليتقارب الناس أكثر ..

وكان ابن بطوطه يتزوج فى كل مكان يحل به . ثم يطلق زوجته . أو يقول لها إذا لم أعد بعد سنة فأنت حرة وتزوج كثيرا جدا . ولابد أن الحياء هو الذى منعه من أن يقول رأيه فى أشكال وألوان النساء اللائى عاشرهن وإن كان قد صرح بذلك فى أكثر من مكان . فقد وصف بنات الفرس بأنهن جميلات وأنهن أقدر نساء العالم على « التفنن فى حركات العشق » . أما الزوجات فى جذر المالديف — ذيبة المهل كما يسميها — فقد حاول أن يقنعهن بتناول الطعام معه فرفضن . لابد أن يأكلن بمفردهن !

وحاول ابن بطوطه أن يصلح فهم الشريعة الإسلامية فى كل البلاد التى ذهب إليها . فقد انزعج مرة عندما سمع صوت أجراس الكنيسة أعلى من صوت المؤذن .. وطلب من المصلين أن يصعدوا إلى الجامع وأن يرفعوا أصواتهم بالدعاء !

وعندما علم أن نساء جزر المالديف يمشين عاريات الصدر منعهن .

ولم يفعلن . ولكنه منع أية واحدة تقف أمامه إلا إذا غطت صدرها !

وكان من عادة المسلمين فى الهند إذا طلق الرجل زوجته أن تبقى فى بيته حتى تجد لها زوجا آخر . وحرم ذلك . وأطلق سراح المطلقات . وضرب الرجال وفضحهم فى الشوارع . وكان يحكم بقطع يد السارق !

وفى الهند رأى عجائب الدنيا .. ولاتزال هذه العجائب تنتقل من القرن الرابع عشر حتى يومنا هذا .. دون أن يناقشها أحد .. أو يدعى كثير من الناس أنهم رأوها . فهو أول من وصف لنا الرجل الذى يرتفع تلقائيا فوق الأرض .. ثم يرتفع حذاء إلى أعلى رأسه ويضربه .. وينزل الرجل إلى الأرض ![1]

وهو الذى يصف قصة الفيلة التى قتلت أصحابها .. فقد حدث أن جماعة ذبحوا فيلا وأكلوه . وناموا . وجاءت الفيلة تشمشم فيهم ليلا . وتقتل كل من فى فمه رائحة لحم الفيل .. إلا رجلا واحدا .. حملته الفيلة على ظهورها . وكان رجلا صالحا !

ويقول ابن بطوطة إنه رأى فى جزر المالديف نساء لهن ثدى واحد !

وسمع عن شجرة تسقط منها ورقة واحدة كل سنة . فى الخريف . هذه الورقة مكتوب عليها : لا إله إلا الله .. وينتظرها الناس كل سنة . ويقتسمونها مع السلطان ونصفها يكفى لعلاج الناس جميعا !

وهو أول من حدثنا عن حجر أسود وقع من السماء . أتوا له بهذا الحجر حاولوا تكسيره . . فلم يستطيعوا . فوضعوه فى مكانه !

وضحكت — ولم يضحك ابن بطوطة — عندما زار مدينة البصرة . فوجد أمام المسجد رجلا يخطئ فى النحو والصرف . واندهش كيف يحدث ذلك

(١) راجع كتابى « الذين هبطوا من السماء » .

فى المدينة التى ولد فيها أبو النحو : سيبويه ! (حدث لى ذلك أيضا عندما ذهبت مع وفود الأدباء والشعراء . ولاحظت أن الكوبرى الذى يصل بين المدينة والمدينة الجامعية مكتوب عليه . الكوبرى حمولة ١٢ طن — وليس ١٢ طنا . وكتبت مقالا أفضح فيه هذه الغلطة الفظيعة فى مدينة النحو . وأصلحوا هذا الخطأ !) .

وابن بطوطة قوى الملاحظة ، وشديد الذكاء . ولذلك يخطئ كثيرا . فمثلا عندما رأى قواقع اللؤلؤ . قال إن هذه القواقع إذا أخرجوها من الماء . ثم مزقوها . فإن قطع اللحم هذه ، إذا تعرضت للهواء ، تجمدت وتحولت إلى هذا اللؤلؤ الجميل — إنه لم يعرف أن اللؤلؤ إنما يتكون فى أحشاء هذه الحيوانات الصغيرة سنوات طويلة تحت الماء !

وقد تأثر ابن بطوطه بالحياة فى جزر المالديف . وقد تزوج هناك أربع سيدات معا . وكانت له خادمات أيضا ومن عادة أهل الجزر هناك وعددها ألف جزيرة ، أن العروس تفرش الطريق إلى بيت العريس بالقماش . ثم تنتظره عند الباب فإذا جاء ألقت بثوبها على قدميه . وكذلك يفعلون مع الذين يحترمونهم من الناس . أما كيف دخل الإسلام إلى هذه الجزر النائية المتناثرة فى المحيط الهندى . فابن بطوطه يقول إن أهل الجزر كانوا يتوقعون مجئ أحد العفاريت مرة كل شهر والعفريت يجئ فى سفينة مضاءة أما أهل الجزر فيعدون له فتاة عذراء وجميلة — مثل عروس النيل — ويضعونها فى إحدى القلاع وتبيت معه حتى الصباح .. وفى الصباح لا تكون عذراء .. ويقال إن رجلا اسمه أبو البركات البربرى من المغرب جاء إلى هذه الجزر . وسمع بهذه القصة وانزعج . وفى يوم وجد سيدة عجوزا تبكى . وسألها . فقالت :

ابنتى الوحيدة عليها الدور ! فقال لها أبو البركات : لا تحزنى – سأذهب بدلا منها .

وذهب الشيخ أبو البركات إلى القلعة . وظل يصلى طول الليل .. حتى طلع النهار . وجاء أهـــل الجزر يتسلمون الفتاة تمهيدا لقتلها وحرقها بعد ذلك فوجدوا الشيخ أبو البركات وفى الشهر التالى تكرر ذلك .. وآمن أهل الجزر بدين الإسلام . ولا يزال للشيخ أبو البركات قبر يزار فى جـــزر المـالديف .

وعندما عاد ابن بطوطة من هذه الرحلات الطويلة كان يجلس إلى الناس ويحكى لهم ما رأى . وخاف السلطان أبو عنان من أمراء بنى مدين أن تضيع هذه النوادر . فطلب إلى ابن بطوطة أن يمليها . وأتى له بكاتب اسمه ابن جزى الكلبى . وأملاها عليه ونشرت بعنوان « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » . وفى كثير من الأحيان يضيف ابن جزى فقرات من عنده . وكان ابن بطوطة ينتقد أيضا .

وأجمل صفحات هذه الرحلة ما كتبه ابن بطوطه عن نفسه . عن عذابه هو . فعندما وقع فى الأسر . هنا فقط يتحول ابن بطوطه إلى إنسان رقيق بليغ إنه يصف عذابه وهوانه على الناس . وكيف سجنوه ليقتلوه . ثم ربطوه بالحبال . وكيف أن الرجل المكلف بقتله كانت عينه على ملابس ابن بطوطه فأعطاها له . وارتدى ملابسه الممزقة . ثم هرب إلى الحقول والغابات ونام فى البيوت المهجورة مع الثعابين والفئران . وكيف أنه عندماأوى إلى أحد البيوت لاحظ أن طائرا يرفرف فقال : لعله خائف . وهكذا تجمعنا خائفين فى مكان واحد .. ثم كيف أن أحدا حمله على عنقه .. فقد كان مرهقا . وكيف أنه تصور أن هذا الذى حمله اختفى . لا يعرف إلى أين .. صفحات من أرق وأعمق ما كتب ابن بطوطه !

ومرة أخرى عندما ثار لكرامته فى جزر المـالديف . هنا تحس أنه رقيق

ولكنه فى الوقت المناسب قاطع كالسيف ! ولا يرجع عن قراره حتّى إذا انحنى السلاطين عند قدميه — وقد فعلوا . ولكنه لم يرجع !

ويظهر التعب والملل واضحا على ابن بطوطه عندما نقلته السفينة من جزر المالديف إلى جزيرة سيلان ومعه إحدى زوجاته وأمها . فقد رأى جزيرة صغيرة . رفى الجزيرة شجرة واحدة . وغربان وزورق . ورجل وزوجته وأولاده . لا أحد غير ذلك . والبحر هادئ . والشمس حانية . والنسيم صحى . والهدوء تام . هنا .. تمنى ابن بطوطة أن تكون له هذه الجزيرة وحده ويعيش فيها حتّى الموت !

زهب يبحث عن الهند
فوجد أمريكا ...
أكبر غلطة

فى إحدى حانات مدينة جنوه الإيطالية يجلس عدد من الرجال ومعهم سيدة جميلة . يشربون ويغنون . وفى آخر الليل يغمزون لها أن تستدعى ذلك الشاب الحزين المأخوذ الذى ينظر فى السقف . ويجئ الشاب ويقتربون منه ..

وبعد أن يرفض أن يشرب أو يضحك يقولون له : وتريد أن تكون ملكا؟
ويكون جوابه : سأكون ملكا !

ويقولون له : قل لنا يا ملك والكنوز التى سوف تعثر عليها ماذا ستفعل بها ؟

ويكون جوابه بنفس الجدية وعيناه هذه المرة إلى وجوههم وعيونهم الحمراء : سأقتسمها مع الدولة .

ويقتربون منه أكثر ويسألون : وتدعونا جميعا إلى أن نشرب فى صحبتك؟
ويرد بسرعة كأنه يصدق ما يقولون : بل أدعوكم إلى أن نسافر معا إلى أرض جديدة .. ومن المؤكد أننى سأجدها !

ويخرج الشاب إلى الشارع .. إلى الشاطئ .. وعند الشاطئ يجلس فى زورق صغير ويظل ينظر فى السماء حتى يغلبه النوم . فإذا طلع النهار عاد إلى بيته لينام ..

وكان أبوه يعرف ذلك .. فلا يسأله عن شئ . وكل ما يفعله الأب هو أن يلقى إليه ببعض النسيج . فقد كان أبوه نساجا .

ثم ينبه إلى ضرورة أن يفرغ من عمله فى أسرع وقت ، وأن يحلم فيما بعد

ولكن لم يعرف التاريخ رجلا عاش حالما طول الوقت مثل هذا الشاب خريستوف كولمبوس الذى تسلطت عليه فكرة غريبة عجيبة . أنه وحده هو الذى سوف يكتشف بلاد الهند والصين . لقد قرأ الكثير : وسمع القصص والنوادر والخرافات التى امتلأت بها المدائن الإيطالية والأسبانية والبرتغالية . وقرأ رحلة ماركو بولو الإيطالى الذى سجن فى مدينة جنوه . وسمع عن المجرمين الذين هربوا من سجون البرتغال واختفوا فى إحدى جزر المحيط الأطلسى .. بعيدا عن كل العيون .. وسمع قصة الراهب الذى ركب زورقا واختفى فى الشاطئ حيث لا يدرى به أحد . وسمع قصة بلقيس ملكة سبأ التى قيل عنها إنها عبرت المحيط ووصلت إلى اليابان وقرأ عن العرب الذين سافروا إلى الشاطئ الآخر من المحيط ، وعن كثيرين جدا .. ذهبوا ولم يعودوا ..

وقد عرض كولمبوس فكرته الجنونية هذه على حكومة جنوه فسخروا منه . وسافر إلى اليونان وإلى شمال أوروبا .. وكره بلاده .. وأقسم ألا يتكلم الإيطالية وألا يكتب بها ، بل أنه غير اسمه تماما . وجعله : كريستوبال كولون . وكذلك فعل إخوته .. ووقف فى زورق خارج مدينة جنوه وبصق عليها . (بعد ذلك بمئات السنين فعل ماركونى نفس الشئ . عندما عرض اختراعه اللاسلكى على حكومته فهزت له كتفيها فسافر إلى انجلترا) .

وسافر كولومبس إلى البرتغال . إلى لشبونة . حيث كان الناس بحارة وكلهم أبطال . وعندهم مغامرات . وروى فكرته فى أن يذهب إلى الهند والصين عن طريق المحيط – أى يذهب إلى الشرق عن طريق الغرب . وفى مدينة لشبونة عرف إحدى الفتيات. أعجب بها . عرض عليها الزواج . وافقت. اشترط أن تهديه إلى قصر الملك . الصدفة وحدها هى التى هدته إلى هذه الفتاة . فإحدى قريباتها تعمل فى البلاط الملكى . استطاع أن يقترب من الملك يوحنا الثانى . لعرض فكرته . نظر الملك إلى هذا الشاب الإيطالى المؤمن تماما بمشروعه . نظر إلى الخرائط التى رسمها فى يده. سأله : من الذى رسمها ؟ فأجاب كولومبوس : أنا .

ثم طلب إليه الملك أن ينتظر بعض الوقت ..

وكان البحار دياز يلف حول أفريقيا يريد أن يكتشف طريقا آخر إلى الهند . ولذلك لم يكن ملك البرتغال متحمسا لمشروع كولمبوس .

ولم يطق كولمبوس صبرا . فهو يريد أن ينفذ مشروعه . فقد قرأ فى الكتاب المقدس أن العالم سوف ينتهى سنة ١٦٦٥ (؟!) وقرأ أيضا فى سفر أشعياء (الإصحاح الحادى عشر الآيتان العاشرة والحادية عشرة) أنه هو وحده الذى سوف ينقذ العالم . وأنه هو الذى سينقل البشرية إلى الشاطئ الآخر . أو هكذا فهم !

والآيتان تقولان: «ويكون فى ذلك أن أصل (يسى) القائم رأيه للشعوب . إياه تطلب الأمم ويكون محله مجدا . ويكون فى ذلك اليوم أن السيد يعيد يده ثانية ليقتنى بقية شعبه التى بقيت من آشور ومن مصر .. ومن جزائر البحر » .

وآمن كولمبوس أنه هو المقصود . ولذلك كان يمشى ويأكل ويشرب وينام وهذه الكلمات ترن فى أذنيه .. كان يعيش كأنه منوم تنويما مغناطيسيا . لا يعرف الضحك . ولا يعرف المشاركة فى أى نوع من أنواع الحياة الاجتماعية . وليست لديه إلا قصة واحدة : اكتشاف الهند . وعندما تزوج لأول مرة : قال لعروسه : وفى استطاعتك أن تحتملى جنونى . قالت نعم ..

وحاولت أن تجعله يعدل عن الجنون . ولكنها لم تستطع . وبعد أن ماتت هذه الزوجة الغنية اختار عشيقة له . كانت مهمة هذه العشيقة أن توقظه طول الليل لتقول له : أريد أن أنام .. اسكت .. لقد سمعت هذه القصة ألف مرة !

ولكنه لا يتعب من تكرارها .. ذهب إلى الملك فردناند والملكة إيزابيلا ملكى أسبانيا . قدم مشروعه . نشر خريطته أمامهما كأنها طائر أبيض ذبيح تحمس الاثنان . استدعيا رجال البلاط والخبراء . ناقشوه . اقتنعوا بأنه مجنون

اعتذروا . ولكن الملكة تأثرت لمنظره : طويل عريض . ذهبى الشعر أزرق العينين شديد البياض . له أنف صقر . لا يضحك . ولا يحب الضحك . وقررت الملكة أن تحتفظ به بعض الوقت . واعطته معاشا لمدة سنتين . وبعد ذلك تخلت عنه فعرف الجوع والمرض والتضور . وكان لا يخرج من البيت حتى لا تتسلل الأمطار إلى ملابسه وحذائه . وأصابه النقرس . وشاب شعره فى سن مبكرة . وأرسل أخاه إلى شارل السابع ملك فرنسا . ثم أرسله إلى هنرى الرابع ملك انجلترا . واعتذر الواحد بعد الآخر ..

ذهب كولمبوس على ظهر بغل ليأتى بابنه الذى تركه فى أحد الأديرة فى جنوب فرنسا . دق الباب . خرج له أحد الرهبان . فقال له كولمبوس : أريد ثلاثة أشياء . هل هذا ممكن ، وقال الراهب : ممكن ياولدى ! قال كولمبوس : لقمة عيش .. وولدى الذى تركته هنا منذ سنتين .. ونصف ساعة من وقتك بعد ذلك !

وفى نصف الساعة روى له كولمبوس مشروعه الخيالى . واقتنع الراهب وأرسل خطابا إلى الملكة إيزابيلا ورجاها أن تستمع إليه .. وبعد أسبوعين جاء الرد من الملكة بأنها سوف تستمع إلى كولمبوس .

وذهب كولمبوس يعرض مشروعه مرة أخرى على مسمع من الملكة ورجال البلاط ورجال الدين والعلماء والمنجمين . وكان كولمبوس كأنه « وسيط » روحانى يتحدث بصوت إنسان آخر .. ووافقت الملكة على المشروع . ونظرت إلى وجه كولمبوس . ولكن الوجه جامد . لا سعادة . لا فرح . لا امتنان . وسألته ماذا تريد بعد ذلك ؟ فقال كولمبوس : ننتقل إلى الشروط .

ودهش الحاضرون . ولكن الملكة قالت له برفق : وما هى شروطك ! ؟

قال : أن أعين أميرا للمحيط ونائبا للملك وحاكما على الأرض التى سأكتشفها وأن آخذ عشر إيرادها وثروتها وكنوزها .

ورفضت الملكة المشروع والشروط معا .

وقال كولمبوس : شكرا لأنك استمعت إلى .. وخرج كولمبوس وركب بغلته واتجه إلى الشمال . لا أحد يعرف بالضبط إلى أين . ولكن وزير الخزانة قال للملكة يامولاتى . إننا لن نخسر شيئا . هذا الرجل إما أن يكون مجنونا أو عبقريا . فإذا كان مجنونا فهذه مغامرة . وإذا كان عبقريا وأنا أؤمن بذلك فسوف يضيف إلينا أرضا جديدة .. وعددا هائلا من الهنود يدخلون الديانة المسيحية .. إنه مجد لأسبانيا ! وإذا لم توافقى على تمويل هذا المشروع فأنا على استعداد أن أموله على حسابى !

واستدعت الملكة كولمبوس لتنهى رحلة العذاب والهوان التى استغرقت من عمره عشرين عاما !

ومنحته مبلغ خمسة آلاف جنيه :

وقالوا لها : هذا كثير !

(خمسة آلاف جنيه أدت إلى اكتشاف أمريكا كلها . ! ولذلك فالأموال التى تنفقها أمريكا وروسيا على سفن الفضاء ليست كثيرة إذا ما قورنت بالفوائد الفلكية والعلمية التى سيهتدى إليها الإنسان بعد ذلك !)

واقترض كولمبوس بضع مئات من الجنيهات .

وأعدت له الملكة أسطولا من ثلاث سفن هى : سانتا ماريا (حمولة مائة طن) ورجالها خمسون . ونينيا (٥٠ طنا) ورجالها ثلاثون . وبنتا وحمولتها (٤٠ طنا) ورجالها ٢٤ .

وفى يوم ٣ أغسطس ١٤٩٢ بدأت الرحلة من الشاطئ الأسبانى إلى المجهول مارة بجزر كنارى — فى هذا اليوم بالضبط قررت حكومة أسبانيا طرد اليهود جميعا من البلاد !!

وكان على ظهر سفينة القيادة عدد من الموظفين الرسميين . وكان كولمبوس

حريصا على كل مظاهر الرياسة . وشديد التمسك بحقوقه . وكان يطلب إلى كل الرجال أن يعاملوه كأميرال ونائب للملك . وتوقفت السفينة عند جزر كنارى بعد أن انكسرت إحدى السفن .

وبعد جزر كنارى اتجه كولمبوس إلى المجهول . انه يمشى فى طريق لا يعرفه أحد . لم يعبره أحد . فكل ما عنده قصص وخرافات . وفى أعماقه إيمان بأنه هو الذى سوف يهتدى إلى الأرض الجديدة . إن الأقدار قد اختارته والدليل على ذلك أنه غرق فى المحيط وأنقذته إحدى الصخور الصغيرة .. وأنه وحده هو الذى يسمع صوتا واضحا يهتف فى أعماقه . وأنه هو وحده الذى يتجه إلى الهند عن طريق الجنوب لا عن طريق الشمال .

وبدأ البحارة يشعرون بالخوف . فقد كانت الطيور تطمئنهم . إن هذه الطيور دليل على أن الأرض قريبة . ولكن الأيام طالت وطالت . والليل يجئ ويروح .. والرياح يتغير اتجاهها وأشرعة السفن الصغيرة تتمزق . وفجأة لم تعد البوصلة تتجه إلى الشمال .. إنها تتوقف .. وفجأة تعالى صوت أحد البحارة : الأرض .. الأرض .. ولم تكن أرضا . وإنما هى سحابة كثيفة جاثمة على صدر المحيط .. وفجأة ظهرت أعشاب بحرية كثيفة تعوق سير السفن .

وفى يوم ٢٥ سبتمبر سنة ١٤٩٢ صرخ أحد البحارة : الأرض ! .. الأرض ولم تكن أرضا . وإنما هى هم . أو تعب . أو سحب .. أو أسماك تلمع فى الماء فيظن البحارة أنها مشاعل فى أيدى الهنود .. ورغم ذلك فإن البحارة أقاموا الصلاة . وراحوا يبتهلون لله .. وينشدون معا : حفظ الله الملكة ..

وطلع النهار . ولم يجدوا الأرض ..

وفى يوم ١٠ أكتوبر قرر البحارة التمرد على هذا الرجل المجنون كولمبوس وأعلنوا أنه لابد من العودة .. واستدعاهم كولمبوس وقال إنه سوف يعطى معاشا سنويا ضخما لأول من يرى الأرض .. ثم قال لهم : إذا لم تظهر الأرض بعد ثلاثة أيام بالضبط فسوف نعود إلى أسبانيا !

وهدأ المتمردون ومن العجيب أن الأرض ظهرت بعد يومين . أما كيف أعلن كولمبوس ذلك وفى يقين . فلابد أن يكون السبب هو أنه رأى بعض الطيور البحرية تتجه إلى الجنوب . ولابد أن أغصان الأشجار العائمة والتى التقط منها واحدا هى التى شجعته على ذلك .. ولابد أن قطعة الخشب المحترقة هى التى أكدت له أنه قريب من الشاطئ .. وفى الساعة الثانية من صباح يوم ١٢ أكتوبر صرخ أحد البحارة : الأرض .. الأرض ..

وكانت الأرض الجديدة بعد ٣٢ يوما من السفر من جزر كنارى . وطلب إليهم كولمبوس أن يصلوا وأن «يعترفوا وأن يتناولوا» ونزلوا إلى الأرض . وغرسوا علم أسبانيا وارتدى كولمبوس ملابس الأميرال ونائب الملك وأعلن أن هذه الأرض ملك لأسبانيا وأنه هو حاكمها .. وانتهت بذلك الخرافات والقصص والنوادر التى أعلنتها الشعوب مئات السنين عن الشاطئ الآخر للمحيط الأطلسى . انتهى ما جاء فى كتاب « صور الدنيا » للكاتب بيير وايلى .. انتهت كل الألغاز والرموز التى جاءت فى الكتب المقدسة عن الظلمات وبحر الظلمات .. وما يكتبه يوحنا الدمشقى ..

وكان الفيلسوف أرسطو يعتقد : أن المسافة بين أسبانيا وبين الهند – أى الجانب الآخر من المحيط الأطلسى – قريبة جدا ..

وكان الفيلسوف سنيكا يقول : إذا كانت الريح ملائمة أمكن عبور المحيط فى أيام !

ولم يحدث فى التاريخ أن استطاع إنسان بمعلومات خاطئة فى الجغرافيا والفلك أن يكتشف عالما جديدا . فكولمبوس إنسان غير مثقف . وإنما عنده تجارب وعنده بعض القراءات وإيمان لا حد له .. فهو حتى الموت كان يحلم بلقاء الخاقان الذى تحدث عنه ؟ ماركو بولو .. وتلك الكنوز من الذهب والماس . فى بلاد الصين !

وبعد اكتشاف كولمبوس للأرض الجديدة ، أصبحت الأرض الجديدة فى متناول كل بحار مغامر .. وتوالت اكتشافات الجزر الكثيرة . بل إن بعض بحارة كولمبوس اكتشفوا البرازيل .

أما أول أرض نزل بها كولمبوس فهى إحدى جزر بها ماس وقد أطلق عليها اسم : سان سلفادور ..

وكان سعيدا عندما رأى « الهنود » ووصفهم فى مذكراته : أنهم أناس فى غاية الرقة . عراة . وبلا سلاح .

وأول ما لفت نظر كولمبوس هو الذهب الذى فى صدور وآذان النساء . وحاول أن يعرف منهم أين يوجد هذا الذهب . فأشاروا إلى أنه فى الجنوب فى جزيرة كولبا أى كوبا .

ورأى الأوروبيون لأول مرة أن الهنود يلفون أوراقا صغيرة ويشعلونها من حافتها ثم يضعونها فى أنوفهم ويدخنونها — إنها السجائر !

وبعد ذلك كل شئ مكرر . فكولمبوس أثبت أن هناك طريقا . وأن الطريق قد بلغ نهايته .. وبعد ذلك تسابقت كل الدول !

وعاد كولمبوس إلى أسبانيا ..

واستقبلوه استقبال الفاتحين . ارتدى ملابس الأميرال ونائب الملك .. كان يسوق أمامه عددا من الهنود الحمر .. والناس يتفرجون على الرجل الذى أنكره كل الناس وسخروا منه .. إنها إذن لحظة النصر العظيم على الشقاء والتعاسة والجوع والسخرية ..

وأجلسته الملكة إلى جوارها ..

ولكن الذين لا يتحمسون فى بلاد الملوك وما أكثرهم . نظروا بنصف عين إلى هذه الثروات التى حملها معه . لم تكن شيئا هاما . أما الهنود الحمر فقد آمن كولمبوس أنها فرصة لتجارة الرقيق وفى استطاعة أسبانيا أن تكسب من ورائها الملايين .. ثم إنه أتى ببعض الببغاوات . وأتى ببعض الثمار والفلفل الأحمر واللبان وجوز الهند – إن الرحلة ليست كسبا كبيرا !

ولذلك قام كولمبوس بثلاث رحلات أخرى . الثانية استغرقت ما بين ١٤٩٣ و ١٤٩٦ والرحلة الثالثة فيما بين ١٤٩٨ و ١٥٠٠ والرحلة الرابعة والأخيرة فيما بين ١٥٠٢ و ١٥٠٤ . وعين أخوه حاكما على إحدى الجزر .

ولم يكن كولمبوس خبيرا بفن الإدارة أو الحكم . وقد انشغل عنه الملك والملكة تماما . وهان أمر اكتشافه على أوروبا كلها . فقد تسابقت الدول إلى اكتشاف أراض جديدة .

وطالب كولمبوس الملكة بأن تفى بما وعدت به . ولكنها اعتذرت لأنه ليس من المعقول أن يتقاضى كولمبوس عشر ثروات أسبانيا !

ثم ان كولمبوس نفسه شخص لا يطاق . فهو عصبى عنيف . وفى غاية القسوة والمرارة . فعندما قرر العودة إلى أسبانيا ترك وراءه أربعين من رجاله قتلهم الهنود .. وحدث وهو فى الطريق أن قامت عاصفة. فجمع البحارة وقال لهم : من الذى اكتشف الهند ؟ قالوا له : أنت ..

– من هو أميرال المحيط وملك أسبانيا ؟

– أنت ..

– من هو الذى اختارته السماء ؟

– أنت !

وهنا أمسك كولمبوس قطعة من الجلد وكتب عليها أنه هو وحده لا شريك

له قد اكتشف الهند والصين وأنه سيد البحار . ثم وضع قطعة فى زجاجة وألقى بها فى المحيط !

وعندما وصل البحارة مع كولمبوس رووا للملكة ما حدث .. وتهامس الناس فى قصر الملكة عن الرحلة التى لم تسفر عن شئ ..

أما أخوه فقد كان هو أيضا عنيفا . أعدم عددا من الأسبان . وأقره كولمبوس على ذلك . بل أن كولمبوس قد صفع القاضى الذى بعثت به الملكة لإقرار النظام فى الأرض الجديدة . فأصدر القاضى قرارا بإلقاء القبض على كولمبوس . ووضعت السلاسل فى يديه .. وعاد بنفس الطريق الذى اكتشفه إلى أسبانيا لمحاكمته .. وعندما علمت الملكة بما أصاب كولمبوس انزعجت وطلبت فك السلاسل من يديه ولكنه أصر على أن يمشى فى الشوارع ويراه الناس .. ويشهد الناس ما لقيه هذا المكتشف العظيم !

ولم يكد الناس يرون كولمبوس حتى بكوا من أجله .. وفكوا قيوده . وعاد كولمبوس يطالب الملك بنصيبه من الثروات . ووعده الملك بأن يعطيه معاشا سنويا . وأن يحتفظ أبناؤه الشرعيون وغير الشرعيين بألقابه !

وماتت الملكة ولم يعد لكولمبوس أحد يعطف عليه ..

وفى هذه الأثناء اكتشف رجل إيطالى آخر أسمه أمريكو فسبوتشى أمريكا الجنوبية وأعلن أنها ليست الهند كما قال كولمبوس .. وإنما هى قارة جديدة تماما .. إنها ليست آسيا .. ولذلك سميت أمريكا باسم هذا البحار الإيطالى لأنه هو المكتشف الحقيقى .

أما السنوات التى جاءت بعد ذلك فهى مرض وعجز عن الحركة ، حتى مذكراته التى كان يسجلها يوما بيوم لم يكملها . وإنما استولى عليه القرف .. ووهم عجيب بأنه يجب أن يذهب ليحرر القدس . وآخر خطاب كتبه لإبنه

يطلب منه أن يرفع أمره للقضاء ضد الملك حتى يحصل على حقه كاملا من الأرض التى اكتشفها !

وظل الإبن يقاضى الدولة حتى سقط حقه بوفاته ..

ووفاة كولمبوس نفسه عن ٥٥ عاما يوم ١٩ مايو سنة ١٥٠٦ ـ دون أن يدرى به أحد !

وفى ١٥٤٢ نقل رفات كولمبوس إلى جزر سان سلفادور . ووضع فى كاتدرائية سان دومنجو . وتحطمت هذه الكاتدرائية بعد ذلك بفعل الزلازل . ثم أقيم فنار ضخم عند مصب نهر أوزمان فى جمهورية الدومينكان يحمل اسم خريستوف كولمبوس ..

وقد اختار كولمبوس أن يموت فى أحد أديرة الفرنسيسكان لأنه حاول أن يقنعهم بضرورة تحرير القدس . وفى إحدى المرات نهض من الفراش ولكن النقرس شل حركته تماما . فسقط على الأرض وهو يقول باللاتينية : بين يديك يا إلهى . سلمتِ روحى !

إنها أكبر وأشهر وأعجب غلطة فى التاريخ كله : لقد ذهب ليبحث عن الهند والصين فاصطدم بأمريكا ، ومات دون أن يعرف ذلك !

نبيرة تقول

تكتشف أرضا جديدة

لا يلمسها أولادك!

عندما اقتربت السفينة من الشاطئ ، ركع سكان جزيرة هاواى ثم سجدوا وبعد ذلك تمرغوا على الرمل الناعم . وانتهز شيخ الجزيرة فذبح ثلاثة من الشبان والشابات .. وألقى بأجسادهم فى الماء .. واشتعلت النيران . وتعالى الدخان والطبول .. واقترب شيخ الجزيرة من السفينة وقد أخفى جسمه كله فى الماء ..

أما يداه فقد رفعهما إلى أعلى .. أما رأسه المصبوغ بالأبيض فقد غمره فى الماء .. ويرفعه بين لحظة وأخرى ليقول : آو .. هو .. هو .. ى — ومعناها الإله الأعظم !

فأهل جزيرة هاواى قد رأوا سفينة ، فظنوا أنها الجزيرة العائمة التى تحدثت عنها الأساطير .. ورأوا أشرعتها البيضاء والأسطورة تقول أن الجزيرة سوف تكون أشجارها بيضاء .. ولما رأوا قبطانها الأوروبى الأشقر أيقنوا أن هذا هو الإله !

ونزل الأوروبيون من السفينة ..

ولم تمض لحظات حتى كان القبطان قد أتى بواحد من الأوروبيين ونزع ملابسه . وراح يضربه على ظهره أمام هؤلاء الملونين . فأصابهم الرعب ..

ومضت بعد ذلك أيام هانئة سعيدة .. فالجزيرة هادئة جميلة .. أرضها حمراء اللون وأشجارها خضراء زرقاء وأمواج المحيط الهادى ميتة .. كل شئ قد خلق ليكون متعة للعين .. ولكن هذا القبطان لا يريد أن يهدأ إنه يمسك قلما وورقة ويرسم .. فهو أبرع من رسم الخرائط البحرية ..

وعندما علم أن ثلاثة من رجاله اعتدوا على بنات هاواى راح يضربهم حتى سالت دماؤهم . وقد فعل ذلك من قبل – وكانت غلطة فقد أدرك الملونون أن هؤلاء البيض لهم دماء .. وأن الضرب يوجعهم . فهم يتوجعون ويبكون ككل الناس ..

وعندما حاول واحد من أهل هاواى أن يطلق سهمه على واحد من البيض قتله القبطان .. ولم يعرف القبطان أنه قتل ابن شيخ القبيلة الوحيد .. وهنا تقدم شيخ القبيلة وقتل القبطان .. وكان ذلك يوم ١١ فبراير سنة ١٧٧٩ . ولم يعرف أهل هاواى من هذا الرجل الذى قتلوه إنه أعظم مكتشف فى كل العصور إنه استطاع فى سنوات قليلة أن يصحح أخطاء جغرافية قديمة .. إنه أول مستكشف اعتمد على العلم والملاحظة فى أعظم وأطول رحلات قام بها إنسان فى التاريخ .. إنه البحار والمكتشف الإنجليزى جيمس كوك . (١٧٢٨ – ١٧٧٩) .. ولم يعرفوا أن هذه الأوراق لم تكن سوى مذكرات وأن هذه الأنبوبة التى خطفوها لم تكن سوى تلسكوب رأى به جزيرتهم لأول مرة ، ورأى به جزرا أخرى لم يعرفها رجل أبيض من قبل .. وارتاد به أيضا هذه القارة الخامسة فى جنوب الدنيا !

(تجربة شخصية : عندما كنت فى جزر هاواى اشتركت فى لعبة معروفة يسمونها لعبة القبطان . يقف فيها القبطان – أنا أو غيرى – ويلتف حوله عدد من الفتيات يرقصن ويقلن كلاما غير معروف .. ثم يدرن حول القبطان بعد أن يقدمن له الموز وجوز الهند والأناناس وشرابا غريبا .. ثم ينتظرن بضع لحظات .. حتى يترنح ، ويلقين به فى الماء – حدث لى هذا كله فيما عدا الإلقاء فى الماء فأنا لا أعرف السباحة – وهذه اللعبة هى تطوير لما حدث لجيمس كوك قبل ذلك بمائتى سنة !)

ولم يعرف البحر رجلا نصفه إنسان ونصفه الآخر حوت مثل هذا الرجل كوك . فهو فلاح ابن فلاح – انتقل من العمل فى الحقول إلى العمل

فى دكان بقال . وبعد ذلك انتقل إلى السفن . ومنذ عرف السفن لم يخرج منها . بل إنه كان يهرب من السرير لينام فى الزوارق . وانتشرت شائعة تقول إن أحد الزوارق به عفريت . وقرر أصحاب الزوارق أن يحرقوه فى الليل . وفى إحدى الليالى بدأوا يلقون عليه بالمشاعل . وفوجئ الناس بأن طفلا يهرب منه . وانطلقوا وراءه وكان جيمس كوك . فقد حاول أن يقنع الناس بأن الزورق « مسكون » لعلهم يتركونه ويسافر به إلى الجنوب .. ولما سألوه : وأين هذا الجنوب ؟ كان يقول : إلى الأراضى الجنوبية – ومعناها استراليا !

حاول أبوه أن يجعل منه شيئا ولكن الإبن مصر على شئ فى رأسه . انه يؤكد لوالده : إننى مختلف عن أخوتى التسعة فلا تحاول معى شيئا . اتركنى !

ذهب كوك إلى أحد رجال الدين يسأله : ما الذى ينقصنى .. إننى قرأت كل كتب الجغرافيا التى وجدتها .. قرأت كل الرحلات القديمة .. درست الرياضة .. أعرف اين موقع أى مكان فى العالم .. وأستطيع أن أقول ما هو خط العرض وخط الطول .. ما الذى ينقصنى ؟

سأله رجل الدين : كم عمرك يا ولدى .

فأجاب : أكثر من عشرين سنة الآن – وكان فى السابعة عشرة من عمره !

وقال له رجل الدين – وكانت نبوءة – : لا شئ ينقصك : عشرون سنة أخرى !

وبعد عشرين سنة تماما وفى يوم ٢٦ أغسطس سنة ١٧٦٨ كلفت الجمعية الملكية هذا الرجل كوك بأن يذهب إلى نصف الكرة الجنوبى فى مهمة فلكية . فقد تأكدت الجمعية الملكية أن هذا الرجل هو الرجل المناسب .. فهو بحار ممتازسافر إلى جزر بعيدة. واشترك فى معارك بحرية. وفى غاية الدقة. وشخصية. وعلى دراية عميقة بالفلك ورسم الخرائط البحرية . وله خرائط دقيقة قد رسمها لشواطئ أمريكا الشمالية ..

ويقول كوك فى مذكراته : « وكان اليوم الموعود .. أما السفينة فاخترت لها اسم « الأمل » وحمولتها ٣٧٠ طنا . وعلى ظهرها ٩٤ شخصا من العلماء والبحارة والأفندية — أو السادة الأكابر — ومعهم الخدم .. وعلى السفينة طعام يكفينا لمدة سنة ونصف سنة ومعنا مدافع ثابتة ومدافع متحركة . أما العلماء فهم أناس مشغولون بالفلك . وآخرون مشغولون بالنبات . وفى ذلك اليوم تفاءلت فقد قفزت على رأسى قطة سوداء .. تمنيت أن آخذها معى .. لولا أننى خشيت أن تموت منى فأتشاءم .. » ..

وكان من مهام كوك أن يرصد كوكب الزهرة يوم ٣ يونيو سنة ١٧٦٩ من جزر تهايتى . فى ذلك اليوم سيدخل هذا الكوكب فى مدار قريب من الشمس والمطلوب رصد هذه الظاهرة لمعرفة المسافة بين الأرض والشمس بالضبط .. وبعد ذلك عليه مهمة أخرى . إنها ذلك الحلم العجيب الذى كان يهزه بالليل فيصرخ كأنه مجنون .. وكان يريد أن يتحقق بعينيه إن كانت هناك أرض جنوبية متصلة بالقطب الجنوبى .. أو هل صحيح أن قارة استراليا — ومعناها الأرض الجنوبية متصلة بالقطب الجنوبى كما قال كثير من البحارة والمكتشفين والأساطير القديمة .

ومن المعروف فى ذلك الوقت أن يصاب البحارة بمرض الاسقربوط دون أن يعرفوا السبب الذى نعرفه الآن وهو نقص فيتامين ج ولكن كوك استطاع — بذكائه وتجربته أن يتجنب الإصابة بهذا المرض عن طريق وجبات الطعام المتكاملة والتعرض لأشعة الشمس .

لم يحدث شئ غير عـــادى فى الرحلة من انجلترا إلى البرازيل .. ولا حول أمريكا الجنوبية .. ولا فى المحيط الهـادى إلى أن رست السفينة عند شواطئ جزر تهايتى .. فقد اعتاد سكانها الأصليون أن يروا الرجل الأبيض .. واعتادوا على مقايضة الخرز والطعام .. وعلى أن يقدموا الطيور والخنازير مقابل المسامير التى يحتاجون إليها فى صناعة الزوارق .. وفى هذه الجزيرة سرق

اهل تهايتى بعض الأوروبيين .. واضطر كوك أن يقبض على عدد من أهل الجزيرة حتى يعيدوا المسروقات . وأعادوها . وعندما هرب اثنان من بحارته . ألقى القبض على بعض الملونين . وعلى الرغم من أنهم اعترفوا بأنهم أبرياء ، فقد وعدوا بالمحاولة .. وأعادوا الهـاربين .. وكان لابد من أن يضربهما كوك أمام الجميع .. وعندما شكا أحد سكان الجزيرة من أن طباخ السفينة قد هدد زوجته بأن يقطع رقبتها ذهب يشكو إلى كوك . ودعاه هو وزوجته لرؤية الطباخ عاريا صارخا تحت ضربات كوك القاسية – كان قاسيا على غيره وعلى نفسه وكان حازما أيضا !

وأقام كوك مرصدا فلكيا وذهب إليه العلماء . وفى يوم ٣ و ٤ يونيو ارتفعت العدسات إلى السماء تسجل مسار الزهرة . ولكن النتائج كانت هزيلة . ويمكن أن يقال أن الغرض الأساسى من هذه الرحلة فشل . فلم يكن من السهل رصد هذا الكوكب .. لأن طبيعته مختلفة عن الكواكب الأخرى . ولم تكن صورته واضحة تماما ..

واتجه العلماء الآخرون إلى البحر يجمعون العينات الغريبة من الأحياء المائية . ويضعونها فى زجاجات . وكوك يقول فى مذكراته : إننى لا أعرف الفشل ولا يمكن أن تكون هذه الأحلام الواضحة جدا التى أراها فى نومى ، وهما أو هلوسة .. إننى أرى بوضوح أرضا جديدة لم يرها أحد من قبل .. وإننى أرى الرجل الذى سوف يعثر عليها .. أنا وحدى !

ولذلك اتجه كوك إلى المهمة الأخرى من رحلته ..

اتجه بالسفينة إلى الجنوب .. ثم إلى الغرب .. أقصى الجنوب .. وأقصى الغرب .. وسارعت الزوارق الصغيرة التى امتلأت بأهل الجزيرة تطارده . وتريد أن تتابعه . وأن تلحق به . وأن تسافر معه . بعضهم كان يبكى . ولكن كوك تأثر لمنظر رجل وابنه .. فقد حمل الأب ابنه على كتفه ووقف فى أحد الزوارق يشير إليه .. الأب فى الأربعين والإبن فى العشرين . وتوقف كوك

وامتدت الأيدى لمساعدة هذا الأب . واسمه : طوبيا . وركب معه . وكان دليله فى التفاهم مع سكان الجزر الكثيرة الصغيرة التى رآها بعد ذلك ..

وفى أحد الليالى أحس كوك بضوضاء فى مكان مامن السفينة . واتجه إلى مصدر الصوت فوجد أن أحد العلماء قد أصيب بنوبة صرع . وراح يلقى بالأدوات العلمية فى الماء فمنعه بالقوة .. قائلا : هذه الأجهزة لم تعد ملكا لك .. إنها الآن لنا جميعا !

وقال العالم : أنا حر ..

وقال كوك : أنت حر فى أن تلقى بنفسك فى الماء فقط !

وألقى الرجل بنفسه فى الماء .. وتركه حتى غرق . ومضت السفينة فى طريقها !

وفى أكتوبر سنة ١٧٦٩ رأى أرضا . إنه يعرفها . هذه الأرض قد عرفها الهولنديون قبل ذلك بمائة سنة .. إنها التى تسمى الآن نيوزيلندا .. ولابد أن يتجه كوك إلى جهة أخرى .. إنه يريد أن يعرف أين هذه الأرض الجنوبية .. أين استراليا .. وكان الجو عاصفا . والموج عاليا . ولكن كوك على ظهر السفينة لا يهتز .. وإنما هو مثل سارية السفينة مشدود مصلوب عنيد. وبعد أربعة أيام ظهرت أرض . إنها هذه الأرض . اقتربت السفينة . نزل منها . وصرخ : إذن كل ما قيل لنا وهم !

ويقول فى مذكراته : صعدت الصخور . كل ما أتوقعه هو أن أجد أرضا ممتدة بغير نهاية . ولكن وجدت البحر من الناحيتين .. إذن هى جزيرة كبيرة . ولكن لابد من دليل آخر !

أما الدليل الآخر فهو أن يدور حول هذه الأرض .. ليعرف إن كانت جزيرة كبرى أو قطعة أرض متصلة بالقطب الجنوبى . ولكنه قبل أن يدور حولها لم ينس أن يضع علم بلاده عليها معلنا ملكيتها للتاج البريطانى .

وقطع أكثر من ألفى ميل حولها . وأخيرا تبددت الأسطورة القديمة أن هذه الأرض الجنوبية لا نهاية لها إلا فى الجليد .. إنها إذن قارة خامسة هذه حقيقة مؤكدة !

ولم ينس كوك أن يرسم شواطئ القارة الجديدة بدقة وبراعة فائقة .. أما علماء النبات والحيوان فقد أصيبوا بالجنون . فهم أمام فردوس النباتات وجنة الحيوانات .. كل شئ جديد تماما ، ويختلف عن نباتات وحيوانات أمريكا وأوروبا . وأعجب ما رأوا حيوان الكانجرو – كما يسميه سكان استراليا الأصليون – إنه فى طول الإنسان . له رأس غزالة .. وله ذيل ويجلس على رجليه الخلفيتين – كالطيور – يقفز كالضفدعة . ويقول كوك إنه اضطر أن يقتل واحدا ليدرسه .. وعلى الرغم من أن كوك قوى الملاحظة فإنه لم يدرك أن هذا الحيوان يخفى صغاره فى كيس فى بطنه . وأن هذا الحيوان الضخم عندما يضع صغاره يكون الواحد منها فى طول هذا السطر فقط ! ولم يعرف كوك طبعا أن هناك ٣٨ نوعا من الكانجرو و ١٢٨ فصيلة !

والسكان الأصليون سود فى غاية الهـــدوء . وأقل شراسة من سكان نيوزيلندا .. ومن الغريب أن الخرز والألوان الزاهية لا تبهرهم. وإنما فقط يريدون الطعام وبلغ من ذكاء كوك أن أدرك شيئا عجيبا . فقد لاحظ أنهم يمشون فى خطوط مستقيمة . وهى ملحوظة عبقرية . فقد سمعت أنا أيضا فى مدينة دارون بشمال استراليا . أن سر تأخر هؤلاء السكان الأصليون أنهم لم يصنعوا حضارة واحدة .. انهم بالفعل يمشون فى خطوط مستقيمة حتى يموتوا من الشمس ومن الجوع ولذلك تحرص الدولة على إطعامهم وإيوائهم . ولم تفلح فى تطويرهم . وأكثرهم تطورا يعملون فى كنس مطار مدينة دارون ! وهذه الظاهرة لم يهتد أحد من العلماء إلى تفسيرها !

وأمام إصرار البحارة والسادة الذين معه قرر العودة إلى انجلترا . واستقبله

الشعب الإنجليزى كما لم يستقبل بطلا من قبل . وقرر العودة مرة ثانية ليتأكد بنفسه من القارة الجنوبية ..

وقطع أكثر من ٧٥ ألف ميل ليتأكد أنه لا توجد أيه قارة جنوبية . وأعاد كوك رسم الخرائط البحرية . وانهالت عليه النياشين والميداليات الذهبية .. وأصبح أعظم بحار عرفته البحار !

ويقال أن كوك ليس أول من اكتشف استراليا . فقد أعلن ماركو بولو من قبل أن الصينيين تحدثوا كثيرا عن أرض فى الجنوب .. ولكن هناك جزرا كثيرة فى الجنوب . ويقال إن الهولنديين وصلوا إلى هذه الأرض .. ويقال الفرنسيون .. ولكن من المؤكد أن كوك هو أول من اكتشفها ودار حولها . وقطع نهائيا بأنها قارة جديدة .. أو جزيرة كبرى ! وأنه لاتوجد أرض متصلة مباشرة بالقطب الجنوبى !

أما الرحلة الثالثة فقد اكتشف فيها جزر هاواى . وقد أطلق عليها جزر ساندويتش . وساندويتش هو رجل قد تكفل بالإنفاق على رحلته هذه .

ولم يهدأ كوك فقد أراد أن يعرف ما إذا كان هناك طريق فى شمال أمريكا يمر بالمناطق الجليدية يربط بين المحيط الهادى والمحيط الأطلسى . ومنعه الجليد من التحقق من ذلك .. فعاد إلى جزر هاواى . وهناك قتل . وعاد رجاله إلى أوروبا ..

وعندما كلفته الجمعية الملكية بالدوران حول الأرض لأول مرة قال له أحد الأعضاء : « أنت تعرف أكثر من غيرك .. أن الذين يسألون هم الذين يعرفون .. وأن الذين يتطلعون هم الذين يكتشفون .. وأن الشجعان هم الذين اهتدوا إلى الشواطئ الأخرى .. ولو لم ينتقل آدم من الجنة إلى الأرض ما كانت هذه الحضارة . وأنت يجب أن تعطى المثل الأعلى على فائدة العلم فى البحث عن المجهول . والله يباركك ويبارك لك ! » ..

وكان يعلم أن هذا بالضبط هو ما يدور فى خياله .. وقد شغله ذلك عن الدنيا كلها . لقد روى كوك فى إحدى رحلاته لجماعة من البحارة وهو فى وسط المحيط الهـادى : لقد كنت أفكر فى أن أتزوج عند عودتى إلى انجلترا .. ولكن المضحك إننى متزوج بالفعل . وكنت نسيت ذلك !

لقد تزوج كوك سنة ١٧٦٢ وعاشت زوجته بعد وفاته خمسين عاما . وأنجبت له ستة من الأولاد . ثلاثة ماتوا وهم أطفال .. والثلاثة الآخرون ماتوا فى يوم واحد فى سنة ١٧٩١ . ولأسباب غير معروفة !

وكانت وفاة أبنائه تصديقا لنبوءة قيلت له .

يقول فى مذكراته : قال لى أحد العرافين : « ستضع رجلك على أرض لم يلمسها أحد من قبلك .. ولن يلمسها أحد من أولادك أو أحفادك ! »

وبعدها أُقسم

ألا ينام على سريره !

يسمونه : السيد المحترم – بناء على طلبه ! .

ولكن من الناحية القانونية يجب أن يقولوا له : يا سيادة اللورد .

واختلف الناس فى أمره : هل هو مجنون ؟ . هل هو مجنون أحيانا ، أكو هو عبقرى ! ..

مثلا : إذا انفتح الشباك فجأة وكانت رياح الشتاء تدفع الثلج إلى داخل البيت . فما الذى يفعله أى إنسان عاقل ؟ الجواب : أن يقفل النافذة بسرعة ، وقبل أن يقفل النافذة يغطى صدره ، وأن يضع على وجهه وكتفيه مزيدا من الملابس الثقيلة .. أو يهرب إلى غرفة أخرى .. أو ينادى لبعض الخدم ليقفلوا له النافذة .. كل هذا ممكن ، ويبدو معقولا ..

ولكن « السيد المحترم » يفعل شيئا آخر . أنه يخرج إلى الشارع ، وينظر إلى أعلى إحدى الكنائس ويقول : مضبوط .. فعلا .. إتجاه الريح من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى .: وسرعتها حوالى ثلاثين ميلا .. ودرجة الحرارة تحت الصفر بأربع درجات ! . .

هذا السيد المحترم اسمه تشارلز واترتون .. من أسرة إنجليزية عريقة أجداده قد جاءت أسماؤهم فى مسرحية « ريتشارد الثانى » للشاعر الكبير شكسبير وهذا شرف عظيم ، وإن كان السيد المحترم لا يرى ذلك ، فقد جاءت فى مسرحيات شيكسبير أسماء لصوص ومجانين أيضا !

ولكن كل من يعرف هذا الرجل الذى ولد سنة ١٧٨٢ يقول أنه على درجة غير عادية من الذكاء ، ودرجة جنونية من الشجاعة ، ولكن من

المستحيل أن يكون مجرما ، إنه فقط يريد أن يعرف ، ولا خوف عليه . إنه ينزل الماء فى الظلام ليرى إن كانت هناك عفاريت حقا ، ويدخل البيوت المهجورة ويتمدد فى أحد الأركان .. ثم يخرج ليقول لأهله : ولكن لم أجد أرواحا شريرة ! ويسألونه : أين ؟ ويكون جوابه : فى البيت المهجور ..

ويغمى على الأب والأم معا !

ولأسباب غير واضحة رفضت الأسرة أن تتحول من الديانة الكاثوليكية إلى الديانة البروتستانتية ، وهذه مخاطرة لأن الذى يرفض هذا التحول الكبير يدفع ضرائب مضاعفة ، ويدفع تعويضا عن عدم ذهابه إلى الكنيسة . . ثم أنه ممنوع من دخول الجامعة ، وممنوع من دخول البرلمان . . ولا يكون قاضيا ولذلك قرر الأب أن يبعث بابنه إلى أمريكا .. هناك بعيدا فى مستعمرة غيانا البريطانية ، فقد كانت الأب مزارع للبن وقصب السكر والقطن وبها ألف من العبيد ..

ويقول السيد المحترم فى كتابه الذى عنوانه « جولات فى كل مكان » إننى أفضل أن أدخل النار مع قديس كاثوليكى على أن أدخل الجنة مع جلالة الملك البروتستانتى !

وقبل أن يسافر السيد المحترم إلى أمريكا قالت له أمه : طبعا أنت لست فى حاجة إلى نصيحة . فقال : بل فى حاجة إلى رضاك أكثر . قالت الأم : حاول أن تكون نافعا ولا تنس أن كل الناس خلقهم الله .. اللون لا يهم !

وقد كان السيد المحترم عند حسن ظن الأم . فقد كان محبا لهؤلاء الهنود الحمر .. ولهؤلاء السود . وفى كتابه يقول « إنى أستطيع أن أنام عاريا تماما ، وأنا آمن على نفسى .. لن يقترب منى أحد .. فكل الناس هنا يعرفون أننى صديق الجميع » وأننى فى صلواتى تمنيت كثيرا أن أكون أسود .. فهذا اللون الأبيض يجعلنى أخجل من نفسى كثيرا ، مع أننى لست مسئولا عنه ..

إنه يجعلنى أحس بأننى كاذب .. فإذا قلت لفتاة سوداء إننى أحبك . فإنها تبالغ فى قيمة هذه العبارة وفى نفس الوقت لا تصدقنى .. وهذا يعذبنى كثيرا .. والله وحده يعلم أننى حزنت على فتاة سمراء تمنيت أن أتزوجها ، ولكن الثعابين سبقتنى إليها .. إننى أطلب من الله أن يعطينى العمر لكى أعلم كل هذه الثعابين أن تندم على أنها قتلت الإنسانة الوحيدة التى أحببتها ! » .

ولم يحاول السيد المحترم أن يكون أوروبيا وسط السود أو الملونين ، وإنما قرر أن يكون مثلهم .. سار عارى الصدر حافى القدمين ، واقتحم الغابات على حدود غيانا ، أى على حدود البرازيل . وهى مناطق موبوءة بالملاريا ، وكان من عادته أن يتسلل إلى الغابات أثناء هطول الأمطار .. وكان الرجال وراءه يحملون الزوارق الصغيرة والحبال . وكان من الصعب عليه أن يغرق بين الأنهار والمستنقعات .

وكانت له عادة غريبة .. فإذا علم أن الحاكم البريطانى قد سجن بعض الهنود فإنه يتسلل فى الليل إلى السجن ويطلق سراحهم .. بل إن أحد المجرمين قد شجعه على الهرب .. وعندما أعلن الحاكم البريطانى عن مكافأة مالية لمن يعثر على أحد المجرمين حيا أو ميتا ، ذهب السيد المحترم يطالب بنصيبه من المكافأة ..

ولما قال له الحاكم البريطانى : أين هو ؟ ..

قال : فى بيتى ..

وسأله : لماذا لم تأت به ؟

أجاب : بل أريدك أن تذهب لتراه .. وتتأكد بنفسك ، قبل أن أشجعه على الهرب ! ..

وكان الحاكم البريطانى هو الآخر مجنونا ، فما كان منه إلا أن قال :

أيها السيد المحترم إنني معجب بك .. فلنشرب في صحة إحتقارنا للقانون الإنجليزى ! ..

وذهب الإثنان ، وركب الحاكم البريطانى على حصان .. والمجرم على حصان آخر . وساعد المجرم على أن يركب أحد الزوارق . هربا من الحكم البريطانى — أى شجعه على أن يهرب منه ! ! ! ..

أما السيد المحترم فيريد أن يخترق غابات البرازيل ليجمع عينات نادرة من الطيور ، ولذلك حمل معه عددا كبيرا من الشباك والأقفاص ، وكان يتسلق الأشجار عند الفجر أو عند الغروب ، وقد اختاره الهنود الحمر إلها لأنه كان أبرع منهم فى تسلق الأشجار .

وليست الطيور فقط هى التى دفعته إلى القيام برحلاته المجنونة عريا حافيا وإنما كان يبحث عن سم نباتى اسمه : كورارا ، هذا السم كان يستخدمه الهنود الحمر فى السهام والنبال ، فهم يصنعون هذا السم فى مقدمة السهام والنبال ، فإذا أطلقوا هذه الأسلحة على أعدائهم قتلتهم .. ولم يعرف السيد المحترم أن هذه المادة التى كان يبحث عنها قد أصبحت بعد ذلك من أهم عناصر التخدير فى الطب ، فلا غنى عنها فى كل العمليات الجراحية ، ولا فى العلاج الكيميائى للمصابين بالهبوط النفسى وانفصام الشخصية وأهم أعراض الإصابة بهذا السم : الشلل الحركى .. والتراخى فى العضلات .. والحيوان الذى يصاب بهذا السم النباتى ، لا يكون ساما !

وكان مما يشغل السيد المحترم أيضا أن يبحث عن « ترياق » أو عن شفاء لهذا السم ، وكان يعتقد أن هؤلاء البدائيين هم وحدهم الذين يملكون سر هذا السحر ! .

وما يزال عاريا حافيا ، وفى الليل ينام على سرير معلق بين الأشجار .. ويجعل فوقه ملاءة حمراء .. لوقايته من ماء المطر ، وفى الصباح يقفز كالقرد ويصرخ فينهض الزنوج ويبدأ يومه الجديد حافيا عاريا ..

وأسوأ ما فى هذا السيد المحترم أنه كان يتولى علاج نفسه بنفسه ، إذا أصابه الصداع ابتلع بعض الأعشاب المائية . أو وضع أصبعه فى فمه وأفرغ ما فى جوفه ، وإذا أصابته الحمى ، أتى بسكين وأسال دمه من يده ... منتهى القسوة على نفسه !

وبعد أن جمع عينات كثيرة من الطيور ، وأطلق عليها ما يشاء من الأسماء ، ووصفها بأسلوبه الأدبى الجميل ، قرر أن يبدأ الرحلة المجنونة وفى نفس اللحظة التى اتخذ فيها هذا القرار التاريخى كان نابليون فى أوروبا قد قرر غزو روسيا فى أبريل سنة ١٨١٢ .. أما السيد المحترم فقد خرج من مدينة « جورج تاون » واتجه إلى أعماق الغابات العذراء التى لم تعرف رجلا أبيض بعد ، والسيد المحترم يصف هذه الغابات بألوانها وعطورها وأصواتها وصمتها فى لوحات شاعرية فاتنة فهو يسجل على الورق صيحات وبكاء وعويلا وهمسات وزغاريد وفحيحا ، وقطرات الماء وانهيارات المطر ، وأنين الطيور ، ونقيق الضفادع .. وصوت حيوانات تلد ، وحيوانات تتنفس لآخر مرة .. انه الموت والحياة ، الرعب والغموض وملايين علامات الإستفهام بعدد الأشجار ، وإصرار إنسانى على أن يعرف مهما كان الثمن .

وفى الغابة اشترى من الهنود الحمر هذا السم .. وكان يضعه فى كرات من الشمع ، ولكى يتأكد من مفعول هذا السم ، اشترى كلبا ، وأصابه بسهم مسموم .. فسقط الكلب بعد لحظات على الأرض .. يعوى .. ثم ينام على جانب واحد .. ويضع رأسه بين رجليه .. ثم يستسلم بلا حركة ! . .

ولم يكن الحصول على هذا السم سهلا ..

فالهنود ينظرون إلى السم على أنه أحد الطلاسم ، ولابد من إقامة الصلوات والدعوات والرقص والطبل أثناء تحضير هذا السم ، والساحر الذى يتولى تحضير السم يجب ألا يقرب إمرأة . ولا يأكل فى نفس اليوم ولا يكلمه أحد ، والإناء الذى يصنع فيه السم لا يستخدم بعد ذلك ..

وهذا السم يستحضرونه من نبات اسمه « ستريكتوس توكسفيرا » ويضيفون إليه الفلفل الهندى وأنياب الثعابين ويسحقونها معا ، ثم يضعونها فى ماء يغلى ولا يزال الماء يغلى ويتبخر حتى تتبقى فى الإناء مادة كالعجينة .. والسيد المحترم لا يعرف كم أدى من خدمات جليلة إلى صناعة العقاقير عندما وصف استحضار هذه المادة السامة .. فقد استخدمتها أوروبا بعد ذلك وبنفس الطريقة ! .

ومن ملاحظات السيد المحترم أن بعض الذين يشتغلون بتحضير السموم يمرضون .. ويصابون بالنحافة حتى الموت ! ولذلك فالذى يقوم بتحضير السم رجل كبير فى السن ، حتى إذا مات لم يكن خسارة كبيرة على القبيلة ! فإذا لم يكن فى القبيلة رجل كبير فى السن جاءوا برجل مريض ، وإذا لم يكن هناك رجل مريض هاجموا القبائل المعادية وأسروا واحدا وحكموا عليه أن يتولى إعداد السموم حتى الموت !

وعندما وصل السيد المحترم إلى حدود البرازيل ، قرر أن يدخلها نهارا وهنا استوقفه رجال الحدود وكانت التعليمات تمنع دخول الغرباء ولكن التعليمات لاتقول إن كانوا يمنعون الغرباء إذا كانوا مرضى ، وإذا كانوا من الإنجليز .. وكان السيد المحترم مريضا . ومرضه هو الملاريا لثالث مرة . وفى هذه المرة عالجه رجال الحدود وهم من البرتغاليين وكان العلاج مختلفا حديثا ، وشفى السيد المحترم وقرر العودة إلى المستعمرة البريطانية .

وفى طريق العودة رأى شيئا غريبا .. عصفورا صغيرا يعلو فوق الأشجار الصغيرة ، ثم يختفى تحت أوراقها .. ثم يبرز مرة أخرى .. وألقى عليه شبكة .. وفوجئ بأن هذا الشئ الصغير ليس إلا رأس ثعبان اسمه البرجرس ..

وكانت للسيد المحترم طريقة عجيبة فى صيد الثعابين .. انه يقترب منها .. وبسرعة ينقض على عنقها .. أى تحت رأسها بقليل ثم يمسكها .. ويرفعها إلى أعلى ويضعها فى صندوق .. وقد جمع عددا كبيرا منها ونقلها إلى بريطانيا . أما الثعابين الكبيرة فإنه يلقى بيده ورجله عليها فى وقت واحد .. (وفى هذه

لحظة أحسست شيئا ناعما عند قدمى.. فقفزت.. ولم تكن سوى القطه الصغيرة)
وفى إحدى المرات رأى ثعبانا من فصيلة البواء طوله ستة أمتار .. وأمسكه من عنقه والتف حوله الثعبان يحاول أن يعتصره .. ولكنه لم يستطع .. وسارع الرجال من حوله وأطاحوا برأس الثعبان !

ويقال أن أنثى الثعبان المسمى أناكوندا إذا قتل زوجها ، فإنها تظل تبحث عن القاتل حتّى تنتقم منه .. ولم يصدق السيد المحترم ذلك . وفى إحدى الليالى بعد أن قتل ذكر أناكوندا ، أصيب رجاله بفزع ، فهم يعرفون ما سوف يحدث .. ومضت ليلة .. وعشر ليال ولم يحدث شئ ولكن الرعب ما يزال يسيطر على الرجال .. وبعد أسبوعين اعترف له أحد الرجال بأنه ما يزال يتوقع أنثى الأناكوندا بين لحظة وأخرى .. وليس أمامهم إلا أن يتجهوا إلى البحر ليركبوا الزوارق ، لأن هذه الحية لا تستطيع أن تسبح فى ماء المحيط .. وشعر السيد المحترم بالخوف ، منذ رأى إيمان الرجال بذلك وخوفهم الواضح .. ولكنه فكر فى حيلة .. فقد خلع ملابسه وألقى بها أثناء الليل على واحد من رجاله، ونام عاريا تماما على سريره المعلق .. وظل ساهرا طول الليل .. وعند الفجر أغفى قليلا ليقفز من سريره على صراخ أحد الرجال .. لقد هجمت عليه أنثى الأناكوندا وعضته فى ساقه .. وظلت واقفة إلى جواره .. وما هى إلا لحظات حتّى مات الرجل .

ان هذه الحية قد سارت وراءهم أكثر من عشرين يوما .. ولم تحاول أن تهرب بعد أن تأكدت من وفاته ، وإنما ظلت واقفة على بطنها حتّى قتلوها كأنما أرادت أن تموت بعد أن انتقمت ، وبسهولة ماتت .. ولاحظوا أن هذه الحية بها جروح كثيرة وأنها فقدت عينيها ! !

وعندما عاد السيد المحترم إلى أوروبا ، جعل طريقه إلى إيطاليا ، وفى روما وجدهم يركبون واجهة كنيسة القديس بطرس ، وأصيب الناس بذعر عندما وجدوه يخلع معظم ملابسه .. وحذاءه وجوربه .. ويتسلق واجهة

الكنيسة .. ثم يضع قبعته على علامة اتجاه الريح .. واندهش الناس . وقالوا : مخمور ، وصرخ فيهم : لم أذق الخمر فى حياتى . قالوا : انزل ..

وبسرعة نزل . وقالوا : ليس من الأدب أن تضع قبعتك .. اصعد !

وصعد فوق الكنيسة كأنه قرد أو ثعبان ، وأتى بالقبعة وارتدى ملابسه وتساءل الناس من يكون .. وفى الزحام اختفى . واتجه إلى الشاطئ وعاد إلى بريطانيا ..

وفجأة اتخذ قرارا : أن يتزوج . وكان فى الأربعين من عمره ، تزوج فتاة فى السابعة عشرة ، وعندما أنجبت له طفله الوحيد ماتت .. وعاش بعدها ٤٣ عاما ..

وعند وفاة زوجته وقف إلى جوارها يقول : أعدك .. لا زواج بعدك .. ولا نوم على السرير !

وظل ينام على الأرض ، ويضع رأسه على جذع شجرة مجوفة ، ويتغطى ببالطو زوجته . أما حياته فكانت نوعا عجيبا من الزهد : فهو يأكل النباتات والثمار ولا يذوق الخمر أو اللحوم ولا يدخن ولا يذهب إلى الكنيسة .

وقبل وفاته بأيام قال لخادمه : المكان الذى تجدنى فيه ميتا أرجو أن أدفن فيه !

وذهب السيد المحترم يتمشى على شاطئ إحدى البحيرات التى تقع فى أرضه الواسعة ، وفجأة رأى عصفوراً غريبا لم يره من قبل ، وتسلق إحدى الأشجار ، وكان قد اقترب من الثالثة والثمانين من عمره .. وسقط من فوق الشجرة .. وتدحرج تحتها .. حتى وصل إلى شاطئ البحيرة .. وهناك أقيم قبره ، وتنفيذاً لوصيته نقشوا هذه العبارة :

« عشت وحيداً ، ومت أكثر وحدة ! »

الأفندية الأربعون
والشيخ فى باريس!

أستطيع أن أعرف بالضبط هذا الذهول الذى أصاب الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى عندما انتقل من الصعيد إلى باريس . ومن فضل الله عليه أنه رأى الإسكندرية . فقد قيل له أن الإسكندرية تشبه أوروبا : وفيها خواجات وأناس يتكلمون لغات أخرى غير العربية ..

فأنا أيضا انتقلت من المنصورة إلى باريس ولندن قبل أن أشاهد مدينة الإسكندرية .. ولكنى كنت أقل ذهولا من الشيخ الطهطاوى لأننى رأيت مدينة القاهرة وعشت فيها وأعرف عددا من اللغات ولكن الشيخ الطهطاوى أزهرى صعيدى شاءت الصدفة أن تجعله إماما لأربعين طالبا أرسلهم محمد على إلى باريس ، ولم يكن من المفروض أن يتعلم مثلهم ، إنه ذهب ليصلى بهم ويرشدهم إلى دينهم .

فعندما سمع محمد على أن سفينة حربية فرنسية قد رست فى ميناء الإسكندرية خطر له أن يبعث على ظهرها عدداً من الشبان النابهين فى العلم وكان ذلك سنة ١٨٢٦ وكان رفاعة الطهطاوى فى الخامسة والعشرين من عمره لم تنته دهشته ، ولم يتوقف عن التفكير والتأمل والمقارنة بين ما رأى وبين ما قرأ لاحظ أن الفرنسيين على السفينة فى غاية النظافة . فاندهش . لقد قرأ أن النظافة من الإيمان . وهؤلاء ليسوا مؤمنين ! ولاحظ أنهم يغسلون السفينة مرات عديدة ، ولاحظ أنهم يغيرون ملابسهم الداخلية مرتين فى الأسبوع ، وفسر ذلك بأن هذه هى الطريقة الوحيدة للقضاء على « الواغش » .

وكتب رفاعة الطهطاوى رحلته إلى فرنسا التى استغرقت خمس سنوات فى

كتاب اسمه « تلخيص الأبريز في تلخيص باريز » ، وفي الكتاب صفحات مسجوعة على طريقة الكتاب في ذلك العصر ، ولكن فيه كثيراً من النور والذكاء والوطنية يقول الطهطاوى بعد أن خرجت سفينته من الإسكندرية إلى عرض البحر : عصفت الرياح وتموج ماء البحر وتلاعبت بذات الألواح تلاعب الأشباح بالأرواح ، فلازم أكثرنا الأرض ، وتوسلنا بالشفيع يوم العرض » .

ومضت سفينة حتى اقتربت من الشواطئ الإيطالية .. وكان ممنوعاً عليهم أن ينزلوا ، فهناك قيود الحجر الصحى ، ولذلك كانوا إذا أرادوا شراء شئ أودعوا الفلوس في علب بها خل حتى لا تنتقل العدوى .

ومن السفينة رأى فتيات إيطاليات جميلات . وفي ذلك يقول :

أصبو إلى كل ذى جمال ولست من صبوتى أخاف
وليس لى من الهوى ارتياب وإنما شيمتى العفـــاف

وله شعر آخر متواضع :

قد قلت لما بدا الكاس فى يده وجوهر الخمر فيها شبه خديه
حسبى نزاهة طرفى فى محاسنه ونشوتى من معانى سحر عينيه

وكتاب الشيخ رفاعه الطهطاوى ملئ بالملاحظات الدقيقة عن المرأة والرجل وملابس المرأة وعادتها وخلاعتها ، وإعجابه بها ، واحتقاره لتساهل الرجال مع المرأة ، ولكنه لم يغمض عينه عنها .

وقطعت السفينة هذه الرحلة من الإسكندرية إلى مرسيليا فى ٣٣ يوماً

وفى ميناء مرسيليا كان لابد من الحجر الصحى ، ودارت مناقشة على السفينة : هل الحجر الصحى حرام أم حلال ؟

قال بعضهم : حرام .. لأن معناه أن يتدخل الإنسان فى إرادة الله .. فإذا كان الله أراد أن يموتوا جميعا ، فلماذا يعطلون مشيئة الله .

ومن رأى الشيخ الطهطاوى أنه ليس حراما !

وفى مرسيليا تلقى الشيخ رفاعة الطهطاوى الحضارة الغربية دفعة واحدة فهو يروى أن البيوت لها جدران مغطاة بالورق ، وليست مبيضة بالجير . ورأى الناس لا يأكلون على الأرض ، وإنما يضعون أمامهم طبلية — أى ترابيزة — عالية ويجلس كل واحد على مقعد .. وأعجب من ذلك أنهم يأتون بالطبيخ فى إناء واحد كبير وأمام كل واحد طبق .. وأعجب من هذا كله أن كل واحد له شوكة وملعقة وسكينة .. وكل واحد له كوب خاص يشرب فيه ولا يصح أن يشرب الإنسان من كوب غيره .. ولا يمسك شيئا بيده وينقله إلى فمه .. وإنما بالشوكة والملعقة !

ولا يضعون حلل النحاس المبيضة على الطبلية ، وإنما الحلل يطبخون فيها فقط ..

وأعجب من ذلك أنهم ينامون على شئ مرتفع .. سرير أو أى شئ آخر ولا ينامون على الأرض !

أما القهاوى « فهى ليست للحرافيش » وإنما هى « لأرباب الحشمة » أما الفقراء فيدخلون « المقاهى الصغيرة والمحاشيش » ..

ويلاحظ الشيخ رفاعة أن النساء يبعن فى الدكاكين ، أما الرجال فلهم أعمال أخرى أهم وأعنف « فالقهوجية إمرأة جالسة ، وقدامها دواة وريشة وتكتب وتقطع ورقة صغيرة فيها الثمن وتبعثها مع الجرسون . والعادة أن الإنسان إذا شرب القهوة أحضروا له السكر » .

وفى اليوم الذى قرر أن يدخل فيه المقهى أحس كأنه فى ميدان واسع جداً والناس يذهبون ويجيئون .. واكتشف بعد ذلك أن هذا الذى يراه ليس

ميداناً ، وإنما هى المرايا فى كل جوانب المقهى ، فالذى أدهش الشيخ أن المرايا الفرنسية تعكس صور الناس كما هى ، وليست كالمرايا فى مصر فهى تجعل الإنسان بكرش ، أو تجعله أعوج !

أما الميادين فى باريس فكثيرة ، وهى تشبه الميادين فى القاهرة فى الاتساع لا فى القذارة ! .

شئ آخر اندهش له الشيخ رفاعة عندما وجد أشجار النخيل ، فقد قرأ فى كتاب القزوينى المعروف باسم « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات»

إن النخلة شجرة مباركة عجيبة ، ومن عجائبها أنها لا تنبت إلا فى بلاد الإسلام ! ..

وكثير من الحقائق الثابتة بدأ الشيخ يشك فيها ، ويصحح معلوماته ويلفت الناس جميعا إلى أن يغيروا من أفكارهم وآرائهم ، ففى فرنسا علوم وفنون وفلسفة ، صحيح أن بعض الفرنسيين يرون أن المفكرين أعظم من الأنبياء والعياذ بالله — ولكن هذا لا يمنع أبداً أن عندهم مفكرين عظاماً من مثل : روسو ومونتسكيو . وغيرهما ..

وعندما ينظر إلى نهر السين . يجد أن نهر النيل أوسع ومياهه أعظم ويقول : « شتان بين هذا وبين النيل فمنطقة الروضة والمقياس أجمل ، ونزهة فى الروضة لا تقارن بشئ ! » .

والناس فى باريس يقرأون الصحف والمجلات والكتب ، كل الناس ، ويناقشون فى كثير من القضايا الفكرية والنساء أيضا ، وهم مجاملون بالأقوال لا بالأفعال ، وهم بخلاء .

وهم أقل غيرة على نسائهم من العرب .. فالرجل يترك زوجته ترقص مع رجل آخر ، بل أنه يعلم أن زوجته قد ذهبت إلى إحدى الحدائق ، وتعرفت

على رجل آخر ، ولا يغضب .. بل إن الأجازات السنوية تسافر فيها الزوجة مع رجل آخر .. والرجل المسافر مع امرأة أخرى .. وكثيرا ما سافرت المرأة بعيدا فى الريف بعض الوقت لأنها حامل ، وهناك تلد وتترك طفلها لأسرة أخرى تربيه .

ويذكر الشيخ رفاعة أن بعض ملوك فرنسا وانجلترا لهم زوجات فاسدات وعلى الرغم من أنهم على يقين من انحلال الزوجات ، فإن القضاء لم يحكم ضدهم لعدم توافر الأدلة ، فيظل الملك وزوجته منفصلين مدى الحياة !

فالمرأة الفرنسية لا تنقصها الثقافة ولكن تنقصها الأخلاق ، والمثل الفرنسى يقول : إذا رفضتك المرأة ، فليس ذلك دليلا على أخلاقها ، وإنما على تجاربها .

والناس يعملون ليلا ونهارا ، الكل يعمل ، ولابد أن الفرنسيين يؤمنون بالمثل القائل : الليل والنهار يعملان فيك ، فاعمل فيهما !

ولكن الشيخ رفاعة لا يرفع عينيه عن المرأة الفرنسية ، ولا يشبع من النظر إلى ملابسها ووجهها ، فالمرأة الفرنسية عرت صدرها وسترت ساقيها ، والمرأة تضع عند صدرها عوداً من الحديد من الخصر إلى العنق ليشد قوامها ..

ومن الغريب أن الناس فى باريس لا يخبزون فى بيوتهم ، وإنما هناك مخابز .

والحيوانات يذبحونها بالسكين أو يكسرون رؤوسها أو يخنقونها ، يقول الشيخ رفاعة أنه أرسل خادمه ليشترى لحما ، فلما رآهم يذبحون الثيران أصيب بالرعب ، « وجاء يستجير ويحمد الله تعالى حيث أنه لم يجعله ثوراً فى بلاد الأفرنج ، وإلا لذاق العذاب كالثيران التى رآها » .

ويقول أنه كان يمشى فى الشارع فطارده فرنسى مخمور وقال له : ياتركى أنت تركى ! وتوقف الشيخ رفاعه ، ثم صحب الرجل إلى أحد البارات وقال لصاحب البار : بكم تشترى هذا الرجل ؟ ورد عليه صاحب البار : إننا

لا نبيع الناس ونشتريها كما تفعلون فى بلادكم . وكان رد الشيخ رفاعة : وهو سكران هكذا ليس من الناس !

ثم ترك الرجل وعاد إلى الطريق .. ورأى الناس يستخدمون الباروكة : الرجال والنساء ، ثم لاحظ أنهم فى مصر يفعلون ذلك أيضا - ولم يعرف الشيخ رفاعة أن حتشبسوت كانت أول من وضع الباروكة على رأسها وأول من وضعت لحية رجل أيضا ومن ألوف السنين !

وانبهر الشيخ رفاعة الطهطاوى لرؤية المسارح وظهور الناس وعرضهم للمواعظ الأخلاقية والأدبية وعندما ينزل الستار كان يقرأ عليه هذه العبارة : التمثيل يصلح اخلاق الناس ! .

وأعجبته الحمامات الشعبية فى باريس . فكل إنسان له حمام خاص بينه وبين الحمام المجاور ستار ، فلا يسمح أن يرى الإنسان عورة أخيه ، كما فى الحمامات العمومية فى مصر .

وتمنى الشيخ رفاعة أن يجد فى مصر هذا الاختراع اللطيف .. يقول : أنهم يضعون دناً عظيما ذا عجلات ، ويمشون العجلة بالخيل ، ولهذا الدن بزابيز ، مصنوعة بالهندسة تدفع الماء بقوة عظيمة وعزم سريع ، فلا تزال العجلات ماشية مفتوحة حتى ترش قطعة عظيمة فى نحو ربع ساعة ، لا يمكن رشها بجملة من رجال فى أقل من ساعة ، ولهم غير ذلك من الحيل ، فمصرنا أولى بهذا لغلبة حرها » .

هل عرفت هذا الاختراع ؟ .. انه عربة الرش ! ..

ولما عاد الشيخ رفاعة طبع كتابه هذا مرة أخرى وأضاف إلى ما كتبه عبارة أخرى تقول : قد صار الآن جل ذلك بمصر ! - أى قد تحقق ذلك فى مصر .

والتفت الشيخ إلى الشوارع ونظام رصفها . وإلى المزارع وتنسيق أشجارها وأزهارها .

وأعجبه الدستور الفرنسي الذى يقول فى أولى مواده : أن الناس جميعا متساوون أمام القانون . يقول : المادة الأولى : سائر الفرنساوية مستوون قدام الشريعة ، ومعناه سائر من يوجد فى بلاد فرنسا من رفيع ووضيع لايختلفون فى إجراء الأحكام المذكورة فى القانون حتى أن الدعوة الشرعية تقام على الملك وينفذ عليه الحكم كغيره ، فانظر إلى هذه المادة الأولى فإن لها قسطا عظيما على إقامة العدل وإسعاف المظلوم وإرضاء خاطر الفقير بأنه كالعظيم نظراً إلى إجراء الأحكام » .

وتحدث الشيخ رفاعة عن اللغة الفرنسية ومبادئ النحو والصرف والبلاغة وعن الهندسة والجغرافيا .. ثم عرض أسماء الكتب التى درسها ، وما الذى استفاده منها .. وحاول — على عادة الأدباء فى ذلك الوقت — أن يتذكر أبيات الشعر التى تتناسب مع الموقف ، وهذه الأبيات عموما لا تناسب الموقف ولا ضرورة لها ولكنه أسلوب العصر !

وكان يشرف على هذه البعثة المستشرق الفرنسى جومار ، وهو أحد علماء الحملة الفرنسية ، والمسئول الأول عن إصدار ذلك الكتاب الموسوعى الرائع الذى عنوانه « وصف مصر » وفى هذا الكتاب مسح اجتماعى وإنسانى وجغرافى وتاريخى لكل مصر ، من جميع نواحيها وما فيها من إنسان وحيوان ونبات وجبال ووديان ومدن وقرى .

ولا ينسى الشيخ رفاعة تلك اللوحات الفنية لأنها (لا تمتاز عن الإنسان إلا بعدم النطق) .

وكان من عادة محمد على أن يبعث إلى أعضاء البعثة برسائل يسألهم عن حالهم ، ويعلق على التقارير التى وصلت إليه ، ويبدو أن بعض هذه

التقارير لم تعجبه ، فأرسل إليهم يقول باللغة التركية وهذه هى ترجمة الشيخ رفاعة الطهطاوى :

« قدوة الأماثل الكرام (الأفندية) فى باريس لتحصيل العلوم والفنون زيد قدرهم .

« ينهى إليكم أنه قد وصلنا أخباركم الشهرية والجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم ، وكانت هذه الجداول المشتملة على شغلكم ثلاثة أشهر مبهمة لم يفهم منها ما حصلتموه فى هذه المرة وما فهمنا منها شيئا ، وأنتم فى مدينة مثل مدينة باريس التى هى منبع العلوم والفنون ، فقياسا على شغلكم فى هذه المدة عرفنا غيرتكم وتحصيلكم وهذا الأمر غمنا كثيراً فيا أفندية ما هو مأمولنا منكم ، فكان ينبغى بهذا الوقت ، أن كل واحد منكم يرسل لنا شيئا من ثمار شغله وآثار مهارته فإذا لم تغيروا هذه البطالة بشدة الشغل والاجتهاد والغيرة وجئتم إلى مصر بعد قراءة بعض كتب فظننتم أنكم تعلمتم العلوم والفنون فإن ظنكم باطل فعندنا ولله الحمد والمنة رفقاؤكم المتعلمون كمال العلوم والفنون فينبغى للإنسان أن يتبصر فى عاقبة أمره ، وعلى العاقل ألا يفوت الفرصة وأن يجنى ثمرة تعبه . فبناء على ذلك أنكم أغفلتم عن اغتنام الفرصة ، وتركتم أنفسكم للسفاهة ، ولم تتفكروا فى المشقة والعذاب الذى يحصل لكم من ذلك ، ولم تجتهدوا فى كسب نظرنا وتوجهنا إليكم ، لتميزوا بين أمثالكم فإن أردتم أن تكتسبوا رضاءنا فكل واحد منكم لا يفوت دقيقة واحدة من غير تحصيل للعلوم والفنون ، وبعد ذلك كل واحد منكم يذكر ابتداءه وانتهاءه كل شهر . ويبين زيادة على ذلك درجته فى الهندسة والحساب والرسم وما بقى عليه فى خلاص هذه العلوم ، ويكتب فى كل شهر ما تعلمه فى هذا الشهر زيادة على الشهر السابق ، وإن قصرتم فى الاجتهاد والغيرة فاكتبوا لنا سببه وما هو عدم إعتنائكم ، أو من تشويشكم وأى تشويش لكم هل هو طبيعى أو عارض وحاصل الكلام أنكم تكتبون حالتكم كما هى عليه حتى نفهم ما عندكم ،

وهذا مطلوبنا منكم ، فاقرأوا هذا الأمر مجتمعين وافهموا مقصود هذه الإرادة ..

« قد كتب هذا الأمر فى ديوان مصر فى مجلسنا فى اسكندرية بمنه تعالى : فمتى وصلكم أمرنا فاعملوا بموجبه ، وتجنبوا وتحاشوا عن خلافه . انتهت صورة المكتوب » .

وأصبح من الواجب على كل طالب بعثة أن يرسل إلى الوالى محمد على خطابا يشرح فيه العلوم التى حصلها .

ثم يجئ المدرسون واحداً واحداً ويعلقون على ذلك ، ولما لاحظ المسيو جومار أن بعض المبعوثين قد تكاسل كتب يقول له :

« .. من المعلوم أن هذه الأوراق الشهرية لا تأخذ فى كتابتها إلا نصف ساعة ، لأن الغرض منها مجرد ضبط عدد الدروس التى قرأتها ومعرفة نوعها ولايخفى على اجتهادك ، ولا أجهل قدر ثمرة تحصيلك ، فاطلب منك أن تواظب على توفية الحقوق التى كلفت بها ، واعلم وتيقن بمحبتى لك .. » .

وفى آخر كتابه « تخليص الأبريز فى تلخيص باريز » يقول رفاعة الطهطاوى عن المرأة الفرنسية : إن وقوع الخبطة — الاختلاط — بالنسبة لعفة النساء لا يأتى من كشفهن (سترهن) ، بل منشأ ذلك التربية الجيدة والخسيسة والتعود على محبة واحد دون غيره وعدم التشريك فى المحبة والإلتئام بين الزوجين وقد جرب فى بلاد فرنسا أن العفة تستولى على قلوب النساء المنسوبات إلى المرتبة الوسطى من الناس ، دون نساء الأعيان والرعاع . فنساء هاتين المرتبتين عندهم الشبهة كثيراً ، ويتهمن فى الغالب » .

وكان رفاعة الطهطاوى أول مترجم مصرى .. أو رائد المترجمين ومديراً

لمدرسة الألسن . وقد ترجم موضوعات كثيرة علمية . وأشار إلى فرنسا وإلى الحضارة الغربية . ودعا لها وتحمس وكانت عينه على فرنسا ، وقلبه على مصر .

وإذا كان المؤرخ الإنجليزى الكبير توينبى قد اعتبر المؤرخ الجبرتى أعظم مؤرخ فى كل العصور لأنه انبهر بحضارة فرنسا ولكنه لم يرض عن احتلال الفرنسيين لمصر . فإن رفاعة الطهطاوى هو أكثر طلبة البعثات نبوغا ونبلا .. فقد بهرته فرنسا بناسها وشوارعها ودستورها وعلمها ولكنه كان يصرخ دائما : فى إستطاعتنا أن نكون كذلك ، لو تحركت أيدينا فى نور عيوننا وعلى هدى عقولنا !

ثم حملوه ...
على الأكتاف تسعة شهور

على قبره نقشت هذه العبارة التى تدل عليه :

« أمضى ثلاثين عاماً من حياته فى تعب لا نهاية له ، لهداية هؤلاء البدائيين ، ولكشف أسرار هذه الغابات والبحيرات وللقضاء على تجارة الرقيق الرهيبة ، فى قلب أفريقيا السوداء »

وإنما تدل عليه هذه الحادثة المخيفة . . فقد كان يمشى مهموماً مهدوداً محطماً مع عدد من أبناء أفريقيا الذين يحملون أمتعته عندما ظهر أسد من بعيد . وفكر فى الأسد طويلا . وهو يعرف أنه إذا استطاع أن يقتل ولو أسداً واحداً هربت بقية الأسود . . واقترب وأطلق رصاصتين فى وقت واحد . . أصابتا الأسد ولكنه ظل واقفاً . اقترب أكثر .. ورجاله أيضا . ورفع بندقيته يسددها إلى رأس الأسد وفجأة قفز الأسد عليه . وأسقطه على الأرض .

ويصف هذه اللحظة الطويلة فى مذكراته فيقول : « أعرف كيف أسمى هذا الشعور . . هل هو نوع من الخدر . . هل هو نوع من الحلم . . كل ما أعرفه بوضوح . . هو أننى فقدت كل شعور بالألم أو بالخوف . وإن كنت أدرى بوضوح جداً كل ما حولى . . فالأسد قد وضع قدمه اليسرى على كتفى . . ورفع رأسه إلى أعلى . . والتف حوله بقية الرجال . وانطلق عيار نارى آخر . . وطاشت سهام ورماح . والآن أستطيع أن أقول أن الذى حدث لى يشبه ما يحدث للمرضى عندما يعطون المخدر — الكلوروفورم — فهم يرون مشرط الطبيب ولكنهم لايشعرون بالعملية الجراحية . إنها إذن عناية الله التى شاءت أن تفقد الحيوانات المسكينة شعورها بأى شىء عندما تقع فريسة

لأسد أو نمر . . إنها حالة غريبة خلقها الله حتى لا تشعر هذه الضحايا بلحظات الموت » .

وبعد لحظات سقط الأسد ميتاً . . أما ذراع هذا الرجل فقد ظلت مكسورة . . وعندما حاول أن يضعها فى مكانها بمساعدة هؤلاء الرجال لم يفلح فظلت مصدر تعاسته مدى الحياة !

هذا هو الرجل الذى جمع بين الطب والإيمان . وبين الشجاعة والاستسلام للتجربة لعله يقدر على كتابتها .

إنه هو الرحالة الإنجليزى دافيد لفنجستون (١٨١٣ – ١٨٧٣) .

ولا شئ فى بداية حياة هذا الرجل يدل على نهاية هذه الحياة . . فهو من أسرة فقيرة جداً . كان أبوه يعمل فى أحد محالج القطن . . وهو يعمل فى دكان بقال . وكان من الضرورى أن يتعلم شيئاً ما ، ليصبح قادراً على كسب قوته . . لابد أن يكون رجلا بسرعة . فالطفولة عند الفقراء نوع من الترف . وهو لم يعرف هذا الترف .

وقد أحس فى نفسه ميلا شديداً إلى القراءة . فقرأ كل الكتب التى صادفته من كل لون وفى كل موضوع . وفى كثير من الأحيان كان يقرأ الكتابين والثلاثة فى وقت واحد ، لأنه لايطيق أن يرى كتاباً دون أن يعرف مابه فى اللحظة التى يراه فيها .

وكانت أكثر الكتب التى تشغله هى كتب التاريخ والرحلات . وحياة الحيوان والنبات . . وعلى الرغم من ذلك اتجه إلى دراسة الدين . . فقد قابله أحد القساوسة الألمان وقال له : اسمع ياولدى إذا أردت أن تسافر فلابد أن تكون قسيساً تبشر بالدين . ومستقبلك فى بلاد الصين !

فدرس الدين ليكون قسيساً .

وقابله أحد الأطباء وقال له : إن الفقراء يحتاجون إلى الرغيف والكتاب

المقدس والدواء . . وأنت لاتستطيع أن تطعم كل الناس . . فعالجهم !

ودرس الطب . وفى سنة ١٨٤٠ قرر أن يبدأ عمله ، يقول فى مذكراته : « إننى أصلح لشىء واحد : أن أنشر الإيمان فى قلوب هؤلاء الوثنيين . . أما ماعدا ذلك فأمره سهل . . ولكن أمام هذا الهدف لقد نذرت حياتى » .

ولم يستطع أن يذهب إلى الصين ، فقد كانت حرب الأفيون على أشدها فاتجه إلى أفريقيا ، إلى قلبها . وقرر أن يقطع أفريقيا من الغرب إلى الشرق ووصل إلى زنزبار واستأذن السلطان فى أن يجرب حظه فى وسط أفريقيا وأعطاه السلطان خطاب توصية . . واستطاع أول الأمر أن يقطع أفريقيا من ساحل إلى ساحل . واقترح بعض الناس عليه أن يعود إلى الدوران حول أفريقيا بالبحر ، بدلا من أن يعود فى نفس الطريق الشاق ، ولكنه رفض . . فقد وعد هؤلاء الشيالين الذين مشوا وراءه بأن يعيدهم إلى قراهم . وهو رجل يحترم كلمته ويرعى الله فى كل ما يفعله ويقوله .

وبعد هذه الرحلة الاستكشافية عاد إلى لندن . واستقبلته الصحف والهيئات العلمية بالاحترام وفى ذلك الوقت نشر أول كتبه بعنوان « رحلات تبشيرية واكتشافات فى جنوب أفريقيا » .

وكلفته الحكومة البريطانية باكتشاف نهر زامبيزى وأن يكتب لها تقريراً إن كان من الممكن استعمار هذه المنطقة . . واستغرقت هذه الرحلة خمس سنوات (١٨٥٨ — ١٨٦٣) ..واكتشف فيها بعض البحيرات الصغيرة ولكن هذه الرحلة ضاعفت من تعاسته وضيقه بالحياة . . فقد ماتت زوجته وكانت قد صممت على أن ترافقه : قتلتها الملاريا . . وأسوأ من ذلك وأقسى تجارة الرقيق . وما الذى يلقاه هؤلاء البدائيون من عذاب وهوان . . وأقسم أمام الله أن يفضح هذه التجارة الوحشية أمام العالم كله . وعاد إلى إنجلترا بعد ذلك ينبه الرأى العالمى إلى هذه التجارة التى هى عار على الإنسان !

وعاد إلى أفريقيا . . ثم عاد إلى إنجلترا وفى آخر رحلاته ذهب إلى الهند . وحصل على عدد من الرجال المدربين وعلى ١٢ شاباً . . واتجه مرة أخرى إلى زنزبار . وتحرك إلى أواسط أفريقيا . . وكانت قافلته تتكون من ٣٦ شخصاً وستة من الجمال وأربعة من الحمير وأربع جواميس . وبغلين . . واختار عيد ميلاده ١٩ مارس سنة ١٨٦٦ ليبدأ فيه آخر رحلة له . ويبدو أن حالته المعنوية كانت فى قمتها .

فكتب فى مذكراته : إن الرحلات تجعل الإنسان واثقاً من نفسه . . وتنشط جسمه . . وتشد ساقيه . . وتذيب الشحم . . وتجعل وجهه مشرقاً وبشرته برونزية والذى يعرف الرحلات لايعرف الإمساك أو سوء الهضم . والإنسان لايعرف طعم الراحة إلا إذا عرف طعم التعب . .

واتجه إلى الغرب . . الغابات مخيفة موحشة . الأمطار لا تتوقف . . الوحوش لاتهدأ . ولكن أقسى من الوحوش : البعوض والنمل وذباب تسى تسى . . وكان يشعل النيران طول الليل لتخويف الوحوش . .

ومضت القافلة بين قبائل لم تتوقف الحروب بينها من مئات السنين . ولكنه استطاع بحكمته وصبره أن يمرق بينها دون أن يصاب بشىء .

وبعد شهرين أضرب الشيالون عن السير معه . . لم يفلح فى إقناعهم تركوه ومضى معه أربعة من الرجال فقط . وبدأت متاعبه . فالرجال فى غاية القسوة على الحيوانات . والحيوانات تموت فى الطريق . فالوحوش هاجمتها . . ولم يستطع حمايتها .

وجاء رأس السنة . . كتب فى مذكراته يقول : « اليوم رأس السنة .. ليس عندى ملح ولا سكر . . إننى جائع دائما . . وأحلم بالخبز . . ولاأعرف كيف أنام . . وصور اللحم ورائحة الشواء والأكواب النظيفة أراها أمامى وأنا أمشى على قدمى . . كل شىء حولى له لون الطعام ورائحته . . إنها حالة من الهذيان . . »

وفى يوم ٣٠ يناير من العام الجديد حدثت كارثة . . هرب اثنان من رجاله . . وكان أحدهما يحمل صندوق الأدوية وخصوصاً مادة الكينين الضرورية للحمى . . وأحس لفنجستون أن حكماً بالإعدام قد صدر ضده !

لا طعام ولا دواء . . لا راحة . . وإنما إصرار على أن يمضى فى طريقه .. لقد قطع أكثر من ٨٠٠ ميل .

وكان إذا تعب من المشى يركب البغل . . وإذا تعب من الركوب حمله رجاله . . واحداً واحداً . واثنين اثنين . . ووصل إلى جنوب بحيرة تنجانيقا رآها . . وركب الجمل . . ونزل فى زورق وراح يتحرك فى داخل البحيرة .. ثم عاد إلى الشاطئ أكثر عجزاً . . وكانت الحمى قد عصرته وحطمته . . فظل نائماً فى إحدى الخيام ثلاثة أسابيع .

وتحرك من جديد . . أنه يريد أن يعرف من أين ينبع نهر النيل . . لابد أن يصل إلى ذلك . . وفى طريقه قابله بعض التجار العرب وأفهموه أن الحرب اشتعلت من جديد بين بعض القبائل . . ونصحوه بالتوقف شهرا أو شهرين حتى تجئ الأمطار وتخمد نيران القبائل .

وفى بداية عام ١٨٦٩ رأى أحد الشيالين الذين استأجرهم أن أحد النمور يعلق ذيله الدامى . . فصرخ . . ولما سألوه : قال أن هذا يدل على أن أحدا سوف يموت .

وتشاءم لفنجستون فقد تحول إلى حطام إنسان . والتهبت رئته اليمنى ثم انه سقط فوق ذراعه اليسرى التى مزقها الأسد . . فانتعشت أوجاعها . . ولولا أن أحد التجار العرب قد عالجه وأعطاه بعض العقاقير والأعشاب الطبية لمات فى ساعات !

وخطرت له أن يتجه إلى الشمال ثم إلى الشرق بحثاً عن المدينة التى يقال إن موسى عليه السلام قد أقامها فى الحبشة .

وأصيب الرحالة الإنجليزى بما يشبه الجنون . كأنه أحس بنهايته قبل أن يحقق المهمة التى جاء من أجلها . . فكان يسأل الناس : قل لى يا حضرة . . ألم تر بحيرة تخرج منها أربعة أنهار فى وقت واحد !

وفى هذا الوقت كانت الدوسنتاريا قد أهلكته أما قدماه فقد تورمتا وأما رئته فإنها توجعه . . ولذلك يسعل دماً طول الوقت . . وعندما أركبوه على حمار سقط . . فحملوه أربعة . . من الرجال . .

ورغم هذا العجز الشديد فإنه كان يكتب مذكراته . . ومن العجب أنه كان يصف الأزهار النادرة وكان يطلب إلى المرافقين الجدد الذين استأجرهم أن يقطفوا الزهور ويقربوها من أنفه ليصف رائحتها ويقارن بين الروائح المختلفة . . وكذلك كان يصف الطيور وحيوانات الغابة .

ويقول فى مذكراته : ليس أمامى إلا طريق واحد . . أن أمد يدى إلى هذه القبائل أطلب طعاما لى ولغيرى !

وفى هذه الاثناء جاء محمد حسان — أحد رجاله من العرب — ومن ورائه عبد المجيد . . وقال الأول : يا سيدى . . يا سيدى . . لقد عثرت على رجل أبيض . . إنه يسأل عنك . .

وسأله لفنجستون بالعربية : كيف حاله .

وقال حسان : حاله زين (بالعربية)

قال لفنجستون بالعربية : أى والله . . أى والله . . كيف حاله ياحسان . .

ويصف حسان عدد الرجال الذين معه . . وعدد البغال والحمير والمعونات والأدوات الغريبة التى يحملها . . ومنظره وصحته وملابسه . .

وقال له حسان : إن هذا الرجل الأبيض يسأل عنك ويريد أن يراك . .

وفى الصباح التقى الرجلان . . ورأى لفنجستون بوضوح أن هذا الرجل

الأبيض الأمريكي . . فالعلم مرفوع فى مقدمة القافلة . . واقترب الرجل الأمريكي ليقول :

أظن أنت الدكتور لفنجستون .

فقال : نعم أنا مرحباً بك .

وقال الأمريكي : أنا سعيد لرؤيتك . . وأرجو أن تتلقى هذه الأنباء بسرعة . . فلى الشرف العظيم أن أراك . . وما جئت إلا للبحث عنك .

— عنى . .

— نعم . . فقد كلفنى صاحب جريدة نيويورك هيرالد أن أعثر عليك بأى ثمن !

— آه . . انني أعرفه .

— لقد انشغل العالم كله عليك . . فقد انقطعت أخبارك منذ سبع سنوات

وانتهت الدهشة . . وقدم الرجل الأمريكي نفسه . . إنه من أصل إنجليزى ثم تحول إلى الجنسية الأمريكية . . وعمل صحفياً ومراسلا عسكرياً فى الشرق والغرب . . وقد كلفته صحيفته بأن يقدم المساعدات المادية والأدوية للرحالة الإنجليزى . . والرجلان مختلفان تماما : لفنجستون رجل طيب عنيد . . والرجل الأمريكي مورتون ستانلى (١٨٤١ — ١٩٠٤) عنيف وفى غاية القسوة فحياته أيضاً قاسية . . فهو ابن غير شرعى . . وقد تركته أمه عند أقاربها . . وتنكرت له وهرب إلى أمريكا وتبناه أحد الرجال . . ثم عاد إلى الجنسية البريطانية . وأصبح عضواً فى مجلس العموم . . ورفض الإنجليز أن يدفنوه فى مقابر العظماء لأنه أسال الكثير من الدماء فى أفريقيا . . وقد اشتهر هذا الرجل بلقائه العجيب مع لفنجستون . . ولكن أثره الحقيقى هو أنه اكتشف الكونغو . . ثم عمل فى خدمة ملك بلجيكا !

ولم يكد لفنجستون يراه حتى سأله : وما أخبار الدنيا .

فقال له ستانلى : أفضل أن أتركك بعض الوقت لتقرأ رسائل أولادك إليك .. تعلمت الصبر وأستطيع أن أترك هذه الرسائل ساعة أو ساعتين . .

هذه أخبار الدنيا . . إن قناة السويس فتحت . . واتصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر . . (نحن الآن فى سنة ١٨٧١) . والخط الحديدى الأمريكى اكتمل . وجرانت أختير رئيسا لأمريكا . . وامتلأت مصر بالعلماء والخبراء وانتهت ثورة كريت . . وثورة فى إسبانيا أسقطت الملكة إيزابيلا من عرشها .. وبروسيا قد أحتلت الدنمارك وتحاصر باريس الآن . . أنتهت إمبراطورية نابليون تحت ضربات المستشار بسمارك والجنرال فون مولتكه . . وفرنسا الآن تلعق التراب !

وبعد لحظات صمت الرحالة الإنجليزى : عندما رأيت الشيالين يحملون البانيو والملابس النظيفة . . ظننت أول الأمر أنك رجل فرنسى غنى جداً . . وقررت ألا أتصل بك . . فلا شأن لى بك . .

وهنا نهض ستانلى بسرعة وراح ينادى : يا سليم . . يا عبد الرحمن . . هات الزجاجة . . لقد أعددت شمبانيا لهذه المناسبة . . وأعددت كئوسا من الفضة . .

وشرب الرجلان . . وجاء الطعام الشهى . . والأدوية والملابس والفلوس . . وارتفعت روحه المعنوية . .

ويقول ستانلى فى مذكراته الجميلة الفاتنة : جئت أبحث عن « موضوع » عن سبق صحفى . . ولكن وجدت الإنسان أنه ليس فى حاجة إلى أن يقول . . وجهه يقول . . شعره يصرخ . . شفتاه . . عيناه . هذا الهيكل العظمى معناه

الإصرار رغم المرض والجوع والعزلة فى قلب القارة السوداء .. وقلب الأحراش والمستنقعات . .

حاول ستانلى أن يقنع الرحالة الإنجليزى بالعودة . . ولكنه قال له فى الحقيقة : أريد أن أبحث عن هذه الينابيع التى تحدث عنها المؤرخ هيرودوت.. لابد أن هذه الينابيع هى التى يخرج منها نهر النيل !

وترك له ستانلى كميات من الطعام تكفى لسنوات . . وأخذ مع مذكرات لفنجستون خطابات إلى أولاده . . وعاد ليكتب قصة الرحالة الغريب الذى قابله فى أواسط أفريقيا . . وكانت مقالات ستانلى قنابل عالمية . . ولكن الإنجليز شعروا بالخجل من أن رجلا أمريكياً هو الذى أنقذ لفنجستون . . أنقذه من الجوع والمرض والموت . .

وعجز لفنجستون تماماً عن الحركة . . ولم يفلح العلاج والطعام . إنه أحس باقتراب النهاية . اتجه من جديد إلى بحيرة تنجانيقا . . ثم اتجه شرقاً وشمالا .. وفى الليل ينهض مفزوعاً إلى الغابة ويسأل الأشجار : ألا تعرفين بحيرة تخرج منها أربعة أنهار !

وكان الرجال يبكون لحاله ..

وفى الليل ، كل ليلة ، يجدونه راكعاً إلى جوار فراشه ويتحدث إلى الله وقد أضاء شمعة . . ويقتربون منه . . وعندما يسمعونه يهمهم يتركونه فى صمت . . وفى إحدى المرات وجدوه راكعا وقد أسند رأسه إلى الفراش . .

. ولا ينطق . . ولا يتنفس . . وفى هذه اللحظة سمعوا صوت طائر متوحش هذا الطائر يشم رائحة الموتى . . لقد مات لفنجستون قبل ذلك بساعة واحدة !

وبسرعة وقف رجاله صفين وراحوا يبكون . . وبسرعة غريبة . . تقدم واحد منهم إلى ملابس لفنجستون وخلعها . وإلى بطنه وفتحه . وأخرج قلبه ودفنه تحت شجرة !

وتقدم رجل ثالث وقام بغسل الجثمان وتحنيطه ثم لفه بالقماش لفاً محكماً وأعلن الرجل أنه لابد أن يعودوا به .. ووافقوا جميعاً .. لابد أن يسلموه للقنصل البريطانى على مدى ١٥٠٠ ميل . . ونقلوا جثمانه على رؤوسهم عبر الغابات والمستنقعات والصحارى والقبائل التى تتشاءم من جثث الموتى والقتلى . . والوحوش التى تشم رائحة الجثث . . حملوا جثمانه تسعة شهور حتى وصلوا إلى زنزبار . . وقد حاول بعض البيض إقناعهم بدفنه فى أى مكان . . ولكن الرجال رفضوا !

ونقل جثمانه بعد ذلك إلى لندن . .

. . وكانت أطول جنازة فى التاريخ !

ودفن فى مقابر العظماء يوم ١٨ أبريل سنة ١٨٧٤ . . وفى جنازته كان يمشى أربعة : عبد الحميد وسليم والطاهية حليمة وعبد الرحمن ابن غالب !

لقد مات هذا الرحالة ولم يكتشف منبع نهر النيل . . ولكنه كان أول من رسم أواسط أفريقيا . . ورسم أنهارها وبحيراتها . . وأقام مراكز للتبشير الدينى . . وكان أعلى صوت استنكر تجارة الإنسان فى الإنسان !

العروس
التى أحبت القطار
حتى الموت!

أنه فى يوم الأربعاء ١٨ سبتمبر سنة ١٨٣٠ . .

الناس خرجوا من بيوتهم . معهم أطفالهم وطعامهم وشرابهم وأغطية كثيفة . وكلابهم وخيولهم وأغنامهم . ومعهم بعض الكتب . . وأكثرهم يحمل نسخة من الكتاب المقدس . أى يوم هذا ؟ رجال الدين يقولون : إنه من المتوقع أن تقوم القيامة فى الساعة الثانية عشرة وخمس دقائق.. . وقيل : وست دقائق . . أكثر الناس سعادة . . الأطفال والفتيات . . وأكثرهم تعاسة الأمهات ورجال الدين .

وقد تزاحم بعضهم إلى جوار بعض . . إلى مدى ثمانية كيلو مترات من مدينة ليفربول ، وقفوا وجلسوا على جانبى الشريط الحديدى . . وتكدسوا عند النفق الذى يفضى إلى المدينة ، فهنا عند النفق سوف يرون معجزة العصر الحديث كله . . بل معجزة العصور كلها . . ومن حق كل إنجليزى أن يرفع رأسه إلى أى ارتفاع ، وإذا شك أحد فى ذلك ، تكاثر عليه الناس واتهموه بأنه فرنسى أو أمريكى أو ألمانى على أسوأ الفروض !

الساعة السابعة . . الثامنة . . التاسعة والنصف . . لم يظهر شىء من بعيد ، وأخيراً ظهرت عربة . . لها عجلات من حديد . . يدفعها الناس أمامهم .. ومن الغريب أنها بسهولة تندفع على الشريط الحديد . . هذا معروف ، قد رآه الناس كثيراً ، بل إنهم رأوا العربات تجرها الخيول فوق القضبان أيضا

وفجأة صرخت الجماهير . . وارتعد الأطفال ، وتراجعت الأمهات . . لقد حدث انفجار وصفير وضجيج ودخان وضوضاء حديدية . . لقد تحركت « القاطرة » ، هذا هو اليوم الذى انتظره الجميع من سنوات ، قاطرة تجر وراءها عربات ، وفى العربات اناس وبضائع . . وفى الطريق من مدينة ليفربول إلى مانشستر ، اليوم افتتاح أول خط حديدى فى العالم . .

والموسيقى راحت تعزف نشيد « جاء البطل المنتصر جاء . . » أما البطل المنتصر فهو دوق ولنجتون الذى هزم نابليون فى معركة واترلو ، فقد كان موجودا فى ذلك الوقت باعتباره رئيسا للوزراء . . وإن كانت الجماهير تفضل أن تنظر إليه باعتباره بطلا من أبطال الحرب . .

وظهرت القاطرة الأولى على قضبان خاصة . . تجر وراءها ثلاث عربات . . العربة الأولى لها ثمانى عجلات ، وفيها فرقة الموسيقى العسكرية ، والثانية ركبها ولنجتون والوزراء وأعضاء مجلس العموم واللوردات والعربة الثالثة ركبها مدير السكك الحديدية الجديد وكبار المهندسين . . أما القاطرات الأخرى وعددهن ست ، وكل واحدة لها لون ولها اسم : الأولى اسمها العنقاء ولونها أخضر .. والثانية اسمها : نجمة الشمال ولونها أصفر . . الثالثة اسمها : القذيفة ولونها أحمر .. والرابعة اسمها : الشهاب . . ولونها أزرق .. والخامسة اسمها : السهم ولونها وردى . . والسادسة اسمها : النيزك ولونها بنى . .

وقد أعلنت القاطرة الأولى قدومها بانفجارات عنيفة . . ودخان وغليان . . وكان الجو باردا ، ولكن الناس على الجانبين قد نسوا البرد والعواصف التى هبت على غير العادة فى هذا الوقت من العام .

وبلغ عدد الركاب فى هذا اليوم ٧٧٢ راكبا ، كلهم يحسدون أنفسهم على هذا الحظ السعيد .. تصوروا أنهم أول من ركب قطارا فى التاريخ وبسرعة « ضوئية . . أقرب إلى سرعة البرق الخاطف » . . لقد كانت

سرعة القاطرة حوالى ١٥ كيلو مترا فى الساعة . (خمسة عشر كيلو مترا فى الساعة) .

أما القاطرة التى ركبها ولنجتون فكانت لها مهمة خاصة .. لقد تجمع المهندسون يعرضون على البطل الكبير كيف أن القاطرة تتحرك وتقف . . وتسرع وتبطئ . . وكيف استطاع الإنسان بعبقريته أن يتحكم فى الحديد والنار وكيف استطاع أن يحول البخار إلى حيوان ذليل ذلول . . يلمسه فيقف . . ويضغط عليه فينطلق . . إن الإنسان قد دخل عصراً جديداً .

وترددت عبارات : إن الإنسان سيد هذا الكون . . قد لان الحديد . . واحتبس البخار . . والتقى الماء والنار من أجل خدمة الإنسان والإنسانية !

وكان صوت القاطرة أعلى من صراخ الناس . . ومضت القاطرة . . ووراءها قاطرة أخرى . . وخمس قاطرات أخريات وفجأة توقفت القاطرات وهبط المهندسون وأعلن واحد أن القاطرات فى حاجة إلى مزيد من الماء ، فالبخار يتعالى ، ودرجة الحرارة شديدة . والناس يتصببون عرقاً ، ثم إنهم إذا أخرجوا مناديلهم من جيوبهم ومسحوا وجوههم ، فهذا السواد الذى يرونه هو هباب الفحم طبعا ، ويضحكون ولكن الحزن باد على وجه أحد المهندسين وهو يقول : أعرف ذلك . . ولكن سوف نجد طريقة للتخلص من هذا الفحم . . سوف نجد طريقة !

ومن الغريب أن أحدا لم يسجل هذه الرحلة الفريدة فى التاريخ لا أحد ! فكل دفاتر شركة السكك الحديدية تسجل أرقاما ، وأسماء بعض المشاهير ولكن كيف حدث ما حدث ، ماذا قال الناس . . كيف هزمهم الحديد والنار . . لاشىء من ذلك فى كتب التاريخ .

ولكن فتاة فى العشرين من عمرها هى التى احتفظت لنا بوثيقة نادرة تصف فيها ذلك اليوم ، الفتاة اسمها نانى كمبل ، كانت ضمن السعداء الذين ركبوا قطار دوق ولنجتون ، وأرسلت خطابات طويلة إلى إحدى صديقاتها .

تقول فى إحدى رسائلها : عزيزتى . . أنت تعرفين سعادتى وأنا أظهر على المسرح لأول مرة . . فى دور جولييت . . طبعا تذكرين . . أن سعادتى هذه يمكن تسجيلها فى ورقة واحدة . . ولكن هذا الشىء المذهل الذى حدث لايمكن وصفه فى مئات الأوراق . . شىء يحتاج إلى موسيقى . . وإلى شعر . . لقد فقدت إحساسى بكل شىء . . كنت فى نشوة . . لم أشعر بأن لى جسما ولا وزنا . . اننى أطير . . ما هذا العصر الذى نحن فيه . . ما الذى يريد أن يصنعه الإنسان . . إن الإنسان استطاع أن ينطلق بهذه السرعة المجنونة . . بهذه السرعة يشق طريقه بين صواعق التصفيق والصراخ . .

وتقول فانى كمبل أيضا : هذه المرة من أى شىء أحدثك . . أود أن أعيد ما قلته لك من قبل . . فإننى لا أتعب من تكراره . . إنه لا ينسى . . هل تعرفين كيف بدأت هذه المعجزة . . أن صاحبها رجل متواضع ، كان يعمل فى المناجم ، ولكن له قدرة نادرة على فك الساعة وتركيبها ، وفى وقت فراغه كان يصنع الأحذية لنفسه . . إن لديه هذه القدرة الخارقة على تركيب الأشياء وإبداعها . . هذا الرجل الذى اخترع القاطرة اسمه جورج ستيفنسون. أنه فى الخامسة والخمسين من عمره — لقد كانت سنه فى ذلك الوقت ٤٩ سنة . .

ومضت الفتاة تروى قصته . . وكيف أنه ذهب إلى مجلس العموم البريطانى وعرض عليهم اختراعه ، وكيف أنه سيصنع قاطرة تمشى على عجلات ، هذه القاطرة تنقل الناس والبضائع وكيف يأمل أن يجعلها « تطير » بسرعة عشرين كيلو متراً أو خمسة وعشرين كيلو متراً فى الساعة . . ولم ينظر هذا المهندس إلى وجوه أعضاء مجلس العموم ، فقد تغيرت ألوانها ، أما أعناقهم فدارت يمينا وشمالا ، وتهامسوا وقال واحد : إنه مجنون ، وقال ثان : هذا هو السحر الأسود . . وقال أكثرهم طيبة ورقة : دعوا الرجل فى حاله إنه جنون الفقراء . .

ولكن هذا المهندس الواثق من نفسه اتجه إلى إحدى الشركات ، وعرض عليهم مشروعه . فكروا . دبروا . اتفقوا . أعطوه المال فاندفع أسرع من القاطرة يفكر ويصمم وينفذ ، ويضع القضبان الحديدية على الأرض . . استعدادا لهذا اليوم .

تقول الفتاة : لقد أحببت هذا الرجل إنه نحيف . شاحب ، له طريقة غريبة فى الكلام ، ولكنه مهذب ، وهو غارق فى أفكاره ، مهموم كأنه يحمل القطارات والعربات والركاب كلهم فوق كتفيه ويريد أن يسبق القطار !

ونعود إلى ذلك اليوم ، تقول الفتاة العاشقة الولهانة : فى ذلك اليوم وزعوا علينا بطاقات ، يقولون فيها : يجب ألا يبرح أى إنسان مقعده ، مهما كانت الأسباب حرصا على سلامة الجميع ، وكانت أمى فى قاطرة أخرى . وقررت أن أذهب إليها وآتى بها إلى جوارى لتشاركنى سعادتى . . وكانت صدمة عنيفة لقد كادت أمى تموت من الخوف ، وفى هذه الأثناء ظهر رجل يمسك بوقا فى فمه ويصرخ أوقفوا القاطرة . . أوقفوا القاطرة . . إن شخصا قد جرح ! . .

والذى حدث أن القطار عندما توقف فى إحدى المحطات ليتزود بالماء ، نزل بعض الكبراء يتمشون قليلا . . أو يتحدثون عن هذه المعجزة ، ويبدو أن الحديث قد استغرقهم فلم يلاحظوا وسط هذه الضوضاء العنيفة . . أن قطارا آخر قد جاء وراءهم ، ولم يكن من السهل فرملة القطار ، فسقط واحد منهم تحت العجلات ، وانكسرت ساقه اليمنى ، وحاولوا انقاذه ، وبصعوبة أنقذوه . . ووضعوا ساقه إلى جواره ، أما الرجل فهو واحد من رجال الاقتصاد الإنجليز وعضو مجلس العموم . وصاحب مشروعات تجارية وإنسانية كثيرة واسمه هسكنسون ، ومن المضحك أن هذا الرجل

لم يدخل التاريخ على أنه خدم بلاده ، ولكن على أنه أول ضحايا القطارات فى التاريخ !

وحاول الجميع إنقاذ الرجل . . ولكنه كان يصرخ . . ويقول : لقد مت فليرحمنى الله !

وصرخ الناس ، ونزلوا من القطار ولكن القطارات الأخرى مضت فى طريقها فلا أحد قد أدرك ما حدث ، لاسمع ولا رأى . . إنه يوم من أيام القيامة . . أو هى القيامة نفسها . . كل إنسان مشغول بأفكاره ، وبما سوف يقوله لأهله وأصحابه كيف ركب ، وكيف اهتز ، وكيف أمسك قبعته حتى لا تطير من شدة الاندفاع !

وتوقف القطار نهائيا . .

ونودى على المخترع وعلى أصحاب الشركة وقيل لهم إن رئيس الوزراء يريدهم فوراً ، واتجهوا إلى البطل ولنجتون ، فقال لهم : هذه الرحلة يجب إلغاؤها فوراً ، ولا داعى لهذه الهيصة !

ولأول مرة يجد ولنجتون معارضة حقيقية . . قال واحد منهم : ولكن هذا مستحيل لقد دفعنا ألوف الجنيهات من أجل هذا المشروع . . ثم إن هذا الحادث الأليم ليس سببا كافيا فى القضاء على هذا المشروع الإنسانى ؟

وقال ثان : إننا أخذنا أجور كل هؤلاء الركاب ، وليس من العدل أن نفسد عليهم هذه المتعة . .

وقال ثالث : إن هناك مئات من الناس على جانبى الطريق ينتظرون منذ يومين . . وليس من حقنا أن نخدعهم ، ولا من الواجب علينا أن نضلل الناس ؟

وكان على رئيس الوزراء أن يركب القطار أو ينزل ويكمل الطريق فى عربة تجرها الخيول ؟

وتقدمت سيدة عجوز تقول لدوق ولنجتون : ولكن ياسيدى الدوق أن كثيرين ماتوا وهم يركبون العربات التى تجرها الخيول ، فلم يصدر قرار فى أى عصر من العصور بإلغاء العربات وقتل الخيول !

وتقدم رجل يقول لدوق ولنجتون : ياسيدى الدوق . . لم أكن أعرف أن مقتل إنسان يهز جنديا مثلك رأى الألوف يموتون فى الحرب ضد الألمان!

وانطلق القطار . . وتعالت الصيحات من جديد عند مدخل مدينة مانشستر . . ألوف الناس على الجانبين .

ولكن شيئاً من الوجوم والصمت يسود الجميع . . وتوقفت القاطرات . . ونهض الناس على الجانبين فى صمت . . وأفسحوا الطريق لعدد من العمال كبار السن . . إنهم يمسكون المغازل . . وشعرهم منكوش . . ووجوههم شاحبة . . وملابسهم ممزقة . . ويعترضون القاطرات . . ما الذى يريدون أن يقولوه ؟ . . إنها مظاهرة احتجاج على اختراع الآلة البخارية ، التى سوف تؤدى إلى تعطيل الأيدى العاملة . . وتجويع ألوف العمال .

وإذا عدنا إلى سجلات الشركة نجد أن عدد الذين ركبوا هذه القطارات فى الأسبوع الأول بلغ عددهم ستة آلاف نسمة . . أى بمعدل ٧٦٣ راكبا فى اليوم . . وتقاضت الشركة عن هؤلاء الركاب مبلغ ٢٠٤٣ جنيها و ١١ شلنا !

وكانت هنالك آراء غريبة ؟ !

كتب طبيب فى ذلك الوقت أنه ينصح السيدات الحوامل فى الشهر الثانى والثالث ألا يركبن القطار !

ونشر أحد رجال الدين بحثا يقول فيه : إن هذا القطار ضد الدين . . الناس قد أصابهم الغرور . . لأن القطار لم يرد فى الكتاب المقدس ومعنى ذلك أن الإنسان يعرف أكثر مما يعرفه الأنبياء !

وطالب القس : بالقضاء على هذه الخرافة التى تحطم العلاقة الإنسانية والصلات الروحية بين المؤمنين !

أما العاشقة بنت العشرين عاما فكتبت لصديقتها تقول : كل أملى فى الدنيا أن أتزوج شابا أحبه . . وأن نركب معا القطار ، فى أول يوم من أيام شهر العسل . . وأموت بعد ذلك !

وتحققت أمنيتها . . ركبت القطار هى وعريسها . . وكان مخمورا . . وكانت هى فى غاية النشوة ، وسقط العريس تحت عجلات القطار . . فلما حاولت إنقاذه سقطت هى أيضا تحت القطار . . وكان الاثنان معا أول عروسين داسهما قطار فى التاريخ !

يكسب في النهاية
من عنده أرق!

فى يوم ١١ يناير سنة ١٩٠٧ نشرت صحيفة « الصباح » الفرنسية فى صفحتها الأولى هذه العناوين . . مادامت هناك سيارة فالإنسان قادر على كل شئ . . لم تعد الصعوبات الجغرافية مشكلة . . أنها فرصة نادرة أمام الجميع لإثبات عبقرية الإنسان !

إن عبقرية الإنسان هذه مطلوب تأكيدها فى سباق دولى للسيارات من مدينة باريس إلى مدينة بكين . والسباق مفتوح للجميع . وستتولى هذه الصحيفة الإشراف – والدعوة والدعاية لهذه الرحلة الرهيبة . .

وكان كل من يريد الاشتراك أن يدفع ٤٠٠ جنيه .. أما تكاليف الرحلة للسيارة الواحدة فتصل إلى عشرين ألفا من الجنيهات . وقد أعلنت شركات عالمية رغبتها فى الاشتراك . وكان أول المشتركين نبيل إيطالى اسمه الأمير بورجيزة . . وكانت سيارته قوتها أربعة سلندرات . أما الأمير نفسه فهو رجل شجاع . واستطاع عن طريق علاقاته الدبلوماسية الكثيرة أن يدبر لنفسه كل وسائل الراحة والوقود على طول الطريق . . وقد رافقه فى هذه الرحلة ميكانيكى . وحمل الأمير عددا من قطع الغيار الضرورية .

ومن فرنسا اشترك المركيز دى ديون ، وهو صاحب شركة لإنتاج السيارات وقد اشترك بسيارتين ولكل منهما سلندران . وكان يرافقه اثنان لإصلاح السيارتين إذا ما حدث أى خلل .

واشترك رجل ثالث اسمه كونتال بسيارة لها ثلاث عجلات . ورافقه سائق وميكانيكى . .

وأخيراً اشترك رجل مهرج خفيف الدم اسمه شارل جودار . وكان قبل ذلك يعمل فى سباق الخيل . وهو مغامر أفاق مفلس . وقد طلب من أحد أصحاب شركات السيارات الهولندية أن يعاونه على دخول السباق . وأعطوه سيارة هولندية . وملأها بقطع الغيار والإطارات الجلدية . ورافقه ميكانيكى . .

أى أن هناك خمس سيارات على استعداد لأن تقطع المسافة من فرنسا إلى الصين – مهما طال الوقت . ومهما تكبدوا من متاعب أو خسائر .

وقبل أن يبدأ السباق اعترضت الحكومة الصينية على دخول هؤلاء « الشياطين الأجانب » الحدود الصينية . . ونشرت الصحيفة الفرنسية أن هؤلاء الشياطين مصرون على السباق . مهما كلفهم ذلك . . ورغم أنف الامبراطور الصينى !

ووافقت الحكومة الصينية . .

وبسبب رداءة الجو ، تقرر أن تبدأ الرحلة من الصين فى اتجاه فرنسا . .

وشحنت السيارات إلى الصين . .

وتحدد موعد السباق يوم ١٠ يونيو . . وكان على هذه السيارات أن تقطع ١٥ ألف كيلو متر ، أو هذه الكيلو مترات هى التى تقطعها !

وأقيمت حفلة ضخمة لهؤلاء الشياطين الأجانب . ودار رجال الدين حولهم وحول سياراتهم . وتعلقت أغصان الأشجار والورود . فى السيارات وملأ كل واحد منهم جيوبه بحبات الأرز على سبيل البركة . ولكن أحد الدبلوماسيين همس فى أذن الأمير الايطالى وأعطاه تمثالا « نادراً » لبوذا . وطلب إليه أن يضعه فى جيبه . وقيل له أن هذا وحده الذى سوف يساعده حتى النصر . .

أما المهرج جودار فقد ارتدى ملابس صينية كاملة . وحلق رأسه بالموسى – وارتدى قبقابا خشبيا وجوربا أحمر . . واقتربت منه سيدة

وقطعت جزءا من ملابسه ثم أحرقته أمامه . . وقالت : لقد أحرقت الشياطين التى تعلقت بملابسك . اذهب . . على بركة الآلهة !

وبعد توديع الشياطين الأجانب ، أخذت السيارات تخوض طريقها وسط الناس فى اتجاه أبواب مدينة بكين . ومن ورائهم الجماهير . وأمامهم عدد من الرسميين على ظهور الخيول . وقبل أن يبدأوا السباق اتفقوا على أن يتعاونوا فى الطريق حتى لا يقتل أحد . أو لايسقط سائق بسبب المرض . . وكان الأمير الإيطالى أسبقهم إلى خارج المدينة . وبعد ساعات تلفت وراءه فلم يجد زملاءه . وثار . ولكن المهرج جودار أصر على أن يعود إليهم . فقد خرجوا من أبواب أخرى وضلوا الطريق . ولحق بهم ثم أعادهم إلى الطريق الصحيح .

وكانت السيارة ذات الثلاث عجلات هى التى ضربت رقما قياسيا فى عدم تحمل الطرق المتعرجة المليئة بالأوحال .. فانكسرت عجلتها الثالثة . وانتهى السباق بالنسبة لها ..

وكان على المتسابقين أن يمضوا فى طريقهم . فقد سبقهم الأمير الذى أعلن : أن هنالك حدودا للرحمة الإنسانية . وليس من المعقول أن يبكى الواحد منا لغيره .. انها معركة والطريق طويل والصعوبات لا حدود لها ..

وكان على الأمير أن يجتاز أول عقبة : كوبرى من الرخام .. الكوبرى أعلى من الطريق بنصف متر . وكان على الأمير أن يرفع سيارته إلى ارتفاع الكوبرى . ونزل واشترى كتلا خشبية . ووضعها تحت عجلات السيارة . وارتفعت فوقها . وسارت على الكوبرى . ثم عاد فنقل الأخشاب إلى الجانب الآخر . ونزلت السيارة واستأنفت سيرها ..

وقرر الأمير الإيطالى أن يتوقف فى مدينة نانكوف على مسافة أربعين ميلا من بكين . أما السيارات الأخرى فقد توقفت فى الطريق وقررت المبيت

على أن تستأنف رحلتها فى اليوم التالى . ولم يعرفوا إلا فى اليوم التالى أنهم توقفوا على مدى ميل واحد من مدينة نانكوف .

ومضى الأمير متجها نحو حدود منغوليا .. والطريق ملئ بالجبال والوديان والطرق الضيقة التى تمشى فيها الجمال . واستعان الأمير بعدد من الشيالين يدفعون عربته إلى أعلى .. ويمسكونها بالحبال إذا نزلت أحد الطرق اللولبية الضيقة .. وفى كثير من الأحيان كانوا يتركون الأمير وحده ، ويجلسون يتعاطون الأفيون وكان على الأمير أن ينتظر .

وبعد أن عبرت السيارات بصعوبة لا حد لها بعض السلاسل الجبلية ، استراح الأمير فى أحد الفنادق . الفندق بدائى قذر . ولكن الناس مهذبون . وفى غاية الرقة والمرح . وعلى استعداد دائم لأن يساعدوا هؤلاء الشياطين الأجانب !

وعاود الأمير رحلته .. واقترب من حائط الصين العظيم .. ونفذ منه .. وانفتحت أمامه الأراضى الصينية الشاسعة والواسعة .. ملايين من حقول الأرز .. والمستنقعات والطرق الضيقة والأوحال والأمطار والرعد والبرق .. ولم تتوقف سيارته .. واستطاع أن يصل إلى حدود سيبيريا وهناك التقى بموظفى البنك الروسى الصينى . واحتفلوا به وأمضى وقتا سعيدا . وفى الصباح المبكر انطلق بسيارته ودون حاجة إلى شيالين ..

لقد مضت على الرحلة سبعة أيام ، قطع فيها ٢٠٠ كيلو متر .. وما يزال أمامه ١٣٠٠ كيلو متر .. وعليه أن يجتاز منغوليا وصحراء جوبى . وهذا هو الجانب الخطير من الطريق.. فالنهار ملتهب والليل جليد . وعلى الرغم من وجود محطات تلغرافية فى الطريق وهذه المحطات قد زودت بوقود للسيارات وطعام للمتسابقين ، فإن هناك مئات الكيلومترات من الطرق العارية التى خلت تماما من الإنسان والحيوان . فإذا توقفت السيارة ، توقفت الحياة أيضا . ولذلك فعلى السيارات جميعها أن تحمل وقودها وطعامها وقطع غيارها . وعلى السيارات أيضا أن تلقى بكل ما ليس ضروريا . وأن تكتفى بالقليل النافع من كل شئ ..

وراحت السيارات تلقى بأحمالها من الطعام والمشروبات والملابس . بل إن المهرج جودار قد ألقى بصندوق من الشمبانيا .

وتعطلت السيارات كلها فى الطريق . فاستأجروا الخيول لجرها يومين . ثم راحوا يدفعون هم هذه السيارات يوما كاملا . ورفضت القبائل البدوية معاونتهم لأسباب غير معروفة . وعلى الرغم من أن المهرج جودار حاول أن يكون ظريفا مع طفلة صغيرة . وحاول أن يضعها على سيارته على سبيل المداعبة .. ولكن القبائل لم تهتز لما حدث ولا فرحوا بالمداعبة بل انزعجوا لأنه أخذ منهم الطفلة . بل تركوه يجرى وراءهم ليعطيهم طفلتهم ..

وأصلحت السيارات واستأنفت السباق ..

وكان الأمير الإيطالى فى المقدمة ..

وكان المهرج جودار وسائق السيارة الهولندية وراءه .. أما الفرنسيون فكانوا فى المؤخرة .

وعلى الرغم من أن المسافة التى تفصلهم عن حدود سيبيريا الجنوبية حوالى ٣٠٠ كيلو متر .. فإن السيارات بدأت تلهث .. ورغم البرودة الهائلة للجو فإن السيارات تغلى وتنفث وتتهالك على جانبى الطريق ..

أما سيارة الأمير فقد غاصت فى الرمال الناعمة . واستأجر عددا من الخيول سحبت السيارة عبر الرمال والمستنقعات . ثم عادت فغاصت فى الرمال الناعمة . وراحت تدور حول نفسها ولا تتحرك . وجاء الفلاحون ومعهم الثيران . وسحبوا السيارة . وقرر الأمير أن يفك السيارة تماما . وأن يخلع عجلاتها . وأن يرفع موتورها وأن ينقلها إلى الأرض الجافة قطعة قطعة .. ثم يعيد تركيبها . ويعاود استكمال السباق ..

ووصل الأمير بورجيزة إلى مدينة على حدود الصين وروسيا القيصرية

وهناك استراح وأكل وشرب ونام . وحمل معه أكثر من خمسين لترا من الوقود .

ثم اتجه بسيارته إلى بحيرة بايكال ..

ووجد من المستحيل أن يعبر البحيرة بزورق يحمل هذه السيارة ولذلك قرر أن يدور حول البحيرة وكان عليه أن يعبر بسيارته أحد الجسور القائمة على نهر صغير ونزل من السيارة يختبر الجسر . وأدرك أن الجسر لن يقوى على حمل السيارة . وقيل له إنه فى الإمكان إصلاح هذا الجسر بعد أسبوع .

وفكر الأمير . ثم بعث برسالة إلى الحاكم العام يستأذنه فى أن يربط سيارته بأحد القطارات فوافق الحاكم العام . وارتبطت السيارة بالقطار الذى يمشى بسرعة عشرة كيلو مترات فى الساعة . وكان الطريق صعبا . وكان القطار يهز السيارة ويحطم ويفكك كل مساميرها ثم قرر الأمير أن ينفصل عن القطار ليلحق به فى مكان آخر .

وكان لابد أن يعبر جسرا على نهر . ونزل ليرى الجسر فوجد أنه ليس أحسن حالا من الجسور السابقة . واتجه بسيارته إلى الجسر . وعندما أصبح فى منتصف الجسر تداعت أعمدته الخشبية . وسقطت السيارة فى النهر . ولحسن الحظ سقطت على الإطارات الإحتياطية . فلم تتهشم .. أما الميكانيكى فقد أصيب بكدمات . ولكن الأمير لم يصب بسوء . وسحبوا السيارة وأعادوا ربطها وضبطها . وبعد خمس ساعات استأنفوا الرحلة ..

أما الآخرون فقد واجهتهم نفس المصاعب . وإن كان الأمير قد ترك لهم رسالة ينصحهم أن يبحثوا عن وسيلة أخرى لعبور البحيرة . ولكنهم لم يجدوا زورقا أو سفينة تنقل سياراتهم . ولذلك سلكوا نفس الطريق .. وإن كانوا قد شحنوا سياراتهم فى القطار . وعندما وصلوا إلى مدينة أركنسك يوم ٣ يوليو ، كان الأمير قد غادرها فى صباح ذلك اليوم .

ولاحظ المهرج جودار أن الزيت يتسرب من سيارته . فشحنها فى القطار إلى مدينة بعيدة وأصلحها هناك . وعاد بالقطار إلى نفس النقطة التى توقف عندها واستأنف الرحلة وسبقه الفرنسيون . وجاء مهندس ميكانيكى هولندى ومعه قطع غيار جديدة . فأصلح السيارة . وانطلق جودار من جديد . أما الفرنسيون فقد عبروا جبال الأورال واخترقوا المراعى المحترقة . وعلى الحدود الفاصلة بين أوروبا وآسيا توقفوا وشربوا الشمبانيا إبتهاجا بهذا النصر . وقرروا أن يناموا فى أحد الفنادق حتى الصباح وفى ساعة مبكرة صحوا على ضوضاء غريبة .. فقفزوا من الفراش . وأطلوا من البلكونة .. لقد وجدوا المهرج جودار قد لحقهم .. لأنه كان يقود سيارته عشرين ساعة فى اليوم ..

أما الأمير فقد وصل إلى هذه المنطقة منذ أسبوعين . وأتم الأن المئات الأخيرة من السباق . وكان الطريق أمامه واسعا مرصوفا .. وليس عليه إلا أن يجتاز ألمانيا بعد ذلك . وعندما وصل الأمير إلى موسكو أعلن أنه سوف يدخل باريس يوم ٥ أغسطس . أى بعد شهرين من بداية السباق .. واخترق الأمير ألمانيا ووصل إلى حدود فرنسا . ودخل باريس . واستقبلته الفرق الموسيقية .. وانتهى السباق بفوز الأمير الإيطالى الشجاع بورجيزه وانتصرت السيارة الإيطالية !

ولما سألوا الأمير عن سر تفوقه .

قال : إننى أصحو مبكرا ..

قيل له : نشاط وشباب ؟

فأجاب : أرق !

أما الآخرون فقد وصلوا إلى موسكو يوم ١٥ أغسطس واستقبلهم الروس بحرارة شديدة وأقاموا لهم الحفلات والمآدب . وهذه الحفاوة الشديدة قد أخرت السباق بضعة أيام ولكنهم فضلوا أن يكونوا معا !

وعبروا الأراضى الألمانية . وقبل أن يقتربوا من الحدود الفرنسية . نشرت صحيفة « الصباح » الفرنسية أن المهرج جودار قد نصب على عدد من الدبلوماسيين ف الصين . وطلبت من البوليس أن يلق القبض عليه . وبذلك يتأخر وصوله إلى فرنسا ويتقدم الفرنسيون إلى المركز الثانى فى السباق الدولى . ولما علمت شركة السيارات الهولندية أرسلت من يحل محل المهرج جودار . ويكمل السباق وجاء البوليس ومنع المهرج من ركوب السيارة .

ولم يدخل المهرج جودار السجن وإنما دخل سباقا آخر بين نيويورك وباريس عن طريق اليابان . وقبل أن يصل المهرج جودار إلى الشاطئ الغربى لأمريكا ذابت السيارة وتفككت كلها .. أما هو فقد سقط على الأرض وتدحرج فى إحدى القنوات .. وعندما خرج من الماء فوجئ الناس بأنه ارتدى الملابس الأوروبية فوق الملابس الصينية التى كان يتفاءل بها .. وخلع الملابس الصينية وألقى بتمثال بوذا فى الماء .. وراح يصلى على سيارته التى ماتت على حد قوله ثم تمدد إلى جوارها .. ونام .. وتركه الناس نائما .. ساعة .. ساعتين .. ثم حملوه وهو يحتضن بقايا سيارته ودفنوهما معا .. فقد مات جودار .. انها نكتة مؤلمة لمهرج عالمى !

ذهبت إلى الجنة
وعادت تروى ما حدث !؟

كانوا سبعة يجلسون على مائدة الطعام . وقبل أن ينتهوا من شرب القهوة وقفت هى لتقول لهم جميعا : أريد أن أنتهز هذه الفرصة السعيدة لاستودعكم الله .

قالوا : إلى أين .. إلى فرنسا .. إلى إيطاليا .. إلى القطب الشمالى .

تركتهم يتنقلون على خريطة أوروبا كلها .

وأخيرا قالت : إننى ذاهبة إلى الجنة .

قالت واحدة خبيثة : إذن أنت قررت الزواج ؟

قالت واحدة أخرى أكثر خبثا : لابد أنه الإنتحار فى مكان جميل مع شاب جميل ؟

وأمام هذا الضحك من الجميع كانت ملامحها جادة على غير عادتها .

وقالت : انها مغامرة !

وليس غريبا أن تعلن هذه الفتاة أنها ستقوم بمغامرة . فقد فعلت ذلك كثيرا .. خرجت فى الليل وحدها وعادت بذئب قتيل .. ثم ركبت زورقا وحطمت الزورق وعادت إلى الشاطئ بين الحياة والموت .. وصعدت برج إحدى الكنائس .. ثم تدلت بحبل حتى الأرض .

أما الأسباب فليست واضحة وإنما هى تقول عبارة واحدة : أريد شيئا يهزنى من أعماقى .. أريد شيئا يفزعنى حتى الموت ، يسعدنى حتى الموت ..

أما هذه المرة فقد جمعت ملابسها .. فى حقيبتين ، ثم حملت معها سريراً صغيرا . وركبت السفينة إلى سوريا . ومن سوريا اتجهت إلى إيران . وفى إيران سألت عن منطقة معينة .. تعرفها على الخريطة ولكن لا تعرف الكثير عن تفاصيلها . وعلى الحدود سألوها : أيتّها الفتاة الإنجليزية فرايا ستارك ماذا تريدين من بلادنا .

قالت : إنى سائحة .

قالوا : وأى الأماكن تريدين ؟

قالت : أريد أن أرى الجنة التى أقامها الحشاشون فى القرن الحادى عشر فى منطقة جبال البروز .. وعند صخرة الموت ..

وضحك رجال الحدود وقالوا لها : ولكننا الآن فى مايو سنة ١٩٣٠

وعاد الإصرار على وجه الفتاة الإنجليزية . وأكدت أنها تعرف ذلك ولكنها تريد أن ترى ما تبقى من الجنة التى أقامها بعض الناس على الأرض من أجل قتل أناس آخرين

وعلى الرغم من أن فرايا استارك هذه كانت مغامرة فقط ، وأنها تريد أن ترى ، فقد أضافت إلى كل كتب الجغرافيا والتاريخ معلومات قيمة . عندما نشرت كتابها «رحلة فى وادى الحشاشين» . ولذلك فقد عاونتها « الجمعية الجغرافيا الملكية » فى تكاليف هذه الرحلة .

ولكن فرايا استارك فى خطاب لها إلى صديقة تقول : « إن الشئ الذى يبعث على السعادة حقا ، أن فى جيبى جنيهين .. ومعنى ذلك أننى لن أخاف من اللصوص .. فى استطاعتهم أن يسرقوا منى شيئا واحدا : النوم : ومع ذلك فأنا لا أنام إلا قليلا » !

وفى استطاعتك أن تتصور فتاة إنجليزية بمفردها فى يدها خريطة .

وتركب حصانا ومن ورائها إثنان من الشياليين . وقد اتجهت إلى مناطق جبلية .. هذه المناطق لم تر فتاة أوروبية من قبل . فالناس مهذبون . وهم يخفون دهشتهم فى أدب .

وكل ما تعرفه بوضوح هو : أن هناك جبلا اسمه جبل الموت . وقلعة الموت وصخرة الموت . وأن زعيم الحشاشين حسن الصباح كان يقيم فى هذه المنطقة . وأنه مات سنة ١١٢٤ . وكان له قصر اسمه قصر خان .

واتجهت فرايا استارك إلى منطقة الجبال العالية الموحشة . والناس يعترضون طريقها . وكان الشيالون يتولون شرح أسباب هذه الرحلة . الشيالون هم عزيز وسليمان وحجة الله .. وكانت تدفع لكل واحد أربعة شلنات كل يومين .

كتبت فرايا استارك تقول :

« هنا العزلة .. والهدوء والأحلام ورائحة الزهور .. كأننى فى عالم آخر أو كأننى أركب العربة الأخيرة فى قطار الزمن .. وكأن هؤلاء الناس موجودون هنا من ملايين السنين .. لم يتغير شئ .. ويبدو أن شيئا ولن يتغير » .

سألت فرايا استارك أحد شياليها : وأنت ماذا تريد ؟

فقال لا شئ !

قالت : لا أقصد ما الذى تريده منى ؟ ما الذى تريده من هذه الحياة

فأجاب : لا شئ .

ــ لا أمل لك فى شئ ؟

ــ لا أمل .

ــ ولا يأس من شئ ؟

ــ ولا يأس

ـــ سعيد أنت هكذا .

ـــ هكذا سعيد ..

وتقول فرايا استارك أنها نظرت إلى ملابسه .. إلى وجهه .. إلى عينيه .. إلى شفتيه .. كل شئ هو الحد الأدنى من أى شئ .. فهل السعادة هى أن يكون للإنسان الحد الأدنى من كل شئ ..

نعم : السعادة أن يكون لدى الإنسان الحد الأدنى من أى شئ .. وهذا الحد الأقصى من القناعة !

واقتربت قافلة فرايا استارك الصغيرة من ممر شالا .. ممر ضيق .. ولكن على جانبه الزهور والورود .. وأحست أن العطر نفسه ثقيل كأنه ضباب يحجب عن الأنف أن يميز بين روائح الزهور ،وفى هذا الممر تنطلق البغال تحمل الناس والبضائع .. منذ ألوف السنين .. فلم يتغير هذا الطريق بين الصين والهند وسوريا ومصر .. ولم تتوقف الأقدام والحوافر والعطور والصمت والشمس والجليد فى القمم .. كل ذلك كأنه صدى لما كان من عشرات القرون ..

وفتحت فرايا استارك الخريطة لترى أين هو عوش سليمان . فالخريطة تقول أنه عند قمم هذه الجبال فوق صخور عالية له شكل العرش . ويقال إنه عرش سليمان أو أطلق عليه بعض الناس هذا الاسم ..

وفى كتيب صغير قرأت : : انه إذا كان عرش سليمان على اليسار .. فإنه بعد أميال إلى اليمين يوجد « وادى الحشاشين » . وعندما حاولت فرايا استارك أن تطوى خريطتها ظهر لها أحد رجال البوليس : له لحية حمراء . وعينان سوداوان . وبسرعة امتدت يده إلى الخريطة .. وقلبها . ولم يفهم منها شيئا .. ثم عاد ونظر إلى سريرها وطلب منها أن تنشره على الأرض . ثم طلب إلى الشياليين أن يضعوا الحقائب على الأرض وفتح الحقائب . وفتشها جيدا .

وقبل أن ينطق بكلمة واحدة أخرى كانت فرايا استارك قد خلعت البالطو والجاكتة والحذاء الغليظ والبنطلون .. وعلى الرغم من أنه أدرك أنها تسخر منه .. ولكن هذا اللمعان الغريب فى عينيه يدل على أنه قد أعجب بساقيها .. وكانت هى تعرف هذه الحقيقة !

ومضت القافلة فى دهشة مما حدث . ولكن الخجل الواضح على وجوه الشياليين أفقدهم النطق طول الطريق . أما هى فلم تنطق ، لا خجلا فليست هى من هذا الطراز الذى يستحى ، وإنما لأن المنظر أمامها يصيب من يراه بنشوة غامرة .. وكتبت فرايا استارك تقول : «هؤلاء الحشاشون كانوا يدخنون مرتين .. مرة عندما يملأون عيونهم وأنوفهم بهذا الجمال ؛ ومرة عندما يتعاطون الحشيش .. إننى أفضل هذا الحشيش الطبيعى » .

هنا فى وادى الحشاشين .. كان حسن الصباح — زعيم الحشاشين والذى كانوا يلقبونه شيخ الجبل . يزرع الحدائق ويكثر من الزهور .. وكان يشق الصخور لكى يهبط الماء .. وكان يجعل الزهور الحمراء إلى اليسار والصفراء إلى اليمين .. وفوق الجبل توجد قلعة الموت .. ومن هذه القلعة كان يطل حسن الصباح على الوادى .. وعلى رجاله من المؤمنين به .. وكان يقول لهم : لا صلاة إلا من أجلى .. ولا صوم إلا بأمرى .. ولا معبود إلا أنا ..

وكان حسن الصباح عندما يهبط إلى الوادى ينظر إلى القلعة .. ويشير إلى أحد حراسه أن يهبط .. فيلقى بنفسه من أعلى القلعة .. ويهبط إلى الأرض ميتا — منتهى الطاعة العمياء ..

وهنا كان حسن الصباح يدعو صديقه الشاعر الصوفى الفلكى عمر الخيام . ويقال إن عمر الخيام كان يشرب النبيذ بطريقة جديدة .. كان حسن الصباح يصب النبيذ فى أحواض كبيرة .. ثم يأتى بالفتيات الجميلات يسبحن فى النبيذ . وكان يشرب النبيذ من فوق أجسام الفتيات .. وقد انتقلت موضة استحمام الفتيات فى النبيذ إلى أوروبا أيام الحروب الصليبية .. وانتقلت إلى أغانى

شعراء الطروبادور فى فرنسا وإسبانيا فكرة الجنة على الأرض .. أو الجنة التى استطاع إنسان أن يصنعها وأن يدخل إليها المؤمنين . ثم يطردهم منها .. ويرغبهم فيها إذا أطاعوا أوامره .. وكانت أوامره محددة : اقتلوا فلانا الوزير .. أو فلانا الملك ..

وكانوا يقتلون ..

واقتربت فرايا استارك من القلعة التى كانت مصدر الرعب والفزع منذ أكثر من ثمانية قرون .. لم يبق من هذه القلعة شئ .. لقد ظلت هذه القلعة وخمسون قلعة أخرى ، مهيبة قرنا ونصف قرن .. وكان من عادة حسن الصباح أن يدعو رجاله الفدائيين — إلى داخل القلعة ، وهناك يعطيهم الحشيش .. حتى ينتشوا تماما .. ثم تظهر أمامهم الفتيات الجميلات عاريات .. ثم يرون قنوات من لبن وخمر ومن عسل .. ويسمعون الموسيقى .. كأنهم فى الجنة ..

ثم يلقى بهم حسن الصباح إلى خارج القلعة .. ويعدهم أن قتلوا هذا أو ذاك أدخلهم الجنة مرة أخرى ..

واستمعت فرايا استارك إلى قصص وأناشيد وخرافات عجيبة عن سحر حسن الصباح وخلفائه من شيوخ الجبل وزعماء الحشاشين ..

فقد كان من عادة حسن الصباح أن ينشر رجاله فى كل مكان ليرووا للناس ماذا رأوا وكيف رأوا ؟ وكيف أن الجنة قريبة .. هناك فوق الجبل .. وأن فى استطاعة أى إنسان أن يدخل الجنة .. لأن الطريق إلى الجنة يقف على بابه رضوان ؟ ، ورضوان هذا هو حسن الصباح .. وفى استطاعة الناس أن يقتربوا إلى الجنة بدماء الآخرين أعداء حسن الصباح .. وكان على باب الجنة هذه ستة من الكلاب السود .. هذه الكلاب تصبح وحوشا أحيانا ، وتصبح فى وداعة القطط أحيانا .. لقد كان شيخ الجبل يعطيها الحشيش هى أيضا ! ..

وينشر هؤلاء الفدائيين قصص الذهب والفضة والمرجان الذى رأوه فى أرض وسقف الجنة .. وكيف أنهم جلسوا على الأرائك ينظرون .. وعن النعيم المقيم !

وكتبت فرايا استارك تقول فى كتابها : كنت أتمدد على سريرى .. وفجأة رأيت طفلا صغيرا .. وجاء الطفل وقدم لى زهرة .. وكانت تحية رقيقة صادقة صافية لم أتوقعها .. فأنا ما أزال فى ذهول مما أرى .. ورأيت الطفل يمد يده إلى الزهرة ثم يقطف منها ورقة .. ويأكلها .. وكانت عيناه تطلبان منى أن أفعل مثله .. وأكلت ورقة .. ثم ورقة .. ورابعة .. وأكلت الزهرة كلها .. والآن أستأنف كتابة هذه المذكرات بعد ثلاث ساعات أمضيتها فى النوم .. فقد كانت هذه الزهرة الجبلية نباتا مخدرا .. وكنت فى حاجة إلى النوم حقا .. وبصراحة لا أعرف بالضبط .. إن كان هذا قد حدث .. أو أننى أحلم أو أن بعض الأطعمة المخدرة قد أكلتها دون أن أدرى .. أوأننى إنضممت دون علم منى إلى جماعة الحشاشين .. لو ظهر لى الآن حسن الصباح لطبقت عليه أحد مبادئه : وذلك بأن أقتله هو .. »

وإلى هذه المنطقة التى رسمتها رسما دقيقا ، جاء المغول بقيادة هولاكو سنة ١٢٥٦ وحاصروا هذه القلاع . ومن الغريب أن هذه القلاع ظلت صامدة عدة شهور ثم استسلمت .. وقتل هولاكو ١٢ ألفا من الحشاشين .. وكان فى جيش هولاكو عدد من المهندسين الفنيين .. وعدد من خبراء القلاع .. وقد دخل المهندسون الصينيون .. وعدد من خبراء القلاع .. وقد دخل المهندسون الصينيون إلى داخل القلاع وفتشوا عن الذهب والماس الذى وضعه حسن الصباح فى كهوف عميقة .. وحمل هولاكو هذه الثروات الخيالية معه .. أما المكتبة التى كانت تضم كتبا عن الإلحاد ، ألوف الكتب ، فقد أحرقها هولاكو . وقبل أن يحرقها سأل بعض الحشاشين من هو أعقلكم هنا ؟

فتقدم رجلان ..

فأمر هولاكو بقتلهما فورا وقال : : لو كانا عاقلين ما تقدما ..

ثم نظر إلى سبعة آخرين وقال : إذن أنتم أعقل الموجودين هنا ..

وأمر بإحراقهم وعشرات الألوف من الكتب ..

وتحولت الجنة الوهمية إلى نار حقيقية ..

وعادت فرايا استارك إلى انجلترا تحكي ما رأت ..

ويبدوا أن شيئا قد فاتها فى وادى الحشاشين .. ولذلك رجعت مرة أخرى إلى جبل البروز وإلى قرية الموت وصخرة الموت .

وقررت أن تفعل شيئا غريبا جنونيا .. حملت سريرها .. ونامت فى قلعة حسن الصباح .. أوفى بقايا هذه القلعة .. ومن العجيب أنها رأت فى نومها حسن الصباح ورأت الجنة .. ورأت أنهار اللبن والعسل والخمر والفتيات الجميلات وشبابا فى غاية الرجولة والجمال أيضا .. والذى أنهضها من نومها الغريب أن شابا كانت تحبه قد رأته فى الجنة أيضا .. ففزعت من نومها .. فهذا الشاب قد قتل فى حادث سيارة ..

وفى اليوم التالى قررت ألا تتناول أى طعام سوى الفاكهة .. فقد خافت أن يكون فى كل شئ حشيش : الهواء والماء والخبز والأرز .. وتمددت على سريرها وحدها .. وصحت من النوم فى ذهول أكثر : لقد أمضت ليلة طويلة عروسا لحسن الصباح .. زفة عروس .. وعروس .. وغرفة من ذهب وفضة وحرير .. تطير فوق السحاب .. ثم تهبط فوق الجليد .. ثم تنزل على عرش سليمان . . وأنها بلقيس . . ثم أحست أنها كليوباترة . . وعندما التفت حولها أفعى كليوباترة نهضت من نومها .. وجمعت حقائبها .. وتركت سريرها واتجهت إلى الشاطئ .. إلى البحر .. إلى انجلترا لتروى للناس كيف دخلت وخرجت ودخلت الجنة ! ..

تسعون يوما ..
على ألواح خشبية
بحثا عن إله أبيض !

رجل وزوجته أقاما فى إحدى جزر المحيط الهادى بضع سنوات .. كل سكان الجزيرة عراة بدائيون ، ولكن الذى يبعث على الدهشة أن لهم ابتسامة دائمة .. وأن لهم شعرا أصفر وعيونا زرقاء .. وهذا عجيب . فكل سكان الجزيره من الصفر أو السمر ، ولكن هؤلاء البيض بدائيون أيضا .. فمن أين جاءوا ؟

ظل هذا الرجل يفكر كل سنوات الحرب العالمية الثانية . كانت عنده عدة فروض . ولا يوجد أى دليل علمى ولذلك أخذ يجمع الأساطير القديمة والأغانى الشعبية . وراح يصور النقوش والتماثيل التى تتجه إلى الغرب وكلها تتجه إلى ناحية واحدة .

وفى إحدى الليالى كان هو وزوجته يتطلعان إلى القمر . والمحيط الهادى هادئ فعلا . لا موج . لا شئ يعلو من الماء . والنسيم عليل يسحب نفسه سحبا على السطح .. وفجأة هبت الريح . وعلت الأمواج .

ولاحظت زوجته شيئا عاديا . وعندما فكر فيه زوجها ظهرت أمامه رؤية جديدة .. لاحظت الزوجة أن الأمواج كلها تتكسر على شاطئ واحد .. أما بقية شواطئ الجزيرة فلا تتكسر عليها الأمواج . أو بعبارة أخرى أن الموج أو التيار يجئ من ناحية واحدة .. فلماذا لا يجئ أناس آخرون أيضا من هذه الناحية . أما هذه الناحية فهى أمريكا والمسافة بين هذه الجزيرة وأمريكا حوالى ٤٣٠٠ ميل ؟

لماذا ؟ ليس أسهل من الأسئلة وليس أصعب من الإجابة عليها .

وبهذه الملحوظة اكتملت النظرية فى رأس زوجها الرحالة الشاب تور هايردال وكان عليه أن يدرس أكثر ويتصفح خرائط أكثر . وأن يتصل بعدد من العلماء . وانتهت الحرب . وذهب إلى نيويورك . وقلب عشرات المئات من الكتب . وسجل ملاحظاته كلها فى بحث . وعرض البحث على أساتذة الجامعات الأمريكية . هزوا رؤوسهم وقالوا : مجهود عظيم ولكن نظرية خاطئة .

وكان رد هايردال : مجهود عظيم هذا صحيح . . والنظرية صحيحة حقا !

وآمن بنظريته . وصمم على أن يثبت صحتها . وهو فى حاجة إلى مال . وإلى عدد من الشبان المغامرين الذين يؤمنون بوجهة نظره هو أيضا . ويقامرون بحياتهم معه !

أما النظرية فهى : أن هؤلاء البيض الذين تناثروا فى جزر المحيط الهادى لابد أن يكونوا قد جاءوا من أمريكا الجنوبية . ولكن سكان أمريكا الجنوبية من ألوف السنين كانوا من الهنود الحمر . وليس معروفا عن الهنود الحمر أنهم كانوا يصنعون السفن ويرتادون المحيط . إذن من أين جاء هؤلاء البيض . لابد أن تكون هناك جماعة أخرى من البيض كانوا يسكنون أمريكا الجنوبية قبل الميلاد بأكثر من خمسة قرون . أما الأساطير فتقول إن هناك جماعة من البيض جاءوا من بعيد . وأساطير أمريكا الجنوبية تقول إن جماعة من البيض دارت بينهم وبين السكان الأصليين مذابح . هذه المذابح جعلت البيض يهجرون أمريكا ويتجهون إلى هذه الجزر . وكان يتزعم هؤلاء البيض الزعيم الإله « تيكى » . . وكانوا يطلقون عليه كلمة « إله » العربية هذه — وهذا غريب !

ولاحظ تور هايردال أن هناك تماثيل عجيبة الشكل والحجم . وأن بعضها فى غاية الدقة . وأن هذه التماثيل شبيهة بالتماثيل الموجودة فى بيرو فى أمريكا الجنوبية . مع أن المسافة بينهما أكثر من أربعة آلاف ميل . . ولاحظ أن لغة جزر هاواى تشبه لغة جزر تاهيتى مع أن المسافة بين هذه الجزر تعد بألوف الأميال .

إذن لابد أن تكون الشعوب التى عاشت فى هذه الجزر واحدة أو أنه شعب واحد يختلف عن كل الشعوب الآسيوية ..

ثم اكتشف هايردال أنه إذا كان هؤلاء البيض الذين سكنوا أمريكا الجنوبية وهاجروا إلى هـــذه الجزر لم يتركوا سفنا كبيرة فما المـانع أن يعبروا المحيط الهـادى فى زوارق صغيرة ؟

وكل المعلومات القديمة تؤكد أن أبناء الشواطئ الغربية لأمريكا كانوا يستخدمون خشب البالسا فى صنع الزوارق . إذن لابد من القيام بالتجربة وأعلن عن رحلته .. وتحدثت الصحف وأجهزة الإعلام الأخرى . وتقدم هايردال إلى وزارة الطيران الأمريكى فساعدته وأعطته زوارق لم تجربها بعد . ووزارة التموين البريطانية أعطته أنواعا من الحبوب تريد أن تجربها .. ثم تقدم خمسة رجال آخرون يريدون أن يساهموا فى هذه الرحلة .. أصبحوا ستة الآن . خمسة من النرويج وواحد سويدى .

واعترض هايردال على تزويد زورقه الجديد بجهاز لاسلكى لأنه أراد أن يعيش فى نفس الظروف التى عاشها المهاجرون البيض من ألوف السنين . ولكن زملاءه نبهوه إلى أن هذا الجهاز لا يفيد فى أى شئ . لأنهم إذا غرقوا فلن يستطيع أحد إنقاذهم . ولكنه ضرورى لكى ينقلوا إلى العالم أحوال الطقس . أو ليصححوا مسارهم .. وأخيرا وافق ..

إذن لا يستبعد أن يكون المهاجرون الأمريكان البيض قد استخدموا زوارق صغيرة . وعاشوا على صيد السمك وشرب ماء المطر . وقطعوا كل هذه المسافة . ممكن .

وظهرت مشكلة جديدة : من أين يأتى بخشب البالسا ؟ فهذا الخشب لا يوجد فى بيرو التى تقع على الساحل الغربى لأمريكا الجنوبية . وإنما يوجد فى الداخل فى دولة إكوادور . وعليه أن يذهب إلى إكوادور ويقطع أشجار البالسا ثم يقوم بتعويمها فى النهر إلى الشاطئ .. وعلى الشاطئ يجب أن يصنع هذا الزورق مستخدما الفأس والسكين . وفى ميناء «كالا» بدولة بيرو ، جلس

الستة يصنعون زورقهم من ألواح خشبية متراصة . لا مسامير ولا أسلاك . وإنما من الحبال وصنعوا أيضا شراعا مثلثا . وآخر مربعا . واستخدموا المجاديف . وكانت الدفة مجدافا أيضا . وجعلوا فوق الألواح الخشبية غرفة ينامون فيها . وكان العالم كله يتابع أخبار هؤلاء المغامرين الذين وصفهم الأديب الإنجليزى سومرست موم : بأنهم أنعشوا الروح الأوروبية التى انهارت بعد الحرب العالمية الثانية . وأن الذين عندهم بلادة ذهنية فقط هم الذين يستطيعون تجاهل مثل هذا العمل العظيم ..

وفى أحد الأيام جاء وزير بحرية بيرو . ونظر إلى الميناء وإلى أرصفة السفن . وسأل عن الزورق الذى سوف يعبر المحيط . ولكنه لم يستطع أن يراه وأخيرا دلوه على كومة من الخشب البنى اللون متراصة بعضها إلى جوار بعض . فضحك ثم طلب إلى هؤلاء الستة أن يوقعوا على وثيقة تقول إن هذه الرحلة على مسئوليتهم وحدهم !

وجاء يوم السفر . وكان ذلك يوم ٢٨ أبريل سنة ١٩٤٧ .

وتطلع الناس إلى الزورق الصغير الذى اختار له هايردال اسم « كون تيكى » أى إله الشمس .. ثم صعدت ثلاث فتيات جميلات إلى ظهر الزورق الصغير .. وجاء لنش وسحبه إلى خارج الميناء .. وبعد ذلك نزلت الفتيات الثلاث .. وركب البحارة الستة .. وتعالت الصيحات والموسيقى تتمنى للمغامرين النجاح فى هذه الرحلة المجهولة وتطلع هؤلاء الشبان إلى الجبال العالية . إنها ما تزال راسخة وظلت راسخة أمامهم ساعات طويلة .. والزورق لا يتحرك من مكانه . حتى هبت نسمة .. وامتلأ الشراع . وراحوا يلقون قطع الورق ليروا حركة الزورق .. وكان يتحرك .. وجاء الليل واختفى كل شئ بعيدا . وقد اقترح عليهم بعض الأصدقاء أن يستخدموا المصابيح الكهربية ليلا . لأنهم يمشون فى طريق ملاحى . فقد تغرقهم السفن الكبرى دون أن تراهم أو تدرى بهم . وقد عارضوا أول الأمر . ثم وافقوا .. وبقياس سرعة الزورق

لاحظوا أنه سار فى الأربع والعشرين ساعة مسافة ٥٥ ميلا أى بمعدل ميلين فى الساعة .. وجلس البحارة على صناديق الطعام . وقد ارتبط كل واحد منهم بحبل حتى لا يسقط فى الماء .. وناموا مهمومين جميعا .. إلا واحداً . هذا الواحد هو ببغاء فى قفص كان يتناول الأسماك التى تتناثر من الماء وتسقط على الزورق . وأحس البحارة الستة أن العزلة تامة ! . لا أحد . لا شئ . البحر حولهم . لا نهاية لأى شئ . وقد قدروا هذه الرحلة بحوالى سبعة وتسعين يوما إذا لم يحدث شئ غير عادى ..

وتوالت الليالى ..

وفى إحدى الليالى صحا واحد منهم على شئ بارد يلعب فى قفاه . وكان الليل أسود . وصرخ . وأشعل عود كبريت . فوجد ثعبانا طويلا . وفى فم الثعبان سمكة . سقطت السمكة . ثم خرجت من فمه سمكة أخرى . وتعاونوا على قتله . وكان من الثعابين النادرة . أما هذا الصوت الغريب الذى يسمعونه ليلا إلى جوار الزورق فهو : سمك القرش .. لم يفارقهم ليلا أو نهارا .. أما هذه الجزر الصغيرة التى تعلو وتهبط فهى عشرات الحيتان ..

وبعد ذلك لم يعرفوا للنوم العميق طعما . فهم يتوقعون زيارات مفاجئة شاذة كل ليلة : صوت سمك قرش .. ثعابين .. أخطبوط — وفى هذه المناطق أنواع من هذا الأخطبوط قادرة على أن تحطم عنق أى إنسان بذراعين من أذرعها فقط !

وحاول هايردال أن يختبر أخشاب الزورق . وكان يخشى أن تتمزق الحبال .. وفى هذه الحالة يصبح الزورق مجموعة من الحبال والألواح .. ولكنه لاحظ أن الحبال قد التصقت بالأخشاب تماما . وأنه لحسن الحظ قد اختار نوعا من الأخشاب الخضراء . ولو كانت هذه الأخشاب جافة لشربت الماء .. ولكن هذه الأخشاب الخضراء قد وقفت فى وجه الماء ولم تغص بالزورق إلا مليمترات قليلة .. مجرد صدفة سعيدة !

أما حياتهم اليومية فهى صيد السمك .. والسباحة إلى جوار الزورق أحيانا وتناوب الدفة ساعة أو ساعتين وبعد ذلك يستريحون .. وفى أثناء العواصف يرتبك النظام ويصحون جميعا ويتماسكون . وفى إحدى المرات سقط واحد منهم فى الماء . وكان الموج عاليا . ولم يفلحوا فى إنقاذه . فهبط واحد منهم وقد لف حبلا حول وسطه .. وسحبه .. وحاول الجميع سحب الاثنين وفى مرة ثانية سقطت أغطية واحد منهم فمال يلتقطها من الماء . وأنقذوه بصعوبة وكان وراءه سمك القرش .. وفى آخر لحظة قفز إلى الزورق !

وعندما يصفو الجو ، يضحكون ، ويلعبون . ويستمعون إلى الموسيقى ويتصلون بهواة اللاسلكى . وكان واحد فى العالم كله هو الذى يعرف مكانهم وأخبارهم أولا بأول وقد لاحظ هايردال أن الصور التى يلتقطها عندما يقوم بتحميضها تكون باهتة .. فما السبب ؟ واتصل باللاسلكى . وعرف عن طريق أحد الخبراء أن جهاز التحميض ساخن . ولذلك يجب تبريده . واخترعوا طريقة للتبريد للحصول على ثلج أيضا !

وكانت معهم أدوية من كل نوع .. ولكن فى إحدى الليالى شكا واحد منهم من مغص شديد . فاتصل باللاسلكى بأحد المستشفيات فى أمريكا وردت عليه إحدى الطبيبات بأن هذه هى أعراض مصران أعور . وجاء رد البحار بأنه تخلص من المصران الأعور منذ سنوات .. فقالت الطبيبة : لابد أن لديك أعور آخر .

وعاد البحار يقول إننا فى المحيط وأن الأمر خطير . وأنه لا توجد أية وسيلة للنجاة .. فاعتذرت الطبيبة عن هذه المداعبة . وأيقظت طبيبا عالميا فى مستشفى « مايو » الشهير . وطلب إليه الطبيب أن يكف عن التدخين ..

وتوقف عن التدخين فى ذلك اليوم وذهب المغص !

ومضت أيام تحول فيها الزورق إلى حديقة نباتات . فالبذور التى حملوها

معهم قد نمت . والبصيلات قد طالت .. حتى الببغاء هو الآخر قد ازداد مرحا وسعادة ..

وجاءت موجة عالية فأطاحت به هو والقفص فى الماء . وكانوا يحلمون له بعروس فى إحدى الجزر !

وبين الحين والحين يأتى هايردال بسكين ويدقها فى خشب الزورق ليعرف مدى تشبعه بالماء . وكان يلاحظ أن قلب الخشب جاف أصم تماما !

وفى إحدى الليالى القمرية وراح واحد منهم يردد أغنية شعبية نرويجية تقول : كان ذلك دون علمى ..

ثم توقف فجأة وسأل : من هذا المجنون الذى أقنعنا بأن نجئ إلى هذه المناطق الموحشة وبهذه الصورة ؟ !

وضحك الجميع .

وحاولوا تضييع الوقت . فتساءل واحد منهم : ما هى أمنيتك . فأجاب : أن أصل إلى أية جزيرة ؟

وقال الثانى : أن أنام وأصحو على نهاية هذا الجنون ؟

وقال الثالث : أن يجئ حوت ويحمل سفينتنا على ظهره بقية الطريق .

وقال الرابع : أن أتمدد على الشاطئ !

وقال الخامس : أن أتزوج .

وقال السادس : أن يكون كل ما أراه حلما !

وعاد الأول يقول : أما أنا فأمنيتى ألا أرى وجوهكم !

وتلفت واحد يصرخ ويقول : انظروا .. انظروا كيف تحول الحلم إلى حقيقة !

ونظروا .. وكانت مجموعة من الطيور .. إذن هم قريبون من أرض .. من جزيرة . وكان ذلك فى نهاية يوليو .. أى بعد حوالى تسعين يوما من الرحلة .. وصرخوا من الفرحة والسعادة . وعادوا إلى خرائطهم . وقالوا لابد أنها جزر يوكايوكا .. واقتربوا منها . ومروا بها . ولم يتمكنوا من الاقتراب لوجود صخور ناتئة وشعاب مرجانية حادة . ودفعتهم الريح بعيدا عنها ..

وفى اليوم السابع والتسعين اقتربوا من جزيرة أناجاتو .. ولاحظوا أن رجلا كبيرا جاء فى زورق صغير واقترب منهم . وقال لهم : مساء الخير .. قالها باللغة الإنجليزية واندهشوا وتحدثوا إليه بالإنجليزية . ولكنهم اكتشفوا أنه لا يعرف إلا هاتين الكلمتين . وعرفوا أن هذه جزر أناجاتو .. ولم يتمكنوا من الاقتراب منها .

وحاولوا الدوران ..

ولكن الموج كان عاتيا . وتمزقت الحبال .. كأنها أحست أنها قد أدت واجبها وأكثر . وأطلقت للألواح الخشبية حرية الحركة . وتحطم الزورق وانتهت الرحلة ولكن البحارة قد وضعوا الأجهزة فى علب لا ينفذ إليها الماء وألقوا بها فى الماء .. فى المحيط .. ثم جاء رجال الجزر وجمعوا الألواح . وجاءت سفينة ونقلت الحطام إلى جزر تاهيتى وبعد ذلك حملوها إلى أوروبا .. ووضعت هذه السفينة التاريخية فى متحف فى مدينة أوسلو عاصمة النرويج ..

أما الرحلة فقد نجحت . وأما النظرية فلا تزال حائرة بين الذين يؤيدونها وبين الذين يرفضونها .. ولكن بقيت مشكلة الإله الأبيض الذى أقيمت له التماثيل الغريبة .

لقد كان لغزا .. هل هو رجل أبيض هل هو واحد من الذين هبطوا من السماء؟

وفى آخر ليلة لهم .. تلقوا رسالة من أحد هواة اللاسلكى يقول : أنا أعرف

مكانكم الآن تماما .. الصوت واضح .. فقالوا له : انتهت رحلتنا .. فقال لهم : مبروك .. هل تسمحون لجينى أن تبعث لكم بقبلة ؟ .. فتزاحموا على الجهاز وقالوا : دعها تقبلنا جميعا فى وقت واحد .

وسمع الجميع صوت قبلة ..

ثم سألوه : كم يبلغ عمر جينى ؟

فقال : إنها ليست كبيرة .. إنها جدتى عمرها تسعون عاما !

فضحكوا قائلين : شكرا لك يا جينى .. نحن نتفاءل بهذا الرقم أيضا !

الطبيب الذى قرر

أنه يعبر المحيط غريقا!

بالصدفة قرأ صحيفة تقول إن رجلا استطاع أن يمتنع عن الطعام أربعين يوما ولم يمت . كان يشرب الماء فقط . وعند نهاية هذه المدة سألوه : ماذا تريد قال : أن أقتل زوج أختى ! ولما سئل عن السبب . قال : لأنه هو صاحب فكرة أن يضرب الإنسان عن الطعام مقابل مبلغ تافه من المال !

ومعنى ذلك أن هذه الأيام الأربعين لم تكن مجرد جوع مستمر . وإنما كانت جوعا وعذابا وانتظارا للإنتقام !

وفى نفس اليوم تسلم مستشفى (بولونى – على – البحر) فى فرنسا جثث ٤٣ غريقا .. وكان ذلك فى أحد أيام سنة ١٩٥١ . وتشاء الصدفة مرة أخرى أن يكون فى استقبال هذه الجثث طبيب شاب اسمه : آلان بومبار . وعلى الرغم من أنه طبيب ، وأنه ككل الأطباء ، قد اعتاد على الدم والصرخات والآهات فإنه أصيب بحالة من الفزع .. لقد رأى على وجوه الغرقى أشكالا وألوانا من الخوف والصراخ المكتوم . فليس أبشع من أن يموت الإنسان غريقا : أى بعد صراع يائس مع البحر والشمس والعطش .. إنهاالعزلة الموحشة التى تقتل أى إنسان !

وكان هذا الطبيب مشغولا فى ذلك الوقت ببحث عن الجوع والتضور . ماذا يحدث للإنسان الجائع ؟ وكم يوما يحتمل الجوع والعطش . فهو يعلم أن أعمال إنقاذ الغريق تتوقف بعد عشرة أيام . وبعدها يستحيل على الجسم الإنسانى أن يقاوم .

وخطرت له فكرة : ولكن لماذا لا يقاوم الإنسان ويلات المحيط . ان

المحيط ليس عميقا . ففيه أسماك من الممكن أن يأكلها . وهناك ماء المطر من الممكن أن يشربه .

وقرر الطبيب بومبار أن يدرس السمك . ومن دراسة السمك عرف أن السوائل الموجودة فى داخل السمك تحتوى على نسبة قليلة من الملح . ومعنى ذلك أن هذا السائل يمكن للغريق أن يمتصه . فى استطاعة الغريق أن يعيش على « عصير » السمك .

ودارت فى رأسه فكرة أخرى : لماذا لا أجرب حياة الغرقى . لماذا لا أعيش كغريق وأكتشف بنفسى ماذا يحدث لأى إنسان لو غرق . ان كل ما سوف أكتشفه سيؤدى إلى إنقاذ ألوف الناس !

ومن المؤكد – من وجهة نظره – أن أى غريق ليس غريقا تماما .. فأمامه فرص للنجاة لا شك فيها ؟

وأعلن عن فكرته ..

ونشرتها الصحف . واتصل به أحد الأثرياء الهولنديين . وطلب إليه أن يجرب أنواعا جديدة من زوارق النجاة المصنوعة من المطاط . أما الزورق فهو عبارة عن « طوف » له موتور . ركبه فى بحر عاصف . ونجحت التجربة . وأعلن عن حاجته لزورق أكبر يستطيع أن يواجه ويقاوم ويطفو على أمواج المحيط . وكما هى العادة تقدم له أناس كثيرون متحمسون ..

وسافر الطبيب إلى مدينة موناكو . وفى هذه المدينة أقام معملا صغيرا فى متحف الأحياء المائية . وهناك أجرى تجارب جديدة على الأسماك . واكتشف أن السمك غنى بالبروتينات الضرورية . ووجد فيه كمية كبيرة من الدهون وكذلك فيتامينات ا وب و ب٢ ود . أما فيتامين ج فموجود فى الأعشاب البحرية . واكتشف أن السمك به من ٥٠٪ إلى ٨٠٪ من السوائل . ومعنى

هذا أن سبعة أرطال من السمك التى يصيدها أى غريق فى اليوم تكفيه للشرب ٢٤ ساعة .

ولكن ماذا حدث إذا مضت أيام دون أن يصيد الغريق سمكة واحدة ؟ فى هذه الحالة يجب أن يشرب من ماء البحر . ولذلك يجب أن يدرس كمية ماء البحر التى يتحملها الغريق . ومن المعروف أن الامتلاء بماء البحر يؤدى إلى الالتهاب الكلوى والموت الأكيد . غير أن تحليله لماء البحر قد هداه إلى أن كوبا ونصفا من ماء البحر يوميا ولمدة خمسة أيام لا تهدد الكليتين ! وانتهى الطبيب بومبار إلى أن وجبة متوازنة من الطعام سوف تمكنه من الحياة !

أما القرار النهائى الذى اتخذه فهو : سوف أعبر المحيط غريقا وفى نفس الطريق الذى سار فيه خريستوف كولمبوس عندما اكتشف امريكا سنة ١٤٩٢ .

وعاد الطبيب بومبار يراجع معلوماته كلها .. فوجد أنه قد درس الأسماك دراسة وافية ودرس الأمواج واتجاه الريح . والتيارات المائية . واستطاع بعد ذلك أن يقول لبعض أصدقائه : ان معلوماتى عن الملاحة أوسع وأعمق من معلومات كولمبوس !

وكان خاطئا فى هذا الوهم !

ولم يتردد كثير من أصدقائه فى أن يصارحه بأنه شاب مجنون . وهو على يقين من أن أصحاب الأفكار المجنونة هم الذين أنقذوا البشرية مئات المرات .

أما الزورق الذى اختاره فكان من المطاط على شكل حدوة الحصان . وله سارية وشراع ومزود بعوامات من المطاط . أما هو فقد لف حول جسمه أطواق النجاة . واختار لهذا الزورق الصغير اسم « الفاجر » و « الفاجرة » .. ومن المضحك أن أحد الذين أعجبوا بهذه المغامرة قد عرض نفسه لأن يكون طعاما للسمك ثم يحدث العالم بعد ذلك .. عما يشعر به أى إنسان وهو يموت قطعة قطعة !

وقام الطبيب بومبار برحلته العذراء من ميناء موناكو يوم ٢٤ مايو سنة ١٩٥٢ . . إلى البحر الأبيض متجها إلى جبل طارق . ومعه صديق إنجليزى . استغرقت الرحلة ١٢ يوما ، أكلا فيها الأسماك وشربا ماء المطر وكانت الأعشاب البحرية لها طعم الجمبرى أو الكابوريا المسلوقة . وقد أصيب الاثنان بالتهابات شديدة فى اللثة . وعندما وصل الاثنان إلى جزيرة مايوركا الأسبانية كانا قد ضربا رقما قياسيا فى البقاء فى الماء والحياة على حيوانات البحر .

ومن جزيرة مايوركا جاءت سفينة وحملت الزورق الفاجر إلى جزر الكنارى ، ومن هذه الجزر خرج كولمبوس فى رحلته المشهورة . وهرب الصديق الإنجليزى . وقرر الطبيب أن يمضى وحده . غريقاً . أما الأشياء التى حملها معه فهى الضروريات فقط . فمعه صندوقان : امتلأ بالأطعمة المحفوظة وقد كتب بها قائمة . وطلب إلى الجهات المسئولة أن توقع عليها . فقد وعد الطبيب ألا يلجأ إلى هذه الأطعمة إلا إذا كان مهددا بالموت وصندوق آخر به بعض العقاقير الطبية . ثم حمل معه لفتين من الحبال وخرطوشة كبريت وإبرة وبكرة خيط وراديو بطارية . ومعه ورق . وبعض الكتب .

وفى يوم الأحد ٩ أكتوبر سنة ١٩٥٢ خرج الزورق الفاجر مسحوبا إلى خارج جزر الكنارى . والناس يهتفون ويصرخون ويلقون عليه الورود .. أما كل السفن الكبرى عابرات المحيط فقد أطلقت صفاراتها تحية للمغامر الشاب . ووقف رجال الدين يتطلعون إلى أسماء يدعون الله أن يوفقه فى هذه الرحلة الإنسانية !

وعاد اللنش الذى سحبه إلى خارج الميناء . وبعد ذلك أصبح الطبيب وحده تماما . وكان الجو جميلا هادئا . وأوقد فانوسا صغيراً حتى لاتصطدم به السفن الكبرى . ووضع رأسه على طوق نجاة . وترك الزورق للموج والتيارات البحرية . وفى هذه اللحظة فكر فى زوجته . وقال : مسكينة أن تتزوجى

طبيبا مجنونا مثلى . . ألم أقل لك أن ابن عمك كان أفضل . . أنه قروى صاحب دواجن وأبقار وحدائق . وسوف يعيش ويموت إلى جوارك . . ولكنك أنت التى رفضت . إذن . . هو قدرك أن تتزوجى طبيبا لايحترف الطب وإنما يهوى الملاحة ويحترف الجنون ! مسكينة !

ثم اكتشف أنه هو المسكين حقيقة . فلن يرى فى هذا المحيط سفينة ولا طائرة — كما اعتاد أن يرى فى البحر الأبيض . وإنما هنا صمت ولا نهاية لأى شئ . . لا نهاية للبحر ولا للسماء ولا للهواء . ولا للفزع . وحده تماما .

وطلع الصباح ولم تتحرك الريح . . ولكنه لاحظ أن الزورق (الفاجر) قد اتجه إلى الجنوب أكثر مما يجب . وجاء اليوم الثالث . ولا ريح . كل شئ ساكن جامد ميت كأن الكون كله يتفرج عليه . . ولم يتمكن من صيد سمكة واحدة . وشرب نصيبه من ماء البحر . وفى الليل هبت الرياح التجارية واشتدت . وظل طول الليل ساهرا . والحقيقة أنه أوقظ بعنف من نومه . . فقد غطت الأمواج ظهر الزورق . ومزقت الرياح شراع الزورق أيضا وراح يلقى بالماء من فوق ظهر الزورق إلى المحيط . وكان الجو بارداً . وقد لسعه البرد . وبعد أن تأكدت الريح من أنه أصبح يتلوى كالسمك ، هدأت حتى الموت . وفى النهار تحول الزورق إلى ملاحة . . كل شئ يغطى بالملح . وهو أيضا قد غطاه الملح . ولا أمل فى إزالته .

وعندما طلع النهار أصبح واضحا أن الريح قد مزقت الشراع . واضطر الطبيب إلى إلقاء المرساة فى الماء ، ليتوقف الزورق حتى يتمكن من إصلاح الشراع ، وراح يخيط هذه الثقوب ولكنه لايدرى ما الذى سوف تفعله الرياح مرة أخرى بالشراع .

وفى صباح اليوم التالى لاحظ بقعا زرقاء متحركة تحت الماء . . فأدرك أن طابورا من الأسماك فى الطريق إليه . ووراء هذه الأسماك جاءت الدرافيل .

وربّط سكينا فى مجداف . ثم أصاب بالسكين درفيلا . وقتله . . وسحبه إلى ظهر الزورق . . أخيراً وجد طعاما . وجبة واحدة على الأقل !

وكان الطبيب يظن أن الوحدة لاتخيف . وكان هذا رأيه وهو على مرأى من الشاطئ والسفن والطائرات . أما الآن . . فلا شئ . . أنه شئ تافه بين عالم رهيب لايمكن أن يوصف !

وظلت الدرافيل تتابع الزورق الفاجر ولكن بحرص على مسافة منه . أما الأسماك الطائرة فقد كانت ترتاد الزورق ذهابا وإيابا . وتعلوه وتتساقط عليه ثم ترتد على الماء ولها طعم الفسيخ ورائحة الكلاب الميتة !

وفى يوم ٢٧ أكتوبر كان عيد ميلاده فقد بلغ الثامنة والعشرين فى هذه اللحظة وأقام لنفسه وليمة . فاصطاد طائرا بحريا . وأكل نصفه فى العشاء . وترك النصف الآخر للغداء . . ولاحظ وهو يتقلب فى الليل أن هناك أشباحا على ظهر الزورق تروح وتجئ . . هل من المعقول أنها عفاريت البحر ؟ هل صحيح ما يرى ؟ أم أن الذى يراه خداع بصرى فقط . فأشعل عودا من الكبريت . . ووجد أن هذا الضوء الفسفورى ينبعث من النصف الآخر للطائر ؟

ونظر فى ساعته الاوتوماتيكية فوجدها قد توقفت تماما . وهذه كارثة لم تكن فى حسابه . فمنذ الآن لن يعرف الوقت . ولن يعرف سرعة الزورق « الفاجر » . .

وفرض على نفسه نظاما قاسيا : أن ينهض مع شروق الشمس . ويصيد السمك الطائر ويشرب أكبر كمية من ماء المطر . ويستريح ساعة . ثم ينهض بعد ذلك ويحدد المسار الصحيح لهذا الزورق الذى يبلغ طوله ٢٨ قدما . ويبدو فى بعض الأحيان أنه قدم واحدة ! وعليه بعد ذلك أن يقرأ فى أحد الكتب . ثم يسجل ملاحظاته . فقد وعد بتأليف كتاب عن هذه المغامرة .

وفجأة ألقى الكتاب من يده . . فقد لاحظ أن سمكة قرش تحاول أن تمزق المطاط . ولكن لحسن الحظ كان المطاط أكبر من فمها . فتركته السمكة ومن ملاحظاته أيضا أن سمك القرش جبان . يكفى أن تدق رأسه وبعد ذلك يتحول إلى قطعة من اللحم الطافية .

أما الذى حدث له بعد هذه الوجبات البحرية فواضح تماما : فأظافره تكسرت . وفقد ثلاثة أظافر والتهبت مؤخرته وظهرت عليها الدمامل . وكان من الصعب عليه أن يجلس . وحتى لايسقط من الإرهاق فإنه قد ربط نفسه بسارية الزورق بحبل متين . .

ورغم ذلك كان شديد التفاؤل . .

وهبت الرياح التجارية . وتحرك الزورق الفاجر بسرعة أكبر . وكان الطبيب على يقين من أنه سوف يرى الأرض بعد ثلاثة أسابيع على الأكثر . ولابد أنه اقتنع فى هذه اللحظة أن الملاحة ليست سهلة . ولا أن معلوماته أكثر من معلومات كولمبوس .

وفى يوم الأحد ٧ نوفمبر كان من الممكن أن تنتهى المرحلة تماما . نهاية مفاجئة . فقد سقط طوق النجاة الذى كان يلفه دائما حول جسمه . وألقى بنفسه فى المحيط ليأتى به . وهنا ابتعد الزورق قليلا . . قليلا . . ان المسافة التى يراها الآن بينه وبين الزورق يمكن اعتبارها ألف متر . . مليون متر . . كأن الزورق قرر أن يعبر المحيط وحده . . حاول الطبيب أن يدرك الزورق فلم يستطع . . وهنا فقط تنطلق القوة الكامنة الاحتياطية الموجودة فى جسم الانسان . والتى لاتظهر إلا فى مواجهة الموت المحقق . ضرب بزراعيه ورجليه . . ولكن الزورق بعيد . . هنا حدثت المعجزة لقد انقطع الحبل الذى يمسك المرساة . . سقطت المرساة فى المحيط أما الحبل فقد طفا على الماء.. وامتدت يد الطبيب وأمسك الحبل . وتوقف الزورق تماماً . واقترب الطبيب وصعد إلى الزورق . . واستأنف الرحلة الجنونية !

وفى صباح اليوم التالى رأى سفينة من بعيد . . حاول بكل الحيل أن يلفت النظر إليه . . ولكن السفينة مضت ولم يلاحظ أحد هذه البقعة السوداء فقال بومبار لنفسه : مسكين يا أى غريق !

ورأى أسراب الطيور . أدرك أن الأرض قريبة . . ربما على مدى أسبوعين أو ثلاثة . وأصيب بالتهاب شديد فى أذنه — التهاب فى الغدة النكفية . وكان يأمل أن يصل إلى جزر الهند الغربية أى على مقربة من الساحل الأمريكى فيما بين ٢٣ و ٣٠ نوفبر . ولم يخطر على باله أنه سوف يظل فى المحيط حتى نهاية ديسمبر !

وظلت الدرافيل تتابع الفاجر . . وفى يوم ٨ نوفمبر لاحظ أن الراديو الذى أخذ صوته يخفت ، قد فقد النطق تماماً . وهذه كارثة أخرى !

. أما فى يوم ١١ نوفمبر فقد هدأ البحر . وسكت الريح . وتحول الماء إلى لون الزيت ونعومته . وعرف بومبار أن هذا هو الهدوء الذى يسبق المطر ، فخلع ملابسه تماما . ووقف عاريا ونزل المطر . واستحم بالماء العذب . وراح يغسل الملح الذى التصق بجسمه وأشعل فيه النار . وراح يملأ يديه ويشرب . . وملأ إطارا من المطاط بالماء العذب . . وتكاثرت الأمطار وغطت الزورق وكاد يغرق فى الماء الحلو ! وراح يضحك فى جنون وهو يقول : إننى أكاد أغرق مرتين ثم يقول : أنا الرجل الوحيد الذى يلتى بالماء الحلو فى الماء المالح !

أما هذا الصوت الغريب الذى سمعه . . وهز الزورق بعنف . فليس المطر طبعا . ولا الريح . فلا ريح . ولا هى درافيل إنها بعيدة . ولكن هناك أسماكا كبيرة اسمها أبو سيف قد حطمت الدفة . وبعد ذلك اتجهت إلى الزورق نفسه . وهى تحاول شيئا آخر . ولكنها لم تفلح فاتجهت بعيدا عن الزورق !

وتوقف المطر بعد يومين وبدأ يشعر بآلام شديدة فى كل مكان . فجسمه

قد تغطى بالدمامل . . وأظافره تساقطت وتورمت أصابعه كلها . وجلد قدميه بدأ يتساقط . . وأحس كأن أعصابه كلها عارية ملتهبة . . والملح يشويها .

وظهرت الشمس فكانت أقسى من الملح . وراح يتوارى منها بكل مالديه ولكن لاأمل . . انه قطعة من النار تهرب من الماء إلى النار . . وأحس أنه فقد الاتجاه تماما . فهو لايعرف أين هو . . ولا أين تقع الأرض القريبة .
ووقف الفاجر تماما . لايتقدم . .

وفى يوم ٢٣ نوفمبر لم تظهر الأرض كما كان يتوقع . وفجأة فى ذلك اليوم تحول النهار إلى ليل . والبحر إلى محيط من الحبر الأسود . وهبت عاصفة مخيفة واحتمى بومبار بالشراع . ولف جزءا منه حول ذراعيه التى تسيل منهما الدماء . وتحرك الفاجر بسرعة . . وسكنت العاصفة وذهب الشر !

ولم يكن يتصور أن الأسوأ مايزال فى الطريق إليه . . فقد رأى طيورا كثيرة . بل ورأى مخلفات من الخشب والورق . . ورأى فراشا ولاحظ أن هناك نسيج عنكبوت على سطح الماء . وفتح كتابا عن المحيط والرحلات . والكتاب يقول إن هذه العلامات تدل على أن الشاطئ لايبعد عن مائة ميل وجاء يوم ٤ ديسمبر وهو يعانى من الإسهال الشديد . . وكان يحلم بكوب من اللبن البارد . . ويحلم بدش من الماء البارد . . والنوم على فراش لين دافئ . . وطرد هذه الأحلام التى تعذبه . واكتفى بأن تصور أن زوجته تستمتع بهذه الأشياء مهما كانت حزينة عليه . على كل حال إذا كان عاجزا عن أن يمسك القلم ويكتب حرفا واحدا . فغدا تطلع الشمس أو بعد غد . . أو بعد بعد غد ، إنه لم يفقد الأمل . ولن يفقده !

وفى الساعة العاشرة صباحا يوم ١٠ ديسمبر رأى سفينة . واقترب منها وراح يصرخ . والقبطان يصرخ فى الميكروفون : هل أنت فى حاجة إلى مساعدة ؟ وكان رد الطبيب الفرنسى بومبار : أريد أن أعرف خط الطول والعرض !

وكان رد القبطان : أنه ٤٩ تقريبا !

وأدرك بومبار أنه أخطأ الحساب عشرة خطوط على الأقل . وعلى ذلك فالمسافة التى بينه وبين الشاطئ لاتقل عن ٦٠٠ ميل .

ودعاه القبطان إلى ظهر السفينة . وقبل الدعوة . ورأى صورته المفزعة فى المرآة وأخذ دشا باردا . ثم استأذن القبطان فى أن يرى نفسه فى المرآة مرة أخرى : الوجه شاحب . العينان غائرتان . الدمامل قد غطت كل جسمه . على كل حال أنه مايزال حيا . . وفى استطاعة القبطان أن يبرق إلى زوجته أنه مايزال حيا . وأنه فى طريقه إلى الشاطئ !

وعرض عليه القبطان أن يحمله إلى الشاطئ ولكن بومبار ، أصر على اكمال الرحلة ثم أدخله القبطان فى قاعة الخرائط . وعرف بومبار لماذا أخطأ فى حساب خطوط الطول والعرض . وأيقن أن المعلومات البحرية التى عنده قليلة جداً . وأن المعلومات القليلة أكثر خطورة من البحر !

وفى ليلة الكريسماس وصل الفاجر إلى جزر بارابادوس . . وكادت الصخور البارزة أن تحطمه . ولكنه رغم ذلك نجا تماما . لقد نقص وزنه ٥٥ رطلا . وأصيب بفقر دم حاد وانخفض ضغط الدم . وضعف بصره ولكنه رغم كل شئ قد ظل حيا ٦٥ يوما فى البحر ، وجاءت هذه المغامرة دليلا على أن الغريق يجب ألا يفقد الأمل . . وأن الموت أبعد بكثير جداً مما نتصور !

من هنا...
إلى ألفي مليون سنة !!

يقال أن النبي عليه السلام يوم موقعة حنين أعطى أبا سفيان بن حرب مائة من الإبل ، وأعطى صفوان بن أمية مائة من الإبل ، وأعطى العباس ابن مرداس أقل من مائة . فغضب ابن مرداس ووقف بين يدى رسول الله يقول متحدثا عن مزاياه وعيوب الآخرين :

وما كان بـدر ولاحـابس

يفوقـان مـرداس فى مجمـع

وما كنت دون أمرىء منهمـا

ومن تضع اليوم لا يرفـع

فضحك النبى وجعل الإبل لهذا الشاعر مائة !

أهم ما فى هذه الرواية التى جاءت فى كتاب « الشعر والشعراء » لابن قتيبة هو اسم : مرداس . .

وكلمة « مرداس » هذه معناها : قطعة الحجر التى كان يلقيها العرب فى البئر ليعرفوا إن كان فيها ماء . وكانت هذه صناعة ابن الشاعر .

ومن الغريب أن كلمة « مرداس » هذه قد جاءت فى قصة عجيبة عن الإسكندر الأكبر . فقد كان الإسكندر يجلس على شاطىء البحر الأبيض وألقى حجرا . . ثم طلب أن يركب زورقا . . وألقى حجرا . ولم يكن من عادة الناس حوله أن يسألوه عما يفعل . وفى إحدى المرات أراد أن يعرف عمق

الماء عند الشاطئ فألقى حجراً وراء حجر . ولاحظ أن بعض الأحجار تختفى بسرعة وبعضها يختفى ببطء . . ولم يستطع الاسكندر أن يستنتج أن جاذبية الأرض هى المسئولة عن السرعة . . ولكن رجلا قال له مرداس . . أو مدرياس استطاع أن يربط الحجر فى حبل . . وأن يعرف عن طريق طول الحبل عمق البحر . وكانت هذه أول محاولة فى التاريخ لمعرفة أعماق البحار . . فقط أعماق البحار . .

وإذا كنا فى العشرين عاما الماضية استطعنا أن نطلق سفن الفضاء إلى ما حول الأرض وإلى الكواكب الأخرى ، فإن دولتين فقط فى العالم هما القادرتان على ذلك . . فالأموال باهظة . والفوائد العلمية لايمكن أن نقدرها . ولكن من المؤكد أن الذى ننفقه على رواد الفضاء سوف يعود على دافعى الضرائب بالخير العام بعد عشرات السنين . .

وإذا كنا استطعنا أن نرسم الهيئة الفلكية : النجوم والكواكب القريبة والبعيدة ونرسم الأرض بوديانها وجبالها وغاباتها وأنهارها ، فإن البحر ما يزال سراً غامضا . . اننا فقط نتمدد على شواطئه ونعبره وأمامه نشعر بالجمال والجلال . بالمتعة والرهبة معا . . ونرى فى أمواجه التى تضرب الشاطئ محاولة أبدية يائسة : فلا البحر زحزح الشاطئ ، ولا الشاطئ قد أسكت البحر . .

وقديما جداً حار الملك سليمان وهو ينظر إلى الأنهار وهى تصب فى البحار وكان يقول : لا الأنهار جفت ولا البحار امتلأت . ولم يكن الملك سليمان يعرف قانون تبخر المياه من البحار وسقوطها مرة أخرى على أعالى الجبال إلى الأنهار إلى البحار مرة أخرى !

ولكن محاولة معرفة أعماق البحار ترجع إلى مائة سنة تقريبا . وقد بدأت بمحاولة جريئة سنة ١٨٧٢ . . عندما حاول عدد من العلماء يرأسهم الأستاذ ويفيل توماس أن يدوروا حول الأرض . وجمعوا ألوف العينات من

النباتات والحيوانات البحرية فى أماكن مختلفة وفى درجات حرارة متباينة . وظلت هذه الرحلة أكثر من ثلاث سنوات . وأتوا ببعض هذه الحيوانات البحرية من أعماق المحيط على انخفاض ما يقرب من ثلاثة آلاف قامة — القامة ستة أقدام .

وقد استخدم ويفيل توماس : نظرية الصوت والصدى ليعرف أعماق المحيط واكتشف لأول مرة وبصورة عملية أن قاع البحر يشبه وجه الأرض : ملىء بالجبال والوديان !

ولكن الإنسان لابد أن يهبط بنفسه ليرى ماذا يجرى هناك . تماما كما ذهب الإنسان بنفسه إلى القمر ليرى بعينيه ماذا هناك . ولذلك يجب أن يبحث عن وسيلة يهبط بها وفيها دون أن يموت . . فى أعماق المحيط يصل ضغط الماء على البوصة المربعة إلى تسعة أطنان ! وفى هذه الحالة لايمكن أن تنفع بدلة الغواصين . . تماما كما لم تنفع بدلة رائد الفضاء . . فرائد الفضاء ينطلق فى سفينة محكمة جداً . . فإذا هبط إلى القمر فهو يرتدى بدلة أكثر احكاما من الكبسولة .

وقد حاول الهبوط إلى قاع البحر كثيرون . ومات كثيرون دون أن يدرى بهم أحد . فمثلا حاول المغامر الأسبانى ثرفو فى سنة ١٨٣٨ فقد ابتكر لنفسه جهازا أو أنبوبة من الخشب . وعلق فيها أثقالا من الحديد والرصاص وهبط بها إلى أعماق المحيط . وحدث ما كان متوقعا . فقد سحقها ضغط الماء . . وبعد لحظات . . طفت على الماء ألواح خشبية أما الرجل نفسه فلم يعد ! .

وفى سنة ١٩٣٠ حاول الأستاذ الأمريكى وليام بيب ومعه المهندس أوتيس بارتون أن يصمما معا جهازا للهبوط إلى أعماق البحر . وجاء الجهاز على شكل اسطوانة من الصلب الذى سمكه بوصة ونصف بوصة . وجعلا لها فتحة من الكريستال . وكان لهذا الجهاز شكل الضفدعة .

ونزلت الضفدعة إلى البحر مربوطة فى حبل من الصلب سمكه بوصة أيضا . واستطاع الرجلان أن يهبطا إلى عمق ١٥٠ قامة . .

وبعد ذلك بسنتين استطاع الرجلان أن يهبطا إلى ١٨٠ قامة . . ولم يتمكنا من الهبوط إلى مادون ذلك .

وكتب الأستاذ بيب فى مذكراته التى نشرت بعنوان (نصف ميل تحت الماء » يقول : « من هنا إلى تحت ومنذ ألفى مليون سنة ، لم يكن ليل ولا نهار ، ولا صيف ولا شتاء ، ولا زمن . . حتى جئنا وسجلنا ذلك » .

وعلى الرغم من عدم وصول أشعة الشمس إلى هذه الأعماق ، فإنه استطاع أن يرى من الفتحة الصغيرة كائنات مضيئة تروح وتجىء . . فبعض هذه الأسماك تشبه السيارات فى الشوارع ليلا عندما تنظر إليها من طائرة . ومن الكائنات الغريبة أسماك زرقاء الزعانف حمراء العيون وبعضها طوله أكثر من مترين . ان هذه الأسماك تشبه زوارق الأعماق التى يستحيل على أى إنسان أن يلمسها !

وفى سنة ١٩٣٤ قام الرجلان بتحسين هذا الجهاز الذى يغوصان به وأطلقا عليه اسم « زورق الأعماق » . واستطاعا أن يهبطا إلى ٥١٠ قامات (٣٠٦٠ قدما) إلى آخر الحبل الصلب الذى تدلى منه الزورق . وفجأة أحس الاثنان بصدمة . . بصوت عنيف يهزهما تماما . وأدرك الاثنان أن الحبل الذى يربطهما إلى منصة عائمة قد انقطع ، إن هلاكهما لا محالة . فالمسافة بينهما وبين قاع المحيط أكثر من ميل !

ولكنهما اكتشفا أن الزورق قد اصطدم بأحد التلال الموجودة فى قاع المحيط وقد أدى بهما الفزع إلى أن يوقفا الهبوط وأن يصعدا بسرعة !

وكان لابد من تعديل هذه الطريقة البدائية فى الغوص إلى الأعماق . . فالذى يحدث هو أن زورقا عائما أو منصة يتدلى منها حبل من الصلب ومن

هذا الحبل يتدلى أو يربط زورق الأعماق . وعند الاحساس بالخطر يقوم الزورق العائم بسحب الزورق الغاطس . فالحبل يقوم بدور « الحبل السرى » الذى يتغذى منه الجنين فى بطن أمه !

وهذا ما فعله الأستاذ البلجيكى أوجيست بيكار . وهو رجل مغامر وقد عرفه العالم . بمحاولاته الجريئة : فقد حاول أن يطير فى بالونات هوائية إلى طبقات الجو العليا .. ونجح فى أن يرتفع وهو فى داخل بالون إلى ٥٥,٥٥٧ قدما ..

وعندما حاول الأستاذ أوجيست بيكار أن يساهم فى مغامرات الغوص تحت الماء استخدم نفس الأسلوب . فإذا كان فى حالة البالونات يستخدم الغاز الأخف من الهواء . فإنه فى حالة الغوص استخدم البترول الأخف من الماء أيضا .. فالغاز الخفيف يدفع البالون . والبترول الخفيف يتعلق فيه زورق الأعماق ولايغوص معه .. وبذلك يمكنه أن يهبط ويعلو كيف يريد .. وصنع الأستاذ بيكار زورقا له جدران قوية جدا . ثم ربط الزورق بعوامة على شكل سيارة مليئة بالبترول . ثم ان هذا البترول له أهمية أخرى هو أن يحمى الزورق من ضغط الماء الشديد عليه .. ثم وضع فى زورق الأعماق كتلا ضخمة من الرصاص تساعده على الغوص . فإذا أراد الصعود ألقى بهذه الأوزان فيخف الزورق ويرتفع .. وهذا ما يحدث تماما عندما يريد البالون أن يرتفع فهو يسقط منه أكياس الرمل فيخف وزنه فيعلو ..

وتحدد اليوم الموعود فى سنة ١٩٤٨ .. عندما ذهب الأستاذ بيكار إلى ساحل غرب أفريقيا .. وهبط بزورق الأعماق إلى ما يقرب من ١٤٥٠ قامة ! ولم يكن بهذا الزورق أحد . لقد كانت محاول تجريبية . واعتبرت هذه التجربة ناجحة . ولكن عوامة البترول قد انفجرت قبل أن تصعد إلى السطح لأسباب فنية أمكن إصلاحها .

وانضم إلى الأستاذ بيكار مهندس فرنسى اسمه كوستو وتولت الحكومتان البلجيكية والفرنسية الإنفاق على هذا المشروع . ولكن المشروع ضاع بين

اللجان الفرعية . والميزانيات والاعتمادات الإضافية وضرورة مناقشة هذين الرجلين قبل اعطائهما مليما واحدا !

وهرب الأستاذ بيكار يطلب معونة الحكومة السويسرية . فوافقت على إعانته مناصفة مع الحكومة الإيطالية . وشعرت الحكومة الفرنسية بأنها أهينت . ولذلك عجلت بمشروعها . ونشر الأستاذ بيكار فى الصحف أن زورق الأعماق الفرنسى ملئ .. بالعيوب الفنية وانه مقبرة لكل من يحاول أن يهبط به . وأجريت الفحوص الإشعاعية على الزورق الفرنسى . وظهرت له عيوب طفيفة أمكن إخفاؤها بسرعة ..

وفى يوم السبت ١٣ فبراير سنة ١٩٥٤ وصل إثنان من الفرنسيين أحدهما غواص والآخر مهندس إلى الساحل الغربى لأفريقيا . وقررا أن ينزلا فى البحر . فمن أجل فرنسا وكرامتها وشرفها العلمى تهون الحياة . ورافق الاثنين عدد كبير من رجال الأعلام . وكانت هناك إذاعة متابعة تذيع على الهواء كل ما يحدث . أما الرجلان فهما : هو .. وفيلم .. وقد صدر للاثنين كتاب جميل ممتع أسمه « إلى ما تحت ألفى قامة » وفى اللحظة المحددة تماما . نزل الاثنان إلى « زورق الأعماق » وأقفلا الباب . . وكان يصلهما بالمنصة العائمة سلك تليفونى .. وكان على اتصال مستمر ..

وأصبحت الصيحات التليفونية مسموعة فى كل أنحاء العالم : الآن أقفلنا الباب تماما .. كل شئ على ما يرام .. الرؤية واضحة ..

وتجئ أصوات أخرى من فوق المنصة العائمة : على بركة الله .. ومع السلامة .. النزول يبدأ ..

وبدأت « غواصة الأعماق » فى الهبوط .. رجلان وحدهما تماما .. يربطهما خط تليفونى سرى يفصل تلقائيا بعد لحظات .

وكانت الساعة العاشرة صباحا ..

ليس فى استطاعة أحد ابتداء من هذه اللحظة أن يساعدهما ، وقد أمسك واحد منهما التليفون يقول : عندنا شعور بالنشوة .. كأننا نشرب شيئا معتقا ممتعا .. ولكن الآن حياتنا بأيدينا .. اننا نحاول نفس الشئ الذى حاوله أبطال مجهولون من ألوف السنين أن يرتادوا البحر والقارات وحدهم وبلا علم حديث .. اننا ..

وهنا انقطع الخط التليفونى ..

ونظر أحدهما إلى الآخر يكمل جملته : إننا نسينا السندوتشات .. فليس أمامنا إلا أن نموت . أو نموت من الجوع .. وفى كلتا الحالتين نحن وجبة دسمة للسمك .. وخصوصا أنت !

وقال له الآخر : كيف عرفت ما كانت تقوله أمى دائما .. وأنا أحاول السباحة .. انها كانت تقول يجب أن تتعلم بسرعة حتى لا تكون طعاما شهيا للسمك ..

ورد الآخر : بل هذا ما تقوله أمى أيضا .. فلغة الأمهات واحدة وخوفهن واحد .. !

وهبطت غواصة الأعماق إلى ما دون ذلك وببطء .. ومن فتحة الغواصة لاحظ الإثنان أن لون الماء أخضر .. أو أن هذه المنطقة من المحيط خضراء .. وكان عليهما أن يبعثا بإشارة صوتية تقول كل شئ تم كما تحبون ..

وفى العاشرة والنصف أرسلت الغواصة إشارة تقول : هبطنا إلى عمق مائتى متر .. الماء لونه أسود تماما .

ثم أرسلت الغواصة إشارة تقول : إننا ندور حول أنفسنا ونحن نهبط .. ولو كنا نرى شيئا من الفتحة الكريستالية لدخنا .. ولكننا لا نرى أى شئ ومن هنا وما زلنا نحتفظ بشئ من العقل ..

وفى الساعة الحادية عشرة والنصف أرسلت الغواصة إشارة صوتية تقول وصلنا الآن إلى عمق ألفى متر !

وفى الساعة الثانية عشرة أرسلت الغواصة إشارة أخرى تقول: وصلنا إلى عمق ثلاثة آلاف متر ..

وكان من الضرورى الإبطاء فى الهبوط . ولذلك أطلق الرجلان سراح طن من الرصاص الملصق بالغواصة .. فخف وزنها . فأصبحت حركة الهبوط أبطأ .

وتوقفت الغواصة تماما ..

وبدأ الرجلان يفحصان الغواصة من الداخل . فلم يجدا أى تسرب للماء وفى هذا الوقت كان ضغط الماء يعادل ٥٩٠ طنا على البوصة المربعة . وكانت درجة حرارة الماء خارج الغواصة تصل إلى خمس درجات مئوية .. أما درجة حرارة البترول فى العوامة التى هى غطاء للغواصة فتصل إلى ١٣ درجة مئوية ولذلك كان لابد من الانتظار بعض الوقت حتى تنخفض درجة حرارة البترول ..

وهبطت الغواصة إلى عمق ٣٣٠٠ متر .. ومن الفتحة الكريستالية لاحظ الرجلان أن هناك كائنات غريبة وعجيبة.. أنواعا وأحجاما من الجمبرى والكائنات الدقيقة الطويلة المضيئة .. وأحيانا يكون الضوء متصلا . وأحيانا يكون نوعا من البرق الباهر ..

وعندما وصلت الغواصة إلى انخفاض ٣٥٠٠ متر لاحظ الرجلان أنها تهبط بسرعة أكبر مما يجب . ولذلك أطلقا بعض كتل الرصاص المعلقة من الغواصة . وبسرعة توقفت الغواصة عن الهبوط ..

وفى الساعة الواحدة انطلقت إشارة صوتية من الغواصة تعلن لرجال

الصحافة والإذاعة أنها وصلت إلى عمق ٤٠٠٠ متر . وهذا أبعد ما وصل إليه أى إنسان !

وكانت للغواصة مصابيح قوتها ١١٠٠ وات . وانفتحت المصابيح كأنها عيون شيطانية .. وانكشف ماء المحيط .. وصرخ الرجلان الواحد بعد الآخر : إننا نكاد نرى قاع المحيط ..

وتدلت من الغواصة سلسلة كما فعل الإسكندر الأكبر ليعرف بها عمق المحيط .. وعرف الرجلان من طول السلسلة أن القاع على مدى ستة أمتار فقط !

وفى هذه اللحظة كان ضغط المـاء على الغواصة قد وصل إلى تسعين ألف طن !

ومن الفتحة الكريستالية سجلت العدسات صورا وأفلاما للحياة عند قاع المحيط .. فهناك أسماك من أنواع نادرة غريبة اللون والشكل والحركة .. لم يرها أحد من قبل وكانت هذه الأسماك تتحرك برشاقة راقصات الباليه .. وأكثر هذه الأسماك لهـا عيون جاحظة - أى خارج الرأس . وهذه العيون تتحرك فى كل الاتجاهات ..

وكان من المقرر أن تظل الغواصة فى أعماق المحيط ثلاث ساعات على الأقل ترتاد هذا العالم المجهول . وبينما يتبادل الرجلان النظر من الفتحة الكريستالية سمعا صوتا عنيفا غريبا .. وتحول ماء المحيط إلى لون البحر .. وداخ الرجلان.. وتساند أحدهما على الآخر .. إنها إذن النهاية .. النهاية العميقة لهذه المغامرة الشجاعة من أجل العلم .

وبعد لحظات أفاق الرجلان .. فقد انفلتت البطاريات الجافة التى تمد المصابيح بالضوء .. هذه البطاريات كانت موضوعة فى أعلى الغواصة وزنها ١٣٠٠ رطل ..

أما أحد الرجلين فقد جلس منهاراً ويقول لزميله : أنا رجل مغامر .. وأنت مهندس .. أنقذنا من هذه الكارثة .

وقال المهندس ضاحكا : أما أنا فسوف أنقذ نفسي . وعليك أنت أن تبحث لك عن طريقة للنجاة !

وفى مواجهة الموت والخطر يشعر الإنسان بشئ من اليأس . ومن هذا اليأس تنبع روح المرح كتعويض سريع عن خسارته الفادحة ..

ولذلك قال أحدهما للآخر : هل تعرف ماذا أعد لنا الطاهى اليوم من أنواع الشواء ..

وصرخ الثانى : فعلا .. عندى دجاجة مشوية .. إنها هدية من زوجتى .. لم يتسع وقتى لكى أشكرها على ذلك .

واقتسم الرجلان الدجاجة ..

وأرسلت الغواصة إشارة تقول : نحن صاعدان . ونرجو أن يكتب الله لنا السلامة !

وأذيع النبأ فى العالم كله ..

وبعد لحظات توالت الإشارات بالصعود . وسرعة الغواصة ..

وبعد خمس ساعات و ١٤ دقيقة ظهرت الغواصة على سطح الماء . وانفتح الباب وخرج الرجلان . وتعانق الجميع .. وفرقعت زجاجات الشمبانيا .. وامتلأت المنصة العائمة بالأطعمة الشهية .. وهنأ الفرنسيون أنفسهم على هذا النصر العلمى فى كل مكان ..

وجلس الرجلان يقلبان فى برقيات التهنئة ..

وفجأة وقف واحد منهم وهو المغامر « فيلم » وصرخ : اقرأ ماذا تقول

زوجتى .. إنها تقول : كان ولدنا جاك يتمنى أن يقبلك ويهنئك عند عودتك ما معنى « كان يتمنى » .

واتصل بزوجته تليفونيا وعرف الرجل أن ابنه الصغير أيضا حاول أن يقلده .. فغرق !

امسكوا قداسته...

لقد سرق الذهب وهرب

لو كانت فى رأس واحد من الحاضرين شعرة واحدة لوقفت ثم سقطت فى الحال فقد كانت لحظة رهيبة لم يسبق لها نظير فى التاريخ !

فقد جلس ألف واحد خاشعين تماما . فالموقف فى غاية القداسة . الرؤوس انحنت . العيون أقفلت . الأعناق تدلت . الأيدى تشابكت . الألسن ابتلعت . الآذان انفتحت وتردد فى هذا الصمت سؤال يقول : وقبل أن يخلق الله السماء كيف كانت هذه الدنيا ؟

وكان السؤال موجها فى خشوع شديد إلى طالب غير عادى .. فقال الطالب : لا يمكن أن تكون هناك سماء قبل الله . فالله هو السماء !

واقتنعت لجنة الامتحانات . أما المستمعون فقد سرت فيهم كهرباء من السعادة وعادت اللجنة توجه إلى الطالب سؤالا آخر : وأنت بالذات قبل أن تولد أين كنت ؟

وأحنى الطالب رأسه ليقول : بل كنت فى السماء .

وكانت السعادة واضحة على اللجنة وعلى الحاضرين . ولكى تنهى اللجنة امتحان هذا الطالب وتمنحه درجة الماجستير فى اللاهوت قالوا له : اننا لا نريد أن نسألك شيئا أو فى شئ . وإنما نتوسل إليك وحياة أمك المقدسة وقدميك الطاهرتين . وروحك التى ترفرف على أرضنا وقلبك الذى اتسع لملايين البشر . وابتسامتك التى ولدت منها الشمس أن تتفضل وتتكرم وتتواضع وتمنحنا البركة يا من أنت البركة !

ورفع الطالب يديه ليمنح الحاضرين بركته . ونهض الحاضرون جميعا ،

ورؤوسهم كلها قد حلقت بالموسى .. الجنة بأعضائها ذوى اللحى البيضاء وألف طالب خروا ساجدين وهنا فقط .. دخل اثنان من الضباط متلاصقين كأنهما مربوطان بسلك من حديد .. الوجه الصارم . العيون حمراء . الأرض تتكسر تحت خطواتهما . ولابد أن يكون التاريخ قد سجل أنه فى يوم أول مارس سنة ١٩٥٩ وفى مدينة لهاسا عاصمة التبت اقتحم اثنان من ضباط الحامية الصينية قدس الأقداس لصاحب القداسة الدلاى لاما . فقد دخلا بغير إذن . ودخلا دون انحناء . وأعجب من ذلك أنهما يطلبان مقابلته مباشرة تصوروا مباشرة ، أى دون وساطة من كبير الكهنة ورئيس الديوان وقبل رئيس الديوان ، كبير الحرس . ثم كيف يدخل اثنان من الضباط على صاحب القداسة الدلاى لاما . الإله والرب الروحى للتبت ولم يحلق واحد منهما شعره .. إن هذا لشئ رهيب .. شئ فظيع ..

ولكن الضابطين لم يشعرا بشئ من ذلك . أو كانت التعليمات لديهما أن يتجاهلا أى شئ .. وبسرعة التف الرهبان حول الدلاى لاما . كما يلتف النحل الشغال حول ملكة الخلية لحمايتها من الدبابير . . ولكن الضابطين كانت لديهما تعليمات صريحة صارمة : نحن نريد تحديد موعد مع الدلاى لاما فورا !

ومن المفروض ألا يسمع الدلاى لاما كلمة واحدة .. فهناك أناس معدودون فقط هم القادرون على أن يهمسوا فى أذن قداسته مباشرة . وكان هذان الضابطان يعلمان هذه الحقيقة فصرخا لكى يسمع الدلاى لاما .. إنهما إذن اخترقا المجال الجوى لصاحب القداسة . إنهما عدوان ولا شك . وفى اليوم الذى يحتفل فيه الدلاى لاما بنيل أعلى الدرجات العلمية فى فقه الدين البوذى !

أما تفاصيل هذا الحادث المروع فقد هز كيان العاصمة . وخرج الضابطان طبعا ولكن المدينة لم تنم .. وتهامس الناس . وقالوا : عدوان .. وقالوا ..

زندقة .. وتساءلوا عن صحة صاحب القداسة بعد كل الذى حدث .. وقالوا: إنه أغمى عليه .. وقالوا : صعد إلى السماء .. وأقسم أناس أنهم رأوه فعلاوهو يركب سحابة بيضاء . ومعنى ذلك أن السماء تدخلت فى الوقت المناسب .

وقبل أن تطلع شمس اليوم التالى كان الضابطان الصينيان فى طريقهما إلى قصر صاحب القداسة يلحان فى مقابلته لأمر هام محدد .

ولكن الضابطين فى هذه المرة سارا فى الطريق الشرعى . ذهبا إلى كبير الحرس . وقالا نفس العبارة: نريد مقابلة صاحب القداسة الدلاى لاما لأمر هام .

واستطاع كبير الحراس أن يسأل : هل من الممكن أن أعرف السبب ؟

وكان الرد : أن قائد الحامية الصينية قد أقام حفلة استعراضية فى قلب الثكنات ويريد أن يتفرج عليها قداسة الدلاى لاما ..

واستطاع كبير الحراس أن يقول : سوف نعرض عليه الأمر .

وكان رد الضابطين : ومتى نعرف موافقته التامة على ذلك ؟

موافقته التامة ؟! — إذن ليست دعوة إليه إنها استدعاء ! المسألة خطيرة .

واجتمع الدلاى لاما بمجلس الوزراء وكبار رجال الدين .. وقال لهم:

— ما الرأى .

تخبطت الآراء . العقلاء قالوا : يجب أن نفكر ؟

المتزمتون قالوا : بل يجب أن نرفض هذه الإهانة !

والدلاى لاما : لا رأى له عادة .

واحتشد الناس حول قصر الدلاى لاما . وجاء اليوم التالى والناس فى غاية القلق على ما حدث وما سوف يحدث . ولكن ثورتهم خرساء . إنهم يهزون رؤوسهم . ولا يجدون فيها شعراً كافيا ليشدوه أو يقطعوه ويتطلعون إلى

الشرفات المقدسة .. يرون بعض الملابس والوجوه والرؤوس تروح وتجئ ..

وجاء الضابطان يلحان فى أن تكون زيارة الدلاى لاما يوم ١٠ مارس على الأكثر . بشرط ألا يرافقه حراس . وإنما فقط خادم خاص وثلاثة من الوزراء . وأعلن هذان الضابطان أنهما سوف يأتيان ببطاقات الدعوة وبعد يومين ..

ولم يكن من الصعب على الناس جميعا فى مدينة لهاسا المقدسة أن يشموا رائحة الخطر وأن يدركوا أن صاحب القداسة فى خطر . وأن قداسته لن تتمكن من حمايته من القوات الصينية .. وقد ترددت شائعات كثيرة بأن قوات صينية قد حملتها الطائرات ليلا ونهارا. وهذا طبيعى. فإن رجلا له هذه القداسة لن يقوى عليه إلا ملايين الرجال . وقد لا يقدرون أيضا . وهذا الخطر الصينى يخيف أبناء التبت وفى نفس الوقت ينفخ فى كبريائهم لأن الدلاى لاما من القوة بحيث لا يقدر عليه إلا جيش ! وأى جيش ؟ جيش محمول على الطائرات !

وعادت الرؤوس التى خلت من الشعر تماما تتقارب وتتلاصق .. الرؤوس والخدود والأيدى والأنفاس وفى صمت يريدون أن يبحثوا عن إجابة واحدة لهذا السؤال: هل يذهب الدلاى لاما إلى الثكنات الصينية وحده؟

وكان الجواب : بل يهرب من البلاد كلها !

وأعلن فى المدينة كلها عن طريق الأبواق التى يمسكها رهبان يقفون فوق الأسطح : يا أهل البلد .. يا أهل البلد.. إن صاحب القداسة تفضل مشكورا بزيارة الثكنات الصينية .. قفوا على جانبى الشارع فى خشوع . ضعوا أيديكم وراء ظهوركم . لا تمسكوا عصا واحدة .. ولا طوبة .. ولا تقولوا شيئا .. الصمت عبادة .. !

وتزاحم الناس على جانبى الشارع العمومى منذ المساء . حملوا طعامهم وفراشهم وأطفالهم . وبعضهم اصطحب الدواب والدواجن .. يريدون أن يذبحوها تحت قدمى الدلاى لاما .. أو يريدون أن تتبرك هذه الحيوانات بتنسم الهواء الذى يشمه . فتبيض الدجاج وتحمل الماعز وتلد الأم .. إنه يوم البركات .

وفى الليل انفتح الباب الخلفى من القصر وخرج عدد من الجنود يركبون البغال وكان بينهم ، أى بين الجنود، واحد لا يكاد يرى أى شئ أمامه فقد خلع منظاره ووضعه فى جيبه ولم يدر بوضوح كل ما يدور حوله .. هذا الرجل الذى ارتدى ملابس الجنود هو الدلاى لاما نفسه !

إنه قرر أن يهرب إلى الهند . وعليه أن يجتاز طريقا صعبا جدا فى بلاده الواسعة وأن يعبر الجبال المغطاة بالجليد دون أن يتنبه الصينيون إلى ذلك . . وأخطر من ذلك دون أن يتنبه أبناء التبت أيضا . وإلا امتلأت الشوارع بالدماء . . وهو يريد لشعبه السلام . وهو يعرف أن هذه الساعة كان من المؤكد أنها سوف تدق بعنف . . تدق رأسه وعرشه الدينى . . وأن عقارب هذه الساعة لابد أن تطبق على عنقه . . فبلاد التبت واسعة وسكانها لا يتجاوزون عشرة ملايين بينما الصين تضيق بمئات الملايين من أبنائها . . سبعمائة مليون نسمة وأكثر . وأهل التبت زاهدون فى قيم الدنيا وزينتها — ومن الأفضل أن نقول إنهم جهلاء وكسالى . وهم أناس مسالمون لأنهم وثنيون بلهاء . لابد أن هذه المعانى دارت فى رأس هذا الجندى فى ملابسه التنكرية .

خرج الدلاى لاما ورجاله من القصر . . واجتازوا الشوارع وهو يسمع الصرخات والهمهمات ولا يستطيع أن يرى الوجوه . . فقد أخفى منظاره وهم يقودونه هو وبغله وسط الزحام الهائل . وانتهى شارع . . ومن بعده شارع . . واتسعت أمامه الأرض العارية . . وجاء نهر صغير . . عبرت البغال . . وانضم إليه عدد من الجنود . . مائة . . . وراء مائة . . ولكن أحدا

لا يدرى ما سوف يحدث . . وبين لحظة وأخرى يتوقف أحـــد الجنود أيضا ويتحسس صندوقا فوق أحد البغال . . ويتأكد من أن أقفاله سليمة . . الصندوق ملئ بالذهب . . وعندما عبر البغال أول نهر سقط كتاب الصلوات لبوذا . . وتشاءم الجميع . . ولـكنهم تطلعوا إلى وجه الدلاى لاما الذى لا يرى تماما ووجدوا ابتسامته العريضة واستمدوا منها الراحة التامة وواصلوا السير .

وعندما اقترب أحد رجال الدين من الدلاى لاما وهمس فى أذنه قال : نعم يا صاحب القداسة . . إنها بخير لقد سافرت والدتك المقدسة وأختك المقدسة وأخوك المقدس فى الصباح دون أن تدرى أنت . . حرصا على صحتك !

إذن لقد هرب إخوته قبله . وكان من الممكن أن يقعوا فى أيدى القوات الصينية . وكان من الطبيعى أن يسأل صاحب القداسة : ولـكن كيف ؟

قال له أحد الحراس : انهم جميعا قد ارتدوا ملابس الرجال والنساء . . أخوك لبس كفتاة وأمك وأختك رجلان !

ومضت القافلة . .

وجاء الليل . وصعدت البغال أحد الجبال . الطريق ضيق صاعد . البرد شديد . الجليد يغطى كل شئ . طلب قداسته أن يضع المنظار على عينيه . . ولكن هذه الرغبة لم تتحقق بسرعة . فقد ذهب أحد الحراس يسأل رئيس الوزراء إن كان هذا ممكنا . وعاد الجندى يقول لصاحب القداسة إن هذا غير ممكن . ولـكن يبدو أن صاحب القداسة أصر . . وعاد الجندى ينقل أوامر قداسته إلى رئيس الوزراء . وهنا تشاور رئيس الوزراء والوزراء . . وتقاربت البغال فى الطريق الضيق . واستقر رأيهم على أنه لا داعى لهذا المنظار . وجاء الجندى يحمل قرار مجلس الوزراء بأن المنظار غير ممكن — وهنا هدد صاحب القداسة بأن يلقى بنفسه من فوق الجبل . . وعاد الجندى ينقل هذه الكارثة إلى رئيس الوزراء فى نهاية القافلة. وتقارب الوزراء.. وأخيرا قرروا

أن يسمحوا لقداسته بوضع المنظار على عينيه . . وبدلا من أن يذهب واحد ذهب اثنان معا ، واحد يمسك المنظار والآخر يرافقه . وفي اللحظة التي قدم فيها المنظار إلى صاحب القداسة جاء الجندي الآخر ودفع زميله فهوى على مرأى من صاحب القداسة إلى سفح الجبل . . تكسر المنظار والجندي معا . . وبذلك يكون قرار مجلس الوزراء بألا يضع صاحب القداسة هذا المنظار قراراً نافذاً . وفي نفس الوقت حاول الوزراء أن يخبر صاحب القداسة أنه في الطريق إلى أن يكون مواطنا عاديا أو لاجئا سياسيا في الهند . . أي أنه ليس مقدسا . وإنما كان في يوم من الأيام مقدسا !

وفي الليل أوى الجميع إلى كوخ . ولم يدرك صاحب الكوخ من هذا الجندي الذي يحملونه فوق الأكتاف ولما رأوا في عينيه نوعا ساذجا من التساؤل قالوا له : إنه مريض .

ويقول الدلاي لاما في مذكراته التي عنوانها « مذكرات صاحب القداسة الدلاي لاما — شعبي وبلدي » : إنه عندما رأى هذا الرجل البسيط يكاد يعرفه استراحت نفسه فلم يعتد أن يكون مجهولا كل هذه الأيام الطويله . واسترد قداسته أنفاسه عندما أضيئت الشموع ورأى الذين حوله ورأوه ..

وفي الصباح عبروا أحد الأنهار وسقطت مسبحة كانت تلتف حول عنق الدلاي لاما . وحاول بعض الرهبان أن يستردها من النهر . ولكنه أشار برجله أنه لا داعي لذلك . وأطاعوا — ومن حق الدلاي لاما أن يشير بأي شيء ليكون أمرا !

وبسرعة مرت من فوقهم طائرة صينية . وأصيب الجميع برعب مؤكد ولكن الطائرة لم تر شيئا هاما فهم قافلة تتحرك . وما أكثر القوافل .

ولكن الشيء الذي أفزع الجميع ، أنهم استمعوا في راديو صغير أن إذاعة صوت أمريكا تقول أن اضطرابات شديدة قد وقعت في عاصمة التبت .

وأن الأنهار قد زادت نهرين آخرين : من الدم والدموع . . وأن الجميع قد عرفوا أن صاحب القداسة قد هرب : أى أن البلاد بلا رب . . فالشعب أصبح يتيما . . لا أب له . . عاريا لا سماء له . . ملعونا لا بركة فيه !

وبكى صاحب القداسة . . وكاد يقرر العودة إلى بلاده لولا أن رئيس الوزراء والوزراء قالوا له ما معناه : اعقل أيها الشاب . . !

ومضت القافلة ووصلت إلى الحدود الهندية . .

وكان الدلاى لاما قد تعب من ركوب البغال واحداً بعد واحد . ولابد أن الذى أصابه هو نوع من الإمساك الشديد بسبب الإرهاق . . أو بسبب تناول أنواع من الأطعمة الباردة . أو لأى سبب آخر . . وابتهاجا بالوصول إلى الحدود الهندية قرر قداسته أن يذهب إلى دورة المياه – والحقيقة أنه لم تكن هناك دورة مياه ولكننى لا أجد التعبير المناسب لهذا المعنى !

وكاد ينكشف للجميع . .

فقداسته له طريقة خاصة فى قضاء حاجته . وقد اعتاد عليها منذ الطفولة . وأنا مضطر أن أروى هذه الحادثة رغم أن المعانى التى تتبادر إلى الذهن ليست شيئا مشجعا أو مشهيا . جلس قداسته والتف حوله الكهنة ورفع ملابسه . ولكنه ما يزال يعانى من الإمساك الشديد . . وصرخ فيهم صرخة مقدسة . فبدأوا يقرأون التراتيل ولكنه ما يزال يعانى وأمر بأن يقرأوا بعض التراتيل التى تساعد على الإسهال . وقرأوا . وهم يتلفتون حولهم وفجأة ظهر جندى صينى وهربوا جميعا . وتركوا قداسته يحاول .

وحاول ونجح . كاد الإله ينكشف عندما حاول أن يكون إنسانا ! ويبدو أن المنظر لم يعجب الجندى الصينى . وأدرك أنها لعبة سخيفة وأن هذا الشاب يلهو ويلعب . لوى شفتيه وبصق على الأرض . وأحس الجميع أن هذه البصقة هى نعمة من السماء . . فقد أنقذت الجميع . .

ودخل الحدود الهندية . . وعلى حدود الهنـــد كان ينتظره ألوف من

المؤمنين به . . وعبر الهملايا . . واتجه إلى ولاية ميسور . . ونزل فى أحد القصور هناك . . ومعه مجلس الوزراء وعدد من الرهبان . . أقاموا حوله ونشروا ملابسهم البنية الداكنة وأقامت الحكومة الهندية سياجا من حوله . . وحرسا لحمايته . وغسل الدلاى لاما وجهه لأول مرة واستحم وأصيب بزكام شديد . .

واستمع إلى راديو بكين يقول : الدلاى لاما هرب إلى الهند بعد أن سرق كل التحف الذهبية . . امسكوه حيا أو ميتا . .

وفى أحد الأيام التى قرر أن يطل فيها بطلعته البهية على شعبه . . استمع إلى ضوضاء شديدة . . وصراخ . . وتهديدات بلغـة غير معروفة تتخللها كلمات إنجليزية وعربية . ويبدو أنه أشار بيـده ولكن القوات الهندية اعترضت وتحدث رئيس الوزراء باللغة الفرنسية وجاء الرد باللغة الفرنسية أيضا بالامتنان . ولكن الحوار بين رئيس الوزراء وبين شخص ملفوف فى بطانية ومحمول على محفة . ورأت الجماهير مريضا أبيض اللون جـاء يتبرك بصاحب القداسة . فكان ذلك أعظم تحيه لهم . فقد ظنـوا أن قداسته وبركاته لا تتعدى حدود التبت . فإذا هى تغمر الجبال والوديان .. الصفر والبيض معـا . .

وحملوا المريض الذى يقول إنه جاء بالنيابة عن كل المرضى واليتامى والمساكين فى العالم العربى وفى مصر بصفة خاصة وسكان عشش الترجمـان بالذات — حيث توجد مؤسسة أخبار اليوم — وأنه قطع هذه الألوف من الأميال ليخطف منه بصيصا من البركة .

وأمام الدلاى لاما حلت البركة فى المريض . ورفع الغطاء عنه . . ونهض وأحنى رأسه ومد يده مسلما والتقط للدلاى لاما أول صـورة له ولأمه ولوزرائه وأخته وأخيه فى العالم كله ولم يكن مريضا . . إنما هو صحفى تمارض ليروى قصته للعالم كله . . هذا الصحفى اسمه : أنيس منصور . .

حتى لا تكتب مذكراتك
هذه هي الطريقة

فى مثل هذا الشهر من ٢٧٠ عاما سافر أحد رجال الدين والعلم والأدب من دمشق إلى بيروت فألف فى ذلك كتابا . وعشرات الألوف من الناس الآن يفعلون ذلك دون أن يؤلفوا كتبا أو يقولوا أنهم سافروا من دولة إلى دولة . لأن المسافة قصيرة . ولا تستغرق من المسافر أكثر من علبة سجائر يدخن نصفها والباقى يوزعه على غيره من المرافقين .

ولكن السيد عبد الغنى بن اسماعيل النابلسى قد ألف كتابا إسمه « التحفة النابلسية فى الرحلة الطرابلسية » . والكتاب نشره المعهد الألمانى للأبحاث الشرقية فى بيروت . وقد حققه المستشرق الألمانى هربيرت بوسه وفى مقدمة هذا الكتاب تقدم بالشكر للذين نبهوه إلى هذه المخطوطة النادرة .. ويشكر الدكتور صلاح المنجد الذى « حرضه » على البحث عنها وتحقيقها — هو الذى قال حرضه على ارتكاب عمليه النشر . والمقصود « شجعه » على النشر !

أما الكتاب نفسه فأسلوبه عربى قديم مسجوع . والسجع فى كثير من الأحيان متكلف . وبه مائة قصيدة نصفها من تأليف عبد الغنى النابلسى . والمستشرق الألمانى يرى لهذا الكتاب أهمية خاصة فى معرفة أحوال الإسلام والمسلمين فى ذلك الوقت . ويقارن بين هذا الرحالة العربى ورحالة تركى اسمه أولياء شلبى .. ورحالة إنجليزى جاء إلى لبنان فى نفس الوقت . ولكن كلا منهم عاش منعزلا عن الآخر .. النابلسى غارق فى الصلوات والحمامات مع رجال الدين والفقهاء والرحالة الإنجليزى هنرى موندرل مع الأوروبيين وأبناء البندقية . ولو التقى الرجلان لروى كل منهما قصة مختلفة عن نفس البلاد .

وكان النابلسى فى الأربعين من عمره عندما بدأ رحلته .. يقول النابلسى فى أول سطور الكتاب متحدثا عن نفسه طبعا : « يقول روضة الآداب الندية والجامع من الفنون العلمية والأدبية . سليل العلماء الأعلام ، الشيخ اسماعيل الشهير نسبة إلى الكريم ابن النابلسى . القادرى مشربا ، والحنفى مذهبا ، والدمشقى موطنا ، والحاتمى تحققا ومعدنا .. » وهذا يكفى !

ولكنى أرى لهذا الكتاب أهمية أخرى ..

فمؤلفه يفعل بالضبط ما يجب ألا يفعله أى رحالة ، إنه لايتحدث عما رأى من الأشياء أو من الناس . إنه يقول سافرت من مدينة كذا إلى مدينة كذا . ونمت حتى الصباح . بعد أن تعشيت وصليت وحمدت الله . ولكن كيف سافر ؟

كيف كانت وسيلة السفر ؟ كيف حاله ؟ كيف حال الناس ؟

ماذا رأى من الناس ؟ ماذا رأوا منه .. ما الذى أغضبه ؟

إنه لا يقول شيئا .

إنه مثلا عندما ذهب إلى المدينة المنورة فى إحدى رحلاته اهتم بعدد النخيل وأنواعها . وكتب أن أنواعها ١٩٣ نوعا .. وعندما ذهب إلى ميناء طرابلس وهى خاتمة هـــذه الرحلة اهتم جدا بأنواع الزوارق والسفن .. وعرف أن أنواعها عشرون نوعا : الماعونة والغليون . والزربونة والغلياطه .. والقياسه . والشختوره .. والفلوكه .. والقارب والبرمه وغيرها ..

والكن النابلسى صاحب الفكرة .. أو له غاية محددة .. وضعها أمامه : وهو أن يلتقى بالناس الطيبين يتناقشون فى أمور الدين ، ويستمع إلى قضاياهم وفتاواهم . ويقول وينقل وهو فى كثير من الأحيان صاحب الرأى السديد .. هذا رأيه ..

سافر إلى دمشق . وبات ليلة .. وبعد يومين سافر إلى جبل لبنان .. وكانت الطرق وعرة – لم يصفها لنا كيف كانت وعرة . وفى صيدا أقام أسبوعا وسافر إلى جبيل . ثم إلى طرابلس وأقام فيها أسبوعين ..

وصعد الجبال . وهبط الوديان . وكانت وسيلته هى البغلة . وقد تعبت البغلة من الصعود والهبوط وقال فيها شعراً .

ولكنه يبدو أنه رجل ظريف . وأنه يخفى وراء هذا الإطار الدينى رجلا رقيقا ذواقا . ولكنه يستحى أن يفضح نفسه . فقال موالا فى الغزل :

حواجب الغيد جل الله باريها   والعشق أحلامنا بالشوق باريها
ياجاذب القوس إن مكنك باريها   خل التعب عنك واعط القوس باريها

ويقول أيضا :

إن المحب إذا بكا   فاعذروه زاد ولوعه
كالشمع يبكى فى الهوى   حتى تسيل دموعـــه

ويقول :

ايان هاج الهوى   بين المنازل والربوع
الناس تضحك فرحه   والشمع يبكى بالدموع

ربما كان هذا ألطف ما فى الرحلة كلها من شعر . وبعد ذلك ينتقل من مدينة إلى مدينة . وهو فى الحقيقة ينتقل من مناقشة إلى مناقشة . أو من مشكلة إلى مشكلة . مثلا : مشكلة هل الصلاة فى الصحراء ثوابها أكبر من الصلاة فى البيب ؟

هل الصلاة فى الحديقة أكثر ثوابا من الصلاة فى البيت ؟ مناقشات وأحاديث نبوية صحيحة أو مكذوبة .. والنابلسى عادة هو صاحب الرأى الذى له معنى فى النهاية .

وفى ذلك الوقت قرأ كتابا اسمه « نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر » من تأليف شمس الدين الدمشقى . والكتاب يتحدث عن أشياء غريبة وعجيبة ينقلها كما هى ـ والله أعلم ـ فمثلا من أين جاءت الجبال والرمال . جاءت من الرياح « المحقونة » فى الأرض المتموجة تحتها . فالرياح ترفع أرضا وتخفض أرضا . بل حدث أن زلزالا وقع فنقل أكثر من ٣٠٠ شجرة زيتون كانت فى أعلى الجبل إلى بطن الوادى وكأنها غرست فى هذا المكان . لا فى مكان آخر ، فلا الأشجار تغيرت ولا الأرض تكسرت ، بل أن الرياح التى تخرج من بطن الأرض حملت أحد الأديرة كاملا بما فيه من رهبان وحيوانات وأدوات . « وتحرر بذلك محضر شرعى بإمضاء السلطان الملك الناصر » . بل أكثر من ذلك أن قرية كاملة بكل بيوتها وأهلها ونباتها وحيواناتها انتقلت من أعلى الجبل إلى بطن الوادى . فلم يشعر بذلك أحد من الناس .

وعندما أقام النابلسى فى دمشق لاحظ أن العناكب لا تبنى بيوتها فى أركان المساجد أبدا .. ولا العصافير تعشش فى المساجد مطلقا .. حتى الحيات لا تلدغ الإنسان ما دام فى مدينة دمشق .

وقرأ النابلسى فى كتاب « نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر » أن فى البحر الأبيض أسماكا لها رأس أصلع ولها لحية وأنها حمراء اللون . وأن هناك أسماكا تمسك سيفا قصيرا فى يدها .

ويتساءل النابلسى عن أصل كلمة (كردى) ومن أين جاءت فيقال له أن ملكا كان له فى كتفه دملان .. أو عرقان نافران . وكانا على شكل ثعبان . ولا يشفيهما إلا دم الإنسان . ولذلك كان هذا الملك يذبح كل يوم رجلا . فلما عرف الناس ذلك « كردوا » من الجبال ـ أى هربوا من الجبال . ومن هنا جاءت كلمة « الكردى » .. وهذا هو أصل الأكراد !

وإذا استطرد النابلسى ، وكثيرا ما يفعل ذلك ، يقول : لم نرجع إلى ما نحن فيه » ..

ويبدو أن محاولات كثيرة بذلت لإقناعه بأن يركب البحر . ولكنه رفض . خاف . وفى ذلك يقول :

لن تركب البحر الخضم مهابة بجلال خالقه فمنه نفـــرق
نخشى به غرقا ونخشى أسره بركوبنا فهو العـــدو الأزرق

ولكنهم بعد ذلك أقنعوه فركب البحر فى ميناء طرابلس وشارك فى صيد الأسماك . وأعجب بها . وهو معجب عموما بكل طعام للديد . ويكفى أنه يصلى العشاء ، ويتناول العشاء وينام نوما هنيئا حتى طلوع الشمس كل ليلة وكل صباح — منتهى الراحة .

ولكن يبدو أن هذه الراحة كانت فى بعض القصور التى نزل بها . أما البيوت الأخرى التى يملكها الناس الطيبون من المريدين والمحبين فكانت نوعا من العذاب . ولكن النابلسى احتمله .. مثلا :

براغيث كأفيال قصـــار راعتنا بالخراطيم الطوال
لنا أكلت جميعا من رؤوس إلى الأقدام حتى للنعال
وحتى نومنا أكلته أيضا فأصبحنا كأمثـــال الخيال

ويعود يتوجع من البراغيث فيقول :

براغيث كأمثال الهنـــود بأجسام صغار القد سود
وقعنا فى مخالبهـــا فعاثت بنا وتواثبت مثل الأسود !

وبعد ذلك ذهب إلى بيروت . وبات فى بيروت حتى الصباح . وبعد صلاة الظهر راح يتفرج على ما فيها من مساجد وحمامات . ففيها مسجد اسمه ابن الحمراء وفى هذا المسجد يقام الذكر والناس يتلون الأوراد ويحفظون القرآن .. ويقول إن الجامع الكبير فى بيروت كان أصله كنيسة .

ومن بيروت يتجه إلى طرابلس وهى الغاية من هذه الرحلة كلها . فالطريق به بساتين . والبساتين بها رياحين . والصدر منشرح . والقلب متفتح .والشيخ فى غاية السرور . وهناك نهر اسمه نهر الكلب . ويقال إن هناك تمثالا لكلب . وكان الكلب إذا رأى سفينة قادمة للعدو عوى مرة واحدة .. وإذا رأى اثنتين عوى مرتين . وهكذا يتنبه الناس لملاقاة العدو .. انه صفارة إنذار أو شبكة رادار ومن هنا كان اسم النهر .

ويعلق على ذلك بقوله : وهذا من العجائب والله أعلم بالصواب .

وفى طرابلس لقيه الحاكم والناس جميعا بالترحاب . وكشفوا له عن نفوسهم : قضاياهم وألغازهم الشرعية والفقهية . وهو يعرضها فى رحلته . ولا أعرف كيف استطاع أن يحلها. مثلا إذا كان هناك رجل قد تزوج ثلاثا فقال لكل واحدة منهن على حدة . إذا طلقتك فالأخريان طالقتان ؟ ثم طلق الأولى مرة واحدة ، فما حكم الشرع فى الزوجتين الأخريين ؟ إنها فزورة صعبة جدا ولكنه استطاع أن يحلها وأن يستحق التكريم من كل الناس . ولكننى أعترف بأننى لم أفهم الحل !

معضلة أخرى من طرابلس أيضا :

قال رجل لزوجته وهو على فراش الموت : إن دخلتما هذه الدار فأنتما طالقان فدخلت الإثنتان معا . ومات الزوج فما حكم الشرع فى الميراث وفى الطلاق بعد موت الرجل ؟

واستطاع النابلسى أن يجد الحل .

ولا أجد حرجا فى أن أقول إننى لم أفهمه أيضا . ولكن الناس فى مدينة طرابلس فى شهر سبتمبر سنة ١٧٠١ (١١١٣ هجرية) قد أعجبوا به وحمدوا الله أن جعل من بين عباده أناسا قادرين على معرفة الحق من الباطل مهما التوى الباطل وتحول إلى عقده فى خيط حرير لا يمكن أن تراها العين

المجردة ..ولكن النابلسي استطاع أن يرى العقدة وأن يحلها وأن يريح الناس ، وبعد ذلك تناول طعامه الشهي والفاكهة ونام حتى الصباح ..

ومن القضايا الصعبة التي أفتى فيها أكبر علماء ذلك العصر : هل التدخين حرام أم حلال ؟

وكان جواب الرجل : إذا كان الذي يدخن يشعر منه بتعب في صدره فهو حرام . وإذا لم يشعر بشيء من ذلك فهو حلال — أي أن الذي يحرمه الدين هو الشيء الضار . والذي يحلله هو الشيء النافع . وهذا الرأي سلاح ذو حدين أيضا . ولكن الناس استراحوا إليه وتمايلوا وتصايحوا وتعانقوا . وكان لابد أن يشكروا الله على ما أولاهم من فضل وعلم ..

« ثم جئت إلى منزلنا الرحيب والمكان الخصيب ..حتى أسفر الصباح ونادى مؤذن الفلاح » — وهي عبارة يتكرر معناها كل صباح .

ثم هذه القضية : ما هي الضرورة أن يكون للعمامة طرفٌ يتدلى على القفا .. هذا الطرف اسمه « العذبة » .. وله في ذلك رأي . ويرى هو أنه حسن ولطيف .

ما حكم الشرع إذا قال رجل أن أملاكي موقوفة على جميع ولدي ومات .. فهل ترثه بناته ؟

والجواب أن كلمة : الولد تنطبق على الذكر والأنثى . لأن الولد من الولادة . ومعنى ذلك أن كل أولاده ذكورا وإناثا ، لابد أن يرثوه — معقول !

وفي بعلبك رأى الأحجار الضخمة والأعمدة الفخمة ، واستطاع أن يعرف عددها . وانتهى عند ذلك . ولم يعرف ما الذي فعله العلماء في القرن العشرين عندما قالوا أن هذه الأحجار لا يمكن أن تكون قد قطعت من جبال لبنان . وإنما لا بد أن تكون قد جاءت من أسوان .. وأن هذه الحجارة قد حملت من أسوان إلى بعلبك بطريق الجو .. وأن ذلك قد حدث من عشرات

الألوف من السنين . فقد كانت هناك كائنات أكثر عقلا وذكاء قد أقامت على هذه الأرض بعض الوقت — ولأسباب لا نعرفها نحن الآن — عادت إلى أماكنها من كواكب أخرى مستخدمة سفن فضاء هائلة — ربما كان القمر إحدى هذه السفن(*) ...

وهذة نظرية سوفيتية حديثة جدا .

وفى نهاية كتاب « التحفة النابلسية فى الرحلة الطرابلسية » يقول المؤلف : « وقد وافق الفراغ من تكملة هذه الرحلة المباركة إن شاء الله تعالى عشية النهار الأحد ثانى عشر من ذى القعدة الحرام سنة اثنتين وعشرين ومائة وألف على يد ناسخه الفقير إلى رحمة مولاه اسماعيل النابلسى غفر له ولوالديه وللمسلمين آمين » .

وأعجبنى من النابلسى تشجيعه للناس على السفر وعلى الإنتقال من مكان إلى مكان وفى ذلك يقول :

سافر إذا حاولت قــدرا   سار الهلال ، فصار بدرا
والماء يكسب ما جــرى   طيبا ويخبث ما استقرا

.. أحسنت يا أستاذ نابلسى !

(*) راجع كتابى (الذين هبطوا من السماء) .

إلى القمر..
سيرًا على الأقدام!

أنها مجرد غلطة . فقد كان فى نيته أن يسافر إلى داخل الولايات المتحدة . ولكنه وجد نفسه يحجز تذكرتين إلى مدينة جوهانسبرج فى جنوب أفريقيا . أما زوجته فترى أن هذه أجمل هدية – غير مقصودة – قدمها زوجها فى عيد ميلادها وضحك الاثنان .

وبدأ يجمع معلومات عن أفريقيا التى سوف يسافر إليها . وينتهز هذه الفرصة لكى يعرف هذه القارة السوداء التى لم تعد سوداء .

وكان لابد أن يبدأ رحلته من لندن ذهابا وإيابا . وأمسكت زوجته أحد القواميس ، وتحته كلمة أفريقيا وجدت سطورا تقول : إنها تتسع لخمسة أقمار كالذى ينير لها .. وبلجيكا تملك منها مستعمرات أكبر منها ٨٨ مرة .. وبريطانيا تملك مستعمرات أكبر منها ٣٠ مرة .. والبرتغال أكبر منها ٢٣ مرة . . وفرنسا أكبر منها ٢٠ مرة . . إنها ثانى قارة على الأرض من حيث الضخامة . فآسيا هى الأولى طبعا .. والصحراء الأفريقية أكبر مساحة من الولايات المتحدة ، وإذا قورنت الدول الأوروبية بدول مثل غانا ونيجيريا والكونغو وتنزانيا ، فإنها تعتبر مجموعة من الأقزام ..

ثم أقفلت القاموس ، ومضت تقول لزوجها الرحالة ويلارد برايس : أما الباقى فقد حفظته قبل ذلك . . فالنيل أطول نهر فى العالم . وشلالات فكتوريا أكبر من شلالات نياجرا على حدود أمريكا وكندا .. وقناة السويس ضعف قناة بنما .

ولكن الزوج كان مهموما .. فإن هذه الرحلة ستجدها الزوجة متعة ولا شك ، أما هو فسوف يؤلف عنها كتابا لابد أن يكتب ، أى لابد أن ينقد ويصور كل ما يراه ويسمعه .. انه مثل الناقد الرياضى فى مباريات كرة القدم لا يستمتع باللعب وإنما يحسبه ويكتبه ، ويسجله . إنه مثل التلميذ فى السنوات الأولى فى كلية الطب يمضغ الطعام ويتابعه من الفم إلى البلعوم إلى المرئ إلى المعدة .. ويتابعه بعد ذلك فى أمعائه .. إنه بذلك لا يجد متعة فى الطعام ، وأكثر من ذلك أن يتوهم أمراضا لا وجود لها ..

ولما وجدت الزوجة أن زوجها بدأ يرتدى ملابس الرجل الرحالة المهموم قالت : أعود إلى القاموس : وأفريقيا هى الموطن الأصلى للفيل وهو أكبر حيوان فى العالم ، والموطن الأصلى للزرافة ، والكركدن الأبيض ، والأسد ملك الغابة .. والجاموس البرى وهو أكثر حيوانات الغابة شراسة ، وفى أفريقيا أكبر أنواع الزواحف : التمساح الذى عبده الفراعنة ، وقد حدثنا هيرودوت عنه .

هذا المؤرخ هيرودوت — كلامى أنا — قد شوه سمعتنا كما لم يفعل أى زائر إغريقى إلى مصر . فقد كتب أنه لم يستطع أن ينام فى مدينة منف بسبب بكاء التماسيح طوال الليل ، ومنذ ذلك اليوم والعالم كله يتصور حتى أيامنا هذه أن التماسيح ما تزال تلعب فى النيل . بل إن الرئيس جمال عبد الناصر قد سأله أحد الزعماء السوفييت إن كان النيل ما يزال مليئا بالتماسيح ..

ولو قال أى مصرى مهاجر فى أمريكا واستراليا أو كندا أنه عندما جاء إلى القاهرة يزور أهله : لم أنم تلك الليلة — من الفرحة طبعا — لوجد من يقول له : بسبب بكاء التماسيح !

منه لله هذا المؤرخ الأغريقى هيرودوت !

وتعود الزوجة إلى القاموس فى محاولة يائسة للتخفيف عن الزوج المهموم :

وبعض القبائل الأفريقية تعبد نوعا من الثعابين اسمه : الأصله .. وفى أفريقيا أعظم أنواع الغوريلا والشمبانزى .. وهذه الحيوانات موجودة فى أفريقيا وحدها وبكثرة .

وحتى لا يبدو الزوج ويلارد برايس أنه تعيس بسبب هذه الغلطة فقد أقنع نفسه وحاول أن يكون لطيفا مع الزوجة ، وقال لها : ان العلماء كانوا يعتقدون أن آسيا هى الموطن الأصلى للإنسان الأول ، ولكنى أعتقد أن الإنسان الأول كان هنا فى أفريقيا .

وبهذه العبارة بدأ الدخول فى « جو » الرحلة التى سجلها ويلارد برايس فى كتاب عنوانه « أفريقيا — ذلك اللامعقول » وقد جعل ثلث الكتاب صورا ، وبعده جاء الأديب الأمريكى أرثر ميللر فكتب رحلته المشهورة «فى روسيا» وجعل ثلث الكتاب بقلمه والباقى كله من تصوير زوجته ، وقبلهما الكاتب الفرنسى أندريه موروا ألف كتابا فى أربعين صفحة... أما بقية الكتاب وتبلغ ٢٥٠ صفحة فهى مجموعة من الصور الرائعة ، الكتاب عنوانه «باريس بالليل » وهو تحفة أدبية وفنية معا .

يبدأ الرحالة كتابه بأن يلفت عين القارئ وعقله إلى عبارات حادة جافة كتبها العالم الكبير داروين فى كتابه « أصل الأنواع » ، يقول داروين وأرجو أن تقرأ بعناية جداً هذه الكلمات التى أنقلها بدقة : فى كل منطقة كبيرة من العالم نجد أن الثدييات التى ما تزال باقية . كانت لها صلة وثيقة بالأنواع المنقرضة فى نفس المنطقة .

ويقول داروين بعد ذلك : ولهذا السبب ربما كانت أفريقيا قد عاشت فيها قرود منقرضة كانت لها صلة وثيقة بالغوريلا والشمبانزى ، وهاتان الفصيلتان من القرود أقرب شبها بالإنسان ، فلعل أجدادنا قد عاشوا فى القارة الأفريقية لا فى قارة أخرى ..

ثم هذه العبارة لداروين : ولكن يجب ألا نتزلق إلى الخطأ ونقول إن أجدادنا كانوا مطابقين أو متشابهين تماما لأى قرد من القرود الحية .

هذه العبارة الأخيرة لم يذكرها أحد فى المائة سنة الماضية ، ولكن العلماء يذكرون العبارات السابقة فقط ، ويحاولون أن يربطوا بين الإنسان والقرد . ويحاولون أيضا أن يبحثوا عن المرحلة التى تحول فيها القرد إلى إنسان — هذه المرحلة المفقودة . ولذلك فالعلماء ينبشون الأرض بحثا عن هذه المرحلة المفقودة بين الإنسان والقرد ، ومن الغريب أنهم عثروا على شئ من ذلك فى أفريقيا فى السنوات ١٩٢٥ و ١٩٣٦ وأخيرا فى ١٩٥٩ وجدوا ما يمكن أن يوصف بأنه « الحلقة المفقودة » بين الإنسان والقرد وفى تنزانيا . ولذلك فعدد كبير من العلماء يرى أن آدم عليه السلام نزل من السماء وهبط إلى تنزانيا وليس فوق جبل آدم فى جزيرة سيلان(*) .

وأفريقيا كانت مهدا لأكبر وأول حضارة عرفها الإنسان : فى مصر . وفى مصر أيضا الأهرام واحدة من عجائب الدنيا السبع ، وإذا كان فى أفريقيا الآن ثلاثة آلاف لغة . فالعلماء يتوقعون فى المستقبل أن تتحد هذه اللغات وتصبح ثلاثا فقط ، ولم يحدث فى تاريخ البشرية أن هبت الشعوب إلى الاستقلال والحرية بهذه الكثرة والقوة . كما حدث فى أفريقيا ..

أما الصورة التى تخيلها الفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو أن سكان أفريقيا هم « هؤلاء البدائيون النبلاء السعداء » — فهى صورة جميلة ، فليسوا سعداء إلى هذه الدرجة ، ففى أفريقيا فقر وجهل ومرض وخرافات ، وما تزال فيها قبائل ترى العفاريت تحت كل شجرة .

ولابد أن العالم كله قد شعر بالعار يوم ٥ يناير سنة ١٩٥٩ عندما نقلت صحيفة « نيويورك تيمس » الأمريكية أن ثورة نشبت فى الكونغو . بصراحة : لم يكن فى وزارة الخارجية الأمريكية شخص واحد يعرف شيئا عن هذه المستعمرة البلجيكية ، ولم يستطع أكثر الناس علما أن يتصور أن الكونغو سوف تكون جمهورية مستقلة بعد ١٨ شهرا ..

(*) راجع كتابى « حول العالم فى ٢٠٠ يوم » .

وبدأت الرحلة من لندن ..

وحلقت الطائرة فوق جبل طارق بن زياد ، وهذا الجبل قد نسب إلى القائد العربى الذى حمل الحضارة إلى أوروبا التى خمدت أنفاسها تحت الجهل ، وكان الأغريق يرون أن عند هذا الجبل ينتهى العالم .. وفى الطائرة استمع إلى حوار بين رجل وابنه الصغير . قال الإبن : وسنرى عددا من آكلة لحوم البشر فى بلاد المغرب .

فقال الأب : انهم ليسوا متوحشين ، لقد كانوا مصدر الحضارة الأوروبية . وهنا تدخلت الأم بغضب قائلة : لا تحاول بلبلة أفكار الطفل يا عزيزى .

وكان الأب على صواب ..

وهبطت الطائرة فى مراكش .. ثم ارتفعت وهبطت على الساحل الغربى وفى مدينة داكار ركب سيارة إلى أطراف المدينة .. النساء عاريات .. نصف عاريات . ومن الغريب أن الصدور ليست بارزة رغم أن الفتيات صغيرات . وتساءل : قيل له إن الفتاة تعمل باستمرار على أن يبدو صدرها مترهلا لتوهم الآخرين أنها حملت وأرضعت كثيرا . أى أنها امرأة خصبة .. فالرجل لا يحب أن يتزوج امرأة لا تنجب له الأطفال ..

ومن هذه المنطقة فى بلاد السنغال كان يجرى شحن الزنوج إلى أمريكا أيام تجارة الرقيق ..

غلطة أخرى ارتكبها الرحالة وبلارد برايس .. فقد شكا من صداع شديد وتناول قرصين من الإسبرين ولكن الصداع لم يذهب فعاد يتناول قرصين من الحبوب المنومة وكانت زوجته تعرف أن الصداع إذا ما أصاب زوجها فسوف يشكو من الأرق أياما وبذلك تفسد الرحلة كلها .. وانتهزت الزوجة فرصة أن زوجها قد نام قليلا وأخرجت حقنة مخدرة وأنفذتها

فى ذراعه .. ونام الزوج .. وهبطت الطائرة ولا يزال الزوج نائما وحملوه على نقالة إلى أحد المستشفيات . وظل الزوج نائما ، وتساءلوا : إن كان الزوج قد جاء إلى أفريقيا قبل ذلك . فقالت الزوجة : هذه أول مرة ..

ولما سألت عن السبب قيل ربما لدغته ذبابة تسى تسى التى يظهر مفعولها المرضى بعد ست سنوات .

ولما فتشت الزوجة فى جيوب زوجها اكتشفت أنه — على سبيل الخطأ — ابتلع أكثر من عشرة أقراص منومة .. وحملوه وهو نصف نائم بعد أيام من الصعود والهبوط إلى شلالات فكتوريا لعله يصحو . وبدأ يفيق عندما قالوا له أن أمريكيا مجنونا طلب من حكومته شراء هذه الشلالات ، ولما ضحك ، أدركت الزوجة أن زوجها قد أخذ يفيق ، وأفاق ..

نحن هنا فى قلب القارة الأفريقية .. أعظم غابة على سطح الأرض ، والفرق بين الغابة وبين حديقة الحيوانات أن الإنسان فى الحديقة حر طليق ولكنه فى الغابة لا بد أن يعيش فى أقفاص أو فى سيارات أو فى حراسة مشددة ولذلك فالأفضل أن يشاهد هذه الغابة العظيمة من الجو ، وركب طائرة ذات محركين وراحت تعلو وتهبط وتصل فى هبوطها إلى مستوى الفيلة والزرافات أما الفيلة فلا تهتز كأن شيئا لا يتحرك فوقها أما الزرافات فكانت أسرع الجميع ..

وتزاحم الركاب على أصوات الحيوانات يلتقطون الصور فى سعادة وجنون ولكن شخصا واحدا كان يبعث على القرف — ومعه حق — إنه الطيار نفسه فهو يدخن دون أن ينظر إلى شئ حوله أو تحته فقد رأى ذلك ألوف المرات ، إنه محروم من نعمة الدهشة أو لعله قد ذاق طعمها مرة أوصبحت ذكرى !

والتعليمات فى كل مكان تطلب إلى الزائر ألا يخرج وحده فى الليل .. أو بعد الغروب بصفة خاصة ، والسبب معروف طبعا .

أما صحراء كلهارى ففيها أعجب أنواع البشر وفيها هؤلاء الأقزام — البوشمان — إنهم يمشون كأنهم مكسحون ولكن إذا جروا فهم كالريح .. ويرون بالعين المجردة ما لا يراه التلسكوب . وهم فى حالة هياج جنسى دائم .. حتى الثمانين من العمر ، وهذا من دواعى فخرهم ، ولذلك فصفاتهم وأسماؤهم مأخوذة من هذه الحالة الجنسية الغريبة .

أما طريقتهم فى صيد الأسود فمجموعة منهم يأتون إلى الأسد بغزالة صغيرة ويطلقونها أمامه ، فإذا هجم عليها أطلقوا عليه سهاما شديدة السم وبعد ذلك يستخدمون نفس الأسد فى صيد حيوانات أخرى .

أما أساليبهم فى الغزل والزواج فهى قريبة من ذلك أيضا ، فهم يصنعون سهاما صغيرة جدا ويغمرونها بالعطر فإذا رأوا الفتاة أطلقوا السهم على ثوبها ، وطبعا سوف تنظر الفتاة بكل خجل مفتعل إلى مصدر السهم ، فإن أعجبها صاحب السهم ، أبقت السهم فى مكانه ومعنى ذلك أنها وافقت على الزواج منه وإذا أخرجت السهم وكسرته فمعنى ذلك أنها رفضته زوجا ولا تنطلق السهام عادة إلا إذا كان الرجال أو الشبان عراة تماما .

وفى الليل جاءت ذبابة ووقعت على ذراع الرحالة برايس . ونفخها أحد الزنوج ، الذبابة اسمها : تسى تسى . وهى تقتل الكثير من الحيوانات ومن المواطنين وذلك بأن تجعلهم ينامون حتى الموت ، أو يموتون أثناء النوم .. وهى لا تصيب الرجل الأبيض .

ومن حين إلى حين يكتب الرحالة برايس مذكراته . وفى إحدى الليالى اكتشفت الزوجة أن زوجها يصلى إلى جوار السرير ويقول : يارب خلصنى من الرحلة السوداء فى القارة الأكثر سوادا .

إذن لقد تعب الرجل ..

وهو معذور ، فالليل مخيف ، والنهار مرهق ، وهو حريص على أن يدخل

الغابة ، وأن يرى عن قرب وأن يسمع ، وأن يسجل بالصورة وبالقلم ، وفى أحد الفنادق الصغيرة أشاروا عليه بأن يختار حارسا يجلس تحت نافذته طوال الليل ، وفى الليل جاء الحارس : رشيق ظريف ، ومعه بندقية وكثير من الطلقات ، ولم يكد ينام الزوجان حتّى قفزا من السرير ، لقد سمعا صوت أسد جريح .. ثم صوت نمر .. وإذا صحت درايتهما بالأصوات التى استمعا إليها مسجلة على اسطوانات ، فإن هذا الصوت الأخير صوت ثعبان وهو ينهش طائرا كبيرا .. وفجأة ساد الصمت .. واقترب الاثنان من النافذة ووجدا الحارس فى مكانه هادئا ، وفتحا النافذة وسألاه عن هذه الأصوات ولم يفهما منه أى شئ وفى الصباح عرفا أن الحارس هو مصدر هذه الأصوات ، إنه يخيف الحيوانات المفترسة حتّى لا تقترب ..

يقول الرحالة برايس : انه ليس أحسن من الصدفة السعيدة بالنسبة لأى مسافر ..

أما الصدفة السعيدة فإنه قد وجد طائرة يملكها أحد الأمريكان .. هذه الطائرة أقسمت زوجة هذا الأمريكى ألا تكون مع زوجها وحدها فى مكان واحد .. أبدا .. لا غرفة النوم .. طبعا ولا السرير .. ولا الطائرة .. بعض علماء النفس يشخصون مرضها بأنه « جنون صاحبات الملايين » أى أن المطلوب هو أن يكون هناك آخرون وقام الرحالة وزوجته بدور حاجز الصوت ، أو مانع الصواعق بين المليونير صاحب الطائرة والمليونيرة زوجته .

وهى صدفة سعيدة لأن الزوجة أقسمت برحمة أمها فى ذلك اليوم بالذات ألا تنفرد بزوجها وألا يفعل هو ذلك ، وفى نفس اليوم أقسم الرحالة ألا يسافر فى سيارة وحده هو وزوجته وسط الغابة حتّى لو مات فى تنجانيقا ..

والغلطة الثالثة التى ارتكبها الرحالة هو أنه لم يسأل صاحب الطائرة أين يذهبان . وإنما فرح بوجود طائرة . وفرح بالاستمتاع المفاجئ بما

يستمتع به أصحاب الملايين الذين يفضلون الزوجة المتعبة على الطلاق السعيد لأن الطلاق معناه أن تنال الزوجة المليونيرة نصف ملايين الزوج !

واتجهت الطائرة إلى جزيرة زنزبار على الشاطئ الشرقى لأفريقيا وانفتح باب الطائرة وكأنه انفتح على أحد معامل العطور فى باريس . فهذه الجزيرة الصغيرة معناها مدينة « القرنفل » وهذا واضح من الرائحة . ومن النسيم الذى يلف الفتيات الجميلات اللائى ارتدين السارى الهندى . وعلى الرغم من أن الجزيرة ملاصقة لقارة أفريقيا ، فإن أكثر أهلها من الهنود . أما العرب فيمكن تمييزهم . فهم الذين يضعون صورة جمال عبد الناصر فى داخل المحلات أو على أبوابها . وهذه الجزيرة تصدر ٨٠٪ من قرنفل العالم كله الذى يستخدم فى العطور وفى منع تسوس الأسنان وتسكين الألم .. وقبل اختراع الإنسان للثلاجة كانت أوروبا تحفظ اللحوم فى القرنفل والقرفة . وهذه الجنة الصغيرة ، ككل جنة لا تخلو من الحيات .. فالخلاف شديد بين الأفارقة والهنود والعرب .. وهذا هو التسوس الوحيد الذى لا يستطيع القرنفل أن يقضى عليه .

وعندما عاد الرحالة برايس إلى تنجانيقا أعجبته أنواع غريبة من الحيات . بعضها يصل إلى ثلاثين قدما . مثل ثعبان الأصلة . وهو غير سام . ويمكن تربيته فى البيت . وهو نادر – لا يلدغ .. والخدمة الوحيدة التى يؤديها لأهل البيت هو أن يأكل الديدان والفئران والطيور . وفى حالة الغضب – وهى نادرة – لا يلدغ أحدا وإنما فقط يلتف حوله ويعتصره – وإذا كان من الصعب عليك أن تفهم هذه الصورة فاذهب إلى أى محل عصير قصب وتخيل نفسك عودا من القصب !

وهناك نوع آخر من الثعابين النفاثة .. هذه الثعابين تستند إلى مؤخرتها وترفع جسمها ورأسها إلى ما يقرب من رأس الإنسان . وهى قادرة على أن تطلق من فمها قذيفة إلى العين . وهى لا تخطئ أبدا . هذه القذيفة الدقيقة

عبارة عن سم مركز يصيب العين بالعمى .. والباق معروف — فى الليل أو النهار وكل الثعابين تهتدى بالأشعة الحمراء — وكل الثعابين لا ترى . وإنما هناك حول العين توجد خلايا ضوئية . تتأثر بالأشعة تحت الحمراء وتوجه الثعبان إلى حيث يريد — هذه معلوماتى أنا ..

وفى بحيرة فكتوريا وجد عدداً كبيراً من حيوان السيد قشطة .. عيونها جاحظة تحت الماء .. وهذا الحيوان قادر على أن يختفى تحت الماء أربع دقائق ثم يطفو .. هذا الحيوان لا يصيب أحداً بضرر إلا إذا — وعشرات من كلمة « إلا » — أى إلا إذا عاكسته .. إلا إذا عاكست صغاره .. إلا إذا لمست قرنيه .. إلا إذا سلطت عليه الأضواء .. إلا إذا ضربته بأى شئ .. وهو حيوان يحب المداعبة فقد حدث أن طارد سيدة أمريكية شقراء .. فهربت منه فوق إحدى الأشجار فزق فستانها وقميص نومها .. إلى آخره — وعندما عاد إلى الماء وجدوا السيدة بلا جروح . انه كان يداعبها فقط وعندما ذهبت أنا إلى هذه المنطقة سمعنا هذه النادرة وكانت ترافقنا سيدة أمريكية أطبقت عينيها وشفتيها وانطوت على نفسها .. لا تريد أن ترى أو تسمع أو ترانا أو تسمعنا .. وسألنا إن كان السيد قشطة بالذات موجودا وإن كان ما يزال يحب المداعبة وقيل لنا إنه مات وكان موته حرمانا لنا من رؤية فتاة أمريكية جميلة ..

لم يبق من رحلة الصديق العزيز ويلارد برايس سوى أن يذهب إلى جبال « رونزورى » التى وصفها تشرشل بأنها قطعة من الجنة : النباتات والحيوانات والصعود والهبوط . وهذه الجبال لهاخمس قمم : هذه القمم مغطاة بالجليد .. وتحت الجليد ستائر كثيفة من السحب .. وقبل السحب توجد حديقة نباتات .. وألوان وأحجام ومساحات من الأشجار الغريبة العجيبة وفى هذه المنطقة تمنى أمين باشا فى أواخر القرن التاسع أن يدفن هنا ولكن العرب استطاعوا أن يحرموه من هذا الحلم . قتلوه قبل أن يصل إلى السفح .. وأمين

باشا هو طبيب ألمانى كان مرافقا لغوردون باشا واسمه إدوارد اشنتسلر ثم اختار له اسما تركيا . وكان عميلا . وكان معاديا لأهل البلاد .. ولما عرفوا حقيقته قتلوه على باب الجنة ..

هذا الجبل رونزورى له اسم آخر هو « جبال القمر » وربما اختاروا له هذا الاسم لأنه غريب عجيب .. كأنه من كوكب آخر .. أو لأن أهل البلاد يرون أن القمر يظهر منه ويختفى فيه بسبب السحب الكثيفة . أو أنه ينام ويصحو فيه .. ولو عرف أهل اسكتلندا الذين يتفاءلون بنبات الخلنجان كم يوجد من هذا النبات بهذه المنطقة لجعلوا حياتهم هنا .. ان هذه الجبال طولها ستون ميلا وعرضها ثلاثون .. وعشرات الألوف من الأفدنة مزروعة بهذا النبات الجميل .

وكان من نصائح أهل هذه المنطقة أن الذى يصعد جبال القمر على قدميه يطول عمره ولكن من أدرانا أن هذه الخرافة حقيقية . وتلفت الرحالة برايس إلى زوجته وهزت كتفيها أنها لا تستطيع طبعا أن تصعد هذه الألوف من الأقدام .. ولكن أهل هذه البلاد يعرفون هذه الحقيقة ولذلك وجدوا لها حلا : أن يخلع الرحالة برايس حذاءه ويعطيه لأحد الشبان المشهورين بصعود الجبال .. ويرتدى الشاب هذا الحذاء ويصعد به ألفا وألفين .. وثلاثة آلاف .. ثم يعود إليه .. وبعد ذلك عليه أن يرتدى حذاءه إن كان يصلح وسوف يعيش عمرا أطول من حذائه .. أما الحذاء فقد تمزق تماما ولكن الرحاله برايس احتفظ بحذائه فى صندوق زجاجى لعله يعيش أطول من حذائه — ومن النادر أن يحدث ذلك لأى أحد . فأعمارنا أقصر من حياة أحذيتنا !

واحد...
لا يريد أن ينسى نفسه

هذا الرجل يجب أن يعرفك بنفسه . . فهذه عادة عنده كلما التقى بانسان غريب . لأنه من الضرورى أن يرتبط بالناس بصلة ما . . حب . . كره . لا مبالاة . . المهم ألا يكون مجهولا لدى أحد من الناس .

سافر كثيراً فى أمريكا وفى الشرق الأقصى وفى إسرائيل وفى بلاده هو : المجر التى تركها وهو دون العاشرة . ثم سافر إلى لندن ليصبح صحفيا بريطانيا . وكاتبا طريفا يحب قراءته الجميع ولا يرضون عنه . . وليس سبب ذلك كرم الضيافة عند الإنجليز . . ولكنهم يرون أن الكاتب الساخر مثل كثير من الحيوانات أو الطيور التى لها مخالب أو أنياب . فهى بطبعها لابد أن تجرح وليس من السهل تغيير طباع الكتاب والحيوانات .

وليس نادراً أن يظهر من الإنجليز إناس مثل برنارد شو واوسكار وايلد وبيربوم . . وهذا الرجل جورج مكش . . والكلمة الأخيرة يفضل أن ينطقها الناس وعندهم زكام أى : جورج بكش . . فهو على صلة مستمرة بالبكش والضحك من الناس وعليهم . وهو حريص على احترام الناس له . ولكن ليس من السهل أن يحترمك كثيراً من تقوم له بدور البهلوان . أى أنه انسان محبوب فقط حاول بكل قوته أن يكون محترما ولكنه لم يفلح . . والمحاولة التى يبذلها ليكون محترما تعادل نفس المحاولة التى يبذلها الكاتب المحترم ليكون محبوبا . كلاهما يبذل أقصى مافى وسعه ولا يفوز إلا بالقليل جداً مما فى وسع الناس . ولكنه لم ييأس رغم أن الناس قد يئسوا تماما . .

والكاتب المجرى الأصل الإنجليزى الجنسية جورج مكش له رحلة

مشهورة اسمها « الشرق شرق » وهو فى هذه الرحلة يزور اليابان ولا يزور جزيرة فورموزا ويرى الهند وتايلاند وهونج كونج والفلبين والملايو وتركيا . . أما سبب الزيارة فهو أنه كان عضوا فى مؤتمر القلم الدولى الذى انعقد فى طوكيو .

وجورج مكش يدخل فى موضوعه مباشرة فيقول لك أن قارة آسيا كبيرة واسعة . متعددة الألوان والأجناس والأديان واللغات . ولكن يظهر أن القاعدة فى هذه القارة : يجب أن تحب قارتك وأن تكره جارتك !

وهذه قاعدة لاتخطئ فى كل هذه القارة . فمن النادر أن تجد دولتين متجاورتين متحابتين .

ويضحك مكش من مثل هذه الكلمات : الروح الآسيوية . . الوعى الآسيوى . . الضمير الآسيوى . . والرجل الآسيوى . .

وهى كلمات لامعنى لها . . لأنه لايوجد أى تشابه بين راعى الأغنام فى طشقند وصاحب البار فى بيروت وكلاهما أسيوى . .أو بين قاطع الطريق الفلبينى وبين صاحب شركة تاتا الهندية . . كما أنه يصعب أن نفرق بين السورى والتركى والايرانى . . وليست بينهم جميعا أى شبه بالصياد الأندونيسى وهم جميعا آسيويون . .

وبعد ذلك تجئ تعبيرات : الشرق الأقصى والأوسط والأدنى . . وهى كلمات ليس لها أى معنى عند الرجل الآسيوى . . ففى أوروبا يقولون عن اليابان إنها الشرق الأقصى . . ولكن كيف يقول الرجل اليابانى عن نفسه : نحن هنا نعيش فى الشرق الأقصى . .

إن كلمات : الأقصى والأوسط والأدنى . . هى كلمات تعتمد على

وجهة النظر الأوروبية . . فى حين أن الشرق الأقصى بالنسبة للرجل اليابانى هو الولايات المتحدة .

ثم إن اليابان تعتبر من وجهة نظر سكان استراليا : الشمال الأقصى . . واستراليا من وجهة نظر الرجل الصينى تعتبر الجنوب الأقصى .

ولا أعرف من الذى قال إن الانسان يستطيع أن يؤلف عن آسيا كتابا فى ثلاثة أيام أو فى ثلاثة أعوام — وهو على حق . فمن السهل أن تقول كل شئ — وبسرعة . ومن الصعب أن تقول كل شئ وعلى مهل . فكل ما تستطيعه هو أن تنقل ما يفعله طفل تمدد على شاطئ البحر : أن يرمى البحر بالطوب وأن يرى صورته وأن يرفع رجليه . . وأن يتلفت حوله يمينا وشمالا وينفرد بنفسه فى كوخ ويقول شيئا على ورق أثناء انتظاره لاحدى عابرات المحيط .

ويحاول الكاتب المجرى جورج مكش أن يفسر لنا من أين جاءت روح السخرية هذه . يقول إنه ولد فى ظروف جعلته يتشكك فى كثير مما يسمع من الناس . مثلا : فى الحرب العالمية الأولى انضمت القرية التى ولد فيها إلى يوغوسلافيا وبعد ذلك أعيدت إلى المجر . فى المرة الأولى كان يكره المجر التى فرطت فى شعبها . وفى المرة الثانية كان يحب يوغوسلافيا التى لم تشأ أن تغتصب أرضا لاتستحقها وبعد ذلك سمع وهو طفل أن الشاب اليوغسلافى الذى أطلق الرصاص على الأمير النمساوى فأدى ذلك إلى اشتعال الحرب الأولى ، كان مجرما لأنه أدى إلى خراب العالم . وفى المرة الثانية اعتبره بطلا لأنه أدى إلى تساقط حكومات فاسدة وعروش ظالمة . وكان عليه منذ البداية أن يختار لنفسه موقفا خاصا . وجاء اختياره : أن يسخر من الجميع . فلا شئ بين الناس أو عندهم ألا يبعث على الضحك ولكن الناس لايدركون ذلك .

فعندما ذهب إلى اليابان لأول مرة لقيه شاب فى المطار . فى يده ورقة

وقلم وسأله عن انطباعه عن هذه البلاد وقال : رائعة . وكتب الشاب ذلك . ولكن مكش سأل أحد أصدقائه : كيف يمكن أن يسألنى انسان عن بلاده بهذه السرعة مع أنني لم أر إلا المطار . وقال صاحبه : ولايهمك . . إنه لم يفهم كلمة واحدة مما قلت .

وكان رد مكشن : ولكنه سألنى بالإنجليزية . . ؟

وقال صاحبه : الأسئلة بالإنجليزية فقط هى التى يعرفها . .

وكانت هذه أول نكتة صادفت مكش فى اليابان . فالشاب يعرف الأسئلة ولا يفهم الأجوبة . . ولكنه سوف ينشر على لسان مكش : أن اليابان قد أعجبته وأن شعبها عظيم . وأنه صانع المعجزات . وأن اليابان أكبر دولة صناعية فى آسيا . وأكبر منافسة لأمريكا وألمانيا وأنها قادرة على التفوق على الجميع . وأنها لم تهزم فى أية حرب دخلتها إلا سنة ١٩٤٥ فقط . عندما ضربها الأمريكان بالقنابل الذرية . وعندما أقام مكش فى اليابان بعض الوقت جاءه شاب يابانى يسأله عن رأيه فى اليابان . كان رده : الشعب عظيم والبلاد جميلة . ولكن ينقصهم شئ من المرح . .

وأخرج الشاب ورقة من جيبه وكتب عليها : إذن لابد من زيادة الاهتمام بالمرح . .

وبعد ذلك يمكن أن يقال عن اليابان إنهم شعب قادر على التقليد . وليس التقليد سهلا . فالمهم أن يختار الانسان ما الذى يجب أن يقلده وكيف يضيف إليه ، وكثيراً ماجاء التقليد أروع من الأصل — هذه القاعدة تنطبق على ما يفعله اليابانيون فى كل شئ . .

ولكى يصبح الرجل اليابانى قادراً على الإبداع يجب أن يكون قادراً على التركيز . أن الواحد منهم يستمع إلى محاضرة أربع ساعات دون أن يتحرك له جفن لكى يخرج منها بشئ ما . وقد يكون هذا الشئ تافها جداً . ولكن اليابانى هو الوحيد على هذه الأرض القادر على أن يجعل التافه جوهريا وبتركيز وطول نفس .

وليس الانسان محتاجا إلى قوة ملاحظة ليدرك أن الرجل اليابانى مهذب جداً . لاشك فى هذا . فأنت دائما — أو مطالب أيضا — أمام إنحناءات على اليمين وعلى الشمال . . ولا تعرف ماهو السبب الحقيقى فالماشى ينحنى وراكب العربة ينحنى . والانحناءات درجات . من السجود إلى الانحناء . وهم قادرون على توزيع هذه الدرجات على مدى الاحترام والامتنان بين الناس .. وإذا أخطأت فى مراعاة النسب فأنت مادة للضحك . .

وفى اليابان لايفهمون كثيراً مما تقوله بالإنجليزية أو بأية لغة أخرى . ولكنك أمام أناس على استعداد لأن يخدموك فأنت تطلب اللحم المشوى فيجيء السمك . وترفض السمك فينحنى الجرسون ويأتى لك بالشاى . وترفض الشاى فيأتى لك بقائمة الطعام . وإذا ذهبت بك العصبية إلى أقصى درجة وألقيت بها من النافذة فإنه يهبط إلى الشارع ويأتى بها مرة أخرى ومعها صاحب المحل والحساب وانحناءة عميقة !

فما الذى تستطيع أن تفعله فى اليابان ؟

لاتفعل أى شيء : تفرج وابسط نفسك وليس المهم أن يفهمك الناس . وإنما حاول أنت أن تفهمهم . مع ملاحظة أن الناس مهذبون جداً . وأن بلادهم غنية ونشيطة ويمكنها أن تعيش من غيرك . ولكن لو عرف وزير السياحة اليابانى شخصيا أنك غير راض عن بلاده لجاء لوداعك فى المطار واعتذر لك هو وجميع أفراد أسرته . . ولدعاك إلى فنجان شاى فى أقرب مطعم على حسابك .

وإذا أنت حاولت أن تسمع نكتة من أحد اليابانيين فيجب أن تتحمل أنت النتائج وحدك . . هذه النكتة مثلا : يقول أحد اليابانيين أنه كان يقيم فى بيت وشبت النار فى البيت . أكلت كل شيء وأحرقت والده وانتقل إلى بيت آخر واحترق البيت كله وأكلت النار والدته . وانتهت النكتة !

والذى لايمكن وصفه عادة هو أن الذى يروى النكتة يضحك طول

الوقت على الصدفة العجيبة كيف أن النار تختار أباه فى المرة الأولى وتختار أمه فى المرة الثانية . . ومن الواجب أن تجامله وتضحك على خيبته . .

نصيحة : إذا أردت أن تكون يابانيا فكن رجلا . ولا تكن امرأة . إن اليابان هو مجتمع الرجال . والمرأة هى المسئولة عن ذلك . فالمرأة اليابانية مخلصة جداً لزوجها وهى تعلم أنه يلعب مع فتيات الجيشا .. وهى نظرية قديمة . فقد كان ذلك فيما مضى أيام لم تكن عند المرأة فرصة لكى تلعب . ولكن بتكافؤ فرص العمل واللعب ، أصبحت المرأة اليابانية أوربية كالرجل تماما . وأصبح اللعب من نصيب الجميع . .

ونسبة الانتحار فى اليابان عالية جداً . وعندما قال جورج مكش لأحد اليابانيين أن نسبة الانتحار فى السويد أعلى ؛ حزن اليابانى على ذلك . فقد كان يفضل أن تكون اليابان أعلى فى كل شئ .

وعندما سافر جورج مكش إلى الملايو لم يعجبه من هذه البلاد التى أحبها الأديب الإنجليزى سومرست موم .. لا كيف يعيش الناس ولكن كيف يموتون . ففيها بيوت اسمها بيوت الانتظار . تجد فيها الناس العواجيز وقد انعزلوا عن الحياة ينتظرون السنوات القليلة الباقية حتى إذا جاءهم الموت كان هينا . إنهم ينتظرونه على المقاعد وفى الحدائق الصغيرة . . والناس فى هذه البلاد يرون أن الموت — ولعلهم متأثرون بالفلسفة الصينية — فرصة للمرح ، وليس مناسبة للهم والغم . فهم يرتدون الملابس البيضاء ويعزفون الموسيقى . وحكمتهم أن السماء قد ضحكت عليهم بالحياة وبالموت . فلماذا لا يشاركون فى هذه النكتة !

وإذا أردت أن تعرف كيف يمكن أن يكون الانسان بعيد النظر وفى نفس الوقت منبوذا فى عصره فإليك هذه القصة :

فى سنة ١٨٨٨ اقترح مدير حدائق جزيرة سنغافورة أن ينقل أشجار

المطاط من أمريكا الجنوبية ويزرعها فى الملايو . وبذلك يمكن الاستغناء عن أمريكا الجنوبية . وضحك الناس . ولكن فى سنة ١٩١٩ عندما مات هذا الرجل كانت أشجار المطاط هى مصدر الثروة الحقيقية لهذه البلاد . . إن هذا الرجل قد غير وجه التاريخ .

ومن المناسب هنا أن نذكر عبارة للفيلسوف برتراند رسل . . يقول الفيلسوف : إن جزيرة كورسيكا التى ولد فيها نابليون إذا لم تكن قد ضمت إلى فرنسا وإذا لم يكن نابليون فرنسى الجنسية لتغير وجه التاريخ كله . .

أما مدينة بانكوك عاصمة سيام أو تايلاند كما تسمى الآن . فهى غريبة عجيبة مسحورة . لاتعرف بالضبط إذا كانت متحضرة أو متخلفة . ولكن فيها جميع عناصر الحضارة والتخلف معا . والناس هنا يضحكون على الفاضى وعلى المليان . وهى الدولة الوحيدة فى كل آسيا التى لم يستعمرها الرجل الأبيض . ولقد حاول اليابانيون عندما احتلوها أن يضيفوا إليها الشىء الكثير من الأرض المجاورة ولكن بقى أهل هذه البلاد يضحكون . وحكمتهم أن المنتصر لن يأخذ من المهزوم شيئا إنه يريق دمه . ويبقى الناس كما هم — نموذجا للاستخفاف أو البلادة . ولكن الناس يضحكون على كل حال . . وفى هذه البلاد يناديك كل إنسان باسمك الصغير . لدرجة أن أكثر الأصدقاء لايعرفون بقية اسمك . . ومن النادر أن يقبل إنسان ذلك . أو حتى يجد مبررا لهذا السلوك الغريب .

والبلاد غنية والشعب فقير . ولكنهم يؤكدون لك : أن الأرز فى الحقول والسمك فى البحر . ولا شىء من ذلك فى البيت — وهى حقيقة . ولكنهم يضحكون لذلك . .

ومن الممكن أن يكون للرجل زوجة واحدة وعدد من العشيقات ومن الممكن أن توجد النساء جميعا فى بيت واحد . إلى أن يتمكن الزوج من البحث عن شقة مناسبة . وقد يكذب الزوج على زوجته فيقول لها : إنه

كان عند عشيقته فى الليلة الماضية مع أنه فى الحقيقة لم يكن عندها . وإنما كان يلعب القمار – وهذه كبرى الخطايا عندهم !

* * *

وأهم ما فى رحلات جورج مكش أنه ينتهز هذه الفرصة ليدور حول نفسه يقف أمام المرآة ويصف لك بطل هذه الرحلات : رجل . أكيد رجل . زوج وعنده أولاد . لاشك فى ذلك . ووسائل التأكيد من ذلك سهلة ومعروفة ورأسه مستدير كان المفروض أن يكون كرة تتدحرج على الأرض لولا أن الله شاء أن يجعلها تخص شخصا واحدا وأن تستقر على كتفيه بدلا من أن تدوخ بين أقدام الآخرين . عيناه ضيقتان . ولو خلق الله عينيه أوسع من ذلك قليلا لكان من الضرورى – إنها مسألة فنية – أن يكون رأسه أكبر إذن فليس فى الإمكان أبدع مما كان . فيما عدا شفتيه فهما نحيفتان ، متآكلتان وليس السبب فى ذلك أية صفة وراثية ، وإنما هو كثيراً ما جلس يأكل فى نفسه. وأقرب ما يأكله هو شفتاه . إذن فشفتاه قد أكلهما على مراحل ولابد أن الشفتين قد استقرتا على مكان من المصران الأعور .. وهذا اللمعان فى العينين معروف . تجده كثيراً عند سماسرة البورصة . . إنه ذكاء انتهازى ولكنه لم يعط الفرصة المناسبة لكى يظهر . ولذلك فهو الذى يتيح لنفسه هذه الفرصة كلما سافر إلى بلد . إنه يساوم على سمعة هذا البلد : هل تريد بلدا حسن السمعة أو سيء السمعة . ثم لايجد أحدا يساومه . . وتكون النتيجة أنه هو وحده الذى يختار أن يجعله سيء السمعة !

أما إن رأسه أصلع فقد اختلفت الآراء فى ذلك . إناس يقولون : رجولة مفرطة . . ونظريات تقول : إنها وراثة . . وكل هذه النظريات صحيحة ولكنها جميعا لاتنطبق عليه . لأنه أصيب بمرض جلدى وهو صغير . . وظل يهرش رأسه حتى سقط شعره . . وليست كتابته إلا نوعا من هرش جلد أناس وشعوب لعل شعورها ومشاعرها أن تتساقط عليه . . أو ضده .

إنها فى جميع الحالات ضده .. فهم يستمعون به ويحبونه ، ولكن الاحترام مسألة أخرى .

بقى سؤال واحد لماذا يشترى الناس كل كتبه ، ملايين المرات ؟

والجواب — وهذا رأيه أيضا — أن الناس يحبون الذى يهرشهم ويضحكهم مهما كانت الآلة الحادة التى يستخدمها !

وفي الليل ...
هرب آدم من حواء
إلى الجنة !

الرياح تعصف بكل شيء خارج البيت الصغير . . وأصوات النوافذ والأبواب تتضارب . . والصفافير تنفذ من فتحات فى الجدران وبين أوراق الأشجار ونباح الكلاب وعواء القطط . . وأصوات أخرى لعلها أفكار الناس أو همومهم . . أو لعلها أصداء مثل هذا الحوار الغريب بين رجل وزوجته . . الزوجة قد ارتدت قميص النوم . . ووضعت فوقه روبا ولا تستطيع أن تفتح عينها . . والرجل قد ارتدى ملابسه كاملة ، وفى يده زجاجة خمر لم يبق فيها شيء . . وفى استطاعته — وكثيراً مافعل — أن يجعلها سلاحا قاتلا لهذه الزوجة إذا عارضته . . أو اعترضته . .

قالت له : إلى أين . .

هو : إلى الشارع . .

— وفى هذه الساعة . .

— إن الشارع مفتوح ليلا ونهاراً .

— وبعد الشارع ؟

— إلى شارع آخر . .

— وفى النهاية . .

— إلى أى بيت لا أجدك فيه . .

— فى استطاعتك ألا تجدنى فى هذا البيت . . ابق أنت . وأنا سوف أخرج . .

ــ ليس هذا . .

ــ إذن ماذا . .

ــ أريد أن أهرب من الأسئلة الباردة . . أريد أن أهرب من الأسئلة الباردة . . وأرحم نفسى من الإجابات التى تحرق أحشائى . . هل فهمت الآن . .

ــ إلى أين . .

ــ قلت لك . .

ــ ليس عندك ما تقوله أكثر من ذلك .

ــ عندى . .

ــ ماذا . . ؟

ــ أريد أن أقبل الأطفال . .

ودخل . . وكشف الغطاء عن أطفاله الثلاثة . . وقبلهم واحدا واحدا . . ثم عند الباب تردد وقبل زوجته . .

وقالت الزوجة : إلى اللقاء . .

وقال الزوج : وداعا إلى غير لقاء . .

ثم عاد الزوج ليقول لها : هذا قرارى الأخير . . لا أصلح لأى عمل آخر . . هذه هى حياتى . . وقد دفنتها بيدى هنا . . لكى أعثر عليها هناك . .

وقالت الزوجة : أين . .

قال : هناك . . فى أى مكان آخر . . كلمة هناك معناها . . أى مكان ليس هنا !

وانطلق إلى الشارع يغنى لحنا نشازا ضمن موسيقى الشتاء فى شوارع باريس

لكنه لايدرى ما الذى صنعه ، ولا ما الذى فعلتـه زوجته أو أولاده . . كل ما يعرفه أنه قرر أن يترك فرنسا . . أن يترّك العمل فى أحد البنوك ، لأنه لا يصلح لعمليات الضرب والطرح . .إنه يصلح لشىء واحد هو أن : يرسم فقط !

هذا هو الفنان الفرنسى بول جوجان . . أبوه صحفى وأمه من بيرو بأمريكا الجنوبية . . بدأ حياته بحارا وبعد ذلك اشتغل فى البورصة . . ثم عمل فى إحدى البنوك . . وفى منتصف إحدى الليالى قفز من السرير لأن صوتا فى السقف يناديه : اهرب وتعال هناك . . ارسم . . فأنت عبقرى ولكنك لا تعرف !

ولم يكن بول جوجان هذا كاتبا . ولا صناعته الكتابة ، ولكن كتابه الذى أصدره ابنه اميل فى سنة ١٩٢٣ أى بعد وفاته بعشرين عاما يؤكد لنا أن الأب كاتب وناقد موهوب أيضا ، والكتاب اسمه « مذكراتى الشخصية » وقد انتهى بول جوجان من كتابتها فى السنة التى مات فيها . .

يقول جوجان : ولدت هاربا . . لاأعتقد أننى من أصل إنسانى . . لابد أن بين أجدادى عددا كبيراً من الطيور المهاجرة . . فأنا لا أقوى على البقاء كثيراً فى مكان واحد . . لا أعرف ماذا يحدث . . إن المكان نفسه يرفضنى . . ينكرنى . . يستنكرنى !

هرب بول جوجان إلى جزيرة نائية فى المحيط الهـادى . . جزر تاهيتى . . ثم جزر المركيز . . عاش فيها . . وهرب منها . . ثم عاد إليها ومات فيها — أى أحبها حتى الموت !

يقول فى بداية كتابه هذا : لا أعرف الكتابة ، ولكن أحب أن أكتب كما أرسم ، فأنا أرسم صورة القمر . . وبعد ذلك أبحث لهـا عن اسم . .

ويقول أيضا : أحسن شىء فى هذه الدنيا إن كان فيها أى شىء حسن

أن يمسك الإنسان لسانه ، وهذا شيء صعب ، فأحيانا نجد اللسان مثل سمكة القرش قاتلا ساما ، وأحيانا نجده كالسراب . وهناك أناس كثيرون إذا أمسكت لسانهم اختنقوا إنهم يتنفسون أثناء الكلام . . وأنا واحد من هؤلاء . . لولا أن الله قد خلق لساني في أصابعي . . فأنا من ذوي الألسنة العشرة . .

إنه يعرف كيف يكتب ، وكيف يقول . .

وكأنه يريد أن يؤكد لنا أنه قادر على الكتابة يقول : في يوم من الأيام كانت الحيوانات قادرة على الصراخ بصوت هائل . . أما اليوم فلم تعد قادرة على ذلك ، وكم تمنيت أن أكون حيوانا قوياً طبيعيا . . أما اليوم فلم أعد أتمنى ذلك . . إن الحيوانات أصبحت تعرف القراءة والكتابة — كما ترى !

ويقول أيضا : كم أنا مدين للمجتمع . . مدين بالكثير . . وكم يدين لي هذا المجتمع . . يدين بالكثير جداً ، فمتى يدفع ؟ إنه لن يفعل !

ومثل هذه اللقاءات واللمحات كثيرة جداً في كتابه هذا وفي روايته الوحيدة التي اسمها « نوا . . نوا » . . وهو في الحقيقة يكتب كما يرسم . . بقعة من هنا . . وبقعة من هناك . . موضوع من هنا . . ومسرحية من هناك . . قصة من جزر تاهيتي . . وفضيحة من الدانمرك التي لا يحبها . . وهو لا يعتذر عن الفوضى في كتابه . . هذه هي طبيعة الأشياء . . وهذا هو الفرق بين الحديقة والغابة . . إنه يفضل أن يكون كتابه غابة من الأشجار والحيوانات والصيحات والعطور . . فهو إنسان بدائي أو يريد أن يكون كذلك ، وكان كذلك وهرب من أجل ذلك . . وعاش ومات على النحو الذي أراد . . بل إنه عندما مات اختار لنفسه المكان الذي يموت فيه . . . اختار البحيرة الحمراء والأغصان الزرقاء . . وعظام الذئاب . . وريش النعام . . ثم جعل دخوله إلى القبر مع ضوء القمر . . إنه هو الذي رسم هذه اللوحة . . . ووقع عليها بجسمه كله . .

كانت رحلته عادية إلى هذه الجزر النائية فى المحيط الهادى . . فقد عرف البحر قبل ذلك كثيراً وهو طفل ، وهو يقدس الأمواج والعواصف ، وكثيراً ما فكر فى أن يرمى بنفسه فى أحضان الموج .. أو الموت .. مبهورا بالألوان الزرقاء السوداء الخضراء الهوجاء ولكن زملاءه كانوا يربطونه بالحبال .. وفى إحدى الليالى تعالت أصوات البحارة : إن واحدا من الفرنسيين قد سقط فى المحيط .. وفوجئ الجميع بأن شابا فى لون الليل قد ألقى بنفسه فى المحيط وراءه.. ثم سحبه وأنقذه .. هذا الشاب زنجى .. هذا الشاب لم يفكر فى حياته .. وإنما فكر فى انقاذ حياة إنسان . . وتصادف أنه إنسان أبيض ، هنا اهتزت مبادئ جوجان . . وأحس أن هناك قيما أخلاقية يعرفها السود ولا يعرفها البيض ، مهما كثرت كتبهم ورواياتهم عن الفضيلة وملكوت السماء .

وعندما رست السفينة فى جزيرة تاهيتى ، أحس جوجان بخيبة أمل . . إن الجزيرة هادئة غنية بالألوان . . كل شىء فيها كما خلقه الله . . أى كما هو منذ خلقه الله . . ولكن لا يعيب هـذه الجزر إلا الفرنسيون الذين استعمروها وإلا ثلاثة من الفرنسيين : الحاكم والقسيس والرجل الذى يبيع الدخان وطوابع البريد ، ولما قرر جوجان أن يشترى قطعة أرض قالوا له :

– تريد أن تشترى أرضا ؟ . .

قال : نعم . .

قالوا : إذن يجب أن تذهب إلى القسيس . .

قال : وأين هو ؟

قالوا : يجب أن تنتظره حتى يعود . .

– من أين . .

– من فرنسا . .

– ومتى يعود . .

– فى العام القادم . .

لا أرض يشتريها أحد أو يبيعها إلا إذا وافق القسيس على ذلك ، والقسيس لايوافق إلا إذا تأكد من رؤية راغبى الشراء عشرات المرات فى الكنيسة . . وجوجان لا يذهب إلى الكنيسة ، فلن يشترى أرضا ،ولن يجد من يبيعها له . .

وقرر أن يبنى لنفسه كوخا . .

واختار جبلا صغيراً مشرفا على إحدى الغابات ، وأقام لنفسه كوخا وجعل باب الكوخ مفتوحا ، فليس هناك ما يخاف عليه . . ولا أحد يعرف السرقة بعد .. وعرف بعد ذلك أن أشياء كثيرة تدخل من الباب المفتوح : العطور والطيور وبنات تاهيتى . .

ولم يسأل فتاة واحدة عن سبب مجيئها .. ولا هى قالت .. وهو يقارن دائماً بين ما تفعله فتاة تاهيتى وفتاة باريس . . فالمرأة فى تاهيتى تقول : لا أعرف إن كنت أحب هذا الرجل فأنا لم أعانقه بعد . .

ولكن الفتاة الفرنسية تقول : لقد اعتدت أن أحبه ، ولكن بعد أن عانقته كثيراً لم أعد أحبه . .

إن المرأة فى تاهيتى نموذج نادر بين النساء . .

كل شئ فيها وحولها ومعها جميل . . الله خلقها كذلك . . أى أنها ما تزال كما خلقها الله . .

وأمام المرأة فى تاهيتى يقول ذلك الرجل الهارب من زوجته :

أن يعرف الانسان كيف يعطى ، هذا رائع . . أن يعرف الانسان كيف يأخذ هذا أروع . . ويقول : إذا كان أبى حمارا ، فلا ذنب لى ، أن أمى هى التى اختارت لنا ذلك . .

وفى إحدى الليالى طلب إلى إحدى فتيات تاهيتى أن تقف بينه وبين

الشمس عند الغروب . . ولما صرخ من نشوة الألوان لم تخف الفتاة . . وإنما راحت تضحك .. فإن صوت إنسان لا يخيف فتاة اعتادت على صوت الوحوش . .

وانحنى جوجان عند قدميها القذرتين وساقيها اللامعتين وراح يصرخ ويقول : مولاى . . آلهتى . . فقد تعلمت أن هناك ثلاثة أنواع من الحب : الحب المعنوى . . والحب الجسدى . . والحب اليدوى . . الأول هو : الأخلاق . . والثانى هو : السفالة . . والثالث هو : البخل . . وأنت صورة من كرم الله !

وجعل الكوخ بغير باب .. فالباب الذى يجئ منه الريح من يقفله ، لا يستريح . ودخلت مع الريح فتاة جميلة . . أنقل لك صورتها : ذهبية البشرة . . صفراء ذهبية . شعرها أسود . . عيناها سوداوان .. الأسنان بيضاء . . الكتفان ناعمتان مستديرتان . . والعنق مصبوب من رخام . . ونهداها مستديران . . وهذه النظرة فى عينيها لاتدعو إلى شئ . . إنها مائدة ممدودة . . إنها دعوات بلا بطاقات . . أما ساقاها فأجمل ما خلق الله فى هذه المنطقة من العالم . . ويقارن جوجان بين ساقى الأوربيات وساقى فتيات جزر تاهيتى والمركيز . وكل شئ يحذفه من حساب بنات أوروبا يضيفه إلى حساب بنات هذه الجزر مع الفوائد الضرورية إنه لم ينس وظيفته الأصلية فى أحد بنوك باريس . .

أما رائحة الفتاة فصارخة بكل عطور الغابة . . وفى شعرها تعلقت الورود. وفى أظافرها وبين أصابعها . . وفى نهديها . . وفى جسمها العارى وضعت عطورا وألصقت أوراق الشجر . وخلع جوجان ملابسه . . وفى الليل طلب إليها أن تسحبه . . قرر أن يمشى مغمض العينين . . ففى أنفه وفى أذنيه وفى جسمه كله ألوف العيون وألوف الصور . . وسحبته الفتاة . . عاريا . . أعمى . . ونزلت الجبل . . وتسللت بين الأشجار . . وهو يتخيل نفسه

هوميروس الشاعر الأعمى العظيم . . وكل المعانى تنصب فى أذنيه . . وبعد ساعة من السير فى الغابات توقفت الفتاة فجأة ، وسألها . . وقالت شيئا لم يفهمه ، وفتح عينيه ليجد نفسه أمام بيت القسيس الذى عاد فجأة من باريس ونظر إليه القسيس . . وبسرعة خلع ردائه وغطاه وطلب إليه أن يحتشم وأن يفعل ما يليق بشرف فرنسا . . وقرر القسيس أن يهديه قطعة أرض بشرط أن يجعل لها سورا عاليا حتى لايراه أحد إذا قرر أن يمشى عاريا . .

وتزوج جوجان هذه الفتاة . . وأنجب منها أطفالا . . أما اللغة التى بينهم فإشارات . . فإن الفتاة إذا أرادت أن تتكلم فصوتها خليط من نقيق الضفادع وموج المحيط . . أما هذا الذى يقوله الله فى جسمها فكل الألوان والموازين والمقاييس.. هو البلاغة نفسها . يقول جوجان: إذا أردت أن تبحث عن دليل على عظمة الله وعلى أنه هو الجمال فتعال هنا . . ألف دليل . . فى ألف جسم . . فى كل لحظة آمنت بالله مليون مرة كل يوم . .

ولكن فى هذه الجزيرة النائية يعود جوجان بخياله إلى ليالى باريس . . وإلى أصدقائه من الفنانين العظام مثل فان جوخ ثم يتذكر الأوبرا والمسرح .. يتذكر مسرحية « عدو الشعب » للكاتب النرويجى ابسن . . يقول أن بطلة المسرحية تحولت فى لحظة واحدة إلى كتلة من النار يذوب لها الجليد وبعد ذلك قررت أن تعيش فى وادى الذئاب . .

ويقول جوجان : إننى أعرف عدوا آخر للشعب .. هذا العدو لم تمش وراءه زوجته . . ولكنها استطاعت أن تربى أولاده على أن ينكروه . . . علمت أولادها كيف يقولون يا ماما . . بعشرين طريقة . . ولم تعلمهم أن يقولوا يابابا ولو مرة واحدة .. جعلت حرف « الميم » واحدة من أسنانهم .. أما حرف « الباء » فقد جعلته شيئاً يسقط من بين أسنانهم . . جعلت زوجها عدوا لشعبه . . عدوا لأبنائه أو جعلت أبناءه أعداءه . . آه . . آه . . ليس أسهل من اسقاط امرأة ، ولكن . . آه .. ما أصعب أن يرفعها إنسان !

وعلى الرغم من أنه حاول أن يكون بدائيا . . يعيش مثلهم ويرسمهم كما هم ، مخالفا بذلك كل المدارس الفنية المعاصرة ، فإنه كان يحن إلى الحياة فى أوروبا . . وعلى الرغم من هذه الحياة الهادئة ، فإنه كان يحن إلى الفزع . . إلى الرعب . . كان يصطنعه . . يفتعله . . كان يخيف الناس . . وكان يستدرج الناس إلى أن يخيفوه أيضا . . وكان يقول : أن الخوف يبعث على الخوف . .

ويتذكر كيف أنه هو وزوجته فى إحدى الليالى.. كان كل منهما يقرأ قصة للكاتب الأمريكى ادجارالن بو . . القصة على مايذكر ، كان اسمها « القطة السوداء » . . وكان ذلك فى الشتاء . . واحتاجا إلى مزيد من الفحم يضعانه فى المدفأة ، ونزلت الزوجة تبحث عن الفحم عندما اصطدمت بقطة سوداء فصرخ الاثنان فى وقت واحد . . وعندما مدت الجاروف لتملأه بالفحم تدحرجت جمجمة إنسان . . فصرخت الزوجة . . وعندما نزل هو لينقذها ويترك قصته « الهيكل العظمى » التى كان يقلب فيها . . وأمسك الجاروف من يدها . . وسحب الفحم . . تدحرج هيكل عظمى كامل . . لقد كانا يسكنان فى بيت صديق فنان كان يرسم الجماجم البشرية !

ويقول جوجان فى « مذكراته الشخصية » آه . . آه ياسيدى . . أريد أن أحب ولا أستطيع . . أريد ألا أحب ولا أستطيع . . إننى أحمل فى داخلى هذا العذاب المستمر . .

ويقول أيضا : أن تعرف كيف تعطى ليس معناه أن تعرف كيف تأخذ لأن الذى يعرف كيف يعطى هو الذى يعرف كيف يأخذ . . وهنا كل شىء حولك يعطيك ولكن هذه الطبيعة لم تتعلم بعد كيف تعطيك بحساب . . . إنها تفيض عليك . . إنها تغرقك . . إنها تخدرك . . إنها تفقدك وعيك . . عقلك . . ولذلك فأنا على يقين من أننى لن أخرج منها عاقلا . . لن أخرج منها . . إنها أروع وأعظم وأخلد مؤامرة على عقلى التافه . .

يقول أيضا : إذا قال لى إنسان يجب أن تفعل كذا وكذا ، فإننى أرفض. وإذا قالت لى طبيعتى يجب أن تفعل كذا وكذا ، فإننى أستسلم .

ورسم جوجان لوحات كثيرة . . وبعث بها إلى باريس . . واشترك بها فى المعارض الدولية . . ولم يكسب إلا القليل . . وأروع لوحاته هى التى ألقى بها من النافذة . . وكذلك فعل صديقه الفنان المجنون فان جوخ . . .

وهرب من جزر تاهيتى إلى باريس . . ثم عاد إلى هذه الجزر . . وهرب منها إلى جزر المركيز . . ثم هرب منها . . واختفى شهوراً فى إحدى الغابات . . حبس نفسه فى أحد الكهوف . . ثم غطى جسمه بالوشم . . وراح يرسم . . راح يغمس فرشاته فى عين الشمس . . فى قلب الجحيم ويرسم وهجا من الألوان وسعيراً من العطور . لقد كانت لوحاته صرخات مكتومة دامية من أقصى الشرق إلى الغرب تنبه إلى أن الحياة ماتزال بخيرها هنا . . فى هذه الأماكن النائية من العالم . . البعيدة عن أكاذيب الحضارة الغربية . . لم يعبأ كثيراً بما يقوله الناس إنه يرسم .

يقول : الفن للفن . . ولم لا ؟
الفن للحياة ؟ . . ولم لا ؟
الفن للذة ؟ . . ولم لا ؟
لا يهم أبداً مادام هناك فن . .

وكان جوجان يعلم مقدما ما سوف يقوله عنه المؤرخون والكتاب ورجال الأخلاق والسياسة والدبلوماسية : إن الفنان يجد كثيراً من يقوله له : هذا هو الجنون . . ثم بعد ذلك يمزقونه — أقصد يمزقون الفنان ويحطمونه — ولهذا فإننى أوفر عليهم هذا العناء لقد مزقت نفسى وحطمتها . .

ويقول جوجان وكأنه يريد أن يفسر لنا سر هذه الرحلة الغريبة : ما الذى أحتاج إليه . . أو يحتاج إليه أى إنسان . . أن يعرف نفسه . . كثيرون يرون وجوههم فى الماء . . كثيرون يرونها فى بحيرات من الدم . . وأنا أردت

أن أتمسح بوجدانى على كل ورقة . . وأن أخوض فى كل عطر . . وأن أرمى نفسى عند كل غريزة . . لقد كنت فريسة للطبيعة . . وفى نفس الوقت افترستها . . عرفت نفسى . . والذى عرفته دوخنى . . فهذه هى الطريقة : لكى تعترف بوعي يجب أن تفقد الوعي .

وفى نهاية مذكراته يقول : كثيرون يعرفون كيف يكتبون ، وقليلون يعرفون فن الكتابة ، ولكن من حق أى إنسان أن يحاول ، ولا أجد أى حياء أو خجل فى أن أكتب وأن أرسم ، هذا حقى وليس من حق أى ناقد أن يمنعنى مهما كانت عباراتى عارية . .

وقال جوجان ما أراد ورسم ما شاء . . ولكن كان على أولاده من بعده أن يتستروا على هذه الفضيحة العائلية كيف أن والدهم هجر أمهم فى الليل وهرب منها إلى آخر الدنيا . .

الابن دافع عن أمه . . وقال إن والده عندما تزوج فى سنة ١٨٧٣ كان قد رسم لها لوحة تؤكد هيامه بها . .

أما الأديب الكبير سومرست موم فقد أعجبته الفضيحة فصورها فى روايته المشهورة « القمر وست بنسات » . .

وعاد أولاده يدافعون عن أمهم . . ويتبرأون من جنون الأب . .

وكذلك فعل ابن اوسكار وايلد وأخت الفيلسوف الألمانى نيتشه وزوجة الأديب الانجليزى د . ه . لورانس . وزوجة تولستوى . .

حاول أولاده وأحفاده أيضا أن يدافعوا عن سمعة رجل كان موظفا عاديا منسيا ، ثم أصبح فنانا يعرفه كل الناس . .

أو لعله أول آدم يهرب من حواء إلى الجنة ، لا من الجنة . . . وحده وليس معها ، وإنما مصحوبا بجنونه وعبقريته ! . .

تحت القنابل

في الوحل ..

على شواطئ جهنم

اعتادت أن تكون طعاما لعيون كثيرة .. وهدفا لأضواء باهرة من عدسات التصوير .. وأن يراها الناس ولا ترى أحدا .. وأن تمشي فى رشاقة على جسر خشبي تتثنى يمينا وشمالا . . ثم تدور .. وينظر الناس إلى ساقيها وصدرها .. وكل خيط فى فستانها .. إنها عارضة أزياء .

وقبل يوم العرض تمشى على هذا الطريق الخشبي وحدها مرة بعد مرة .. وتتعالى الصرخات تؤكد أنها لم تحسن عرض الفستان أو المايوه .. وأن ذراعيها لم تكونا فى حركة موسيقية مع ساقيها .. وأنه يحسن بها أن تنقص ولو نصف كيلو .. ومعنى ذلك أنها لن تظهر فى العرض القادم لفساتين شانيل إحدى ملكات الأزياء فى فرنسا .. ومن السهل على أى إنسان أن ينقص وزنه نصف كيلو فى أى يوم .. ولكن عندما يكون الإنسان فى وزن هذه الفتاة وطولها .. لم يبق إلا أن يقطعوا لسانها ونهديها وشفتيها .. فليس فى جسمها إلا جلد وعظم !

وفى إحدى المرات — وكانت هذه نقطة التحول — كانت تعرض أحدث فساتين الشتاء .. وكان الفستان لعروس . ولسبب لا نعرفه الآن تعثرت ووقعت وهناك قاعدة عند ملكات الأناقة إذا تعثرت واحدة ، فإنها تتشاءم . ولذلك يجب أن تعتزل عارضة الأزياء هذا العمل فوراً وإلا كانت نحسا على الجميع !

وبعد عرض الفستان اعتزلت عارضة الأزياء « ميشيل رى » العمل فى مؤسسة شانيل ..

وقررت أن تمشى على جسر خشبي آخر .. وعلى جانبيه أنوار باهرة

وعيون إنسانية وعيون إلكترونية .. وكل شئ يبهر ويقتل .. وإذا سقطت فإن ألوف الأيدى سوف تمتد إليها .. ووجودها بين هؤلاء جميعا لن يكون مصدرا للتعاسة ، وإنما سوف تسعد الجميع ..

قررت أن تذهب إلى فيتنام مراسلة لمجلة « لونوفيل أوبسير فاتور » ثم وكالة الأنباء الفرنسية ، وكان ذلك فى سنة ١٩٦٤ ، وميشيل فتاة مغامرة فقد اشتركت فى سباق السيارات قبل ذلك وكادت أن تموت ، ولكنها فى آخر لحظة أنقذتها إحدى الأشجار . وأيقنت منذ تلك اللحظة أن هذه الشجرة ليست إلا إصبعا من أصابع العناية الإلهية .. إذن فالسماء قد ادخرتها لمهمة أخرى ، فلا خوف عليها من شئ .. وعاشت فى فيتنام ستة شهور .. وسافرت بعد ذلك إلى كوبا وقابلت كاسترو .. وقبل ذلك سافرت إلى بوليفيا وقابلت جيفارا قبل مصرعه .

وأهم من ذلك أنها وقعت أسيرة لقوات فيتنام الشمالية . أما مغامراتها الممتعة المثيرة فقد روتها فى كتاب لها بعنوان « على شاطئ الجحيم » ..

والرحلة بدأت طبعا بأن ذهبت إلى سايجون عاصمة فيتنام الجنوبية .. القوات الأمريكية فى كل مكان .. والبضائع الأمريكية على الأرصفة ، هذا واضح..وسايجون هى قلب العالم الذى ينزف بالأخبار وكل العيون تتجه إلى هنا ، وكل العيون قد أوجعها النظر إلى هنا أيضا ..

الجندى الأمريكى يقول : بعد ستة أشهر سوف ينتهى كل شئ ..

التاجر الأمريكى : يجب ألا ينتهى أى شئ ..

أهل فيتنام يقولون : نحن تعساء على كل حال ..

هنا فى مطار سايجون ضوضاء لا نظير لها فى الدنيا .. طائرات تعلو وتهبط ، ودخان ، ذئير ، صفير ، صراخ ، ضباب ، سحاب ، رطوبة ، نار ، عرق ، وأرق ..

النعومة تجدها فقط فى وجوه وحركات المضيفات الأرضيات ، قد ارتدين الأزرق التركوازى والبنطلونات البيضاء ، حركاتهن رقيقة . . ابتساماتهن ناعمة ، أما الأمريكان فهم فى كل مكان قد وضعوا أيديهم على مسدساتهم يمضغون اللبان الأبدى الذى لا ينتهى . والذى كأن الأفواه تفرزه!.وعيونهم المتشككة على كل الهابطين من الطائرات .. وهذه النظرات التى لم يختف أثرها حتى بعد أن هبطت ميشيل رى فى الشارع ..

أول ما فعلته طبعا هو أن تبحث عن غرفة . وجدوا لها غرفة بخمسة أسرة،ولا تعرف إذا كانت ستشغلها وحدها أو ستفاجأ بضيوف آخرين . على كل حال أمضت الليلة بصعوبة ، فلا هدوء .. الطائرات تهز كل شئ وطلقات المدافع أو القنابل هى الطعام اليومى لكل الناس هنا ..

والأمريكان يعقدون مؤتمرا صحفيا فى الساعة الخامسة مساء . الصحفيون يسمونه جنون الساعة الخامسة . يتلقون المعلومات والإجابات عن كل سؤال وأمامهم جميعا يجدون خريطة عليها علامات زرقاء للأهداف التى أصابتها البحرية ، وعلامات سوداء لأهداف القوات الجوية .. ورجال البحرية والطيران لا يعرفون من هذه البلاد التى يضربونها بالقنابل سوى هذه العلامات ، يضغطون على الزراير ويمضغون اللبان ويضحكون ويصيبون الأهداف ويعودون .

الشئ الذى يلفت العين فى سايجون من أول لحظة هو وجود عدد كبير جداً من الأطفال .. أين أمهاتهم . لماذا تركنهم ؟ لا إجابة عن هذا السؤال فهى حالة حرب ، وقد يكون الأب قد مات ، والأم أيضا ، وقد يكون الإبن لقيطا ، هذه الأسئلة لا قيمة لها ، ومن الأفضل أن يبتلعها الإنسان ، وقد ابتلعت ميشيل مع هذه الأسئلة الكثير من المشاهد المؤلمة .

ولم تضحك لمن قال لها : تصورى أيام الاستعمار الفرنسى لهذه البلاد

كانت النساء أصح ، وأجمل ، كانت لهن نهود وأرداف . أما الآن فإن النهود الصناعية والأرداف الصناعية معروضة فى الأسواق . لعل الفتاة الفيتنامية تعجب الجندى الأمريكى .. .

أما الفتيات فجميلات ، فى غاية الرشاقة ، وهن غاليات الثمن ، إن جلوس فتاة جميلة مع جندى أمريكى لشرب الشاى يكلفه الكثير ، لايهم الشاى ، إنه مثل الشمبانيا ، فالثمن واحد .

وفى الشارع تجد من يقول لك : عندى أختى درجة أولى ..

أو من يقول : أختى فى العشرين من عمرها ممتازة فى كل شئ !

الكباريهات فى كل مكان ، وفتيات فيتنام من كل مقاس ولون وسعر . والبارات لا تغلق أبوابها ليلا أو نهارا والأضواء الحمراء تدعو كل أمريكى لكى يجرب حظه .. سيجد الفتاة التى تعجبه ..

والناس فى فيتنام يلعبون القمار ، حتى آخر قرش — والعملة هناك بالقرش أيضا ، حتى رئيس الدولة يقضى ساعات من نهاره فى مشاهدة مصارعة الديوك .. وهو يحتفظ لنفسه بحظيرة للدواجن ويتولى بنفسه أيضا صنفرة أصابع الديوك وجعلها حادة .. وكذلك مناقيرها حتى إذا اشتبكت مع ديوك أخرى قتلتها فى الجولة الأولى ..

اللغة السائدة هى الإنجليزية طبعا ولكن الوزراء لأن ثقافتهم فرنسية يكتبون خطبهم وأحاديثهم بالفرنسية ، ثم تترجم لهم بعد ذلك .

وصدرت لها التعليمات بأن تستعد للذهاب إلى الجبهة ، قالوا لها : لا تنسى أنك الفتاة الوحيدة بين عشرات الألوف لم يروا امرأة من ستة شهور .. ولا داعى لأن تستخدمى أدوات الزينة . فالأعصاب لا تتحمل ذلك .. وعليها أن ترتدى ملابس عسكرية خشنة وأن تضع ما هو ضرورى فقط .. فرشاة

أسنان .. مرآة والكاميرا وبعض الأوراق .. ثم ترتدى حذاء عسكريا .. أما الخوذة فيمكن استخدامها لشرب المـاء وأحيانا للاستحمام أيضا ..

وعليها ألا تفقد صبرها مهما طال انتظارها ، فليست هى الكائن الوحيد الذى يستحق العناية من الدرجة الأولى ، وأكدوا لهـا أن الاهتمام بها سوف يكون من الدرجة الثالثة .. إنها حالة حرب ..

ورأت أحد الجنود وقبل أن تفتح فمها قال لهـا : أريد أن أموت .. لأن الموت انتقال من الجحيم إلى الجنة ..

وضحكت هى ، ولم يضحك ..

وفى الليل تحدد موعد الخروج ، لا سيارات ، وإنما يجب أن تمشى على قدميها ، فى حقول الأرز ، صحراء خضراء ، أو محيط من الوحل ، لاشئ إلا صوت المـاء والضفادع والصراصير .. ورصاص يجئ من بعيد .. ومن قريب ، وإلى جوارها سقط أحد الجنود .. وعندما حاولت أن تقترب منه فقد يكون قد اصطدم بشئ فتعثر ، سحبها الجاويش قائلا : لا شئ .. أنه قد مات .

لا شئ إنه قد مات ؟ .. إنها نسيت أن الذى تخوض فيه هو ميدان قتال ..

وفى ليلة أخرى طلبوا إليها أن تذهب إلى أحد الموانىء فسوف ترى شيئا جميلا ، وفى الساعة الواحدة اصطف الجنود ، وتقدمت فتيات يحملن باقات الورد ،وامتد شريط أبيض ، وجاء صف من الضباط واقتربت الفتيات ولففن الورود حول أعناق الشبان .. لقد عادوا منتصرين من غاراتهم على العدو .. أما عادة الورود هذه فقد نقلها الأمريكان من جزر هاواى إلى هذه البلاد .. أما هؤلاء الشبان المنتصرون فهم لا يعرفون بالضبط ما الذى

فعلوه ، أن أمامهم خريطة ، وتحت أصابعهم زراير .. وفى لحظات ينتهى كل شئ ويعودون للورود .. عشرات المرات من كل يوم ! ..

ولكن واحداً منهم لا يدرى ما الذى فعلته القنابل ، ولا أن إنسانا مثله مات .. وقبل أن يموت شعر بشئ من الفزع .. ولعله سأل : ولماذا الموت ؟ ولكن الذى قتلوه لا يتساءلون : و لماذا القتل ؟

ودعيت إلى السفر فى إحدى حاملات الطائرات « كورال سى » إنها مطار متحرك .. ملئ بالوحوش الحديدية الصارخة المخيفة .. وزنها ٦٣ ألف طن وطولها ٩٧٣ قدما .. أى ثلاثة ملاعب كرة قدم .. بها ألفان من الموتورات الكهربائية وبها ٢٥٠٠ غرفة .. وتستطيع أن تبخر من ماء البحر مليون لتر فى اليوم .. وأن تقدم ١٤ ألف فنجان قهوة فى وقت واحد ، وعشرة آلاف وجبة .. وقوة محركاتها تعادل قوة ١٤٠ قاطرة كهربائية .. وتحت سقفها زواحف من الحديد النفاث السام .. عددها ٧٥ طائرة : قاذفات قنابل ومقاتلات واستطلاع . وكل عشرين دقيقة ينطلق عدد من الطائرات .. وبعد ربع ساعة تعود الطائرات ويتجه طياروها إلى غرفة العمليات مباشرة لرؤية مسار الطائرة فى صعودها وهبوطها وإصابتها للأهداف على شاشة التليفزيون .. وبعد ذلك شهيق وزفير وصفير .. وزقزقة .. وجلجلة .. وسحب ورعد .. وبرق .. والناس يمضغون اللبان كأن شيئا لم يحدث لا هنا ولا هناك .

وبعد ذلك كان لابد أن تتجه ميشيل رى إلى الهدف الذى جاءت من أجله ، لقد عرفت الأمريكان وانبهرت بعددهم ونظامهم . وكيف غيروا معالم فيتنام ، وروعتها آلات الدمار الضخمة الفخمة ، إنها تريد أن تذهب إلى الجبهة على مسئوليتها هى وعلى حسابها ، وذهبت تبحث عن سيارة تستأجرها ، رفضت كل محلات السيارات ، لأن شركات التأمين ترفض التأمين على أية سيارة تدمرها الحرب : القنابل أو الألغام ، وأخيراً عثرت

على سيارة صغيرة ، وجعلت لهذه السيارة صفائح من الصلب لا ينفذ منها الرصاص وجعلت ذلك تحت مقعدها ، أما فى مقدمة السيارة فقد وضعت خمسة جوالات من الرمل ، وهى لا تخاف لأنها فرنسية ، وليست أمريكية ، وفيتنام الشمالية ترى أن فرنسا دولة صديقة ويكفى أن تقول لأى جندى من فيتنام الشمالية : إنها صحفية فرنسية ، وجواز سفرها يؤكد ذلك بوضوح تام . وحاول زملاؤها الصحفيون أن يقولوا لها : كان غيرك أشطر .. أقعدى .. أقعدى ..

ولكنها أصرت ، وأمامها طريق طوله ١٨٠ كيلو متراً ، وبعده تجد نفسها وجها لوجه أمام قوات فيتنام الشمالية ، وعليها بعد ذلك أن تحترس من الألغام فهناك نوعان من الألغام : ألغام تنفجر باللمس المباشر ، كأن تدوسها السيارة أو تصطدم بها .. وهناك ألغام تنفجر لاسلكيا ، وهذه الألغام لا تنطلق عادة إلا على الأهداف العسكرية وليس المعقول أن يطلقوها على سيارة صغيرة بها سيدة ترتدى ملابس عسكرية بسيطة .. ثم إنها صحفية .

لقد اعتادت على القنابل ، ولكن الشئ الذى لا تستطيع أن تعتاد عليه ليلا أو نهاراً هو : هؤلاء الأطفال .. صغار .. إن أمهاتهم قد تركتهم ، فلا وقت للرضاعة أو الحضانة ، إن الأمهات يحملن السلاح ويتركن الأطفال .. وكلما تقدمت نحو خط ١٧ –أى الخط الفاصل بين فيتنام الشمالية والجنوبية– زاد عدد الأطفال ..

وأصبح عدد القوات الأمريكية قليلا ..

إن الأمريكان يظهرون نهاراً ويختفون ليلا .. وعند إحدى نقط الحدود قال لها الأمريكان : الآن .. أنت فرنسية .. وعليك حماية نفسك ..

ومضت فى الطريق ، وقابلت أحد الأمريكان ، واستوقفها . وعرف منها أنها متجهة إلى الجانب الآخر .. وأشار الأمريكى إلى براميل مصنوعة

من الخيزران وعرفت منه أن هذه البراميل قد أعدت للأسرى الأمريكان ، إذا وقع الواحد أسيراً نقلوه فى هذه البراميل من قرية إلى قرية ، وفى كل قرية يحاكمونه ويدينونه ويحكمون عليه بالإعدام ثم يعفون عنه .. وينقلونه إلى قرية أخرى يعترف فيها بأنه مجرم وأنه سفاح وأنه مصاص دماء البشر ، وإنه عدو للحياة ويحكمون عليه بالإعدام ، ويصدر العفو عنه ، ويدحرجونه هو والبرميل إلى قرية أخرى .. وهكذا .

وهزت كتفيها قائلة : هذا يخص الجنود الأمريكان..أما أنا فامرأة فرنسية صحفية .

وقابلت فتيات فى الطريق ، كثيرات يعرفن الفرنسية ، جلست إليهن ، قالت واحدة : أتمنى أن أكون مضيفة .

وهنا قالت لها ميشيل رى : ولكن فى العاصمة فتيات يعملن مضيفات إنهن فتيات الليل ويكسبن أكثر !

وردت عليها إحدى الفتيات : بدلا من أن تستنكرى هؤلاء الفتيات يجب أن تفهمى لماذا حدث ما حدث .. إن لى أختا من فتيات الليل وأنا فخورة بها .. إنها تنفق على أسرة من تسعة من الأطفال .. وأبى مات .. وأمى أيضا .. فهل عندك حل آخر لإطعام الجميع ؟

وسمعت من فتاة أخرى أنه فى المناطق الجبلية لابد أن تكون الفتاة عذراء عند الزواج وإذا اكتشف العريس غير ذلك ، فعلى الأسرة أن تدفع له تعويضا من الجواميس ..

ونزلت فى بيت ، أحد البيوت على الطريق ، وآداب الضيافة تقتضى منها أن تترك باب غرفتها مفتوحا وإلا كان معنى ذلك أنها لا تأتمن أهل البيت على نفسها أو متاعها ، ولم تنم طبعا ..

وما يزال الأطفال يملأون الطرقات ويطاردون السيارة الصغيرة ..

وانفجرت إحدى عجلات السيارة وتطوع اثنان من الطلبة لمساعدتها .. وهما يعرفان القليل من الفرنسية ، وأول شئ قالته لهما : باو .. شي .. فاب – أى صحفية فرنسية – وابتهج الشابان ، وهز كل منهما رأسه ودار بينهم حديث طويل ، وأكد لهـا أنه لا خوف بعد ذلك ما دامت صحفية فرنسية ..

وركب الإثنان إلى جوارها ..

وبعد لحظات قفز من حقول الأرز جندى من قوات فيتنام الشمالية وصرخ : بسرعة .. انزلوا .. بسرعة ..

وحاول الشابان فتح الباب فلم يفلحا ، فساعدتهما ، وأخرجت جواز السفر الفرنسى ، وقدمها أحد الشابين إلى الجندى وهو يرتجف .

ولكن الجندى مد سلاحه حتى التصق السونكى بملابسها ولحمها – أقصد عظمها – ونزلوا جميعا ، وأخرج الجندى حبلا من جيبه ولف ذراعيها وراءها ، أما الجندى فشكله رهيب يرتدى بيجاما سوداء وبنطلونا ملفوفا حول ساقيه ، وعلى وسطه حزام ملئ بالقنابل اليدوية ، ولابد أن هذين الشابين قد أصيبا برعب لأنهما يركبان السيارة مع إنسان أوروبى . وهذا واضح من الخوف الشديد على ملامحهما ..

وتكاثر الجنود .. من هنا وهناك ودار الكلام بينهم ، ولابد أنهم حائرون ما الذى يصنعونه بفتاة فرنسية إنها مشكلة ، لو كانت أمريكية لهـان أمرها ، ولكنها فرنسية وصحفية ، وأخيرا فكوا الحبل ، وربطوا ذراعها اليمنى بذراع واحد من الشبان وطلبوا إليها أن تقود سيارتها على مهل .. وساروا وراءها .. ولم تستطع أن ترى عينى أى جندى ، ولا واحد من الجنود حاول أن ينظر إلى عينيها أو إلى ابتسامتها وقد حاولت بصورة عصبية أن تؤكد لهم أنها هادئة وأنها لم تخف ، ولا تتوقع منهم أى أذى ، ولكن أحدا لم يلتفت إليها ..

ولكن أحد الطالبين تشجع وقال لها : اهدئى .. اهدئى .. اصبرى !

وأشاروا إليها أن تتجه إلى طريق جانبى ضيق .. فتركت الطريق الواسع المرصوف ، وبدأت سيارتها تخوض فى حقول الأرز ، وفى الحقول قنوات صغيرة ، عليها ألواح خشبية ، إنها الآن لا شك أسيرة ، ومنذ هذه اللحظة لا تعرف لها مستقبلا ، كل شئ راح فجأة، إنها الآن فى الجانب الآخر : فى المعسكر الآخر ..

ومن السيارة رأت فتاة صغيرة تمص عودا من القصب ، فمدت يدها إليها تداعبها وظنت الفتاة أنها تريد عقلة من عود القصب فأعطتها واحدة .. وضحك الجنود .. أخيرا شعرت هى بشئ من الأمان وضحكت . لقد انفرجت الأزمة الحادة بين الجميع ..

وأشاروا إليها أن تنزل فالدنيا ليل،ووقفت السيارة أمام أحد الأكواخ .. الكوخ به سريران وكلاهما مصنوع من الخشب ، والمخدات خشب أيضا ، وطلبوا إليها أن تنقل أمتعتها إلى أحد السريرين وجلست على السرير ، والعيون كلها تتجه إلى حذائها العسكرى المتين .. وعلى السرير الآخر نامت ثلاث سيدات .. وبين السريرين عدد كبير من الأطفال ، والحركة لا تتوقف ..

سألها أحد الجنود : كوكا .. بيرة ..

ونظرت بما يدل على إن كان هذا صحيحا ، فأكدوا لها أن الذى استولوا عليه من الأطعمة الأمريكية كثير جدا .

وطبعا فتشوا حقائبها كثيرا ، ولكنها تخاف من الأوراق الأخرى التى تدل على أنها مراسلة أمريكية ، وابتلعت هذه الورقة ، وأوراقا أخرى ، ولو ضبطوها لتغيرت المعاملة فورا ، وكان مصيرها أقسى وأسوأ ..

ثم جاء الطالبان وتمنيا لها حظا سعيدا وودعاها قائلين : هذه هى الحرب وهذا هو حال الدنيا .. وكان عليها أن تواصل السير .. إلى أين ؟ إنها لا تعرف

وأخيرا ظهر «مدرس الشيوعية» وكان يتكلم الفرنسية، وكان يرتدى الملابس السوداء، ويضع على كتفه جوالا صغيرا وصافحها بشدة وحرارة، وقال لها: أنا فى حاجة إلى أن أتناقش معك فى مكان آخر..

ثم جاءت سيدة وجلست إلى جوارها واقتربت منها أكثر، وهزتها بقوة، وشدت على يديها وبحرارة هنأتها أو هكذا يبدو أنها تفعل ذلك، وتأثرت ميشيل رى من هذه الحفاوة وهذه الرقة..

ورأت شابا فى غاية الرشاقة والقوة والجمال، إنه جندى، لم تستطع أن ترفع عينيها عنه، وراح يداعب الأطفال، إنهم بشر حقيقيون يضحكون ويلعبون وقبل أن يذهبوا إلى القتال.. أو وهم فى ميدان القتال.

أما طعام الإفطار فمثل الغذاء والعشاء: سمك وأرز، وليس أمامهما أن تختار.

وطلب إليها أستاذ الشيوعية أن تنزل إلى أحد المخابىء قبل أن تقع أية غارة جوية، والمخبأ عبارة عن فتحة فى الأرض، لها سلم، والإنسان ينزل واقفا رافعا ذراعيه إلى أعلى.. وبعد ذلك يمشى حانى الظهر، ثم يجلس.. أما تهوية هذا المخبأ فعن طريق عصى من الخيزران مفتوحة يدخل منها الهواء..

وبعد لحظات اقتربت الطائرات واندفعت الصواريخ والقنابل. نار.. جهنم لا يمكن أن توصف.. وبسرعة تسلل الناس جميعا إلى مخابىء تحت الأرض. ساعة.. ساعتين.. خمس ساعات.. عشر ساعات..

وكان مدرس الشيوعية يلمسها برفق وهى تكاد تختنق.. وبعد ذلك خرجت من المخبأ واقفة.. إلى الهواء الطلق.. ولاحظت أن ملابسه قد اختفت. إنه الآن يرتدى الملابس البيضاء.. الآن فقط عرفت لماذا كان يتنفس بصوت مسموع.. إنه كان يغير ملابسه العسكرية ويرتدى ملابس الفلاحين، حتى لا يقع فى الأسر.

وعندما خرجت من المخبأ وجدت النساء والأطفال على سطح الأرض . كأن شيئا لم يقع .. لا موتى ولا جرحى .. وإنما تحولت حقول الأرز إلى مغارات بسبب الصواريخ والقنابل .. وقدموا لها طعاما آخر من الأرز والسمك .

وجاء شاب وراح يروى لمدرس الشيوعية كيف أنه نجا من ٢٠٠ غارة قبل ذلك . فقالت ميشيل رى لمدرس الشيوعية : كيف تصدق مثل هذا الفشر ؟ فكان رده : يجب أن تكون عند الناس أحلام .. لعله نجا من عشرين غارة من خمسين غارة . لماذا لا يكون عنده أمل فى أن ينجو من مائة أو من مائتين ؟

ثم طلب منها مدرس الشيوعية أن تغنى .. وراحت تغنى بأعلى صوتها على الأقل إنها على سطح الأرض . لم تمت . وتشم هواء صحيا ..

وقال لها مدرس الشيوعية سوف تصعدين إلى الجبل هذه الليلة . الجبل أكثر أمانا . ويجب أن يتأكدوا من شخصيتك ، وإذا ذهبت إلى العاصمة فسوف تجدين أختى هناك أنها مدرسة للغة الروسية . ولما سألته ولماذا تذهب إلى العاصمة ..

فأجاب : إن الناس جميعا يعلمون أنك قررت السفر إلى العاصمة مشيا على الأقدام .

أى ١٨٠ كيلو مترا مشيا على الأقدام ولذلك كان الجميع يهنئونها على شجاعتها . الرجال والنساء . مع أنها لم تقرر شيئا من ذلك . ولكن لا بد أن الشابين قد ترجما عباراتها خطأ !

وقرر أحد الضباط أن تغير ملابسها وأن ترتدى ملابس نساء فيتنام . وجاء الترزى وفصل لها الملابس . وتغيرت ملامحها . ووضعت القبعة

الفيتنامية التى تشبه القمع . ولكنها احتفظت بالحذاء الأمريكى .. وحاولت أن تدفع ثمن هذه الملابس ولكنهم قالوا : إنها هدية لك !

وكان عليها أن تصعد الجبل . الجميع يفعلون ذلك . وقبل أن يتركها مدرس الشيوعية أعطاها بعض الفيتامينات : ب ١٢ واتروبين للعينين ومورفين للتخدير وكانت تحتفظ فى جيبها بأربع حبوب ضد الملاريا .. واحدة كل أسبوع ..

سألت : متى يطلقون سراحى

قيل لها : لا أعرف

سألت : أنا لا أفهم لماذا أنا أسيرة ؟

قيل لها : يا سيدتى سوف نسأل بعض الراهبات الفرنسيات عنك . وسوف نقول لهن إنك فى الحفظ والصون .. لا تنظرى إلى ملابسنا وحالنا يا سيدتى .. نحن فقراء ولكن عندنا كبرياء ..

ومدت يدها إلى جيبها وأخرجت رواية أسمها « الجزيرة » من تأليف روبير ميرل . تقول الرواية فى إحدى صفحاتها : لا تفكر فى غدك . ارض بيومك . تخلص من مخاوفك . فالخوف هو هذا المرض الذى أصيب به الرجل الأبيض . وهذ الخوف هو ذلك الذى جعل الرجل الأبيض يصاب بمرض أكثر خطورة اسمه : المستقبل .. نحن أحياء .. وهذا يكفى وحده !

وقبلت الصفحة .. وضمت الكتاب إلى صدرها وهى تقول لا داعى للتفكير فى الغد .. فاليوم كالغد . فأنا أعيش فى حاضر بلا مستقبل ! وليكن ما يكون !

مضت أيام .. عشرون يوما .. تمشى فى حقول الأرز وتختفى من الغارات

الأمريكية وتتنفس من خيزرانة مثقوبة وتخرج من الطين لتجد الوجوه المشرقة للجميع : انهم انتصروا على الأمريكان لم يمت أحد .

وأخيرا جاءها أحد الضباط وقال لها : عندى لك خبر هام . سوف نطلق سراحك !

لم تعرف هل تبكى . هل تشكره ؟ تشكره على ماذا ؟ على الأسر ؟ على الخوف ؟ على الطين ؟ على المخابئ .. إنها الحرب . وطلب إليها أن تكتب وثيقة تقول فيها : إن الأمريكان يقتلون النساء والأطفال .

ورفضت . ولكنهم لم يعارضوا .

ثم أعدوا لها طعاما من الأرز والدجاج والموز . وأما محتويات حقائبها جميعا فقد أعيدت لها . وتأكدوا من أن شيئا لم يضع . واعترفت بذلك .. وبكت .

واعتذروا أنهم لم يستطيعوا أن يبعثوا بها إلى إحدى المدن فى طائرة .. ولذلك ليس أمامهم إلا أن يضعوها على إحدى العربات .. وهى منذ هذه اللحظة لا خوف عليها ..

وعند إحدى النقط تركوها .. وكان عليها أن تمشى على قدميها . وفجأة اعترضها أحد الأمريكان .. وبكت .. وعرفت أنها انتقلت إلى الضفة الأخرى من الجحيم ..

وفى إحدى المعسكرات التف حولها جنود المخابرات الأمريكان يسألونها عن كل شئ . والذى أدهشهم أن جنود فيتنام الشمالية لم يسألوها عن أى شئ ولا طلبوا إليها أن تذكر اسم ضابط واحد أو موقع واحد .. أو عدد الطائرات لا شئ .. ولم يصدق ضابط المخابرات الأمريكان ما قالت ميشيل رى .

وبعد أن عرضوا عليها عددا من الخرائط وأسماء المدن والقرى والمواقع

والخنادق والمخابئ . أكدت لهم أنها فى طين دائم وتحت الأرض بسبب الغارات الأمريكية ..

وتقدم منها أحد كبار الضباط ليسألها :

– آخر سؤال يا آنسة ..

– تفضل .

– هل اعتدى عليك واحد من هؤلاء الوحوش ؟..

– وضحكت وهى تقول : كانوا فى غاية الرقة .. ولم أر أحدا فى حياتى فى مثل وحشيتك هذه !

ثم خلعت قبعتها وقميصها وحذاءها وراحت تتثنى بين ضباط المخابرات لقد تذكرت أنها عارضة أزياء !

الذين ينطحون السحاب
وحيوانات أخرى... !

مهما عرفت عن أمريكا فمعلوماتك قليلة عنها . لأن هناك أكثر من أمريكا .. أمريكا التى يعرفها الأمريكان . وأمريكا التى يعرفها العالم عن أمريكا .. وأمريكا البيض . وأمريكا السود .. والولايات المتحدة ضد بعضها البعض .. ثم إنك فى أمريكا لا تجد إنسانا « أمريكيا » كل واحد من أصل إنجليزى أو ألمانى أو إيطالى أو سويدى أو إيرلندى .. والزنوج من أصل أفريقى . والهنود الحمر من أصل هندى أو مغولى . . لا أحد فى الولايات المتحدة الأمريكية يجرؤ على القول بأنه أمريكى – فيما عدا الذين حصلوا على الجنسية الأمريكية أخيرا جدا منذ أيام مثلا .

وملاحظات كثيرة مثل هذه جعلت أحد الناشرين الأمريكيين يطلب إلى الكاتب الظريف جورج مكش– أنطقها جورج بكش بناء على رغبته وللدلالة على طبيعته أن يكتب هذه الملاحظات ووعده . ولكن الناشر الأمريكى أصر على أن يستعير المؤلف بعض أساليب الأمريكان الغريبة فى كل شئ . فطلب إليه أن يدخل الغرفة المكيفة الهواء المجاورة ويمسك القلم ولا يدق الجرس إلا بعد أن يكون قد فرغ من الكتابة فى جلسة واحدة أو يوم واحد ، أما الفلوس فقبل ذلك بساعات ، وسأله إن كان يريد شيئا قبل أن يكتب وكان رد الكاتب الإنجليزى جورج مكش . المجرى الأصل : أن أموت بين أهلى وأسرتى ، وأن يعلقوا على قبرى هذه العبارة ، لا أحب أن أعيش على الطريقة الأمريكية وأفضل أن أموت على الطريقة اليابانية فأضع القلم فى قلبى وأصرخ مرة واحدة وينتهى كل شئ ..

وجلس جورج مكش رغم ذلك يؤلف كتابه الساخر بعنوان « كيف تنطح السحاب — الولايات المتحدة بعد ارتيادها وإعادة اكتشافها وتفسيرها » وهى محاولة لنطح الذين ينطحون السحاب ، والكواكب الأخرى ..

أما من هو الأمريكى أو « الجدع » الأمريكى فهو أى إنسان يرتدى بدلة مكوية تماما ، فالبنطلون له حد مثل حد الموسى وكذلك الجاكتة ، وله كرافته وقميص نظيف وسيجار ضخم يتناسب تناسبا طرديا مع المكانة الاجتماعية لك ولابد من وجود قبعة ، بشرط ألا يخلعها الإنسان عندما يدخل أى مكان عام — فقط فى الأسانسيرات ، وكذلك التدخين ممنوع فى المصاعد الكهربية ، وكن فى استطاعتك أن تخرق عين أى إنسان آخر دون أن تعتذر ، وإذا اعتذرت اعتبروك من الأمريكان الجدد ..

وإذا ارتديت ملابسك ، فعليك أن تكملها فى الطريق ، عليك أن تجرى إلى سيارتك ، وبسيارتك تزاحم الناس . . وانفعل جـدا عند إشارات المرور ، ويجب أن يكون دخان السيجار دليلا على حالتك العصبية ، ولا تسأل نفسك إلى أين أنت ذاهب ، فكل الذين حولك يندفعون دون أن يكون هناك سبب واضح ، اندفع ، انطلق دون سبب واضح ، فكل شئ هنا يتم بسرعة ، الغذاء يقدمونه لك فى دقيقة والعشاء فى نصف دقيقة .. ولابد أن إنتاج الأطفال فى أقل من ذلك — أقرأ فى المجلات النسائية باب شكوى اللاتى تزوجن حديثا !

وبعد أيام فى أمريكا يعتاد الإنسان على أشياء كثيرة غريبة فكل الشوارع واسعة ومستقيمة على عكس انجلترا : كل الشوارع منحنية مكسورة وقصيرة .. وهناك عمارات أكثر من مائة دور ، وكل ما يقدم لك من طعام ضخم فالدجاجة يقدمونها لك ولا تصدق أنها دجاجة ، لابد أنها أوزة أو قفص دجاج ..

وفى استطاعتك أن تندهش ، ولكن من الأفضل أن تضحك فكل الناس

يضحكون بسبب ومن غير سبب . ان التعليمات الصحيحة تقول: أن الضحك صحة ، ولذلك فهم حريصون على أن يكونوا فى صحة جيدة ، وإلا كان ذلك إهانة لأمريكا ، كيف يكون الإنسان أمريكيا ومريضا ، ان المرض من أهم صفات الشعوب الأخرى .

ذهب فنان أوروبى إلى أحد رؤساء مجالس الشركات ورسم له لوحة ، وسأله رئيس مجلس الإدارة : كم تريد فيها ؟ فقال الفنان بكل حسن نية وتواضع : ٢٠٠ دولار .

وهز رئيس مجلس الإدارة رأسه : ولكن إذا أردت منها ٥٠٠ نسخة فكم تأخذ ؟

ولم يفهم الفنان معنى هذا الطلب .. لأنه لا يستطيع أن يرسم ٥٠٠ مرة .. ولكن رئيس مجلس الإدارة قال له : أريد أن أعلق لوحة فى كل فروع الشركة لن أعطيك أكثر من ٢٠٠ دولار على كل نسخة !

ولابد أن الفنان الأوروبى قد ذهل من هذا الرقم الذى لا يحلم به .. ولما رأى الرجل الأمريكى دهشته قال له : إذا كنت فنانا فابدأ فورا فى عمل ٥٠٠ صورة أخرى !

وكل شئ فى أمريكا تقوم به الآلات الحديثة .. أو هم يحاولون ذلك .. فأنت تضغط على زرار وتجد نفسك فى حالة حب ، وزرار آخر تجد نفسك قد تزوجت ، وثالث وتكون قد أعطيت حريتك من الزواج ، وتضغط زرار وتجد نفسك قد أخذت دشا أما الكتب القديمة كلها فيمكن استحضارها بزرار .. وهكذا ..

وأتعس الناس فى أمريكا هو سائق الأتوبيس لأنه يقوم بعدة أعمال : يقطع التذاكر ويعطيك الباقى ، ويقفل ويفتح الأبواب ويراعى عدد الركاب وفى نفس الوقت ساعات عمله ثم أنه هو الذى يسوق الأتوبيس ، ولابد أن

أمريكا فى حاجة إلى من يدلها على اختراع قديم اهتدى إليه العالم كله ، ولا عيب عليها إذا اقتبسته وهو أن يكون هناك شخص آخر إلى جانب .. السائق .. شخص أسمه الكمسارى ..

وفى أمريكا يرفعون الكلفة بينك وبينهم بسرعة ، ولا يهم من أنت ، فإذا كنت مثل البرت إينشتين العالم الألمانى صاحب نظرية النسبية فإن المذيع سوف يقدمك للجمهور هذا : معنا الليلة الجدع الشهير جدا البرت إينشتين : هالو البرت .. انها فرصة سعيدة جدا أن نراك .. أريد أن أوجه لك بعض الأسئلة .. أولا قل لى يا ألبى ما هذه النسبية ؟ لا تنزعج يا برتى .. لا تخجل ..

ولا أحد يندهش لما يقوله المذيع فإنهم يفعلون ذلك مع أى إنسان آخر أصغر أو أكبر من هذا العالم الكبير .. وإذا علم أحد سكان العمارة أن زوجتك مريضة ، ورأى من واجبه أن يسألك عنها ، وقابلك فى أى مكان ، فإنه يقول لك : هالو .. مستر .. كيف حال السيدة ؟ ..

فإذا ظهر عليك الحرج بسبب هذه الجريمة الغريبة — الوقاحة أيضا خصوصا أن علاقتك به لا تعطيه هذا الحق — فإنه يظن أنك حزين جدا على ما أصاب زوجتك ولذلك يبادر بقوله : ولا يهمك .. كل شئ يمشى فى طريقه الطبيعى .. فى العام الماضى ما تت زوجتى .. وأنا الآن أعيش حياتى العادية .. كن طبيعيا ..

والأمريكان لا يحبون الهمس .. انهم يتكلمون بصوت مرتفع ، ولذلك إذا سألت إنسان عن شئ فإنه يقول لك : أضرب .. شوط .. كأنه يطلب أن تطلق عيارا ناريا .. أو تشوط كرة فى مرمى مفتوح .. ولا يحبون مثل هذه العبارة : أظن ذلك .. لعله ذلك .. ربما .. لا أدرى يمكن .. ان هذه العبارات تضايقهم ويفضلون عليها عبارات أخرى أكثر وضوحا وصراحة عبارات قاطعة مثل : زبالة .. قرف .. كلام فارغ .

والأمريكان لهم علاقة غريبة بالأشياء التي يستخدمونها ، أو بالعالم المادى فالرجل الإنجليزى يقول لك بمنتهى الفخر : سيارتى هذه عمرها عشر سنوات ، وقد قطعت مائة ألف كيلو متر ، ولكن الأمريكى يغير السيارة كل سنة ، وأحيانا مرتين فى السنة وينسى ماركة السيارة القديمة ، وإذا أمطرت السماء فإنه يدخل أى محل ويشترى لنفسه بالطو واقيا من المطر بدولار .. فإذا توقفت الأمطار ألقى بالبالطو فى أى صندوق زبالة وكذلك الشمسية إذا اشتراها ، وإذا باع بيته فإنه لا يفكر فى أن يأخذ معه بعض أثاث البيت ، انه يتركه كله ، وفى الصحف تجد إعلانات تقول : من أراد أن يحصل على بيانو ماركة كذا ، فليذهب إلى بيت رقم كذا شارع كذا .. انهم لايشغلون أنفسهم كثيرا بهذه الأشياء القديمة .. والذى يفعلونه فى أثاث البيوت ، يفعلونه أيضا فى المدن .. فهم يبنون مدينة بالقرب من أحد مناجم الذهب .. فإذا انتهى العمل من المنجم هجروا المدينة كلها .. فليست عندهم هذه التقاليد الأوروبية أو الآسيوية أو الأفريقية القديمة التى تربط الإنسان بالماضى أو بالحنين إليه فيقول : هذه الساعه تركها لنا جدى العظيم .. أو هذه الجزمة هى آخر مخلفات المرحوم والدى .. وهذه السكين هى التى اشترتها جدتى لأول مرة .. إلى آخر هذه السخافات التى لا يقرها الأمريكان فالتقاليد عندهم هو ترك القديم والبحث عن شئ جديد أو الهرب من أشباح الماضى أيا كان هذا الماضى .

وفى أمريكا كل إنسان يريد أن يضحك أو على الأصح أن يمرح ، وهم يجدون ذلك بسهولة ، فقد يقول الشاب مثلا : أمس جلست أنا وصديقتى نضحك معا ساعات .. دون أن يكون هناك أى سبب لذلك .. .

وإذا كان لدى السائح الأوروبى رغبة فى العذاب أو التسلية فعليه أن يركب القطارات تحت الأرض .. لا ينفع معها أى علم أو أية تجربة .. وإذا شئت أن تقضى حياتها كلها تبحث عن شارع أو محطة فإن هذا يمكن أن

يتحقق لك بسهولة فسوف تجد نفسك فى أى مكان إلا المكان الذى تريده . وقد تصل إلى بيتك عن طريق الخطأ ومن الغريب أنهم يعرفون التفرقة بين الأرقام والحروف التى لا نهاية لها فى كل محطات المترو .

والمجتمع الأمريكى خليط من كل الأجناس ، وهم يكنون لبعضهم البعض أنواعا من التعالى. فالمخلطون يتعالون على الزنوج ، والزنوج يتعالون على المخلطين السمر والذين من أصل سويدى يتعالون على الألمان، والألمان يتعالون على أبناء أوروبا الوسطى ، وأبناء أوروبا الوسطى يحتقرون الإيطاليين ، والإيطاليون يحتقرون الأسبان والأرمن والإيرانيين ، والأسبان والإيطاليون معا يحتقرون أبناء أوروبا الوسطى .. والجميع يحتقرون اليهود ، واليهود يتعالون على كل الناس ، والأمريكان يكرهون أهل نيويورك ، وأهل نيويورك يكرهون أهل الغرب ، وأهل الشمال يكرهون أهل الجنوب ، والمهاجرون يحتقرون اللاجئين إلى أمريكا من كل مكان فى العالم .. واللاجئون يحتقرون الذين وصلوا أخيرا .. والذى وطئت قدمه أمريكا يحتقر الذى يجئ بعده بدقيقة واحدة .. وهكذا تجد العلاقات التى تربط بين كل سكان أمريكا : انهم جميعا ينظرون إلى بعضهم البعض من فوق .. وإلى العالم كله كذلك ! .

وتحتار أنت أين هو الإنسان وأين هو الحيوان .. ثم من هو الأمريكى ؟!

أما المحلات التجارية فى أمريكا فهى من عجائب الدنيا ، فإنك تجد فى كل محل ما تريد ، ويجب ألا تندهش ، فإذا أردت سجائر فاذهب إلى البقال ، وإذا أردت أن تمسح حذاءك فاذهب إلى الحلاق ، وإذا أردت شراء راديو فاذهب إلى المكتبة وإذا أردت حقيبة فاشترها من الأجزاخانة ، وإذا أردت أن تبعث برقية لأحد فلا تذهب إلى مكتب البريد لأن مكاتب التلغراف قطاع خاص .

ومن الأشياء المضحكة حقا صفحة الوفيات فى الصحف الأمريكية .. إعلانات غريبة لشركات دفن الموتى ..

فهناك مثلا : جنازة تجعلك مسّريحا مدى الحياة .. جنازة لن تضيق بها جنازة مريحة .. جنازة تسعد أسرتك شهورا بعد ذلك .. جنازة لا تنسى لن تتكلف أكثر من ١٥٠ دولار .. قبر تحت أشجار جوز الهند .. تعال عندنا ونحن ندفنك أفضل !

ومن العجيب أن الأمريكان يذهبون إلى هذه الشركات ويختارون قطعة الأرض ونوع الأشجار ، ويجئ الحانوتى ويقيس أجسامهم ، ويعرض عليهم أنواع القماش ، وكذلك الأغانى والتراتيل التى تذاع أثناء الجنازة أو أثناء الدفن .. ويخرج الناس من شركات الدفن وهم سعداء منتظرون دلك اليوم العظيم ..

ولا شك أن الحانوتى هو الرجل الوحيد فى العالم الذى له مستقبل .. والذى ينظر إلى كل إنسان على أنه زبون حتما ، اليوم أو غدا .

ولابد أن الذى يزعج فى أمريكا هو محطات الإذاعة والتليفزيون ، فلا أحد يعرف ما هذا الذى يقال ، ولا كيف وإلى من يقال ، إن هذه المحطات كلها تحطم الأعصاب وتحول المستمع إلى قطع من العجينة تأخذ الأشكال التى تريدها الشركات التى تعلن عن السلع . الجبنة مثلا ، وعلى أساس هذه الإعلانات يمكن معرفة الثقافة الأمريكية كلها ، فالهدف الثقافى من وراء هذه الإعلانات هو أن يشترى المواطن مزيدا من الجبن أكثر مما يحتاج وحرية الكلام معناها حرية كل شركة فى أن تعلن عن السلعة التى تريد ، وأن تنزل بمستواها إلى مستوى الجماهير ، فهذا هو النزول إلى مستوى الجماهير ، أما الأخبار فمجانا ولكن الإعلانات مقدسة .. مكدسة .. ملايين مكدسة ..

وإذا سافرت بين الولايات المختلفة فى أمريكا فإنك ستجد خلافات صارخة فى تطبيق القوانين .. أو فى القوانين الولايات نفسها .

فى ولاية منسوتا ممنوع نشر الملابس الداخلية للرجال والنساء على حبل واحد .

وفى أنديانا ممنوع أن يهدد الحلاق الأطفال الصغار بقطع آذانهم .. وفى ميسورى ممنوع على رجال المطافئ أن يمشوا فى الشارع بملابسهم الداخلية . مهما كانت الأسباب . وممنوع أن يركب الإنسان الترام ورائحته ثوم .. وفى نفس الوقت من الممكن أن تجد الإعلانات تمتدح إحدى جزر المحيط الهادى لأنهم يأكلون الثوم .. ومن الغريب أنهم يأكلونه على شكل عصير .. وهذا ما تفعله إحدى الشركات الأمريكية . وهذا الثوم هو العامل الأول فى جمال البشرة وقوة الإنسان .. وفى النجاح فى العمل . لأن الإنسان إذا أكل الثوم فلن يقترب منه أحد . وهى فرصة عظيمة لكى يعمل أو يفكر أو ينتحر ..

أما حكام أمريكا فهم أعجب الكائنات على الأرض .. على الأرض الأمريكية أو غيرها ..

يقول جورج مكش فى مقال إذاعى :

حضرت أكثر من مؤتمر سياسى .. أو حزبى .. وظهر المرشح .. ولم يقل أى شئ .. ولكن قدموه على أنه أحسن لاعب تنس .. أو كاد يغرق مرتين فى اليابان .. وفى المرة الثالثة تعلق بلوح خشبى .. وكان اللوح مغطى بالزيت .. ولكنه كان حريصا على ألا تتسخ ملابسه .. كأنه كان يفكر فى زوجته المريضة وفى نفس الوقت فى خادمته الزنجية .. وكأنه كان يعلم بالضبط أن يوم الغرق قد صادف يوم أجازتها الأسبوعية .. انه إلى هذه الدرجة حاضر البديهة .. انه يفكر فى كل شئ .. فكيف لا يكون مرشحكم لرياسة الجمهورية ..

ومن مؤهلات المرشح لا شئ :

زوجته وأولاده وسيجاره وسيارته وكلابه وخيوله والكنيسة التى يتردد عليها .. وجيرانه أيضا إذا كان جيرانه سعداء ، فهو قادر على إسعاد الملايين غيرهم من جيرانه الذين يبعدون عنه ألوفا وعشرات الألوف من الأميال. إنها مقدرة غريبة عند المرشحين الأمريكان فى فترة الحملات الإنتخابية .

وعلى الرغم من أن الأمريكان يدعون للرحمة والسلام فى كل مكان ، فإنهم لا يفعلون ذلك مع الزنوج : ولا رحمة ولا إحساس بأنهم مواطنون من أى درجة ، ولكن بين الحين والحين تظهر خادمة زنجية فى صور المرشح أو يظهر المرشح وهو يهدى لإبنته صورة للمثل الزنجى سيدنى بو بيه .. مثلا .

ولكن الزوجة مهمة جدا .. خصوصا ملابسها وإناقتها وابتسامتها العريضة ووقوفها إلى جواره أمام الناس طول الوقت .. ولا يهم بعد ذلك رأيها فى الزوج أو فى البيت أو فى كل هؤلاء الناس ،وقد يعرف الناس الكثير عن التعاسة الزوجية للمرشح ، ولكن يرون أن هذا شئ طبيعى ، أن يكون سعيدا فى الصور ، تعيسا فى الحقيقة فهو إنسان طبيعى واقعى ، ومن أجل ذلك فهو خير من يمثلهم .

* * *

وبعد ساعات فرغ الكاتب الإنجليزى المجرى الأصل جورج مكش من كتابه عن « كيف تنطح السحاب » وأعطى الكتاب للناشر الأمريكى وعينه على الشيك ذى الأربعة الأرقام .. وهو يقدم له خطابا يقول فيه : لى رغبة أخيرة قبل أن أموت .. أن ينشر هذا الكتاب بعد الوفاة ..

وكانت نبوءة فقد صدر الكتاب فى نفس الأسبوع .. بعد وفاة الناشر الأمريكى ..

إذا البرغوث مات ..
فأنا مسموم !

إن الإنسان فقد القدرة على أن يرى أبعد ، ويسمع أرق ، ويشم أعمق ، ولذلك فسوف يموت دون أن يدرى ذلك — عبارة قالها الطبيب الإنسان أشفيتسر الفائز بجائزة نوبل ..

إن الإنسان يدق الآن باب جهنم بعنف وبعد لحظات يصحو الموت ليحصد الجميع — قالها العالم الكبير إينشتين عندما اخترعت القنبلة الذرية .

إن إنسانا ما قد جاء إلى هذا البيت ولم يجدنى على مكتبى فأطلق رصاصة على كلبى ، انه إنسان فى غاية القسوة لقد أراد أن يوجعنى مرتين .. مرة على فقد هذا الحيوان المسكين الأمين ، ومرة على ما وصل إليه حال الإنسان .. انه يقتل لمجرد القتل — قالتها الكاتبة الأمريكية راشيل كارسون التى فازت بعشر جوائز دولية عن كتابها « الربيع الصامت » الذى وصفت فيه أعجب رحلة للموت .. أو للسم الأبيض الشفاف الذى ينتقل من أى شئ .. من الماء والهواء والتراب إلى خلايا الإنسان والحيوان والنبات ومن الإنسان إلى الماء والهواء والتراب إلى النبات والحيوان ثم إلى الإنسان .. إن الجميع يحملون السموم للجميع .. انها أقسى معركة صمت عرفها الإنسان والحيوان والنبات فى التاريخ . . فنحن نموت أما الفاعل الحقيقى فهو الإنسان . . ولنبدأ الرحلة ، رحلة السم ، والحزن معا .. أو رحلة السموم الحزينة ، أو الأحزان السامة .

كان ياما كان قرية صغيرة جميلة .. الشوارع واسعة والأشجار خضراء وارفة ، الأزهار كثيرة باسمة .. وكانت الفراشات حائرات .. كالأوراق

تناثرت من الشجرة ، أو كأوراق التصقت بالشجر . وكانت العصافير تلاحق شعاعات الشمس .. وعليها وفى ضوئها تلتقط الحبوب والديدان .. وكانت القنوات فى لون الذهب .. وكانت الأسماك تسبح تحت الماء فى رشاقة تأكل الأعشاب .. أو لا تأكل شيئا : إنها فرحة الحياة .. أو هى الحياة .. وفى الوديان الخضر قطعان الأغنام .. ان مجرد النظر إلى وجوهها وصوفها يؤكد أنها فى صحة جيدة .. أما ذلك الطفل الذى جلس على قطعة من الحجر يأكل السندوتش ، فهو صورة لكل ما أنعم الله على الإنسان : العقل والصحة والحرص عليهما . أما هذه الأجراس التى نسمعها من بعيد فهى لأبقار امتلأت باللحم واللبن .. وفجأة ..

وفجأة ، ولسبب غير واضح تماما ، تغير لون السماء .. على أثر ضوضاء من طائرة عابرة .. وشئ أبيض كأن مليون إنسان يدخنون سيجارة واحدة وينفثونها فى وقت واحد .. انها سحابة بيضاء .. مرت .. عبرت .. استغرقت المكان وأغرقته .. فتساقطت الطيور .. وذبلت الأزهار .. وتراخت الأغنام.. ورفعت الأبقار رؤوسها عن الأعشاب .. أما الأسماك فلم تقاوم فقط الماء .. وإنما طفت على وجهه .. ان الأسماك قد أغرقها الماء .. حتى الطفل الصغير أحمرت عيناه ودمعتا .. وراح يعطس ويسعل وبعد ساعات ماتت الأغنام والأبقار أيضا .. أما الزهور فذبلت وسقطت .. ولسبب غير واضح لم تقتلع الأشجار جذورها وتترك وراءها فتحة فى الأرض كمقبرة .. كفم فاغر على استعداد لدفن كل شئ وظهر عدد كبير من الأطباء فى القرية وسيارات الإسعاف !

ان هذه القرية الجميلة لا وجود لها .. ولكن هذا الذى حدث ، يحدث كل يوم .. وسوف يحدث غدا وبعد غد ..

ماذا جرى ؟ لا شئ .. ان الإنسان قام « بتلويث » الهواء .. وتلويث الماء .. وتلويث التربة .. ويمكن أن تستخدم كلمة « تسميم » إذا لم تكن

هذه الكلمة واضحة .. ان هذا الذى حدث هو نتيجة طبيعية للصناعة .. فالمصانع تترك مخلفاتها فى الأنهار والبحار ، وتطلق فى الهواء سمومها السوداء . أما السموم البيضاء التى تجئ من بعيد فهى مخلفات الإنفجارات النووية فى كل مكان .. مثلا مادة « سترونتيوم ٩٠ » التى تنطلق مع الإنفجارات النووية تبقى فى الهواء وتسقط على الأرض وتبقى هناك لتصل إلى النباتات إلى الحيوانات ومن ألبان الحيوانات إلى الإنسان .. أو من النباتات إلى ثمارها إلى الإنسان .. إلى جسم الأم إلى طفلها .. إلى القمح إلى الأرز إلى الإنسان .. إلى عظام الإنسان وكل خلاياه .. إلى غدده وإلى اضطراب وظائف هذه الغدد .. حدث هذا بصورة مباشرة ولا يزال يحدث فى مدينتى نجاساكى وهيروشيما فى اليابان — رأيت ذلك بعينى أنا كاتب هذه السطور ..

وقبل القنابل النووية عرفنا رحلة السموم هذه ، ففى الحرب العالمية الثانية استخدم العلماء مادة الددت (اختصار للكلمات : ديكلورو — ديفنيل — تريكلورو — ايثين) فى رش ملابس الجنود واللاجئين والمهاجرين وأسرى الحرب للقضاء على القمل والبراغيث وكانت نتائجها باهرة .. ولكن فائدة الددت قد اهتدى إليها عالم سويسرى أسمه باول ميلر سنة ١٩٣٩ واستحق على هذا الاختراع جائزة نوبل ، فقد استخدمت هذه المادة فى القضاء على الحشرات ناقلة الميكروبات ، وهذه المادة اكتشفها عالم كيميائى ألمانى قبل ذلك سنة ١٨٧٤ .

وبعد أن عرفنا الددت أسرفنا فى استخدامه من أجل القضاء على أعداء الإنسان .. وأعداء الإنسانية بملايين الملايين : هذه الحشرات لا يمكن حصرها ويبدو أنه لا يمكن القضاء عليها ، ولو كان داروين على قيد الحياة لشعر بشئ من السعادة والعار فى نفس الوقت ، فعبارته التى تقول : ان البقاء للأصلح صحيحة ، وكان يقصد بها الإنسان الذى استطاع رغم كل ظروف البيئة القاسية أن يرفع ظهره ورأسه وأن يجعله عقله فى أسمى مكان

من جسمه وحياته . ولكن صراع الإنسان مع البيئة ومحاولته السيطرة المستمرة عليها يبدو أن الإنسان ليس هو السيد .. فالحشرات أقوى منه وأبقى منه ، والبقاء لها ، فكما أن الحشرات كانت أسبق على ظهر الأرض .. فسوف تبقى بعد انقراض الإنسان ، أن حربا عنيفة يشنها الإنسان على الحشرات ، ولكنها تنتصر دائما ، ان هذه الحشرات تحاول أن تجعل الإنسان نوعا من الديناصور : قويا هائلا وفى نفس الوقت عاجزا لينقرض بعد ذلك !

وهذه الحشرات تصارع الإنسان فى مجالين : تأكل طعامه .. أو تحمل تحمل إليه الميكروبات ، وهو يحارب فى المجالين ، فعندما يقتلها الإنسان يقتل نفسه أيضا ، فهو يضع لها السم لكى تموت .. ولكنه يضع السم فى الطعام الذى تعيش عليه الحشرات ويعيش هو عليه .. يضع السم فى القمح والأرز والفاكهة والماء والهواء .. هذا هو طعام الحشرات وطعامه أيضا وكل المبيدات الحشرية التى يستخدمها لقتل الحشرات فى الدرجة الأولى ، وتقتله وهو فى الدرجة الثانية .. ثم أن هذه الحشرات بعد ذلك تتكيف وتصبح قادرة على أن تعيش رغم هذه السموم ..

ولم تعد هذه المبيدات الحشرية التى يستخدمها مجرد سموم لأنها تعتمد فى الدرجة الأولى على الزرنيخ والزنك والنحاس والرصاص وغيرها من المعادن ولكنها تتدخل فى وظائف الجسم الإنسانى .. فتجعله ضعيف المقاومة أو تخنق أنفاسه أو تغير جنسه ، أو تبلد عقله .. انها تقتل الإنسان بأشكال جديدة . ولكنها لم تقتل الحشرات ، فالحشرات تقاوم وتتكيف وتعاود الاستعداد لقتل الإنسان .. وعليه هو أن يفكر فى سم جديد وهو الزرنيخ كان المادة المفضلة فى قتل الملوك والأمراء من قديم العصور ، لأنه بلا طعم ، فإذا وضع فى طعام أو شراب لم يدرك الضحية أن شيئا غريبا قد سقط فى طعامه .. وقد شاهدنا ذلك كثيرا فى الأفلام .. عندما كان السم يخرج من الخواتم ومن الأقراط ومن علب صغيرة تحفظها الزوجة أو العشيقة فى

صدرها .. وبعد لحظات ترى أثر السم الذى لا علاج له .. ان أسرة بورجيا الإيطالية قد استهلكت نصف سموم إيطاليا ليقضى بعضهم على بعض - وربما كانت الرائحة الكريهة التى تشمها لأنابيب البوتاجاز مقصودة لكى يتنبه الناس أن هناك تسربا للغاز فلا يشعل أحد عود كبريت وإلا اشتعل البيت !

وفى سنة ١٩٤٣ استخدمت قوات الحلفاء مادة الددت فى إيطاليا للوقاية من التيفوس والملاريا - أى ضد الذباب والبعوض ، ومات الذباب والبعوض وأنقذ مئات الألوف من الناس ، ولكن بعد سنة واحدة بالضبط عاد ذباب البيت أقوى ما يكون ونشط البعوض بصورة مذهلة ، كأن هذا المبيدات فيتامينات لتقوية الحشرات ، ماذا حدث ؟ ماذا جرى ؟ أين ذهبت هذه السموم ؟

الجواب : أن عالم الحشرات هو عالم المستحيل ، فمن الممكن أن يحدث أى شئ ، من الممكن أن تؤدى السموم إلى تقوية الحشرات ، ومن الممكن أن تعطيها أسلحة جديدة غير متوقعة لمهاجمة الإنسان من جديد . فكأن الإنسان يساعدها على نفسه ! وكأن أحسن وسيلة للهجوم على الحشرات هو يستسلم لها ، وأن يترك لها نفسه وجسده وما يملكه بلا حراسة .. وعليها أن تأخذ ما تريد وتترك ما تشاء - وهذا كرم منها ، لأن الحياة لا تريد الإنسان ، لأنه الأضعف ، وتريد الحشرات لأنها الأقوى والأبقى ؟ !

وفى سنة ١٩٥٠ رشت إحدى قرى مصر بالددت ، فنقص عدد الوفيات إلى النصف ، وبعد سنة تماما عاد الذباب والبعوض وارتفعت الوفيات ، ماذا حدث ؟ انها نفس القصة الحزينة .. ونفس الرحلة القصيرة على جناحى ذبابة أو بعوضة من عالم الأحياء إلى عالم الأموات !

وفى سنة ١٧٨٧ ذهب الكابتن آرثر فيليب إلى استراليا ومعه بعض أشجار الصبار ليجعل منها سياجا لمدينته حتى لا تدخل الحيوانات وحتى لا تهرب الأغنام ، وفى سنة ١٩٢٥ لوحظ أن شجيرات الصبار التى أتى بها الكابتن

فيليب قد أصبحت تغطى ٢٥ مليون فدان فى استراليا الآن .. وليس نوعا واحدا من الصبار ولكن أكثر من ٢٨ نوعا ، كيف ؟ أسأل شجيرات الصبار !

ان فى العالم كله الآن ما يقرب من ٢٠٠ ألف نوع من النبات .. والصبار واحد منها ؟

وفى سنة ١٩٥٩ استخدم الأمريكان المبيد الحشرى المعروف باسم الألدرين أخطر المبيدات جميعا — فى القضاء على الخنافس اليابانية ، وقضى المبيد على كثير منها ، وتوارى أكثر الخنافس فى البيوت وفى بطن الأرض وفى الأشجار .. وماتت كل الطيور الصديقة والمعادية للإنسان وكذلك الكلاب والقطط . وبعد سنة عادت الخنافس بعد أن تغير لونها ، وزاد عددها ، انها توارت لتستعد فى صمت وتعاود الهجوم على الإنسان دون أن تعطيه وقتا كافيا للتفكير فى سلاح جديد ..

وفى سنة ١٩٤٤ استوردت أمريكا من فرنسا عددا من الخنافس للقضاء على بعض الأعشاب المتطفلة فى الحقل هذه الخنافس تأكل هذه الأعشاب أو تقضى عليها وقضت على هذه الأعشاب وراحت أمريكا تصدر ملايين الخنافس إلى بلاد أخرى .. ولكن الخنافس نفسها ضارة ، أصبحت ضارة ، ولذلك كان من الضرورى البحث عن حشرات أخرى تفرز مادة سامة على هذه الأعشاب لتقتل الخنافس .. وماتت الخنافس وبقيت الأعشاب ..

انها القصة القديمة ـ انها قصة الدب الذى يقتل ذبابة على وجه سيده .. انه بحجر واحد يصيب الإثنين وبمنتهى حسن النية !

ان العالم يجب أن يشعر بالضآلة أمام هذا الذى يراه .. اننا لا نعرف بالضبط ما هذه الحياة .. ما حياة الذبابة والبعوضة .. اننا أمام معجزات وألغاز حرنا فيها ، ان العالم يجب أن يكون متواضعا ، هذه ضرورة لأن الذى

يعرفه قليل ، لأن يده أقصر من ذراعه .. وأن عقله أقصر من أصابعه .. والكون واسع ملئ بالمجهول ..

اننا ننظر إلى العالم من خلال نافذة ضيقة .. ولكن إذا بعدنا عن النافذة فالذى نراه من خلالها قليل صغير ضئيل .. وكلما اقتربنا من النافذة كان مجال الرؤية أوسع وأكبر فنحن نرى الدنيا من خلال نافذة صغيرة أسمها « الخلية الحية .. خلية الإنسان والحشرات والنباتات .. من هذه الفتحة الضيقة جدا نرى قدرة الله ، تبارك الله ، وجل جلاله ، ولا نعرف ما هذا الذى نستخدمه ، وضد من .. ضد الحشرات أو ضدنا .. اننا نشبه الفيل الذى يمشى على ملايين من الفناجين ونطلب إليه ألا يكسرها .. كيف !؟ هذا ما نتصور اننا نفعله : أن نقتـــل الحشرات ولا نقتل الطيور .. أن نقتل الطيور ولا نقتل الزهور ..

اننا الآن نعيش فى عالم غريب .. كل من يأكل ورقة أو يشم زهرة أو يقضم ثمرة ، يموت ..

نحن فى عصر إذا لدغ برغوث كلبا ، فإن البرغوت يموت لأن الكلب مسموم .

نحن فى عصر تجد النحلة تحمل رحيق السم وأكسير الموت وتضعها بمنتهى الصبر والمثابرة فى خليتها ..

اننا فى عصر إذا حامت فيه الفراشة فوق الزهور فإنها تموت ، لأن أنفاس الزهرة تقتلها ..

ان كل الرعب والفزع الذى صورته الأساطير اليونانية هو ما نراه حقيقة الآن .. فى أساطير اليونان كائنات إذا نظرت إلى أى شئ صار حجرا أى مات .. أو صار مسحوقا من الملح .. أو صار مهلكا .. كل ذلك قد حصل ، ونحن القاتل والقتيل .. والمجرم والضحية ..

ولن نتوقف عن ابتكار أسلحة جديدة لمعاودة الحرب على ملايين الملايين من أعدائنا الصغار .. ولا هذه الملايين ستوقف عن تنظيم أطرافها الضئيلة وأجنحتها الهزيلة فى القضاء علينا من جديد .. إلى الأبد ..

وفى أساطير اليونان أن الفتاة ميديا أحبت الفتى جاسون .. وكانت ميديا هذه ساحرة ، وكانت قادرة على فعل الكثير ، واتفقت مع الفتى على أن تساعده ضد أعدائه واستطاعت ، ولكنه تركها وأحب فتاة أخرى .. وهنا فقط قررت أن تقضى على الجميع .. وصنعت للعروس ثوبا من الحرير الأبيض ، وقدمته لها ، فلم يكد الثوب يستقر على كتفى العروس حتى سقط .. لقد تحولت العروس إلى كتلة من الرماد .

ان هذا الثوب الأبيض الحريرى الرقيق ننشره فى كل مكان — باليد .. وبالطائرات .. إننا نلقيه على الحشرات فتموت الطيور ، وننصبه للطيور فتموت الحشرات .. ونضعه للأشجار فتموت الأبقار .. ويموت الإنسان ..

ان فستان ميديا الحريرى الشفاف هو الذى نسجنه من السحب البيضاء سحب الددت وغيرها من المبيدات الإنسانية — أى التى صنعها الإنسان على أعداء الإنسان — والإنسان هو أعدى أعداء الإنسان ..

٧ رجال وبطة وقرد
يبحثون عن مصر في أمريكا!

الناس فى غاية الرقة ، ولكن الأرض ليست كذلك .. الرمال ناعمة ولكنها فى نفس الوقت لا مبالية ، والصحراء بحر لا موج له ولا أعماق .. والأهرامات أنياب ثلاثة تلتهم السحب أو تنتظر ظهور القمر لتخيفه فيتوارى بعيدا . والزورق الصغير المصنوع من القش أو من ورق البردى ملقى على الرمال .. كأنه سفينة نوح التى بناها على الأرض قبل الطوفان .

فإلى هذا المكان جاء النبى موسى وخرج . وفى هذا المكان وضعته أمه فى إحدى السلال ثم ألقت بها إلى النهر . وكانت السلة مصنوعة من ورق البردى وإلى جوار الزورق يوجد جمل يأكل بعض أوراق البردى ويرفع رأسه فى نفس اللحظة التى هز أحد أبناء بورسعيد كتفيه ليقول : « أنه لا يمكن بناء زورق من هذا الورق » ثم ركب الأتوبيس عائدا إلى بلده ..

ويمضى الرحالة النرويجى تورهايردال يروى قصة مغامرته بالزورقين رع الأول ورع الثانى فى كتابه « رحلات رع » وقد نشرت صحف العالم ووكالات الأنباء والشاشة والميكرفون الكثير « عن » هذه الرحلة .. ولكن الجوانب الإنسانية الشخصية الداخلية لم ينشرها أحد .. وقد أخفاها هايردال حتى نشرها فى كتابه . وهو رجل ليس مغامرا .. وإنما هو صاحب نظرية ، اقتنع بها ويحاول أن يقنع الناس بها . إذن هو ليس صاحب رأى وواثق منه فقط ولكنه صاحب دعوة .. على مسافة قصيرة من الأنبياء !

أما قضيته فقد اختلف حولها العلماء .

أناس يقولون : . حضارة الأمريكية قد نمت منعزلة تماما عن أفريقيا . وأناس يقولون أن هذه الحضارة إنما هى نتيجة لهجرة أهل أفريقيا إليها . الفراعنة بصفة خاصة .. أما كيف جاء الفراعنة إلى أمريكا ، فهناك رأى يقول أنهم ركبوا الزوارق المصنوعة من ورق البردى وعبروا المحيط . بعض علماء المصريات يقولون أن الفراعنة لم يبرحوا بزوارقهم المصنوعة من البردى نهر النيل .. فهذا الورق يذوب فى الماء .. ولذلك فهذه النظرية أيضا يجب أن تذوب فى الماء ومن الأفضل للرحالة النرويجى أن يستريح . ولكنه لن يستريح حتى يثبت أنه على خطأ أو على صواب .. لابد من التجربة.

فمن أين جاءت حضارة أهل بيرو القدماء أهل المكسيك ؟ عندما جاء خريستوف كولمبوس إلى أمريكا اكتشف أن هناك حضارة متقدمة . وأن هناك فنونا متطورة أكثر تقدما من الفنون الأوروبية .. من أين جاءت ؟

يقول العلماء أن الإنسان الذى جاء إلى أمريكا قد انتقل إليها من سيبيريا .. من آسيا .. ثم عبر المضيق بين آسيا وأمريكا . وفى ظروف غير معروفة لدينا ظهر فى أمريكا وزحف إلى الجنوب . إنسان جاهل . إنسان العصر الحجرى . لا يعرف الزراعة . ولا استخدام المعادن . لا يعرف الزمن ولا الكتابة . وعن طريق الهجرة والاختلاط جاء الهنود إلى أمريكا . وهؤلاء الهنود مختلفون عن بعضهم البعض . أشكالهم مختلفة . لغاتهم مختلفة . ولغاتهم غير مكتوبة . ولكنهم جميعا بغير ذقون طويلة ..

وعندما جاء الأوروبيون إلى أمريكا لم يندهش هؤلاء الهنود الحمر . فهم لا يتصوروا أن هؤلاء الأوروبيين مكتشفون ولا غزاة . وإنما هم أناس على سفر .. جاؤا قبل ذلك ولأسباب غير معروفة اختفوا . كان لونهم أبيض .. وكانت لهم ذقون طويلة .. علموهم كل فنون الحضارة : الخسوف وخطوط الطول والعرض . وعلموهم فن التحنيط . بل أكثر من ذلك علموهم إجراء العمليات الجراحية قبل أن يعرفها الأوروبيين .

وكان لهم تقويم أدق من الذى يستخدمه الأوربيون . فسنة الصفر ، أو البداية عندهم ، هى سنة ٣١١٣ قبل الميلاد . وهى نفس السنة التى ظهرت فيها الأسرة الأولى المالكة فى مصر وفى العراق . وكانوا يصنعون بيوتا من طابقين مثل أهل مصر وأهل العراق . واستخدموا الأنوال والمغازل . بل أنهم صنعوا أنواعا من السجاجيد أذهلت الأسبان عندما رأوها . .

ثم أنهم فى بيرو والمكسيك قد أقاموا الأهرامات المدرجة والأعمدة الرخامية من قطعة واحدة . ورصفوا الطرق وشقوا القنوات وأقاموا الكبارى المعلقة . وكانت لهم زوارق من البردى من طابقين . وكانوا يصنعون تمثالا لإله الشمس فوق هذه الزوارق . تماما كالفراعنة الذين يقف ملوكهم ، وهم آلهة الشمس ، على هذه الزوارق .

ولكن إذا كانت حضارة بيرو والمكسيك مستوردة ، فلماذا لم يتعلموا صناعة الزوارق عابرة المحيطات ؟ !

سؤال وجيه لا توجد عنه إجابة واضحة عند أحد . ولكن لماذا لا يقال إن الذين يرفضون الزوارق المصنوعة من ورق البردى لم يجربوا هذا الورق ؟ من المؤكد أنهم يشكون فى قدرته على عبور البحر أو المحيط .

ومن عشرات المقابر والمعابد التقط الرحالة النرويجى صورة مناسبة لزورق من البردى فقد رأى زوارق الصيد . وزوارق المسافرين . والزوارق الملكية . والزوارق التى جلست عليها فتيات يرضعن أطفالهن . وصنع زورقا طوله ٤٥ قدما وعرضه ١٥ قدما . أما أعواد البردى فقد لفوها على شكل حبال ثم ضموها بعضها إلى بعض . والزورق قد تكون من عشرين لفة ، وعلى ظهر الزورق توجد غرفة صغيرة يأوى إليها هايردال ورجاله طولها ١٢ قدما وعرضها ٩ أقدام ..

وبدأ العمل يوم ١٨ أبريل سنة ١٩٦٩ أى فى نفس اليوم الذى بدأ

فيه هايردال رحلته المشهورة من بيرو إلى جزر البحر الهادى منذ ٢٢ عاما !

وبعد أن تم صنع الزورق حملوه إلى الطريق الصحراوى ثم إلى الإسكندرية إلى ميناء صافى بمراكش على شاطئ المحيط الأطلسى . واختار له اسم رع — إله الشمس . ويوم ١٧ مايو سحبوه إلى خارج الميناء . وهذا الميناء قديم .استخدمه البربر قبل مجئ البرتغاليين إليه بألف سنة . وقد جاء البرتغاليون فى القرن الخامس عشر . وقد تردد على هذا الميناء البحارة الفينيقيون . والميناء صغير ومناسب ولا توجد خارجه تلك الأمواج التى تسحب الزوارق إلى حيث يصبح الإنسان عاجزا عن السيطرة عليها .. ولكن هناك تيارا هادئا ثم هناك الرياح الجارية ، وليس على الإنسان إلا أن يركب قطعة خشبية ليجد نفسه بعد أسابيع فى أمريكا !

وقبل أن يهبط رع إلى البحر صرخ أحد المصورين قائلا : ما رأيك لو غرق هذا الزورق .. انها صورة رائعة !

ولكن هايردال لم يتشاءم . وإنما رأى فى ذلك نوعا من الحماس المهنى . انه مصور صحفى يريد صورة مثيرة ، وليغرق الزورق والنظرية وكل العالم !

وقيل له أيضا إن أعواد البردى تغوص عادة بعد أسبوعين ولكن لماذا ؟؟

واستقر رع على الماء كما تستقر أوزة سمينة . ولكنها طافية رغم ذلك مثل عشرات الزوارق المصنوعة من ورق البردى والتى ما تزال طافية فى بحيرات بيرو . رغم وجود الأوروبيين منذ أربعة قرون !

نظر هايردال إلى الأوزة العائمة فوجدها متوازنة تماما . والناس قد تزاحموا على الشاطئ . وكذلك الزوارق والسفن . كل شئ يصرخ ويصفر ويهلل ويدعو لهؤلاء المغامرين بالنجاح . وجاء زورق ليسحب رع إلى خارج الميناء . لاشك أن الزورق قد امتص بعض الماء ! لقد تركوه فى البحر أسبوعا وزاد وزنه . ان هذا الزورق المصنوع من القش هو إحدى

المعجزات وأحد أحلام الإنسانية : أن يعمل الإنسان من أجل معرفة الحقيقة مهما كان الثمن . وأن يعامل الناس على اختلاف لغاتهم وألوانهم وأديانهم .. انها رحلة إلى الوراء .. إلى فجر التاريخ .

إنهم سبعة من الرجال .. واحد من أقصى الشمال من النرويج والآخر من أقصى الجنوب من أفريقيا .. وواحد من أبناء الحضارة القديمة : مصرى والآخر من أبناء الحضارة الجديدة مكسيكى .. ثم واحد رأسمالى أمريكى وواحد شيوعى روسى .. أما الروسى فهو طبيب وأسمه يورى ومن المهتمين بصحة رواد الفضاء ومشاكل انعدام الوزن . والإيطالى كارلو مورى هو مصور الرحلة . والمكسيكى أستاذ جامعى واسمه سانتياجو والإفريقى عبد الله جبرين من تشاد .. والمصرى جورج سوريال مهندس كيميائى وله بطولات فى الجودو .. وكان يسلى زملاءه بأن يكسر ستة قوالب من الطوب بضربة واحدة من يده .. وفى إحدى ساقيه آثار أنياب سمك القرش . . وليس بحارا ولكنه سباح فقط . وهو يفضل أن يكون تحت سطح الماء لا فوق ظهر الزورق .. أما الأمريكى فهو الوحيد الذى يعرف الملاحة اسمه نورمان.. وهم من ديانات مختلفة .فالأمريكى يهودى والمصرى أرثوذكسى والإيطالى والمكسيكى كاثوليكان ، وهايردال بروتستانتى والروسى ملحد والأفريقى مسلم . أنها تجربة إنسانية مثيرة . أسرة صغيرة من الممكن أن تتعايش . وأمكن ذلك رغم كل الصعوبات . .

وفى ميناء صافى جاء ١٦ بحارا وسحبوا الزورق إلى خارج الميناء ، أما زوجة الباشا حاكم الميناء ، فلم تستطع أن تنفذ من ذلك الستار المنيع من المتفرجين . وأخيراً أفلحت . ولم تجد سوى نسناس قدمته هدية لهم . وكان هذا القرد قد اصطاده الباشا منذ أيام . ونشروا شراع الزورق . ولون الشراع أحمر كالنبيذ . وعليه علامة إله الشمس رع . والمحيط يعلو ويهبط .

ولكنه هادئ . . والصرخات تتعالى . وانسحب الرجال وتركوا الزورق برجاله السبعة . . يواجهون المحيط وحدهم . . وكلمة « وحدهم » هذه لاتفزعك . ولكن إذا وجدت نفسك تطفو على كوم قش وتحتك تيار يستدرجك وأمامك ألوف أميال وحدك وفى أول تجربة من نوعها ، وقف شعر رأسك وانقطعت أنفاسك !

وإلى جانب الرجال السبعة والنسناس توجد بطة مربوطة من إحدى ساقيها . .

وكان تور هايردال مشغولا جداً بالعلاقات الإنسانية بين رجاله السبعة . أنهم لايعرفون بعضهم البعض . لقد التقوا فى ميناء صافى لأول مرة . . والروسى لايعرف إلا لغته والأفريقى لايعرف إلا العربية . . ولكنهم رغم ذلك كانوا مثل التوائم السبعة . وكانت الشكوى من المهندس جورج سوريال أنه « دلوعة » الرحلة فهو ابن ذوات ولم يعتد أن يغسل الأطباق ولا الملابس . ولذلك كان يتركها لغيره . وهنا يصرخ الإيطالى ، ويتدخل هايردال ليقول له : لاتؤاخذه لقد اعتاد أن يخدمه الناس . .

ثم قال لجورج سوريال : ليس من المفروض أن يخدمك واحد منا . .

أما عبد الله جبرين فلا يعرف القراءة . وقد رفض أن يعاون فى أى شئ وقال للرجل المكسيكى : أنت أبيض وأنا أسود . . وأنا لااحترمك . .

وغضب المكسيكى ثم قال له : أننى أمضيت سنوات من عمرى فى خدمة الزنوج وقد فزت بجائزة السلام البابوية من أجل ذلك !

وتصالح الإثنان ومضى الزورق بطيئا فى موج هادئ . . ولكن بقيت مشكلة الوضوء عند عبد الله جبرين . أنه يتوضأ خمس مرات فى اليوم . ويستخدم المـاء العذب الموجود فى الزورق وقد نبهه هايردال إلى أنه سوف يستهلك كل المـاء . . وفى استطاعته أن يتوضأ من ماء المحيط فهو أنظف ماء

فى العالم . واتجه عبد الله جبرين إلى ماء المحيط وكانت دهشته هائلة عندما أكتشف أنه ماء مالح !

وعلى الرغم من اختلاف الديانات على ظهر الزورق فإن الجميع قد احترموا صلوات عبد الله جبرين . إنهم ينظرون إليه فى دهشة وهو يركع ويسجد مستغرقا تماما !

ويوم ١٠ يونيو فوجئ الجميع بأن المحيط فى غاية القذارة . وأنه يصعب على واحد منهم أن يغمس فرشاة أسنانه فى الماء . لقد تحول ماء المحيط من أزرق إلى أخضر رمادى . إنها مخلفات الإنسان . . إنها إحدى جرائم العصر الحديث : تلويث قنوات الملاحة . . ففى المحيط زجاجات عائمة وبقايا طعام وبقايا خشب وعلب . . وبقع من الزيت وكرات سوداء . . إنه شئ لم ير له هايردال مثيلا فى رحلته على الزورق « كون تيكى » سنة ١٩٤٧ والتى استغرقت مائة يوم ويوما !

وكان دور عبد الله جبرين فى إعداد الطعام فذبح آخر دجاجة . أما البطة فقد تركوها وأطلقوا عليها اسم سندباد . .

وبعد ٢٥ يوما من الرحلة كان الزورق قد قطع مسافة ١٢٤٠ ميلا . وهذه المسافة لو قطعها الفراعنة من ميناء الاسكندرية لذهبوا إلى ما بعد جبل طارق . . أو لوصلوا إلى نهر الدون فى روسيا . . أو إلى أبعد من ذلك فالبحر الأبيض أهدأ كثيراً من المحيط . .

أما قصة الأمواج فهى لاتنتهى . إن كل موجة تهز الزوارق . وكل رذاذ الموج يدخل فى الغرفة التى أوى إليها الجميع . . وكثيراً ما دخلت الأمواج إلى داخل الزورق ووصل الماء إلى ركبهم . . وكثيراً ما نزل جورج سوريال إلى ما تحت الزورق ليتأكد من سلامة الحبال — أنها مسألة حبال . إذا انقطعت انفرط الزورق كله !

وكانت هناك بعض الحبال من البلاستيك . . وكانوا يشعرون بشيء من الخجل لاستخدام هذه الحبال الحديثة . وكأنهم يستمعون إلى صوت نبتون إله البحر وهو يقول : هذا غش فى اللعب . . إن الفراعنة لم يستخدموا البلاستيك !

وفى ٢٦ يونيو تجاوزوا خط طول ٤٠ غربا . . أى أنهم أصبحوا فى النصف الأمريكى من المحيط . وانتهزوا هذه الفرصة وأقاموا حفلا . فتح جورج سوريال زجاجة شمبانيا وقدم المشهيات من الزيتون والجبنة والملوحة المصرية . . وكانت موسيقى وضحك حتى غابت الشمس فى المحيط . .

وفى أوقات الفراغ كان جورج سوريال يعلم عبد الله جبرين القراءة والكتابة . .

وفى الليل تعالت صرخات . . وكان الموج عاليا والريح شديدة . . وفجأة قفز الجميع : أن الأمريكى قد سقط فى الماء . وارتطم بشيء وتسلخ تماماً . وراح الدم ينزف من ساقيه . . وسحبوه . . ووقف الدكتور يورى يقول : أن الموقف خطير . . هل توجد عندنا أملاح الأمونيا .

وقال الزملاء : لا . . طبعا . . فأنت الطبيب !

وكان رده صحيح : نسيت هذه الأمونيا .

ثم عاد يقول : أن الأمونيا هى وحدها التى تعالج هذه الحموضة التى دخلت جسمه . . الموقف خطير جداً . . أن الأمونيا لاتوجد إلا فى البول . . ولذلك يجب أن تتبولوا فوراً . .

وتبولوا جميعا فى نصف جوزة هند . .

ثم راح هو يدلك جسم زميله الأمريكى بالبول ساعتين . والأمريكى يتألم . . وبعد ذلك استغرق فى نوم عميق . . صحا من نومه فى حالة هذيان . فأعاد له يورى التدليك مرة أخرى . .

وكانت الأسماك تتطاير من المحيط إلى ظهر الزورق . . وكانت بعض الأسماك تسبح إلى جوار الزورق فتأكل الأسماك الجافة المعلقة على الجانبين . .

والآن مضت ستة أسابيع على هؤلاء الرجال فى طريقهم إلى أمريكا . . فى نفس الطريق الذى سلكه الفراعنة ناقلين حضارتهم إلى هذا العالم الجديد الذى ليس جديداً . . واتصل تور هايردال بزوجته يطلب إليها أن تدبر لهم زورقا ينشلهم فالأمواج عنيفة والرياح أعنف ... والزورق تتطاير محتوياته من كل ناحية . . والرجال يشد بعضهم بعضا . وبعضهم سقط فى الماء ثم سحبوه . .

ومع أول يوليو أصبحت الأمطار غزيرة . . وواضح أن الزورق سوف ينشطر إلى نصفين . ولسبب غير مفهوم لم يحدث له ذلك . . ولم يبق فى الزورق كثير بعد أن سحبت الأمواج الصناديق والعقاقير والملابس الداخلية والخارجية . . حتى شراع الزورق اندفع إلى الأمام كأن حيوانا من حيوانات السيرك قد هرب منه من كرابيج المدربين . . إنهم الآن وحدهم بلا أية مساعدة وبلا أمل فى ذلك . . ولكن الأمل الوحيد عندهم هو ذلك الزورق الذى طلبه تور هايردال من زوجته فى إيطاليا أن تدبره له بقرب الشاطئ الأمريكى وجاء الزورق البخارى . . واتصلوا به لاسلكيا عدة مرات . ولكنهم لايرونه ولايراهم . طلب إليهم الزورق البخارى أن يطلقوا بعض الصواريخ ليحدد مكانهم . . أعلنوا أن كل الصواريخ وفتائلها مبللة وأنهم عاجزون عن إشعالها. وطلبوا إلى الزورق البخارى أن يفعل ذلك فاعتذر القبطان لنفس السبب . . ثم طلب إليهم القبطان أن يوالوا الاتصال له ليعرف مكانهم . . أما كيف عثر عليهم هذا الزورق بعد ذلك فتلك معجزة !

واستعاروا من الزورق عوامة صغيرة وركبوها وأنقذوا كل مابقى لهم فى الزورق رع . . وتركوه وحده للموج . . يفعل به ما يشاء . . يصل إلى أمريكا أو لايصل . . وانتهت مغامرة الزورق رع الأول . .

انتهت رحلة طولها ٢٧٠٠ ميل على زورق من القش . إنها نفس المسافة بين أفريقيا وكندا . .

أما ما تبقى من رع الأول فكان على مدى ٦٠٠ ميل بحرى من جزر باربادوس

ولم ييأس تور هايردال وإنما أنشأ زورقا آخر واسمه « رع الثانى » وبدأ من نفس الطريق .

وكان أكثر ثقة من ذى قبل . وكان بناء الزورق هذه المرة مختلفا . كان من ثلاث كتل من ورق البردى : واحدة إلى اليمين والثانية إلى اليسار أما الثالثة فهى التى بين الاثنتين والثلاث كتل مشدودة بعضها إلى بعض تماماً .

أما عبد الله جبرين فقد قرر العودة إلى زوجاته الثلاث . . وجاء رجل يابانى بدلا منه واسمه كاما اوهارا . . أما أوراق البردى هذه المرة فقد جاءت من بيرو . والذى صنع الزورق رجل من البربر اسمه مدنى . . وفى يوم ١٨ يونيو بدأت الرحلة الثانية وبعد ثمانية أسابيع كان الزورق على مدى ٢٠٠ ميل من جزر باربادوس وأرسلت الحكومة سفينة لتحيتهم . وعلى ظهر السفينة السيدة ايفون زوجة تور هايردال .

وفى اليوم السابع والخمسين لهذه الرحلة وصلوا إلى الشاطئ الأمريكى .. لقد نجحت المغامرة أو الرحلة . . من أجل إثبات نظرية أن الفراعنة قد وصلوا إلى هذه البلاد . . أو أن جماعة من البيض لهم ذقون طويلة جاءوا يحملون إليها الحضارة قبل أن تعرفها أوروبا !

أقزام..
يشربون الماء
في بيض النعام

كان ذلك فى إحدى ليالى الشتاء . . . الطفل يجلس على ساق والدته . . وأمامه النار تشتعل . . النار تأكل الخشب . ويتحول الخشب إلى قطع سوداء قصيرة ومن هذه الأخشاب يتصاعد دخان أبيض طويل عملاق . . ويجيء رجل زنجى ويضع المزيد من الأخشاب ويختفى كأنه دخان .

ولسبب غير واضح يهرب الطفل من حضن أمه إلى غرفة ويصرخ ويبكى . . وأمه لا تفهم ماذا حدث ؟ وتحاول أن تفهم . ولكنه لايقول شيئاً . . وتقفل الأم باب الغرفة على الطفل الصغير ، وتضع الغطاء على وجهه وتتركه ينام . . ولا تكاد الأم تدفع وراءها الباب حتى ينهض الطفل من فراشه ويقف فى ركن من أركان الحجرة ويقسم : لابد أن أعثر عليهم . لابد أن أنقذهم أقسم بالله أننى سوف أفعل ذلك عندما أكبر ثم يسحب كراسة صغيرة ويكتب فيها هذه العبارة : أنا فان دربوست عمرى ثمانى سنوات أقسمت أننى سوف أنقذ هؤلاء الأقزام عندما أكبر . والله على ما أقول شهيد . !

ولا بد أن الطفل الصغير عندما رأى النار ، ورأى فيها الأخشاب السوداء القصيرة أدرك بإحساسه المرهف أن هذه الأخشاب القصيرة هى هؤلاء الأقزام السود ــ البوشمان الذين حرص الزنوج والبيض فى جنوب أفريقيا على القضاء عليهم باستمرار . . أنهم يضعونهم على النار أو يطلقون عليهم النار حتى لم يعد أحد يسمع عنهم شيئا . .

وكل ما سمعه الطفل الصغير عن هؤلاء البوشمان ــ أو الأقزام ــ هو أن

أحجامهم صغيرة جداً . وأن ملامحهم جميلة . ولكنهم وحوش . ومعقدون بسبب قصر القامة أما لون بشرتهم فهو فى لون الذهب الأسود . . أو لون المشمش . . وهم صيادون فقط . لايملكون أية قطعان ولا يزرعون الأرض . وإنما يحملون السهام والنبال والسنانير ثم ينصبون المصايد والفخاخ للحيوانات المفترسة . . ثم إن هؤلاء الأقزام ينظرون إلى السماء من حين إلى حين . . مرة إلى السحب لعل السماء تمطر ، ومرة بحثا عن ذلك العصفور الذى ينقض على أعشاش النحل . . فهم يأكلون عسل النحل . ومن الغريب أن لهؤلاء الأقزام رائحة خاصة إذا شمها النحل هرب ؟

وسمع الطفل أن هؤلاء الأقزام بارعون فى الرسم بالألوان . وفى النقش على الحجر ولا أحد يعرف من أين يأتون بهذه الألوان الحية . . الصارخة .. فالأحمر فى لون الدم ، والأصفر فى لون الذهب ، والأخضر فى لون الغابات والأبيض فى لون أسنانهم .. من أين ؟ لا أحد يعرف بالضبط . ولكنهم إذا ما ذهبوا إلى أى مكان فإنهم يتركون آثارهم التى تدل عليهم . . على أنهم كانوا هنا . . وقالوا شيئا على جدران الكهوف ومضوا . إلى أين ؟ لا أحد يعرف ! هل رآهم أحد ؟ كل الناس يدعون ذلك . ولكن أحد لم يقترب من هؤلاء الأقزام . ولذلك فالقصص والنوادر والخرافات عنهم تملأ الكتب !

وهذا الطفل فان دربوست قد أحس أن أجداده من البيض الذين جاءوا إلى جنوب أفريقيا حوالى ١٦٥٢ قد أبادوا الألوف من هؤلاء الأقزام . . وهو يريد أن يكفر عن خطيئة ورثها ولا دخل له فيها !

وعندما بلغ العشرين من عمره قرر أن يذهب للبحث عن هؤلاء الأقزام . وفشلت محاولته الأولى . وحاول مرة أخرى وكاد يموت وهو يعبر صحراء كلهارى بحثا عن هؤلاء البوشمان . . فالطريق ليس صحراويا فقط . . ولكن هناك مئات الأميال من المستنقعات والغابات . . والحرارة قاسية والرطوبة خانقة . . والوحوش ضارية والذباب مميت : . وقبل ذلك ليست لديه

معلومات كافية ولا وسائل للدفاع عن النفس ضد الوحوش والميكروبات .

والتهبت الحرب العالمية الثانية . . وانتقل إلى العمل فى الجيش البريطانى فى الحبشة . . ثم فى الشرق الأقصى . وسقط أسيراً فى أيدى اليابان . . وانضم إلى هيئة أركان حرب اللورد مونتباتن . وعاد إلى بلاده . وعاوده الحلم القديم . وأحس أنه من الواجب أن يبرر بوعده وأن يفى بقسمه . . والآن هناك قوة عنيفة غريبة فى داخله تدفعه إلى البحث عن ضحايا أجداده من مئات السنين . .

ولكنه هذه المرة قرر أن يمشى خطوة خطوة وبحساب . الخطوة الأولى أنه سوف يعبر الصحراء كلها فى النصف الجنوبى لأفريقيا . . ولن يستخدم السيارات وإنما سوف يستعين بالجرارات فهى أقدر على خوض الرمال . وسوف يستعين بكل الأسلحة للدفاع عن النفس وكل العقاقير الطبية . وقد عاونته الإذاعة البريطانية بعدد من أجهزة التسجيل . . فقد يصادف هذه القبائل المنقرضة ويسجل لها من بعيد . فقد يتعذر عليه أن يقترب منها .

واهتدى إلى عدد من الأصدقاء الذين تخصصوا فى عبور الصحارى والصيد فى الغابات والذين يعرفون لغة البروشمان . .

أما الوقت المناسب للبحث عن هؤلاء الأقزام فهو موسم الهجرة . . موسم الأمطار . . فنى موسم الأمطار يهربون من المناطق الحارة الحارقة ويتجهون إلى حيث تزهر الأشجار وتنمو . . هذا الوقت من كل عام تهاجر الحيوانات أيضا . . وأمامها ووراءها يهاجر الأقزام . . ويكفى أن يقتفى آثار وحوش الغابة ليعرف اتجاهها . وفى هذا الاتجاه لابد أن يتوازى الأقزام .

قال له بعض الناس « الواقعيين » والذين يحسبون الأمور بدقة : لاداعى فالمسافة مهلكة والأخطار لاحدود لها .

والذين هم أكثر واقعية نصحوه بأن يعدل عن السير فى الصحراء ويتجه إلى الأنهار أو إلى الغابات .

والذين يتوقعون كل الاحتمالات نصحوه بأن يقطع الصحراء ويتجه إلى الغابات . . وفى داخل الغابات يركب الزوارق ويتابع الأنهار . . وأن يكون عبورها نهارا فقط . . فهؤلاء البوشمان لايرون فى الليل بوضوح . . وإنما يعيشون على ضوء الشمس وإن كانت أشعة الشمس تقضى عليهم أولا بأول . .

وبدأت الرحلة بعد ظهر أول سبتمبر سنة ١٩٥٢ . . الجرارات الأربعة تزحف على الرمال . لا تحمل الكثير . . ولكنها الوسيلة الوحيدة لاجتياز الرمال . ومضى يوم ويوم . وفى اليوم الثالث وصل إلى شلالات فكتوريا . . لاجديد . . لا شىء قد لفت نظره . فهو ابن هذه البلاد . وهو يعرف أرضها وشجرها وحيواناتها . . ولكن ربما استوقفه قليلا أنه رأى قطيعا ضخما من الأفيال يجتاز نهرا « مجاورا » إذن لقد بدأت الهجرة فهو لم يخطئ فى اختيار الوقت الأفضل من العام . الحرارة تسحق اللحم و الشحم . والرطوبة ستائر كثيفة على الأنوف . والملابس كأنها تسبح من النار . والضوء يفقأ العيون . . ولكن منظر الفيلة والجواميس الوحشية والزراف والطيور الجارحة وقد احتشدت جميعا فى اتجاه واحد . . هو الشىء الوحيد الذى أراحه . . وأراح رجال قافلته . . لقد بدأ الموسم الذى تهرب فيه الحيوانات إلى حيث تكون خضرة الأرض وكثرة المياه . . ومعها وفى أرجلها يتوازى الأقزام . .

ونصحه خبراء الطرق يمشى مع نهر زمبيزى . ومن هناك ركبوا عشرات الزوارق الصغيرة وقد وضعوا عليها كل أمتعتهم وأسلحتهم . وأدار فان دربوست أجهزة التسجيل . . ففى النهر والماء والهواء الذى شنقته الرطوبة وعلقته على غصون الشجر ، تتردد أصوات صارخة عارية باكية . . وهمس وهسيس وفحيح ونعيق . . كل ذلك فى وقت واحد . . مئات اللغات . .

ألوف الأصوات متداخلة . . وكلها تصنع سيمفونية الفزع من المجهول . . أما هؤلاء الذين جاءوا فى زوارقهم فهم يخوضون فى ملايين العازفين . . وعند إحدى الجزر ربطوا زوارقهم . وجاء الليل وتناثروا وناموا . . وكان النوم متقطعا فلا أمان لشئ هنا . . وفى سكون الليل . . الكون النسبى . . سمع هو ما يشبه الطلق النارى ففزع . . ونهض من فراشه ، أو من الأرض التى هى فراشة . . وراح يعوى لينبه الذين حوله . . فقد رأى ظلالا سوداء تقترب . . كانت قطيعا من الفيلة . . أما الطلق النارى الذى سمعه فلم يكن سوى فرع شجرة قد وطئته أقدام فيل فكان لهذا الوطء هذا الدوى . . وبسرعة قفز الرجال إلى النار فألقوا عليها بمزيد من الخشب والبنزين . . فزاد لهيبها وتناثرت شظاياها .. فخافت الفيلة وفرت إلى أطراف الجزيرة . . ولو اقتربت هذه الفيلة دون أن يدرى بها أحد لحطمت كل ما معه من أدوات وحاجيات وقضت عليهم تماماً . .

وفى الصباح عادوا إلى الزوارق . ثم تركوها على شاطئ النهر . واتجهوا إلى أحد المستنقعات . . بعد أن سحبوا الزوارق على الأرض . . وحملوها على أكتافهم . . ووسط دقات الطبول العنيفة التى تمزق قماشا من نوع عجيب . . هـــذا القماش هو أحيانا اسمه : الصمت . . وأحيانا اسمه : الرطوبة . وأحيانا تمزق : الشعور بالأمان . يقول فان دربوست فى مذكراته هذه الطبول هى قلوب جبارة تخفق بجنون . ووجوه الذين يدقون الطبول لاتدل على شئ . . كأنهم اعتادوا على تشييع أو توديع الناس إلى مقرهم الأخير كل يوم .

ويقول فان دربوست : لم أشعر قط أننى سوف أفشل . . إننى مشدود إلى هؤلاء الأقزام بخيط سحرى . . قوة سحرية تدفعنى إليهم . . وأننى لابد أن أجدهم . . أنهم هم الذين نادونى منذ طفولتى . . صدق أو لا تصدق .

الآن قد انفردوا بكل شئ . . أو على الأصح قد انفرد بهم كل شئ ..

البعوض جيوش لا عدد لها . . أزيزه . .طنينه مخيف . . إنه ينقض على كل شيء . . على أفراد القافلة . . على طعامهم وشرابهم . . إنه أعلى من صوت الأبقار الوحشية والسيد قشطة . وفى المستنقعات وجد قنوات من الطين . . هذه القنوات الغائرة تدل على أن قطيعا من السيد قشطة قد مر من هنا واختفى هناك . . والقنوات لها شكل جامد . . ومعنى ذلك أن هذا القطيع قد اعتاد أن يمر فى هذه القنوات منذ وقت طويل . . فلماذا لا يمر فيها الأقزام أيضا .

ويبدو أن هذا الاستنتاج خاطىء فقد نبهه واحد من رجاله إلى أن الأقزام لايمشون فى الوحل . أنهم قصار القامة ويخافون أن يبتلعهم الطين . . أنهم يفضلون الأرض الأكثر جفافا . . وهذا كلام معقول ولذلك تحول برجاله إلى ناحية أخرى . . وفى الناحية الأخرى من المستنقعات عشرات من التماسيح الجبارة تمطت فى الشمس . . تفاجىء أفواهها من بقايا لحوم وديدان . . ولم تهتز هذه التماسيح لصوت الزوارق . . وكأن التماسيح مرسومة على الطين .. وكأن هذه الطيور تعبث بهذه اللوحات :

يقول فان دربوست فى مذكراته .

أننى أعتمد على إحساسى . . على شىء فى داخلى . . هذا الشىء ليس له معنى واضح . . ولكنه شيء قريب . . حاسة سادسة . . صوت الماضى . . عذاب الضمير وعلى هذا الاحساس الغريب أعتمدكثيراً . . وفجأة أحسست برغبة فى أن أنظر إلى الوراء ونظرت ولمحت بين الأوراق قزما صغيراً ينظر ناحيتنا . . أنه واحد منهم . . وجهه . . رأسه . . لونه المشمشى . . لاشك فى ذلك !

وروى ما شاهده لزملائه من البيض والسود فى القافلة . . وضحكوا .. وامتدت بعض الأيدى إلى رأسه لعله محموم . . أو لعلة يهذى . . ولكنه

كان على يقين مما أحس ومما رأى . . وقال له أحد خبراء اقتفاء الأثر : لايمكن أن يعيش الأقزام فى هذه المنطقة ففيها الكثير من ذباب تسى تسى . .

ذلك الذباب الذى يلسع ضحاياه فيظل الضحية نائما حتى الموت !

وكانت فى طريقهم جزيرة .. الجزيرة صخرية . عالية . صعدوا إلى أعالى الجزيرة فيها كهوف كثيرة . . وعندما انعكست أشعة الشمس على مدخل أحد الكهوف برقت ولمعت بعض الألوان . . إنها إحدى اللوحات البدائية .. رسوم لحيوانات وطيور . . الألوان فى غاية الحيوية . . أما هذه الأكف الصغيرة على جوانب هذه الرسومات فلا بد أنها إمضاء الفنان البدائى . وهذه الأكف الصغيرة لابد أنها توقيعات الفنانين . حتى البدائى لايستطيع أن يفعل شيئاً دون أن يقول : أنا فعلت . . وهذا الامضاء ليس إلا هذا المعنى . مع أنه لايدرى ذلك . ربما قصد أن الأرواح هى التى سوف تراقب أعماله وهجراته من مكان إلى مكان . . الأرواح ؟ نعم هذه أرواح ؟ !

ودارت مناقشة حول إمكان أن تكون هناك أرواح طيبة أوشريرة . . وتعالت الأصوات وقال أحد خبراء اقتفاء الأثر : نعم هنا . . وسوف ترون !

ولم يكد يكمل هذه الجملة حتى سمعوا صراخا من الرجل الأبيض الذى جاء يصور الرحلة بالأفلام . إن الكاميرا لاتعمل مطلقا . يحاول فتح العدسة أو توسيعها أو تضييقها . . إنها لاتتحرك إطلاقا . وتعالت صرخات الزنوج فى نفس واحد وقالوا : إنها الأرواح !

ولم يجد فان دربوست إلا وسيلة واحدة لاسترضاء الأرواح . فقد أنذر أعضاء القافلة بألا يرفعوا أصواتهم وألا يتشاجروا . . ولكن واحداً من الزنوج أنذره مرة أخرى : أن هذا لايكفى !

وامتدت يد فان دربوست إلى قلم وورقة وكتب اعتذارا للأرواح

عن هذه الضوضاء التى أفسدت جمال وجلال الكهوف . ثم وضع الورقة تحت شجرة حددوها له . .

وتعالت صرخة مصور القافلة : إن الكاميرا تتحرك . . وتحركوا جميعا وهم لايفهمون ماذا حدث . ولا كيف حدث . .

ومن النظر إلى بقايا الطعام على الأرض .. وآثار الأقدام والأعشاب أعلن واحد من الزنوج أن الأقزام كانوا فى هذه المنطقة ثم رحلوا منذ أسبوع على الأقل . . ولكنهم بعيدون من هذا المكان . . ثم رأوا آثار أقدامهم على الأرض . . الأقدام صغيرة جداً . وهم إذا ساروا فإنهم يمشون على أطراف أصابعهم . . ولذلك فأصابع القـــدمين غائرة فى الأرض . . أما الكعب فلا أثر له !

وفجأة . . رأوا قزماً صغيراً جداً وقد لف جلد أسد حول خصره . إنه قزم فى لون المشمش . تمام . وعيناه واسعتان . مضبوط . وفى يده سهم . يصيد أرنبا بريا فى براعة . ثم يمسكه من أذنيه . ويتوارى به بين الأشجار . ثم يعود بسرعة إلى مكان الأرنب ويضع الطين على دمائه التى سالت حتى لاتهتدى الحيوانات إلى الأرنب . . واقتربوا من القزم . ولم يخف . ولم يهرب وإنما ظل واقفا كأنه على موعد . والتفوا حوله . . ووقف الرجل القزم وتحدثوا إليه إنه فى غاية الرقة . ليست فى نظرته أية رغبات عدوانية . لاشىء مما تقول الكتب وأحس فان دربوست أنه من الضرورى أن يعترف بشىء . يقول فى مذكراته : مجرمون جميعا أجدادنا . مجرمون سفاحون . إن هذا الإنسان الذى يقف أمامى فى غاية الرقة . إنه أرق بكثير جداً من الأوروبيين الذين التقوا على الحدود . . الألمان والفرنسيون مثلا . . الإيطاليون والنمسويون مثلا . . إنهم فى منتهى الوحشية . . أنتم وحوش أيها البيض ؟ !

وعندما سألوه عن بقية الأقزام قال إنه سوف يعود غداً . . وانصرف !

وكاد بعض الزنوج والبيض أن يطلقوا النار على إحدى ساقيه ليعطلوه ، أو يأخذوه رهينة لأنهم لا يضمنون صدق ما يقول . .

ولما انصرف القزم كانت العدسات تلاحقه . . وكذلك آلات التسجيل . . وقرروا المبيت فى نفس المكان . وفى الصباح جاء الرجل القزم ومعه زميل له . . ولا يزال الهدوء والبساطة والسماحة هى طابع كل منهما . . واقترب الاثنان . . وسئل القزمان أين توجد بقية القبيلة . .

فأشار الاثنان إلى مكان وراء هـــذه الغابة . وتحرك الجميع معا . . واخترقوا الغابة . . ومن فوق أحد التلال رأوا قبيلة بأكملها . . يبلغ عددها ثلاثين من الرجال والنساء والأطفال . والرجال قد صادوا بعض الحيوانات والنساء يعملن على تسوية هذا اللحم الطازج والأطفال الصغار يلعبون . . ونزل المطر من السماء . . وبسرعة اختفت اللحوم . . واختفى الجميع . وفى لحظات عادوا يرقصون للمطر ، رقصة الشكر . وبعد ذلك . تعالت الطبول . إنهم يصلون للشمس عند الغروب . . وقبل غروب الشمس بقليل عادوا يقفون متجاورين . ثم يرفعون أيديهم . . ويختفون بين الأشجار فى بيوت مصنوعة من أغصان الشجر ومن الأعشاب . إن هذه البيوت أشبه ببيوت النحل . وكان كل شىء قد تم فى هدوء وسلام .

لم يكن فان دربوست يريد شيئاً . فقط أن يرى هؤلاء الناس وأن ينقل للرجل الأبيض تصحيحا لهذه الصـــورة القاتمة الكاذبة عن أناس مثلنا لهم حياة خاصة .. يعيشون فى سلام . لاهم وحوش .. ولاهم قساة ولاهم كاذبون . يأكلون من ثمار الشجر وأعشاب الغابة وحيوانات البر والبحر وهم ضحايا الشمس والمطر والمرض والبعوض والذباب وهم ليسوا فى حاجة إلى أسلحة الرجل الأبيض لكى يموتوا . . إنهم ينقرضون من تلقاء أنفسهم !

وتلفت فان دربوست إلى الجميع وقال : الآن يجب أن نعود ، انتهت رسالتى . وتحققت أمنيتى . ووفيت بما وعدت . وأرحت ضميرى !

وقبل أن يعود فان دربوست قرر أن يودع هؤلاء الأقزام . . فدعاهم . . ووزع السكاكين على الرجال والمناديل على النساء . . والطعام على الجميع . . وتعالت دقات الطبول لوداعه . .

وقرر هو أن يودعهم على طريقتهم . . فنزع ملابسه ووقف عاريا وارتدى جلد الأسد حول خصره . ورفع يديه إلى السماء ليصلى . . وقبل أن يعتدل فى وقفته كانت سهام الزنوج ونبالهم قد اتجهت إليه . . وبسرعة ألقى بنفسه على الأرض رمزا للاستسلام وارتدت السهام والنبال . وسأل عن الذى أغضبهم وأثارهم عليه فقالوا : إنهم يخافون أن يجلب النحس عليهم فقد لبس جلد الأسد بالمقلوب !

من عينيها ..
خرج آخر سباق
دولي للقمح!

هل تؤمن بالصدفة ! من المؤكد أنك تؤمن بها . وهل الحياة من أولها لآخرها إلا مجموعة من الصدف ؟ اختلفت الآراء حول الإجابة عن مثل هذا السؤال ولكن الذى يقول إن كل شىء صدفة ، يجعل وجودنا تافها ، ويجعل الوجود كله بلا حكمة أرادها الله . ولكننا فى مثل هذه المرحلة الصغيرة الضئيلة من حياتنا ، لانعرف حكمة حياتنا ولا حكمة الوجود كله ولا حكمة الله فإننا أصغر وأتفه من ذلك . . ولكى يكون هذا واضحا عليك أن تسأل أقرب نحلة أو نملة – إن استطعت – عن سر اختراع الانسان للصواريخ عابرة القارات .

احتفظ بهذه المعانى فى رأسك بعض الوقت وأنت تقرأ قصة هذا الشاب الصغير أريك نيوبى (١٨ سنة) عندما كان فى العشرين من عمره كتب فى مذكراته يقول : فى هذا اليوم غضبت مع واحد من إخوتى ، وقررت أن أترك ايرلندا وأذهب إلى فرنسا . . لا أعرف فى فرنسا ولا منها ولا عنها أى شىء غير أن نابليون أعظم قائد فى التاريخ . . من أجل ذلك قررت أن أهرب . .

ويقول أيضا : وفى هذا اليوم رأيت مرجريت . . صدفة . . تمنيت أن أكلمها فى أى شىء .. أن أقول لها إننى أحبك .. واقتربت منها ... وتصادف أن جاء أخى . . ويبدو أنه كان يعرفها . . فسلمت عليه ، ورحبت به . . وكان فى عينيها نوع من الترحيب العام به . . وبى . . وبكل الدنيا . . وهنا قررت أن ألقى بنفسى فى الماء . . وصدفة . . وجدت أبى ومعه والدتى

فى الطريق إلى الكنيسة . . ومن عينى أمى الرقيقتين الجميلتين تدفق تيار من الرحمة والحنان . . ومدت يدها . . ومددت يدى ونفسى . . وأعطيتها كل شئ . . وأعطتنى ، واحتميت فيها . . وعدت . .

ويقول أيضا : وفى الصباح صارحت أمى بأننى لابد أن أكون بحارا ، وقال أبى : إذن تريد أن تكون رجلا ، لقد أسعدتنى ياولدى ، أنا أحب الرجولة المبكرة! وقالت أمى: ولكنك لم تكمل تعليمك بعد .. بل لم تتعلم أى شئ . وقال أبى : الحياة أكبر مدرسة .. وأين تعلمت أنا .. وأين تعلمت أنت . . إننى أفضله على أخيه الذى يريد أن يكون زوجا وأبا . . إنه إنسان بلا طموح والفتاة التى اختارها لاتختلف كثيراً عن أمها . سوف يكون لها عشرة من الأولاد ! .

وبعد عشرين سنة أخرى كتب أريك نيوبى يقـــول فى مذكراته التى عنوانها « آخر سباق للقمح فى العالم وفى التاريخ » : لو كنت ذهبت إلى الميناء وأنا فى الثامنة عشرة من عمرى ولم أجد هذه الفتاة مرجريت لتغير شىء كثير فى حياتى وحياة غيرى . . ولكن عندما ذهبت إلى الميناء وجدتها هناك . . كانت قلقة . . أو كان قلقها نوعا من السخرية . . كأنها تريد أن ترانى . . أو لاتريد أن أراها فى هذه اللحظة بالذات . . وصدفة . . جاء قبطان طويل عريض أعرفه . . وأعرف أن له سفينة ضخمة ، قلت له : سيدى . . أريد أن أعمل معك . . وفى هذه اللحظة نظر القبطان ناحيتى وكأننى فأر قفز فى جيبه فقال : مات من رجالى كلب صغير . . يمكنك أن تحل محله . . هل لك أب ، فقلت : طبعا . فكان رده وكأنه ينفض هذا الفأر بحذائه الغليظ : ولماذا طبعا . . أنا شخصيا لا أعرف لى أبا . . وسوف تعرف أن المحيط ليس له أب ولا أم . . ولا العواصف ولا الشمس ولاالقمر.

إنها صدفة أخرى .. فقد كانت مرجريت واقفة. وتأكدت تماما أن قلقها لم يكن إلا نوعا من الرغبة الشديدة فى أن أذهب من طريقها . . أو أن أختنى

فى ستين داهية . . لأن الذى يقـــارن دائما بينى وبين أخى . . يرانى أفضل ويراها مصدر تعاسة له . . وكان هناك اتفاق بين كل الظروف . . فقد ظهر أبى فجأة . . لا أعرف كيف . . ويبدو أنه كان يعرف القبطان . . نحن الآن ثلاثة : القبطان وأبى وقد بدا قصيرا أكثر مما كنت أتصور . . ومرجريت وفجأة طالت قامتها أكثر مما اعتدت أن أراها . . أما أنا فأقصر وأصغر الجميع . . أى أننا أكثر من ثلاثة . . ومن الغريب أننى أقول دائما . كنا ثلاثة مع أننا كنا أربعة . . ووافق أبى على سفرى معه . . وبسرعة انتقلت عيناى إلى مرجريت والآن عرفت كل شئ . . إنها استراحت إلى هذا القرار وفى نفس الوقت لاتصدقه . . فأنا أصغر من ذلك بكثير . . وهكذا تصورت أن هذا ما يدور فى رأسها . .

وبسرعة حدث كل شئ . .

فى ذلك الوقت من التاريخ كانت السفن الشراعية فى العالم كله قليلة . . ربما كانت عشر سفن قادرة على عبور المحيطات . . وكان يملك هذه السفن رجل من فنلندا ومهمة هذه السفن هى نقل القمح من استراليا إلى أوروبا . ولا يمكن أن يكون صاحب هذه السفن من الهواة ، إنه تاجر يكسب ، وواضح أنه يكسب كثيراً ، والغلال لاتفسد ولا تتكسر بالسفر الطويل بين القارات . . ثم إن الغلال ليست كالفاكهة موسمية ، يجب أن تصل فى موعد محدد حتى تكون « فاكهة الموسم » وفى نفس الوقت دون أن يصيبها العطب . . وكانت هذه السفن تدور حول رأس الرجاء الصالح — أى حول أفريقيا — أو حول رأس هورن — أى حول أمريكا الجنوبية . .

وفى القرن الماضى كانت رحلة السفينة الشراعية من استراليا إلى إنجلترا تستغرق مائة يوم . . وبعد ذلك استطاعت سفن شراعية أكبر أن تقطع هذه المسافة فى أيام أقل ففى سنة١٨٦٨ استغرقت رحلة السفينة الشراعية (ترومبليه) ٦٣ يوما . . أما المسافة فهى ١٥ ألف ميل . .

وبعدها جاءت سفن أخرى تنقل الشاى من الصين إلى إنجلترا عبر قناة السويس التى انفتحت سنة ١٨٦٩ ، ثم جاءت سفن أخرى وقامت بنقل الصوف من استراليا . وفيما بين سنتى ١٨٨٥ و ١٨٩٥ كانت الرحلة تستغرق ثمانين يوما ونصف اليوم من استراليا إلى بريطانيا حول أفريقيا وتستغرق أيضا اثنين وثمانين يوما ونصف اليوم إذا مرت حول أمريكا الجنوبية .

أما رحلة هذا الشاب أريك نيوبى فقد كانت فى سنة ١٩٣٨ ، ففى ذلك الوقت كانت هناك سفينة ضخمة رشيقة ممدودة تشبه كلاب الصيد . واسمها موشولو . . وكان قبطان هذه السفينة اسمه جوستاف الرهيب . . وعندما توقفت السفينة تفرغ ما بها من شحنات القمح تقدم شاب صغير إلى القبطان وألقى أمامه ورقة وهرب . . ويقول الذين رأوا القبطان أنه مد يده وفتح الورقة وتركها تسقط على الأرض ثم داسها وأفرغ كوب البيرة فى فمه واستدار يطلب المزيد ، وفى اليوم التالى جاء هذا الشاب وقال للقبطان إنه يريد أن يكون ضمن رجاله وسمع الناس القبطان يقول : تريد أن تكون كلبا بين الخنازير التى معى . لا مانع . .

وهذا يختلف تماماً عما رواه الشاب أريك فى مذكراته. ولكنه على كل حال وافق على أن ينضم هذا الكلب الصغير إلى حظيرته المسماة موشولو . . ووافق الأب أيضا وأعلن القبطان للأب أمام الابن أنه غير مسئول عما يحدث للابن كأن يهرب فى أحد الموانئ . . أما إذا أخطأ فسوف يطبق عليه القانون الفنلندى ، فصاحب السفينة فنلندى والقبطان أيضا ، وإذا مات أثناء العمل فسوف يدفعون له تعويضا .

وبعد أن أفرغت السفينة حمولتها من القمح ، وبعد أن وضعوا فيها أثقالا من الحديد وبراميل بها ستون طنا من الماء العذب ، نشرت السفينة أشرعتها الأربعة يوم ١٨ أكتوبر سنة ١٩٣٨ فى طريقها من ميناء بلفاست بايرلندا إلى ميناء لينكولن باستراليا . . أما الرحلة بالنسبة لهذا الشاب فقد

بدأت قبل ذلك بيوم واحد . . أو على الأصح بساعات ، فلم يكد الشاب الصغير ينتقل إلى ظهر السفينة حتى سمع القبطان الرهيب يقول صارخا : اصعد السارية بسرعة . . إلى آخرها ! وكانت صرخة القبطان . . مثل طلقة نارية موجهة إلى الشاب أريك . . إليه هو وحده . عينا القبطان ويده كلها تؤكد هذا المعنى ، وقال الشاب : يجب أن أخلع حذائى . . وقال القبطان اخلع حذاءك واصعد . .

أما ارتفاع الشراع فهو ١٩٨ قدما . . وهو أعلى سارية فى العالم . . وكان مغطى بالزيت ومبللا بالماء . . وبدأ البحار الصغير يتسلق السارية . . وجاء صراخ من القبطان يقول له : إذا أصدرت إليك أمرا فيجب أن تردده ورائى . . اخلع الحذاء واصعد إلى آخره . وردد البحار الصغير : اخلع الحذاء واصعد إلى الآخر وصرخ القبطان : لم أقل ذلك . وتنبه الشاب وقال : اخلع الحذاء واصعد إلى آخره . .

وتسلق حتى آخر الشراع . .

ثم نزل ، لم يكن الغرض من هذا الصعود سوى أن يدخل فى طاقم السفينة بسرعة وأن يطيع الأوامر ، وأن يتحول إلى قطعة من قطع السفينة لا رأى له ولا إرادة . إنه فقط ينفذ أوامر العقل الكبير : القبطان الرهيب .

وأكد له القبطان : أن الذى تفعله هنا بالقرب من الميناء سوف تفعله مرات أثناء العواصف التى تزيد سرعتها عن السبعين ميلا فى الساعة .

وكانت الرحلة بعد ذلك شاقة ، ولكن أحدا من طاقم السفينة لايندهش لما يفعله المحيط بالسفينة ولا لما تفعله الرياح بالشراع . وأعمال النظافة تتم فى الساعة السادسة من كل يوم ، وكل واحد يؤدى عمله ساعات محددة بشرط أن تكون الأحوال الجوية حسنة أما إذا ساءت ، فالكل يجب أن يعملوا . . وبسرعة يستمد البحارة من البحر غضبهم ومن العواصف قسوتهم ، ومن الزمهرير جمودهم ومن الموت تحديهم له . .

ووصلت السفينة إلى استراليا . أما المغامرة الحقيقية التاريخية فهى فى طريق عودتها إلى ايرلندا . . فالسفينة قد حملوها بستين ألف جوال من القمح ولا بد أن تعود إلى إيرلندا عن طريق رأس هورن — أى مارة بالطرف الأقصى لأمريكا الجنوبية رحلة عادية وقد استغرق شحن السفينة حوالى الشهرين . وفى الميناء صعد الشاب سارية السفينة ، وعندما نزل فوجئ بأن القبطان يسأله : من الذى أمرك ؟ وردد الشاب وراءه : من الذى أمرك ، وقال القبطان : ليس هذا أمراً إنه سؤال ! وقال الشاب ليس هذا أمرا إنه سؤال . . .

وضحك القبطان . . وهنأ طاقم السفينة هذا الشاب لأنه استطاع أن يجعل القبطان يضحك فى هذا اليوم ، واحتفلوا بهذا اليوم السعيد فذبحوا واحدا من الخنازير الثلاثة الموجودة فى السفينة ، وكان عليهم أن يأكلوا الخنزير كله ، فليس فى السفينة ثلاجة يضعون فيها ما يتبقى من اللحم ، وشربوا حتى سكروا تماماً ، وأقلعت السفينة واتجهت إلى الشرق . . الجو بارد جداً ، الموج مرتفع الهواء يستجمع قوته ليكون عاصفة ، كل شئ يدل على ذلك ، أشرعة السفينة تهتز ولكن واحدا منها لايمتلئ . . القبطان دائم النظر إلى السحب ، ولكنه رجل مدرب فقد هز رأسه دليلا على أن شيئا خطرا لن يقع ، وهبط لينام ، ونام ، وكل شئ حول السفينة قد نام وعندما صحا ، كان كل شئ ينتظره ، السحب ازدادت سوادا والموج ازداد ارتفاعا والعاصفة تعتصر السفينة والخنازير والبحارة فى حالة هياج فوق السفينة .

وفى الليل ، أى بعد يوم ١٥ مارس سنة ١٩٣٩ بعد إبحارها من ميناء لنكولن باستراليا بأسبوعين قرر البحار الصغير أن يصعد السارية ويلقى بنفسه فى البحر لماذا ؟ لم يعرف سببا لذلك ، ويقول إنه رأى والدته فى النوم. ويقول إنه رأى مرجريت . . وعندما فكر فى تنفيذ هذا القرار كان البحر هائجا والسفينة تتساقط فى كل الاتجاهات ولا يوجد أحد على ظهر السفينة . .

لا أحد ، والليل مخيف وهو ما يزال شابا صغيراً وما يزال الطريق طويلا رهيبا إلى ميناء كوينزتون بايرلندا .

وفى نفس الوقت كان يسمع من القبطان أن سفينة شراعية أخرى سبقتها منذ شهرين..قد أقلعت قبلها يوم ١٦ فبراير ، السفينة اسمها فايكنج .. وهى المنافسة الوحيدة لها .

وأبحرت سفينة أخرى اسمها بامير يوم ٨ مارس أى بعدها بأسبوع .

وسفينة ثالثة اسمها باسيت أبحرت يوم ٩ مارس .

وبعد أيام هدأت الريح ، ولكن الجو بارد ، والموج جبال ، والقبطان عيناه فى بريق النجوم ، ووجهه مكفهر كالسحب ، وصوته كالرعد ، وليس من المتوقع ، لأى سبب أن يضحك ، الكل يؤكدون ذلك . . ثم إن واحدا من البحارة قد أخبر أريك الصغير أن هذا القبطان كانت له زوجة هربت مع بحار صغير وتركته ، وهذا هو سر قسوته عليك . ثم إنك تشبه هذا البحار الذى هرب مع زوجة القبطان .

* * *

ومنذ ذلك اليوم راح أريك الصغير يغطى وجهه ، حتى لايراه القبطان أو حتى إذا رآه لايستعيد ذكرياته الأليمة ، إنه شاب صغير وأفكاره صغيرة أيضا ، ولم يناقش ما قاله هذا البحار المخمور ، فلا وقت للتفكير فى أى شىء ، فالموت على رقاب وتحت أقدام وفى جوانب وعلى شفاه الجميع !

لاشىء يراه أى إنسان غير الماء والسحاب .. والاثنان من لون واحد . وكل شىء على مدى ألوف الأميال . . إنهم على مسافة خمسة آلاف ميل من رأس هورن ، أقصى أمريكا الجنوبية . .

وفى أحد الأيام قرروا أنهم سعداء جداً . . لماذا . . إنهم مروا بخط

الطول ١٨٠ وعليهم بعد ذلك أن يعيشوا يوما آخر . . فعند هذا الخط يعيش الإنسان اليوم الواحد يومين . . (أنا شخصيا مررت بهذه التجربة . . فعندما سافرت من طوكيو يوم ٧ نوفمبر وصلت إلى جزر هاواى يوم ٦ نوفمبر . . فكأننى عشت يوم ٦ مرتين ، ويوم ٧ مرتين أيضا !) ولكنهم تشاءموا ، فقد كان يوم عبور هذا الخط يوم جمعة . . ولو كان يوم الأحد لعاشوه مرتين !

وقال أحد البحارة المخمورين : ان هذا اليوم لن يمر فى سلام ، ولما سألوه قال انه يعرف ذلك ، ولما استوضحوه قال . إذا رفع الخنزير رجله اليمنى عند الذبح فهذا نذير شؤم علينا جميعا !

وقد صدقت هذه النبوءة ، فلم يكن أسوأ من ذلك اليوم فى الرحلة كلها ، وكان على البحار الصغير أن يظل يجرى من أول السفينة لآخرها يربط الحبال ويعقدها ويأتى بالخرائط للقبطـــان من تحت ومن فوق وطلب إليه القبطان أن يضاعف كمية الشاى الساخن الذى يشربه حتى لا ينام .. وأن يظل طوال الوقت عند قدميه .. نعم عند قدميه ، ألم يقل إنه كلب من الكلاب ؟ فعلا إنه واحد منهم ، بل إنه أقرب الكلاب إلى القبطان .. أو أبغضهم إليه .. أو الذى لا ينساه أبدا .. بل إنه يناديه باسمه عشرات المرات فى اليوم الواحد .. ونام أريك الصغير من شدة التعب وتراجع برأسه إلى الوراء ، فاصطدم بالقبطان .. ونهض خائفا وهو يقول : نعم يا سيدى . سوف أصعد فورا !

وانطلق أريك يصعد السارية من جديد .. وتشاء الصدفة العجيبة أن يكون صعوده فى الوقت المناسب ، فقد كان الشراع قدبدأ يتمزق ، ولكن أريك الذى لا يدرى مصـــدرها استطاع أن يعيد رباط الشراع وكانت العواصف شديدة .. وظل يواجه الشراع والموت والعواصف وحده ساعتين. وهبط إلى ظهر السفينة ليجد القبطان فى انتظاره ، وقد أخذه إلى غرفته وملأ جوفه بالكونياك ووضع عليه أغطية كثيفة ، والشاب الصغير فى ذهول

ولكن عيون البحارة تؤكد له أنه حقق معجزة ، فلولا أنه صعد فى الوقت المناسب ودون أن يطلب إليه أحد ذلك ، لتحطمت السفينة تماما . واندهش أريك كيف أن القبطان لم يقل له : اصعد إلى السارية فورا . . انه يقسم بالله أنه سمع ذلك، ولكن القبطان ضحك .. وقال له: لقد أنقذت السفينة ، ولكن لا تفعل شيئا دون أمر .. ولا تردد هذه العبارة ورائى !

وذبحوا واحدا من الخنزيرين الباقيين وكانت ليلة سعيدة ..

وطلعت الشمس .. وغابت .. وظهر القمر .. والجو يزداد دفئا.انهم الآن متجهون إلى الشمال .. إلى قرب خط الاستواء . . ولون البحر يتغير من الرمادى إلى الأخضر ثم إلى الأزرق والدفء المنعش .. ثم الحرارة الشديدة .. ولكن الجو محتمل الآن .. وفى الصباح الباكر صعد واحد من البحارة إلى قمة السفينة ورأى سفينة شراعية من بعيد وسأله القبطان أن يصف أعلامها .. ولكنه لم يستطع أن يرى الأعلام ، وصعد بحار آخر وفى يده التلسكوب ووصف أعلامها .. من الغريب أنها سفينة فايكنج التى أبحرت قبلهم من استراليا .. وكان ذلك يوم ٩ أبريل عيد الفصح .. وأحسوا جميعا أنه يوم عيد حقا .. لقد خرجت هذه السفينة قبلهم بشهر .. إذن لقد أدركوها ، وسوف يسبقونها ، انهم يمشون أسرع .

وأعلن القبطان الرهيب أن أيام العيد قد انتهت ، وأنه يعدهم بإجازة طويلة على الشاطئ . ومن الضرورى أن يصلوا إلى ايرلندا قبلها ، لا نوم بعد اليوم ، الكل على ظهر السفينة ، ولابد أن يسبقوا هذه السفينة ولو بشبر واحد وليبتلعهم المحيط بعد ذلك ! ..

الأمطار غزيرة ، المياه قد ملأت جوف السفينة ، ولكن جوالات القمح قد تغطت بالشمع السميك .. والمهم عندهم ألا يروا هذه السفينة .. إنهم جميعا يتجهون إلى المناطق الدافئة ، فالأحوال أحسن ، والقبطان كأنه مضبوط على أشعة الشمس ، كلما تسللت من وراء السحب ، تسلل الابتسام إلى وجهه ..

وفى أول مايو بلغت حالة اليأس أقصى مداها على ظهر السفينة حتى لقد ألقى البحارة بأنفسهم إلى الماء يسبحون بالقرب من السفينة وقد ربطوا أنفسهم بالحبال .. ان الموج أرحم من السفينة . أما أريك الصغير فقد ربط نفسه فى أحد الأعمدة ، وقد جمعوا الأشرعة تماما ، حتى تظل السفينة أقل اندفاعا .. وتوالت الساعات كأنها السنوات .. واقتربت السماء من المحيط ، وكأن السحب والموج تريد أن تسحق السفينة تماما وهذا واضح ، ولا أمل فى النجاة ، ولكن القبطان كان كأنه يتفرج على تمثيلية قد رآها قبل ذلك عشرات المرات. فظهر على وجهه الكثير من الملل .. وكأنه يعلم أن الموج لا يعنى ما يفعل والرعد لا يعنى ما يقول ..

وبعد ذلك بأيام تحسنت حالة البحر ، وقرر أريك أن يبعث برسالة .. ولكن إلى من؟ إلى أى أحد، وأن يضع الرسالة فى زجاجة وأن يلقى بالزجاجة فى المحيط ، ولكن ما الذى يقوله ؟ كتب أريك فى الرسالة يقول : لا أريد أن أعيش بعد اليوم ، تعبت ، مع أننى ما أزال صغيرا ، ولكن الطريق الذى اخترته صعب ، ولا أعرف ما الذى دفعنى إليه ، . هل حقد أخى على .. هل هى غيرتى منه .. هل هى نظرة الاستخفاف فى عينى مرجريت .. هل هو الهرب من المدرسة .. هل أمى أسرفت فى حسن ظنها .. فهى تتصور أننى سوف أعوضها عن أخى .. وعن أخى الذى مات قبله .. إننى أشعر بأننى سفينة بلا شراع ولا دفة ولا بحارة ولا قبطان .. لذلك يجب أن أنهى حياتى بيدى .. ولكن لن يعرف ذلك أحد ..

ثم وضع الرسالة فى زجاجة وأقفل الزجاجة بإحكام وبدلا من أن يلقى بها فى المحيط ذهب إلى القبطان وطلب إليه أن يعطى هذه الزجاجة لوالده .. وأمره القبطان أن يفتحها وأن يقرأ ما كتب .. وضحك القبطان وصفعه بشدة على وجهه ، وهو يقول . إننى أرى شبابى فيك .. أعجبتنى رجولتك .. انى طردت زوجتى من البيت لأنها قررت أن يكون ابنها إلى جوارها وليس

إلى جوارى .. أردنه رجلا وأرادته امرأة .. ثم ظل يضربه بيديه ورجليه .. وأغلق الباب عليه ..

وبعد ساعة عاد إليه ، وطلب إليه أن يستحم فى المحيط وأن يغير ملابسه وأن يتناول عشاءه معه ..

وعلى مائدة العشاء جلس القبطان والبحار الصغير ، والبحارة من حولهما يشربون ويغنون .. لقد سبقوا السفينة « فايكنج » لأنهم قطعوا ١٥ ألف ميل فى ٩١ يوما . أما السفينة التى رأوها فقد تخلفت عنهم عشرين يوما ، ولم يدركوا جميعا أنهم كسبوا سباق القمح الدولى .. إنه أول وآخر سباق بين السفن الشراعية عابرة المحيطات .. أما البحارة فيقولون الفضل للقبطان الرهيب .. أما القبطان الرهيب فيقول – الفضل للبحار الصغير .. أما البحار الصغير فيقول – بل بسبب نظرة استخفاف من فتاة كنت أتمنى أن تحبنى !..

١٥ ألف ميل قطعها
على ظهر حصان !

شاهدت القاهرة منذ سنوات « الأوبرا الزنجية » المشهورة باسم « بورجى وبس » .. وفى هذه الأوبرا نجد رجلا مكسحا يتحرك على قاعدة خشبية لها عجلات وتجره ماعز سوداء وهو يحب بطلة الأوبرا .. وهو صادق فى حبه . وهذا الصدق هو الذى يجعل لأحداث الأوبرا طعم العسل والمر معا .. فهو حب مضحك ولكن يبعث على الحزن أيضا .. وعندما عرف هذا المسكين أن حبيبته قد سافرت سأل الناس — وأين مدينة نيويورك ؟ فأشار الناس إلى الناحية اليمنى من المسرح .. أو بعضهم أشاروا على الناحية اليمنى ، التى هى ناحية المقابر أيضا ، وسألهم : فى هذا الاتجاه توجد مدينة نيويورك ؟ قالوا : نعم ..

واتجه المحب الولهان العاجز إلى ناحية نيويورك على هذه القاعدة الخشبية ذات العجلات الأربع ليلحق بمحبوبته التى هربت مع شاب عملاق .. ولكن أحد من الناس لم يقل له إن نيويورك تبعد عن هذا المكان خمسة آلاف ميل !

وعندما اتجهت به الماعز إلى نيويورك اتجه الناس إلى الباب الخارجى من المسرح فقد نزل الستار !

شاب آخر سويسرى نهض من النوم ليقول إنه لابد أن يسافر إلى نيويورك ولم يخجل الناس أن يضحكوا منه . أو يضحكوا عليه . هذا الشاب ولد فى سويسرا سنة ١٨٩٥ واسمه ايمى تشيفلى . كانت طفولته عادية . بلا أحداث ، ككل طفولة السويسريين .. وسافر إلى انجلترا .. وتعلم هناك . وبعد ذلك سافر إلى الأرجنتين وأقام فى مدينة بونس ايرس وكان رياضيا

فى غاية القوة . ولم تكن عنده أية رغبة فى المغامرة . إنه جاد فى حياته ومنظم وهادئ ونظيف — سويسرى مائة فى المائة !

وفى أحد الأيام كان يقلب فى أحد الكتب بعد أن تناول طعام الإفطار . وقف مرة واحدة وقال لخمسة كانوا يجلسون معه : اليوم ياسادة اتخذت قرارى الكبير سوف أذهب إلى نيويورك على ظهر حصان .. وليست هذه قضية أعرضها عليكم !

وصدق الناس هذا القرار لأنه رجل جاد .

وانتقل إلى تنفيذ القرار بسرعة . ذهب إلى السوق واشترى حصانين وساعدته صحيفة« لاسيون » فى تكاليف هذه الرحلة ،فى نشر أخباره وتشجيعه ولكن هذا القرار لم يكن عملا جنونيا أو نزعة طائشة . فهناك تصرفات واهتمامات كثيرة تدل عليه . فهو مهتم جدا بالخيول .. وخصوصا بالخيول الكريول وهى أجود أنواع الخيول فى الأرجنتين أو فى العالم . وهى قادرة على تحمل السفر والمشى مسافات طويلة . وهذه الخيول قد أتى بها الأسبان إلى أمريكا فى القرن السادس عشر . وأهم من ذلك أن هذه الخيول لا تتأثر بالتغيرات الجوية .

أما المسافة التى يجب أن يقطعها فى الجبال والمستنقعات والغابات والوديان والوحوش والمتوحشين فهى عشرة آلاف ميل ..

اشترى حصانين . . كلاهما قصير العنق . ولكن له كتفان قويتان . وله أرجل رشيقة . وهو يقاوم أية محاولة لربطه أو تقييده . ولكن إذا وضع السرج عليه واللجام فى فمه فإنه يصبح تمثالا لحصان . وفى غاية الاتزان . وكانت خطة « ايمى » أن يركب حصانا ويترك الثانى يمشى وراءه .. ثم يركب الثانى . . وبعد ذلك يستريح الثانى ويمشى هو بعض الوقت ، إنه يريد أن يستريحوا هم الثلاثة قدر الإمكان ..

وبدأت الرحلة . وكانت البداية أول الأمر قاسية عليه هو . فمع موسم الأمطار فى الأرجنتين توحلت الطرقات وقد سار فى طريق ضيقة أول الأمر . ومضوا يخوضون بحرا من الطين . وبعد ساعة من الرحلة سقط واحد منهم ميتا . لقد رافقهم كلب صغير . واقترب من أحد الحصانين فرفسه فقضى عليه فى الحال . وانزعج « ايمى » ولكن لا وقت للأحزان ولا داعى للتشاؤم ومضى فى طريقه الطويل ..

وانقطع نهار طويل ثقيل أسود .. وفى الليل ذهب إلى مراكز الشرطة وربط الحصانين هناك . وأوى إلى أحد الفنادق الصغيرة . فندق ريفى طبعا . الغرفة بها أربعة أشخاص يأكلون ويشربون ويدخنون . وإذا تعب النزيل وأغفى قليلا أيقظته الحشرات . وخيرا فعلت هذه الحشرات فقد سمع حركة غير عادية . ونهض ليجد أحد اللصوص يريد أن يسرق الحصانين . وكان الفندق ملاصقا لمركز الشرطة .

ومضى يوم آخر وتوقف عند أحد الفنادق . وكان عليه أن يلقى بالمراتب على أرضه وينام على الحديد . فالحديد أرحم بكثير من الحشرات .. واستأنف الرحلة متجها إلى شمال الأرجنتين . الأرض واسعة . الوديان سحيقة . الطريق ملئ بالمطبات . والأشجار الشائكة . والأمطار لا نهاية لها . والطريق خانق . ولم يكن يضايقه إلا السيارات التى تتلوى كالثعابين ولو انحرفت قليلا لأطاحت به هو والحصانين إلى الموت ..

وكان عليه بعد ذلك أن يختار طرقا أخرى فى بطن الوادى .. وألجأته العواصف الشديدة إلى أن يأوى إلى أحد الحقول . وفى أحد الحقول وجد جماعة من الفلاحين يجلسون حول النار . واقترب منهم ودعوه على الفور أن يجلس . وجلس . وقدموا له الطعام . فأكل وملأوا أكواب « البربا » — نوع من الشاى — وشرب . ثم أقسموا عليه أن يأكل « الأسادو » — نوع من اللحم الساخن الجاف — فأكل وأكل . وأدركه النوم فدفعوه إلى إحدى

الغرف ليستريح ، والغرفة مليئة بالدخان . والرؤوس والسيقان متقاربة . ونام . واستراح واستأنف رحلته من جديد ..

الطرق واسعة .. كل شئ واسع طويل عميق كثير .. شئ ممل . ولكن بين الحين والحين يجد قرية صغيرة ، ويخرج من القرية بعض الأطفال ووراءهم بعض الكلاب .. ينبحون جميعا ثم يجئ الهدوء والاتساع يأكل الصوت والصدى معا . ويخيم على كل شئ ملل رطب ، أو رطوبة مملة !

أمامه الآن هدف واحد هو أن يصل إلى حدود بوليفيا . وبعد ذلك يدخل فى أرض بوليفيا ثم يعود مرة أخرى إلى حدود الأرجنتين .

وكلما تقدم إلى الشمال كان الناس يدعونه إلى الطعام والشراب . وكل واحد يفتح له بيته ليقضى الليل فيه . وفى كل مكان يجد أناسا فيه .. وفى كل مكان يجد أناسا يرقصون ويأكلون ويشربون ويشدونه إلى الحظ والطرب قال له واحد منهم — يبدو أنه شيخ قبيلة — إلى أين ياصاحبى ؟ فقال : إلى نيويورك وعاد الرجل يقول : وهل إذا أكلت ورقصت ونمت تختفى نيويورك ؟ فأجاب : طبعا لا .. وعاد الرجل يقول : وإذا وجدت فتاة جميلة مثل هذه أكثر نعومة من الحرير ، وأدفأ من الشمس ، وتفعل بالرأس ما يفعله بحر من النبيذ ، وهى التى تتقدم إليك فهل ترفض ؟ .

وتقدمت الفتاة وتعلقت بعنق ايمى ، ونزل من فوق الحصان .. وظل ينزل حتى طلع النهار وقد وجد رأسه عند قدميه .. وكانت ليلة لم يرمثلها فى هذه الرحلة . ونهض بسرعة ولم يجد الناس .. لقد تركوه نائما .. وذهب كل منهم إلى عمله فى الغابات أو فى الحقول . وجمع حصانيه واستأنف الرحلة ..

وفى الطريق وجد أناسا طيبين . إنهم يشربون لبن الماعز من الماعز مباشرة ، ويأكلون اللحم الجاف .. ويقدمونه له طول الطريق .. وأمامه

بعد ذلك غابات وقنوات وأرض مزروعة وكان لا بد أن يحمل معه المزيد من المـاء له وللحصانين . فهو يعلم أن الطريق بعد ذلك قاس ، فى غاية القسوة . ولن تكون هناك أمطار .. وإذا أسقطت السماء مطرا فعليه أن يصنع قرطاسا كبيرا وينام على ظهره لينزل المطر فى القرطاس ويشرب .. وبعد ذلك عليه أن يملأ فمه بالمـاء ويفرغه فى فم كل من الحصانين .. ونام كثيرا على الأرض وملأ فمه وارتوى وكذلك الحصانان وما يزال الطريق طويلا .

وعليه بعد ذلك أن يعبر جبال الأنديز .. وقد أشار عليه بعض الناس الطيبين بأن يختار طريقا ملتويا وقد نصحه بعض الخبراء بأنه من الأفضل أن يصعد هذه الطرق على قدميه لكى يريح حصانيه . واقترح عليه بعض الخبراء البدائيين أن يمضى ليلة معهم يتفرج على ما يشبه السيرك . وفى السيرك تدور معارك . وتنتهى المعركة بأن يمثل واحد منهم دور القاتل والآخر دور القتيل . ولكن المنظر الذى أمامه كان لقاتل حقيقى وقتيل حقيقى . وتساقط القتلى وغرق الناس فى الدماء .. وتعلقت المشانق وطاشت السكاكين .. وانزعج ايمى . ولم يستطع أن يمشى على رجليه .. فركب أحد الحصانين .. واتجه إلى جبال الأنديز .. وبين الحين والحين ينحنى على الحصان ويقبله قائلا : ان سيدك مجنون . فلتكن أكثر عقلا . والأرض التى أمامه عند سفوح الأنديز مليئة بحقول قصب السكر وعلى الحدود لا يوجد سوى حراسة عسكرية . ورجال فيهم غلظة وقسوة .. معذورون .. إنهم لا يرون الناس سوى اللصوص والهاربين .. ولكن بالقرب من نقط الحدود توجد حفلات رقص..ثم توجد حلقات عديدة لأناس يتفرجون على مصارعة الديوك..وتوقف ليرى .. ولكن كان عليه ألا يستسلم للتعب .. فأقسى جزء فى رحلته هو منطقة جبال الأنديز . فالطرق جافة . وكل طريق يشرف على هاوية . والمجارى المائية جافة أيضا والأحجار يتوالى سقوطها باستمرار من أعالى الجبال . ويجب أن يتخفف من كثير من الأشياء التى لا ضرورة لها ..

هذه هى قاعدة كل من يريد أن يصعد ، أن يكون خفيفا .. إن الطرق قاسية حتى على حوافر الخيل . لابد أن يمشى على رجليه ..

ومضى يوم ويوم . وجاء ليل . ونام فى حضن أحد الخيول .. والجو بارد إلى درجة الصفر . وامتدت يده إلى إحدى الزهور البرية . ونفذت أشواكها إلى يده فنزف الدم وتورمت بسرعة . وشعر بآلام عنيفة فى ذراعه. ولكنه مضى فى طريقه طالعا نازلا ملتويا معتدلا متهالكا . وعند أحد المنحنيات وجد قبيلة من الهنود الحمر . ونظروا إليه بعيون نافذة ، واقترب واحد منهم ودعاه لأن يعالجه وعندما نظر إلى يده التى تورمت قال : أنصحك أن تعود إلى بونس ايرس — أى إلى بداية الرحلة .

ولكن رجلا حكيما . قال : أنا أعالجك .

وجاء الرجل بإناء يغلى . ووضع فيه بعض الأعشاب . ثم بعض المساحيق الملونة وظل الإناء يغلى حتى تحول ما فيه إلى عجينة ذهبية اللون ووضعها على اليد المتورمة وبعد ساعات ذهب الورم . ولكن درجة حرارة اليد ما تزال مرتفعة . وعاد حكيم القبيلة يقدم له أعشابا أخرى .. وبات ليلته ثم مضى فى رحلته من جديد ..

واقترح عليه الهنود الحمر أن يسلك طريقا آخر . أما هذا الطريق فقد وفر عليه مئات الأميال . وهذا الطريق يمر بجبل ارتفاعه ١١ ألف قدم . وقطعه فى عدة أيام ولكن الدم كان ينزف من أنفه معظم الوقت . ولكن الحصانين كانا فى صحة جيدة وفى غاية اللياقة البدنية والمعنوية أيضا . وكان هو أكثر حرصا على صحة الحصانين . وانتقل إلى بوليفيا .. ووديانها جميلة .. وتوقف عند أول كوخ من الطين . كان بلا تهوية . ونام بعمق . ولكنه فى الصباح صحا على دق الطبول العنيف . وعلى أصوات غريبة . إنه يوم القديس سان روكه راعى الكلاب . وفى هذا اليوم يمسك كل واحد بما

عنده من الكلاب ثم يطلقها . وفى هذا اليوم تتحرر الكلاب وتلهو وتلعب كما يحلو لها . وفى هذا اليوم أيضا تدور المعارك الدموية بين الكلاب . والناس يتفرجون وقد أنشب واحد من هذه الكلاب أسنانه بسرج حصانه . فقد ظن أن الجلد الذى يغطى الحصان هو جلد كلب آخـر . ولكن « ايمى » أنقذ الحصان فى آخر لحظة . ومن الغريب انهم فى هذه المنطقة يأخذون الكلاب إلى الكنيسة ويدخلون بها . ويجئ القسيس ويباركها ويدعو الله أن يعيد هذا اليوم على الكلاب وأصحابها بالسلام والصحة .. وبعد ذلك تخرج الكلاب إلى الشوارع فلا يكون سلام ولا صحة . وإنما موت وضوضاء ومشاكل عائلية ولا يحسمها إلا كلاب العام القادم !

والتوى الطريق ودخل الغابات وهبط إلى الوديان وتسلق الجبال .. ثم تسلل إلى الحقول .. ولا تزال القرى صغيرة قديمة كما تركها الأسبان من مئات السنين . لم يتغير شئ . الأرض صغيرة والناس ظرفاء ورغم المرح على الأجساد ، فإن الوجوه حزينة .. لعلها متعبة من كثرة المرح . تماما كما يضحك الإنسان ولا يزال يضحك حتى يسقط ميتا ، فكثيرون يموتون من الضحك !

وجاءت مناطق المناجم .. مناجم الذهب .. فى هذه المناطق أقام الأسبان طويلا . والطريق ملئ بالهنود الحمر . وهى قبائل متوحشة . وقد حذره الكثيرون . ولكن لابد أن يصل إلى نيويورك ومن ورائه حصانان .. انها قبائل ايمارا — من هذه القبائل جاء رجال ثلاثة وبنوا السفينة رع الثانية فى ميناء صافى بمراكش .

وفى الليل طارده رجل مخمور . ولا يعرف ماذا يريد . واختبأ منه فى أحد الأفران الخامدة . وأمضى الليل كله عاجزا عن أن يفتح فمه ويسعل .. أما الحصانان فقد أخفاهما فى الحقول المجاورة . ولما طلع النهار وجد الرجل المخمور نائما بالقرب من الحصانين وقد ربطهما فى وسطه . وعندما اقترب

« ايمى » من الحصانين ووجد الرجل انزعج . ولكن الرجل المخمور قال له : إنما أردت أن أحرسك .. فالناس هنا قد اتفقوا فيما بينهم على ألا يتعرضوا لرجل مخمور معه سلاح .

ثم كشف عن صدره فوجد على صدر المخمور عشرات من الخناجر ولم يفهم ايمى ما يقوله هذا الرجل .. وعاد المخمور يقول له : إننى معجب بهذا النوع من الحيوان ولم أرها منذ عشرين عاما .. وقررت أن أهجر عروسى هذه الليلة وأخونها مع أجمل مخلوقات الله !

وكانت هذه هى النكتة الوحيدة التى أسعدت « ايمى » وجعلته يزداد تعلقا بحصانيه ..

وكان عليه أن يدخل مدينة لاباز .. وفى هذه المدينة المتعددة الألوان ، القديم والجديد ، اتجه إلى سفارة الأرجنتين وقدموا له طعاما وطنيا اسمه (البيكانتة) و (السطيطة) .. وهى من لحم الديك الرومى أو الدجاج الذى غرق فى الشطة .. ولم يكد يضع قطعة فى فمه حتى شعر أنها قطعة من النار !

ومر بمدينة ميواناكا .. ورأى شواطئ بحيرة تيتكاكا .. وأمضى ليلة فى الرقص والشرب وهو طبعا لم يعرف الأهمية التاريخية لهذا المكان . وإنما بعد ذلك بعشرات السنين اكتشف العلماء أن سكان الكواكب الأخرى قد هبطوا إلى هذه المنطقة وإلى هذه البحيرة بالذات هبطت أول امرأة من الفضاء الخارجى . ولم يعرف طبعا أنه فى هذه المدينة بوابة توجد عليها نقوش لسفن فضاء هبطت من السماء من ثلاثين ألف سنة !

ومن جمهورية بوليفيا هذه اتجه إلى جمهورية بيرو . ولم يكن فى حاجة إلى وقت كبير ليعرف انه يجتاز منطقة من النار . فالعلاقات متوترة بين كل من بيرو وبوليفيا وشيلى .. وقد ظنوه أول الأمر من شيلى فكادوا يقتلونه ولكن عندما رأوا الكلمات المطبوعـــة على سرج الحصان

تركوه فى سلام .. فعلى سرج الحصان وجدوا هذه العبارة : تعيش الأرجنتين ..

وطلبوا إليه أن يبقى معهم هذا العام ! ولما عرفوا هدفه ، التفوا حوله وأعطوه طعاما وزجاجات من الشراب . وبعضهم قدم إليه تعويذة تمنع عنه الحسد وعين السوء وتحميه من المتوحشين فى الشمال ..

واستسلم وأكل وشرب ونام واستراح حصاناه ..

وانشقت الأرض ووجد رجلا إنجليزيا من المهتمين بالآثار . وتحمس ليكمل الرحلة معه . ولكن عندما هاجمها الذباب يوما بعد يوم ، قرر الإنجليزى أن يعود ، فحبه للآثار ليس أقوى من خوفه من الذباب والبعوض.

وجاء موسم الأمطار . وكان عليه أن يتسلق الجبال .. فالأمطار أقل . ولكن حذروه مرة أخرى من القبائل المتوحشة واستعان ببعض المرشدين لأن المناطق وعرة ومن الممكن أن يقتل فيها أكثر الناس خبرة بالجبال .. ففيها الكثير جدا من الطرق المتقاطعة ولا يعرف الإنسان أى هذه الطرق يختار .

ووجد من المناسب أن يحلق لحيته وشاربه . وضحك عندما تساءل — ولكن لماذا ؟ وأجاب : إنما أردت أن أتخفف من هذه الأعباء الثقيلة فأنا عاجز عن حمل لحيتى والحصان عاجز عن حمل شاربى !

وفى هذه المناطق يتعاطى الناس الأفيون بجنون . ويظل الليل فى عيونهم لا ينامون ولا يسهرون .. ولكنهم مفتوحو العيون ، ولا فرق ان كانوا قد ناموا ونهضوا من فراشهم ، أو أنهم فى طريقهم إلى الفراش !

وأحسن الطرق أمامه هو أن يتجه إلى الساحل قريبا من جمهورية اكوادور . الطريق رملى صحراوى . والأنهار متدفقة سريعة مخيفة . وهو

يحمل معه زجاجتين من الكونياك وعصير الليمون . وقد أضاف إلى عصير الليمون بعض الملح .

وقد أضيف إلى الطريق الممل عمل شيء آخر وهو الطعام — كله أرز مسلوق وفول مسلوق وموز مشوى وبيض وقهوة .

وبعد ذلك يجب أن يعبر صحراء اسمها ماتاكابلو — ومعناها مقبرة الحيول . الصحراء طولها مائة ميل . واختار أن يعبرها ليلا . أى يبدأ رحلته مع الغروب . وفى النهار يجب أن يأوى إلى الأشجار يغطيها بما معه من قماش هو والحصانان فى الظل الملتهب .

وبعد أن عبر الصحراء وجد طفلا صغيرا ، وسأله الطفل إن كان فى استطاعته أن يسافر معه . فوافق واشترى له بغلا صغيرا . ومضى اثنى والطفل وحصانان وبغل . قافلة . وعندما بلغوا خط الاستواء قرر أن يحتفل بهذا اليوم السعيد . فقد اتجه إلى النصف الشمالى من الكرة الأرضية ، واتجه بعد ذلك إلى كولومبيا .. انها أرض البراكين والزلازل التى تركت آثارها فى قشرة الأرض المحترقة المحطمة . الجو نار . والروائح غريبة وكريهة . وكل شيء قذر . والأكواخ من طين والناس كأنهم طين محروق . والطعام قذر .. وكل شيء يغريه بأن يهرب وهو يريد ذلك ولكنه لا يستطيع بهذه السرعة .

وركب هو والحصانان والبغل والطفل بعض السفن ليعبروا هذه المستنقعات المخيفة . وظلوا كذلك ثلاثة أيام . وعندما رست السفن عند مدينة كولون كان الطفل قد أصابته الملاريا . وتركه وراءه فى أحد المستنقعات . واتجه بعد ذلك إلى بناما . وبقى فيها يومين وفى هذه المدينة أصيب أحد الحصانين بجرح فى ساقه . فتركه إلى أن يتم شفاؤه على أن ينقل بعد ذلك بحرا إلى كوستاريكا .

أما بقية الرحلة فهى أشق من الأيام الأولى . فكلما تقدم فى سيره اصطدم بالحدود والمشاكل الوطنية والمعارك بين الإنسان والإنسان وبين الإنسان والأمراض .. ونقل حصانه فى سفينة .. ثم عاد والتقى الحصانان . واتجهوا جميعا إلى مدينة نيو مكسيكو .. وكان قد شعر بالخوف لأول مرة .. سمع عن الدماء والخطف والسطو .. وعن رجل مغامر مثله قد ربطوه فى حصانه وأطلقوا الكلاب على الحصان .. وبعد مائة متر أطلقوا النار على الحصان .. ولم يكن هناك سبب واضح .. فى هذه المناطق لا يجد الغريب سببا واضحا لأى شئ .. انهم لا يدعونه يكمل رحلته .. حتى يكون الحكم قد صدر عليه أو صدر له .. فإذا هو ضيف عليهم ، أو ضيف على الشهداء ..

ونقل حصانيه فى القطار ..

وركب هو أحد الزوارق ، ثم التقوا جميعا وعبروا نهر ريو جرانده ، بولاية تكساس .. والطرق كلها مرصوفة . والفنادق متوافرة والماء العذب والعشب والطعام والعلاج ..

وكان لابد أن يصل ايمى تشيفلى إلى مدينة نيويورك بحصانيه ..

ووصل إلى نيويورك وانتهت رحلة العشرة آلاف ميل .. وتمدد ايمى تشيفلى فى فراشه ونظر إلى السقف وهو يقول : مجنون هذا الرجل ثم أشار بيده إلى صدره وراح يضحك .

ودق الباب . وانفتح . وإذا به يجد طفلا راكبا بغلا . انه نفس الطفل الذى تركه مريضا بالملاريا . لقد شفى تماما . والتقى بالطفل رجل من أبناء نيويورك قرر أن يعلم شيئا عن رحلة ايمى تشيفلى فعرف مكانه . وجاء بالطفل والبغل . واحتفلت نيويورك برجل قرر أن من الممكن أن يكون الإنسان قادرا على أن يتخذ قرارا خاصا وينفذه وحده .. وأثبتت

هذه الرحلة أن الأطفال الذين لا يعرفون الحوادث المثيرة فى حياتهم هم أشد الأطفال ميلا إلى الأطفال المثيرة . . وأن الخيول أكثر احتمالا من الإنسان وأن نجاح حصانين يؤدى إلى ارتفاع سعر الخيول .. لذلك استحق (ايمى) عشرة دولارات عن كل كيلو متر قطعها إلى نيويورك . . أما هـذه الدولارات فقد جاءته من صاحب أكبر حظيرة للخيول فى الأرجنتين .. مكافأة على شجاعة الجميع !

لا تفتحي قلبك
أيتها الشقراء..
لأنني سأحطمه!

الناس يفضلون الأكذوبة الجميلة على الحقيقة الكئيبة .. يستريحون إلى النكتة أكثر من سعادتهم بجدول الضرب .. مثلا هو أول من وصل إلى قمة جبل « مون بلان » بسويسرا .. التاريخ الطريف يقول : انه رجل اسمه بالما . وكان ذلك يوم ٨ أغسطس سنة ١٧٨٦ . فهذا الرجل بالما . ابن نكتة. وقادر على أن يروى الحكاية الواحدة عشرين مرة بأشكال مختلفة . ويجب على الناس أن يستمعوا إليه . ولما سئل عن سر هذه الندرة العجيبة . قال : السبب بسيط . . فأنا أرويها لنفسى أربعين مرة قبل ذلك ! .

أما كيف تسلق بالما هذا،جبال الألب ليصل إلى قمة « مون بلان » ، فيرجع ذلك إلى أنه عرف طبيبا اسمه الدكتور باكار ، وقد اختاره الدكتور باكار مساعدا له .. أو بعبارة أدق « شيالا » لأمتعته وهو فى طريقه الصعب إلى جبال الألب .. لأول مرة فى التاريخ ..

وكان يمول هذا المشروع أستاذ جامعى من الأغنياء ومن الضرورى أن تعرف اسم الأستاذ الجامعى أنه : هوارسى دوسوسير ، وهو من علماء الجغرافيا ومن أشد الناس اهتماما بالجبال والصخور وتاريخها ، وهو نفسه قد حاول تسلق جبال الألب تسع مرات ، وفى جميع المرات يعود ومعه عينات من الصخور ، وقد وعد هذا الأستاذ الجامعى بجائزة مالية لمن يصعد جبال الألب .

وكان الفتى بالما — ٢٥ سنة فى ذلك الوقت — يعرف أن هناك جائزة مالية .

وفى إحدى الليالى كان بالما ينام فى فراشه ، وفى الليل صرخ صرخة أزعجت زوجته فصاحت تقول له : كدت تقطع أذنى !

وجلس فى فراشه ليقول لها أنه كان يحلم بأنه اقترب من قمة جبال الألب وعندما أمسك بإحدى الصخور هوت إلى إحدى الثلاجات الشاسعة . . ولكن زوجته لم تسترح إلى هذا العذر السخيف . وإنما قالت له : اعرف أنك كذاب .. وأنها محاولة من رجل مخمور ليقضى على زوجته عضوا عضوا ! ..

ونهض بالما من فراشه ، وجمع ملابسه وأخرج عصاه من تحت السرير ثم ملأ جيوبه بالخبز وحمل معه زجاجة من البراندى . ووقف على عتبة الغرفة وقال لزوجته : إذا لم أعد غدا أو بعد غد فأنا هناك فى قمة جبال الألب !

وأقفل الباب ، وقامت الزوجة .. وقد اعتاد بالما على سخرية الناس منه .. فكانوا إذا قابلوه فى الطريق راحوا يرمونه بما فى أيديهم ، وكان يقول بصوت مرتفع : تشجع يا ولد : اعقل يا ولد . كن رزينا أيها الولد !

وعندما يسأله الناس : ومن هو الولد ؟ ..

يجيب بسرعة : لا تنخدعوا فى مظهرى .. فى داخلى ولد .. طفل .. لو تركته على راحته لانحنى على الأرض وقبل أقدامكم جميعا ! ..

ولابد أن هذا الشاب المضحك المسلى الغريب الأطوار قد لفت عين الدكتور باكار ، ومن أجل ذلك اختاره رفيقا للطريق ، وأى طريق ! .

وكان على الدكتور باكار أن يختار بالضبط الطريق الذى سوف يسلكه إلى قمة مون بلان ، أما الطريق فقد درسه سنوات طويلة .. وقام بعدة محاولات تجريبية ورسم كل الصخور البارزة ، وحدد أماكن الأشجار ، والمنحدرات

والثلاجات والأنهار الجليدية ، ان منظر الجبل لا يغيب عن عينيه ليلا ونهارا ، وقد حسب كل شئ بدقة شديدة ، ولم يبق أمامه إلا أن يصعد وأن يستعين بأحد ووجد هذا البهلوان بالما مساعدا له .

وعندما بلغ بالما السبعين من عمره روى قصة صعوده جبال الألب للأديب الكبير الكسندر ديماس ، ورواها ديماس بعبارته الجميلة للعالم ، وكان ديماس هو السبب الحقيقى فى انتشار هذه القصة وفى دخول بالما التاريخ راكبا قلما جميلا رشيقا ، ومما قال بالما للأديب ديماس أنه بلغ قمة مون بلان عندما كان فى الخامسة والعشرين من عمره ، ولم يشأ أن يذكر أن زميله فى الرحلة هو الطبيب باكار الذى كان فى الثلاثين ، ووصف نفسه لديماس فقال : كانت حيويتى خارقة وشجاعتى نادرة .. واحتمالى للجوع مضرب الأمثال لقد أمضيت أياما كاملة أتنفس فقط . فإذا أحسست بالعطش الشديد مددت يدى إلى الجليد آكله .. أى ارتوى به وأتغذى عليه .

وقال له : وعندما صعدت وصعدت .. ونظرت إلى قمة مون بلان .. صرخت بأعلى صوتى .. أيتها الشقراء إننى فداؤك .. شهيدك .. أيتها الشقراء لا تبتعدى عنى .. ومهما ابتعدت فأنا وراءك مهما طال الزمن .. لاتفتحى قلبك .. أرجوك .. دعينى أحطمه .. أنا رجلك الأول وعاشقك الآخر ! ..

هكذا جاء على قلم الكسندر ديماس ثم أنه عرض الأمر على الطبيب باكار وتردد بأكثر أول الأمر ولكنه هو وحده الذى شجعه .. وقال له لا تخف .. وقال باكار : وكيف أخاف وأنت معى ، ان انسانا يمشى إلى جوارك لا يقع ، انه يمشى إلى جوار جبل .. وان يدا تعتمد على كتفك ، لبد تعتمد على أكبر أشجار الصنوبر .. أنا معك حتى الموت .. ولن تموت إلا عند القمة ! ..

وقال باكار أيضا : معك يتحول الجليد إلى ماء ، والماء إلى بخار ، والبخار إلى سحاب .. وأنت قبر النسور نطير معا إلى القمة ! .

وهنا قال بالما : إذن .. لقد حانت لحظة المجد لنا ! ..

وفى الساعة الثانية من مساء يوم ٧ أغسطس اتجه الاثنان إلى الجبل ، الطريق معروف فى أوله ولكنه مجهول بعد ذلك ، الخريطة أمامهما ، والشجاعة سلاحهما ، وفى اليوم الأول ناما فى ساعة مبكرة فى حضن أحدى الصخور .. وفى ساعة مبكرة من الصباح عادا إلى التسلق من جديد .. ولا شئ جديدا قد رأياه فى ذلك اليوم .. فالوديان مدروسة .. والمنحدرات مرسومة .. والغابات معروفة ولكن الطرق ملتوية حادة إلى القمة ، ما تزال مخيفة ، وكان على بالما أن يلتفت إلى باكار كلما خاف ، وأن يعطيه نصيبه من البراندى ومن الطعام ومن النصائح ومن النكت ، وفى إحدى المرات كاد يسقط باكار من الضحك .. فأدركه بالما بعبارة مؤلمةأوقفت باكار علىقدمين من الندم ! .

وكلما ارتفع الإثنان أحسا بضيق فى التنفس .. فالهواء خفيف ، والبرد لا يمكن أن يوصف يمكن أن يقال أنه يقرص .. أو يلدغ .. أو ينهش .. انه ملايين الأبر فى كل خلايا الجسم .. وقال للأديب الكسندر ديماس : انه خطر له أن ينظر إلى الوراء .. ليرى أين هو من الوادى .. وكاد لشدة ارتفاعه أن يسقط ، ولكنه عاد وجمع قواه واتجه إلى الأمام فما تزال الحبيبة الشقراء بعيدة عن يديه .. انها تملأ عينيه ولكن ما أبعد المسافة بين يديه وعينيه ..

وجاء الليل وتعب الدكتور باكار .. وسقط إلى جوار إحدى الصخور ، وراح زميله البهلوان يدلك يديه .. ورجليه ، وإن كان هو أيضا يشعر بأن يديه قد انقطعت صلتهما به .. واضطر إلى ترك زميله الطبيب بعض الوقت ومضى يسعى إلى القمة .. ثم عاد ونام إلى جواره حتى الصباح .. وفى شعاعات الفجر ، ترك صديقه المرهق المكدود .. ومضى إلى حبيبته الشقراء .. ولم تطاوعه أن يقترب من القمة وحده .. فعاد إلى زميله الطبيب ودفعه بقوة ،

وسحبه سحبا إلى المعشوقة الشقراء .. ووقف الاثنان أمام قمة مون بلان التى تبعد مسافة ٣٨ كيلو مترا مربعا وعلى ارتفاع ١٥,٧٧١ قدما ، هذه إذن هى قمة أوروبا .. ووقف الإثنان ساعة .. ثم ساعة ، وقررا العودة بسرعة . فلم يبق أمامهما سوى ساعتين وبعدهما تغيب الشمس ويبدأ القبر الأبيض الجليد الذى هو كفن لكل حياة إنسانية وغير إنسانية ..

ولكن شيئا واحدا أفزع الإثنين ، لقد أصيب الدكتور باكار بما يشبه العمى ، فقد قال لزميله : غريب إننى أسمع زقزقة العصافير ولكن لا أرى النهار ! ..

ووقف بالما .. وزال ذرات الجليد من فوق جفن الطبيب وراح يدلك عينيه حتى تمكن من الرؤية .. ثم سحبه إلى السطح .. إلى بطن الوادى .. وذهب كل منهما إلى بيته دون أن يصافح أحدهما الآخر ، واكتفيا بهذه الرحلة الصاعدة الهابطة الآلية .. بعد أن شهدا جبال الألب على هذه الشجاعة النادرة ، أما بالما فدق الباب .. وفتحت الزوجة ، واتجه إلى المرآة .. وجد العينين حمراوين والوجه أسود ، والشفتين زرقاوين ، وعندما حاول أن يضحك على نفسه تمزقت الشفتان الجامدتان ونزف منهما الدم ، ولما التفت إلى زوجته وجدها قد عادت إلى الفراش .. ولما أطال النظر إليها وجدها قد غطت أذنيها ووجهها كاملا فعرف أنها تخشى أن يتمدد إلى جوارها وأن يعاود الإمساك بأذنيها أو أنفها ولم تعرف ما الذى فعله الزوج عندما غاب عنها ليلة .. كل ما تعرفه دون أن تنظر إلى وجهه انه كان مخمورا طول الليل .. ولابد أنه سقط فى الطريق وظل نائما حتى الصباح وغطاه الجليد ولم ينقذه أحد عقوبة له وانتقاما لزوجته ! ..

وأطلق على نفسه ملك الجبل ، وبطل القمة الشقراء ، وفاز بالجائزة ، وبعث إليه ملك جزيرة سردينيا بجائزة أخرى ، وأعطاه أحد النبلاء الألمان معاشا سنويا ! ..

انتهت قصة هذا الشاب بالمـــا والتى رواها فى أجمل وأرق عبارة أديب فرنسا الكسندر ديماس ! . .

ولكن « صحيفة لوزان » السويسرية أعادت نشر القصة الحقيقية ، وقالت أن هذا الرجل بالمـــا عندما روى قصته هذه كان فى السبعين من عمره أى بعد حدوثها بخمس وأربعين سنة . . ولابد أنه أضاف من عنده الكثير ، ولابد أن الأديب قد صاغ كل هذه التفاصيل فى صورة روائية جميلة ، والأديب هو المسئول وحده عن بقاء هذه القصة المسلية المثيرة . .

ولكن الحقيقة غير ذلك ، فقد عثرت « صحيفة لوزان » على وثيقة تركها الدكتور باكار وعليها امضاء بالما هذا يعترف فيها بالما بأن الدكتور كان مساعدا له . . وأن الدكتور باكار هو الذى رسم الخرائط ، وأنه هو الذى عالجه عندما سقط جثة هامدة قبل قمة مون بلان ، وأن الدكتور باكار وجد أنه ليس من الشهامة ولا من الرجولة أن يصل إلى قمة مون بلان وحده . . وتبدأ هذه الوثيقة بعبارة تقول : اقر أنا « بالمـــا » واعترف بمنتهى الأمانة والصدق وبكامل قواى العقلية أن . . . الخ . .

أما تاريخ هذه الوثيقة فيرجع إلى يوم ١٥ نوفبر سنة ١٧٨٧ أى بعد صعود الجبل بثمانية وعشرين يوما ، ولسبب غير معروف ، توارى الدكتور باكار . . ربما كان مريضا ، ربما ذهب لزيارة بعض أقاربه فى ألمـــانيا . . ولكنه وعد بأن يؤلف كتابا عن هذه المغامرة وقال بعض أصدقائه أنه قرأ لهم صفحات من هذا الكتاب الذى عنوانه « التفاصيل الكاملة لتسلق أعلى جبال أوروبا » ، ولكن أحدا لا يعرف أين هذا الكتاب ، وقد أعلنت الصحيفة السويسرية عن جائزة مالية لمن يعثر عليه . .

ومات باكار هذا قبل أن ينشر الكسندر ديماس قصته عن قمة مون بلان والتفت الناس إلى اللوحة الفنية التى رسمها الأديب الفرنسى — وهذا طبيعى — ولم يلتفتوا إلى هذه الوثيقة القانونية الجافة ! . .

ولكن من المؤكد أن الاثنين قد صعدا الجبل . وبلغا قمة مون بلان ، وانهما سبقا عصرهما بسبعين عاما ، وبعد ذلك أصبح تسلق الجبال رياضة ممتعة ، وأصبح الناس يعدون لهـا جميع وسائل الأمن والعلاج والطعام والشراب والملابس .

أما الرجل نفسه دسوسير الذى رصد لهما الجائزة فقد تسلق جبال الألب وبلغ قمة مون بلان فى نفس السنة . .

والذين يزورون الآن مدينة شامونيكس يجدون تمثالين لرجلين هما بالمـا وهذا الرجل دسوسير . .

أما الطبيب باكار فقد توارى عن الأضواء ،واختار أن يكون هو الشاهد الوحيد على صعوده جبال الألب ، وأن يكتفى براحته النفسية ، فقد بلغ القمة وهو على يقين من ذلك . . ولا يهم إذا كان العالم لا يصدق ، أو إذا صدق ولم يقم له تمثالا . . فهو عندما بلغ قمة الجبل ، وقف جامدا ساعتين بلا حركة . . كأنه اراد أن يجعل من نفسه تمثالا فى أعلى مكان ، لأن أحدا لن يفعل له ذلك عندما يهبط إلى السفح ، وقد صدقت هذه النبوءة وظلمه الأدب ، وانصفه التاريخ وانكرته حجارة التماثيـل ! . .

ظهره

إلى حائط الصين

يتفلسف

أما الذى أسند ظهره فهو أديب إيطاليـا الـكبير البرتو مورافيـا . وحائط الصين ليس سورا من الحجارة القديمة . ولـكنه حالة عقلية قديمة . فهو شعور بالعزلة أو بضرورتها . هذا الشعور تحجر على مدى العصور ولكن الصين استطاعت أن تحبس نفسها وأنفاسها وراء هذا السور لتكون ماردا مخيفا لـكل من حولهـا ، عددها هائل ٨٠٠ مليون نسمة . وأسلوبها فى الحياة والفكر متين . والكل يلتزمون به ويحرصون عليه . وهى « الإضافة » المؤكدة لـكل ما طرأ على الفكر الأشتراكى فى الخمسين عاما المـاضية .

والبرتو مورافيا قد زار الصين مرتين فى ثلاثين عاما . وآخر رحلاته كانت سنة ١٩٦٧ . وقد سجل رحلته فى كتاب له عنوان « الثورة الثقافية فى الصين » . والـكتاب رحلة عقلية ونفسية وأدبية وفلسفية . والـكتاب متعة مؤكدة . وكثيرا ما أقلب فى الـكتاب لإعادة قراءة صفحاته وكثيرا ما تمنيت أن أقفل الـكتاب ولا أعيد قراءة صفحاته فقد جاء الظلم فى عبارة فنية جميلة . . ولـكنه على كل حال ظلم لأكبر تجربة عرفها التاريخ . .

والفصل الأول من الـكتاب على شكل حوار . . بين مورافيا وأديب آخر صينى . . أو بينه وبين نفسه . . وهو يحاول أن يفهم وأن يوضح نفسه للقارئ . . مستخدما مشرط الطبيب أو سكين القرصان . . ولـكنه فى جميع الأحوال فنان مجتهد . .

سؤال : كنت فى الصين ؟

جواب : نعم .

سؤال : ما الذى أثر فيك أكثر من أى شئ آخر ؟

جواب : الفقـــر !

سؤال : تقول الفقر . . فقط الفقر ؟ !

جواب : نعم . الفقـــر .

سؤال : وهل فى الصين فقـــراء ؟

جواب : بمقاييسنا فى الغرب . . نعم كل أهلها من الفقراء .

سؤال : وما أثر هذا الفقر فيك ؟

جواب : شعرت بالارتياح !

سؤال : غريب أن تشعر بالارتياح إذا رأيت هذا العدد الهـائل من الفقراء . فالفقر معناه الهوان والفشل . . ومع ذلك تقول أنك شعرت بالارتيـــاح ؟

جواب : هذا ما أحسست به . وأنا على يقين مما أقول . والإنسان لايمكن أن يخطئ فى مشاعره . وهذا بالضبط ما أحسست به طول الوقت فى الصين . وتسألنى كيف أحسست بذلك فأقول لك لا أعرف . ولـكن سأحاول أن أجيب على هذا السؤال .

سؤال : فى الغرب لا يمكن أن يكون فقط الفقر يوحى بالارتياح . . أنه يوحى بالقهر وإرادة التمرد . أنظر إلى الزنوج فى أمريكا مثلا ، أنهم يشعلون النار فى الأزقة التى يعيشون فيها .

جواب : فى أمريكا هناك فقراء وهناك أغنياء . والفقراء فقراء ، لأن هناك أغنياء . والأغنياء لأن هناك فقراء . ولـكن فى الصين لا يوجـــد الا فقراء فقط . هل فهمت ؟

سؤال : فهمت ، وكان من الواجب أن أدرك ذلك . . ولكن الا توجد لهم فى الصين صفات أخـــرى ؟

جواب : فعلا وصفهم بالفقر هذا وصف غير دقيق .

سؤال : بماذا تصفهم إذن ؟

جواب : لا توجد عندى الآن كلمة مناسبة . . فليس من السهل أن أصف الفقر وحده دون أن أصف الغنى . .أو دون أن أقارن بين الاثنين معا . .

سؤال : ولكن أريد أن أعرف منك حقيقة ما هى هذه الصفحات التى ينفرد بها الفقر الصينى دون بقية الفقراء فى العالم ؟

جواب : يمكن أن تصفهم بأنهم فقراء بلا ثراء . أى أن الفقر هو الحالة العادية للإنسان .

سؤال : ليس هذا المعنى واضحا لأننى أرى فيه شيئا من التجنى . . فأرجو أن توضح لى أكثر ؟

جواب : أن المسألة سهلة جدا . كل إنسان يولد فقيرا معدما من كل شئ . أو بعبارة أخرى : أن الإنسان عندما يولد فإنه لا يختلف كثيرا عن الحيوان . لأن الإنسان غالبا يشبه كل الحيوانات الأخرى . . وكثيرا ما أندهش الإنسان عندما ينظر إلى حياته فيقول : هل هذه الحياة تساوى كل هذا العناء والعذاب هل تساوى هذا الجهد الهائل الذى نبذله ؟ ولكى يكون الإنسان انسانا فهو فقير . فالإنسان فقير . لا أكثر ولا أقل . ومن ذلك لا يوجد الا الثراء . فالفقر هو الحالة العادية لأى إنسان . أما الثراء فهو الترف . . فهو كل شئ « زيادة عن اللزوم » . . « زيادة عن الضرورى » !

سؤال : هل أفهم من ذلك أن الثراء يجعل من الإنسان كائنا غير عادى . . إنسانا غير طبيعى ؟

جواب : غير عادى أن يكون الإنسان غنيا .

سؤال : ما الذى تقصده بقولك : غير عادى ؟ أو بعبارة أخرى متى يذهب الإنسان إلى ما هو غير عادى . . متى يتجاوز الإنسان ما هو ضرورى وما هو لازم . . أى كيف ينتقل الإنسان إلى ما ليس إنسانيا ؟

جواب : نعود مرة أخرى إلى الصين فالرجل الصينى كما تراه فى الشوارع يملك كل ما ليس ضروريا . على الأقل الآن . أنهم فقراء . كما قلت لا أحد يشك فى أن انسانيتهم كاملة . ولكن هذه الإنسانية ينقصها شئ يجئ عن طريق الثراء . أى أن هذه الإنسانية فى حجة إلى ما ليست فى حاجة إليه . . أى من الضرورى لها أن يضاف إليها شئ غير ضرورى . . غير لازم . غير حيوى . فهم فقراء يعيشون على ضرورات الحياة . وقد زرت الصين منذ ثلاثين عاما . كان فيها فقراء يعيشون على الكفاف أو لا يكادون وكان فيها أغنياء . وكان الفقراء فى هوان . وكان الأغنياء بلا إنسانية ! وعندما اختفى الأغنياء ، أحس الفقراء بأنهم بشر . ذهب الأغنياء ، فعادت كرامة الفقراء .. اختفى الناس غير الطبيعيين ، وبقى الطبيعيون .

سؤال : هل أفهم من كلامك أن الرخاء أو الوفرة هى مصدر السعادة فى هذه الدنيا . . هذا إذا كنت قد فهمت تماما كلامك ؟

جواب : لا توجد وفرة فى هذا العالم يوجد إنتاج فقط . والإنتاج لا يوصف بأنه يبعث على المرح أو على السعادة . ولا يوصف حتى بأنه حيــوى .

سؤال : هل أعرف منك ما هو الفرق بين الوفرة وبين الإنتاج ؟

جواب : الوفرة صفة من صفات الطبيعة والوفرة لا تكلف الإنسان عملا أو مالا أو وقتا . وليس المقصود منها هو الاستهلاك . وإنها الحياة فقط . أما الإنتاج فيحتاج إلى عقل ووقت ومال ولذلك فلا يمكن أن يكون الإنتاج

وافرا أو وفيرا . فالإنتاج متكرر . لأنه إنتاج شئ واحد لملايين المستهلكين ؟

سؤال : اذن أنت ترى أن انتاج ما لا يحتاجه الإنسان هو شئ غير اساسي . ولكن من الذى يقرر ذلك . . من الذى يقرر ما يحتاجه الإنسان وما لا يحتاجه ؟

جواب : الإنسان نفسه أو فطنة الإنسان !

سؤال : لقد كانت فى التاريخ فترات طويلة اضطر فيها الإنسان ، لكى يؤكد انسانيته أن يملك وأن يعمل ما ليس ضروريا ، ما رأيك فى عصر النهضة فى أوروبا ؟

جواب : هذه الفترات من التاريخ لا تهمنى . لا تهمنى مطلقا ، وإنما يهمنى العصر الحاضر .

سؤال : إذن لنتكلم عن العصر الحاضر . . من الذى يقرر ما هو ضرورى للإنسان ، وما هو إنسانى ، وما هو عادى طبيعى ، وما ليس عاديا ولاطبيعيا واين يبدأ واين ينتهى ؟

جواب : قلت لك انه الإنسان وحده الذى يقرر ذلك . بحسن إدراكه للأمور .

سؤال : الا ترى أن ايمانك بحسن الإدراك فيه اسراف . . أو الا ترى أن ايمانك بحسن إدراك الإنسان للأمور فيه حسن ظن هائل بالإنسان نفسه ؟

جواب : نعم . أننى أؤمن بحسن ادراك الناس العاديين لكل ما هو عادى إنهم ليسوا فى حاجة إلى ذكاء خارق لكى يناقش الإنسان مسائل الجوع أو الشبع أو الضياع النفسى أو المرح أو الملل . . الخ . . وسوف يجئ يوم يشعر فيه الإنسان العادى بالملل من أنه ليس إنسانا . وسوف يجئ وقت يشعر فيه الإنسان الغنى بأن ثروته هذه قد جعلته مجردا من الإنسانية . . وسوف

يتخلص الأغنياء من ثرواتهم . حتى لو كان هناك فلاسفة وحكماء يؤكدون لهم أنهم على خطأ .

سؤال : ولكن قل لى ما الذى يفعله حسن الإدراك فى مواجهة الثراء ؟

جواب : فى مواجهة الثراء سوف يتصرف العقل لا اراديا . فإذا وصل الإنسان إلى قمة الثراء أصبح لا إنسانيا . بل أنه يحتاج بل ويريد أن يكون فقيرا — أن قمة الثراء مثل قاع الفقر !

سؤال : تقول أن الغنى سوف يتصرف من تلقاء نفسه ؟ الا ترى أن هذا أمر صعب ؟ وأنه إذا حدث فسوف يستغرق وقتا طويلا مضنيا ؟

جواب : نعم . لأن الإنسان بطئ بطبعه .

سؤال : وما الذى يفعله الإنسان الغنى لكى يكون إنسانا فقيرا ؟

جواب : لا يفعل أى شئ !

سؤال : كيف ؟

جواب : لن يستهلك وعلى ذلك فلن ينتج ما هو زائد عن حاجته !

سؤال : ولكن الإنسان يجب أن ينتج وأن يستهلك ما أنتجه ! ألا ترى ذلك ؟

جواب : أى إنسان هذا الذى تتحدث عنه ؟

سؤال : أى إنسان . . ألا ترى أن الإنسان عموما لا يفعل أكثر من ذلك؟

جواب : أنا لا أعرف شيئا عن الإنسان عموما . ولكن الإنسان اليوم — نعم اليوم — هو الذى يجب أن ينتج ويجب أن يستهلك . ولكن الإنسان غدا — نعم غداً — ربما كان مختلفا تماما عن إنسان اليوم وإنسان الأمس .

سؤال : لنكن واقعيين . لنتحدث عن الثراء الحقيقى وعن الفقر . هل فى استطاعتك أن تدلنى بوضوح أين يوجد الفقر فى هذه الدنيا ؟

جواب : فى الصين . ولكن لا يوجد أى شئ يدل على أن الصين – جنة الفقراء – سوف تبقى على ما هى عليه إلى الأبد . لابد أن تتغير . لن يكون الغد كاليوم . ولكن جنة الفقراء هذه لكى تظل كما هى ، يجب أن يكون لها وجود مستمر . . وجود لا يتغير . .

سؤال : وأين يوجد هذا الثراء اللا إنسانى ؟

جواب : فى الغـــرب طبعا .

سؤال : اذن نتحدث عن الصين . لنفرض أن هذه الجنة أصبحت دائمة ، أى تحولت إلى حقيقة مستمرة . كيف يحقق أهل الصين هذه النتيجة . . أى هذا الاستمرار ؟

جواب : بأن يفعلوا بالضبط ما يفعلونه الآن .

سؤال : ولكنك تعرف جيدا أن الصين تريد أن تتحول من دولة زراعية إلى دولة صناعية ومعنى ذلك أن فقرهم ليس إلا نتيجة لاستغلال رأس المـــال من أجل تحقيق الثورة الصناعية .

جواب : أعرف ذلك . وأعرف أنهم يفعلون الآن ما فعله الروس من أربعين سنة ، وما فعله الغرب من مائة سنة .

سؤال : ولنفرض أن الثورة الصناعية تحققت وتراكمت الأرباح وأصبحت حاجتهم إلى الاستثمار أقل فما الذى تفعله الصين برأس المـــال الذى سوف يتراكم باستمرار ؟ يجب أن يرفعوا الأجور ، وأن ينشئوا صناعات خفيفة ، لكى تستوعب هذه الأجور – وعلى ذلك سوف تصبح الصين دولة كأية دولة أخرى ، دولة غنية . الا ترى ذلك ؟

جواب : هذا صحيح ولكنك نسيت أننا نتحدث عن الجنة . ففى الصين جنة . . دولة مثالية . . أنهم يحاولون أن يجعلوا من الجنة تاريخا . . والدولة المثالية تؤدى إلى حلول مثالية . .

سؤال : هل تدلني على هذه الحلول المثالية . . ما هي هذه الحلول المثالية ، لكى أظل فقيرا ، حتى لو كنت غنيا ؟

جواب : الجنة أو الدولة المثالية يجب أن تكون فى ضمير كل إنسان . أو يجب أن تكون ضميره . فإذا وجد هذا الضمير ، فإن الحل سوف يكون معناه : إذا أصبح الإنسان غنيا فهذه خطيئة . وجريمة . وسوف يشعر بأنه مخطئ إذا أصبح غنيا .

سؤال : أعرف أن الديانة المسيحية قد فعلت ذلك فى العالم ، دون أن تصل إلى نتائج مشجعة ! فما رأيك ؟

جواب : على الرغم من أن المسيحية لبضعة قرون ، حاولت نشر الفقر على أنه حالة مثالية للإنسان . ولكن لو حدث ذلك لكان معجزة . ولكن المهم هو أن نصور الفقر على أنه الحالة الوحيدة للإنسان . .

سؤال : لا أفهم بالضبط ما تقول ؟

جواب : فى هذا العصر شعوب غنية جدا ، وسوف تشعر بالملل من هذا الثراء وتتمنى أن تكون فقيرة لأنها تعبت من الثراء .

سؤال : أن ثلثى العالم لا يجدون الكفاف ! فماذا يحدث لو كره الأغنياء فلوسهم وتمنوا لو أصبحوا فقراء ؟

جواب : فكرت فى ذلك . هل سمعت عن الفراعنة .

سؤال : وما دخل الفراعنة فى هذا كله ؟

جواب : ألم تسأل نفسك لماذا أقاموا هذه الأهرامات الهائلة والتى كلفتهم الكثير من العمل والمال .

سؤال : لا أعرف . قل لى أنت ؟

جوا ب : لأنه ، فى رأيى ، من الضرورى أن يكون لدى الإنسان ماهو ضرورى . ومما زاد عن ذلك يجب أن يحطمه . فالأهرامات فى زمن السلم مثل الجيوش فى زمن الحرب . . أنه شئ يفعله الإنسان لـكى يقضى على الثراء ويجعل الإنسان فقيرا .

سؤال : ولـكن أين هى أهرامات العصر الحديث ؟

جواب : انها تلك المشاريع العلمية لغزو المريخ والزهرة والقمر . . أنها كل الرحلات الفضائية . فهذه المشروعات العالمية ، تستهلك الـكثير من المـال والرجال والتعب . أنها بالضبط أهرامات الفراعنة . ثم أن الأهرامات لم تكن نزوة من نزوات الملوك الآلهة ، أنها رمز الحضارة الفرعونية . وكذلك الرحلات بين الـكواكب ليست نزوة أنها من أهم معالم الحضارة وجوهر التنافس بين الدول الغنية الـكبيرة .

سؤال : معنى ذلك أن الولايات المتحدة تبنى أهرامات كثيرة . . فهى تشن الحروب وتطلق سفن الفضاء وما تزال غنية !

جواب : أمريكا غنية مؤقتا . كما أن الصين فقيرة مؤقتا . ان الصين الآن جنة الفقراء ، وهذا غير طبيعى وغير إنسانى .

سؤال : تقصد أمريكا أو الغرب كله ؟

جواب : أمريكا كنموذج للغرب كله !

سؤال : الا ترى أن الغرب سوف يكون غنيا دائما ؟

جواب : لا أرى ذلك طبعا . أن الغرب يفعل بالضبط ما سوف يجعله فقيرا . لـكن دعنا من المستقبل ولننظر إلى الحاضر . ولنتساءل لمـاذا الثراء لا إنسانى وغير طبيعى .

سؤال : صحيح لمـاذا ؟

جواب : لننظر إلى أى إنسان يريد أن يكون غنيا . أنه عادة يبتكر شيئا جديدا لا ضرورة له . ولـكن هذا الشئ حذاء موسيقيا . أى تصدر عنه موسيقى عند كل خطوة . فما الذى يفعله هذا المخترع لـكى يجعل إنتاجه شعبيا ويبيعه للناس ؟

سؤال : لا أعرف . . ولـكن لابد من الدعاية له ! أليس كذلك ؟

جواب : لابد من الدعاية . أى أنه سوف يخلق رغبة عند الناس لشراء أحذية موسيقية . رغبات وطلبات لا وجود لها . ولا يمكن أن يقول صانع الحذاء للزبون : أننى أبيعك شيئا لا تحتاج إليه . وإنما سيقول له دائما : اننـا نبيع لك شيئا ضروريا . وذلك عن تحويل مـا ليس ضروريا إلى شئ ضرورى .. هذه الدعاية هى التى تخلق الزبون الذى يستهلك . . أو الزبون المستهلك . . أو جمهور المستهلـكين !

سؤال : ولـكن الا ترى أنه يوجد مستهلـكون فى كل مكان ؟ حتى فى الصين فالذى يشترى الحذاء هو مستهلك .

جواب : هو مستهلك . ولـكنه ليس زبونا . وإنما هو إنسان يشترى ما هو ضرورى . ملابس يتغطى بها وحذاء يضعه فى قدميه . . ولـكن المستهلك حيوان . .

سؤال : ما الذى تقصده عندما تصف المستهلك بأنه حيوان . .

جواب : المستهلك هو مجرد احشاء . . مجرد بطن . . مجرد معدة . . ومصارين . . أنه مثل أى كائن له فتحات للقضم والهضم والإفراز بعد ذلك . هذة الكائنات لا تفعل أكثر من أن تدخل طعاما من الفم وتمضغه ، وفى المعده تهضمه ، وبعد ذلك تتخلص منه ! . .

سؤال : ولـكن ما الفرق بين الصينى وغيره من الناس ؟

جواب : عدة فروق . . فالرجل الأمريكى أو الغربى هو مجرد بطن . . لا هو أديب ولا هو فنان ولا فلاح ولا عامل . وإنما هو منتج ومستهلك .

سؤال : ولـكن الإنتاج والاستهلاك يغطيان كل النشاط الإنسانى .

جواب : وهذا ما يفكر فيه الرجل الغربى .

سؤال : فقط ؟

جواب : فقط .

سؤال : ولا يفكر فى نفسه ؟

جواب : هذه النفس التى يتحدث عنها الرجل الغربى لا وجود لهـا . فالاستهلاك هو الذى يحدد المستهلك ولا يوجد منتج لا يستهلك . والا مات جوعا ولـكن يوجد مستهلـكون لا ينتجون فى كل بلاد العالم . ويمكن أن يقال أن غاية الحضارة الإنسانية هى الاستهلاك — أى الإفراز !

سؤال : ما هذه الكلمة ؟

جواب : معناها إخراج ما لا تحتاج إليه فى جسمك . فالإنسان يستهلك ما يريد وبكميات كبيرة . فالمثل الأعلى للمستهلك هو الاستهلاك . ولـكن النهاية : فى الزبالة !

سؤال : أظنك ترى معى أن هذه كلمات غير دقيقة وغير موفقة . . لأنه يوجد فى الدنيا أشياء كثيرة غير الطعام .

جواب : هذا التعبير الذى لم يعجبك يصلح لكل ما يستهلـكه الإنسان . فى الصناعة مثلا ؟

سؤال : كيف ؟

جواب : فى المدن الـكبرى يوجد الاستهلاك والإنتاج معا ، تماما كما

يتجاور المطبخ ودورة المياه فى أى بيت أذهب إلى خارج أيه مدينة سوف تجد المصانع . . سوف تجد الأفران الضخمة التى تنتج السلع وقريبا منها سوف تجد الأرض التى يلقون فيها مخلفات المصانع والزبالة والخردة . لقد استهلكت المدينة ما انتجته وهضمته . . ونبذت الذى هضمته !

سؤال : صورة قاتمة . . ولكن ما الحل ؟

جواب : الحل هو العفة ! الفقر والعفة . . لا أولاد . . لا جماهير . . لا احتياج إلى شئ الرجل وزوجته ماذا يصنعان ؟ انهما فى حالة نصف وعى ينجبان طفلا . . وكذلك المصانع فى شبه ظلام تنتج . . والآلات تنتج فائض الإنتاج لتقلل إنتاج الإنسان . . لا حل إذن غير العفة والفقر . .

سؤال : كأنه لا يوجد حب ؟

جواب : ولماذا الحب ؟ أنه عمل ميكانيكى . . أن الحب لا يؤدى إلى الجنس . . أن الحب يؤدى إلى العفة .

سؤال : لا أفهم . . لقد دوختنى !

جواب : الحب والجنس غريبان فى هذا العالم . . انهما مختلفان . . الجنس . . إنتاج . . والحب : عفة . . والفقر هو الحالة الطبيعية للإنسان . . ولذلك فالصين هى المجتمع الطبيعى الوحيد فى هذا العالم . .

* * *

أرجو أن تقرأ هذه السطور السابقة من جديد ــ ليست هذه رغبتى ، ولكنها رغبة الكاتب الإيطالى الكبير البرتومورافيا . أما أنا فقد فعلت ذلك عده مرات !

ولم تجد أحداً
يصفق لها
فى النهاية!

عندما ولدت هذه الفتاة ونظرت إليها أمها قالت :

ياساتر . . الخالق الناطق عمتها . . أعوذ بالله ! . .

مثل هذه العبارة قالتها أيضا أم الفيلسوف الانجليزى برتراند رسل . . ولابد أن أم سقراط قالت عبارة شبيهة بذلك عندما ولدته . . فقد كان سقراط دميما ! . .

ولـكن هذه الفتاة لم تكن كذلك فعندما كبرت كان الوجه لمثل وجه شاب . . والرأس صغيرا والشفتان رفيعتين ، والأذنان صغيرتين . . ولكنها أنثى بعد ذلك وبصورة صارخة .

هذه الفتاة اسمها إيمى جونسون . . وهذا الاسم ليست له دلالة الآن . . ولـكنه فى ٥ مايو سنة ١٩٢٠ كان مثارا للكلام . . وأكثر الكلام سخرية . . وبعد ذلك تحول الكلام عنها إلى أن ترتفع العيون إلى السماء . . وتنشرح النفوس ويشعر الـكثير من الرجال بالخجل . .

هذه الفتاة أيمى ولدت سنة ١٩٠٢ وأبوها صاحب زوارق للصيد . . وهى كبرى اخواتها من البنات . . وكانت تلميذة مجتهدة . . وبرعت فى اللغة الانجليزية . . ولكن براعتها فى اللغة اللاتينية كانت حديث المدرسين . وكل شئ فى حياتها قد بدأ فى يوم واحد . فقد قررت وهى صغيرة أن تركب مع اختها ، على سبيل النزهة ، أحدى الطائرات التى حلقت بهما فى سماء لندن . . فى ذلك اليوم قررت أن تكون لهـا طائرة خاصة . . . وأمتنعت

عن الطعام لتوفر ثمن هذه الطائرة . . ومرضت من الجوع . . .ووعدها أبوها بأن يشترى لها طائرة عندما تكبر . . ولم يكن جادا . . ولـكن الفتاة لم تعد تفكر فى شراء الطائرة ولا فى الطيران واتجهت إلى الدراسة . . وكأنها ادخرت هذا الوعد ، ووضعته فى مكان أمين . . كأنه كنز لعين . . . وأخفته عن العيون . . وانتقلت من المدارس الابتدائية إلى الثانوية وتخرجت فى جامعة شيفيلد . . وحصلت على ليسانس فى الأدب الانجليزى سنة ١٩٢٢ .

هنا فقط اتجهت أيمى إلى الطيران . . والكلام عن الطيران . . ودراسة تركيب الطائرات . . . وقبلها نادى الطيران عضوا . . ولم تكتف بهذه العضوية ، قررت أن تدرس هندسة الطيران . . وكانت أول مهندس ميكانيكى طيران فى العالم ، ثم طارت حوالى ١٥ ساعة و ٤٥ دقيقة من لندن إلى المدن المجاورة لقد طارت ولابد أن تتفرغ نهائيا للطيران وتقدم شاب لخطبتها . . وكرهت أن تراه . . لأنه ظهر فى الوقت الذى قررت فيه أن تعطى حياتها لشئ آخر لابد أن تطير من لندن إلى استراليا ! وعرضت فكرتها على كثير من المسئولين فى لندن . . وكانوا جميعا ينظرون إليها ويعتذرون عن مساعدتها . . وقد تعلقت العيون من أذنيها . . . أو فى اذنيها . . فقد كان من عادتها أن تضع اقراطا طويلة تتدلى من أذنيها . . ولـكن الذى ينظر إلى عينيها يجد هذا البريق الذى لا يمكن أن يوصف بأنه دليل على الشجاعة والاصرار والأنوثة . . ولـكن لها نظرات الأنبياء أو الصوفية الذين ينظرون إلى بعيد . . . ويرون ما لا يراه أحد . . وعندهم نوع من اليقين الغريب . .

سألها وزير الطيران : ولكن لماذا فكرت فى هذه المغامرة الخطيرة ؟

وكان ردها : ولمـــاذا فكر أى إنسان قبل ذلك فى أن يغامر ؟ !

ولم يعجبه هذا الرد . . وأعتذر عن المساعدة . .

وسألها رئيس مجلس العموم : ولـكن يا أبنتى أنت صغيرة ولم تتدربى بما فيه الـكفاية . .

وكان ردها : أنا أعرف ذلك ولـكننى قررت أن أطير يوم ٥ مايو سنة ١٩٣٠ أى بعد ثلاثة شهور بالضبط .

ولم يعجبه هذا الرد واعتذر عن المساعدة رغم أنه ضغط على يدها بحرارة وتمنى لها التوفيق . . وقالت له : أشكرك على حرارتك التى لا تفيد ! وخرجت . .

واشترت طائرة ماركة « دى هافيلان موت » بمبلغ ٦٠٠ جنيه . . . والطائرة لها محركان وقد قطع بها صاحبها أكثر من ٣٥ ألف ميل . . .والطائرة طول جناحيها ثلاثون قدما ويمكن طى الجناحين وبذلك تدخل غرفة عرضها عشرة أقدام . . وهذه الطائرة سرعتها مائة ميل فى الساعة . . . وطول الطائرة ٢٣ قدما و ١١ بوصة وأرتفاعها ٧ أقدام و٩ بوصات . . وتحمل ٧٩ جالونا من البنزين وتستهلك خمسة جالونات فى الساعة . . أى أن مداها لا يزيد عن الف ميل . .

ولم يفت أيمى أن تمر على شارع الصحافة . . . ولـكن أحدا لم يلتفت إلى الفتاة الشجاعة وإنما إلى الفتاة فقط .. ولم تنشر عنها الصحف كلمة واحدة . لا يهم . . وكانت تقول لنفسها : سوف تنشر الصحف عندما انجح !

ولـكن تقدم لها رجل كبير فى السن وقال لها : اسمعى يا آنسة . . أنا مؤمن بأنك سوف تنجحين لقد راقبتك فى الشهور الماضية . . وأنا أؤمن بك . . وسوف أعطيك ٣٠٠ جنيه . . . لأن ما تحتاجين إليه من وقود فى حدود هذا المبلغ . .

ولما سألته : من أنت ؟

أجاب : رجل غنى . . ليس له معنى ويحاول بهذه الفلوس أن يدخل التاريخ على طرف جناح طائرتك . .

وعادت تسأله : ولـكن من أنت ؟

فأجاب : اسمى يا أبنتى . . لا يهم من أنا . . ولكن أنت فى حاجة إلى مساعدة . . والشعب فى حاجة إلى مثل عليا . . والمثل العليا يضربها الشباب ويشكك فيها الشيوخ . . . طيرى . . طيرى . .

ولما سألته : وكيف عرف أنها سوف تنجح ؟

قال : عندك جنون العباقرة . . ودقة رؤساء العصابات . . . وزهد المتصوفين . . واحتقار الرجل . . أى احتقارك للجنس . . وليس عن الصدفة أن يخلق الله « النحل الشغال » بلا جنس . . فلا هو ذكر ولا هو أنثى . . ولذلك أخرج لنا هذا النحل أجمل ما صنع الله . . فأنت جميلة وكان فى امكانك أن تتزوجى أى شاب . . وتستقرى فى الأرض ومن حولك عدد من الأطفال . . لهذا كله سوف تنجحين . .

وأعطاها الرجل المبلغ . . . ولكنها أصرت أن تعرف من هو قبل أن تمد يدها إليه . . وكان الرجل مديرا لأحد المصانع ولم يرزق ولدا . . وماتت زوجته وأمه وأخوته . . وبقى هو الشاهد الوحيد على أسرة أكلها البحر والحرائق والمرض !

وجاء يوم ٤ مايو قبل الموعد الذى حددته بيوم واحد . . وطلت طائرتها باللون الأخضر . . وجعلت خوذتها خضراء اللون أيضا . . واطلقت على طائرتها اسم « باسون » وهو اسم اجدادها من الدنمركيين وقال لها اصدقاؤها أن اللون الأخضر شئوم على كل من يختاره . . ولكنها أصرت على اللون وعلى الطائرة وعلى الرحلة . . فإذا كان الناس لا يأخذون برأيها ، فلماذا نأخذ بأوهامهم !

وقامت برحلة صغيرة فى سماء لندن تجرب الطائرة ..

ويوم ٥ مايو ودعت قليلا من الأصدقاء .. ودرجت الطائرة على أرض المطار .. ثم ارتفعت واتجهت إلى أول نقطة فى طريقها إلى استراليا . فبعد

٨٠٠ ميل هبطت فى مدينة فيينا . قطعت هذه الرحلة فى عشر ساعات .. ثم قطعت المسافة من فيينا إلى القسطنطينية فى ١٢ ساعة . وفى هذا المطار أحس الناس بشئ غريب .. ووجدت عددا كبيرا من المستقبلين والمضيفين وتردد أسمها فى كل العواصم وأحست لندن بأنها قد ودعت ابنتها ببرود . وشعر الصحفيون بأنهم قد أساءوا التقدير . ولكن لا وقت للندم .

وفى هذا المطار التركى تقدمت فتاة صغيرة بباقة من الورد .. ثم قدمت لها رسالة صغيرة . تلقت ايمى الورود والرسالة . وعادت إلى طائرتها وفى طريقها إلى مطار حلب على مدى ٥٥٠ ميلا ، فكرت فى أن تفتح الرسالة لتعرف ما فيها .. وعندما فتحت الرسالة وجدت هذه العبارة بالإنجليزية : أرجو أن تلقى بهذه الورقة فى البحر .. فإن عندنا اسطورة تقول الذى يلقى ورقة زرقاء فى الماء لا يسقط فى الماء .. اتمنى لك السلامة .

وضحكت إيمى ووضعت الرسالة فى جيبها ولم تلقها فى الماء . فهى لا تؤمن بالأساطير ولا بالخرافات ولا بالحسد .

وفى مطار حلب استقبلها عدد من الناس . الذهول أهم معالمهم . وتزودت بالوقود ثم كان عليها أن تقطع هذا الطريق الشاق بين حلب وبغداد فوق الصحراء العربية . ولأول مرة تشعر بالخوف .. فالجو حار جدا . والأرض صفراء مخيفة .. وبسرعة انقلب لون السماء وهبطت عواصف رملية مفاجئة . وتحملت العاصفة ساعة بعد ساعة .. ثم اضطرت إلى الهبوط . وبسرعة وخفة هبطت من طائرتها ووضعت الحقائب وراء العجلات حتى لا تطيح بها العواصف . وأخرجت مسدسها من جيبها استعدادا لأى طارئ .. فقد قيل لها أن هذه المناطق يسكنها جماعة من البدو المتوحشين . وهؤلاء البدو يكنون كراهية للأجانب لا حدود لها .. ولو عرفوا انها امرأة لحطموا طائرتها وأخذوها رهينة أو أى شئ آخر ..

وظلت العاصفة الرهيبة تكنس الصحراء وتلقى الرمال على رأس الفتاة

وعلى هذه « الجرادة » الصغيرة التى جاءت بها من لندن .. ثم هدأت العاصفة . وعادت ايمى إلى طائرتها وارتفعت فى الجو متجه إلى بغداد . وبشئ من العناد أخرجت الخطاب الذى كان فى جيبها وألقت به فوق الصحراء ..

ومن بغداد اتجهت إلى البصرة ، وكان الجو حارا . وكانت العواصف الرملية تهب من كل الاتجاهات وعليها بعد ذلك أن تطير فوق الخليج العربى . وقد ملأوا رأسها بالمخاوف وقالوا لها أن فوق الخليج جيوبا هوائية وهذه الجيوب إذا سقطت فيها الطائرة لم يعد أحد يرى لها أثرا .. وقالت ايمى أنها أحست بأنها فى أحد هذه الجيوب .. ولكن الجيب كان صغيرا ولم تطل مخاوفها .. وكانت الرؤية متعذرة فوق الخليج .. وعليها أن تصل إلى بندر عباس على مدى ٦٠٠ ميل .. ونظرت تحتها فلم تجد أى مكان للهبوط فعلى مدى البصر مستنقعات وأوحال . ثم هبطت فى مكان أمين .. وتزودت باحتياطى الوقود .

ويوم ١٠ مايو كانت فوق كراتشى . وهى بوابة الهند وأصبحت ايمى جونسون حديث الدنيا كلها ..

ومن كراتشى اتجهت إلى كلكتا عبر الوديان الهندية الشاسعة . . ولكنها دارت فاتجهت إلى مدينة الله أباد . . وفوق مدينة الله أباد ، رافقتها طائرات السلاح الملكى البريطانى ثم تزودت بالوقود . وبعد ٧٠٠ ميل نفد منها الوقود . واضطرت إلى الهبوط . وواصلت الطيران إلى مدينة كلكتا . انها الآن قد قطعت نصف الرحلة إلى الهند دون أية حوادث .

وفى مطار كلكتا قابلها أحد السحرة الهنود . وأعطاها تعويذة . وضحكت أكد لها أن الموقف لا يبعث على الضحك . ثم قال : انى أعلم أن فتاة تركية قد أعطتك ورقة وانك ألقيت هذه الورقة فوق الصحراء ..

وانزعجت ايمى . وقالت له : كيف عرفت ؟

وكان رده : إن هذه الورقة ما تزال فى جيبك . ومدت يدها إلى جيبها فوجدت الخطاب وبداخله الورقة الزرقاء ..

واختفى الساحر الهندى ..

وكان لابد أن تحتفظ بهذه الورقة . ولكن هذه الورقة لم تمنحها الأمان لقد دخل الخوف قلبها . وأحست بقية الرحلة أن قلبها أعلى صوتا من الطائرة . وأنها ليست هى التى تقود الطائرة وإنما قوة غريبة .. وأن هذه القوة الغريبة قد جردتها من شرف الشعور بالبطولة .. انها سوف تكون فى نهاية هذه الرحلة صورة مضحكة للشجاعة . لأن الشجاع حقيقة شخص آخر .. أو قوة أخرى . وحزنت إيمى وقبل أن تصعد إلى طائرتها ظهر لها الساحر الهندى . وهويقول : اركبى يا إبنتى .. لا تخافى .. أن الورقة لم تعد فى جيبك . أنت سيدة الطائرة الآن !

ومدت يدها إلى جيبها فلم تجد الورقة . وشعرت بالخوف والفزع . واختفى الساحر الهندى .

أمامها الآن ٦٥٠ ميلا لكى تصل إلى مطار رانجون عبر جبال عالية خطيرة . وكانت الرؤية فوق الجبال صعبة . وارتفعت إلى ١٣ ألف قدم .. ثم عادت فهبطت إلى ١٥٠ قدما .. وظلت سبع ساعات تحاول أن تجد لها منفذا وأخيرا وجدته فوق غابات لا نهاية لها .. ثم عثرت على أشرطة السكك الحديدية وطارت فوقها حتى وجدت نفسها فوق رانجون ..

وعندما قررت الهبوط حدث شئ عجيب .. فقد نزلت إلى أرض لعله أحد ملاعب كرة القدم .. ودرجت الطائرة على أرض الملعب .. ثم دخلت بين خشبات المرمى دون أن يصاب جناحاها بشئ .. ثم قفزت من الطائرة ونظرت لهذه الطائرة الصغيرة التى دخلت المرمى بمنتهى الدقة .. وهبطت من عينها دمعة وهى تقول : إن هذا المشهد يحتاج إلى تصفيق الملايين . ولو كانت كرة لفعل الناس . ولكنها طائرة قادمة من لندن تقودها فتاة !

وهب هواء خفيف دفع الطائرة إلى الأمام فتدحرجت إلى فجوة فى الأرض فانكسر الجناح ـ ولحسن حظها كانت هناك ورشة قريبة وأصلحت الجناح فى يوم . وتزودت بالوقود . وعادت إلى الهواء .. فى اتجاه شبه جزيرة الملايو . فى طريقها إلى سنغافورة .. وقبل أن تصل إلى سنغافورة صعدت إلى الجو طائرات من سنغافورة للترحيب بها . وهبطت فى هدوء .. وكان حماس الناس جارفا ..

والعالم كله يعرف من هى . ومن أبوها . وأمها وأساتذتها فى المدرسة والجامعة وقصص أخرى عن غرامها الأول وخطيبها الأول . وكيف أنها قالت لخطيبها الأول : ان قلبى لا يتسع لإثنين .. إما أنت أو الطيران ..

وطار الخطيب الأول وإختفى عن العيون ـ لقد انتحر !

ولما سألوها إن كانت قد حزنت على خطيبها الأول قالت : من كان قلبها من الحديد لا تحزن على أحد !

وقصص أخرى روتها الصحف أو زورتها الصحف .. وشغلت الناس فى كل مكان !

ولكن أصدق ما نشرته الصحف عن هذه الفتاة لم تعبر فى حياتها بحر المانش ، ومع ذلك استطاعت أن تعبر المحيط وحدها ودون مساعدة أحد ، بل رغم أن الجميع رفضوا مساعدتها. وأمامها الآن أقسى جانب من الرحلة كلها . لأنها يجب أن تطير فوق مئات الجزر فى أندونيسيا وأن تتجه إلى مدينة دارون فى استراليا أى حوالى ٢٥٠٠ ميل . وعليها أن تطير معظم الوقت فوق غابات كثيفة ومستنقعات أو فوق براكين أو ماء المحيط . وفوق جزيرة سومطرة تعذرت الرؤية وحاولت الهبوط . واضطرت إلى أن تزحف فوق حقل من قصب السكر ونفذت عيدان القصب فى جناحى الطائرة وباتت تلك الليلة ضيفة على مدير المصنع . وحاول الجميع أن يسدو الفتحات فى

جناحى الطائرة . وتزودت بالوقود . وعادت إلى الهواء . وعندما ركبت الهواء ارتفعت روحها المعنوية .. ثم هبطت بعد ذلك فى مدينة سورابابا .. ورافقتها طائرات البريد الهولندية ..

وقررت ايمى ألا تتوقف عن الطيران مادام الجو لطيفا والسماء صحوا .. وعند الغروب انطلقت إلى السماء .. ولم يسمع أحد عنها شيئا . ولا رآها . وحاولت الشركة الهولندية أن تعرف أين هى .. وكلفت سفنها من ناقلات البترول أن تبحث عنها فى البحر .. وتناقل البرق أنباءها : انها اختفت .. فى الليل أو فى المحيط ..

ولكن إحدى ناقلات بترول شركة شل رأتها متجهة عند الفجر إلى ميناء دارون . فأبلغت هذا النبأ إلى مركز الشركة.وتناقلته الصحف العالمية .. أن ايمى جونسون فى الطريق إلى استراليا .. انها لم تغرق . وكان ذلك هو اليوم التاسع عشر منذ غادرت الجزر البريطانية .. لقد وصلت إلى مطار دارون .. قطعت١٢ ألف ميل وليس معها جهاز لاسلكى . وكان من الممكن أن تخطئ الطريق . وهذا طبيعى . وإنما انطلقت كأنها سهم . أو كأنها نوع من حمام الزاجل . وقبل أن تصل إلى مطار دارون شمال استراليا ، استقبلتها الطائرات .. وعلى أرض المطار رأى الناس هذه الفتاة الضئيلة الحجم الرقيقة الناعمة ولم يتصور أحد أن هذه النعومة فائقة إلى هذه الدرجة . ولابد أن هذه الأنوثة العنيدة تعبر ١٢ ألف ميل وحدها عبر الليالى والمحيطات والغابات والجبال !

ولما عادت إلى بريطانيا صدر قرار بتعينها أول طيارة فى العالم . منحتها صحيفة « ديلى ميل » عشرة آلاف جنيه .. أما أطفال سيدنى فقد جمعوا لها تبرعات اشتروا بها كأسا ذهبية . هذه الكأس تمنح الآن كل عام لأكثر الشبان شجاعة !

وفى سنة ١٩٣٢ تزوجت طيارا ..

ثم ضربت أرقاما قياسية من لندن إلى رأس الرجاء الصالح ذهابا وإيابا وكسبت أموالا كثيرة . وكان عليها أن تختار بين الطيران وبين الحياة الزوجية. واختارت البطولة .. أو الطيران .. فليس فى الزواج بطولة !

وفى سنة ١٩٤٠ عندما كانت تقود إحدى الطائرات الحربية سقطت فى نهر التايمز .. ولم يهتد أحد إلى جثتها .. وظلت وزارة الحربية ممتنعة عن إعلان خبر وفاتها حتى تجد الجثة . ولم يعثر عليها .وأعلنت نهائيا سنة ١٩٤٥ أنها ماتت .. وإن الفتاة التى عبرت المحيطات غرقت فى أحد الأنهار .

ورواد الفضاء الذين داروا حول الأرض ماتوا فى حوادث طائرات وحوادث سيارات .

ويقول أبوها أن الشئ الذى أدهشه بعد وفاة إبنته أنها كانت حريصة كل الحرص على تلك الورقة الزرقاء .. وأنها كانت تنقلها من فستان إلى فستان .. ومن حقيبة إلى حقيبة . ولكن عندما راحو يقلبون فى أوراقها .. وجدوا هذه الورقة ملقاة على الأرض . وعندما فتحوا الورقة الزرقاء وجدوا هذه العبارة : كان لابد أن أفارقك فقد حان أجلك ..

لو كانت
فى هذا العصر بقية

حادثة معروفة فى التاريخ أن الفيلسوف الألمانى شوبنهور أصدر كتابا . وبعد أيام ذهب إلى الناشر يسأل عن الكتاب فوجد الكتاب كما هو لم تنقص منه نسخة واحدة .. لم يشترها أحد .. ثم ذهب مرة ثانية وثالثة وعاشرة، فوجد أن نسخة واحدة قد إختفت . أى أن مشتريا قد ظهر . وراح يبحث عن هذا المشترى الغريب . . وأخيرا وجده . . وكان أستاذا فى الجامعة . دق الباب . . ودخل . وتوقع أن يقول الأستاذ كلمة واحدة عندما سأله : ما رأيك فى هذا الكتاب ؟ وكانت أذنا الفيلسوف قد أستعدتا تماما لإستقبال هذه الكلمة : رائع !

وبعدها يعود إلى البيت لينام . فقد ظل فى أرق كل هذه الأيام الأربعين التى أختفى فيها هذا الكتاب . ويكفيه جدا قارئ واحد يلهمه أو يمدحه . . وبعد ذلك لايهم أن ينتشر الكتاب .

فالفيلسوف غنى وليس فى حاجة إلى فلوس . الكلمة الطيبة لا يمكن تقديرها بمال . إنه ترك البيت لأن أمه ترفض أن تقول له : صباح الخير . . ردا على صباح الخير التى يقولها هو لأمه . . فهو فيلسوف متشائم . ولا بد أن تكون أمه أهم عناصر التشاؤم والشؤم فى حياته . . وقرر فيما بينه وبين نفسه ألا تكون له أم . فنى أحدى الليالى جلس أمام المرآة وقال : أيها الرجل أنت نبات الأرض . . أنت نبات برى . . أنت حيوان وحشى . . أنت مثل آدم .. لا أم لك !

ولكن الأستاذ الجامعى لم يقل له : رائع .. وأنما قال له كلمة أخرى

لا يمكن كتابتها باية لغة . . والكلمة ليست أهانة مباشرة له . . ولكن لأمه التى جعلت بيتها ندوة أدبية ولم تعلم أبنها كيف يقول كلاما واضحا !

وعاد الفيلسوف ليقول عن هذا الأستاذ وعن أمه وعن كل أنسان لم يفهم هذا الكتاب : هل صحيح أنه فى كل مرة يفتح أنسان كتابا من كتبى لم يسمع صوت حمار ينهق ، لماذا يكون هذا النهيق صادرا عن المؤلف دائما ؟ !

أى لماذا لا يكون صادرا عن القارئ ؟ !

ولم يعد الفيلسوف يبحث عن كتابه الذى أختفى من الأسواق فى سنوات ليظهر بعد ذلك مصباحا . باهرا يضئ الطريق إلى اليأس من الحياه ومن القراءة والكتابة ومن التفكير ومن الإيمان بشئ إلا أن الشر امرأة . وأن الشيطان امرأة . والحياة والموت بمعنى واحد !

قرأ قصة الفيلسوف الألمانى أرتورشو بنهور اثنان من الشبان الإيطاليين فى وقت واحد . مجرد صدفة . وتقابل الاثنان فى أحد البارات فى مدينة تورينو بإيطاليا . الاثنان من أبناء الأمراء . . أو الأغنياء . الأول أسمه الفريد نيرو والثانى أسمة : أنطونيو بالبو . . وهما فى الثانية والعشرين من العمر سنة ١٩١١ ، وكلاهما يهتم بالأدب ويحفظ الشعر . ولهما محاولات فى الرسم . . ولذلك لم يكد يلتقى هذان الشابان حتى تصادقا . وحتى اتفقا على أعمال أدبية كبيرة ، لم تدخل الفلوس فى الحساب . فهما قادران على النشر وليسا فى حاجة إلى ثمن أى عمل أدبى . . وفى يوم قال أحدهما للآخر : مارأيك ؟ ورد عليه الآخر : موافق .

قال الأول : إذن نبدأ من الآن ؟

قال الثانى بل من الغد فأنا فى حاجة إلى بعض الوقت لكى أفكر .

قال الأول : ولـكنى فكرت . .

قال الثانى : إذن نلتقى هنا بعد أربعين يوما .

قال الأول : موافق !

وافترق الاثنان على أن يكتب كل واحد منهما قصة . . وبعد هذه الفترة يجئ الاثنان . ويجلسان ويقرأ كل واحد منهما للآخر ما كتب . وبعد ذلك ينشران هذه الصفحات الفنية فى كتابين أو فى كتاب واحد . .

وبعد أربعين يوما جاء نيرو ومعه قصة عنوانها : « لو كانت فى العمر بقية » . . أما قصة بالبو فعنوانها : « حبيبتى ليس لها قلب من حجر » . . أما القصة الأولى فموضوعها أن شابا أحب فتاة . ولـكن هذه الفتاة عذبته . وحاول أن يقنعها بأنه يحبها . ولـكنها تظاهرت بالإقتناع . وقد حاول هذا الشاب أن يرضيها بأى شكل .. طلب إليها أن تأمره أن يعمل أى شئ ..أن يحلق شعره . . أن يقطع أصبعه . . أن ينام تحت بابها فى الشتاء . . يغمض عينيه ليلا ونهارا ولا يفتحها إلا على قدميها . . لم تصدقه فتاة . وليس عندها سبب معقول لعدم تصديقه . . ولذلك قرر أن يترك لها المدينة كلها . . وأن يعيش بعيدا . . وأن يتزوج أول فتاة تصادفه فى الطريق . وصادف فتاة وكانت جميلة جدا . وتقدم لها . . وفوجئ بأنها أخت الفتاة التى أحبها . . وعرف أن هذه الفتاة قد رضيت بالزواج منه حقدا على أختها . . وانتحر هذا الشاب . . فلن يتسع وقته بعد ذلك لـكى يقنع محبوبته بأنها الصدفه هى التى ساقت أختها . . وليس فى عمره بقية لإقناعها . . ولن يكون ولذلك قرر أن يموت !

أما القصة الثانية التى كتبها بالبو فموضوعها أن الفتاة التى أحبها مغرورة . هى تحبه ما فى ذلك شك . . ولـكنها تريد منه أن يحبها أكثر . وهى تعلم أنه يحبها . ولـكنه لا يدرى ما الذى تريده منه . . أنه يقول لها طول الليل

والنهار : أحبك . وأموت فيك . . وقلبك هو مقبرة لقلبي . . وحياتك موتي. وموتي حياة لك . . ولو طلبت الهواء الذي أتنفسه لسددت أنفي من أجلك . . ولكنها لم تصدق ما يقول لها . . فهو رجل صناعته الكلام . وهو يعني مايقول أو لا يعني ما يقول . . أما هي فليست صناعتها الكلام . أن ما تشعر بهتقوله دون أن تهتم كثيرا بشكله أو مضمونه .. ولكنه يريد أن يسمعهاتقول له :أحبك .. ألف مرة .. فالحب ليس أعمى فقط .. ولكنه أطرش أيضا . . أو يتظاهر بذلك . . فالمحب – رغم أنه يرى محبوبته – يريد أن يلمسها أن يتأكد من وجودها . . ولذلك كانت عيناه في أصابعه . . وفي شفتيه وفي ذراعيه . . كلة عيون عاجزة عن الرؤية ولذلك . . فهو يريد أن يرى أوضح وأن يلمس أعمق . . وهو أيضا أطرش . . يريد أن يسمع حروف الحب والغرام والهيام والعذاب والأرق حرفا حرفا .. والحرف الواحد ألف مرة وتعبت من اقناعها . . وتعبت في اقناعه . وقرر الاثنان أن يفترقا . . وقرر هو أن يترك لها الدنيا لعلها تقتنع بأنه صادق في حبه . . وأن الحياة بعدها لامعنى لها . . وأن الطريقة الوحيدة لإقناعها بأنها هي معنى الحياة هو أن يموت . . وانتحر . . أما هي فقد قررت أن تؤكد له بصورة عملية أنها لم تكن تريد من وراء الحب شيئا : لا مالا ولا زواجا ، فقد انتحرت أيضا . ومات الاثنان دون أن يعرف أحدهما أن الآخر قد مات . . دون أن يقتنع أحدهما بأن الآخر يحبه !

وقرأ الصديقان كل واحد قصته للآخر . .

وجاءت لحظة صمت . . طويلة . . منتهى الحزن . وغاية التشاؤم ولكن لحظة التفاؤل الوحيدة قد برقت عندما قالا في نفس واحد ننشرها في كتاب مستقل . . إن هذه المعاني تدور في رؤوس كثير من الشباب مادامت قد دارت برؤوسنا . ولسنا وحدنا من يعرف قصة الفيلسوف الألماني والنسخة الواحدة من الكتاب . !

وبعد ستة شهور كان كل منهما قد طبع كتابه . وقرر الاثنان أن يكونا بعيدين فى أقصى الشمال الإيطالى عندما يصدر الكتابان . . وأن يظلا بعيدين عن عيون القراء وعن أيديهم وأرجلهم عاما كاملا حتى لا يمرا بنفس المحنة التى مر بها الفيلسوف الألمانى . .

قال أحدهما للآخر . أن الفيلسوف الألمانى هو الحمار لأن أحدا لم يفهم الكتاب فالعيب فيه !

وقال الثانى : بل القارئ هو الحمار لأنه لم يفهم كلام الرجل . .

ولم ينس الاثنان أن يدخلا فى مناقشة قديمة موضوعها : من هو الغلطان الكاتب أو القارئ .

ومن المؤكد أن أختفائهما دليل على أن الاثنين يخشيان أن يصفهما أحد بالغموض . . أو بأن كلا منهما حيوان لايحسن التعبير .

وبعد عام عادا إلى مدينة تورينو . .

وكانت المفاجأة . لقد أختفى الكتابان تماما . وقال الناشر إنه اختفاء غريب . . عجيب . . فقد جاء رجل واشترى جميع نسخ الكتابين . . وقرر أنيوزع أحدهما فى جنوب إيطاليا .. وأن يوزع الآخر فى شمال إيطاليا .. أن يفصل بين الكتابين والمؤلفين . . ولكن من هو هذا الرجل ! لاأحد يعرف . ولكن لماذا ؟ لاأحد يعرف وكيف عرف موعد صدور الكتابين ؟ لاأحد يعرف ! وأحس الاثنان أن هذه عملية خطف . . وأن كلا منهما مثل أم انجبت طفلا وعندما استدارت لتنام إمتدت يد أخرى إلى الطفل وأختفى الطفل .

وفى لحظة واحدة قرر الاثنان أن يمشيا وراء الكتاب إلى الشمال والجنوب وأن يعرف الاثنان من هو هذا الرجل الغامض . . فأوصافه لا تحمل له آية مزايا خاصة . . فهو متوسط القامة — ملايين متوسطو القامة .. وهو كبير الرأس أصلع . . وله كرش . . وأبيض اللون . . أزرق العينين . . صوته

غليظ — إنها صفات تنطبق على نصف الشعب الإيطالى من أيام يوليوس قيصر . . إذن اختفى الرجل ومعه الكتاب . . ولكن لماذا ؟ هل هو عفريت ربما كان ذلك . .

اتجه واحد منهما إلى الجنوب . . سافر إلى نابلى . . ومن نابلى إلى أقصى الجنوب عند تارانتو . . ثم إلى صقلية . . ولكنه لم يجد أثرا للكتاب . . لاأحد يسمع بالكتاب ولا بالمؤلف . . ذهب إلى كل مكتبة يسأل . . بل انه كان يلتقى بالناس فى الطريق . . يقف عند أبواب المدارس . . عند مدارس البنات . . وعينه لا تفارق أيديهن . . وكان يذهب إلى القسيس فى الكنيسة يسأله النصيحة.. ويستوضحه إن كانت واحدة قد قرأت مثل هذا الكتاب ، إن كانت واحدة قد انتحرت بسبب هذه القصة ولكن القساوسة يضحكون ويطلبون إليه أن يصبر على بلواه . .

أما رحلة الجنوب فهى من نصيب الشاب نيرو . . وتعب من هذه الرحلة . . وقرر وهو فى طريقه إلى جزيرة صقلية أن يرمى بنفسه فى البحر ولكنه يريد أن يعرف ماالذى فعله بالبو فى الشمال . . إنه يريد أن يعرف من هذا الكائن العجيب الذى قرر أن يمزق الصديقين . . وأن يقتلهما فى وقت واحد . . ولكن ماذا ؟

وعاد نيرو أكثر حزنا . وطال انتظاره لصديقه ولكن الصديق لم يعد وازداد قلقه عليه . . ثم علم بعد شهرين أن صديقه بابلو قد انتحر . مات . ولم يصدق نيرو ما سمعه . وراح يبحث عن صديقه قيل له أنه انتحر فى مدينة ميلانو . وقيل أنه استأجر غرفة وأقفل على نفسه الباب ومات . واشترط على صاحبة البيت ألا تفتح غرفته قبل شهرين . وقيل أنه تعاطى كمية كبيرة من السم بعد أن اختفى فى احدى المقابر فى مدينة جنوة .

الوف المقابر . . وقيل أنه كان حريصا على أن يسد باب المقبرة وراءه قبل أن يتعاطى السم ولـكن لماذا ؟

وذهب نيرو إلى كل هذه المدن . . وهام على وجهه فى المقابر . . وطال شعر لحيته . . وتمزقت ملابسه . . وأحس أنه بطل فى قصه لمؤلف مجنون . . وأن هذا المؤلف يمشى على الورق يريد أن يصل إلى نهاية الـكتاب . . بأى شكل . . وأن الهدف ليس واضحا تماما . . وأنه لايعرف كيف يضع النقطة الأخيرة فى القصة . .

وذهب نيرو إلى أحد قاوسة مدينة تورينو وقال له : صديقى مات . . وقبله ماتت قصته وقصتى . . لم يعد للحياة معنى . . سوف أموت بيدى . . وسوف أختار مقبرة من مقابر أسرتى . .

ولم يستطع القس أن يمنعه . . وانتحر ومات . . وفى ٢١ مايو سنة ١٩٣٦ أعلن أحد أديرة مدينة تورينو أنه بعد وفاة هذا القسيس عثروا تحت سريره على حقيبة من الجلد مقفلة ومعها خطاب يقول : آسف لما حدث . ولـكنى أقسمت على كتمان هذا السر . إنها غلطة والله قادر على أن يسامحنى . فليسامحنى الله !

أما هذه الغلطة فهى أنه أقسم للشاب بالبو أن يحفظ لنفسه واحدة من قصته . . ونسخة واحدة من قصة نيرو . .

ولـكن أحدا لم يفهم معنى هذا الخطاب .

وبعد وفاة قسيس آخر فى نفس الدير أصبحت القصة معروفة تماما . .

فالشاب بالبو هو الذى أوصى أحد أقاربه فاشترى كل نسخ كتاب نيرو . وأحرقها . ولـكنه فى آخر لحظة تنبه ضميره . فاحتفظ بنسخة واحدة . ثم أحرق كل نسخ قصته هو أيضا . واحتفظ بنسخة واحدة فقد أحس أن قصة نيرو أجمل وأروع . . فهو لايطيق أن يراها . . وأن يقرأها الناس وأن

يتحدثوا عنه . . وأن تلتف حوله الفتيات . . وأن يكون مشهورا غنيا . . ولذلك قرر أن يموت الكتابان والمؤلفان فى وقت واحد .

وفى ٢٣ إبريل سنة ١٩٤٣ أعلن قسيس ثالث فى نفس الدير أنه يستطيع أن يضيف شيئا إلى مأساة هذين الشابين الصديقين الأديبين . . لقد قرر بالبو أن يدفن نفسه فى أحدى مقابر أسرة نيرو . . وأنه من العجيب حقا ، أن يختار نيرو نفس القبر . . فمات الاثنان فى مقبرة واحدة . . ولكن لماذا كل هذا ؟

إنه الحقد حتى الموت . . مع أن القصتين على درجه واحدة من الابداع الفنى . . وأن كل واحدة منهما قادرة على أن تمد فى عمر صاحبها مئات السنين !

ثم راحت
سنابل القمح
تقطر دما !

« أريد أن أرى أسبانيا »

رغبة متواضعة قالها طفل صغير لوالده القائد الكبير ولكن الأب مشغول بشيء آخر . وفجأة قرر الأب أن يجيبه إلى طلبه . وأخـــذ ابنه إلى معبد الإله « بعل » . وطلب من الكاهنة أن تحرق البخور . وتنفخ فى المزامير ثم تقدم وابنه وراءه وهو يقول : ستسافر إلى اسبانيا .. ولكن بشرط . وقال الابن الصغير : أوافق على الشرط . وبسرعة قال الأب : أن تقسم بالإله أن تطارد الرومان فى كل مكان . فى البر والبحر !

وأقسم الابن أن يفعل ذلك ، واستراح الأب ، وخرج الإثنان من المعبد وسافر الابن الصغير واسمه هانيبال من مدينة قرطاجة فى تونس إلى مدينة قرطاجنة فى اسبانيا . وكان فى التاسعة من عمره .

أما الأب فهو قائد كبير لقوات قرطاجة ، وكانوا يلقبونه بالبرق ، ويسمون ابنه الصغير بالرعد .

وبرحلة هانيبال إلى اسبانيا تبدأ رحلة أعظم كاره عرفه التاريخ ، فلم يحدث أن نذر إنسان نفسه لكراهية الرومان ومحاربتهم مادام حيا ، فقد استولت روما على كل ممتلكات قرطاجة فى البحر المتوسط وانتزعت منهم جزر كورسيكا وصقلية وسردينيا .. ثم سحبت منهم السفن التجارية أيضا ولكن ما تزال روما تغار من قرطاجة التى كانت تفخر فى يوم من الأيام بأنه لا يستطيع أى رومانى أن يغسل يديه فى البحر الأبيض دون اذن مكتوب !

وعلى الجندى الصغير هانيبال أن ينتقم لأهله من هؤلاء الرومان وأن يعيد لهم ما أخذه الرومان .. وأن يقيم قرطاجة على العرش الذهبى الذى تأملت عليه مئات السنين ..

وتمضى السنوات وهانيبال يعيش فى معسكرات الجنود ، ومن مفاخر هانيبال أنه لم ينم فى بيت قط . وإنما عاش فى القلاع والخيام طول حياته ، ولما قتل زوج أخته واسمه الأسد أو « الأسد الرئبال » .. تولى هو قيادة الجيوش وكان فى الخامسة والعشرين من عمره ، ولم يستطع قائد فى تاريخ الحروب أن يجمع هذا العدد الهائل من الجنود من لغات وألوان مختلفة ، كما فعل هانيبال لقد حشد تسعين ألفا من المشاة وعشرين ألفا من الفرسان وثلاثين فيلا ، وفى نفس الوقت كان يعقد المعاهدات مع القبائل المجاورة فى فرنسا وفى أسبانيا ، وترك لأخيه واسمه الأسد حامية فى المؤخرة .

وفى شتاء ٢١٩ ق.م قرر هانيبال أن يتحرك ، وعاد إليه الجواسيس الذين برع فى إخفائهم يؤكدون له أن الرومان لا يعرفون وجهة نظره ، ولكى يخفى خطته احتل هانيبال إحدى المدن الأسبانية ثمانية أشهر حتى قتل الناس أنفسهم خوفا من أن يقعوا أسرى . وكان هانيبال حريصا على أن يستولى على طعامهم وملابسهم . ولكن إذا عرف أن من بينهم قائدا أو رجل دين فإنه يصر على دفنه مع عظيم الاحترام .

وتحركت قوات هانيبال ، فعبرت جبال البيرانيز بعد معارك عنيفة مع القبائل الفرنسية ، ثم وقف هانيبال أمام نهر الرون ، النهر واسع متدفق استولى هانيبال على الزوارق وصنع منها مئات لجنوده وللفيلة أيضا . ثم افتعل معركة لا ضرورة لها وقتل من أعدائه عشرة آلاف ، ثم وضع جثث أعدائه وسد بهم النهر ، وعبر بقواته فوقهم .

أما كيف انهزم أعداؤه وهم كثيرون فقد أطلق عليهم الفيلة ، ولم يكن أحد قد رأى هذا الحيوان العجيب من قبل !

وكان من عادة هانيبال أن يستمع إلى رأى قواده فى سير القتال ، قال واحد : أنت أعظم قائد عرفناه ، وقال ثان : أنت أعظم قائد عرفه التاريخ ، وقال ثالث : إن الإله قد حل فى جسدك .. وقال رابع : : بصراحة .. أنت تعرف كيف تنتصر ، ولـكنك لا تعرف كيف تستفيد من النصر ! .

فقال له هانيبال : صدقت !

ثم أمر بقتله .. وأمر أن تقام له جنازة فخمة ، وأن يدفن مع عظيم الإحترام ! .

وأدرك الرومان بوضوح أن هانيبال لا يريد إلا روما ، وأنه قرر أن يغزو إيطاليا من الشمال ، وانه اختار أصعب الطرق ، ولا أحد يعرف الآن كيف وأين استطاع هانيبال بقواته الهائلة أن يعبر جبال الألب ، ويقال أنه نفذ من ممر سان برنار ، وكان ضيقا جدا فى ذلك الوقت ، ويقال أنه صعد بقواته فوق الجبال ورأى أنواعا عجيبة من العواصف الجليدية والانهيارات الثلجية حتى مات نصف جنوده ، وماتت كل الفيلة من الجوع والبرد .. فهى حيوانات تعيش على العشب الذى لا وجود له ، وعلى الحرارة التى امتصتها السحب .

أما أعداؤه فقد اتخذوا خطة شريرة للقضاء عليه . فكانوا يتحصنون بالتلال والجبال نهارا أما فى الليل فيهربون ويعودون إلى الوديان وكانت الخطة هى إرهاق خيول هانيبال فى الصعود والهبوط ، ونجحوا فى ذلك .. ولكن جواسيس هانيبال اكتشفوا الحقيقة فكانوا يضربون هذه القوات عند الفجر وهى صاعدة إلى قمة الجبال .

وعلى الرغم من أن هانيبال قد ملأ الدنيا فزعا فإنه كان يعامل الأسرى

برفق فقد كان يوافق على تبادل الأسرى ، أما الأسرى الذين لا بديل لهم فكان يبيعهم بمائتى جنيـه .. أما الرومان فكانوا يدحرجون له رؤوس ضباطه من فوق التلال .. أما هو فكان يدفن الرؤوس فى جنازة مهيبة ويسمح لجنوده بالبكاء والعويل على قادتهم .. وكان يفضل الأسرى الأحياء.. وكان يقتل الجنود .. أما الضباط فيتركهم لجنوده لكى يقتلوهم ويدفنوهم ويصلوا عليهم مع عظيم الإحترام !

وعندما علم من جواسيسه أن الجنود الرومان قد ثاروا على قائدهم لأنه لم يشأ أن يشتبك معـــه فى معركة ضحك هانيبال قائلا : انهم مغفلون وأن قائدهم أذكى منهم ! .

فقد نجح الرومان فى تدويخ هانيبال واستنزافه ..

ولكن مجلس الشيوخ فى روما قد هاجم القائد الرومانى الذى يختفى بجنوده فى السحاب .. أو الذى يرتفع بجنوده إلى القمم حتى لا يكون طريق صعود أرواحهم إلى السماء صعبا !

وكان هانيبال يقول : هؤلاء الشيوخ لا يفهمون الحرب .. ولا يعرفون كم عانيت من هذه الخطة .. خطة عدم المواجهة !

وانتهت مرحلة عبور جبال الألب .. وفوجئ الرومان بأن القائد « الرعد » ابن « البرق » قد نفذ بجلده من الجبال الشاهقة ومن الجليد .. ونزلت قوات هانيبال إلى الوديان الدافئة .. فالأرض واسعة والأعشاب والثمار والأزهار فى كل مكان .. ولم يبق من جيش هانيبال سوى نصفه تماما ، طلب الجنود أن يستريحوا ، ووافق هانيبال ، ولكنه بعث بجواسيسه وراء قوات العدو ، عادوا يقولون أن مدينة روما محصنة تماما .. أسوارها عالية ، وتلالهـا تحيط بها من كل مكان ، وهناك جيوش والشعب الرومانى قد استعد لهذا اللقاء .. ومجلس الشيوخ يطالب بهانيبال حيا ..

وطلب هانيبال من الدليل أن يقود قواته إلى قريه اسمها كازينوم ، وأخطأ الدليل فى سماع هذا الاسم ، فتقدم قوات هانيبال إلى قرية اسمها كازيلينوم ، ولابد أن هانيبال لم يحسن نطق الكلمة ، هذه الغلطة كلفته ألف رجل من رجاله ، فقد وقعوا فى مصيدة أقامها الرومان ، ولكن هانيبال انتصر على أعدائه أيضا .

وأدرك هانيبال أنه أمام أمرين : إما أن ينتصر وإما أن يموت . فهو الآن وحده فى إيطاليا ، بعيد عن قرطاجة فى أفريقيا .. وبعيد عن قرطاجنة فى اسبانيا ، ليس له أسطول ، ولا أحد يمده بالمال والعتاد أو الرجال ، وحده تماما فى شمال إيطاليا . وعليه أن يحرص على ماله وطعامه وعتاده ، وقد وصفه الجنود بالبخل، ولكنه معذور ، فقدراته محدودة ، وهذه القدرات لها صفة واحدة : إنها قابلة للنقص فى كل لحظة !

ولم يحدث فى التاريخ أن انعزل قائد برجاله كما حدث لهانيبال ، ولذلك كان هانيبال يقول : إننى وحدى مع القدر وحده،وانى لاأحارب الرومان فقط وإنما أحارب إله الحرب نفسه ! .

وإذا كان القائد قليل العدد ، فى استطاعته أن يقهر من هو أقوى منه إذا لجأ إلى الحيلة، واهتدى إلى فكرة، لقد أتى هانيبال بمائة بقرة ولف القماش على قرونها ، وأشعل فيها النار ليلا وانطلقت الأبقار فى حقول القمح .. وفوجئ الرومان بالنيران تجرى فى كل الاتجاهات . . وبعيدان القمح تشتعل .. وعندما وصلت النيران إلى قرون الأبقار أصيبت بالجنون وانطلقت فى حالة من الرعب والفزع وسط قوات العدو .. وهرب الرومان ليلا .. وعندما طلع النهار عرفوا الحيلة .. هذه الحيلة التى اهتدى إليها هانيبال قد جربها من قبل شمشون الجبار فى القرن الحادى عشر قبل الميلاد فى مدينة غزه ، عندما آتى بثلاثمائة فأر وربط ذيولها بعضها إلى بعض وأشعل فيها النار وأطلقها فى حقول القمح فأحرقها كلها !

وعادت القوات الرومانية تواجه جيشا من الأسبان والبدو وبعض القبائل التى انضمت إلى هانبيال ، جيش هانبيال مرهق جائع بائس . . لا أمل له فى تحقيق أى نصر . . أو الوصول إلى ميناء . .

ومن فوق التلال رأى هانبيال مدينة روما ، ولم يدخلها ، فقد جاءه من يحمل رسالة مفزعة ، فقد تحرك الرومان ناحية قرطاجنة يريدون احتلالها وعلم أن التجار والحكومة فى قرطاجنة قد أنفقوا ضده . واتهموه بأنه مجنون ، وأنه ضلل الشعب ، وبدد أموالهم مع أن أحدا لم يدفع له شيئا وأنه لابد أن يعود . .

ولاأحد يعرف بالضبط كيف عاد هانبيال ، أو كيف هرب ، ويقال أن هانبيال قد عاقب نفسه بأن عاد من نفس الطريق الذى سار فيه جيشه وقرر أن يقطعه ماشيا ، ويقال أن لحيته طالت ، وأن أظافره أيضا ، ولكن العملات التى عثر عليها العلماء بعد ذلك تؤكد أن هانبيال كان حريصا على أن يبدو انيقا نظيفا مهما كانت الظروف ، وكان ينصح ضباطه بأن يستحموا دائما : إذا لم يجدوا الماء فليستحموا فى دماء أعدائهم ، فالجندى يجب أن يرى رئيسه قطعة من السماء . . !

وانتهت رحلة هانبيال الدامية فى أوروبا التى استغرقت ١٥ عاما يطارد فيها الرومان ، وبقى بالوعد الذى أعلنه أمام والده وأمام الإله بعل .

وقبل أن يصل هانبيال إلى قرطاجة كان الرومان قد طلبوا رأسه فهرب إلى سوريا ، وأخفاه الملك انتيوخوس فى إحدى القلاع ، وطلب الرومان برأسه ، ولكن هانبيال قرر أن يعاود الحرب ضد روما ، ثم هرب مرة ثانية ، وطالب الرومان برأسه ، ثم هرب . .

ومن الغريب أن هانبيال هذا قد علم نفسه اللغة اليونانية والأسبانية واللاتينية أيضا ، وكانت له مؤلفات لم تصلنا ، ولكن ضاعت فى الطريق

ولا يذكر التاريخ إلا بعض العبارات أو القصائد التي حفظها جنوده ، وإن كان المؤرخون الرومان قد أدخروا له أسوأ الصفات ــ وهذا طبيعي !

ولكن الوثائق الرسمية لمعارك هانيبال تسجل عليه أنه أذكى جندي أطاع ، وأبرع قائد أمر ، وأن التاريخ لم يعرف قائدا استطاع أن يعتمد على نفسه ١٤ عاما في طريق لم يمش به أحد من قبل ، من أجل تحقيق هدف واحد .. أو للوفاء بوعد .. أو تحقيقا لرغبة مؤكدة هي الإنتقام من الرومان ..

ومن الحكم التي حفظها جنوده له قوله : الشعب الذي لا يعرف الكراهية العظمى ، شعب لا يحق له أن يعيش !

ويقول : الشعب الذي ينسى من أهانه ، شعب لا يستحق لقمة العيش !

ومن أجل ذلك خربت أوروبا كلها .. فقد داسها هانيبال من الغرب إلى الشرق .. ومن الشمال إلى الجنوب .. وقتل من الرومان نصف مليون .. وأحرق حدائقهم وحقولهم .. وروى بالدم أرضهم .. حتى لقد كانت سنابل القمح تقطر دما في أيدي الفلاحين .. ولم يفرق الناس بين النبيذ في الزجاجات والدم في البرتقال ..

ولما ضيق الرومان على هانيبال في كل مكان هرب إليه .. مد يده إلى خاتم في إصبعه ، كان قد أخفى كمية من السم فيه .. ثم شربها .. ومات .. وترك على الحائط هذه العبارة :

« إلى الرومان أعدائنا .. لقد حاربتكم أربعين عاما .. واليوم يموت آخر جندي في طابور الكراهية الأبدية لكم ! .. »

ثم مشت ورائه
فتاة من حلب

٢٧٠ ــ أعجب الرحلات

قالت أمه : لو جاء ولدا لجعلته ضابطا فى الجيش .

قال أبوه : لو جاءت بنتا لكنت أسعد الناس .. لقد ماتت أمى ولا أجد الحنان عند زوجتى .. وأنا ما أزال طفلا .

وجاء ولدا يوم ٢٤ نوفمبر سنة ١٧٨٤ بمدينة لوزان ، واختارت له الأسرة اسم يوهان ، واتجهت الأم بعد ولادته إلى استشارة أقاربها إن كان من الضرورى أن يولد للأسرة طفل آخر ولد مثلا ، وكان رأى الجميع أن ولدا واحدا يكفى فالأب متوسط الدخل والأم فى صحة هزيلة ، وهذا الولد سوف يملأ الفراغ بين الزوج والزوجة وسوف يجدان مادة أخرى للشجار غير أن يقول لها : أنت من الكاثوليك وأنا من البروتستانت وهذه هى غلطتى الوحيدة وكان من الضرورى أن يخرج واحدا منا من دينه ويترك الآخر ..

وعند هذا الحد من النقاش الحاد يقول كل منهما وبسرعة ، لولا أن جاء هذا الولد !

وهذا الولد يوهان بوركهارت هو الذى سيجمع الأبوين على محبته وتربيته وكل ما يقوله الأبوان يؤكدان أن الحياة من غيره مستحيلة ، وقد لاحظ الناس أنهما لا يخرجان من البيت إلا قليلا ، شئ غريب ، لقد تعلق الإثنان بالطفل لابد أن لهما ظروفا خاصة — هكذا يقول الناس .

ولكن الطفل ولد فى عصر الثورة الفرنسية .. وسوف يصبح شابا فى

عصر نابليون ذلك البطل الذى أشعل النار فى قلوب وعقول كل أبناء القرن التاسع عشر ، عندما أصبح نموذجا للبطولة والمعجزة ، والذين تسلقوا الجبال كانوا يحلمون به .. والذين عبروا المحيطات كانوا صورة منه .. فى استطاعة كل إنسان أن يكون بطلا ، لأن نابليون ذلك الفتى الإيطالى جاء يقود فرنسا وأوروبا كلها .. فالبطولة ممكنة ، وعبادتها واجب .. والخطر والخطورة هو قوت الأبطال والدم طريقهم والذهب نهاية كل طريق والخلود نهاية ضعيفة ..

لابد أن هذه أفكار يوهان الصغير .. وإلا فا الذى دفعه إلى أن يسافر إلى بريطانيا وأن ينضم وهو فى العشرين من عمره إلى جمعية اكتشاف أفريقيا وقد اختار اللغة العربية ليتعلمها فى كمبريدج ، ومضت سنوات وهو يتدرب عليها ، ثم قرر بعد هـذه السنوات أن يذهب إلى مدينة حلب بسوريا ليتقن اللغة العربية ، ويقول أن الذى أشار عليه بذلك أستاذ له زوجة من حلب ، وهى ترى أن أهل حلب أقدر الناس على نطق اللغة العربية ، وليس بعيدا أن يجد له زوجة هناك ، ولكن كيف ؟ سوف يشهر إسلامه أليس يؤمن بالإسلام وبالقرآن الكريم والنبى ؟ ألم يقطع الليل والنهار فى تلاوة القرآن وحفظ الأحاديث النبوية .. لقد فعل ذلك عن طيب خاطر .

ولكن لماذا ؟ ! .

ان جميعية « اكتشاف أفريقيا » قد كلفته بأن يقوم برحلة إلى أعالى النيل ليعرف بصورة نهائية إن كان صحيحا أن نهر النيل ونهر النيجر ينبعان من مكان واحد . ان عددا كبيرا من الجغرافيين يؤكدون ذلك .

بدأ يوهان بوركهارت رحلته أولا إلى حلب .. وأتقن اللغة العربية . وتعلقت به إحدى الفتيات . وأدرك هو ذلك . ولكنه ترك لها خطابا رقيقا يقول فيه : لو انتظرتنى عشر سنوات فسوف أتزوجك . أما الآن

فلم أستحق إعجاب أحد غيرك فى هذه الدنيا .. وإذا كنت كافيا لك ، فلا أراك كافية لى .. ان الذى أحتاجه كثير .. فانتظرينى إذا شئت . وسوف أجئ بعد عشرة سنوات ، إن شاء الله ، إلى هنا .. فإن وجدتك تزوجتك .. وإلا أنت أضعت الوقت ولا أنا ..

واتجه إلى البادية وأطال لحيته . ومشى حافيا . وتعرض للشمس ونام فى الهواء الطلق . وعاش على الأعشاب والتمر واللبن . وكشف صدره ووجهه للشمس . ولم يعد أحد يخطئ إذا نظر إليه .. انه تاجر سورى أو لبنانى .. الوجه أبيض والعينان زرقاوان .. واللحية حمراء ويتكلم اللغة العربية بلهجة سورية .. وإذا صافحك شد عليك ثم عانقك وقبلك .. ومد يده إلى جيبه ودعاك إلى بعض الفستق أو التمر حسب الأحوال .

وعلى سبيل التجربة سافر إلى تركيا على أنه تاجر هندى مسلم . وكان قد قرأ الكثير عن الهند . واستقبله الناس فى تركيا على أنه مسلم . ولكن الكثيرين لا يعرفون بالضبط كيف كان شكل الهنود .. ولكنه مسلم على أى حال .. وهو رجل مهذب . ويعرف طريقة إلى المسجد . ويعرف الصلوات ويتلو القرآن — هذا لا شك فيه .

وانتهز فرصة سفره إلى تركيا واختار له أسما جديدا هو إبراهيم ابن عبد الله .

ثم عاد إلى سوريا ومنها إلى مصر . وجاءت الأنباء من كمبريدج تطلب إليه أن يسافر فورا إلى أعالى النيل . وكان يجمع الأخبار من مدينة القاهرة من كل الذين سافروا إلى السودان . ولكن يبدو أنه قد اختار طريقا آخر . فهو قد جاء إلى هذه البلاد وفى رأسه خطة محددة . وهى خطة أخرى غير التى يقولها الناس . . وللدبلوماسيين والتجار الأجانب . . أما خطته فهى أن يذهب إلى الأراضى المقدسة الإسلامية لأن أحدا من المسيحيين لم يدخل المدينة أو مكة . وهو يريد أن يكون أول أوروبى مسيحى . وأن يصف ذلك

للناس .. هذه هى المغامرة .. وهذه هى البطولة التى أتت بهذا الشاب من سويسرا إلى انجلترا إلى سوريا إلى تركيا . وأما منابع النيل فلتكن من اهتمامات شخص آخر .

ترك ابراهيم بن عبد الله القاهرة فى يناير سنة ١٨١٣ إلى أسوان . لم يجد أية صعوبة . انه يقول للناس أنه تاجر سورى مسلم . وهو على باب الله . ومعه بعض السلع يحملها على كتفيه . ولم يكن معه حمارا أو خادم . وحتى هذا الجحش الصغير الذى اشتراه ليس قادرا إلا على حمل هذه السلع فقط .. إما هو أو البضائع .. واختار ابراهيم ابن عبد الله أن يمشى على قدميه .. وكثيرا ما أشار الناس إلى رقة قلبه ورقة حاله أيضا . فلو كان تاجرا غنيا لكان معه عدد من الحمير أو الخيول أو الخدم .. ولكنه رجل طيب . وعندما وصل إلى حدود السودان وجد سوقا للرقيق عامرة بعشرات من الشبان والأطفال . فاشترى له شابا فى الرابعة عشرة من عمره . حاول أن يتفاهم معه . ولكنه لم يستطع ووجد أن أحسن وسيلة للتفاهم معه أن يضع عليه بعض الملابس الأنيقة الملونة . كان الشاب سعيدا بها . واقتسم الرجل والشاب حمل الأمتعة وركوب الجحش الصغير . ثم عبر البحر الأحمر فى زورق ووصل إلى ميناء جده . ومن جدة إلى مكة ومن مكة إلى المدينة . وقد سجل إبراهيم بن عبد الله رحلاته هذه فى كتاب عنوانه « رحلات إلى العرب تضم مقالات عن أراضى الحجاز التى يقدسها المسلمون » . ولكن هذا الكتاب الذى سجله فى مصر ، لم ينشر إلا بعد ذلك بوقت طويل فى سنة ١٨٢٩ .

كان وصوله إلى جدة يوم ١٥ يوليو سنة ١٨١٤ . لا يعرف أحدا ويخاف أن يعرفه أحد . فهو تاجر سورى مسلم . وقد استعد لذلك تماما . وتدرب طويلا . وكان يحمل معه رسالة إلى شخص غنى فى جده . الرسالة من القاهرة . إلى هذا الشخص واعطاه الرسالة . . الرسالة قديمة . . مضى على كتابتها أكثر

من سنة . وحامل الرسالة رجل أبيض الوجه محروق البشرة . أحمر العينين . ممزقة . وحافى القدمين ويسرف فى التحيات والإنحناءات .. لذلك لا يستطيع أن يدفع له فى كل هذا المبلغ الكبير من المال .. ونظر الشخص إلى الرسالة وصاحبها . وقال له : وكيف أعرف أنك لم تسرقها من أحد .. اذهب يارجل واتق الله !

ولكن بعض الناس أشاروا على هذا الشخص الغنى أن يسمح له بالمبيت حتى الصباح .. فليس معه قرش واحد . ثم نادى إبراهيم بن عبد الله وقال : تقسم أنك لست لصا . وقال إبراهيم : وحق كتاب الله وآياته المنزلات وهذه الأرض التى مشى عليها سيد العالمين . إننى صادق .. والله على ما أقول شهيد !

وأعطاه بعض المال وقال له : انصرف .. الله وحده يتولاك بما تستحقه !

وكل ما كان يملكه إبراهيم فى ذلك الوقت هو بعض الدنانير لفها فى قطعة قماش ثم ربطها حول ذراعه بإحكام . وأدرك إبراهيم أن الرحلة سوف تكون صعبة . وانه مطالب بكثير من المؤن والاقتصاد . وانه لا يمكن أن يتراجع مهما كانت الأسباب فإن أحدا لم يشك فيه حتى الآن . ولكنهم يشكون فى أمانته فقط .. إذن هى مسألة أخلاقية .. ولكن لغته وشكله وسلوكه كلها سورية تماما . لا بأس .

ومرض . وأصابته الحمى . وهو يعرف جيدا ما الذى أصابه ، فهو طبيب . تخصص فى الطب . وبعد ذلك هجر الطب . واتجه إلى المغامرات فى لغات وبلاد غريبة واختار أصعب المواقف : الأراضى المقدسة . ان تشخيصه لهذا المريض يقول : « أصبتنى الحمى . أعرف ذلك .. ولابد أن يكون السبب هو ارتفاع درجة الحرارة والقليل من الماء الذى أشربه .

وقلة النوم . والتعب الدائم .. ربما .. ولكنى اعتقد أننى أكلت الكثير من الفاكهة الموجودة هنا . وانى أسرفت فى ذلك . وبعض هـذه الفاكهة لا أحبها .. ثم أننى لا أجد وسيلة للنوم العميق حتى أخرج من هذه الأرض .. سوف أنام فى مصر .. ولكن أين هى مصر الآن .. لن أراها قبل عام .. وإذا كانت الرحلة إلى الأراضى المقدسة قد بدأت هذه البداية الباردة المؤلمة فالله أعلم كيف تنتهى .. أو كيف انتهى » ..

واهتدى إلى أنه من الضرورى أن يبيع الخادم الذى اشتراه من حدود السودان وباعه وكسب من بيعه أربعة أمثال ثمنه . وكان الشاب حزينا على هذا الفراق ، وكان هو أكثر حزنا ، يصف لحظة الوداع فيقول فى مذكراته : « لا فراق أمى ولا أبى .. ولا فراق الوطن .. لا شئ من هذا له مثل الأثر العميق فى نفسى .. أنه أول إنسان اختاره صديقا ورفيقا .. ولكن ما الذى أعمله .. وداعا .. وبعدها شعرت بشئ أليم من الوحدة لايمكن أن يوصف .. فأنا وحدى تماما وعلى أعصابى » .. ويقول : لا داعى لأن أتسول .. وأمد يدى إلى الناس .. فقد وجدت متسولا سوريا ومن مدينة حلب . وسألنى : من حلب . قلت : نعم .. قال .. ومن أى الناس فى حلب ؟ قلت : لو كان لى ناس ما سألت الناس ..

واشترى إبراهيم ملابس مصرية . فهو الآن تاجر مصرى عاش معظم الوقت فى مدينة حلب . وهو يعرف عدد كبيرا من الأجانب . وكتب إلى بعض الأصدقاء فى القاهرة يطلب المـال .. وسوف يجئ بعد ثلاثة أو أربعة شهور . واهتدى ابراهيم إلى خان — لوكاندة — وبات فيه .. وعرف صاحب الخان أنه ليس قادرا على دفع أجر المبيت .. فدفعه إلى أن ينام أمام باب الخان ليلا .. تحت خيمة صغيرة .

وتشاء الصدفة أن يلتقى بمصرى اسمه يحى أفندى الذى يعمل طبيبا لطوسون باشا وكان قد قابله فى القاهرة . وكانوا قد قدموه له على أنه رحالة إنجليزى .

أى رجل يريد أن يتفسح فى بلاد العرب . مجرد فسحة . ولكن يحى أفندى خشى أن يكون إبراهيم هذا جاسوسا إنجليزيا . ولكن كلمة « إنجليزى » لم تعد تضايق أحدا .. فالإنجليزى هم الذين هزموا نابليون . ثم إن هذا الرجل قد أسلم . ويحفظ القرآن والأحاديث ويصلى فى الأوقات الخمسة .. ولكن لا يزال يحيى أفندى يتشكك فى أمر هذا الإنجليزى المسلم .. وتهامس الناس . ولكن الرجل قد أسلم . ولكى يطمئن الناس أتوا باثنين من العلماء ليمتحناه فى مبادئ الإسلام .

ودارت الأسئلة حول فرائض الإسلام ومناسك الحج ، وتفسير الآيات والأحاديث النبوية .. لقد وجدوا ابراهيم بن عبد الله قد استعد لهذا اليوم . إنه رجل مؤمن لا شك فى ذلك . استراح الجميع إلى ذلك . وتناولوا العشاء . وبقى إبراهيم ينتظر الفلوس القادمة على ظهر جمل أو حمار أو زورق من القاهرة .

وفى يونيو سنة ١٨١٤ دخل مدينة مكة . الآن فقط عليه أن يدرس كل شئ وأن يصفه وأن يحسبه . ولم يكن معه من الأدوات الحديثة سوى بوصلة بحرية . أما المقاييس الأخرى فقد سرقت منه . والذى كتبه إبراهيم عن مكة فى غاية الدقة ، إنه لم يترك شيئا لم يصفه وصف المسجد الحرام . ووصف الأعمدة والأبواب والسلالم والأحجار . والتقى مع الناس حول الكعبة ووصفها . والحجر الأسود لمسه عشرات المرات .. إنه قطعة من الحجر الأسود البنى . لقد بدا كأنه مجموعة من الأحجار ألصقت بعضها إلى جوار بعض .. وهو فى غاية النعومة .. لأن ملايين الأيدى والشفاه قد لمسته .. وسوف تفعل ذلك ملايين غيرها فى ألوف السنين وسجل إبراهيم ملامح الناس وبلادهم .. وسجل دعواتهم عندما يدخلون البيت الحرام ويلفون حول الكعبة .. وهو يقول : يارب البيت العتيق . . ارحمنى من النار .. واغفرلى ولوالدى .

وكانوا جميعا يبكون .. وقد اندهش إبراهيم كيف انه لم يبك .. ويفسر ذلك بقوله : كنت مشغولا بإحصاء الدموع !

ثم اتجه إلى بئر زمزم .. الناس زحام حول البئر فى كل يوم وكل ليلة .. لا هم يرتوون ولا ماء البئر ينفذ .. وكانوا يحملون الماء فى أوعية من الفخار أو من الجلد .. وفى الليل كان ينام فى مكان منزو من المسجد الحرام . وفى أحد الأيام وهويتقلب على الأرض وجد سكينا تحت يده وكان السكين باردا. ونهض من نومه مفزوعا . ولم يجد صاحب السكين وانتقل من هذا المكان إلى مكان آخر . ونام وصحا من نومه على شئ بارد عند عنقه . وكان سكينا باردا . ووضع يده على جبهته . لم يكن محموما . ولكنه كان مرهقا . ونام وصحا من نومه ليجد نفس السكين عند قدميه .. وقرر أن ينام فى مكان آخر وأن يضع الماء البارد على رأسه .. كل ما معه ماء .. وأخيرا ظهر السكين فى يد رجل هندى إنه يريد أن يبيعه . واعتذر إبرهيم عن شرائه . ومضى الرجل ليضعه عند أقدام النائمين .. ثم ينكفئ على الأرض فى انتظار من يناديه . وناداه الناس بأنهم لا يريدون .. وجاء الرجل يحمل سكينة ولم يكن إبراهيم يعرف هذه العادة عند الحجاج من الهنود ..

وانتقل ابراهيم بن عبد الله إلى المدينة المنورة . وسجل ملاحظاته الدقيقة لم يخطئ فى حساب شئ .. ولا فى إحصاء كل ملامح مسجد الرسول عليه السلام . ولا البيوت ولا المقابر ولا المساجد المجاورة . ولم يستطع أوروبى بعد ذلك أن يضيف إلى ما كتب إبراهيم شيئا جديداً ..

وأحس إبراهيم بن عبد الله أنه قد أدى مهمته العلمية . ولابد أن يعود إلى القاهرة . وعاد وهناك سجل مذكراته التى تركها تحت تصرف « جمعية اكتشاف أفريقيا » ومن الغريب أنه فى القاهرة وجد رسالة من فتاة حلب التى عرفت حقيقته . فقد جاءت إلى مصر مع والدتها . وهـذا

شئ غريب وعجيب ، فلم يكن مألوفا أن تفعل فتاة ذلك ولا أم أيضا . ولكن الفتاة مات أبوها . واختلفت الأم مع اخوة الفقيد على التركة . ومرضت إبنتها . واختارت الأم ابنتها . وذهبت بها إلى القاهرة بحثا عن الرجل الغريب الأجنبي الذى أحبته الإبنة وتعلقت به ووعدها بالزواج إن هو جاء إلى حلب . ولم يذهب إلى حلب . وسألت . وعرفت . وبحثت عنه فى القاهرة . وقيل لها سوف يجئ .. وغاب .. وتركت له رسالة تقول فيها بالعربية طبعا : « إننى لا أربطك بكلمتك . لهذا جئت . فقد قررت أن أسافر إلى تركيا وأعيش مع أمى هناك . فقد مات أبى ولم يعد لأمى أحد فى هذه الحياة سواى .. ولم يعد لى أنا سواك .. « ذهب أبى ولن يجئ . وأنت ذهبت وسوف تجئ بعد عام أوعامين .. والله يمتعك بالصحة والعافية والسلام » ..

وكانت هذه الرسالة قد جاءت فى موعدها .. وشعر إبراهيم بالراحة وذهب ليصلى لله شكرا فى مسجد الإمام الحسين . وهناك التقى بعدد من الرجال المسافرين إلى سيناء .. وهنا فقط عاوده حلمه القديم : أن يكتشف الطريق الذى سار فيه موسى واليهود عندما طردوا من مصر . وتوجه إلى سيناء سنة ١٨١٦ . ولكن المرض منعه من إكمال هذه الرحلة فعاد إلى القاهرة لينفذ الخطة الأولى التى جاء من أجلها : أن يسافر إلى فزان فى ليبيا ومنها إلى الصحراء .. ثم إلى نهر النيجر .. منابع هذا النهر .. ومنها إلى النيل ليتأكد إن كان صحيحا أن النهرين ينبعان من مصب واحد ..

وقبل أن يستعد للسفر نهائيا قرر أن يكتب مذكراته لتنشر فى الوقت المناسب .. وأرسل خطابا إلى رئيس « جمعية اكتشاف أفريقيا » يقول فيه : كل شئ تم على أحسن صورة ممكنة ولكن شيئا واحدا فقط هو الذى أوجع قلبى .. ولم أكن أتصور ذلك . فأنا من أسرة أعصابها من الحديد .. ونحن ولدنا بين الجبال . وقد استعرنا من الجبال صلابتها وشموخها أيضا .. ولكن من الغريب أن قلبى قد اهتز فى حنان عميق عندما تلقيت رسالة

من (لبينة الحلبية) .. انها أول رسالة من فتاة .. وأول تجربة .. فأرجو أن تبعثوا لها بخطاب اعتذار رقيق — إن أمكن — وأن تشرحوا لها هوى ومهاى أيضا » ..

ولا أحد يعرف إن كانت الجمعية قد أرسلت خطابا إلى لبينة الحلبية . ويقال إنها أرسلت . ويقال إن الفتاة قد تركت له خطابا ولكن قلبها لم يطاوعها فظلت فى القاهرة . لقد انتظرته أكثر من عشر سنوات . وقد أحبته . وهى التى خاطت له ملابسه وهى التى اشترت له المسبحة الطويلة . وهى التى سوت له لحيته . وهى التى كانت تهرب من أهلها لتصلى وراءه : المغرب والعشاء والفجر .. إنها قررت أن تكون وراءه مدى الحياة ..

لابد أنها لم تبرح القاهرة .. وإلا فكيف وجدوها تبكى إلى جواره يوم ١٣ أكتوبر سنة ١٨١٧ عندما توفى فى القاهرة متأثرا بمرض الدوسنتاريا .. وهى التى سارت بالقرب من جنازته عندما دفن فى مقابر الفقراء المسلمين باسم الحاج إبراهيم عبد الله تاجر الأقمشة السورى . ! ؟

وعندما عادت لبينة الحلبية أو الحلبى إلى سوريا تلقت خطابا من « جمعية اكتشاف أفريقيا » واحتفظت به .. وهو الآن فى المتحف البريطانى فى لندن . وقد حاول بعض الباحثين أن يجدوا لهذه الفتاة أثرا . لم يجدوا .. فربما غيرت اسمها .. أو استعارت إسما آخر . . فهى فتاة من حلب . . وكم فى حلب من ألوف الفتيات !

كانت الملائكة تغني
ونحن نغرق!

طاقم القلعة الطائرة ٢٣٤ ل.د وعددهم ثمانية يطلبون النجاة . وهم فى مكان ما بالمحيط الهادى . انتهى الخبر العاجل الذى نشرته الصحف الأمريكية صباح يوم ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٤٢ .

فتذكر القراء الأمريكان رسالة عاجلة لطائرة أخرى تقول : نحن ندور ولا نتحكم فى الطائرة ولا نجد الجزيرة تحتنا . انقذونا . نحن لا نسمعكم . واختفت هذه الطائرة أيضا . وعادت الصحف ونشرت ما حدث للطائرة المعروفة باسم « دالاس » سنة ١٩٣٨ وكانت فى طريقها من جزر هاواى إلى كاليفورنيا . والتى جاءت رسالتها العاجلة تقول : حتى إذا حاولتم فلا أمل نحن نحترق !

وبالفعل احترقت الطائرة ولم تعثر لها ستون طائرة إنقاذ على أى أثر ..

وأعلنت البحرية الأمريكية أن القلعة الطائرة بملاحيها الثمانية قد فقدت تماما . وأبلغ أهل الملاحين أن البقية فى حياتهم مع أعظم تمنيات البحرية الأمريكية لأسر الشهداء بطول العمر والبقاء .

ولن يتسع وقت القارئ عادة لأن يتخيل المساحة الهائلة التى سقطت فيها القلعة الطائرة برجالها الثمانية . كل ما يتصوره هو أن المحيط الهادى واسع شاسع عميق . ولكى أساعد القارئ على أن يرسم لنفسه صورة هذه الصحراء الرهيبة من الماء فإن المحيط الهادى مساحته ٦٨ مليون ميل مربع ويغطى ثلث الكرة الأرضية . ومتوسط عمقه بين ثلاثة أميال وعشرة أميال !

وفى هذه الملايين سقطت قطرة أو دمعة عين عليها ثمانية من الرجال والمطلوب إنقاذهم فى أسرع وقت – إن كان ممكنا !

* * *

كان ذلك يوم ١٨ أكتوبر سنة ١٩٤٢ عندما ارتفعت القلعة الطائرة فى الهواء – الهواء حولها منعش . الشمس مشرقة . السحاب بعيد . وجزر هاواى تبدو من الطائرة فى لون المانجو . والمحيط الأزرق فى لون البنفسج ثم فى لون زجاج السيارات أيام الحرب . وكان من عادة قبطان الطائرة أن يغنى . ومن عادة زملائه أن يردوا عليه .. وكان يدعوهم إلى ذلك . ويقول : هذا أمر وفى ذلك اليوم راح يغنى ويقول : هذا أمر . ولكن أحدا لم يرد . واندهش . ولكن كانت دهشتهم أكبر لأن هذه الأغنية لم يسمعوا بها من قبل . أما الأغنيات السابقة فقد سمعوها منه مئات المرات .. دون أن يملوا ودون أن يمل . ولكن الأغنية الجديدة تقول : وطار العصفور .. ولم يعد .. أين أنت يا شجرة عالية .. على أرض عارية .. أين أنت .. ولم يعد العصفور !

بعضهم تشاءم ولم يرد .. قبطان هذه الطائرة إسمه « جيمس ويتكر » . وقد سجل هذه المغامرة المروعة فى كتاب ممتع له إسمه « ونحن نغرق كانت الملائكة تغنى » ..

يقول إنه لاحظ بعد قيام الطائرة بساعتين أن هناك غريبا فى العدادات التى أمامه .. فجأة بعضها يعلو ويهبط .. وكانت الطائرة تنطلق بسرعة ٣٠٠ كيلو فى الساعة .. وإن كانت الطائرة راسخة فى الهواء والتفت إلى زملائه لعلهم يرون ما يرى .. ولم يكن من الصعب أن يعرفوا أن هناك تسربا هائلا للوقود ولا يمكن التحكم فيه .. وفى مثل هذه الحالة ليس أمامهم إلا الهبوط لأن العودة مستحيلة .. ومعنى ذلك أن الوقود تسرب من الطائرة بشكل مفاجىء .. أو إحدى الأنابيب قد انفجرت . وقرروا الهبوط إلى الماء .. واستعدوا لذلك كل واحد لف حول نفسه بطانية.. ووضع مخدة عند صدره.

وجمعوا ما استطاعوا جمعه من الأشياء الضرورية .. وصدر قرار القبطان إنه من الأفضل الهبوط الإرادى بدلا من الهبوط الاضطرارى .. يجب أن يهبطوا بإرادتهم وبذلك يمكنهم التحكم فى سرعة الطائرة ودرجة ارتفاعها بالمياه .. ولكى يخففوا من درجة الارتطام ألقوا بالكثير من حمولتها .. من القذائف .. ومن الصفائح ومن الوقود نفسه .. واحتفظوا بمسدس إطلاق الشعلات المضيئة .. أما زوارق النجاة فقد سحبوها استعدادا لنفخها بالهواء تلقائيا .. الطائرة الآن الضخمة على ارتفاع ٥٠٠ قدم من الماء ٠٠ مائتى قدم .. مائة قدم .. خمسون . صرخ أحد الرجال :

هل عندكم وقت الصلاة ؟

ولم يرد عليه أحد ..

ولكنه أخرج من جيبه « الكتاب المقدس » وراح يقرأ .. ثلاثون قدما .. عشرون قدما .. عشرة أقدام .. خمسة أقدام .. ومازال يصلى .. قدم واحدة .. وارتطمت الطائرة بسرعة ٢٠٠ ميل وتوقفت بعنف لدرجة أن الدم نزف من أنوفهم جميعا ..

إنها استقرت الآن على أمواج المحيط .. وبسرعة قفز الرجال إلى جوارها .. وسحبوا الزوارق التى امتلأت بالهواء وطفت إلى جوارها .. ثلاثة زوارق .. ثلاثة رجال وثلاثة رجال .. واثنان .. وكانت هذه أول مرة فى تاريخ الطيران أن تهبط طائرة حربية ذات أربعة محركات إلى المحيط دون أن يصاب أحد من رجالها .. لقد كان المحيط يبدو قطعة من الحرير الأزرق من الارتفاع الشاهق .. أما الآن فهو مثل جبال متحركة غاضبة .. وترابطت الزوارق بعضها فى بعض لتمشى معا .. أو تقف معا .. الزورق الواحد مساحته ٧ أقدام فى أربعة . ومن الداخل .. تبلغ سعة الزورق خمسة أقدام فى قدمين ونصف . ومعنى ذلك أن الطيارين يجب أن يتلاصقوا جالسين أو واقفين

ليظل الزورق فى حالة توازن .. وقد تضايقوا أول الأمر ولكنهم بعد ذلك اعتادوا على هذا السجن العائم ..

أما الأشياء التى حملوها معهم فهى سكين فى كل زورق وثلاث سنانير لصيد السمك .. ومجدافان من الألمنيوم وساعة وقلم وبعض الأوراق و ١٨ شعلة لإطلاقها فى الهواء لعل السفن أو الطائرات تهتدى إليهم .. وفى كل زورق مائة دولار . هذه الدولارات كانت النكتة التى ظلوا يسخرون منها طول الوقت .. بعضهم يشكو من عدم وجود فكة .. أو عدم وجود باعة سجائر يتجولون فى المحيط !

ومضت الساعات وهم فى حالة اعتزاز عنيف .. لا شىء حولهم له معنى .. لا الماء ولا الموج ولا السماء .. لا شىء .. وواحد منهم ما يزال يقرأ فى الكتاب المقدس وبصوت مرتفع .. ولكن أحدا من الموجودين حوله لا يهتز لشىء مما يقول .. ولكنه ماض فى القراءة وكأنه يتحدث إلى شخص يراه ويسمعه .. وحاول واحد منهم أن يقول له : كفى .. ولكن قبل أن يقولها وجد نفسه يردد معه آيات الكتاب المقدس .. وعلت صرخة .. لقد اقترب عدد من أسماك القرش .. وطارت سكين صاروخية استقرت فى بطن سمك القرش .. وهربت الأسماك الأخرى .. ونزف الدم .. وصحا الموجودون من اليأس المميت . . ورجع كل واحد منهم يكتب .. وظل الذى يقرأ يرتل المزامير . وغابت الشمس وجاء الليل باردا . وتغطوا بالبطاطين والتصقوا بعضهم ببعض لتتوازن الزوارق .. وطلعت الشمس .. وبعد ساعات تحولت الشمس إلى قطعة من النار.. من الساعة الحادية عشرة حتى الرابعة مساء .. فهذه منطقة استوائية . . لا ماء ولا طعام . . وإنما فقط عثر واحد منهم على أربع برتقالات .. قرروا أن يتقاسموها على مدى أيام .. لا يعرفون كم سيكون عددها .. أما واحد منهم فقد وجد الشجاعة فى أن يقتل الأسماك ويشرب دمها .. إنه أقل ملوحة من ماء المحيط .. وغابت الشمس .. وجاء

الليل البارد .. وطلعت نار الشمس مبكرة .. وهبط المطر .. ونزل فى بطن الزوارق .. شربوه .. ووضعوا ما زاد عن حاجتهم فى قراطيس نحاسية مفرغة .. وغابت الشمس .. وجاء البرد .. وظهرت الأسماك .. وأكلوها نيئة طبعا ومن العجب أن عصفورا صغيرا وقف على رأس واحد منهم .. وامتدت إليه يد فقتلته فى ثانية .. وأكلوه نيئاً .

وجاء اليوم الرابع وهم على هذه الحال من الجوع والعطش والبرد .. وكان لابد أن يبحثوا عن طريقة يخففون بها انتظار الموت .. فوقف واحد منهم يمثل دور جرسون فى فندق شيراتون .. ووقف يسأل الزبائن هل يحبون أن يأكلوا اللحم مشويا أو مشويا جدا .. والنبيذ هل يفضلونه أحمر أو أبيض . والويسكى على الصخر — أى بالثلج فقط — أو بالماء أو الصودا .. والموسيقى يفضلونها هادئة أو صاخبة .. أما الحساب فلا داعى للتفكير فيه لأنهم ضيوف الرئيس الأمريكي شخصيا .. ويضحكون . أما الجرسون فيسقط من الإعياء فى المحيط ويسحبونه إلى الزورق ويضربونه على قفاه ليسكت فإن هذه الهلوسة توجع قلوبهم ومعداتهم أيضا . وواحد منهم يقرأ الآيات من ٣١ إلى ٣٤ من إنجيل « متى » .

فلا تهتموا قائلين ماذا تأكل . ماذا تشرب . وماذا تلبس . فإن هذه كلها تطلبها الأمم . لأن أباكم السماوى يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها . لكن اطلبوا أولا ملكوت الله وبره . وهذه كلها تزاد لكم . فلا تهتموا للغد . لأن الغد يهتم بنفسه . يكفى اليوم شره — فعلا اليوم وغدا شر . . والأيام القادمة شر أيضا » .

وقال واحد منهم : والغد ليس معناه الغد ربما قبل الغد سيجئ الفرج ..

وقال ثان : ليس الغد معناه الغد .. وإنما معناه ما بعد بعد الغد !

وقال ثالث : كل يوم له غد .. ولذلك فالغد لن يجئ !

طبيعى جدا أن يكون هؤلاء الرجال متشائمين أو بائسين أو يستعدون للموت .. فمن الذى يستطيع أن يصل إليهم .. أو يراهم لكى يصل إليهم . ومتى ؟

وقال الذى يصلى .. يا أخوتى دعونا من هذا الكلام السخيف . ولنشترك فى صلاة واحدة .. ان السماء لن تتخلى عنا ..

وقال واحد : ولكن لماذا لا تتخلى عنك السماء .. ما الذى فعلته لكى يحميك الله .

فرد عليه : لا شئ .. سوى أننى أمل أمى .. وكل ما خرجت به من الدنيا ..

وقال واحد آخر وكأنه صوت السماء : إذن يجب أن تتركك السماء من أجل أملك ..

وقال ثان : وأنا لا أذكر أننى عملت شيئا أستحق عليه الحياة .. ولكننى لم أفعل شيئا أستحق عليه هذا العذاب .

فرد عليه أحد زملائه : : هذه مسألة فيها نظر !

وقال ثالث : إننى مؤمن بأن الله يمتحننا .. وقد امتحننى قبل ذلك عدة مرات .. ونجحت فى الامتحان .. وأنا رجل مؤمن مسالم .. وأعتقد أن الله سوف ينقذكم جميعا من أجلى .

أما الذى يصلى فظل يقرأ .. ولما سألوه .. لم يتوقف عن الصلاة .. صاعدا هابطا مع الموج ..

وأطلقوا شعلة فى الهواء .. ارتفعت الشعلة ، وارتدت فى نفس المكان وكادت تحرقهم .. لولا أنهم انحرفوا بعيدا عنها .. والظلام الذى مزقته الشعلة عاد فالتأم من جديد ..والصوت الذى انطلق مع الشعلة ابتلعه هدير

الموج والريح .. وهدأ كل شئ إلا من تمتمات هذا الرجل الذى يصلى .. وكما غابت الشمس قبل ذلك . غابت للمرة الثانية عشرة ..

وفى الصباح كانت الأمطار غزيرة .. الجو خانق لكل هذه الصدور التى تتنفس فيه . . والرطوبة قد حطمت هذه العظام التى تتساند بعضها على بعض من الجوع والتعب .. والأسماك تروح وتجئ .. وسمك القرش يقترب من الزوارق .. والخوف كله قد استولى عليهم . فهم يخشون من أنياب هذا السمك المفترس لا أن تعضهم ولكن أن تعض الزوارق المطاط .. لو فعلت لغرقوا فى المحيط .. ولذلك كانوا حريصين على إبعاده بالسكاكين .

قال الذى يصلى : أن الملحدين جميعا هم الذين يعيشون فى الوديان .. المؤمنون هم الذين يصعدون الجبال .. الملحدون على الشاطئ .. المؤمنون يركبون زوارق النجاة .. ان الموت يارب هو الذى يجعلهم يتطلعون إلى وجهك الكريم .. إرحمهم يارب .. أغفر لهم إنك غفور لذنوبهم رحيم بقلوبهم !

وفى اليوم السادس عشر مرت طائرة من بعيد .. إنها طائرة استكشاف .. لم يستطع أحد منهم أن يلفت الطائرة إنهم بقعة رمادية فى صحراء زرقاء .. لا أحد رآهم . اقترح واحد منهم أن يتفرقوا فى مساحة واسعة .. لعلهم يلفتون عيون الطيارين . الفكرة وجيهة . ولكنهم فى حالة من الإعياء والفزع . إنهم يرون أن حياتهم فى أن يكونوا معا . أن يعيشوا معا وأن يموتوا معاً تماما كأنهم ما زالوا فى الطائرة .. ولكن واحد منهم أعلن أنه ما يزال رئيسهم وأعلاهم رتبة . وأن طاعته واجبة . وكانت أوامره أن يتماسكوا وألا يتفرقوا فى وجه الموت ..

وكان اليوم العشرون أليما . الجو حار نهارا . بارد ليلا . العطش شقق شفاههم ملوحة البحر أحرقت جلودهم . . ماء المطر لم يعد كافيا . الأسماك

أصبحت مصدرا للأوجاع في المعدة والمصارين .. عدم وضوح الرؤية وعدم وضوح السمع أيضا .. جعلهم يتصورون سفنا قادمة وطائرات محلقة .. مع أن شيئا من ذلك لا وجود له . إنه من خلق هلوسات العين والأذن .

ولكن واحدا منهم أعلن أنه يرى جزيرة بوضوح .. بعيدا .. بعيدا ..

وكان ذلك في الساعة الثانية من مساء ١١ نوفمبر سنة ١٩٤٢ . إنهم الآن يرونها واضحة . ولكنها بعيدة .

وفي اليوم التالي اقتربوا منها أكثر وأكثر .. العروق المرجانية بارزة ناتئة .. كالسيوف .. ولكنهم عاجزون تماما عن ترك الزوارق .. وعاجزون أيضا عن البقاء فيها .. ونزل واحد منهم ، أكثر قوة وشبابا .. ثم سار فوق الشعاب المرجانية .. ثم ألقى بنفسه على الرمل .. على الأرض الساكنة .. وتوالى الرجال بعده واحدا واحدا .. وأحس هؤلاء الرجال أنهم بالقرب من النجاة .. إن أشجار جوز الهند هي مصدر السعادة كلها .. فثمار جوز الهند هي كاسات مليئة بالماء .. ولذلك راحوا يزحفون على ركبهم حتى يصلوا إلى أشجار جوز الهند .. وكانت الصعوبة الأولى هي كيف يكسرون هذه الثمار .. هنا فقط أحسوا أن السكاكين التي معهم هي مفتاح السعادة .. وراحوا يحطمون ثمار جوز الهند كالوحوش .. ويشربون ماءها القليل .. فقد كانت هذه الثمار ضامرة . ولكن القليل قد رواهم .

وفي صباح أول يوم لهم على الجزيرة — ١٢ نوفمبر — مرت طائرة دورية .. الطائرة على ارتفاع متوسط ولكن شيئا لم يستوقف هذه الطائرة .. فلابد أن هذه الجزيرة مهجورة وقد تسللوا إلى أحد الأكواخ .. الكوخ فارغ تماما . ويبدو واضحا أن أصحابه هجروه بطائرة فهناك بقايا زورق صغير . وجاءت طائرة ثانية على ارتفاع ألفي قدم ..

إن كل ما ينقص هؤلاء الرجال هو بعض العقاقير الطبية ..

وفجأة ظهر عدد من سكان الجزيرة الأصلية فى زوارق صغيرة . ملامحهم يابانية . وكان من بينهم واحد يتكلم الإنجليزية . وعرفوا من هذا الرجل أن الجزيرة بها حامية صغيرة وأن هذه الحامية قد تلقت رسالة عاجلة بضرورة البحث عن هؤلاء المفقودين . ولذلك خرج سكان الجزيرة فى الشمس الملتهبة يبحثون عن جثث هؤلاء الذين ناموا وقاموا وشاموا وجاءوا فى زوارق المطاط منذ أكثر من عشرين يوما طعامهم أسماك نيئة وماؤهم مطر وفاكهتهم فصوص أربع برتقالات ضامرة !

أما هذا الشاب اليابانى الذى يعرف الإنجليزية فقد عرض عليهم خدماته . فقالوا له ضاحكين : علبة سجائر أمريكية .

واختفى ليعود لهم بعلبة سجائر . كانت أعظم وأروع هدية قدمت لهم .

وجاءت نساء الجزيرة يقدمن الطعام : اللحم المشوى والحساء وجوز الهند المسلوق . وبعض الخمور . وكانت من بينهم فتاة جميلة . يابانية الملامح . ولكن عينيها زرقاوان . وقالوا : من يكون أبوها ؟ ..

وكان رد الشاب اليابانى : عليك أن تستنتج ..

ثم روى لهم قصة طيار أمريكى احترقت طائرته . ولكنه ألقى بنفسه فى الماء وظل يسبح يومين حتى وصل إلى هذه الجزيرة بعد أن أكل السمك معظم ظهره .. وأنقذته أم هذه الفتاة قبل أن يموت فقد داهمته واحدة من أسماك القرش .. وكادت تقضى عليه .. وتصدت لها أم هذه الفتاة فأكلت ذراعها .. وقاومت وهى تصرخ وتبكى حتى أنقذها رجال الجزيرة وتزوج الأمريكى هذه الفتاة . وكانت هذه الشابة الجميلة إبنته . أما هذا الرجل فقد مات بعد ذلك ودفن فى مكان ما بالجزيرة .

وجاءت طائرة ألقت لهم بالطعام والعقاقير . والإسعافات الأولية والملابس . وبعد يومين جاءت سفينة وأنزلت زوارقها ونقلت الرجال الثمانية إلى جزيرة أخرى اسمها « س ٤ » وهناك وجدوا مستشفى ميدانيا . ودخلوا المستشفى . وبعد أسبوعين نقلوا جميعا إلى أمريكا . وعندما هبطت بهم الطائرة . تقدمهم جميعا ذلك الرجل المؤمن الذى لم يتوقف عن الصلاة وهو يقول : كنت أعلم أن الله سوف ينقذنا جميعا.. فنحن لم نقتل إنسانا بريئا .. إننى كنت استمع إلى صوت الملائكة ، كانت تملأ أذنى .. لقد رأيت الله ..

وبعد أن مشى خطوتين سقط هذا الرجل المؤمن ميتا .. كأنه عندما رأى الله دعاه الله إليه .. فإلى روح هذا الرجل المؤمن بالله ، أهدى هؤلاء الرجال الشجعان قصة نجاتهم من الموت !

رصاصة قتلت رجلين
وأحيت امرأتين !!

الموت أهون من أن أعيش مع أبى – قالتها فتاة فى الرابعة عشرة من عمرها . لم تخطر على بالها هذه الفكرة . ولكنها أحست بذلك وهى تصلى فى كنيسة القديس يوسف بمدينة جنوة .

وهى لا تعرف كيف جاء هذا القرار . لا شئ مما قاله القسيس فى الصلاة يدعوها إلى ذلك ، لا شئ مما قاله أبوها أثناء الإفطار . ولكن هذه الفكرة خرجت من أعماقها واستولت عليها .. ان هذه الفكرة شغلتها .. خنقتها .. تماما كدودة القز التى تنسج لنفسها كفنا من الحرير .. تنسجه خيطا خيطا . . وكلما وجدت فى الكفن ثقبا ضئيلا يدخل منه الهواء سدته حتى لا تعيش .. إنها تريد أن تموت فى أرق وأنعم كفن ..

خرجت الفتاة من الكنيسة وهى تسد كل طريق يعود بها إلى البيت . لم تمر بالشارع الذى تسكن فيه .. ولا بالشارع الذى يعمل به أبوها .. ولا بهذه الحارة التى تسكنها خالتها . . وجعلت طريقها على مقابر جنوة الشهيرة . وقررت أن تدخل فى إحدى المقابر هذه الليلة .. لماذا ؟ لكى تفكر لقد سمعت القسيس يقول : سعداء من يجعلون طريقهم على القبور ..

وجعلت طريقها على القبور وإلى القبور ..

وفى الليل جمعت بعض ثمار الكريز واشترت رغيفا وبعض التفاح ودخلت إحدى المقابر وجلست تفكر . ونامت وطلع النهار . وجاءتها فكرة أخرى .. وذهبت إلى الكنيسة وطلبت من القسيس أن يساعدها على حلق شعرها ولما سألها قالت : إنها نذرت لله أن تقص شعرها كله إن شفيت

أمها من المرض . وحلق لها القسيس شعرها ، وكانت كاذبة فلم تكن قد نذرت شيئا ، وهى لا تعلم شيئا عن أمها ، فأمها قد هاجرت إلى أمريكا فرارا من أبيها ، فهو رجل مريض يحقد على الأصحاء ، وهو رجل بخيل يكره الكرماء .. وكان يرى أمها مسرفة لأنها تأكل ثلاث مرات فى اليوم وتسافر إلى أقاربها مرة كل سنة ..

وذهبت الفتاة إلى القسيس قالت إنها وعدت العذراء بأن ترتدى ملابس الرجال عاما كاملا إذا عاشت أمها بعد المرض الخطير الذى أصابها ، وأتى لها القسيس بملابس الشبان .

ان ماتيلده جالى (١٤ سنة) أصبحت الآن غلاما .. شعرها قصير ، ولها ملابس الرجال وصوتها ممتلئ ، وتتحرك على رصيف ميناء جنوة كأى شاب بلطجى ، وتأكل الخبز بصورة ريفية .. أما بقايا التفاح فإنها تحرص على أن تلقيها على الأرض وتدوسها بقدميها وتبصق عليها كأى شاب قليل الأدب .. من المهم أن تبدو شابا ريفيا قليل الذوق ..

وناداها أحد البحارة : انت يا ولد .

وأجابت ماتيلده . ماذا تريد أنت أيضا !

قال البحار : هل تسافر معنا إلى أمريكا ؟

قالت ماتيلده : لماذا ؟ وهل أقفلت الشركة هنا أبوابها .. هل ضاقت إيطاليا بواحد مثلى فلم يعد يجد الرغيف والنبيذ والنساء . ؟

قال البحار : النبيذ موجود والرغيف أيضا ولكن النساء لم يعد لهن وجود .. توجد هنا غانيات فقط .

قالت ماتيلده : لا تشتم الغانيات فهن أمهات كل قبطان فى هذا البحر ..

وضحك البحار وهو يقول : تعجبنى .. فعلا قبطان السفينة التى أعمل فيها

لابد أن تكون أمه واحدة من هؤلاء .. وأن يكون أبوه واحد منا .. تعجبني يا ولد ! ..

قالت ماتيلده : أما البحارة فلابد أن أمهاتهم من الكلاب ! ..

وضحك الإثنان .. واتفقا على السفر إلى أمريكا .. أما ماتيلده فقد أصبح أسمها ماريو جالى . ونزل ماريو فى إحدى السفن المسافرة إلى أمريكا انه كان يحلم بهذا اليوم ، أن يكون على ظهر سفينة إلى أمريكا .. يبحث عن أمه .. فهو لا يعلم شيئا عن أمريكا .. وكل ما يعرفه أن أمه تعيش مع بحار فى ميناء نيويورك .. ولكن نيويورك بها ملايين الناس .. وأمه واحدة من الملايين .. ليست لها مزايا خاصة . وإنما هى واحدة من بنات ايطاليا قررت أن الحياة مع زوجها عذاب ، وانها قد حرمت من حنان الأب والأم ، وأنها تريد أن تعيش .. وأما أولادها وبناتها فعندما يكبرون فسوف يسألون عنها ويعثرون عليها.. أو هى تعود إلى إيطاليا تبحث عنهم .. وهناك ملايين الأمهات والآباء قد فرقت الحروب بينهم وبين أولادهم . ولما خمدت الحرب عاد الجميع إلى استئناف الحياة فى سلام .

خرجت السفينة « أوشيللى نيرى » أى العصافير السوداء إلى البحر . . ومضت أيام .. وماريو لا يسأل عن شئ .. إنه لا يريد أن يبدو خائفا ، أو يعرف أحد أنه فتاة ، وكثيرا ما صعد إلى سطح السفينة ليبكى ويصرخ ، وكثيرا ما ادعى المرض وغطى نفسه بالملابس الثقيلة حتى لا ينكشف جسمه .. وكثيرا ما نام أثناء النهار ، وعمل أثناء الليل .. وفى إحدى المرات كاد أمره ينكشف عندما اضطر إلى الهبوط إلى إحدى الزوارق بالقرب من السفينة وكاد يخلع ملابسه .. لولا أنه أدرك فى آخر لحظة أن بعض ملابسه الداخلية لا تليق برجل .. لقد نسى أن يغيرها .. وفى بعض الأحيان كان ينظف أظافره بصورة نسائية .. ولكن بعد شهر من الرحلة فى البحر والمحيط حولته أشعة الشمس والحبال والسلاسل الغليظة التى يسحبها ليلا ونهارا إلى

شاب خشن ، فالشمس أحرقت الوجه والذراعين والسلاسل تركت آثارها الدامية على الكفين والساقين . . وجاء الشحم والفحم والزيت يغطى الوجه ويخفى المعالم الجميلة لهذه الفتاة الإيطالية ..

وفى ليلة رأس السنة سنة ١٩٢٤ رست السفينة فى مدخل نيويورك .. كل شئ يدل على أن الجميع قد انشغلوا بالطعام والشراب . . وفى هذه الأثناء جمع ماريو ملابسه .. وامتدت يده إلى جيوب بعض البحارة وسرق بعض الدولارات ثم ارتدى ملابس جديدة .. وغسل وجهه تماما .. وهبط إلى الرصيف ..

وبدأت المتاعب الحقيقية لشاب هرب من والده .. وجاء يبحث عن أمه فى أمريكا .. أو فى نيويورك .. إن أمه لم تكن تحبه .. ولكنه على يقين أنها سوف تحبه .. إنه جاء إليها من إيطاليا .. جاء هاربا إلى حنانها .. جاء ليكون إلى جوارها .. أيا كان هذا الجوار .. جاء وهو لا يعرف إن كانت تريده .. كل ما يعرفه أنه هوالذى يريدها .. انه لا ينسى أبدا أمه عندما كانت مريضة قبل سفرها إلى أمريكا .. وكان هو واقفا إلى جوارها يبكى . قالت له الأم — وهى صادقة مائة فى المـائة : عندما تكون لك إبنة لا تزوجيها لرجل يكبرها بعشرين عاما .. لا تزوجيها لرجل لا يعرف إلا الكأس .. لا تزوجيها لرجل مريض يكره كل إنسان سليم .. يكره كل إنسان عنده أمل فى هذه الحياة ! ..

وعلى الرصيف قابلتها فتاة صغيرة .. فى مثل سنها .. سألتها الفتاة :

— إلى أين فى هذه الليلة ؟

قال ماريو : ليس عندى هدف . واقترحت الفتاة الأمريكية أن يقضيا الليلة معا .. وذهبت الإثنتان إلى أحد البارات .. وشربت الأمريكية والإيطالية

وعند منتصف الليل ذهبت الإثنتان إلى بيت صغير ، إلى غرفة فى هذا

البيت الصغير وطلع النهار عليهما ، ولأول مرة يجد ماريو أنه من الضرورى أن يعترف فقد تعب من الكذب . . أو تعب من أن يكون رجلا . .

وارتدى ماريو ملابس الفتيات وأصبح من جديد ماتيلده .

واتفقت الفتاة الأمريكية والإيطالية على أن يجدا عملا ، واشتغلت ماتيلده فى أحد مكاتب التصدير ، إنها فتاة صغيرة . ليست لها تجارب فى الحياة العملية ، ثم إنها لا تعرف إلا القليل من اللغة الإنجليزية . ولكن فى ميناء نيويورك كثير من الإيطاليين وأكثرهم من جنوب إيطاليا . ولم تشعر ماتيلده بالغربة . ولكنها بين جالية إيطالية كبيرة ، وربما ضايقها فقط أن الإيطاليين أكثر جرأة فى الغزل من الأمريكان . .

فقد ضبطت عيونهم على ساقيها ونهديها وشفتيها . . تماما كما يفعلون فى إيطاليا بل إنهم فى أمريكا أكثر وقاحة ولكنها فى وجه هؤلاء الإيطاليين كانت أكثر تشددا ، ووضعت صليبا على صدرها . وغطت ذراعيها ، وأنزلت فستانها إلى ما دون ركبتيها ، وأطلقوا عليها اسم « سوريلا » ماتيلده — أى الأخت ماتيلده . . أو الراهبة ماتيلده .

وفى أحد الأيام اقترب منها بحار إيطالى مخمور وقال لها : أنت من جنوه .

فقالت : نعم :

قال : ومن شارع الحرية ؟

فقالت : نعم :

ثم مضى دون أن يضيف إلى ذلك شيئا . . ثم سارت تسأله كيف عرف ، ولكنه دفعها بيده . وحاولت أن تعرف منه شيئاً أكثر من ذلك ولكنه أصر على الرفض ، ثم اقترب منها ووضع ذراعه وسحبها إلى أحد البارات ، واستسلمت . . انها تريد أن تعرف منه شيئا فقال لها : إننى كنت أعرف واحدة تشبهك ربما هى أختك الكبرى . ان وجهها فقط جميل . ولكنها ملعونة بعد ذلك ؟

ليست أختها الكبرى ، وإنما هى أمها ..

ولما سألته : وأين هى هذه الأخت الكبرى ...

فأشار إلى كل رصيف فى ميناء نيويورك .. وقال ضاحكا : لا بد أنها ترقد إلى جوار أحد تحت هذه الحوالات ..

وأشار برجله إلى الميناء .. وهنا أخرجت ماتيلده يدها من جيب البالطو وصفعته على وجهه بكل قوتها .. ثم خرجت ، لا ترى من الطريق شيئا ، ولا تسمعه وهو يناديها .. ولا تسمع صيحات الناس وهى تحذرها من الأسلاك والمسامير على الأرصفة .. ولم تسمع الذين يقولون لها : إلى أين يا أخت ان جرس الكنيسة لم يدق ! .. اليوم هو الإثنين وليس الأحد .. على مهلك يا أخت ! ..

وعادت ماتيلده إلى غرفتها تبكى .. انها الآن على مسافة ما من أمها .. وأن أمها ترقد فى أى مكان هنا مع أى شخص .. مسكينة أمها .. إنها تركت رجلا لتكون ضحية لرجال آخرين .. أسوأ من أبيها .. كل الرجال أسوأ من أبيها .. لماذا لم تكن ولدا .. لماذا لم تبق فى ملابس الرجال .. ولكن كيف .. وإلى متى .. إنه عذاب حقيقى أن تكون بنتا أو زوجة .. أو إبنة تبحث عن أم .. أو تكون بنتا فى ملابس ولد وبين هؤلاء الوحوش ..

وقررت العودة إلى إيطاليا ..

ووقفت على الرصيف فى اليوم التالى .. وتشاء الصدف أن تلتقى ببعض رجال السفينة التى جاءت بها .. نظروا إليها .. وسألوها إن كان لها أخ . فقالت .. ربما .. قالوا لها : نحن نعرفه .. انه ناعم مثلك .. ربما كان أكثر نعومة .

وغضبت ماتيلده .. انها لم تكن ناعمة .. انها كانت خشنة الكلام .. عنيفة الحركة ومع ذلك قد رآها الرجال ناعمة .. أكثر نعومة .. إذن ما الذى تفعله ، إنها لا تستطيع أن تعود .. ولا تستطيع أن تبقى ..

عادت ماتيلده إلى غرفتها الضيقة . ولم تجد زميلتها الأمريكية ، وقررت ماتيلده أن تنتحر كما انتحرت اختها الكبرى .. وكما انتحر خالها الذى عاد فوجد زوجته قد باعت البيت وهربت مع جارها .. ولكن ما الذى تقوله ؟ تقول جئت إلى أمريكا أبحث عن أمى .. ولكن لم أجدها ، فالحياة من غيرها مستحيلة ..

ولكن ما الفائدة ؟ انها لم تحقق شيئا ..

ان زميلتها فى الغرفة لها ظروف أقسى من ظروفها .. انها تعيش وحدها لأن أباها قد مات فى أحد المناجم .. ولأن أختها تزوجت وتركت أمريكا .. ولأن أخاها انتقل إلى جنوة .. وهو سعيد فى حياته .. وسوف يتزوج وهو يدعو أخته إلى الإقامة معه .. ولكن أخته هذه تفضل أن تعيش وحدها على أن تعيش مع أى أحد آخر يسألها : من أين وإلى أين ؟ ..

ان زميلتها الأمريكية نموذج للشجاعة والأمل وحب الحياة .. فلماذا تنتحر ؟ لا داعى .

ودق الباب ، وكانت زميلتها الأمريكية . إنها شقراء طويلة ، عمرها ١٨ عاما ، تحمل الطعام وزجاجات اللبن . والصحف ، ومعها شاب طويل ولكن ملامحه سمراء .. كأنه أسبانى أو إيطالى .. دخلت الأمريكية متهللة كعادتها وهى تقول : معى صديق .. هل تسمحين ..

ودخلت الأمريكية وصديقها ، وهى تقول : حتى لا أضيع الوقت فى المقدمات ، هذا الشاب كما ترين إيطالى رآك وأحبك ويريد أن يخطبك بلا أمهات وبلا آباء .. وهو أيضا أحد اللقطاء السعداء فى أمريكا .. فما رأيك ؟

ووجدت ماتيلده نفسها تقول : أتزوجه ..

ونزل الجميع . وسجلوا الزواج ، وعادت ماتيلده إلى غرفة أخرى فى مكان غريب ..

أما السنوات التى جاءت بعد ذلك فهى لا تهم . لأنها سنوات من العذاب المتواصل . فإن زوجها يشترك فى التهريب والسرقة وقد اعتادت على أن يجئ البوليس كل ليلة ويفتش البيت ويسحبها إلى القسم ويسألها لتقول عبارة واحدة : حظى الأسود هو الذى رمانى هنا .. ولا أعرف كيف أتخلص منه ..

ويسألونها : من الذى يأتى لك بالطعام والفلوس ..

وتقول : أناس لا أعرفهم يلقون الطعام من النافذة والفلوس من تحت الباب ..

— ومن الذى يأتى بالملابس إلى أطفالك الثلاثة ؟

وتقول : رجال لا أعرفهم .. يدفعون الباب ويحملون تحيات زوجى ويقبلون الأطفال ويختفون ..

— ولا تعرفين أين هو ؟ ..

— إننى لا أخرج من البيت إلا إلى المستشفى .. ولا أعرف وسيلة للهرب

— إذن تريدين أن تهربى ..

— أتمنى ذلك ..

— إلى أين ؟

— إلى أى مكان لا يعرفه ..

— سوف نساعدك بشرط أن تساعدينا .

— ولكن لا أعرف كيف أساعدكم .

— حاولى ..

وهربت ، أو عاونها البوليس على الهرب .. انها تبعد الآن عن مدينة نيويورك أكثر من ألف ميل .. انها سيدة فى الخامسة والعشرين من عمرها ومعها ثلاثة أطفال لا تعرف أين أبوهم ولا تعرف ما الذى يمكن أن يفعله بها ، أما الناس فهى قادرة على مواجهتهم ، وهى تقف وراء درع متين من

كراهية الإنسان ، والرجال بصفة خاصة ، ولكن أقوى ما فيها هو إحساسها أنها سوف تجد أمها ، وليس عندها أى تفسير واضح لهذا الشعور الغريب ..

ولا تعرف ما الذى جعلها تسأل عن الإيطاليين فى مدينة نيواورليز .. المدينة مليئة بابناء أمريكا اللاتينية وبالزنوج أيضا .. وأكثر الناس لهم ملامح إيطالية أو أسبانية .. المدينة التى من الصعب أن يجد فيها الإنسان أحدا . فان الناس على استعداد لأن يكونوا أصدقاء أو عشاقا .. ولياليهم خمر .. ونهارهم نوم .. فليس عند أحد وقت ليسأل أو يجيب ولا عند أحد وقت ليشغل نفسه بهموم الآخرين .. انها ضاعت .. أو سوف تضيع .. الآن لقد اختار البوليس أحسن مكان لإخفائها .. وأسوأ مكان لكى تجد أمها ..

ورغم ذلك ففى أعماقها صوت يؤكد لها أنها قريبة من أمها .. هذا الصوت الداخلى لم تسمعه إلا مرة واحدة عندما هاج المحيط ، وارتعدت السفينة ورأت صورة العذراء فوق السحاب الأسود .. وكانت تحمل طفلها على صدرها وتقترب منها لتقول لها : سوف تجدين لك صديقة .. هى أحن عليك من أمك .. لا تخافى ! ..

ووجدت هذه الصديقة الأمريكية ..

أما الصوت الذى سمعته أخيرا فيقول لها :

سوف تجدينها قريبا ! سوف تجدينها فلا تحزنى ! ..

لقد مضت أكثر من عشر سنوات .. كل سنة بعشر سنوات وهى تبحث فى وجوه الناس وفى أصواتهم وتسأل وتسأل .. ولكنها لم تجد أمها .. ان واحدا حقيرا من البحارة قال إنها تشبه واحدة كان يعرفها .. وكان فى استطاعتها أن تصبر بعض الوقت . . وأن تقبل الهوان . . أن تشاركه فراشه يوما أو شهرا حتى تهتدى إلى أمها .. ولكن نفسها لم تطاوعها أن تختار الوحل طريقا إلى أمها .. أن تمشى فى الوحل لتجد أمها فى الوحل أيضا..

انها حزينة لأنها لم تفعل .. ولكن ما الذى كان يمكن أن يحدث لوفعلت ثم لم تجد أمها بعد ذلك .. واكتشفت أنه كاذب .. كأى رجل مخمور على رصيف نيويورك ..

وأفاقت من هذه الدوخة العقلية على طرقات على الباب .. انهم رجال الشرطة ماذا يريدون . فتحت الباب سألوها : إن كانت هى السيدة التى قتل زوجها برصاص البوليس اليوم ؟ فقالت : لا أعرف .. ان زوجى قد مات منذ وقت طويل . قالوا : إذن أنت سيدة أخرى . قالت : نعم . قالوا : شكرا ..

وعادت تتمنى لو كان زوجها هو الذى قتلوه .

وتوالى الطرق على باب غرفة مجاورة لها . وارتفع صوت رجال الشرطة.. ولكن يبدو أن أحدا لا يرد على رجال الشرطة ..

وخرج رجال الشرطة وبقى واحدا منهم أمام الباب .. واقتربت ماتيلده لتسأل . فقال لها : ان السيدة التى نبحث عنها مريضة .. أما زوجها فهو أحد اللصوص .. وقد مات أثناء الهرب اليوم .. ولكن السيدة فى حاجة إلى إسعافات أولية .. هل تستطيعين ؟

ودخلت ماتيلده .. ووجدت سيدة ممددة على الفراش .. وإلى جوارها زجاجات الدواء وقد أدارت وجهها إلى الحائط .. الغرفة بسيطة .. وبها كثير من الزجاجات الفارغة .. والقبعات .. والأحذية .. واقتربت من السيدة .. لتسألها إن كانت فى حاجة إلى أية مساعدة .. واستدارت السيدة لتشكرها ..

هنا انهارت ماتيلده .. إنها أمها ..

أما معنى ما حدث قبل وبعد ذلك .. فليس له أى تفسير ، وكيف جاءت .. وكيف اهتدت إليها .. هل هى الصدفة العجيبة .. الحظ .. السماء ..

قلب الأم .. قلب البنت .. الصوت العجيب الصافى الذى يدوى فى أحشائنا ولا نعرف مصدره .. ولم يفهم رجل الشرطة معنى هذه الصرخات : أمى .. أمى .. وجدتها ..

وعاد رجال الشرطة ليقولوا شيئا غريبا عجيبا ، فقد قتل رجلان : الرجل الأول هو زوج الأم والثانى هو زوج إبنتها .. وهما من رجال العصابات . ولا أحد منهما قد رأى زوجة الآخر .. ولا حدثه عنها .. فزوجات اللصوص جزء من أسرارهم ..

هذه القصة ليس فيها حرف فى غير موضعه .. انها قصة كتبها قسيس عندما اعترفت له هذه السيدة ماتيلده قبل أن تموت ، والميت لايكذب .. وعنوان هذه القصة التى كتبها الأب جريجوار الأسيزى هو « من اختارت أمها وجدت السعادة فى النهاية » ! ..

جائزة..
لمن يرسم
طفلاً رضيعاً!

– ما الذى يريده هذا الطفل ؟

الجواب : إنه يريد تعويضا .

– عن أى شيء ؟

– عن وفاة أبيه فى سن مبكرة عن أنه هو الإبن الوحيد ..

– ولكن ما الذى يدفع له هذا التعويض ؟ .

– لا أحد .. أو كل الناس أو أن التعويض من عند الله ..

– ولكن لماذا لا يغضب هذا الطفل كلما قالت له أمه :

أنت الشؤم نفسه .. فبعد ولادتك بقليل مات أبوك .. ماتت قصة حبى الوحيدة . ولكن ميلادك لا يعوضنى عن موته ! .. وكلاهما لا يجده .. أما الأم فقد وجدت لها حلا .. أما الإبن فهو يبحث عن الحل ..

انتهت العبارات التى سجلها ناظر مدرسة فى قرية فرنسية متواضعة جدا عن طفل فرنسى لا قيمة له ولا وزن . ولا أمل فى ذلك الطفل . إذا كان من الضرورى ذكر أسمه فهو رينيه كابيه – هل لهذا الإسم أى معنى ؟ هل مر بك قبل ذلك . الجواب على كل الأسئلة : لا طبعا .

على كل حال هذا الطفل سيكون له شأن عظيم ولكن بعد عذاب عظيم .

وهو فى العشرين من عمره قرأ قصة للكاتب الإنجليزى دانيل ديفو اسمها « روبنسون كروزو » . القصة معروفة عن بحار إنجليزى غرق ثم اهتدى إلى جزيرة مهجورة وعاش فيها وحده . ثم وجد فيها زنوجا قاتلوه .

والقصة تروى نوعا من الحنين إلى الطبيعة ..إلى الفطرة .. صورة جميلة قاسية أمام صورة أقسى منها وهى صورة الحضارة الأوروبية المهلكة ..

وعندما فرغ هذا الشاب الصغير من هذه القصة قرر أن يكون له هذا الشأن : شأن روبنسون كروزو .. فسافر إلى أفريقيا عدة مرات .. وواجه المصاعب العابرة . ولكنه مثل الذى يضع أصابعه فى إناء يغلى ليتذوق ما فى الإناء . أو كالذى يضع أطراف قدميه فى الماء ليعرف درجة الحرارة .. ثم عاد إلى فرنسا .. وبكل رغبة حقيقية فى التعويض تحدث إلى كبار المسئولين الفرنسيين عن رغبته فى المغامرة .. وواجهوه بما يستحقه من الاحترام فقالوا فى وجهه : مجنون !

ويبدو أنه كان فى حاجة إلى أن يسمع نفس الكلمة بلغة أخرى ويتأكد لديه أنه هو على حق وأن الناس جميعا مجانين . فقابل القنصل البريطانى فى إحدى المستعمرات الإفريقية وقال له : مجنون . وعاد إلى القنصل الفرنسى فقال : بوضوح أنت مجنون . ومن الخير أن تعود إلى أمك أيها الشاب فهى مريضة . وازداد مرضها بعد فراقك . فاذهب وتمدد إلى جوارها وارسم علامة الصليب واطلب الرحمة من الله !

وذهب الشاب إلى بعض التجار الأفريقيين وحصل منهم على خرائط بدائية .. كل الخرائط بها معلومات متشابهة . فخريطة أفريقيا بها كلمات تبعث على الغيظ مثل : صحراء مجهولة .. منطقة مجهولة .. مجهولة تماما .. هنا لم يذهب أوروبى واحد ..

كل هذه الكلمات تجعله يفكر فى طريقة واحدة : كيف يضع اسمها فى مكانها .. وكيف تكون هذه الصحراء اسمها صحراء كابيه .. وأنهار كابيه . . وطريق كابيه . . كيف تكون القارة كلها اسمها قارة كابيه طبعا يمكنك أن تقول : مجنون .. قل عنه إنه : مجنون . ولكن معظم المغامرين

والمخاطرين والعباقرة والأنبياء قيل عنهم إنهم مجانين . ولكن البشرية تدين بعقلها إلى هؤلاء المجانين !

وفى سنة ١٨١٦ ذهب إلى السنغال . ثم إلى داكار .. وفى سنة ١٨٢٤ عاد يتفرج على هذه المنطقة . ويذهب يمينا وشمالا على غير هدى . إنه كالذى يفحص أرض معركة لا وجود لها إلا فى رأسه .. إنه يريد أن يفعل .. شيئا .. ولكن لا يدرى بالضبط ما ذا يريد ..

قرأ إعلانا للجمعية الجغرافية الفرنسية . كان الإعلان هو خطة العمل ومبرر الموت والتضحية ووعدا بالتعويض . وكتابا نزل عليه من السماء . فإذا كان البيان هو الكتاب السماوى فهو النبى ، هو صاحب الدعوة . قرأ البيان وهو فوق صخرة عالية كأنه خطيب على مسجد .. كأنه المسيح يوم خطبة الوداع .. الجمعية الجغرافية الفرنسية تقول : ندفع مكافأة مالية كبيرة لأول أوروبى يصل إلى مدينة تمبكتو (فى جمهورية مالى الآن) ويصلها عن طريق السنغال الفرنسى . وأن يقـــدم لنا قصة مكتوبة باليد وخريطة معها . ويدرس التربة والآبار وأعماقها . وسرعة واتساع الأنهار ودرجة الحرارة والمطر . وعادات الناس وتقاليدهم وديانتهم . وطعامهم وألوانهم وأمراضهم وملامح الوجه بدقة ولون الشعر وشكله . والمرأة وكيف ترضع أطفالها .. وكذلك السلع ، ويعد قاموسا عن كلماتهم مع مقارنة باللغة الفرنسية ويرسم لنا المدن والبيوت .. » .

انتهى البيان أو البلاغ أو التحريض الرسمى على أن يترك أعماله فى المزارع وأن يتجه فورا إلى البحث عن السبل إلى مدينة تمبكتو .. كان كل ما يملكه هو مبلغ ستين فرنكا . لا أحد يقترض منه . المطلوب منه أن يبدأ رحلته . ولكن لابد من خريطة ما . وقبل الخريطة لابد من خطة . كيف يتحرك . كيف يتعاون مع الناس . وماذا يقول للناس ؟

لم يجد صعوبة فى العثور على قصة من اختراعه . فليس من الصعب على شاب خيالى يتوهج بالحماسة ليلا ونهارا أن تكون أفكاره قد اتخذت فلكا عاليا تدور حوله .. أو يكون قد صنع لنفسه طوق نجاة فى مجاهل الأكاذيب أو الشكوك التى سوف تحيط به .. ووجد القصة التى سيرويها ويتحرك بها بين الناس ..

انه شاب مصرى عربى . ولد فى مصر . أيام الحملة الفرنسية . أمه مصرية . أما أبوه فضابط فرنسى . وعندما انسحب نابليون إلى فرنسا . حمله أبوه إلى فرنسا . وهناك تعلم اللغة الفرنسية . ولما كبر قرر أن يعود إلى مصر . وهو كرجل مسلم يحب الحياة فى ظلال الأماكن المقدسة . ولذلك جاء ليهرب مع الحجاج عن طريق تمبكتو ..

وقد ارتدى الملابس العربية وأطال لحيته .. وهو قد جرب الحياة فى بلاد الفرنسيين فلم يسترح . فليس أروع من الحياة فى ظل المساجد وهو يتلو القرآن الكريم — وصدقه الناس .

وفى مارس سنة ١٨٢٧ اتجه إلى مدينة كاكوتدى مع قافلة من الزنوج لا كلام . ولا سلام ولا مشاكل . إنه عربى يتجه معهم فى أمان وهدوء إلى أى مكان . ومعه بعض السلع من الزجاج والآنية . وهو على باب الله . ووصل إلى مدينة كاكوتدى . لا حوادث . لا سهام لا نبال لا دماء . وإنما جماعة صغيرة تتحرك وسط غابات تتحرك .. فكل شئ حولهم وتحتهم له صوت .. فهناك طيورا وزواحف وحشرات وهواء ومطر . ملايين الأصوات المخيفة . ولكنهم ماضون . فمن يقف يمت ..

ويوم ١٩ أبريل انفتحت الغابة على المجهول .. وكلمة المجهول هذه لا معنى لها ولا آخر من الرمال أومن المستنقعات أولها مثل آخرها . شرقها مثل غربها .. التقدم كالتأخر فيها . وجاءت قافلة تضم خمسة من الزنوج .

واستأجر منها شيالا يحمل بعض أمتعته . ومضوا فى الأحراش . مضوا شهورا .. لا كلام .. لا تفاهم .. وإنما هم كأنهم يمشون أثناء النوم .. ولا أحدا يسأل أحدا كأنه يخاف من الجواب . يقول رينيه كايبه فى مذكراته لو قال لى واحد منهم . إنه لا يعرف له وجهة لقتلت نفسى .. ولذلك خفت أن أسأله . . إنهم يمشون عميا وأنا ظلهم — يتوقفون . وفجأة يتساقطون على الأرض نائمين . فأفعل مثلهم . ظلهم .. حيوان ذليل . فأنا لا أعرف شيئا . وإنما أنا دائن يبحث بكل ما فيه من جنون عن المدين لاستخلص حقى منه .. أما الحرارة والأمطار فشئ مروع لا يوصف . أمطار غريبة عجيبة .. إنها ليست قطرات . . وإنما هى موجات تنصب من بحر فوق رؤوسنا .. وبسرعة تتحرك الأرض تحت أقدامنا إلى أمواج من الطين .. ونخوض برؤوسنا فى بحر وبأقدامنا فى بحر .. فلا نحن ماشون ولا سابحون ولا غرقى ..

وفى إحدى القرى الصغيرة توقفت القافلة . وعند أحد البيوت نزلوا . وانفتح الباب . ودخل هو البيت فقد كان مريضا . البيت نظيف .. الأرض عليها نقوش . أى على الطين ، صاحبة البيت هى زوجة شيخ القبيلة لها ثوب من القماش الأبيض . بشرتها ناعمة لامعة . اللمعان ليس نوعا من الدهن . فالدهن لا يتناسب مع حرارة الجو . ولكنها فى صحة جيدة . ابتسامتها عريضة . قدمت له الطعام . وليس نوعا من الإغراء أنها شمرت عن ساقيها. الساقان من الأبنوس . يقول : وفجأة أحسست أننى كوم من العنب تدهكه بساقيها لكى تصنع النبيذ . كما يفعلون فى فرنسا . واندهشت كيف أننا بدائيون ..»

أما هذه العبارة فقد فسرها بعد ذلك بأنه كان مصابا بالحمى وأنه بدأ يهذى . فلم يكن النبيذ سوى عينيه الحمراوين .. أما وطء قدميها ، فليس إلا دقات قلبه . إنه محموم .. وكان يسجل مذكراته فى كل الظروف .

وظل نائما فى هذا الكوخ شهرا كاملا . وكانت القبيلة كلها تعالجه . بأعشاب عقلية . وفجأة اشتعلت النيران فى ساقيه . ظهرت الدمامل . وأتوا له بأوراق الشجر المسلوقة ووضعوها على الدمامل . وشفيت تماما . ثم أحس بآلام فى أسنانه . وكانت تتساقط الواحدة بعد الأخرى . وأتوا له بماء دافئ .. إنه لا يعرف ان كان نوعاً من بول الحيوانات أو البول فقط . ولكن الأعشاب الكثيرة تجعله يقطع بأنه شوربة دافئة من نوع غريب .. وبعد أيام من المضمضة ارتاحت أسنانه .

أما آلام الظهر هذه فقد جعلته ينام جالساأسبوعين .. أو ينحنى هكذا دون أن ينام .. وجاءت إحدى فتيات القبيلة وقامت بعمليات تدليك وشد للظهر بقوة . انه يراها بوضوح .. ومن العجيب أن النساء يرتدين بعض الملابس الداخلية . أما الرجال . فلا . والنساء لهن رائحة جيدة . أما الرجال فلا . والمرأة هى التى تقوم بكل العمل . والرجال كسالى إنه يكتفى بأنه رجل . والمرأة تحمل وتلد وحدها . ثم تترك الطفل وتستأنف العمل . ويظل الرجل طول الوقت مشغولا بالنظر إلى جسمه وتدليكه .. وفى بعض الأحيان يلاحظ أن الرجل يهجم على المرأة فجأة . ويختفيان بعض الوقت . ثم تعود المرأة إلى العمل ويظل الرجل ملقى تحت شجرة . ولم يفهم . ولكنه فهم بعد ذلك . عندما كان ضيفا على إحدى القبائل فى الطريق . فقد جاءت زوجة صاحب البيت ونامت إلى جواره . وجاء الرجل ونام فى الناحية الأخرى . ومن العجيب إن الإثنين استغرقا فى النوم . ولكنه لا يستطيع أن ينام فى لحظة واحدة وفجأة اعتدل الرجل فى صمت . واعتدلت الزوجة . كأنهما مربوطان بخيط واحد . ثم خرج الإثنان . . ورأى رينيه كابيه الاثنين وقد تعلقا فى شجرة أمام البيت .. ثم راحا يتعريان ويتداخلان كأنهما اثنان من الأفاعى .

وفى يوم ١٠ مارس سنة ١٨٢٨ وصل إلى نهر ديوليس — هكذا أطلق عليه هذا الاسم وهو الآن معروف باسم نهر النيجر ..

وسمع من الناس أن هذا النهر يتجه إلى مدينة تمبكتو .. النهر واسع يمشى بسرعة عقدة ونصف عقدة . الأعشاب عالية . الزوارق صغيرة . وبعضها كبير يتسع لعشرة أشخاص .

وفى يوم ١٩ أبريل وصل إلى مدينة كابرا .. هذه المدينة تعتبر الميناء النهرى لمدينة تمبكتو . المسافة حوالى عشرة كيلو مترات . وعندما يفيض النهر تصبح المسافة أقل من ذلك بكثير . الأمطار غزيرة . . الحرارة مريرة . الذباب سحاب أسود . من الذى يستطيع أن يذوق التمر أو التين أو يشرب اللبن دون أن يمتلئ بالذباب . ولكنه استطاع أن يصب اللبن فى قطعة من القماش ويشربه . وأعجب الناس بهذه الطريقة ففعلوا مثله . وسجل فى مذكراته هذا الاختراع !

ثم وصل إلى مدينة تمبكتو . سعادته لا يمكن أن توصف إنه ليس أول أوروبى وصل إليها . ولكن المهم أن يكون أول أوروبى يخرج منها . فقد سبقه إليها أحد المكتشفين الإنجليز واسمه الماجور لانج وقتله خادمه . دخلها ولم يخرج . والمكتشف الفرنسى يريد أن يخرج منها . أما البيوت فن الطين . وحولها رمال صفراء مائلة إلى البياض . السماء كالحة اللون . الصمت عميق . ولا عصفور واحد يتحرك على شجرة . ولكن الناس يتحركون ولا يتكلمون ولكن هذه هى تمبكتو . ومد يده إلى جيبه ليجد خطاب التوصية الذى حمله إلى سيدى عبد الله أحد وجهاء مدينة تمبكتو . لم يكد سيدى عبد الله يقرأ الخطاب حتى أكرمه ووجد له مسكنا . ومن الصدف أن يجئ هذا المسكن فى مواجهة البيت الذى عاش فيه الرحالة الإنجليزى الذى قتل . وكان كابيه يجلس وقد أخفى وجهه فى الصحف يقرأ . وفى نفس الوقت يرسم الشوارع والبيوت .. ويخفى رأسه ووجهه تحت ملابسه . ويمر به الناس ويقولون : مسلم مؤمن .. فتح الله عليه ..

ولكنه كان شديد الخوف والفزع .. إنه لا يعرف مصيره .. إنه لا يدرى هل يعود ..

وكان يحكم المدينة رجل زنجى اسمه الأمير عثمان . وكانت له زوجات كثيرات . وكان من الضرورى أن يحنى رأسه . ولم يستطع أن يرفع عينيه ليرى بوضوح ماالذى ترتديه نساؤه .. إنه لم يكن يقوى على أن يرفع عينيه إلى مافوق الركبة .. ولاحظ أن الرجال لا يضربون المرأة هنا . وكتب يقول : كلما كان الرجل متحضرا ، كانت المرأة متحررة . وقال : إنهم فى أفريقيا لا يستعبدون المرأة ، ولذلك فهم متحضرون .. والمرأة متحمسة لأساليب الزراعة الجديدة أكثر من الرجل . لأن عبء الزراعة يقع عليها .. ولذلك فكل وسيلة جديدة تخلصها من هذه الأعباء ، هى شديدة الحماس لها .. إن المرأة هى التى تريد الحضارة التى يصنعها الرجل !

والمرأة مكشوفة الوجه . الأقراط فى أذنيها والعقود حول عنقها وعلى صدرها . وهناك أقراط فى الأنوف أيضا .

وفى يوم ٤ مايو قرر أن يسافر مع إحدى القوافل المتجهة إلى الشمال وعليه أن يسارع لأن القافلة التالية سوف تجئ بعد ثلاثة شهور . واستأذن من سيدى عبد الله . وأعطاه كل ما عنده من ملابس ومن أدوات للزينة وأكواب زجاجية .. واعطاه سيدى عبد الله بعض الهدايا أيضا . وتمنى له سيدى عبد الله السلامة والسلام .

أما القافلة المتجهة إلى الشمال فكانت تضم ٦٠٠ جمل . وتركت مدينة تمبكتو يوم ٤ مايو . ثم توقفت عند قرية اسمها الأروان . وهناك شرب الجميع الكثير من الماء وحملوا معهم أيضا . وشربت الجمال . فأمامهم ثمانية أيام بلا ماء ولا شجر . ثمانية أيام فى الصحراء .. فى رمال الصحراء فى بحار الرمال ، فى عواصف أو محيطات الرمال الخانقة المميتة . أو فى

الموت الرملى .. فى استطاعتك أن تختار من العبارات ما تشاء . فالذى حدث لا تصفه أو تقدر عليه أية كلمات . وهاج الرمل والجو ودارت الجمال وداخت وتساقط الناس . وتوقفوا تماما .. يوما .. يومين .. لا شئ يهدأ .. كل شئ ركبه عفريت .. ألف عفريت .. ومات كثيرون .. وأحس كابيه أن الماجور لانج كان من الممكن أن يموت وسط هذه العواصف إذا لم يقتله أحد .. ولكن لماذا قتلوه ؟ إنه أخذ يستعرض أسباب قتله ووجدها أسبابا وجيهة لقتله هو . فهو لا يعرف كيف يصلى بعض الصلوات. ولكن لحسن حظه أن أحد فى هذا الجو المهلك لا يستطيع أن يصلى وإذا صلى فإن أحدا لا يتبين ما الذى يفعله .. وكانت الجمال تبكى وتئن على فراق الأحباب - هكذا يقولون ..

وسقط من فوق الجمل على الأرض .. وطارت الخيام وراءه وأمامه .. وهدأ كل شئ . وبدأ الناس يضحكون . وكان هو نكتة الرحلة فقد لاحظوا أنه لا يعرف كيف يصلى وكان يحاول أن يقنعهم بأنهم يصلون هكذا فى مصر . ولكن أحدا لا يصدق ذلك . فهم لا يستبعدون أنه أجنبى وليس عربيا ..

وبعد أيام ترك الجمل واشترى حمارا . وفى الطريق إلى مدينة فاس بمراكش اشترى بغلا ويوم ١٢ أغسطس وصل إلى مدينة فاس . وهى أجمل مدينة رآها فى أفريقيا . وفى هذه المدينة عادت إليه روحه مع الأشجار والنخيل والطعام والظل والماء والوجوه الحلوة . وكان عليه أن يمد يده من أول مدينة فاس إلى مدينة مكناس . فهو عظم على جلد . وجيبه فارغ . ومعدته خالية . ويوم ١٤ أغسطس استأنف رحلته مفلسا تماما . وركبت وراءه أنثى ممتلئة . لو كان الأمر فى يده لاستلقى بظهره على صدرها . ونام .. ولكن زوجها يمشى وراءها ولكن يبدو أنها لا تمانع كثيرا لو فعل . وإلا فما معنى أن تعطيه بين لحظة والأخرى شريحة من البطيخ .. وتحرص على أن تعطيها

له من فوق كتفه .. فإنها تريد أن تضعها فى فمه مباشرة .. ان هناك علاقة غريبة بين الطعام وأشياء أخرى . . ولكن أين هى الصحة ؟ أين هى راحة البال .. إنه مهدود الحيل .. فهو على سفر ، وفى عذاب ، وتحت ضغط ، وفوق دمامل فى قدميه منذ شهور .. ان شرائح البطيخ نعمه كبرى . والحمد لله على ذلك .

ويوم ٧ سبتمبر وصل إلى مدينة طنجه عند الغروب ، واتجه إلى القنصل الفرنسى . وعرف الناس وشهدوا أنه كان قادما معهم من تمبكتو .. وقدم له القنصل ملابس أوروبية .. وبعد أيام اتجه إلى فرنسا . ولو عرف هؤلاء المغاربة أو هؤلاء الزنوج انه فرنسى اختفى بينهم لقتلوه . وعندما وصل إلى طولون أقفل على نفسه باب غرفة صغيرة ونام يومين .. حتى ظن أهل البيت أنه مات .. وصحا من النوم ليقول : أنا كدودة القز أموت لكى أعيش من جديد !

يقول : هؤلاء الذين عاشوا بعيدا عن أوطانهم وخافوا ألا يعودوا أو خافوا أن يموتوا فى النسيان ، لا يعرفون سعادتى وأنا فى طريقى إلى أرض الوطن ، ناجحا أطلب الثمن الذى استحقه . . أو التعويض الذى لا يمكن أن يقدر بثمن !

وفى سنة ١٨٣٠ نشرت الجمعية الجغرافية الفرنسية رحلة رينيه كابيه بعنوان « رحلات فى أواسط أفريقيا حتى تمبكتو عبر الصحراء الكبرى ، إلى مراكش فيما بين ١٨٢٤ و ١٨٢٨ » . وفى سنة ١٨٣٨ توفى رينيه كابيه وهو فى الأربعين من عمره ..

يقول فى مذكراته : عندما ذهبت إلى البيت وفى رأسى أن ألقى بنفسى عند قدمى أمى .. أبكى وأبكى وأبكى .. فقد عذبتها بغيابى الطويل .. إنها لم تعرف أين ذهبت ولا ماذا فعلت .. سوف استغفرها .. وسوف أعلق

الهدايا على عنقها وفى ذراعيها .. وسوف أعطيها المكافأة الكبرى التى فزت بها .. تعويضا لها .. تعويضا متواضعا ..

يقول رينيه كابيه : دخلت وجدت أمى جالسة على مقعدها . فى ملابس جميلة . وعلى المائدة تفاح ونبيذ وجلست تقرأ فى الكتاب المقدس .. قلت صارخا : أمى .. قالت : ولدى .. ولم يدر بيننا كلام .. اننى مجرم .. أوالمجهول هو المجرم الحقيقى .. لماذا حدث ما حدث .. لماذا .. سكتت أمى من الفرحة .. ولم تنطق .. ماتت » .

كالسحاب تدفعه الريح
في أيّ اتجاه

هناك طريقة قديمة لكي يسقط أى إنسان من طوله . يبيض شعره . ويجف ريقه ، ويندم على ما فات .. هذه الطريقة هى أن يتلقى خطابا من شخص يقول له أحضر فورا . وتكون المسافة بينه وبين هذا الشخص عشرة آلاف ميل عبر الصحارى والغابات وعلى ظهر حصان .. أكثر من حصان .. هذا الشخص اسمه : جنكيز خان القائد العسكرى السفاح المغولى الذى ارتاد القارة الآسيوية بالعرض وقطع أوروبا من الغرب . وكانت النار تسبقه والدخان يتبعه .. أما الدموع فيخوض فيها . وأما الدماء فشرابه المفضل ..

أرسل جنكيز خان إلى حكيم يعيش فى عصره اسمه شان شون خطابا يقول فيه : احضر لأكون مسرورا .

وكان العالم فى ذلك الوقت ، أى فى بداية القرن الثالث عشر يضم ثلاث حضارات · أوروبا المسيحية والشرق الأوسط الإسلامى الذى يضم شمال أفريقيا والأندلس (أسبانيا) وأواسط آسيا . والحضارة الصينية . وقد عاش شان شون فى ذلك الوقت حياة هادئة كأن شيئا لا يدور حوله . وكأنه وحده فى هذا الكون لا يهزه شئ ولا يهتز لشئ .. منتهى الحكمة !

وفى سنة ١٢١٩ جاء خطاب من جنكيز خان يطلب إليه أن يزوره فى معسكره . ومعسكره يقع على حدود أفغانستان . وكان الفيلسوف يعيش بالقرب من مدينة بكين عاصمة الصين وكان هذا الفيلسوف الحكيم فى الستين من عمره . نحيف الجسم قصير القامة . البعض يقول إنه شفاف لدرجة أنه يمكن للإنسان أن يرى الأشياء التى وراءه وأمامه . ويقال إنه عاش ثلاثة

قرون . وأنه كلما بلغ المائة ولد من جديد . وأنه يشبه الأغنام الصينية التي إذا ماتت نبتت من الأرض ، ولذلك فالأغنام والفلاسفة لا يموتون . فهذا الرجل يملك سر الحياة الدائم . وقالوا عنه : إنه يجلس كالحجر ، ويقف كالشجر ، ويتدفق كالنهر ، ويمشي كالعاصفة .

وفي يوم من أيام سنة ١٢١٩ اقترب من بيته عدد من الجنود .. وراءهم عدد من الخيول وقبلهم عدد من الطبول .. وتخفى الجميع سحب من الغبار . الباب يدقونه أو يقتلعونه. والكلام سهام ونبال . والرجل الحكيم هدف لأشياء كثيرة لا يدريها . ويسقط من فوق الخيول رجال كثيرون يتقدمهم واحد ويلقي برسالة ، على شكل اسطوانة على صدر الحكيم شان شون . الرسالة من جنكيز خان حاكم ذلك الزمان تقول : سيدى لقد نجحت فى القيام بأعمال جليلة : لقد وحدت العالم كله فى إمبراطورية واحده . ولا أفرق بين الناس . ولأن طموحي كبير ، فهمومي كبيرة أيضا . وأخشى يا سيدى ألا أكون على صواب فى كل ما فعلت . ولذلك فحاجتي إليك مثل حاجتي إلى حب الناس وبركة السماء ولكى اهتدى سواء السبيل استعنت بالعقلاء والحكماء فى كل بلد .. فلم تبق إلا كلمتك . ولذلك أدعوك أيها الأستاذ الفيلسوف .. بيننا أنهار وجبال . ولا أستطيع أن أجئ إليك . اعذرنى . فتعال أنت . تقدم ناحيتي بخطواتك المقدسة . لا تفكر فى هذه الجبال والصحارى التي بيننا : ان حكمتك تجعل الجبال صحارى ، وتجعل الصحارى وديانا وتجعل الوديان خطوات قصيرة وعند نهايتها تجدنى خاشعا فى انتظار نورك الهادى إلى خير الناس . فارحمنى وساعدنى واعطنى مما أعطاك الله . ان القليل من فضلك يمكننى من حكم الملايين بالعدل . صحيح أن رجلا واحدا استطاع أن يحكم ويتحكم فى نفسه لأقوى من جنكيزخان . ابعث لى كلمة واحدة ففيها سعادتى . »

إن رجلا مثل جنكيز خان لا ينتظر الكلمة لواحدة مهما بدأ متواضعا

فكلماته أوامر . وأوامره قضاء وقدر . وليس أمام هذا الحكيم إلا أن يسافر إلى القائد المغولى الكبير . وجنكيز خان فى خطابه هذا يشير إلى أنه استطاع فى سبع سنوات أن يوحد الشرق والغرب . وهذا القائد الرهيب عندما ولد سنة ١١٥٦ لم يكن سوى أحد أبناء قبيلة فى شرقى سيبيريا ولكنه عندما كبر استولى على القبائل المجاورة بالسلاح .. بالدم والإرهاب . واتجه إلى الغرب واستولى على شمال الصين وشمال الهند وسمرقند وبخارى . وكان من الممكن أن يتوقف عند هذا الحد لولا أن أحد ملوك إيران قد ارتكب حماقة . فقد أرسل إليه جنكيز خان بعض رجاله فشنقهم . هنا ثار القائد المغولى وانتقم لرجاله بملايين القتلى والجرحى وإحراق البيوت والقصور والآثار والمزارع وإغراق الأطفال فى دم الأمهات وإحراق الآباء فى دم الأمهات . لقد عجن الأرض بالدم وجففها بالنار ومضى فوقها يبحث عن أمجاد جديدة !

وكانت أعمال أو أمجاد جنكيز خان حديث العالم كله . وكانت مضروبة فى ملايين الناس .. ولذلك كان عملاقا مهيبا مروعا . فإذا طلب شيئا كان الشىء.. ولذلك التف المريدون حول الحكيم يبكون فراقه. لأنه لابد أن يسافر. وكان الحكيم يقول لهم ، سأراكم بعد ثلاث سنوات . ويسألون : كيف ؟ فيقول : إيمانكم القوى سيعود بى ..

أما الحكيم فديانته اسمها « التاوية » أو « الطاوية » : وكلمة طاو معناها الشارع .. أو الشرع .. أو الشريعة .. أو السير وراء العقل بحثا عن الإنسجام بين كل شىء فى نفسك وفى جسمك وفى الناس حولك وفى الكون . وصاحب هذه الديانة رجل صينى اسمه لاوتسى عاش قبله بثلاثة عشر قرنا . فهذا الحكيم إذن هو خير من يمشى فى منتصف الطريق .. أى طريق .. لا يلتوى ولا يهتز ولا يخاف ولا يخيف ..

وجاء واحد من الأمراء ومعه عدد من الخيول . ليحمل أمتعة الحكيم .

وخرج معه الحكيم ومن ورائه عشرون من حواريبه ومعهم أمتعتهم . وكانوا يحملون الكثير رغم أن الحكيم أخبرهم : مادام فى الأرض عيش وفى السماء سحاب وفى الصدور هواء فالموت أبعد من جنكيز خان . ولكنهم صغار يخافون عليه وعلى أنفسهم . وكان يقال إن الحكم يخفى رأسه فى ملابسه ويأكل ولا أحد يعرف ما الذى يأكله ، انه يكتفى بنفسه ، يشم رائحة اللحم ويشبع !

ويبدو أن أحد الرسل - وهو أمير - كان يحمل رسالة هامة أخرى إلى إحدى القبائل فى الطريق . وتوقف هو والألف حصان والجنود. وغاب يوما ثم عاد ومعه عشرون فتاة . ولما علم الحكيم أن هذه الفتيات فى طريقهن إلى جنكيز خان اعتذر عن المضى فى رحلته . ولكن أحدا لا يستطيع أن يفعل ذلك حيا أو ميتا . فقسم الأمير القافلة إلى قسمين : الحكيم فى المقدمة . . وبعده بيوم واحدقافلة الفتيات العشرين . .

وفى الطريق سأله الأمير : سيدى الحكيم بما أن القائد قد دعاك لأخذ رأيك فى أشياء كثيرة . فلماذا لا تلقى نظرة على الفتيات . . فهو يحب النساء . .

ولما استاء الحكيم . . عاد الأمير يقول له : آسف لا تؤاخذنى إننا نعيش فى الصحارى كالأموات ولا نعرف كيف نخاطب رجلا حكيما مثلك . . إذن لا داعى لأن ترى كلّ أجسام الفتيات . . السيقان فقط . . أو الصدور فقط . .

وظهر الامتعاض الشديد على وجه الحكيم ولم يقل شيئا . فعاد الأمر يقول له : هل تحب أن تراهن جميعا وهن يغتسلن .. سوف أقيم لهن خيمة . . وأنت تنظر من ثقب فى الخيمة . . إن الأمر خطير جدا . . وفى ذلك حياتى أو موتى . . فقد اخترت الفتيات من ألف واحدة . . لأن القائد يشترط أن تكون لكل فتاة علامة خاصة . . والفتاة التى ليس لها علامة ، مثل الأغنام التى لا توجد بها بقعة بيضاء فى رأسها . . إنه يتشاءم . . أرجوك ياسيدى الحكيم العظيم !

ورفض الحكيم ومضت القافلة وراء القافلة .

والرحلة بدأت يوم ٢٠ مايو سنة ١٢٢٠ . وبعد شهر من هذه الرحلة قرر الحكيم أن يستريح فى أحد الأديرة وجاءت الأوامر بضرورة السفر وجاء الشتاء . وبدأ الحكيم يسعل وينزف دما . فقرر أن يبقى إلى ما بعد الشتاء . واستأنف السفر فى ١٣ مارس سنة ١٢٢١ وجاء الأمير يقول للحكيم : إن واحدة من الفتيات تريد أن تحدثك فى أمر خاص .

فقال الحكيم : إن العاقل لا يحدث شخصا واحدا . . إنه يتحدث إلى الواحد كأنه يتحدث إلى الألف . . ويتحدث إلى الألف كأنه يتحدث إلى نفسه . . هات كل الفتيات .

وتضايق الأمير . . ولم تحضر الفتيات ومرض واحد من تلامذته . . فتركه وراءه . . وبكى التلميذ وهو يقول : إنى أركع عند قدميك ياسيدى : ويقول الأستاذ : إن حياتنا وموتنا ليسا بأيدينا . . إنها إرادة السماء أن تموت هنا .. وأن أموت هناك أو تموت أنت هناك وأموت هنا .. فنحن هنا وهناك أحياء أو أموات . . لأن السماء هنا وهناك . . فلا تبك يا ولدى !

وفى الطريق مرت القافلة على أرض واسعة مليئة بالجماجم والجثث وآثار الحرائق . . فقال الحكيم : الآن فقط بدأت الرحلة إلى جنكيز خان !

وبعد أرض المعركة التى انتصر فيها جنكيز خان بدأت الصحارى الواسعة ومعسكرات الجنود . وفى الطريق استقبله القواد والأمراء . . وجاء الربيع ولكن الجليد لم يذب ولا هدأت الريح . .

ويوم ٢٣ ابريل سنة ١٢٢١ عبر صحارى جوبى . واعترضه معسكر الأمير تاموجا الأخ الأصغر لجنكيز خان . وقدم له الهدايا والملابس . . وحمله رسالة إلى أخيه الأكبر . وكان الأمير الصغير مريضا . وطلب من الحكيم أن ينفرد به لأمر هام . . وجلس الأمير والحكيم . . قال الأمير :

سيدى إننى علمت أنك لا تطيق الكلام فى كل ما له علاقة بجسم الإنسان ، رجلا أو امرأة . . ولكن ما الذى يفعله النبات إذا لم يجد المـــاء .

قال الحكيم : كل ماء قذر إذا دخل جسم النبات صار طاهرا . . إلا جسم الإنسان !

قال الأمير : ولكنى لا أستطيع أن أكون نباتا .

قال الحكيم : بل النبات هو الذى لا يستطيع أن يكون إنسانا . .

قال الأمير : وهل المـــاء يغنى عن المرأة !

قال الحكيم : امرأة واحدة تغنى عن كل النساء .

قال الأمير : ولكن الإنسان لا يأكل وجبة واحدة فى اليوم .. ولا يوماً واحداً فى العمر . .

قال الحكيم : ولكن العاقل يعيش على وجبة واحدة فى اليوم وفى العمر كله هذه الوجبة هى : أن يرضى بالقليل من القليل ليعيش الكثير من الكثير من الأيام .

قال الأمير : لم أفهم .

قال الحكيم : لن تفهم .

ثم أشار إلى الفتيات الجالسات العاريات عن يمينه وشماله . .

وكتب أحد تلامذة الحكيم شان شون فى مذكراته عن أهل هذه البلاد التى مروا بها قال : إنهم يعيشون فى خيام بيضاء . . الرجال والفتيات غير المتزوجات يجعلون شعرهم على شكل ضفيرتين . أما المتزوجات فيضعن طاقية من القش عالية . . وهذه الطاقية تتغطى بالحرير الأحمر . . والكلام يدور بين الناس على أنه قانون . . والمعاهدات مصافحة باليد . ويستحيل أن يخلف الإنسان وعده أو يكسر كلمته .. أما المرأة فوجهها مشدود . وعيناها زائغتان وهى تعلم أن لهذا ظهرا جميلا . ولذلك تحرص على أن تدير

ظهرها وتحنيه إلى الأمام عند الكلام . ولذلك لا يضربون المرأة على ظهرها . وإنما على صدرها . وهو يستحق الضرب فليس فيه نهدان بارزان .

ويعبرون الجبال فى أغسطس . .

وبعد هذه الجبال ذات الألوان المخيفة الكريهة هبطوا إلى الوديان . . فهنا أشجار العنب . هنا النبيذ . هنا الخمر . هنا المرح . . هنا حب الحياة والخوف من الموت والرغبة فى الهدوء . هنا المرأة الواحدة تكفى للرجل الواحد . هنا المرأة تكشف الكثير من جسمها بلا خوف . وفى أحد المعسكرات برزت فتاتان من غانيات الأسرة المالكة فى الصين . ركعت الفتاتان عند قدمى الحكيم . . واحدة قالت : من سعادتى أن أراك . فقد سمعت عنك . وشاءت الظروف (وأشارت إلى جسمها العريان) أن أراك فى الوحل . . ولكنى سعيدة أنى رأيتك . . وإن لم تكن أنت سعيدا لذلك ! ولكنك شمس لا تحجب نورها عن زريبة الخنازير !

فقال الحكيم : صدقت !

وقالت الثانية : إننى أريد أن أمشى وراءك . . خذنى معك .

قال : سهل أن تمشى ورائى . . صعب أن تمشى ورائى وأنت هنا . . فابقى يا ابنتى . . ولتساعدك السماء على نفسك وعلى سعادتك !

وسأل الحكيم إن كان من الممكن أن يبقى حتى يذهب الشتاء . فقيل له : الأوامر صريحة . . امض فى طريقك إلى القائد !

وكان عليه أن يترك وراءه كل اتباعه فالرحلة ما تزال طويلة . والخيول تتساقط تحت الأتباع من التعب ومن كثرة الأمتعة التى يحملونها . وودعوه وبكوا . وأقاموا لنفسهم ديرا . . وراحوا يندبون الأيام التى فصلت بينهم وبين النور والعقل والشريعة والشارع والمشرع . . ومضى الحكيم إلى جنكيز خان .

ثم أصبحت الرحلة كلها فى الليل لأن الخيول تنزف دما فى النهار . . ثم اكتشف الحكيم أن الخيول لا تنزف دما من التعب . وإنما من عادة المغول أن يجعلوها تنزف تخفيفا عنها — علاج مغولى معروف ؟

وفى يوم ٣ ديسمبر سنة ١٢٢١ وصلوا إلى مدينة سمرقند (أوزبكستان السوفيتية الآن) وفى ابريل سنة ١٢٢٢ كان الحكيم على مدى ساعات عن القائد الرهيب جنكيزخان . وكان معسكر جنكيزخان بالقـــرب من مدينة كابول (أفغانستان الآن) . ولم يشأ جنكيزخان أن يقابل الحكيم خارج المدينة وإنما جعله يخوض الطريق إلى خيمته بين عشرات الألوف من الجنود والخيول والأبقار والطبول والنيران والدخان والسهام والرماح . . ولـكن الحكيم قرر أن يغمض عينه فلا يرى شيئا وأن يضع يديه على أذنيه فلا يسمع شيئا فهو مشغول بما يراه فى أعماقه وما يسمعه عن السماء . لأن الحكيم هو الرجل الذى امتلأ بنفسه واستغنى بها عن غيره !

وأفاق على سيف ذهبى يلمس يديه . . إنه الآن أمام القائد جنكيزخان .

قال له جنكيزخان : أيها الحكيم . . إن الملوك والأمراء دعوك ولكنك رفضت . . ودعوتك أنا فقطعت عشرات الألوف من الأميال من أجلى . . إننى إذن لرجل سعيد . .

وقال الحكيم : سفرى إليك إرادة السماء . . فأقدارنا وأعمارنا بيد السماء .

وكان جنكيزخان تضايق قليلا فقال : إن رغبتى متفقة تماما مع إرادة السماء .

قال الحكيم : نعم إنها إرادة السماء !

وجاء الطعام والشراب . . وأقيمت خيمة فخمة للحكيم وتلميذه الوحيد الذى سجل هذه الرحلة وهذه المناقشات . . وجاءت الملابس الحريرية والأحذية والعمامات القطيفة . ومضى يوم . . ويوم آخر . . وجنكيزخان

يحوم حول خيمة الحكيم ولكنه لا يجرؤ على الدخول . . فرجاله يقولون إن الحكيم لم يتوقف عن الصلاة والدعاء منذ جاء . . وكذلك تلميذه ، ويقولون له : إنه لا يأكل ولا يشرب ولا يخرج من الخيمة ليغسل وجهه فى دورة المياه . . ثم إنه لا ينام . . وإنما هو جالس ووراءه تلميذه . . ولا يزال فى غاية الحياة كأنه نهض من نومه توا . . ولكن جنكيز خان لا يصبر عن رغبته . . فدخل الخيمة . . ولم يعتذر وقال : أنت تعرف لماذا أتيت بك . .

هل من الضرورى أن يبقى تلميذك معنا .

قال الحكيم : نعم من الضرورى . أن غيابه يجعلنى أحس أن هناك شيئا أخجل منه . . لا شئ فى نفسى أو فى جسمى . . أخجل منه !

وتضايق جنكيز خان وقال : ولكنه يضايقنى . .

قال الحكيم : إنما جئت أعلمك يا ولدى . .

قال جنكيز خان : إذن . . أنت عرفت لماذا أتيت بكَ .

– لا أعرف .

– ولا أحد قال لك فى الطريق تلميحا أو تصريحا .

– قالوا الكثير . ولكنى كنت مشغولا عنهم .

– ألم يكن فى القافلة فتيات .

– كان فيها .

– إذن ؟

– كان فيها رجال وخيول وأبقار .

– ولكن الفتيات من أجلى . .

– وكل شئ أيضا .

– إننى أكره النساء .

— وهل تحب الرجال .

— نعم .

— وهل يحبك الرجال ؟

— إن الرجال لا يحبون الأقوى !

— والنساء لا يحببن الأضعف !

— لست ضعيفا . . ولكني . .

— ولكنك ضعيف .

— والعلاج .

— أمامك الطريق . . الشارع . . الشريعة . . أن تمشي وسط الطريق . . وسط العواصف . . وسط النزوات . . أن تعدل بين ما تريد وبين ماتستطيع .

— ولكني أفعل ذلك . .

— لو كنت تفعل ذلك ما أتيت بي من آخر الدنيا . .

— إذن ما الذي أفعله مع الفتيات .

— ما فعلته مع ألف فتاة قبل ذلك .

— ولكني أشعر بالخجل بعد لحظات . . ولذلك افقأ عيون النساء حتى لا يرين ضعفي وهواني . .

— لا حيلة لي معك . .

— لايوجد سر للحياة . . ولا عندي سر الحياة . .

— ولكن عمرك ثلاثة قرون وما تزال قويا . . أعطني سر الحيوية والشباب . . إنني استطيع أن أقتل أي إنسان .

— ولكن لا تستطيع أن تقتل حقدك على كل إنسان . .

— إن النساء سعيدات مع جنودى تعيسات معى . . أعطنى بعض حيويتهم وشبابهم .

— لا أملك يا ولدى .

— بعد هذه الرحلة الطويلة — وبعد هذا الانتظار الطويل تقول إنك لا تملك —

— ولكن رحلتى أقسى من انتظارك .

— إن إعجابى بصراحتك لا يفوقه إلا حزنى عليها !

— لو عرفت الحقيقة ما حزنت يا ولدى ؟

— الذى أعرفه أحزننى . . . أنت لا تعرف كل الحقيقة .

— وهل يعرفها أحد .

— النساء يعرفنها .

— حقيقتك أنت فقط .

— أنا أتكلم عن حقيقتى وعن يأسى .

— لم أعد أجد لذة فى الصيد .

— ليس الصيد بل القتـــل !

— لم تسترح إلى شئ مما أفعل هنا ؟

— لم أسترح . . إنك تأمر رجالك أن يستحموا فى الأنهار حتى لا تكون لهم رائحة كريهة . .

— نعم . . هل أعجبك ذلك . . أنا سعيد !

— ولكنى تعيس يا ولدى . . إنك تأمرهم بأن ينظفوا أجسامهم ولكنك لم تقتل واحداً ضرب والديه . . إن فى الدنيا ثلاثة آلاف خطيئة . . ولكن أم الخطايا هى أن يضرب الابن والديه .

ولم يعد جنكيزخان يرى الحكيم شان شون .. واستأذن الحكيم فى العودة إلى الصين ، عشرات الألوف من الأميال حول الجبال وفى الوديان وعبر الصحارى على ظهور خيول تتساقط وأبقار تسحب العربات وتنزف الدم وتتساقط وقدم له جنكيزخان الفى حصـــان والفى ثوب وبعث معه بفتاة جميلة . ولم يعترض عليها . ولمـــا سأله أحد الأمراء لمـــاذا لم ترفض الفتاة ؟ قال الحكيم : وهل رفضت شيئا أو قبلت شيئا ؟

* * *

وفى يناير سنة ١٢٢٤ وصل إلى مدينة بكين بعد ١٣٠٠ يوم . ولمـــا التف حوله الأتباع والحواريون سألوه ماذا قال لك ؟

قال الحكيم : إنما سألنى كيف يكون الإنسان قويا فى كل حين وفى كل وقت ومع كل الناس ؟

وسألوه : فماذا قلت يا أستاذنا العظيم ؟

قال : أقوى الناس أضعفهم .

وأضعف الناس أقواهم . . والحكيم من ليس قويا ولا ضعيفا . . إنه الذى لا يريد . . والذى لا يريد أن يريد ؟

وعلى قبر الحكيم الصينى شان شون منقوش هذا الكلام ، آخر كلماته قبل أن يموت للمرة الرابعة أو الخامسة — كما يقولون : ما الذى يهم أن أعيش أو أموت . إننى مثل السحاب أذهب إلى حيث تدفعنى الريح . ذهبت مهزوما إلى قائد منتصر فقهرته بهزيمتى !

لو تزوج هذا الشاب

حلاوتهم

مثل أشياء كثيرة تحدث فى هذه الدنيا .. فنحن نحب فى الوقت غير المناسب .. ولكن أصعب حالات الحب أن يحبك شخص لا تريده فى وقت لا تريده وبصورة مخيفة ويصبح الحب هو الموت .. إما أن تحب هذا الشخص أو تموت .. ويكون الحل الوحيد بعد هو أن تتظاهر بالحب لتصبح قادرا على الحياة بعد ذلك .. أما اسم هذه الحياة ونوعها فموضوع آخر ..

كل ذلك فى مدينة اسمها واو .. واو بالقرب من نهر النيجر فى أفريقيا الغربية ، فى يناير سنة ١٩٢٥ ، وفى معسكر رحالة إنجليزى مشهور اسمه هيو كلا برتون ، ولكن هذا الرحالة ليس هو موضوع الحب ، ولا طرفا فى الحب وإنما الطرف الذى يضحك على ما يجرى حوله .. وعنده متسع من الوقت لكى يتسلى ، ويتخيل ماذا يحدث لو عرف الشعب الإنجليزى وعرفت الجمعية الجغرافية ماذا جرى وكيف جرى وما جرى .

أما الطرف الحقيقى فى قصة الحب فهو خادمه الشاب الطويل الوسيم ريتشرد ليمون لاندر (١٨٠٤ — ١٨٣٤ وكان فى الواحدة والعشرين من عمره .. وهذا الشاب لاندر قد سافر من انجلترا إلى أمريكا عدة مرات وعمل فى التجارة وهو فى العاشرة من عمره ، وركب كل أنواع السفن ، وواجه كل المصائب البحرية والجوية ، وغرق مرتين وتعلق بلوح خشبى يومين كاملين وشرب من ماء المحيط أضعاف وزنه ، والتهب جلده حتى كان يقال إن اللحم إذا وضع عليه احترق وحتى قيل أيضا إن ملاك الموت عندما جاء يقبض روحه فتح بطنه فوجد قلبه قطعة من الفحم فرفض أن يتسلم هذه الجثة لأن التعليمات التى عنده أن يقبض أرواح الأحياء لا أرواح الموتى .

وكان هذا الشاب يسمونه وهو صغير باسم القرموط وأحيانا باسم الحوت لأن البحر يرفضه كلما حاول أحد إغراقه ، وقد حدث ذلك أكثر من مرة ، فعندما كان يعمل على سفينةنقل تجارية ، شرب القبطان كثيرا وراح يتسلى فألقى ببعض البحارة فى الماء ، وبعضهم احتفظ به البحر ، أما هذا الشاب فكأنما ألقاه القبطان على أرض من المطاط . لم يكد يلمس الموج حتى تحول الموج إلى أذرع قوية أعادته إلى ظهر السفينة – هذه رواية القبطان ولا أحد يعرف إن كانت قد حدثت أو أن الخمر هى التى صورت له هذه الحادثة ، أما الطفل لاندر فلم يكن قادرا على أن ينفيها أو يؤكدها .. على الرغم من أنه سمع القبطان يعيدها ويزيدها أمام البحارة مئات المرات ، وعلى كل حال أفادته هذه القصة ، فلم يعد القبطان يلقى به فى الماء بعد ذلك .

حتى عمل لاندر خادما للرحالة الانجليزى كلايرتون ، وكان الرحالة مكلفا بارتياد غرب أفريقيا ومعرفة منابع نهر النيجر ، وإن كان صحيحا أن هذا النهر على صلة بنهر النيل وإن كان صحيحا أن هناك قبيلة من الزنوج لها ملامح أوروبية . وحددت الملامح الأوروبية فى ذلك الوقت بأنه ليس ضروريا أن يكون الشعر من النوع (السايح) وإنما الأنف صغير والشفتان ممتلئتان والوجنتان غير ناتئتين والعيون قاتمة اللون ، ويقول كلايرتون إنه رأى شيئا من ذلك ولكنه ليس على يقين فلابد من أن يرى بوضوح وعن قرب ، وأن يرسم بريشته هذه الملامح وأن يحدد مكانها على الأرض وبين الغابات والجبال .

ولسبب غير معروف تماما استدعى هذا الخادم أخاه الأكبر ليرافقه فيما بعد .

ولكن قصة الحب وقعت فى وقت كانت القافلة قد أعدت كل شيء سرا للانتقال من مدينة(بوسه) إلى مدينة (واو) . الخيول والشيالون والصناديق

المقفلة والطعام ، والسهام والنبال والأدوية والبوصلة ، وفى اللحظة التى تقرر فيها كل شئ جاءت سيدة ضخمة الجثة ، أو هى جثة غير مناسبة الأبعاد . . الصدر كأن طفلا أو اثنين يرقدان عليه . . وأرداف كأنها لفيل والذراعان كأنهما فخذان والعينان واسعتان ، البياض ناصع والسواد فحم ، والأسنان عاج والشفتان داميتان ، وجاءت هذه السيدة على ظهر حصان ، ومن ورائها رجالها ونساؤها أيضا ... وعدد من الخيول وعلى الخيول رجال وفى أيدى الرجال سهام ورماح . . ومن وراء الجميع أطفال يسحبون عددا من الكلاب والجواميس . .

والتفوا جميعا حول الخيمة التى أقام فيها السيد الانجليزى وخادمه . ومع السيدة مترجم . . قالت له السيدة قل لهم إننى زوما .

وكلمة زوما هذه معناها حلاوتهم . . فقال لهم إنها زوما .

وأشارت إليه أن يقول إنها جاءت لمهمة تتعلق بالشرف والكرامة وإنها إذا اتخذت قرارا فلا رجوع فيه والعالم كله يعرف ذلك . . وهى اليوم قد اتخذت قرارا وتريد أن ينفذ قرارها بسرعة قبل طلوع الشمس ، وأنها بطبعها شديدة القلق ولا تصبر على شئ وردد المترجم وراءها كل كلمة . ومع كل عبارة كان رجالها يتحركون يمينا وشمالا فى حالة من الفزع أو الخوف أو التخويف .

وعادت حلاوتهم تقول : إننى اخترت لنفسى هذا الشاب .

وأشارت إلى الخادم الانجليزى لاندر . .

أى أنها اختارته زوجا لها . وكان زوج حلاوتهم قد توفى بعد زواجه منها بسنة واحدة ، وانجبت منه ولدا ثم ورثت منه الكثير من الرجال والخدم والجواميس والأموال والسلطان وهى أشد شراسة من كل هؤلاء الرجال وهى قادرة على أن تبرهن على قوتها كأن تقول لواحد منهم اقطع لسانك . .

فيخرج لسانه من بين أسنانه ثم يضغط عليه فإذا هو يقفز من بين أسنانه كضفدعة . . ثم يلتقطه قبل أن يسقط على الأرض ويبتلعه من جديد . . ويظل يبتلع ريقه الدامى فى هدوء . . لقد فعلت ذلك كثيرا . . وطلبت إلى رجالها أن يقطعوا أصابعهم . . وأن يقتلوا أنفسهم . . كل ذلك فعلوه سمعا وطاعة مع عظيم الاحترام والامتنان .

ولم يفهم الرحالة الإنجليزى وخادمه ما الذى تريده حلاوتهم . ولكن من المؤكد أنهم احسوا أن كارثة قد وقعت . فهذه السيدة تستطيع أن تعطل رحليهم إلى أى مكان .

وقال المترجم إن السيد الأبيض سعيد بكل ما سمع وهو يطلب إليها أن تعطيه بعض الوقت لكى يفكر . .

وانصرفت حلاوتهم ورجالها . . وبعد ساعة عاد رجالها ومعهم الطعام والحيوانات المذبوحة ومعهم الفاكهة هدية من السيدة إلى الشاب الذى أعجبت به . وأحبته من أول نظرة . وراحت تتغزل فيه . . وتلمس ذراعه وبشرته .. وشفتيه وساقيه وتتحسسه كأنه جاموسة قبل أن تذبحها .

وفى اليوم التالى جاءت حلاوتهم برجالها وخيولها أيضا . ولكنها هذه المرة كانت أرق وأجمل . . لقد كانت مجموعة من الألوان الغريبة شعرها دهنته بالنيلة — أى باللون الأسود الميال إلى الزرقة . . وشفتاها قرمزيتان . . وملابسها من حرير أحمر . . والذهب يتدلى من صدرها وأذنيها . . وفى قدميها حذاء مراكشى . . وعلى ذراعيها أساور ذهبية . . وأمامها على ظهر الحصان صندوق مفتوح . وفى الصندوق كميات أخرى من الذهب . . كأنها تريد أن تقول للخادم الإنجليزى إنه إذا تزوجها فكل هذه الثروة وصاحبتها . سوف تكون رهن إشارته فهى وما ملكت من ذهب وحيوانات ورجال وغابات ثمن لقلبه . فما رأيه .

وقد كتب رينشرد لاندر قصة مغامراته ورحلاته مع سيده فى كتابه المشهور بعنوان (سجلات آخر رحلات) الكابتن هيوكلابرتون مع رحلات أخرى للمؤلف .

اما عبارة الخادم فشاعرية جميلة . وفيها خفة روح . وفيها أبيات من الشعر القديم والمعاصر . . وفيها بعض الأغانى التى التقطها من أفريقيا أيضا .

أما حلاوتهم هذه فقد عطلت رحلاتهم تماما . . وسدت الطريق . والليل تحول إلى قطعة من العذاب . أما النهار فهو سجن طويل عريض . ولابد من أن يقول كلمة واحدة نعم . . يجب أن يحبها وأن يتزوجها وأن يترك سيده يمضى فى طريقه ويبقى هو ملكا على هؤلاء الناس . لأن حلاوتهم قررت ذلك وأرسلت أناسا يشترون فساتين الزفاف . وأن هناك عددا من النجارين يبنون بيتا للعروسين . ويصنعون سريرا عاليا . وأما طفلها فهى على استعداد للتضحية به إذا أمر الحبيب .

إن حلاوتهم على درجة كبيرة من الذكاء . وهذا واضح . ولابد أنها كانت جميلة جدا يوما ما . فهى فى الأربعين من عمرها أو ربما أكثر قليلا. فابنها شاب فى الرابعة والعشرين .

والقبائل كلها تعرف كيف أن حلاوتهم جمعت رجالها وهاجمت قبيلة مجاورة وقتلت عددا من رجالها ونسائها وأطفالها . ثم وقعت هى فى الأسر .

وسجنها الملك محمد ثم أفرج عنها بعد يومين ولما سألته حلاوتهم لماذا لم يقتلها . كان الرد المعروف لو كنت رجلا لقتلتك . وقالت له : لماذا لم تقتل إبنى ؟ وكان رد الملك محمد .. لو كان رجلا لقتلته .. وردت عليه حلاوتهم : سوف يكون رجلا .. فخذه عندك حتى يكبر واقتله بعد ذلك وكان رد الملك محمد .. كما روى لنا الخادم لاندر : إن الذى يأكل فى بيتى لا أقتله ولن يقتلنى .

وكان رد حلاوتهم : إذن سيأكل فى بيتى وسأعلمه أن يقتلك عندما يكبر ..

وكان رد الملك محمد . . هذا واجبك . نحن فى انتظار ذلك اليوم . .

ولكن حلاوتهم عادت وجمعت رجالها وهاجمت قبيلة الملك محمد . وكانت تريد أن تأسر واحدة من زوجاته . وبعد أن ظلت فى السجن يومين أطلق سراحها . فعادت إلى أهلها منكسة كانت من النوع العنيد من النساء اللاتى بلغن سن اليأس وتحب أن تكون مرهوبة أو مرغوبة من الرجال .. المهم أن تكون مرغوبة وهذا هو الذى جعلها تصر على الاستيلاء على الخادم الإنجليزى الأبيض .. الأزرق العينين الذهبى الشعر .. وبأى ثمن من المال أو من الرجال .

وفى الليل عادت حلاوتهم تحاصر خيمة الرجل الأبيض . ومعها مترجم آخر . لابد أنها قتلت المترجم الأول لعلها شكت فى قدرته على أن ينقل للحبيب الأبيض ما أرادت .

وكان لابد أن يقرر الخادم لاندر إن كان سيتزوجها الليلة ويبقى معها إلى الأبد . هذه مسألة عاجلة وواضحة وجاءت حلاوتهم وفى ملابس أخرى وألوان صارخة . وعرت صدرها وكشفت عن ساقيها . . وعرضت كل مفاتنها . وقال لها لاندر : لا أستطيع أن أتزوج حلاوتهم .

وقالت حلاوتهم : ولكننى لست سوداء . . إننى بيضاء .

وكانت قد طلت وجهها بالأبيض أما ملامحها فهى بعيدة كل البعد عن الزنوج .. الشفتان رفيعتان وهذا شئ عجيب والوجه مستدير والشعر مشدود ناعم مسحوب إلى الوراء طويل . . والعينان واسعتان . . سوادهما غريب لا يوصف . . والأنف مرفوع ومن العجيب أن الأنف مدبب . . فهى لم تخطئ كثيرا عندما قالت إنها بيضاء . .

وحاول الكابتن كلابرتون أن يقنع خادمه بأن يبقى بضعة أيام هنا . وليس من الضرورى أن يكون زوجا وإنما يسكن معها فى بيت واحد .

وهو يخشى من موسم الأمطار . ولابد أن يذهب بمفرده . ومعنى ذلك أن إصرار الخادم على عدم البقاء سوف يعطله . وأنه لا يستطيع أن يبقى ومعنى ذلك أن الكابتن سوف يضحى بخادمه . أو من الواجب أن يضحى الخادم بنفسه من أجل سيده. المهم لابد من قرار . ولا يزال الطريق طويلا بين (بوسه) ومدينة واو . . واو فما الحل ؟ كان على الخادم أن يجد الحل بسرعة وهذه الليلة .

واتفق الكابتن مع حلاوتهم على ضرورة أن يكون القرار بالرفض أو بالقبول هذه الليلة واصر الخادم على الرفض .

ولم يكن إصراره على الرفض نتيجة لمناقشات دارت فى يوم أو يومين . . ولكن فى أربعين يوما . . هو يقول وهى تقول نفس الكلام . . وتعود هى ورجالها لتجئ فى اليوم التالى .لا تغيير فى الكلمات ولا فى شكل الرجال . وإن كانت فى كل مرة تزداد رقة وجمالا وعندما قرر الخادم لاندر نهائيا أن يقول لا . . كانت المفاجأة العجيبة . . لقد طلبت حلاوتهم إلى المترجم أن يقول إذا رفض هذا الشاب فأنا أطلب يد سيده .

أى أن المهم هو أن تتزوج رجلا أبيض . فما الحل وأعلن الكابتن موافقته.

وفى الصباح جمع الكابتن رجاله واتجه إلى الشمال . . ومن ورائه سارت حلاوتهم . . وقد اصطف أهل القبيلة جميعا . . الذين يدقون الطبول والذين يدقون قطعا من الأخشاب وجاء الآخرون وتسلقوا الأشجار . . . ووراء الجميع همهمات . . . ولا أحد يعرف إن كانوا يودعونها حزنا عليها أو فرحة للتخلص منها . . أو يحسدونها على السيد الأبيض . . . وظلت الموسيقى والطبول تردد اصداؤها حتى ابتعدوا تماما عن مدينة بوسه متجهين إلى مدينة (واو . . واو) فى أقصى الشمال وعلى مدى مائة كيلومتر من نهر النيجر .

ولكن عندما مروا بإحدى القبائل فوجئ الخادم بأن الملك محمد قد أمر بالقاء القبض عليه وقال : لقد ألقيت القبض عليك حتى يعود سيدك .

فقد كان الملك محمد يخشى أن تذهب حلاوتهم إلى تأليب القبائل الأخرى عليه . كما أن الملك محمد قد اتهم الكابتن الإنجليزى بأنه شريكها فى التواطؤ عليه . . ولكن الخادم استطاع أن يهرب على ظهر حصان والحصان بلا لجام ولا بردعة . . والخادم مرهق مريض . . وقد عاونه على الهرب طفل فى الثانية عشرة من عمره وأثناء الهرب إلى مدينة (واو . . واو) وقع أسيرا فى أيدى رجال قبيلة أخرى وصحبوه إلى الخيام الملكية . . ولكن الملك والملكة استقبلاه ورحبا به وطلبا إليه أن يروى لهما كل شئ . . من أين جاء . . وإلى أين . . وماذا رأى فى الدنيا . . أما عينا الملكة فكانتا تأكلانه وتشربانه .. أن الملكة راحت تقيسه بالمليمتر .. وتدغدغه بعينيها .. وخاف الخادم الشاب إن تتكرر قصة حلاوتهم .. ولكن الملكة كانت رقيقة .. وكان هو مرهقا . . ثم أفاق ليجد نفسه فى غرفة وأن هنالك مصباحا مضيئا إلى جواره وأن حارسا قد تكوم فى ركن من الغرفة لقد نام الخادم من شدة التعب . وعندما نهض من نومه هب يعتذر للملك والملكة عن سوء أدبه وكيف أنه نام وهما يتحدثان إليه . إنه التعب .. وكان عندهما استعداد لقبول أى عذر ومن الغريب أن الملكة سألته هذا السؤال أليست لك أم فى بلدك؟ وكان جوابه : بل ماتت وأنا فى التاسعة من عمرى . وكان تعليق الملكة على ذلك : إننى أدركت ذلك . .

ولم يفهم الخادم لاندر كيف عرفت الملكة ذلك . . لابد أنها كانت تنوى أن تتنبأ مثلا . . أو لعلها أرادت أن تقول لو كانت له أم ما تركها تتعذب بغيابه عنها . . وفى هذه المناطق القاسية على الرجل الأبيض . . أو لعلها لاحظت أنه مسكين غلبان . . وقد كان بالفعل كذلك فالجوع والعطش والسفر المتواصل والخوف من المرض ومن رجال القبائل قد هد حيله .

وأقنعه الملك بأنه لا يستطيع اللحاق بسيده . . فالطريق صعب .

ولما عاد سيده الكابتن إلى مدينة (واو . . واو) وصل هو أيضا فى نفس الوقت . . ويقول الخادم لاندر أن سيده هذا رجل دبلوماسى . . فقد انحنى طويلا أمام الملك محمد وهو يقول : مولاى مارأيت أجمل منك ولا أرق منك . . إن كل الملوك يتحدثون عن عظمتك . . وعن حكمتك . . فعندما سمعت ذلك اعتبرت نفسى من السعداء الذين حبتهم السماء لأننى رأيتك . واليوم أعود اليك أنتظر رأيك وأمرك .

وابتسم الملك محمد ولكنه قال له : إننى اتهمك أنت وحلاوتهم بمحاولة قلب نظام الحكم هنا والاستيلاء على السلطة .

وأنكر الكابتن ذلك طبعا . . ثم جاءت حلاوتهم . . وركعت وقبلت الأرض . ودعت للملك محمد بالنصر وطول البقاء . ثم وضعت بعض التراب على وجهها . ثم نفضت التراب عن قدميها كدليل على أنها بريئة من كل تهمة . ثم تراجعت . وغابت ساعة . . ثم عادت وقد ارتدت ملابس سوداء . . أى أنها عادت أرملة لا عروسا تريد أن تتزوج ولا ثائرة تريد السلطة أو الحكم .

وكان ذلك يوم ٥ ابريل سنة ١٨٢٨ إن حلاوتهم هذه قد جعلت الكابتن وخادمه يقطعون مسافة مائة كيلو متر فى أكثر من ثلاث سنوات ذهابا وإيابا وكان عليهما أن يردا عليها بكلمة واحدة . . نعم قبلت الزواج منك .

وعندما عاد لاندر إلى انجلترا جريحا بسهام رجال القبائل فى يناير سنة ١٨٣٤ قال لأخيه . . لقد انتهى كل شئ الآن . . وسافرت وشبعت من السفر .. وغامرت ومرضت وتعذبت وبعد أيام سوف أموت .. ولكن بقى شئ واحد فاتنى أن أعمله . . ولكن سوف أحدثك عنه فيما بعد . . إن كان لى عمر . .

وفى يوم ٦ فبراير أحس الخادم لاندر أن نهايته قد دنت . وقد ظهر

القسيس بالقرب من فراشه . . إذن جاء الموت . . وهذه مقدماته . . جاء الموت . . . الدموع فى العيون . . والقسيس لا يكف عن الدعاء والطبيب لم يعد يقترب منه . . إذن لقد تركوه وحده ليسافر وحده . . فى تلك الرحلة الهادئة بلا ضوضاء ولا أضواء ولا ألم . . اقترب منه أخوه فقال له الخادم لاندر وهو يضحك : ماذا كان يحدث لو قبلت الزواج من حلاوتهم ؟

لا أحد يعرف طبعا . . ومات .

ليلة من نار
في ذكرى والدي

كانت السفينة مليئة بالهموم بعدد الذين يعملون فيها ولكن القبطان بلاى (٣٣) سنة كان حائرا بين أن يعرفه الناس على أنه ملاح بارع . أو على أنه رجل عنده ضمير . ووجد أن الضمير مسألة شخصية . وأن الشهرة مسألة عامة . .

فقرر أن يشتهر بين الناس على أنه رجل عنده ضمير . . ولكنه حوكم وسجن أكثر من مرة على أنه رجل لا ضمير له . ولكن الحكومة الإنجليزية كانت فى كل مرة يخرج من السجن تتولى ترقينه . . أى أنها ترفعه إلى أعلى أو تضربه إلى فوق . . سياسة قديمة . .

كانت مهمته أن ينقل بعض أشجار الخبز . . أو الخبزيات من جزر تاهيتى فى المحيط الهادى إلى جزر الهند الغربية . ولذا كان لابد أن يأخذ معه على ظهر السفينة عددا من علماء النبات أو عددا من المشتغلين بزراعة البساتين . أما السفينة فأسمها (بونتى) وحمولتها ٢١٥ طنا . وعدد رجالها حوالى الأربعين رجلا . قد اختارهم هذا القبطان الشاب بنفسه وهذه المهمة كلفته بها (الجمعية الجغرافية الملكية) وذلك فى اواخر سنة ١٧٨٧ . ولكى أكون دقيقا فإن هذه الشجيرات تنمو فى جزيرة واحدة من جزر تاهيتى أسمها (جزيرة الجمعية) لأن هذه الجزيرة قد اكتشفها بحار بتكليف من الجمعية الملكية . .

ولابد أن الجمعية تعرف أن القبطان بلاى قادر على أن يحقق المعجزات . فهو شخصية قوية . طويل نحيف . . أسود الشعر أزرق العينين شاحب

الوجه ، وهو من أقدر الناس فى ذلك الوقت على رسم الخرائط . . وأشدهم فهما للنجوم وحركات المياه والأمواج . . ثم إنه كان من رجال الرحالة المشهور كوك الذى اكتشف عددا كبيرا من جزر المحيط الهادى وليس غريبا على المحيط الهادى ولا على هذه الجزر ، ويقال إنه هو أيضا اكتشف جزءا ومنعه الحياء من أن ينسبها إلى نفسه ، وكان سعيدا عندما نسبت كل هذه الجزر إلى سيده ومولاه جيمس كوك . .

ومن مزاياه أيضا أنه لا يشرب كثيرا ، وهو بذلك يختلف عن كل قباطنة السنن ، ولكنه فى نفس الوقت يشبه كل رواد المحيطات فهم طراز من الناس أدمن اليقظة ومات وهو يحلم بالنوم . .

ومن بين الرجال الذين اختارهم واحد اسمه كريستيان (٢٤ سنة) وهذا الرجل من المهم أن نذكر اسمه لأن له دورا مثيرا فى هذه الرحلة وهذا التاريخ أيضا ، وشهد كل الرجال بأن كريستيان هذا استطاع أن يحقق معادلة تاريخية صعبة وهى كيف يكون الإنسان مضحكا ومحترما ، إن كريستيان من أسرة غنية ، ولكنه دميم ، وربما كان هذا المدح نوعا من التعويض الذى يقوم به كل يوم . ومن أهم الشخصيات التى اختارها القبطان بلاى إثنان من العازفين ، فالبحارة فى هذه الرحلات الرهيبة المؤ ة فى حاجة إلى من ير ه عنهم .

وتلقى التعليمات بأن يبدأ رحلته يوم ٢٤ نوفمبر سنة ١٧٨٧ التاريخية بلا توقف من إنجلترا إلى جزر تهايتى مارا بالطرف الجنوبى لأمريكا وبعدها يدور حول جنوب إفريقيا إلى أندونيسيا ، ولم تكن التعليمات مفاجئة له ، لقد استعد لها ، فقد أتى بالطعام والشراب واللحوم . . وأعلن منذ اللحظة الأولى إنه هو الذى سيتولى توزيع الطعام والشراب وبذلك يكون هو الحياة والموت لكل الذين معه ولكن لسبب غير معروف ثار على صديقه كريستيان هذا ،

وكان يستمتع دائما بتعذيبه واهانته ولم يفهم أحد سر هذا القرار ، وقيل إنه يلعب بسلطته أو يلعب بحريته . . ثم إنه ما يزال شابا . .

ولم تتحرك السفينة من إنجلترا إلا يوم ٢٣ ديسمبر ١٧٨٧ بعد أن غادرت الشاطئ الإنجليزى تلقفتها العواصف والأمواج وهشمت آنية الطعام والشراب . وكانت بداية سيئة ولكن تتفق مع طبيعة القبطان الشاب الذى رأى الرحالة كوك وهو يعانق العواصف ويبصق على الأمواج وكان لابد أن تتوقف السفينة عند جزر كنارى ، وأعاد شحن السفينة بالطعام والشراب ، ولم تكد السفينة تخرج من هذه الجزر وتمر بخط الاستواء حتى تحول القبطان إلى وحش وإلى شاب سليط اللسان وعباراته نابية . مثلا فى مناسبة تافهة قال : يا أولاد الكلاب سوف أجعلكم تأكلون الأعشاب ومرة أخرى هذا البحر طريق للسفن ومقبرة لأقذر الناس .

ولكن المناسبة كانت لاتستحق ذلك كله فقد لاحظ أن جزءا من الفاكهة قد سرقه البحارة ، فعاقب الجميع بأن ألقى الفاكهة فى البحر .

وفى المحيط رأى سفينة صيد بريطانية فبعث معها برسالة إلى ((الجمعية الملكية) يقول فيها : نحن على أتم وفاق ، الرجال بصحة جيدة ، والسفينة حوت صغير ، وسوف نعود جميعا دون أن ينقص منا مسمار واحد .

ملحوظة . . آسف سوف نأكل الخنازير . .

وكان القبطان بلاى يقول . . لابد أن يتحقق العدل إلى أقصى درجة

وكان يستخدم العصا وأحيانا الحبال فى ربط البحارة وضربهم والإدلاء بهم فى الماء عراة .

وإذا قرر أن يعاقب أحد البحارة فإنه يستدعى كل رجالة ويطلب إلى واحد منهم أن يقرأ على الجميع نص العقوبات التى يجب فرضها على المخطئين وكان يختار أشد العقوبات .

وعندما مرت السفينة عند الطرف الجنوبى لأمريكا تلقفتها العواصف والتيارات البحرية ودفعت بها إلى أماكن بعيدة . . ثم عادت ودفعتها إلى اتجاه عكسى . . حتى أن البحارة قد مروا على بعض الجزر مرتين خلال شهرين دون أن يكون لهم أى سلطان على السفينة أو على شراعها . . وكان الجليد يغطى الوجوه . وكان البحارة فى حالة من الإرهاق . حتى فكر واحد منهم أن يقتل الجميع لكى يرحمهم من هذا العذاب . ولكنه انتحر . وصلى عليه القبطان . ثم تلفت إلى بقية الرجال وسأل إن كان أحد يريده أن يصلى عليه . ولم يرد أحد . . ولا هو سمع من يقول فى خوف . . بلى أريد أن أصلى أنا عليك . .

وعند رأس الرجاء الصالح توقفت السفينة . وامتلأت بالطعام . واتجهت بعد ذلك إلى جزر الهند الغربية وبلغتها بعد ٥١ يوما . . ومرت السفينة شمالى استراليا . ونزل بعض الرجال وأتوا بالماء واللحوم وكان قد رأى هذه المنطقة قبل ذلك بأحد عشر عاما مع سيده جيمس كوك . .

وفى يوم ٢٨ أكتوبر بعد رحلة استغرقت ٢٨ الف ميل توقفت السفينة عند جزر الجمعية . وهناك رأوا جمال الطبيعة . . والحرارة . . والخضروات والفاكهة والفتيات . . وناموا وقاموا وعاشوا شهورا عديدة . . وتسللت فتيات تهايتى السمراوات إلى فراش الرجال ولكن القبطان كان بعيدا عن كل شئ . فهو يرى أن القبطان يجب أن يحتضن عظمته فقط .

ولم ينس القبطان بلاى أن يقرأ التعليمات كل يوم على رجاله . ولكن الفقرة رقم واحد فى كل التعليمات هى ألا يقول واحد منهم . لأى سبب إن الرحالة كوك قد مات قتيلا فى جزر هاواى سنة ١٧٧٩ أى قبل ذلك بتسع سنوات . . حتى تظل للرجل الأبيض هيبته وقداسته عند أهل الجزر .

ونزل علماء النبات إلى الجزر وجمعوا النباتات من كل نوع . ونصبوا خيمة . وفى الخيمة رقص وشرب وفتيات حتى الصباح . . وكان القبطان

سعيدا بذلك . فرجالة يسهرون طول الليل ويعملون طول النهار . ولا يقوى واحد منهم أن يفتح فمه بكلمة فكلما أصطاد رجل خنزير أو جمع فاكهة استولى عليها ، وعاد الرجال يجمعون الحيوانات والفاكهة من جديد . . أما العلماء فكلما جمعوا بعض النباتات ألقى بها القبطان فى المحيط مدعيا أنها أعشاب ميتة ، ولكن السبب الحقيقى هو أنه لايريد لرجاله أن يسترخوا على الشاطئ أو يستطعموا هذه الحياة . . إنه حاكم بارع ، والبراعة هى أن ينشغل الناس عنه ، وأن تتحطم قواهم فلا يرفع واحد منهم أصبعه أو رأسه .

ونجحت هذه السياسة . . وكانت الأيام المائة والخمسون التى عاشوها فى تهايتى من أجمل ساعات حياتهم ولكن فى هذه الجزيرة أدرك البحارة أى نوع من الرجال هذا الرجل ، وفى الدفء وأثناء الشراب وفى أحضان الفتيات اتفقوا على أشياء كثيرة ، وأخفوها عنه .

وفى يوم ٥ أبريل سنة ١٧٨٩ ، هرب ثلاثة من البحارة فى زورق صغير . واستطاع أن يستردهم القبطان وعاقبهم بالجلد والسجن . ووضع السلاسل فى يدى أحد البحارة ليكون عبرة للجميع .

ولكن البحارة وقد عرفوا العذاب ، صنعوا لأنفسهم زورقا خشبيا وفى إحدى الليالى اتفق الجميع على أن هذه هى اللحظة الحاسمة .. وقرروا الانتقام وتقدمهم كريستيان ، ودخل غرفة القبطان وهو يقول له .. أنت . ياأخ .. انهض من فراشك أيها الكلب فأنت سجين منذ هذه اللحظة .

وراح القبطان يصرخ وينادى بقية الضباط . ولكن تكاثر عليه الرجال وربطوه بالحبال وسحبوه إلى سطح السفينة ، وشدوه إلى الصارى وضربوه ومزقوا ملابسه وجلدوه .

وتعالت صيحات : اقتلوا السافل .. الحقير .. اجلدوه .. اسلخوه .. اذبحوه .. أغرقوا هذا الخنزير .

وركع القبطان بلاى وبكى وهو يقول .. الرحمة من أجل زوجتى وأولادى الثلاثة .

فقالوا له .. وهل عرفت الرحمة من أجل زوجاتنا وأولادنا .. جاء دورك .

ثم أعطوه زورقا ، وخيروا بقية البحارة بين البقاء على ظهر السفينة والنزول مع القبطان .. بعضهم قرر الذهاب معه .. أما الباقون فاختاروا السفينة الأم ..

ولكن كريستيان بعد أن تخلص من القبطان احتفل بذلك اليوم ، وفى نفس الوقت قرر أن يفعل شئ لم يفعله أحد من قبل ، جمع رجاله وقال لهم لن نعود إلى أوروبا ، سوف نعيش هنا سنختار لنا جزيرة ونقيم فيها وحدنا . وكان على ظهر السفينة ستة عشر رجلا وست عشرة فتاة من بنات تاهيتى .. وفى يوم ١٥ يناير سنة ١٧٩٠ وصلوا إلى جزيرة صغيرة اسمها يتكرن مساحتها كيلو متران مربعان ، وهى تبعد عن تاهيتى حوالى ثلاثة آلاف ميل ..

ونزل الرجال جميعا إلى الجزيرة وكانت مفاجأة عندما وجدوا أن ثلاثة من أهل تاهيتى قد اختبأوا فى السفينة إذن لقد اختل توازن القوى بين الرجال والنساء ومع ذلك نزل إلى الجزيرة الصغيرة وقسمها إلى تسعة أقسام حتى لا تقع معارك بين الجميع .

وحتى يضمن كريستيان ألا يعود أحد قرر إحراق السفينة ، وراحت السفينة تشتعل وهو يبكى على فراقها .

وبعد سنوات عاد القبطان بلاى إلى انجلترا . وعاد على ظهر سفينة أخرى وحاصر الجزيرة واعتقل الهاربين وحاكمهم وأعدمهم .

وفى سنة ١٨٠٤ اشترك القبطان بلاى مع الأميرال نلسون فى معركة

كوبنهاجن ، وحوكم وعوقب بتهمة سوء الخلق والسفالة ، وأنه لم يكن رجلا مهذبا فى معاملة الرجال. وبعد أن خرج من السجن عينه الإنجليز حاكما لإحدى مقاطعات استراليا . وهناك حاصره المواطنون وأسروه وسجنوه سنتين ، فعاد إلى انجلترا ، وعين أميراً للبحر ومات سنة ١٨١٧ .

وفى سنة ١٨٢٤ حاول بعض البحارة إن يعرفوا إن كانت جزيرة پتكرن الضئيلة خالية من المواطنين .. وإن كان هناك أى أثر للناس البيض فيها ..

ونزلوا إلى الشاطئ ، واندهشوا جدا عندما وجدوا أطفالا لهم بشرة بيضاء ، وشعر أصفر ، وعندما سألوا الأطفال وجدوهم لا يعرفون الإنجليزية ولكن دلوهم إلى كوخ ، وفى الكوخ وجدوا رجلا كبيرا فى السن أشقر اللون ، وقدم الرجل نفسه قائلا .. اسمى سميث .. أنا الحى الوحيد فى كل البحارة الذين جاءوا إلى هذه الجزيرة ، وعلى استعداد لأن أسلم نفسى تمهيدا لمحاكمتى فى انجلترا ..

ولكن البحارة نظروا إلى شيخوخته وإلى ضعف بصره وقرروا أن يتركوه يموت فى هدوء .

أما قصته فهى أن كريستيان عندما جاء إلى هذه الجزيرة كانوا سعداء .. كل واحد له زوجة .. وحملت النساء وأنجبن ومات الكثير من الأطفال ، ودارت معارك بين السكان الأصليين للجزيرة بعضهم البعض . هؤلاء السكان الأصليون كان عددهم ستة وكانت معهم ثلاث نساء .. وتقاتل الرجال وجاء واحد منهم وقتل الأطفال الصغار فقامت النساء وقتلن كل الرجال الملونين .. أما كريستيان فقد أعدمه القبطان بلاى عندما جاء إلى الجزيرة ينتقم .. ولكن بقيت بعض الأمهات .. وكان البحار سميث هو الرجل الوحيد فى هذه الجزيرة وكان عليه أن يكون زوجا لعشر من النساء يحملن ويلدن بانتظام ، وكانت

الواحدة منهن تنبه البحار سميث إلى اليوم المخصص لها . وكانت للزوجات طريقة غريبة فى ذلك .. فإذا جاء يومها تنام أمام باب الكوخ عارية تماما .. وقد غطت نفسها بأوراق الورد .. ووضعت ثمار الفاكهة عند قدميها .. فإذا صحا الزوج من نومه وجد أن واحدة قد تسللت من فراشه عند الفجر .. فإذا فتح الباب وجد واحدة أخرى قد تغطت بالعطور وتغطت بالزيوت .. وعليه أن يرفع عن وجهها الورد .. وفى هذه اللحظة تنادى أطفالها الصغار بالطعام ، وتتولى هى طهى الطعام .. أما الأطفال الصغار فيقومون بتدليك الأب .. ثم سحبه إلى المحيط للاستحمام .

أما أكبر الأطفال جميعا فاسمه .. خميس لأنه ولد يوم خميس الأول من أكتوبر .. أما اسمه بالكامل فهو .. خميس أكتوبر كريستيان .. وقد أقسم هذا الولد أن يحمل اسم والده وهو الاسم الوحيد فى الجزيرة ، فتزوج كل الأمهات .. وكل الفتيات الصغيرات بعد ذلك .. وانجب منهن جميعا ٣٥٠ طفلا لهم اسم واحد هو كريستيان واخترع يوما وأحدا فى التاريخ اسمه يوم جهنم .. أو ليلة من نار وفى هذا اليوم يصنع تمثالا ويكتب عليه كلمة بلاى .. ويحرقه بينما الجميع يرقصون ..

أما نقل شجيرات الخبز إلى جزيرة الهند الغربية فلم تتم فى هذه الرحلة لأن السفن لم تبرح جزر تهايتى كما أن السفينة نفسها بكل ما عليها من أعشاب قد أحرقت .

يقول سميث الرجل الوحيد الذى عاش فى هذه الجزيرة بعد ذلك فى مذكراته التى سلمها للبحارة الإنجليز : انتهى كل شئ ولكن يجب أن أعترف بأن القبطان بلاى كان رجلا بارعا .. ولكن كان يحتقر كل إنسان له أب أو له أم .. لو كانت لهذا الرجل أم يعرفها .. ما كان هكذا متعطشا إلى أن يوجع قلب كل أم على ولدها .. من الأفضل للجمعية الجغرافية الملكية أن تكف عن إرسال اللقطاء عبر المحيطات

صفقة خاسرة
لم يبع رجلا واحدا!

رجال الدين والفلاسفة ورجال الأخلاق يلعنون صفة الغرور عند أى إنسان .. ولكن بصراحة .. هذا الرجل يرى أنه لولا غروره ما كان هو شخصيا ولا كانت أعمالا كثيرة مجيدة قام بها لنفسه ولبلاده ... وإذا كان المثل يقول المرأة لا تحب الرجل المغرور لأنه يحب نفسه ولأنه ليس فى قلبه مكان لإنسان آخر .. فليس من الضرورى أن يكون فى القلب مكان آخر لشئ .. بل وليس من الضرورى أن يكون للإنسان قلب فثلاثة أرباع العذارى فى الدنيا من نصيب الذين يملكون قلوبا أوسع وأكبر وأرق .

هذا الرجل هو الرحالة الإنجليزى سير جون هوكنز ، ولكى أقدمه لك بسرعة وفى كلمات قليلة أقول .. إنه أول تاجر للرقيق فى بريطانيا ، وهو يباهى الأمم الأوروبية إنه أول من كسر احتكار أسبانيا والبرتغال لتجارة الرقيق إلى أمريكا .. شرف عظيم جدا ..

وكان هذا الرجل يستمتع برضا خاص من جلالة ملكة بريطانيا ، وليس هنا مكان تفسير سر هذا الرضا الرفيع ولاداعى لأن نستخدم كلمات الحب والجنس فى تفسير هذه العلاقة ولكنها كانت راضية عنه تماما ، وساعدته ماديا وأدبيا ، لأنه أدى للأسطول البريطانى فى حربه ضد الأسطول الأسبانى .. الأرمادا .. تضحيات لا توصف ، ربما ولكنه تاجر إنجليزى يبيع أبناء أفريقيا إلى أبناء أمريكا .

وقد كتب التاريخ يوصف هذا الرجل بأنه أول من أحسن معاملة البحارة وطلب إليهم المستحيل : أحبوا بعضكم بعضا .. وإذا كان لابد من

الشجار فاستخدموا أيديكم وليس السلاح .. وإذا كان لابد من استخدام السلاح فهناك شرط واحد ألا تكونوا سكارى .

قبل أن يسافر هوكنز إلى أمريكا سبقه إلى هناك بسنوات رجل أسبانى وكان ذلك فى يوم الجمعة الحزينة من سنة ١٥١٩ ، وظن الهنود الحمر أن هذا الرجل إله .. هذه أول غلطة .. فالأساطير تقول إنه سيجئ رجل أبيض وملابسه سوداء ، ويجئ من الشرق شاحب الوجه ، على جزيرة عائمة ، فإذا جاء كان على الجميع أن يطيعوه ، وأن يسعدوا بلقائه ، فهو وحده الذى سوف يحل مشاكلهم ، وبعدها السلام على الأرض وبين الناس .. وفى هذا اليوم رست سفينة البحار الأسبانى كورتيس ، ومنذ ذلك اليوم أصبحت المكسيك من ممتلكات أسبانيا .

أما الأرض التى رست عندها السفينة فقد أصبحت الميناء الشهير الذى اسمه سان خوان دى أولوا .. ثم جاء البابا وباركها .. نيووولد يصف هوكنز وصوله إلى هذا الميناء بعد ذلك فيقول : كان يوما مؤلما بكينا جميعا .. بل إن الألم نفسه كان يجب أن يبكى على ما أصابنا ..

وفى نهاية ١٥٦٧ خرج هذا التاجر الإنجليزى بسفينته متجها إلى غرب أفريقيا لعله يأتى ببضعة آلاف من العبيد ، ولم يكد يقترب من الشاطئ الأفريقى حتى هبت عاصفة ،العاصفة أغرقت خمس سفن ، ولم تبق معه سوى سفينة واحدة ، وغرق أكثر رجاله فى الماء ، وعادت إلى الشاطئ سفينته ، ثم عاد إلى انجلترا لينال مكافأة أكبر ..

وعاد مرة أخرى إلى غرب أفريقيا ثم رسا بسفينته فى (داكار) ونزل رجاله وكان عددهم ١٥٥ رجلا ، وكانت التعليمات لديهم أن يجمعوا أكبر عدد ممكن من الزنوج : الأطفال والنساء فى الدرجة الأولى والرجال فى الدرجة

الثانية ، والشيوخ لا ضرورة لهم ، ولم يكن فى حاجة إلى تفسير تعليماته هذه .. فالنساء قادرات على الولادة والأطفال سوف يصبحون رجالا ، والرجال يقاومون ، وصيدهم صعب، والشيوخ لا ضرورة لهم .. إنهم عبء يأكلون ولا ينجبون أطفالا ..

وهناك تعليمات أخرى ممنوع منعا باتا النساء الحوامل الرقة معهن واجبة ، فالحامل تساوى اثنين ، لذلك فحياتها غالية ، ومن يأتى بها له مكافأة أكبر ...

وتسلل رجاله إلى الغابات ، وتطايرت السهام والنبال والأعيرة النارية ، فزع الزنوج ، بعضهم مات وأصيب رجاله بأمراض غريبة وصفها هو فى مذكراته ، وهو أول إنسان فى العالم وصف مرض التيتانوس أو حمى التيتانوس أو تقلصات التيتانوس فى التاريخ ، ويقول سيرجون هوكنز وهو يصف المصابين من رجاله : يحدث انكماش عجيب فى الوجه ، ويصبح الشخص غير قادر على تناول أى شئ . ثم ما يشبه الشلل تماما وبعد ذلك بعشرة أيام يموت .

التفسير الحديث لهذا المرض هو أنه سمى مرض روز نسبة إلى طبيب عالمى اسمه روز.. وصفاته .. تقلص يصيب الرأس ، ويصبح بلع الطعام صعبا مع تقلص شديد فى عضلات الوجه ويصحبه شلل فى عضلات الوجه ويكون ذلك على أثر جرح فى الرأس .

وهبت عاصفة عنيفة جدا .. وغرقت أربع سفن بها أكثر من ألفين من الزنوج وعشرات من البيض ولم يحاول التاجر الإنجليزى إنقاذ أحد لا من البيض ولا من السود فقد كان عصبيا ، وكان من المؤمنين بالتشاؤم والتفاؤل وكان يعتقد أن واحدا من بين رجاله هو مصدر هذا التشاؤم أو هذا النحس ، قال بصراحة وقال أنه لو كان الأمر بيده لأغرق رجاله جميعا منذ خرج من انجلترا .

وقد لاحظ التاجر الإنجليزى أن الزنوج كانوا سعداء عندما رأوا رأسا بشريا عائما على وجه المـاء ، واندهش ، وفى ذلك اليوم هبت الرياح غربية على سفنه .. إلا سفينة واحدة إسمها (يسوع) وحاول أن يفهم منهم ما الذى يأتى بالحظ السعيد .. فقالوا : رأس رجل أبيض .

وتضايق التاجر الإنجليزى وكتب فى مذكراته : من الغريب أن هذا صحيح ففى هذا اليوم تشاجر اثنان من البحارة ، وقام واحد إلى الآخر وقطع رأسه وألقى به فى المـاء . ورآه الزنوج وظهرت التعاسة على وجوههم وفى ذلك اليوم هبت الرياح غربية فى قوة وهدوء واتجهت السفن كلها إلى عبور المحيط .

ولكن التاجر الإنجليزى تنبه إلى أن عدد الزنوج ليس كافيا ، فعاد إلى الشاطئ مرة أخرى ، ونزل هو ورجاله يوم ٢١ يونيو سنة ١٥٦٨ ، وقرر أن يقوم بحملة واسعة لصيد أكبر عدد ممكن .. وتصدى له ملك هو أحد شيوخ القبائل .. يقال له ملك الأشواك الحمراء . وتم التفاهم بين الإثنين على محاصرة قبائل أخرى وكانت خطة التاجر الإنجليزى أن يتعاون مع الملك ثم يلقى القبض عليه هو ورجاله أيضا .

وعلى مدى عشرة أيام سقط قتلى وجرحى وأسرى .. وبلغ عدد الغنائم أكثر من ٥٠٠ من النساء والرجال والأطفال ، أما الرجال البيض فقد أحرقوا البيوت المصنوعة من سعف النخيل ومات منهم أربعة وجرح أربعون أما الملك نفسه فقد هرب ومعه رجل أبيض ويقال إثنان ولم يعثر لهما على أثر بعد ذلك .. وحاول التاجر الإنجليزى أن يستردها ولكن قلبه لم يطاوعه فى أن يضيع هذه الغنائم من أجل اثنين من البيض .

وفى يوم ١٢ أغسطس واجهتهم عاصفة رهيبة .. عالية الموج .. مزقت أشرعة السفن وأطاحت بالأسرى من العبيد إلى الماء ، بلا عودة ، وكانت

التعليمات لدى الأسبان ألايقدموا طعاما أو شرابا للإنجليز .. ولكن الجزر الصغيرة التي مروا بها قرب الشاطئ الأمريكي ظنتهم من الأسبان؛ فقدموا لهم الطعام، ولكن الماء تسرب إلى قاع السفن ، وبالقرب من جزر كوبا قرر التاجر الإنجليزي إصلاح سفنه ، ورست السفن ، وقبل أن ترسو السفن قيد الأسرى بالحبال والسلاسل .. وقبل أن يهبط رجاله إلى الأرض أمسك واحدا من الزنوج وقطع ذراعه اليمنى .. ثم اليسرى .. والزنوج يصرخون .. وبعد ذلك ربطه بحبل .. وفي الحبل حجر كبير .. وألقى به في الماء .. لعله يريد أن يقول إنه سوف يفعل ذلك مرة أخرى و٥٧٦ مرة .. عدد الأسرى من الزنوج .. إذا حاول واحد منهم الهرب .. ولم يهرب واحد منهم .. وفي الليل فوجئ بواحد من رجاله قد هجم عليه في غرفته وفي يده سكين .. يقول سيرجون هوكنز .. وكانت لحظة لا توصف : إنه واحد من رجالى .. أنا الذى أتيت به .. وأنا الذى أتيت به من الريف وأعطيته الكثير .. وجعلت منه شيئا هاما .. لم أصدق عيني ، ونظرت إلى الكأس التى أمامى .. كانت فارغة جافة ، ومعنى ذلك أننى لم أشرب بعد ، لست مخمورا .. إذن ما هذا الذى أمامى .. واحد من أعز رجالى .. ما ذا يريد منى ؟ أن يقتلنى ؟ لماذا ؟ هل أخطأ الطريق إلى واحد آخر غيرى .. وبسرعة .. أطحت بالكأس فى وجهه .. فنزف منه الدم فورا ولكنه ظل فى مكانه ، وتخيلت أن وراءه رجالا آخرين من البيض ، ومن السود وقلت له .. ماذا جرى لك ؟ قال : أريد أن أهبط إلى الشاطئ ولا أعود ، فقلت : أهبط ولا داعى لأن تعود .. قال : وأريد ثلاثة آخرين معى .. قلت : خذ ثلاثة .. أو خمسة .. قال : وعشرة من السود قلت : خذهم . .

يقول التاجر الإنجليزى فى مذكراته ولم أنم تلك الليلة ، لا خوفا منه أو من أحد .. ولكن حزنا على الموقف فهذا رجل أحسنت إليه كثيرا ، وأساء إلى كثيرا ، وغيرت بعض مبادئى .. لا داعى لأن تحسن إلى أحد .. أى أحد .. ومن الآن .

وكان لابد أن يبحر التاجر الإنجليزى .. ودخل فى خليج المكسيك وهبت عاصفة ، ولم يكن أمامه إلا ذلك الميناء الذى نزل فيه البحار كورتيس وظنه الناس إلها ، وظن الناس أن التاجر الإنجليزى من أسبانيا فقدموا له الطعام والشراب ، وجاء حاكم المدينة بجيشه ، وعرف منهم أن الأسطول الأسبانى سوف يرسو فى الميناء بعد أيام ..

وأصلح التاجر الإنجليزى سفنه .. ولكنه لم يستطيع أن يبيع زنجيا واحدا .. وقرر الهرب

وفى اليوم التالى جاء الأسطول الأسبانى قبل أن يهرب بسفنه . ونزل الأسبان وقدموا له ما يحتاج من معونة ثم نصحوه إذا عـاد إلى الجنوب أن يلجأ إلى إحدى الجزر ، فهى بريطانية وفى استطاعته أن يبقى فيها كما يشاء ومعنى ذلك أنه من الأفضل أن يبحر الآن .. فالأوامر عندهم لا تعاون مع الإنجليز فى أى بحر أو على أى أرض أو لأى سبب ..

ولكن التاجر الإنجليزى كان شديد الذكاء فأخذ يتشكك فى هذا السلوك الودى المريب ، ثم إنه لاحظ أن عددا كبيرا من الناس يصعدون إلى السفن الأسبانية وأن القليلين ينزلون ، وكان ذلك يوم الخميس ٢٣ سبتمبر ، ولاحظ أيضا أن الأسلحة تنتقل من سفينة إلى سفينة .. ان هناك تدبيرا أو عملية تنطلق فى أى وقت . وعند الفجر قرر الهرب .. وفى هذه اللحظة انطلقت النيران الأسبانية ، واشتعلت النيران فى ثلاث من سفن التاجر الإنجليزى وتركها بما عليها ومن عليها .. إذن لقد كان فى نية الأسبان الاستيلاء على هؤلاء الزنوج دون مقابل .. ولكن التاجر المـاكر هرب .. وقبل هروبه أغرق إثنتين من سفن الأسبان .

وجاء الليل ، وقرر الإنجليز الاستسلام للأسبان ، فقد مضى عليهم فى البحر وقت طويل .. لا طعام ولا ماء ، بعضهم مات من الجوع .. وبعضهم قرر النزول إلى الشاطئ بأى ثمن .

ولكن واحدا من الإنجليز قرر هذه المرة أن ينهى هذا العذاب ، فذهب إلى التاجر الإنجليزى وهدده بالقتل فورا إذا لم تتجه كل السفن إلى أقرب أرض بحثا عن الطعام ، وقبل أن يفتح فمه بكلمة قال : أنت محاصر ولا رأى لك .. وإنما جئت ألقى عليك تعليماتى .

واتجهت السفن إلى الشاطئ ونزل مائتان من البيض . وهم كل الذين بقوا على ظهر سفن التاجر الإنجليزى ونزل بعض الزنوج .. مئات الزنوج ؛ وهؤلاء الذين نزلوا كانت معهم فئران وقطط وكلاب وقرود وببغاوات وكان فى استطاعتهم أن يذبحوها ويأكلوها ولكنهم لم يفعلوا . أما الأرض التى اختاروها ففى الجزء الجنوبى من خليج المكسيك ، كان ذلك يوم ٨ أكتوبر ، لقد قرروا البقاء لا عودة إلى انجلترا بعد ذلك ، لقد تعبوا أما التاجر فلم يتعب .. وكانوا يسمونه الرجل (اللوح) أى اللوح الخشبى الذى يطفو ولا يغرق أبدا ..

وبقى معه من الرجال خمسون .. طلب إليهم أن ينزلوا إلى الشاطئ ويأتوا ببعض الماء والطعام .. فصادوا بعض الحيوانات . وأتوا ببعض الثمار والأعشاب التى لا طعم لها ، بعض هذه الأعشاب يبعث على النوم العميق لا أحد يعرف اسم هذه النباتات حتى الآن وعندما حاول رجاله العودة إلى السفن هبت العواصف ، فأقاموا على الشاطئ حتى الصباح .. وظلت العاصفة طول النهار ، فباتوا ليلة أخرى ، وقرر بعضهم ألا يعود . أما الثلاثون الذين عادوا ، فلم تكد أقدامهم تلمس السفن حتى عادت العاصفة إلى الهبوب .. أما السفينة (يسوع) فقد مزقت العواصف شراعها . وأطارت بالكثير من حاجاتها وأدواتها الخشبية ورجالها أيضا .

وفى يوم ١١ اكتوبر سنة ١٥٦٨ اتجه التاجر الإنجليزى إلى عرض المحيط ، معه طعام قليل ، وشدد على رجاله أن يقتصدوا فى الطعام والشراب

وكان سيرجون هوكنز هذا يلقى برجاله الموتى أو أنصاف الموتى إلى الماء وهو يقول فى مذكراته أن موظفى يعرفه الكثيرون من قباطنة السفن فى قلب الكوارث . . ان رجلا واحدا ينقص سوف يوفر الطعام ويخفف الوزن هذه القاعدة معروفة ولكن أحدا لا يصرح بها .

واستطاع أن يصل إلى أسبانيا يوم ٣١ ديسمبر ان العيون ترمقه بحذر وخوف شديد ، فهو انجليزى والأسبان يشكون فيه ، ولا يحبون التعامل معه ، ولكنه الآن عائد بسفن خالية من السود ومن البيض فأكثرهم هرب .. وأكثرهم غرق ، وهو يريد أن يستعيد قوته بمساندة الملكة التى يمدها بمعلومات عن تحركات الأسطول الأسبانى فى المحيط وفى أفريقيا وفى المكسيك ثم أكمل رحلته إلى انجلترا ووصلها يوم ٢٥ يناير سنة ١٥٦٩ م .

وعاد من هذه الرحلة الطويلة دون أن يبيع رجلا واحدا .

وبقى فترة فى هدوء ، ولكنه لم يبعد عن البحر ، بل إنه بعد عشرين عاما عاد قبطانا للسفينة الحربية (نصر) واشترك فى المعركة البحرية الشهيرة ضد الأسطول الأسبانى واستحق من الملكة الكثير من النياشين .

هذا الرجل سيرجون هوكنز مات سنة ١٥٨٥ م .

ولكنه دخل التاريخ من عدة أبواب ويقول .. من باب الغرور والمؤرخون يقولون من باب تجارة الرقيق .. والسجلات الرسمية تقول من باب البطولة البحرية .. والأسبان يقولون بل دخله من قلب الملكة ..

يبحث عن مدينة
رسمتها
الرياح بالرمال

هز كتفيه كثيرا وهو يقرأ هذه العبارة: وجدت الباب ولم أجد المفتاح.. وجدت الطريق ولم أجد الساقين .. وجدت الساقين ولم أجد القدمين .. وجدت النهاية التى لم أجدها شيئا ..

وكان صاحب هذه العبارة أحد المغامرين البرتغاليين الذى داخ وهو يبحث عن ثعبان نصفه أبيض ونصفه أسود وله رأسان . واحد يرى فى الليل والآخر يرى فى النهار .. رأس يلدغ ، والرأس الآخر يبتلع .

أما صاحب الكتفين الذى لا يتعب من السخرية بمخاوف الناس ومتاعبهم فهو المقدم فوست . ضابط إنجليزى كثير الإطلاع .. قوى الإرادة مسحوب من أنفه إلى شئ عجيب فى أمريكا .. الجنوبية .. يقول فى مذكراته الصراحة لا تبهر إلا عشرات الناس .

أما الغموض فهو الطعام المفضل عند الملايين ، حتى لو كان مسموما فالناس يفضلون الموت وعندهم أمل فى أن يعرفوا ، على أن يشبعوا معرفة وعلما وليس لديهم أمل فى شئ هو أبعد من ذلك .

والمقدم فوست .. أو المقدم فوفو كما يسميه أصدقاؤه ولد فى سنة ١٨٦٨ . والتحق بالجيش الإنجليزى وعمل فى سيلان ومالطه . وعمل جاسوسا فى شمال أفريقيا .. وفى سنة ١٩٠٥ بدأ هذا الدوران المجنون فى مجاهل أمريكا الجنوبية . وراح ينقب فى الأحراش ويقلب فى وحل المستنقعات .. ويمسك الطيور . ويطارد الزواحف ويجمع أنياب الوحوش ومخالب الطيور .. ويضعها الواحد إلى جوار الآخر ويرسم ويسجل ويزن ويحدد أماكنها على

الخريطة . وبعد ذلك عمـــل لحساب حكومات بوليفيا وبيرو والبرازيل ولا أحد يعرف بالضبط كيف أقنع هذه الحكومات بالعمل لحسابها .. فلا أحد أدرك بعد ذلك ما هو الشئ الذى يبحث عنه : انه مجهول يبحث عن مجهول فى غابات وبحيرات وأنهار مجهولة .

حتى جاءت سنة ١٩٢٤ انها السنة الحاسمة .. سنة الضياع والتيه وقبل سفره إلى أمريكا اللاتينية كتب فى مذكراته يقول : منذ أربع وعشرين سنة وأنا أدور وأفتش وأتعب . ومنذ ٢٤ عاما وأنا رجل متزوج أمضيت خمس سنوات فى الحرب الكبرى .. الحرب العالمية الأولى . . وعشر سنوات فى الغابات . . وتسع سنوات زوجا وإنى انتهز هـــذه الفرصة لأعتذر لزوجتى . لقد تركتها كثيرا وطويلا .. وإذا قدر لى بعد ذلك أن أنجح فى أى شئ فالفضل لهـا .. لقد كانت سيدة قادرة على الفهم العميق والصبر المرير .. لقد رضيت أن تكون زوجة لرجل اختار لهـا الحياة ، واختار أوراق الشجر والحشرات كفنا له .. أما قبره فبطون الوحوش الضارية .

كانت أولى رحلاته إلى أمريكا سنة ١٩٠٦ وفى هذه القارة وجد الجلال والرعب .. وجد الخيال والفزع .. وجد الحياة تنهش الحياة .. وجد الإنسان أكثر وحشية من الوحوش .. ففى ذلك الوقت كانت شركات المطاط اليهودية تبيع الرقيق وتذبح الهنود الحمر وتلقى بهم للوحوش إذا ترددوا لحظة فى حمل المطاط الذى يسيل من الأشجار .

ان الذى رآه فى غابات الأمازون أعنف مما وجده اليهود بعد ذلك فى معسكرات النازى .. وفى غابات الأمازون توجد الأفاعى المشهورة .. أناكوندا التى تبلغ طولها ثمانين قدما والتى تلهث وتنفث السم ثم تلدغ ... مخيفة إذا اقتربت ومخيفة إذا ابتعدت .. وفى نهر الأمازون توجد الأسماك السامة .. وفى النهر ثعابين كهربية إذا لمست أحدا صعقته . . وهناك أسماك أخرى صغيرة طولهـا بوصتان تأكل الجسم بعد أن تتسلل داخله فى سرعة خاطفة .. وهذه

الأسماك لا تتحرك إلا بالألوف .. وفى لحظات يتحول أى جسم إلى هيكل عظمى .. وعملية تحويل اللحم إلى عظم تستغرق عشر دقائق بالضبط .

وهناك ثعابين أخرى تتجه إلى حيث يكون الدم .. قد كانت هذه اللعبة المفضلة للتجار اليهود .. فإنهم يأتون بالهندى الأحمر ويسلخون جانبا من ساقه ثم يلقون به فى النهر .. وفى لحظات يصبح هيكلا عظميا ..

فإذا رفع المقدم فوست رأسه إلى السماء كان لابد أن ينحنى قليلا ، فهناك أنواع من العناكب فى حجم الكف هذه العناكب سامة .. وعند الغروب تظهر سحب سوداء من الذباب والبعوض وكلها سامة أيضا .

وإذا امتدت اليد إلى الفاكهة ذات الألوان البهيجة .. هذه الفاكهة سامة أيضا . ومن العجيب أن هناك علاقة بين رائحة الفاكهة وبين حشرات وزواحف الغابة فلا يكاد الإنسان يذوق هذه الفاكهة حتى تجئ بسرعة حشرات وزواحف تلتف حول الضحية ويموت الإنسان ، ولكن حياته تمتد فى حياة الحيوانات الأخرى .. ولم يصل المقدم فوست إلى قرية إلا وجد أهلها مرضى أو نياما أو موتى ..

فأهل القرى فى غابات الأمازون يمصون أنواعا من عيدان القصب غنية بالكوكايين . ولذلك فهم فى حالة دوخة أو غيبوبة ومهما أصابتهم الأمراض أو الأوجاع فإنهم لا يشعرون بها — منتهى السعادة أن يموت الإنسان وهو لا يعرف أنه يموت .. لقد وصل المقدم فوست إلى هذه المناطق التى يأكل فيها القوى الضعيف .. والتى يذبح فيها الإنسان الأبيض الإنسان الأحمر من أجل المطاط . فإذا وقع إنسان أبيض فى أيدى الهنود الحمر ذبحوه أو ألقوا به فى المـاء .. أو علقوه على الشجر .. أو احتفظوا به أسيرا ليباهوا به القبائل الأخرى .

وفى هذا الجو الغريب المريب أمضى المقدم فوست أروع سنوات حياته..

إنه يريد أن يعرف كل شئ .. يريد أن يعود ليقول للناس ماذا رأى وكيف رأى . ولكن ما أكثر الذى رآه وما أقل الذى يعرفه .

ولكن فى سنة ١٩٢٤ قرر أن يبحث عن شئ محدد . فعندما كان يزور المكتبة العامة فى مدينة ريو دى جانيرو عثر على مخطوطة تقول إن بحارا برتغاليا مجهولا فى سنة ١٧٥٣ قد رأى مدينة فى قلب الغابة . هذه المدينة ليس فيها أحد . ولكن فيها الملايين من الخفافيش والأفاعى . وهذه المدينة لها بيوت من طابقين . ولها قلاع .. ولسبب غير معروف اختفت وهجرها الناس . حتى الهنود الحمر لم يذهبوا إليها . ولا سمعوا عنها ويقول البحار البرتغالى إنه وجد فيها عملات أجنبية ذهبية .. وأنه دخلها هو ورجاله بحذر شديد .. ولكن لم يجد أحدا وقرر البحار البرتغالى العودة إلى الشاطئ وبعث برسالة لم تصل إلى الملك ، ولكن هذه الرسالة لم تصل إلى يديه اختفت سنوات طويلة إلى أن عثر عليها المقدم فوست .. هذه الوثيقة هزته من أعماقه . فقرر أن يذهب إلى حيث هذه المدينة . فهو من المؤمنين بأن هناك حضارة قديمة سبقت..وبأن هناك أجناسا بشرية مختلفة قد عاشت وازدهرت . وفجأة اختفت كأنما حكم عليها بالإعدام .. أو جاءت طيور وتلقفتها واختفت بها وراء السحاب .. أو هاجرت أو اضطرت إلى الهجرة .. لا أحد يعرف بالضبط .. ولذلك فهو الذى جاء ليعرف مهما كان الثمن .

وآمن المقدم فوست أن هذه المدينة التى عثر عليها البحار البرتغالى لها وجود فعلا .. وأنه وحده سوف يهتدى إليها .. وهنا سوف يجد العالم مادة جديدة للكلام .. ومبررا لتكريمه ونهاية لعذابه وراحته بعد ذلك كزوج وأب .

وفى سنة ١٩٢٥ أرسل المقدم فوست خطابا يقول فيه : نحن بخير .. لا خوف علينا . . أنا وابنى فى حالة جيدة فهو يشكو من أورام ضخمة فى إحدى ساقيه .

إذن لقد سافر المقدم فوست ومعه ابنه جاك وكذلك صديقه ريمل . الثلاثة يبحثون عن مدينة تبدو عند الغروب ذهبية وعند الشروق فضية وعند الظهر رمادية .. ولكن هناك موسيقى تجئ من جوانبها .. أرضها حجرية وأشجارها من الأفاعى .. وطيورها من الخفافيش .. ولكن ليس بها أحد ..أما رائحتها فعطرية .. وهذه الرائحة هي رسول الموت .. فقد حذر البحار البرتغالى من هذه الرائحة التى تجلب النوم إلى الأبد .. ويقال أن هذه الرائحة تجئ لأن هناك عددا من الطيور ترفرف بجناحيها فوق الشجر . فتهب رائحة الزهور . هذه الرائحة تأتى بالنوم فإذا جاء تحركت الأفاعى والعناكب والخفافيش .. ثم انهالت هذه الطيور تنهش الأفاعى بعد ذلك .

وجاءت رسالة من المقدم فوست فى نهاية سنة ١٩٢٥ تقول .. نحن بخير لولا أننى شديد القلق على ولدى جاك إنه يشكو من تورم فى عينه اليسرى ووضع عليها عسل نحل .. ويبدو أنها تحسنت بعض الشئ .. ولكن النحل لا يجذب الذباب ولا البعوض .. ولكنه يجذب أنواعا من الطيور الجارحة .. ولذلك فنحن فى كل ليلة ندفن أنفسنا تحت شبكة كثيفة .. فقد اعتدنا نحن الثلاثة على أن نغطى جروحنا وأورامنا بعسل النحل .. ونلعقه بعد ذلك .. لأننا نخاف أن نضع عليه الماء .. فالماء مسموم وكانت هذه آخر رسالة جاءت من المقدم فوست .. ومن ذلك الوقت لم يسمع به أو عنه أحد من الناس اختفى فى الأوراق والأشجار والطيور والزواحف والوحوش والهنود الحمر .

ولكنه فى سنة ١٩٢٧ م أعلن مهندس فرنسي وزوجته أنهما رأيا رجلا كبيرا فى السن ممزق الثياب مريضا . إدعى أنه هو المقدم فوست .. ولم يشأ المهندس الفرنسي واسمه كوتر يقبل أن يحمله معه .. لأنه لم يكن يعرف شيئا عن مغامرة الموت التى قام بها المقدم فوست هو وابنه وصديقه .

ولما سئل المهندس الفرنسي عن أوصاف هذا الرجل الكبير فى السن

جاءت هذه الأوصاف غير مطابقة لما هو معروف عن ملامح المقدم فوست . خصوصا أنه أشقر الشعر .

وفى سنة ١٩٢٨ قام أحد المغامرين الأمريكان . فسار فى نفس الطريق الذى تخيل أن فوست قد سار فيه .. ولم يعد هذا المغامر الأمريكى واسمه ديوت .

وفى سنة ١٩٣٠ حاولت صحيفة سويسرية أن تجد حلا لهذا اللغز ولكن فشلت كل خطواتها الأولى ..

وفى سنة ١٩٣٢ جاء صياد سويسرى اسمه ستافات راتين واتجه إلى نفس المناطق التى ارتادها فوست . وعاد الصياد السويسرى يقول إنه علم من أوثق المصادر أن فوست أسير عند بعض قبائل الهنود الحمر .. وأنه رآه وتحدث إليه .. ولكن عندما وصفه للناس . أعلنت أسرة فوست أن هذه الصفات لا تنطبق عليه .

وفى سنة ١٩٣٦ أعلنت سيدة أمريكية أنها رأت ثلاثة من البيض فى أعالى نهر الأمازون يرتدون ملابس الهنود الحمر . واحد منهم زعيم والآخر طبيب وأصغرهم سنا هو شيخ قبيلة وله عدد من الزوجات والأولاد .. وأنهم عاجزون عن الهروب تماما .. فكل المناطق مليئة بالقبائل المتوحشة وأن واحدا منهم قد أعطاها قميصه وهو يقول .. سوف يعرفوننى بهذا القميص .

ولكن أسرة فوست أنكرت القميص ونفت أن ملامحه مطابقة لملامح فوست وابنه .

وفى سنة ١٩٣٧ استطاع أحد الصيادين أن يعثر على طفل أبيض وأتى به . وقدمه لأسرة فوست على أنه ابن فوست نفسه .. ولكن الأسرة رفضته .

وفى سنة ١٩٥١ أعلن شيخ قبيلة هندية وهو على فراش الموت أنه هو الذى أعدم ثلاثة .. وأنه يمكن العثور على بقايا هؤلاء الثلاثة تحت الشجرة

الذهبية .. وذهب عدد من علماء الآثار الإنجليز .. وفتشوا المكان . ووجدوا ثلاثة هياكل عظمية .. ولكن كشف الأشعة أثبت أن هذه الهياكل ليست لفوست أو إبنه أو لصديقه .

وفى سنة ١٩٥٢ جاءت فتاة من الهنود الحمر تعمل راقصة فى إحدى المدن وأعلنت أنها إبنة فوست .. وأن والدها قد منحها خاتمه وقدمت الخاتم .. وكان الخاتم أوروبيا . ولكنه من النوع الذى من الممكن أن يشتريه أى إنسان فى أى ميناء أوروبى وليست للخاتم أية مزايا فريدة .. وأعلنت أسرة فوست أنه فعلا كان يضع مثل هذا الخاتم .. أما بقية قصة الفتاة فهى أنها اضطرت إلى أن تقتل والدها . لأنه ترك أمها وتزوج فتاة أخرى .. وأن قبيلتها لا تؤمن بتعدد الزوجات .. وأنها فخورة بالدفاع عن شرف أمها .. وأن أخاها عندما حاول أن يقتل أمها اضطرت إلى أن تضع له السم .. وهى سعيدة بالدفاع عن أمها لدرجة أن تقتل أباها وأخاها .. أما صديق فوست فقد اضطرت هذه الفتاة إلى أن تضحى به فقد كان مريضا .. ورأت أن إلقاءه للتماسيح هو منتهى الرحمة به .. وهى بذلك قد أراحت الجميع .

وبعد أن روت الراقصة هذه المغامرة عادت إلى الرقص .. وتروى هذه الملحمة للناس على أنها قصة حياتها وأنها هكذا مسكينة يتيمة اضطرت إلى أن تفقد أباها وأخاها وأن تترك أمها فى المدينة لإسعاد الأشقياء والمخمورين.

ومن الغريب أن هذه المنطقة التى ضاع فيها المقدم فوست قد حلقت فوقها الطائرات واقتربت منها ورسمتها وصورتها وحددتها بالضبط .. ولم تجد فيها أى أثر لهذه المدينة .. ولكن بعض علماء الجغرافية قد اهتدوا إلى أن هذه المنطقة بها عواصف رملية .. هذه العواصف عندما تلتف حول الأشجار والهضاب تعطى صورة لمدينة رمادية كالحة اللون .. وليس بعيدا أن يكون الرحالة البرتغالى قد راح هو أيضا ضحية هذه اللوحة الرملية الذهبية .

وفى سنة ١٩٥٤ عثر أحد علماء الآثار على خطاب بعث به المقدم فوست بتاريخ ٢٣ نوفبر سنة ١٩٢٥ م ، يقول فيه نحن بخير ولكنى قلق على ساقى وعينى اليمنى فكلتاهما ملتهبتان .. ولم ينفع معهما عسل النحل ولا عصير جوز الهند .. وشديد القلق لأن فتاة صغيرة عمرها تسع سنوات هندية حمراء تعيش بيننا .. وتأكل معنا وعندما يجئ الليل تختفى وتنام بعيدا عنا .. ولا تنطق بكلمة واحدة منذ أربعين يوما .. حاولت أن أفهم منها شيئا ولكنى فشلت .. ولا ضرر منها .. ولكن هذه الفتاة كانت هى السبب .. ولكن لا خوف علينا ..

إذن لقد استدرجه المجهول أو جاء وراءه .. وألقى به إلى الهاوية طعاما سائغا سمينا لملايين الكائنات الصغيرة التى يجب أن تعيش وأن تمتد بها الحياة .. فليس الإنسان شيئا هاما.. وإنما مجرد حيوان أو حياة .. لقمة تطيل عمر حشرة أخرى ثانية أو دقيقة .

ولا يزال اختفاء المقدم فوست لغزا ولعله لم يعد لغزا .. لقد اختفى فى بطن حيوان آخر .. وانتهى الإثنان فى بطن حيوان ثالث .. إلى ما لا نهاية .

الرجال ينتقمون
من أبنائهم أيضا!

السعادة لا تتحقق بالجريمة . ولذلك فقد عدل نهائيا عن أن يمسك سكينا ويقتل زوجته ، ثم إن هذه الجريمة سوف تلد له جريمة أخرى وهى أن تجعل ابنه الوحيد يتيما حتى الموت . لكن كيف يقتل من كان ثمرة من ثمار شجاعته . كان شجاعا هذا معروف . والشجاعة موضة كل عصر . والمرأة الجميلة تقف فى نهاية طريق كل رجل شجاع ولكن هذا ما حدث .

فى يوم ١٤ يناير سنة ١٩٠٤ وفى مدينة جنوه دارت معركة بين أحد الفلاحين وبين أحد النبلاء ، والمعركة شكلها تقليدى فالنبيل قد شتم أحد الفلاحين ، وهذا أمر عادى ، ومن المألوف أن يضع الفلاح رأسه فى الأرض ويمضى أو ينحنى على يد النبيل ويقبلها امتنانا فهذا شرف له ولأولاده أن يشتمه أحد النبلاء ، ولكن فى هذه المرة اختلف الوضع تماما فقد رفع الفلاح رأسه ورفض هذه الشتيمة وقال .. لا حق لك فى أن تشتمنى . من حقك أن تطردنى من الأرض فأتركها لك فى صمت .

وقبل أن يمضى فى كلامه انهالت عليه كرابيج النبيل . فما كان من الفلاح إلا أن سحب النبيل من كرباجه وأسقطه من فوق حصانه ، والفلاحون من حوله يصرخون لأنهم يعرفون النتيجة مقدما ولكن هذا الفلاح أنطونيو بيافولا وقف فى مكانه ، إنه يائس ، وليس أشجع من اليائسين . وهرب الفلاحون وانطلق النبيل يأتى برجاله ، ومضت ساعة وساعتان ولم يحضر أحد ، ولكن أنطونيو اختصر الطريق فبدلا من أن يذهب إلى حقله قرر أن يترك الحقل والبلد الذى أهين فيه ، إنه لا يملك إلا شيئا واحدا فقط : كرامته . والذى يملك كرامته يملك الكثير من الأرض التى يعمل فيها ويطرد منها فى أسرع وقت .

وعرفت القرية والقرى المجاورة تفاصيل ما حدث وأضافوا إلى هذه التفاصيل آمالهم وأحلامهم فى الخلاص من ظلم النبلاء . وليس أبرع من المظلومين فى اختراع قصص بطولاتهم .

وليس أسعد منهم وهم يتخيلون إنهزام الظالمين ، وليس أحرص منهم على إخفاء هذه البطولات فى أغانيهم ونكتهم

وجاءته سيدة عجوز ، مجرد صدفة وقالت له: أنت انطونيو . قال: نعم وماذا تريدين أنت أيضا ؟ قالت إننى سأموت ، وعندى إبنة وحيدة جميلة . وتمنيت أن تكون إبنتى فى خدمة رجل عنده كرامة . وضحك أنطونيو ولكن الكرامة ليست لها أبواب .. ولا نوافذ .. انها كرامة فى الهواء .

وقالت العجوز : من عنده كرامة عنده أبواب ونوافذ تحميه وتحمى زوجته وأولاده .. سوف تكون نوافذك من حديد وأبوابك من الجرانيت إذا كانت امرأتك جميلة .

كلام غريب من امرأة غريبة ، ولكنها صادقة فابنتها جميلة ، وقد سمعت العجوز بمعركة أنطونيو والنبيل ، وأحس أنطونيو أن هذه الفتاة الجميلة قد هبطت من السماء .. لابد من السماء ، وإلا فكيف هى جميلة هكذا وكيف أنها لم تلفت نظر أحد النبلاء أو الأغنياء ، لابد أن هذه المرأة قد خرجت من الأرض ، فشعر بشئ من الفزع .. وظن أنها عفريتة .. وأن هذه هى إبنتها .. ويبدو أن الفتاة أدركت بذكائها ذلك فقالت له : إننى مثلك دخلت فى معارك كثيرة وكسبتها بالفرار .. إننى فررت مع أمى ومعنا واحدة ثالثة وهى كرامتى .

إذن عقدت الكرامة زواجهما .. وعاشوا معا فى مدينة جميلة صغيرة أسمها بورتوفينو ، وهو يعمل عند أحد التجار ، وزوجته لا تعمل شيئاً ومضت سنوات بلا حوادث . الحادثة الوحيدة هى أن زوجته أنجبت طفلا وأطلقوا عليه اسم برافو .. أى برافو أنطونيو .

وكان ميلاد هذا الطفل نوعا من الهتاف المستمر لشجاعة الأب فالإبن اسمه برافو أنطونيو .. أى برافو إذا ذهب .. وبرافوا إذا جاء .. وبرافو أبا وزوجا وعاملا .

وما من جنة إلا يظهر فيها شيطان .. وظهر الشيطان إنه ابن أحد التجار. لقد جاء يدق باب أنطونيو لسبب وجيه وهو أن سفينة قد رست فى الميناء وأن والده محتاج لمساعدته..سبب معقول . والسفينة موجودة فى الميناء . وحمولتها كبيرة ،وفى حاجة إلى رجال كثيرين . وهو رجل معروف بشهامته وقوته . ولم يكن أنطونيو فى البيت . وظهرت الزوجة،وطال وقوفها مع الشاب وأغلقت الباب بسرعة .. وكان أنطونيو بالصدفة يرقب المنظر من بعيد وغضب وثار وارتفع الدم فى رأسه وأحس كأن كرابيج النبيل قد لسعته من جديد . وانه لم ينتقم بما فيه الكفاية . ودق الباب . إنه كان أكثر كلاما وغضبا وسخطا . وحاولت زوجته أن تقول إن هذا الشاب جميل ، وانه جميل فعلا ، ولكنه يبعث على الضحك لأنه يتهته ، ولذلك حاولت أن تفهم منه أكثر من مرة ، وكانت تمسك نفسها من الضحك بصعوبة وأن الشاب قد غضب ، ولم يكن فى وسعها أن تقفل الباب فى وجهه . ولا كان من الطبيعى أن تسمع دقات الباب ولا تفتح .. ولابد أن تسمعه ما دام يطلب منها الاستعانة بزوجها .. ثم إنها مثل زوجها تعيش به ومعه على كرامة واحدة كرامته كرامتها ، وكرامتها كرامته وانه لم يحدث فى السنوات السبع الماضية أن وضعا حدودا للكرامة .. هذه هى أول مرة ..

وكانت الأحداث التى جاءت بعد ذلك غريبة .. فمن بين عشرين احتمالا جاء تصرف أنطونيو شيئا لا يخطر على البال .. انه دخل البيت .. وأنهض ابنه الصغير من النوم .. وأخذه من يده .. وهو لا يزال يمسح النوم عن عينيه وذهب به إلى الميناء .. وركب إحدى السفن .. واختفى فى الأفق .

ولم يكن من السهل فى ذلك الوقت أن يعرف إنسان أين يذهب أى

إنسان .. فالبحر واسع .. والموانى كثيرة والناس أحرار يذهبون إلى أى مكان وبأى شكل ولأية فترة من الوقت وعلى أى حال .. وفى الجو الواسع تنسلل أنطونيو وابنه برافو .

ونزل الإثنان فى جزيرة صقلية .. وتنقلا بين أطرافها وجبالها ووديانها وحدائقها .. واختفى أنطونيو وراء ملابس رعاة البقر .. والفلاحين .. وحاول أن يكون قسيسا ولكنه لم يستطع.. فهو لا يعرف الكثير من أشياء كثيرة جدا .. من بينها الدين . فهو لم يذهب إلى الكنيسة إلا مرات قليلة ومضطرا .ثم قرر ألا يذهب إلى الكنيسة بعد ذلك .. لأنه فى كل مرة يذهب مع ابنه برافو يتعرض لقضايا لا يعرف الإجابة عنها . ففى إحدى المرات سأله ابنه : كيف يصحو الناس من الموت .

وكان جواب الأب : لا أعرف

وقال الابن : ولكنك قلت لى أن أمى ماتت .

ورد الأب : نعم ماتت .

وقال الابن : ولكن متى تصحو من النوم .

وقال الأب : القسيس يتكلم عن أناس من نوع خاص لا يعملون فى فلاحة الأرض .. ولا يقطعون الصخور ولا يعيشون فى جزيرة صقلية ..

قال الابن : ولكن أمى لا تعيش فى صقلية إذن سوف تصحو من الموت
وقال الأب : سوف تصحو ولكن لن تجئ إلى هنا .

– ولكن لماذا ؟

– لأن الطريق طويل وصعب ..

– ولكن نحن جئنا إلى هنا ..

– لأننا رجال .

— لقد كان على المركب الذى جئنا به إلى هنا عدد كبير من النساء والأطفال ..

— اسكت.. ولن نذهب إلى الكنيسة بعد ذلك.

— فإذا ذهبت ..

— فستكون وحدك .. لن أذهب معك ؟

وكان الأب أنطونيو حريصا على أن يكون بعيدا عن الموانى حتى لايرى ابنه السفن .. وأن يكون بعيدا عن الكنائس حتى لا يسأله ابنه كثيرا عن الحياة والموت .. أوعن حياة أمه أو موتها .. وربما سأله عن سبب تركه لأمه .. ولكن من الصعب أن يعيش الإنسان فى جزيرة ولا يرى البحر من كل جانب ، ومن الصعب أن يكون الإنسان فى إيطاليا الكاثوليكية ولا يجد مئات الكنائس وألوف القساوسة .

وقرر الأب أن يعمل يوم الأحد من كل أسبوع . وظن بعض الناس أنه يهودى .. واليهودى إنسان كريه فى جزيرة صقلية ، ولكن الأب أكد للجميع أنه مسيحى كاثوليكى ولكن عنده هموم خاصة وحاول الناس أن يعرفوا همومه الخاصة .. وكان لابد أن يقول.. فإذا لم يقل اخترعوا له القصص

فإذا اخترعوها نشروها وصدقوها . وعليه بعد ذلك أن يدافع عنها إذا استطاع ، ولن يستطيع . وقرر الأب والابن الذى أصبح فى السادسة والعشرين من عمره أن يدافعا عن وجودهما فالناس جميعا يشكون فى حقيقة أمرهما . وفى يوم قال الأب أنطونيو لابنه : اسمع يا برافو بصراحة .. نحن الآن متهمان من كل الناس .. فهم يقولون إننا لصوص هاربون من العدالة .. وأنت تعرف الحقيقة الآن .. فلسنا لصوصا ، وإنما أنا رجل عصبى . وفى لحظة غضبى خطفتك من أمك وحرمتك منها وعذبتها من بعدك .. هذا كل ما حدث وأنت رجل . وعليك أن تظل كذلك وأنت متعلم وأنا لم أتعلم .. وأنت تكتب وأنا

لا أعرف القراءة والكتابة . وتستطيع أن تعيش ظالما وأن تعيش مظلوما. وحياتك فى يدك . بعد أن كانت فى يدى .. وغدا سوف تصبح حياتى أيضا فى يدك .. والباب مفتوح لنا نحن الإثنين .. إما أن تخرج .. وإما أن أخرج .

وقال الابن .. بل نخرج معا .

وانتقل الأب وابنه إلى أحد الموانى الصغيرة فى جزيرة صقلية .. الأسماء لا تهم .. إنما الأحداث هى التى تهم بعد ذلك . وهذا ما رواه برافو أنطونيو فى قصته الجميلة التى عنوانها (كل الوجوه لا أعرفها) والتى صدرت فى أبريل سنة ١٩٣٠ والتى أشار إليها الأديب الإيطالى كورتسرو ملبارته وقال: لولا أنى أعرف بعض أحداثها .ماصدقتها .. ولكننى عرفت المؤلف وعرفت أباه .. وسمعت عن حياتهما فى صقلية وانحنى إعجابا بالفن والصبر والجمال .

لم يعرف الأب بالضبط ما الذى قرره الابن ولكن الابن قرر أن يجعل لحياته هدفا واحدا . أن يجد أمه أن يستردها أن يعتذر لها . أن يراها مرة أخرى مع أبيه .. وأن يعيشوا فى بيت واحد .. حدث هذا كثيرا للمهاجرين والهاربين والغاضبين ومعجزات السماء لا تنتهى . والمفتاح السحرى للسماء هو الأصبع الصغيرة فى يد كل أم .

ولم يشأ أن يقول شيئا من ذلك لوالده . ولما سأله أبوه إن كان يريد أن يتزوج . كان جوابه ليس الآن .. وكان الأب يلح على ابنه أن يتزوج ولكن الإبن لم يفهم إلحاح الأب . وكان الأب يطلب إلى ابنه أن يسكن كل منهما فى شقة خاصة . ليكون أكثر حرية . هو أكثر حرية ، والأب كذلك . ووافق الابن وأحس أن والده يريدأن يكون على راحته . وكان سعيدا بأن رغبة أبيه فى الحياة والاستمتاع قد عاودته ووجدها الابن فرصة لكى يغيب عن الأب أياما ويعود .. وكان الأب سعيدا بذلك .

يقول برافو أنطونيو فى قصته ولكن أبى لم يعرف بالضبط ماذا أفعله .. إننى أقضى الليالى أقابل البحارة والمسافرين .. وأسألهم واحدا واحدا عن سيدة لها صفاتى وملامحى .. ثم أعطيهم صورتى وأعرضها على كبار السن .. وعلى النساء بصفة خاصة .. وأطلب إليهم أن يسألوا إن كانت سيدة مريضة أو كفيفة تجلس على الميناء تنتظر عودة وحيدها .. وان كانت هذه السيدة تضع على رأسها بنطلونا صغيرا أحمر اللون .. هو بنطلونى .

ويقول برافو .. والذى لم يعرفه أبى أننى كنت أبكى ليلا ونهارا على أمى .. لا أعرف ما الذى أبكيه ولا ما الذى أبكى عليه .. اننى لم أعرفها .. لم أشعر بها .. لا أعرف .. ولكن نافورة — لا أعرف — من الدموع تفيض فى عينى .. هذه النافورة تنبع من أعماق غزيرية لا سيطرة لى عليها .. إن أمى هى التى تعصرنى من داخلى .. كأننى أنا الذى ولدت أمى وليست هى التى ولدتنى .. لو كانت أمى بعد أن ولدتنى عادت فاستقرت فى أحشائى فأنا ألدها كل يوم دمعة .. دمعة .

ويقول : وكلما رآنى أبى ذابلا ضربنى على خدى وهو يقول ترفق بنفسك فالفتيات كثيرات والخمر كماء البحر .. لا نهاية للخمر ولا نهاية للنساء .. وكنت أضحك ، فأبى لا يعرف الحقيقة ، وإن كان سعيدا لسعادتى .

وفى يوم ٢٧ مايو سنة ١٩٢٩ وكان الجو حارا . وكان برافو يجلس فى بيته ، جاءت سيدة تقول له إنها وجدت امرأة تبكى على غياب طفلها ، وأن هذه المرأة قد حضرت إلى الجزيرة ، وقفز برافو ليراها ، ورآها وسألها : هل أنت أمى ؟ قالت : نعم يا ولدى . وعانقها وعانقته وبكى ونظر إلى ملابسها .. الملابس ممزقة والوجه شاحب والجوع والعطش والمرض والحرمان كل ذلك بارز فى وجنتيها وعروق يديها .. وحملها إلى أحد محلات الملابس ، واشترى لها كل ما تحتاجه ، وكان فخورا يقول لكل واحد : إحدى المعجزات .. أمى بعد عشرات السنين .. أمى .. إنها أجمل أم .

وكان برافو فى ذلك الوقت يعمل فى إحدى شركات الفاكهة .. وأقسم أن يضع التفاح تحت قدمى أمه لتسير عليه .. وأن تتدحرج فوقه كما يفعل الأطفال فى صقلية فى موسم الفاكهة .. إنهم يضعون التفاح الأخضر تحتهم وينزلقون عليه .

وقرر برافو أن يقدم أمه لأبيه وهى فى أحسن حالاتها .. يريد أن يجعلها مفاجأة له .. يريد أن يراها عروسا وبعد شهرين من حياتها الهادئة الهانئة دعا أباه إلى البيت . وبعد أن تناول العشاء وشرب الأب .. وشرب الابن قال : أبى عندى لك عروس .. أجمل عروس فى الدنيا .. وقدم أمه له .

وراح برافو يحكى لأبيه كيف عثر عليها .. وكم عدد البحارة الذين حدثهم .. وكم عدد المسافرين والمسافرات ، وكم أنفق من المال .. وكم بكى .. وكم ذهب إلى الكنيسة وكم صلى لله أن يخصه بمعجزة واحدة ..

ولكن الأب لم يفرح لهذه المفاجأة وأدرك الابن أن الزمن لم يمسح ما بين الأبوين .. والأب معذور .. وعندما نظر إلى الأم وجدها قد انزعجت فأدرك أن الذى فى قلبها لم يلتئم .. ولكن سوف يسوى ما بينها وبينه من خلافات . وأنه قادر على ذلك . والذى يعجز عنه الزمن يحققه الأطفال وإذا لم يستطع أن يجمع بينهما فى بيت واحد .. فإنه وحده سيكون ملتقى حبهما وعطفهما .. سوف يكون أبوه وأمه ذراعين تتدليان بعيدتين ولكن فى جسم واحد ممكن .. حدث هذا كثيرا ..

وفى اليوم التالى عاد برافو إلى البيت . ولم يجد أمه . وذهب إلى بيت أبيه فلم يجدها . هربت ؟ ولكن لماذا ؟

وجاءت العجوز التى أتت له بأمه وقالت: اسمع يابنى .. هذه السيدة ليست أمك ولكن لها ابن مثلك خطفه البحارة ويقال إنهم أخذوه إلى أمريكا . ليست أمك . وحاولت أن أوضح لك أكثر من مرة ولكنك لم تسمعنى .

وجاء الأب ليقول له : أنت لم تعطني فرصة .. لقد ظننت أنني مخمور وظننت أن كرامتي ما تزال تنزف دما .. أنا عندي لك مفاجأة .. أرجوك أن تسمعني هذه المرة حتى لا يحدث ما حدث مرة أخرى .

يقول برافو في قصته: كل شيء قد اتخذ ثوبا آخر .. وطعما آخر .. أين الحقيقة وأين الكذب .. لا أعرف ولا يهم أيضا .. ماذا جرى في داخلي .. أين قلبي .. وأين عقلي كل شيء تعطل . أنا في حالة صمت .. أو أنا الصمت نفسه .. لم أعد قادرا على سماع شيء أو قول شيء .. لقد جاء أبي ومعه سيدة قد غطت رأسها .. هذه هي أمي .. أما بقية القصة فأحداثها عادية .

لقد جاءت الأم إلى الجزيرة .. اهتدت بإحساسها بغريزتها والتقت بالأب . وخدعها الأب بقوله : إن ابنه غاضب عليها ، وأنه قرر أن يقتلها .. وأن الأب يحاول أن يهدئ من غضبه وأن الابن قرر أن يمزقها ويضع قطعة من لحمها على كل ميناء إنتقاما لشرف الأب . منتهى النذالة من الأب وكذلك قرر الأب أن يلتقي بزوجته سرا .. وأن يتركها في بيت بعض الجيران .. وخافت الأم أن تلتقي بابنها . وإن كانت سعيدة برؤيته وبحيويته وشبابه .. وقلبها يؤكد لها غير ذلك .. فهي ترى ابنها يذهب إلى الكنيسة وتراه صادقا محبوبا كريما .. والقلق الذي تراه على وجهه ليس الرغبة في الإنتقام . ولكنه قلق من يبحث عن شيء ضائع .. قلق العاشق وليس قلق القاتل .. ولكن الأب يروي لها كل يوم قصة كاذبة .

خمس عشرة سنة .. بأيامها وساعاتها ودقائقها والأم ترى ابنها وتنتظره وترقبه وتبكي على المسافة القصيرة جدا بينهما ولا تقوى على أن تلمسه .. إنها أقصى درجات العذاب .

ولما رأى الأب أن ابنه انهار بعد هرب السيدة التي ادعت أنها أمه .. وأسعدته شهورا طويلة .. قرر أن يكشف عن الأم الحقيقية . وأقسم الأب . وأقسمت الأم .. وبكى الجميع .. وحار الابن . ولم يستطع أن يسأل ..

ولكن لماذا ؟ وكيف صبرت ؟ وكيف صبر وكيف استطاع أن يكذب كل هذه السنوات .. كيف .. إن شيئا من ذلك لم يحدث .. ولو حدث ما صدقه أحد .. انه الإنتقام الرهيب من الأب ؟ إنها الغيرة المحرقة .. فالأب يغار من الأم أن تحظى بكل حنان الابن .

وتنتهى قصة برافو أنطونيو بهذه العبارة .. حتى هذه الفرحة لم تتم وإن كان أبى يتوقع للقصة نهاية أخرى فقد انتحر أبى .. لقد عاقب نفسه على جريمة تعذيب ابن وأمه .. تعذيب إثنين يقتربان ولا يريان .. يقتربان ولا يسمعان .. عذبنى أياما .. وعذبها ألوف الأيام .. لم أستطع أن أبكى على رجل — ولا أقول أبى — وضعنا نحن الاثنين فى سجن من نوع غريب .. لكى يتمتع بعذاب الجميع .. غريب أن أرى أمى كثيرا .. نعم رأيتها كثيرا .. ولم تقع عينى على وجهها .. ولم ألاحظ هذا الشبه التام بينها وبينى .. لم ألاحظ ذلك .. لقد رسم لها أبى صورة أخرى .. وانطبعت صورتها المزورة فى رأسى .. ونسيت صورتى فيها .. انتهت القصة .. بأن غاب عنا واحد وكأنه مكتوب علينا نحن الثلاثة أن نعيش دائما إثنين يفتقدان ثالثا .. أو يحزنان عليه .

طعامهم البذور و الجذور
على جبل اليأس!

الباب المفتوح يغرى الرؤوس بأن تطل . والفم المفتوح يدخله التراب . ولذلك ليس له الحق فى الشكوى لأنه عرض قضيته على الناس . فأصبح الناس طرفا لهم رأى ، ولكنه على أحد إذا أراد لقضيته أن ينفرد بحلها . فيجب الا يعرضها على أحد من الناس . ولكنه لم يفلح فهو يتحدث بصوت مرتفع والناس جميعا يسمعون شكواه . وماداموا قد سمعوا فلابد أن يتكلموا . وإذا تكلموا فلابد أن يسمعهم وأن يدخل فى نقاش معهم . وأن يقنعهم والا ..

أما بقية هذه الجملة فقد عاش بطل هذه الرحلة يعانى منها . . والا يسكت والا يرحل عن هذه البلاد والا يكف عن طلب المساحة ومن المجلس البلدى ولكنه لم يسكت . ولم يسكت،وقد تنقل هذا الرجل بين جوانب القارة الاسترالية شرقا وغربا . عدة مرات . ولم يبق الا أن يقطعها من الجنوب إلى الشمال — منتهى الطموح والجرأة .

وقد تحدد له يوم فى شهر أعسطس سنة ١٨٦٠ فقد كان على رأس بعثة من الأوربيين والهنود . عشرة من البيض وثلاثة من الهنود . معهم خيولهم وجمالهم وكلها احضرت من الهند . ومعها كل ما هو ضرورى لرحلة طويلة . الرجل اسمه روبرت بيرك ايرلندى ولد قبل ذلك بأربعين سنة وكان جنديا فى سلاح الفرسان المجرى فى الجيش النمساوى . وفى سنة ١٨٤٨ عمل فى البوليس الملكى الايرلندى . وفى سنة ١٨٥٢ عمل فى البوليس الاسترالى . وعندما نشبت الحرب فى شبه جزيرة القرم سافر إلى بريطانيا ليتطوع فيها . ولكنه وصل متأخرا فعاد إلى العمل فى البوليس . ولكنه لم يطق البقاء

فى مكان واحد . ولذلك تقرر أن يبحث عن شئ جديد لا يعرفه . . وكان معه رجل آخر اسمه وليام ولز طبيب . جاء إلى استراليـا يبحث عن الذهب . وهو من المهتمين بالمعادن وبالأفلاك أيضا . وقد عمل مديرا لمصلحة المساحة فى استراليا . واتفق الإثنان على المغامرة بأى ثمن .

وكانت التعليمات التى لديهم الاتجاه إلى الشمال بشرط أن يتركو علامة فى كل مكان يذهبون إليه . أن يتركوا جيرا أبيض على الأشجار . أن يدقوا علامات من الخشب أو من الحديد دليلا على أنهم جاءوا وأقاموا وتركوا أثراً . أو فتحوا طريقا أمينا من الجنوب إلى الشمال .

وقد تركوا مدينة ملبورن يوم ٢٠ أغسطس سنة ١٨٦٠ واتجهوا إلى الشمال فوصلوا إلى إحدى مدن ولاية ولز الجديدة يوم ٢٣ سبتمبر . لم يجدوا مشقة وأقاموا أول محطة وكتبوا على هذه المحطة الصغيرة يوم الوصول ويوم الرحيل وتركوا مذكرة موجزة بما سوف يفعلون بعد ذلك . ثم اتجهوا إلى الوديان الجبلية . واتفق بيرك مع رجل من تجار الماشية على أن يلحق به لأنه يعرف الطريق أفضل منه . . ثم بعث إليه بعدد من رجاله . وطلب إليه أن يسبقه . وأن يترك هو أيضا أثرا فى كل مكان يذهب إليه وكان عليه أن يترفق بالخيول والجمال حتى لا تموت منه فى الطريق فهى تقوم بمهمتين أن تمشى وأن تحمل على ظهرها الرجال والطعام . .

وفى يوم ٢٠ نوفمبر أقام محطة : كوخا من الخشب رقم ٦٣ وانحدرت بهم الأرض والصحراء الصخرية القاسية إلى واد . . ومازال الوادى يضيق حتى كاد يخنقهم . وهربوا من الوادى . فقد هبت عليهم عواصف من الفئران . . بمئات الألوف . . والفئران تجئ وسط الرمال تعمى البصر . . ويفاجأ كل إنسان بأن جزءاً من لحمه قد خطف منه . . وأن دماءه تسيل وكذلك الخيول والجمال . . وفى ساعة واحدة اختفى كل ما معهم من طعام وهربت الجمال والخيول . . وبعد هذه الساعة وقف الرجال والحيوانات فى ذهول . لقد

اختفى كل شئ . . حتى الحبال والملابس والأوراق . . كان عليهم أن يعودوا إلى أقرب مدينة يعيش فيها الزنوج ليستعيروا طعاما أو شرابا أو حبالا ليربطوا بها الخيول والجمال .

واهتدوا إلى أحد مخيمات الزنوج وقدموا لهم بعض الأحجار الملونة مقابل بعض الأسماك الجافة . . وبعض المـــاء أيضا . وعاونهم الزنوج على استعادة الخيول والجمال .

ويقول وليام فى مذكراته لهذا اليوم . . يوم جاف . فلا ماء ولا طعام . . وقد هرب منا ثلاثة من الجمال ولم نستطع أن نهتدى إليها . . فهى لم تحتمل العطش الشديد . ولا ندرى أن كانت هربت وأصابها الجنون أو أن الزنوج اخفوها تمهيدا لذبحها بعد ذلك . وكانت هذه أكبر كارثة وقعت لنا . وكان علينا أن نتحملها بروح رياضية . فليست هذه أول هزائمنا . . فقد جاءت بعدها هزائم كثيرة .

ويقول أيضا : مشى الزنوج وراءنا لا يريدون شيئا . . وليست لديهم أية نزعات عدوانية . ولـكن منظرهم مخيف فمن الصعب أن تستريح ووراءك أناس يمشون كظلك ، عيونهم واسعة وافواههم باسمة ولا ينطقون بكلمة . . أى أنك لا تعرف بالضبط ما يريدون . ولا توجد وسيلة لأن تعرف وكل حركة يقوم بها تجد عيونا واسعة لامعة قد سقطت عليها . . وأحسسنا أننا محاطون بسهام صامته . شئ مخيف ، فإذاهم جائعون . عصبيون . ولـكن هناك بضعة ملايين من الذئاب لا تدع لنا فرصة لأن نرفع أيدينا من فوق وجوهنا . . ومع الذئاب تراب وفئران وجوع وعطش انها جهنم . . شئ أقسى من جهنم .

وفى يوم الأربعاء ١٩ ديسمبر يقول ولز فى مذكراته : اليوم تمكنت من تسجيل خسوف كوكب المشترى . وأنا رجل سعيد . ولـكى أكون

صادقا فإن هذه السعادة لم تستغرق سوى لحظات بعدها عدت إلى الواقع الأليم .

واختفت جماعة من الزنوج وظهرت جماعة أخرى . . نفس الوجوه نفس العيون . . لا كلمة واحدة . قدموا لهم بعض الأحجار وبعض أعواد الكبريت . . وقدم الزنوج بعض الأسماك الجافة واختفوا ووجد البعض أنفسهم وحدهم تماما فى طريق ضيق . . لا صوت الا حوافر الخيل . . والا بعض الصرخات من الذئاب . .

واقتربوا من الساحل الشرقى لاستراليا . . وكان ذلك فى شهر فبراير . الامطار غزيرة . . سيول ووحل . . الخيول غارقة تماما . . الجمال ترفع رؤوسها بصعوبة . . أما الرجال فهم يصرخون . فقد غطاهم الطين حتى أعناقهم . . كل ذلك حدث فجأة وكأنهم نزلوا فى بحيرة من الوحل .

وفجأة التوى بهم الطريق وارتفع وهبت نسائم من المحيط . . ومعها طيور سعيدة تروح وتجئ ولكن درجة الحرارة منخفضة . . والماء متوافر والأشجار والثمار أيضا . . وهم فى حاجة إلى مأوى . . كل ذلك أمكن توفيره . ولكنهم فى حاجة إلى مزيد من الدفء وليست معهم خمور . . ولكن واحدا من الهنود اهتدى إلى إحدى الأشجار وبسرعة اعتصر ثمارها . . ثم أودعها فى قماش . . وبعد ساعة قدم للجميع شرابا يدور له الرأس . . يقول ولز فى مذكراته: عيب هذا المشروب أنه صداع بلا نشوة ولكن من المهم أن يدوخ الإنسان فى مواجهة الأهوال .

فمن نعم الله على الناس أنهم قبل أن يموتوا لا يشعرون بالموت . . ولو خطفنا الموت الواحد بعد الآخر فلن نشعر باختفاء أحد . . لأننا مأخذون من أنفسنا . . مسلوبون . . منهوبون فالذى تبقى منا قليل جدا كأن الرمال والذئاب والفئران قد أكلتنا ولم يبق منا أو فينا الا بقايانا .

وما تزال الأرض قاسية والطرق وعرة . . ولا شئ ينتهى . . فكل شئ يبدأ . . الطريق الضيق يجئ بعده طريق واسع . . والوادى يجئ من بعده جبل . . والجبل تجئ من ورائه الصحراء . . والصحراء لا أول لها ولا آخر وكان عليهم أن يبحثوا عن طعام . . فاطلقوا الرصاص على واحد من الجمال . وأكلوا لحمه وكان من الضرورى أن يدجنوا ما تبقى من اللحم والعظم قبل أن تهاجمهم الذئاب أو الكلاب الضالة ثم بعد يومين أطلقوا الرصاص على الجمل الثانى . . وبعد يومين أكلوا الجمل الثالث .

وفى اليوم الرابع شكا أحد الرجال البيض من الدوسنتارية . . وتهاون زملاؤه قائلين . . ليس عنده شئ وفى اليوم الخامس مات . . ولا أحد يعرف بالضبط ما الذى أصابهم .

وبعد أن دفنوهم وصلوا عليهم وتركوا إلى جوارهم علامات باسمائهم وتاريخ الوفاة . . مضوا إلى الشمال .

ولم يبق الا ثلاثة رجال الآن . . اما الباقون فقد ذهبوا مع تاجر الماشية إلى الشمال . ولم يعثروا لهم على أثر .

وفى يوم ٢١ إبريل تساقطو جميعا من التعب وقرروا أن يستريحوا أسبوعا أو شهرا . . واستراحو ثلاثة أسابيع . . ومن الصدف الغريبة أنهم عندما قرروا استئناف الرحلة إلى الشمال وجدوا شجرة عليها علامات بيضاء مكتوبا عليها يوم ٢١ ابريل سنة ١٨٦١ ومعلقة على الشجرة لوحة خشبية تقول : احفروا تحتها .

وحفروا تحتها فوجدوا صندوقا به بعض الأرز والسكر والدقيق والمسامير وحدوات الخيول والحمور وفى الصندوق رسالة تقول . . نحن فى حالة جيدة واصلوا السير وراءنا .

إذن لقد جاء تاجر الماشية فى نفس اليوم إلى هذه المنطقة وترك الصندوق

ورحل إلى الشمال . . وكان معه عشرة جمال وخمسة من الخيول والحيوانات فى حالة جيـــدة .

ويقول ولز فى مذكراته : أما نحن فظللنا نأكل الجذور والبذرو ونعصر أوراق الشجر . . وظهرت علينا الدمامل وكان الذباب يهلكنا ليلا ونهارا . . واهتدينا إلى أن هناك نوعا من الشجر لا يحط عليه الذئاب فتغطينا بأوراق الشجر . . وكان الذباب يهرب من رائحة الشجر . . وتمنيت لو حملنا معنا هذه الأوراق إلى نهاية الرحلة التى لا نعرف لها نهاية . . وكانت أوراق الشجر أول الأمر طوية لينة ناعمة وفجأة جفت الأوراق . وعند جفافها كانت تسقط منها ذرات هى قطع من الشطة . . ومن الغريب أن هذه الأوراق إذا جفت وسقط منها مسحوق الشطة لم تعد تخيف الذباب شئ عجيب .

وأقاموا فى هذه المنطقة التى اطلقوا عليها اسم (جبل اليأس) ثلاثة شهور . . يأكلون البذور ويعصرون الجذور .

فلما كان يوم ٥ يونيو يقول ولز فى مذكراته فى هذا اليوم كان هلاكنا . . جلسنا نحن الثلاثة نواجه بعضنا البعض . نحن أضعف من أن ينهض واحــــد ويضرب الآخرين بالحذاء على هذا العمل الجنونى الذى قمنا به . . كيف أننا ضللنا الطريق . . كيف أننا قررنا أن نموت أحقر موته . . ما الذى فعلناه بأنفسنا . . نحن الآن عراة حفاة جلد على عظم . . الوجوه كالأرض مشققة والعيون كالوديان غائرة وحركتنا كالهواء مشلولة .. وأنفاسنا كالذئاب صارخة ونحن بقايا أناس كانوا فى نضرة الزهور . . أما الآن فلا كلام ولا أحد يدرى بأحد . . أننا نمشى معا لأننا لا ندرى ما الذى نفعله . . ذبحنا الجمال والخيول ودفنا بعضنا البعض هلكنا . . أو أهلكنا أنفسنا .

ووقع واز بإمضائه عند نهاية هذا السطر . . ثم سقط ميتا .

لم يبق الا رجلان بيرك رئيس البعثة وزميل له اسمه كنج وفى هذا اليوم شكا بيرك من آلام فى ساقه اليمنى وأصبح عاجزا عن الحركة تماما .

يقول كنج فى مذكراته . وعلى الرغم من أن بيرك ضعيفا تماما ، فإن شهيته للطعام كانت مفتوحة واحيانا كانت تظهر على وجهه ابتسامة هزيلة كسيحة من معدتى . . لأن الذى احشره فى بطنى لا يظهر له أى أثر . . كنت أضحك تشجيعا له . . وحرصا على رفع معنوياته .

وفى يوم أول يوليو أحس بيرك بنهايته وطلب من زميله أن يكون إلى جواره حتى يموت . . ثم اعطاه بعض المذكرات وقاله . . اعطها لجمعية الاكتشافات . . ثم قال أيضا إذا مت فلا تدفنى . . اجعلنى على وجه الأرض . وضع المسدس فى يدى اليمنى . . ولا تتركنى إلا إذا تأكدت من أننى مت تماما . . ضع رأسك على قلبى من حين إلى حين . . فقد احتاج إلى كوب من المــــاء فى آخر لحظة . .

وبعدها مات . .

أما الرجل الثالث فراح يبحث عن الزنوج . . يتسول منهم الطعام . . ثم قرر أن يعيش بينهم . وأن يرتدى ملابسهم وأن يبنى لهم بعض الأكواخ فهو لا يستطيع أن يعود . . مضت ثلاثة شهور . . وجاءه الزنوج يقولون أن جماعة من البيض قد ظهروا . . وسارع هو إليهم . . فقد جاؤا للبحث عنه وعن زملائه .

وأنقذوه وعادوا به إلى ملبورن . . وحاولوا أن يجدوا أى أثر للزملاء الذين ماتوا ودفنوا . فقد نزع الزنوج ملابسهم وتركوهم للفناء .. فلم يبق منهم شئ..أو شئ قليل.وهذا الشئ القليل أودعوه الأرض إلى جوار شجرة وكتبوا عليها : مات يوم ٢ سبتمبر سنة ١٨٦١ روبرت بيرك ونشرت الصحف فى استراليا ما حدث وهاجمت بيرك بعنف . . كيف أنه يقوم على رأس بعثة علمية ثم يعتمد على تاجر أغنام لم يعرفه إلا فترة قصيرة ؟ .. كيف أنه أصدر إليه معلومات

شفوية . . كيف أنه لم تكن لديه خطة محددة ؟ كيف أنه لم يدون مذكراته طول هذه الرحلة ؟ كيف لم يخطر على باله أنه قد يموت فى أية لحظة ويكون موته خرابا على الدولة التى أعطته المـــال ولم تستفد منه شيئا ؟

ثم عادت الصحف وهاجمت تاجر الأغنام الذى يعرف الطريق أكثر منهم جميعا ولم يبصرهم بمتاعب الطريق . . ثم كيف انهم أمنوا إليه . . ولم يأمن لهم . . كيف أنه حاول أن يسرق منهم رحلة الموت هذه . .

وبعد ذلك عادت الصحف تقول صحيح أن بيرك مات ودفن فى الطريق . . ولـكنه فتح طريقا إلى الشمال وترك علامات على الأرض . . هذه العلامات سوف تذروها الرياح وتمحوها السيول . . ولـكن الذى تركه فى التاريخ والجغرافيا والاكتشافات لن يمحى . . فقد كان مثالا للشجاعة والجرأة وحسن النية . . كان يعرف الجبال ولا يعرف الرجال .

وبذلك
أصبح الطفل رجلا

فجأة أحس الأبن أن كل شئ فى الدنيا قد انتهى . . لا أحد فى الدنيا . . فراغ هائل . . وصمت مخيف . . ولا يدرى ما الذى يفعله . . فهو لم يتعلم شيئا له قيمة ولا كان من الممكن أن يتعلم . . فهو فى الثالثة عشرة من عمره وأبوه مات فجأة . . وأمه مريضة واخوته الثلاثة صغار ولا يعرف أحد من اين كان أبوه بهذه الأموال القليلة . . فأبوه رجل صامت يخرج ويدخل كالطيف ولكن الشئ المؤكد أنه يكن لأمه عظيم الأحترام ، وحاول أن يتذكر فيما بعد أن كان هناك أى خلاف بين أمه وأبيه فلم يجد وفى نفس الوقت لم يلاحظ أن احدا زارهم ولا سمع واحد من أقاربهم .

وعندما مات أبوه حدثت اشياء كثيرة بسرعة . . جاء الجيران بالقسيس وجاءوا بأناس آخرين . . وحملوا الجثمان ودفنوه . . ثم أتوا له بمفتاح الدكان الذى يبيع فيه الأب عددا من الكتب والمخطوطات القديمة . . وبين الحين والآخر يجئ بعض الناس ومعهم بعض الفاكهة والخضروات أو البيض أو الخبز ويتركوها عند الباب وقد رفعوا قبعاتهم . . ثم ينطلقون دون أن يقول الواحد منهم كلمة واحدة .

وكانت الأم بملابسها السوداء تحنى رأسها وتسبقها إلى الأرض دموعها . وتسحب هذه الأشياء إلى داخل المنزل ولكن لم يدر بين الجميع كلام . ولكن الأبن الأكبر قرر أن يتحدث إلى أمه فهو لم يطق هذا الصمت الطويل وقد سمع كثيرين من الناس أنه رجل . . ويجب أن يكون رجلا . . وأن تعتمد عليه أمه واخوته .

ولـكن تعتمد عليه فى أى شئ ؟ أنه لا يعرف . .

وفى يوم نادته أمه وقالت له بحزم : اسمع ياكارلو أنت رجل وأنا لا أعرف ما الذى تركه أبوك فى دكانه اذهب وابحث ولا تعد الا وفى دكانه شئ لاخوتك . . أنت لم تتعلم بما فيه الكفاية . . ولـكن هذه فرصتك وأن والدك قد كتب مذكرات ولم يكملها . . اقرأ ما كتب أبوك . . فأبوك رجل صابر . . تعذب كثيرا . . وعذابه كان مضاعفا لأنه عذاب فى صمت . . لم يقله لأحد . فهو من أبناء الجبال . . ويرى أن الشكوى عيب . . اقرأ ما كتب اذهب رجلا وعد أكثر رجولة . .

ثم اعطته مفتاح الدكان . .

وذهب الابن كارلو دونساتى يوم ١٤ ابريل سنة ١٨٩٣ إلى دكان أبيه . . فى الدكان ألوف من الـكتب . . وبلغات مختلفة . . وهو لا يفقه منها أى شئ . . فلم يحدث أن دخل هذه المـكتبة ولا جلس إلى والده ولو فعل فكيف يفهم كل هذه الجبال والمخطوطات الغريبة والعجيبة .

ووجد كارلو فى أحد الأدراج لفة من الأوراق المـالية . . ووجد بعض القطع الذهبية . . ثم وجد صورا من خطابات بعث بها الأب إلى بعض الناس يطالبهم بمال . . وأحس بشئ من الارتياح . . وأعاد الأموال إلى والدته . . ولـكن هذه الـكتب الـكثيرة هى المشكلة . .

ووجد فى أوراق والده خطابا موجها إليه . إذن لم ينس أبوه أن ينصحه أو لم ينس أن يفكر فى أولاده . . يقول الأب فى مذكراته التى جعل عنوانها (إلى أى إنسان يجد هذه الأوراق وإلى ابنى كارلو بصفة خاصة) يقول الأب :

اجعل قدمك صديقك اجعل يدك صديقك . . اجعل نفسك صديقك . . انها مسافة طويلة أن تمد رجلك وأن تفرد ذراعك . . أقرب الناس إليك

نفسك . . فاعتمد عليها . . وارحمها لأن أحدا لا ولن يرحمك . . هذه تجربتى عندما كنت قسيسا وعندما أصبحت تاجرا بعد ذلك . . وبعد أن هاجرت من مدينة تورينو فى الشمال إلى مدينة تارانتو فى الجنوب .

إذن أبوه كانت له تجارب مريرة ولذلك هاجر من شمال إيطاليا إلى جنوبها . . ولكن لم يشأ الأب أن يذكر ماذا حدث له . لعله خجل . . أو لعل الحياة لم تعطه له الفرصة لكى يقول . .

وفى صفحة أخرى يقول : (ياولدى مهما كانت الأسباب . . مهما كانت الظروف . . مهما كانت الضرورة لا تذهب إلى كنوسا . . إذا لم تعرف معنى هذه العبارة فاسأل الناس . . . لا تذهب إلى كنوسا مهما تمزق لسانك من العطش وتحطمت جوانبك من الجوع ومهما جللك العار . . لا تذهب إلى كنوسا . . انها كلمة حكيمة قالها مستشار ألمانيا بسمارك) .

وسأل الابن عن معنى هذه النصيحة الحازمة . . فعرف أن المستشار الألمانى بسمارك أعلن فى البرلمان يوم ١٤ مايو ١٨٧٢ وهو يوجه حديثه إلى بابا روما . . لا . . لن نذهب إلى كنوسا .

وكان يشير بسخرية إلى ما فعله ملك فرنسا هنرى الرابع عندما سار حافى القدمين والصدر والرأس ثلاثة أيام وهو شديد الندم إلى كنوسا حيث يقيم البابا روما جريجورى السابع ، وكان ذلك فى يناير ١٠٧٧ .

إذن أبوه لا يريده أن يحنى رأسه لأى أحد . . مهما كان السبب . . وأن يعتمد على نفسه ولكن ما الذى يفعله . .

يجب أن يفعل شيئا يليق برجل . . وهو رجل . . كل الناس تقول له ذلك وأمه تكرر له ذلك . . ويجب أن تعتمد عليه أسرته الصغيرة . . إذن لابد أن يبيع هذه الكتب ، وأن يشترى غيرها وأن يكسب فى عملية البيع والشراء .

وبدأ هذا الشاب الصغير أعظم تجربة ثقافية تجارية سياحية فى التاريخ .. جلس كارلو دونساتى وأمسك ورقة وقلما .. وكتب اسماء هذه الكتب جميعا ورتبها الواحد إلى جوار الآخر .. ثم عاد فرتبها حسب اسماء المؤلفين .. ثم رتبها حسب الموضوعات .. وعلق فى الدكان قوائم باسماء الكتب ووضع اسهما تشير إلى اماكنها فى أعلى الدكان .. وذهب إلى أحد القساوسة ليتعلم مبادئ اللاتينية واليونانية .. وذهب إلى قسيس آخر ليتعلم مبادئ الانجليزية والألمانية .. وإلى قسيس ثالث يعلمه مبادئ الفرنسية والعربية .

وكان قد قرر أن يعمل طول النهار فى الدكان الذى أغلقه على نفسه .. أما فى الليل فهو يعمل فى تجارة الفاكهة والخضروات وصيد السمك .. ويعود إلى البيت يحمل معه ما كسبه من المال . . وفى الصباح يذهب إلى المكتبة ويغلقها عليه ..

مضت خمس سنوات كاملة لم يبع فيها كارلو كتابا واحدا .. وكانت أمه تراه ولا تسأله . . ولكنها تجد الارهاق على وجهه فتصلى له وتدعوا الله أن يعطيه العافية ..

وكان يخجل أن يقول لأمه شيئا .. ولكن الذى لم يعرفه هذا الشاب الصغير هو أن أمه كانت تتابع من القساوسة .. وكانت تصلى من أجله .. ومضت خمس سنوات أخرى .. لم يبع فيها كتابا ولا دق بابه أحد .. ولا هو تحدث إلى أحد .. وإنما ظهر الارهاق عليه أكثر وأكثر .. وعندما سقط مريضا .. طلبت إليه أمه أن يعطى نفسه بعض الراحة .. وأن لديهم من المال ما يكفيهم شهورا .. فهو كان يعمل واخوته الآن يعملون .. وهى تدير شئون البيت بالحساب الدقيق .. ونام كارلو مريضا ولكن رأسه يدور .. وكانت أمه تجلس إلى جواره حتى ينام .. وكان إذا رآها إلى جواره نام بسرعة .

ومضت خمس سنوات أخرى . . وبعدها أعاد فتح المكتبة .. ولكن احدا لم يذهب إليه .. وكان يتوقع ذلك فذهب إلى قسيس مدينة تارانتو

ثم ذهب إلى العمدة .. ثم ذهب إلى بيوت الأثرياء وكانت له طريقة ذكية .. فهو لا يذهب مباشرة إلى القسيس وإنما إلى بعض موظفي الكنيسة يتحدث إليهم عن عظمة هذا القسيس وحكمته . . ويقول لولا أن القسيس ليس لديه الكتاب الفلانى .. إننى رأيت قساوسة روما لا يتركون هذا الكتاب ..

ثم يمضى إلى مكتبته . .

ويفاجأ بأن القسيس جاء يسأل عن الكتاب . . ويبيع له الكتاب وكتابا آخـــر وثالثا . .

ويذهب إلى الأغنياء .. ولكنه لا يذهب إليهم مباشرة .. وإنما إلى أصدقائهم .. ليس أصدقاؤهم المثقفون .. وإنما الأدعياء .. والأدعياء أكثر الناس إقبالا على الكتب .. لأنهم حريصون على الظهور والتظاهر .. ويحدثهم عما جاء فى هذه الكتب .. وكيف أن ملوك بريطانيا وفرنسا لا يقرأون إلا هذه الكتب .. وكيف أن الملوك أوصوا بقراءة هذه الكتب سرا حتى لا يعرفها الشعب ..

أما كارلو هذا فقد فعل ما لم يفعله أحد من قبل .. لقد أعطى لنفسه عشر سنوات يقرأ فيها بإمعان ودقة كل ما جاء فى هذه الكتب .. وأن يكتب تلخيصا سريعا لها .. وكان يهتم بأخبار هذه الكتب أكثر من اهتمامه بها .. وكان يهتم بالنوادر التى يسهل على الناس أن يحفظوها أكثر من المواعظ والحكم فليس أسهل من رواية نكتة وليس أصعب من احتمال موعظة وما يزال الرجل المرح محبوبا فى كل وقت .. وما يزال الواعظ والناصح .. مهما كان أمينا، ثقيلا على الأذن وعلى القلب .. ولذلك كان الأب أثقل من العم .. والعم أثقل من الجـــار .

ووجد فى أوراق أبيه أن الناس لا يفهمون إلا ما يرون .. ولا يزنون الناس إلا عن بعد .. فالمظاهر هى كل شئ وأول ما فعله هو أنه أبدل ملابسه

وأحسن تصفيف شعره وطلاء أظافره .. وتنظيف حذائه واعتاد أن يقول إنه من أسرة فى الشمال وأن خلافات عائلية هى التى دفعت أباه المحب للعلم إلى أن يبدد أمواله من أجل أن ينقل الثقافة إلى الناس .

وراح يعرض نفسه على الفتيات .. وتردد اسمه بين كثير من العائلات على أنه شاب مثقف عالم قرأ مائة ألف كتاب . وتعلم عشرين لغة .. وكان إذا أحد سأله عن ذلك لا يقول لا .. ولايقول نعم .. وإنما تجئ الابتسامة العريضة المتواضعة دليلا على أنه يعرف ما يقرب من هذا العدد ..

وجزء من المظاهر أن يكون مستقيما أى أن يكون صعبا وليس من السهل إغراؤه ولا الإيقاع به . . وفجأة وجد نفسه حلما يدوخ الفتيات .. وفجأة وجد عشرات من السيدات يترددن على بيته لأسباب غير مفهومة وفجأة تحولت أمه إلى سيدة شهيرة محبوبة مرغوبة .. طبعا إنه هو الهدف من هذا كله .

لم يعد البيع والشراء مشكلة .. فقد عرف الجميع الطريق إليه ..

ورغم هذا النجاح الواضح فإن لديه مشكلة .. وربما كانت هذه هى المشكلة الوحيدة أمامه .. فى المكتبة كتاب من ستة أجزاء .. وهذا الكتاب مكتوب باليد إلى شخص يقال له (السيد المحترم العظيم الوفى لويجى كاروتشى) متعه الله بالصحة والعافية وأدام عليه هذا الثراء العريض .. كتبت هذا الكتاب فى عشر سنوات بناء على طلبك .. واطمئنانا إلى وصيتك بأن يتلقى أولادى من بعدى الهدية التى وعدتنى بها أمام الله .. أبقاك الله وغفر لك ذنوبك وذنوبى ...الخ .

والكتاب فى أكثر من ألف صفحة ..

ولم يعرف أحد أين هذا السيد كاروتشى .

وكان عليه أن يسأل كل من يلقاه من الناس .. وأخيرا قرر أن يسافر

إلى روما ويسأل الفاتيكان .. فلابد أن لديهم أخبارا عن كل الناس المسيحيين فى إيطاليا وفى العالم .. ولم يكن الأمر فى الفاتيكان سهلا فبدلا من أن يدلوه على واحد بهذا الاسم.. قدموا له ألوفا بهذا الاسم .. وليس من بينهم واحد فى مدينة تارانتو حيث يعيش هو ووالدته وإخوته .. ووضع الأسماء كلها أمامه .. فوجد أن هذه الاسرة .. لسبب غريب غير مفهوم .. قد تفرقت فى كل إيطاليا .. وراح يطالع الأسماء ويضعها بعضها إلى جوار بعض ووجد أنه لابد أن يذهب إلى ثلاثين مدينة . . ثم اختصر هذه المدن إلى عشرين وقرر أن يجد هذا الرجل حيا أوميتا وبعث إلى أمه يقول لهـا :

« إن أخى الصغير أصبح يعرف الكثير من شأن المكتبة .. فاعتمدى عليه بعض الوقت .. وأنا عند حسن ظنك وكما عودتك سوف أحضر فى مدى سنة .. والله يحفظك » .

وبدأ أغرب وأعجب بحث عن شخص اسمه لويجى فى إيطاليا .. إن البحث عن لويجى مثل البحث عن شخص اسمه محمد فى العالم العربى .

ولكنه تعلم أن يسأل رجال الدين وبعد ذلك يسأل المرابين . . إنهم وحدهم الذين يعرفون كل أسرار الناس ووجد عشرات بهذا الاسم .. مزيدا من الأسماء تنطبق عليهم الأوصاف التى جاءت فى الكتاب المجهول المؤلف .

وقابل رجلا اسمه فعلا لويجى كاروتشى . . إنه تاجر غلال وبسرعة فحصه الرجل من فوق إلى تحت وقال له : أخيرا جئت ياولدى .

وأحس كارلو بسعادة لا حد لهـا .

وقال له لويجى : ولكن والدك لم يقل لك بقية الشروط . . لا بد أن تتزوج ابنتى الجميلة .. وأن تكون واحدا منا . وتزوج الابنة الجميلة فعلا.. واكتشف بعد شهر أن هذا الرجل لويجى ليس هو الذى قصده الكتاب .. وصارح زوجته بذلك .. وقررت الزوجة أن تواصل البحث معه .. ولكن

كارلو هذه المرة كان أحسن حالا .. فالفتاة غنية وقد عاونته بفلوسها على مواصلة البحث . . وبعث لأمه يقول إنه تزوج وأنه سوف يعود مع عروسه قريبــا ..

وفى مدينة جنوه وجد رجلا كبيرا فى السن اسمه لويجى .. وروى له قصته .. ولكن هذا الرجل المريض صارحه بأن واحداً له هذا الاسم كان يقيم فى جنوه . . ثم رحل عنها إلى مدينة تارانتو . . وغير اسمه وهو يعيش فى بيت منعزل خارج المدينة يعلم اللغة اللاتينية واليونانية لأولاد الذوات .. وهو رجل طيب راهب .. كان يقرأ كثيرا وقد كلفه بأن يلخص مئات الكتب فى مجلد واحد .. ووعده بذلك مقابل مكافأة قدرها عشرة آلاف جنيه ؟

الصورة الآن واضحة يجب أن يعود كارلو بسرعة بعد أن تنقل أكثر من ثلاث سنوات بين المدن والقرى يبحث عن هذا الرجل لويجى . . لأن هذا الرجل يقيم فى نفس المدينة التى كان يعيش فيها .. ولأن والد كارلو هو مؤلف هذا الكتاب .. وأغرب من ذلك أن هذا الرجل لويجى هو الذى علم كارلو مبادئ اليونانية واللاتينية ولم يشأ أن يقول له شيئا .

وعاد كارلو ومعه عروسه وطفلان صغيران لهما .. ووجد هذا الرجل لويجى فى البيت .. وقام الرجل وقامت أمه وعانقت العروسين والطفلين ولم يكن كارلوا فى حاجة إلى أن يسأل عن شئ مما حدث .. ولم يكن من الصعب عليه أن يعرف أن السيد لويجى كان يلتزم بوصية والد كارلو وهى أن يتركه حتى يصبح رجلا ويتركه حتى يهتدى اليه بنفسه .. بتعبه .. وعذابه .. وليس أسهل من أن تكون طفلا وليس أصعب من أن تكون رجلا .. أبا لأخوته الصغار ثم أبا لأولاده هو .. وعميدا لأسرة هى أمه وأخوته . . وكانت الجائزة المالية تنتظره ولكن الذى كسبه فى البحث عنها أعظم وأعمق من الفلوس نفسها .

ولم يأمن

إلى

واحد منهم

كانت ليلتهم الأخيرة .. شربوا .. رقصوا .. ودع كل واحد منهم أصدقاءه وأقاربه .. وقرروا أن يناموا على ظهر السفينة حتى الصباح . وعند الصباح يفتحون المظروف المقفل ويصلون لله . ثم يتجهون إلى أقرب جزيرة لم يعدأ حدهم يفكر فى شئ .. كل واحد منهم قد فعل ما فى نفسه وزيادة .. وقد سألهم نوح برادلى : هل هناك شئ منحط لم يأته واحد منكم ؟

وضحك الجميع وقالوا ..

— لم نترك رذيلة واحدة ياقبطان ..

وأثناء الليل تعالت الصرخات وحاول البحارة أن ينهضوا من النوم المخمور . وبعضهم يتساند على البعض ويتساءلون :

— من الذى قتل القبطان ؟

وبرز من بينهم واحد مخمور وهو يقول :

— أنا الذى قتلته !

— ولكن لماذا ؟

لقد ارتكبنا كل الرذائل إلا جريمة القتل .. وقد قتلنا الآن، وبذلك سهلنا مهمة السماء .. فنحن جميعا نستحق الجحيم .

وكأنهم فى إحدى المسرحيات الفاجعة فقد عادوا جميعا إلى النوم لأنهم سكارى وعندما طلعت الشمس عليهم فى ميناء سيدنى باستراليا فوجئوا بالحقيقة : أن القبطان قتيل حقا .. وليس حلما كما حاول بعضهم أن يقنع البعض الآخر .. ولكن كيف حدث هذا كله .. ومن الذى قتله لا أحد

يعرف بالضبط .. وحاول كل واحد منهم أن يروى قصة مختلفة عن الذى رآه وهو مخمور .. ولكن البوليس لم يأخذ برواية واحد منهم ويقال إن القبطان انتحر .

وفى يوم ١٤ يونيو سنة ١٨٩٧ تنبه أحد البحارة العشرين إلى أنه من الضرورى فتح المظروف الذى تركه القبطان وفتحوا المظروف ووجدوه يقول :

إن هناك كنزا فى جزيرة (الحوت الأزرق) وعليكم أن تقسموه بينكم ولكن إياكم أن تنسوا العم شاروف .

أما العم شاروف فهو رجل فى السبعين من عمره .. وكان بحارا وتقاعد لا لأسباب صحية ، ولكن لأسباب خارجة عن إرادته فقد انكسرت ساقه اليمنى وذراعه اليسرى أيضا . ولكنه رغم ذلك فى صحة جيدة.. ثم إنه إذا شرب لا يتوقف عن الغناء .. وهذا هو أسوأ ما فيه ،، ولكنه هو الذى دفع كل أمواله فى بناء السفينة الشراعية (جنة عدن) التى يعيش عليها هؤلاء البحارة العشرون .. وهذه هى رحلتهم العذراء .. أولى رحلاتهم .

ورغم أن بعض البحارة قد بكى على القبطان ، فإنهم يتهامسون بأن السفينة التى لا يسيل عليها دم لا تطفو على الماء .. فالدماء هى التى تجعلها تقاوم الموج والريح بقوة شيطانية .. وبقيت عندهم مشكلة من الذى سيكون قبطانا .. لم يستغرقوا وقتا طويلا فى التفكير فقد استدعوا العم شاروف صاحب السفينة ليكون فى نفس الوقت قبطانها وجاء العم شاروف .. وشرب وراح يغنى .. واحتمله البحارة .. فهو رئيسهم وصاحب المال وهو أيضا فى غاية القسوة ..

ولم يضيع العم شاروف وقته .. وقرأ المظروف .. ورأى الخريطة .. وطلب إلى البحارة أن يفعلوا كل ما يريدون ليلة أخرى .. أن يشربوا ويرقصوا ويودعوا أحبابهم .. وفعلوا ذلك ونام هو على الشاطئ .. وطلعت

الشمس ولم يجدوا قتيلا .. لقد احتاط العم شاروف وكانت الرياح معتدلة والمحيط هادئا .. العم شاروف كبحار قديم يعرف جيدا معنى رفع الكلفة بينه وبين البحارة ويعرف أن الخمر تذيب الفوارق بين القبطان والبحارة وشرب مع البحارة .. وحاول واحد منهم أن يداعبه ،، فقام إليه وضربه وأسال دمه ووضعه فى السجن .. وحاول بحار آخر أن يدافع عن زميله فضربه العم شاروف وأسال دمه .. وأمر بإيداعه السجن أيضا .

ومضت السفينة (جنة عدن) متجهة إلى الشرق تحاذى شواطئ قارة استراليا وبعد ذلك سوف تتجه إلى الشمال ثم إلى الشرق وسوف تستغرق الرحلة أربعين يوما . إذا كانت الأحوال الجوية مناسبة .

واختار العم شاروف أصغر البحارة سنا . وجعله مساعده . ثم اختار أكبرهم سنا وجعله المساعد الآخر وكان العم شاروف ينام نهارا ويصحو ليلا . ولا يشرب أمام البحارة ولا يشرب معهم .

أما كيف عرف القبطان نوح قصة الكنز هذه فيرجع ذلك إلى قصة قديمة عرفها البحارة قبل ذلك بسبعين عاما إنها قصة جماعة من اللصوص اختلفوا فيما بينهم .. وراحوا يتقاتلون .. ولم يبق منهم إلا رجلان تعبا من البحر فقررا أن ينزلا إلى إحدى الجزر . . وأن يقسما المال وأن ينتظرا إحدى السفن الكبرى لإنقاذهما .. ويقال إن الرجلين أقاما فى هذه الجزيرة عشرين عاما .. ولم تمر سفينة واحدة .. وأخيرا قتل أحدهما الآخر ثم وضع القاتل خريطة للجزيرة ولمكان الكنز فى برميل خشبى وألقى به فى المحيط .. وظل هذا البرميل عائما فى المحيط حوالى الخمسين عاما .. وأخيرا اهتدى إليه أحد أفراد أسرة القبطان نوح ووعده بالمساعدة المادية وساعده .. وحاول نوح أن يأتى إلى هذه الجزيرة وحده ولكن زورقه غرق .. وكاد نوح أن يموت .. وأنقذوه بعد أسبوعين كانا من أقسى أيام حياته .. وساعده فى بناء

هذه السفينة .. ويقال إن العم شاروف هو الذى قتله .. لا أحد يعرف بالضبط ولكن لماذا قتله ؟

يقال إنه كان يعلم أنه لن يستطيع أن يتخلص منه فيما بعد .. ويقال إن شاروف هذا لم يكن فى استطاعته أن يجمع هذا العدد من البحارة الأكفاء .. ويقال إن شاروف هو الذى خيره بين أن يقتل نفسه أو يقتله شاروف .. فاختار القبطان نوح أن يموت بيده .. لقد كان مخمورا لا أحد يعرف بالضبط .

وفى اليوم السابع لرحلة السفينة (جنة عدن) أفرج العم شاروف عن المسجونين .. ثم جمع البحارة جميعا وقال لهم : إننا ذاهبون إلى كنز هذا واضح .. وقبل أن نذهب إلى هناك سوف يكون لكل واحد نصيب مماثل للآخر .. أما أنا شخصيا فزاهد فى المال .. فأنا كما ترون .. لا أصلح لأى شئ ولا أريد المال وكنت أفضل أن أموت على الشاطئ لا أن أكافح الموت هنا .. فقد تعبت من البحر وأتعبت البحر .

وسأله أحد البحارة : ولكن ياقبطان هل تعرف بالضبط كم يزن هذا الكنز ؟ .

وقال القبطان : لا أعرف .. ولا داعى لأن نتعجل فالرحلة طويلة .. والخريطة التى معنا ليست واضحة . ولم يسترح البحارة إلى ما قاله القبطان شاروف .. فليس صادقا ولا ساذجا كما يحاول أن يقنعهم بذلك واكتشف أحد البحارة أن العم شاروف هذا لا يذوق الخمر مطلقا وأنه يتظاهر بأنه مخمور .. فقد راقبه جيدا .. ولاحظ أنه يبلل شفتيه بالخمر . ثم يلقى بالكأس فى أرضية السفينة .. ولاحظ أيضا .. أنه لا ينام على سريره وإنما ينام وراء باب الغرفة الصغيرة التى اختارها .. فإذا قرب أحد من الباب أحس به وتساند بسرعة على سيفه .

وبعد عشرين يوما من الرحلة أصبح واضحا أن العم شاروف كان شرسا ولم يعد يطيق صبرا على المناقشة ولكنه فى نفس الوقت لم يعد يتدخل فى فض المنازعات بين البحارة .. بل إنه كان يغرى البحارة بأن يتشاجروا وأن يتقاتلوا .. وكان فى استطاعته إنقاذ واحد منهم من الموت .. ولكن لم يشأ أن يتدخل . فأطلق واحد من البحارة خنجره إلى رأس زميل له فمات فورا .. ولم يعاقبه العم شاروف على ذلك .. ولكنه قال له .. كنت أفضل أن تستخدم براعتك هذه فى صيد الحيتان لا فى صيد زملائك .

وضحك العم شاروف وهو يلقى بجثة القتيل إلى أسماك القرش .

وليس من الصعب على أحد من البحارة أن يدرك أن العم شاروف قد أصبح الآن إنسانا آخر تماما .. فهو لا يغنى كما كانوا يتوقعون .. ولم يعد يجلس بعيدا عنهم .. يجلس معهم وإليهم .. ويطلب إليهم أن يعدوا زجاجات الخمر لأنه قد شرب حتى كاد ينتحر .. هكذا يقول .. وهم يعلمون أنه كاذب .. ثم إنه تحول إلى شخص ظريف . . يروى حكايات كثيرة غريبة عن مغامراته فى البحار ومع النساء ويقول : البحار كالنساء ، لا قرار لها ولا أمان لها .. وهى مقبرة الرجال .

وفى اليوم السابع والثلاثين كانت السماء تمطر . . والرياح شديدة تدفع بالشراع يمينا وشمالا ، جمعهم العم شاروف وقال لهم : إننا على مدى يومين فقط من الجزيرة ..

ثم وصف لهم مكان الكنز وسألوه إن كان قد جاء إلى هذه الجزيرة من قبل .. فأجاب بأنه جاء أكثر من مرة ولكنه كما يرون .. لا يستطيع أن يتسلق الأشجار .. فسألوه إن كان من الضرورى أن يتسلق الأشجار أجاب طبعا ضرورى فهناك أخدود شق فى الأرض بسبب الزلازل وهذا الشق قد قسم أحد الكهوف إلى نصفين .. وقال : سوف ترون ذلك بأنفسكم .

ولاحظ البحارة أن العم شاروف قد ظهرت عليه القسوة .. ولاحظوا أيضا أنه كان قد اتفق مع أربعة من البحارة أن يكونوا حرسه الخاص .. كل ذلك تم دون أن يلاحظ أحد . ولاحظوا أيضا أنه جمع السلاح من أيديهم جميعا .. كل الأدوات الحادة كالسكاكين والخناجر والسيوف وحتى الأعواد الحديدية .. كل ذلك جمعه العم شاروف وأخفاه فى مكان ما من السفينة .. ويقال إنه استعان برجاله الأربعة وألقوا بها جميعا فى المحيط .

وفى اليوم التاسع والثلاثين رأوا على مدى البصر بقعة حمراء من الأرض إنها الجزيرة الصغيرة .. وكانت الريح عنيفة .. وأمر العم شاروف بلم أشرعة السفينة .. ولكن الموج كان يدفع السفينة .. فى اتجاه الجزيرة بسرعة غريبة .. وأمر بأن تستدير السفينة قليلا حتى لا تصطدم بالأحجار المرجانية .. وبعد ساعات وصلت السفينة (جنة عدن) إلى أقرب شواطئ الجزيرة ..

وكانت المفاجأة للعم شاروف أن وجد خمسة من البحارة قد التقطوا زورقا صغيرا . . ثم نزلوا فيه . . وجاء ثلاثة آخرون وألقوا بأنفسهم فى الماء . . إذن لقد اتفق هؤلاء الثمانية على الخيانة . . وصرخ واحد من الذين استقروا فى الزورق بأن الخريطة معه . . وأن رجلا مثله لا يستحق إلا الإعدام وسوف يعدمونه .

ولم يهتز العم شاروف . . فقد استعد لهذا الموقف أيضا . . فالخريطة التى حملوها معهم خريطة مزورة أما الخريطة الحقيقية فهى التى أخفاها تحت ملابسه ملاصقة لجلده . . وأما البراميل التى ألقوا بها فى الماء فلم تكن مملوءة بالنبيذ كما كانوا يتصورون لقد استعد أيضا لذلك فملأها من ماء البحر . وتلفت البحارة الذين وقفوا إلى جوار العم شاروف يسألونه أرأيت ماذا فعلوا . .

فقال : رأيت ولكن أرأيتم ماذا فعلت أنا . . فليس عندهم طعام ولا عود

كبريت ولا كوب نبيذ ولا قطعة لحم . . ولا غطاء ولا سلاح . . وأهم من ذلك ليست معهم خريطة .

وفجأة أصدر العم شاروف أمرا غريبا . . طلب إلى بحارته أن ينشروا أشرعة السفينة وأن يبتعدوا عن الجزيرة ولما سألوا عن السبب قال :

سوف نتركهم حتى يموتوا . .

ولم يفهم الرجال شيئا . .

ولكن إصراره وعناده وصراخه أخافهم..ولكى يطمئنهم أخرج من تحت ملابسه الخريطة القديمة للكنز ثم طلب إلى واحد من رجاله الأربعة أن يفتح البرميل الذى نسى البحارة أن يلقوا به فى البحر . . وفتح البرميل فلم يجد به إلا ماء البحر . .

وشرب الجميع فى صحة العم شاروف وذكائه وحرصه الشديد . . وظلت السفينة تدور حول الجزيرة أسبوعين كاملين دون أن تقترب منها .

وفى اليوم الخامس عشر قرر العم شاروف أن تتجه السفينة إلى الشاطئ وكان الإعياء واضحا على وجهه . وطلب إلى واحد من رجاله أن يأخذ معه ثلاثة آخرين وأن يهبطوا إلى الجزيرة . . وفجأة لاحظ العم شاروف شيئا غريبا . . وضحك بأعلى صوته . . لقد لاحظ أن الخريطة التى أخرجها من ملابسه قد اختفت . . إذن لقد سرقها واحد من هؤلاء الأربعة الذين اعتمد عليهم . . وكان العم شاروف قد استعد لهذه المفاجأة . . فليست هذه الخريطة إلا ورقة مزورة . .

ولم يكد هؤلاء الأربعة يهبطون إلى الشاطئ حتى هجم منهم ثلاثة على واحد فقتلوه . . ثم استدار اثنان وقتلا الثالث . . وبسرعة طار خنجر من فوق السفينة واستقر فى بطن الرابع . . إن العم شاروف من أمهر الذين يستخدمون الخناجر عن بعد . .

وعندما نزل العم شاروف ومن تبقى من الرجال إلى الشاطئ ، قرروا أن يبيتوا هذه الليلة على الشاطئ فإذا طلع النهار عادوا للبحث عن الكنز وعن هؤلاء الرجال . .

وفى الصباح لم يجدوا الرجال وإنما رأوا من بعيد جثثهم فى أحد الكهوف. أو لعلهم ماتوا من العطش . . أو من الجوع . . أو تشاجروا . . لا أحد يعرف بالضبط . . ولم يهتم أحد بأن يعرف . . فأهم شئ الآن هو الكنز . .

وأصبح من الواضح الآن أن العم شاروف له أربعة من الرجال يحرسونه ليلا ونهارا . . أما عدد البحارة جميعا فأحد عشر رجلا . . منهم أربعة مخلصون للعم شاروف . . والسبعة الباقون لا يأمن جانبهم . . أولا لابد من التخلص منهم . . ولكن من الصعب أن يفعل ذلك .. وإلا فكيف يعود بالسفينة إلى استراليا . . إنه فى حاجة إلى هؤلاء الرجال . . ولكن كيف يعود بهم ومعه الكنز . . إنها إذن رحلة انتحارية . . وإما أن يقتلهم . . وإما أن يقتلوه . . وإذا قتل السبعة فكيف يضمن هؤلاء الأربعة . . وإذا ضمنهم فكم يوما . . ثم ما الذى يفعله إذا لم تأت سفينة لإنقاذهم جميعا . . إنه يعرف قصة الذين جاءوا وأخفوا الكنز وانتظروا طويلا ولم يأتهم إلا الموت . .

أما الذى حدث بعد ذلك فشئ عجيب . . ففى يوم ٩ سبتمبر وعلى غير ما يتوقع واحد من البحارة أن سر الكنز قد أصبح معروفا وأنهم لا يستبعدون أن تكون هذه السفينة جاءت تسرق منهم حقهم المشروع . . وبسرعة انطلق البحارة فى اتجاه واحد ..وهم يتضاربون.. ويتقاتلون .. ثم يقتل بعضهم البعض.. وحاول العم شاروف أن يوقفهم ويقول كلها خرائط مزورة . . كلها مزورة اسمعونى . . واختفى الرجال وهم يتسلقون الجبال . . ويهبطون إلى الوديان . . ثم يتجهون إلى شق فى الأرض . . ثم يختفون تماما . .

ويصرخ العم شاروف وهو يقول : كلها مزورة . . اسمعوني . . ولكن . . ولكن أحدا لم يسمعه . .

فقد بلغ من خبث العم شاروف أن أقنع كل واحد منهم بأنه الرجل الذى اختاره . . ثم أعطاه خريطة وطلب إليه أن يخفيها عن كل زملائه وكانت كل هذه الخرائط مزورة . .

وظل العم شاروف وحده يومين وفى اليوم الثالث قرر أن يشرب ويشرب ثم ينام على صخرة عالية . . حتى إذا ترنح سقط ميتا . .

وفى هذا اليوم دنت السفينة الكبيرة من الجزيرة . . وبسرعة هبط عدد من البحارة . . واقتربوا من العم شاروف وتصايحوا وهم يقولون إنه فعلا العم شاروف . . إنه ذلك الثعلب . . الشرير .

ولما سألوه عن رجاله هز رأسه أنه لا يعرف .. ولما سألوه عن الخريطة هز رأسه قائلا . . لا أعرف . . وفتش البحارة ملابسه . . وجردوه منها . . ثم ألقوا به فى الماء . .

وفجأة وبسرعة ألقى واحد من البحارة بنفسه وراءه ثم سحبه إلى الشاطئ . . لقد لاحظ على ذراعيه شيئا غريبا . . لقد رسم الخريطة بالوشم على ذراعه . . إنها الخريطة الصحيحة . .

ثم روى لهم كل ما حدث قبل ذلك . .

صبغ الشباب
تجمعه
الأيدي الناعمة!

كلما رآه الناس سألوه : وكيف حال أولادك !

وكان يرد عليهم بقوله : عندما تكره السماء إنسانا تجعله مدرسا !

والناس يتحدثون عن الأطفال الذين يعلمهم . وليسوا أولاده . ولكنه فتح قلبه وبيته لأبناء الفقراء. فقد حرمته الدنيا من نعمة الولد . فكانت له زوجة أحبها . وماتت وهى تلد . ومنذ ذلك الوقت وهو يعطف على الأطفال . ان أهل جزر هاواى ينادونه بالملاك الحارس للأطفال . أو يقولون عنه : أنه بابا نويل .

وفى أحد الأيام اكتشف أن الأطفال الخمسة قد كبروا . فهم يردون على أسئلته . وإذا سخر منهم ، سخروا منه ، انهم تحولوا من ملائكة إلى شياطين . انهم فى تلك المرحلة التى يلعن فيها الآباء أبناءهم ، ويشعرون أن الأبوة لعنة . وأن النعمة هى ألا يتزوج الإنسان . وإذا تزوج ألا يكون أبا . وقال لهم فى إحدى المرات : اسمعوا أيها الأطفال أن أحسن رأى هو ألا يكون للإنسان رأى !

وكأنه ألقى حجرا فى بئر عميقة . وبعد لحظات سمع رد الفعل من الأطفال. قال واحد : هل معنى ذلك أن أحسن سكن هو ألا يكون للإنسان سكن ؟ وقال ثان : هل معنى ذلك أن أحسن شئ هو ألا يملك الإنسان شيئا ؟ وقال ثالث : هل معنى ذلك أن أحسن حياة هى ألا تكون للإنسان حياة ؟

وأدرك المدرس الأمريكى أيوب روزنتال أن هؤلاء الأطفال ليسوا إلا نوعا من النحل أتيحت له فرصة أن يلسع . ولكن كيف تحولوا إلى

ذلك ؟ انه هو الذى شجعهم عليه وعلى كل الناس . بل أنه هو الذى عودهم إذا غاب واحد ألا يسألوا عنه . وإذا طلع النهار ووجدوا أنفسهم قد نقصوا واحدا ألا يسألوا عن ذلك .. نعم هذه اللامبالاة هى التى غرسها فيهم . انه قد اختارهم من الأسر التعيسة . أطعمهم وألبسهم . ثم أعطاهم أسماءهم وأنساهم آباءهم وأمهاتهم . انهم جميعا أولاده .

وكان أهل الجزيرة يقولون : هذا الرجل ممتاز ولكنه غريب الأطوار . ليس فى المدينة أرق منه .. ولا أكرم منه .. ولكنه لم يفلح فى أن يعلم أطفاله الأدب .. مسكين لقد صدم فى زوجته وفى مولودها المنتظر .

وكان يباهى الناس بأن أولاده يعرفون السباحة .. وأنهم حيتان .. وأنهم يقفزون من أعالى الشجر .. وأنهم يغطسون تحت الماء .. وأنهم سيكونون أعظم بحارة فى المستقبل القريب . وكان الأطفال يعيشون من أجل هذا اليوم .. أما الأطفال الخمسة فأعمارهم تتراوح بين الثانية عشرة والرابعة عشرة !

وجاء يوم ٢٩ يونيو سنة ١٩٠٥ ظهرت السفينة الصغيرة التى اشتراها ونزل أطفاله إلى المحيط وسبحوا حتى السفينة وصعدوا واحدا واحدا . وأيوب يرقبهم من بعيد . ويباركهم ويدعو لهم بالنجاة من الموت . والناس على الشاطئ يبكون على العشرة الحلوة والسنوات الخمس التى مرت خاطفة على هذا الرجل الطيب ..

وودعهم جميعا واتجهوا إلى إحدى جزر هاواى . اشترى فيها أرضا وقرر أن يقيم هناك بعض الوقت . لماذا ؟ لم يشأ أن يذكر أسبابا مقنعة لأحد . ولم يكن فى حاجة إلى أن يشرح لأحد وإذا شرح فلن يقتنع أحد . انه رجل أمريكى غنى طيب القلب وهؤلاء أطفاله ينفق عليهم ويعدهم لمستقبل أفضل .

وفى الليلة الأولى لهذه الرحلة الغامضة جلس الأب أيوب يروى لهم

أساطير جزر هاواى . قال : كان هناك إله أسمه ماوائى . وكان له خمسة أخوة مثلكم . ولكنهم كانوا يحقدون عليه . انهم مختلفون عنكم . فأنتم لا تحبون أحد ولا تحقدون على أحد . وفى يوم من الأيام ، حمل الأخوة سنانيرهم ليصطادوا سمكا . ونسى الإله ماوائى أن يأتى بطعم لسنارته . وضحك اخوته . وكلما ألقوا بالسنانير خرجت معها الأسماك الضخمة . أما الإلة ماوائى فلم يفلح فى صيد سمكة واحدة . وأخيرا قطع أذنه وجعلها « طعما » لسنارته . وألقى بالسنارة فى الماء .. ثم سحب السنارة وخرج شئ ضخم .. هذا الشئ الضخم هو هذه الجزيرة .

هذه الجزيرة اسمها : كاهولا أو الجزيرة الملعونة .. وهى ملعونة لأنها تقتل الرجال . ولا ترحب إلا بالأطفال . ولذلك سوف يعيش فيها الأطفال حتى إذا صاروا رجالا تركوها إلى جزيرة أخرى .

وبسرعة شيطانية متوقعة قال أحد الأطفال : إذن أنت لن تعيش معنا .

وقال طفل ثان : هذا أفضل .

وقال ثالث : إلا إذا تحولت إلى طفل .. انها فرصة لكى نضربك على قفاك !

وقال رابع : إننا أغلبية وتستطيع أن تفعل ذلك ..

وقال خامس : فما الذى ننتظره الآن ؟

وأدرك أيوب أنه بالفعل أقلية . وأنهم يستطيعون أن يتكاثروا عليه . ولكنه بسرعة ، أمسك عصاه الطويلة وانهال ضربا على الأطفال . وقال : ان من يلقى بنفسه فى الماء سوف أطلق عليه الرصاص فورا !

وكانت مفاجأة للأطفال . ولكنه جاد هذه المرة .

بل انه أكثر من ذلك . فلا هو صاحب قلب رحيم . ولم يتزوج قط . ولاهو محب للأطفال . انه فقط ظل خمس سنوات يرعى سمعته عند الناس

حتى إذا أخذ الأطفال بعيدا عن الجزيرة لم يشك فيه أحد . فما الذى يريده هذا الرجل ؟

الذى يريده هو شئ واحد وهو : لن يضيع وقته فى مداعبة الأطفال ولا إطعامهم . انه سيشرح لهم بالضبط ماذا يريد .

وعندما اقتربت السفينة الصغيرة من الجزيرة الملعونة ، وقف الأب أيوب يقول : ان الغرض من هذه الرحلة هو أن هنا نوعا من الأشجار . . هذه الأشجار لها صمغ . هذا الصمغ يعيد للإنسان شبابه . وهناك تسعة أنواع من الصمغ . والذى أريده الآن هو الأصفر اللون . بشرط ألاتكون فيه بقع سوداء . . وهذا الصمغ موجود على شجرة متوسطة الطول . ويجب أن تقطفه وهو على الشجرة . يجب ألا نقطع الأغصان . وإذا قطفناه وضعناه فى أكياس سوداء عند غروب الشمس وبعد ذلك يجب أن نضعه فى عسل النحل بعد ذلك بساعة واحدة وإلا فسد !

هذا هو الغرض من هذه الرحلة . ولما لاحظ أيوب أن كلماته لم تلق آذانا صاغية أمسك عصاه ومسدسه وانهال ضربا على الأطفال .. وهددهم بالقتل غرقا وشنقا وحرقا . وأنه إذا عاد إلى الجزيرة فسوف يقتل آباءهم وأخوتهم أيضا .

وفى اليوم التالى طلعت الشمس على الأطفال الخمسة وقد ناموا بعضهم إلى جوار بعض والحبال فى سيقانهم والسلاسل فى أيديهم .

ودعاهم إلى تناول الإفطار .. وعاد وشرح خطة العمل .. وأعلن : لا أستطيع أن أهبط معكم إلى أرض هذه الجزيرة فأنتم تعرفون السبب .. ولن تذهبوا جميعا .. أذهبوا إثنين إثنين ..

ثم وصف لهم الطريق ..

عليهم أن يمشوا بجوار الشاطئ .. ثم يتسلقوا صخرة معروفة باسم « إبرة

الموت » .. الصخرة هى الطريق الوحيد إلى داخل قناة جافة . هذه القناة تصعد إلى أعلى الجبل .. وقرب قمة الجبال يوجد طريق إلى اليمين . وفى نهاية الطريق يوجد جسر خشبى . هذا الجسر عليه بعض الجماجم . لا داعى للخوف . ولن يخافوا فقد رأوا هذه الجماجم كثيرا نهارا وليلا . ولذلك فهم على يقين من أنهم لن يخافوا . وسوف يسمعون أصواتا تشبه مواء القطط . ولن يجدوا قططا . ولن يخيفهم ذلك . فقد أسمعهم ذلك عدة مرات .

وسوف تتساقط عليهم أوراق الشجر بغزارة . وهذا لايعنى أى شئ . . فقد عودهم على ذلك أيضا .. وبعد أن يمروا بهذا الجسر سوف تلين الأرض تحت أقدامهم ، وسوف يغوصون فى الرمل أو الطين حتى الركب . ولكن بعد ذلك سيجدون طريقا مرصوفا من الحجارة البيضاء وعلى جانبى الطريق جماجم أيضا .. ولن يخافوا . هو يعلم ذلك . فقد مروا فى طرق مماثلة ولعبوا الاستغماية . وألقوا بالأرز واللحم والفاكهة على الجماجم . دون أن يعرفوا الخوف أو الغرق ، فقد اعتادوا على ذلك من قبل .

يقول أيوب روزنتال فى مذكراته التى نشرت فى نيويورك سنة ١٩١١ بعنوان « الرحلة الملعونة إلى الجزيرة الملعونة » .

« وقد حسبت كل شئ قبل ذلك بسنوات وناقشت كل الاحتمالات ولم أفرط فى طفل من هؤلاء الأطفال . ولكن فى كل مرة كان يحدث شئ لم يخطر لى على بال .. » .

ونزل أول ولدين منهم . وبسرعة اختفيا بين الصخور ثم فى القناة ثم مرا بالجسر الخشبى . ثم اتجها إلى قمة الجبل . تماما كما علمهما . وكل شئ فى مكانه كأنه هو الذى رسمه أو رتبه . وطلع النهار . ولم يعد هذان الطفلان ..

وطلع النهار والأطفال الثلاثة مربوطون بالسلاسل والحبال . وأعاد

إطلاق سراحهم . وتناولوا طعامهم . وكما هى العادة لم يسأل الأطفال عن أخوتهم الذين ذهبوا ولم يعودوا . ولكن القلق كان واضحا على الأب أيوب . وكان حريصا أن يخفى قلقه فى التدخين وفى شرب الخمر . وفى إطلاق النار على الأسماك .. وتخويف من تبقى من الأطفال .

ومضى يوم آخر ..

وطلب إلى واحد من الأطفال أن يذهب بحثا عن الآخرين . ونزل واختفى . وطلع نهار ثان ولم يعد الثلاثة . وفك السلاسل والحبال من سيقان وأذرع الطفلين الباقيين .

وفى شمس اليوم الثالث فك سراح الطفلين الباقيين . ولكن الإرهاق كان واضحا عليه مهما حاول أن يخفى ذلك .

ولما رآه واحد من الأطفال شديد القلق قال له : يا أبى أيوب .. انهم اتفقوا على ذلك !

وسأل : على أى شئ ؟

قال الطفل : أن يظلوا هناك وألا يعودوا إليك .

— ولكن لماذا ؟!

— لأنك ظهرت على حقيقتك

— ومنذ متى عرفوا حقيقتى ؟

— منذ شهور .

— تقول منذ شهور ؟ ولكن كيف ؟

— لقد سمعوك تتحدث إلى رجل أمريكى آخر وتقول : انك سوف تعود أمريكا كأغنى رجل فى العالم .. وأن هذه المدرسة سوف تقفلها بابا وشباكا إلى الأبد !

ـ هذا صحيح . ولكن أحدا لم يعترف لى بأنه سمع ذلك !

ـ لأنك لم تطلب إلى أحد أن يتحدث إليك .

ـ وأنت قد سمعتنى ؟

ـ أنا الذى سمعتك .. ونقلت ما سمعت إليهم .

ـ إذن أنت السبب ؟

ـ نعم .

ـ ولست خائفا ؟

ـ أنت تعرف أننى لا أخاف ..

وتلفت الأب أيوب حوله فوجد واحدا من الطفلين قد اختفى . فقال أين الطفل الآخر ؟

ـ ذهب إليهم .

ـ وأنت تعرف ذلك ؟

ـ نعم .

ـ ولكن لماذا ؟

ـ لأننى سوف أتركك أيضا !

وانهار الأب أيوب . وسقط فى الزورق . فلم يكن هذا فى حسابه . ثم أنه أنفق ألوف الجنيهات على مشروع إعادة الشباب . وأنفق ألوف الجنيهات على معرفة أحدث الطرق لإذابة صمغ الشباب فى النبيذ . وبذلك يتحول الشمع إلى أكسير للحياة يضعه الناس على شكل قطرات فى طعامهم فيعيد إليهم الشباب . وبعملية حسابية أدرك أنه سوف يكسب مائة ألف جنيه إذا أتى له الأطفال بنصف رطل من الشمع مرة كل عام !

وتقدم الطفل وألقى بمسدس الأب أيوب فى ماء المحيط . ثم راح يعاونه

على التنفس .. وأقعده ووعده بأن يذهب هو إلى إقناع بقية الأطفال بالعودة بشرط أن يترك لهم السفينة الصغيرة وأن يتعهد لأبائهم بأن هذه السفينة ملك لهم .. وإلا اضطروا أن يفضحوه فى الجزيرة .. فهم قد سكنوا خمس سنوات على أشياء كثيرة .

ووعد الأب أيوب ..

ونزل الطفل الخامس . واختفى هو أيضا .

وعاد الأب أيوب يقلب فى كتاب عن أساطير جزر هاواى . ويقرأ الصفحة الواحدة مرة وراء مرة . ويقول : كل شئ مضبوط كما وصفته لهم .. كل شئ فى موضعه .. ولكن فاتنى الكثير .. نسيت أن هؤلاء الشياطين عيونهم أقوى وآذانهم أيضا !

ومضى يومان وثلاثة وأربعة . ولكن أحدا لم يعد . وأفلح الأب أيوب أن يبعد زورقه البخارى عن الجزيرة . وأن يدور حولها .. ولكنه خشى ان قام بدورة كاملة أن ينفذ الوقود . ولذلك ترك الزورق لموج المحيط يدفعه قريباً من الشاطئ ..

ومضى يوم آخر .. ثم عاد إلى نفس المكان .. ويقول الأب أيوب فى مذكراته : أن كل شئ عندى ، ولكنى أريد أن أعرف بالضبط ماذا حدث للأطفال . لو عاد منهم واحد وهلك الباقون . فقط أريد أن أعرف . إننى عرفت منذ النهاية أن مثات قد ماتوا فى هذا الطريق . وان كنت لا أعرف من الذى قتلهم .. أو ماهى الحشرات أو الزواحف أو النباتات المسمومة التى قضت عليهم . لا أعرف .

وكأنه فى حلم .. ظهر أمامه الطفل الأخير الذى ذهب يأتى بهم جميعا . وكان شاحب الوجه . واقترب منه الأب أيوب . وناوله كوبا من الماء . ولاحظ أنه حمل معه ملابس الأطفال الأربعة . ولما سأله طلب إليه الطفل أن يستريح أولا وبعد ذلك يروى قصته ..

وطلع النهار على الأب أيوب الذى لم ينم . وعلى الطفل النائم الملفوف بكل ملابس الأطفال الأربعة وأيقظه الأب أيوب . وأشار الطفل بأنه لن يتحدث إلا فى طريق العودة ..

ان الذى وصفه الأب أيوب صحيح مائة فى المائة : الطريق والقنوات والجسر ولون الأشجار ولون الصمغ . كل ذلك عرفه ووصفه بمنتهى الدقة .

ولكن الأب أيوب لم يعرف شيئا آخر : ان هذه الأشجار لها شوك . هذا الشوك يشبه ناب الثعبان أو ناب العقرب إذا دخل جسم الإنسان كان ساما .

وبعد ذلك جاء الطفل الخامس وروى له كيف أن الأطفال الأربعة تسلقوا أربع أشجار متجاورة .. ثم سقطوا بعد أن أطلق كل واحد منهم صرخة. لقد ارتطمت أيديهم بشوك الشجر. ونزلوا إلى الأرض جثثاهامدة!

ووقف الطفل حزينا . ولكن الأب أيوب كان أكثر حزنا . وفجأة أخرج الطفل شيئا أصفر من ملابسه على شكل كرة صفراء ألقاها فى المحيط وصرخ الأب أيوب وسأله : ما هذا ؟

فأجاب الطفل : انه صمغ الشباب ؟

وانهار الأب أيوب يبكى على مائة ألف جنيه أنفقها من أجل هذه الكرة الصغيرة !

وبعد أيام دخل الأب أيوب أحد المستشفيات . وأقام عدة أسابيع وعند خروجه من المستشفى وجد الطفل الخامس . وتقدم نحوه . واقترب منه وهمس فى أذنه .. ثم أشار إلى والديه ..

وعرف الأب أيوب أنه لابد أن يدفع بضعة ألوف من الجنيهات .. وإلا فضحه هذا الطفل الخامس .. ودفع وسكت الجميع ..

ولكن الأب أيوب هو الذى روى قصته وأوصى أن تنشر بعد وفاته !

مائة يوم يشربون الماء
من رءوس السمك!

فى قوة الخيول نجمع المال ، وفى غباء الحمير ننفقه ، هذه العبارة لم يقلها أحد لأحد . وإنما قالها قبطان استرالى لنفسه . ولذلك قرر أن يشترى سفينة قديمة ، وأن يجعل لها أسما جديدا ، وأن يسافر بها بعد أن يضيف إليها موتورا جديدا أصبح اسم هذه السفينة الشراعية ذات الموتور « ليلى » هذه السفينة قد بنيت سنة ١٩٠٢ وجددت بعد ذلك عدة مرات .

وأخيرا فى يوليو سنة ١٩٦٢ كان لابد أن يقوم برحلة على ظهرها ، وكانت الرحلة الأخيرة ، أما صاحبها الجديد فاسمه داود . واثنان من أبنائه ركبا معه وكل واحد اسمه : داود . وخمسة من البحارة ركبوا وكل واحد اسمه داود . وهؤلاء جميعا لهم رياضة مفضلة هى الملاكمة ، ولذلك عندما يختلفون لأى سبب ، وكثيرا ما فعلوا ، تتحول السفينة الصغيرة إلى حلبة .. ويتساقط عليها الرجال كأنهم أمواج البحر أو صخوره . ولذلك يتدخل القبطان داود بإطلاق الرصاص فى الهواء .معلنا نهاية الجولة الأولى والأخيرة . ولكنهم جميعا قد اتفقوا فيما بينهم على شئ واحد هو ، أن البحر كالمرأة لا أمان له ولا أمان معه . وكل الناس بارعون ماداموا على الشاطئ وكل إنسان يستطيع أن يكون قبطانا ما دام البحر هادئا .. وكذلك كل رجل أعزب يتصور أنه سوف يكون أبرع وأروع زوج ، حتى يتزوج ! ..

جمعهم القبطان داود يوم ٢ يوليو صباحا . وقال لهم : أمامنا مسافة قدرها ٢٢٠ كيلو مترا ، كمرحلة أولى وبعد ذلك أمامنا المحيط نفسه .. أكبر صحراء وحشية . مليئة بالأصوات المرعبة الوحوش الكاسرة . ما رأيكم ؟ ..

قالوا : أنت تأمر ياقبطان ..

وأمر القبطان . وتحركت السفينة ليلى يوم ٤ يوليو . ومنذ اللحظات الأولى كانت الرياح عكسية وكان على البحارة أن يتبادلوا الوقوف وراء الشراع وعند الدفة . وأن يربطوا أنفسهم بالحبال وكل ذلك معروف وبديهى عندهم . وكان فى حسابهم أنهم سوف يصلون إلى جزيرة أسمها « عطا » عند الفجر . ولكن الريح جعلتهم يبلغونها بعد الظهر كانت هذه الجزيرة إحدى جنات المحيط الهادى حتى سنة ١٨٨٠ . ومن معالم هذه الجنة كثرة الثمار وكثرة الفتيات الجميلات . وكثرة المياه التى يجمعونها بطريقة فريدة — مياه المطر طبعا — وكان كل بحار يمنى نفسه بليلة واحدة فى عطا وبعدها يموت . لماذا ؟ لقد كانت تقاليد جزيرة عطا انه إذا نزل الإنسان الغريب عنها . قابلته الفتيات عادة إحدى عشرة فتاة . ويأخذنه إلى بيت الضيافة . ولا يسألنه من هو ولا من أين أتى . وإنما إكرام الضيف واجب . وكل ما يلقى به المحيط هو خير ، فالمحيط يبعث بالسحب وهى ماء . ويبعث بالأسماك وهى لحم . ويبعث بالشمس وهى ضياء . كل شئ يخرج من المحيط هو نعمة لا يردونها . ولذلك فالضيف نعمة من نعم المحيط . فإذا دخل الغريب بيت الضيافة فله أن يختار من بين الفتيات أربعا خادمات له . أو زوجات . وكل ذلك بلا مقابل . ويبقى الضيف يومين أو ثلاثة أو عشرة يأكل ويشرب وفى اليوم الحادى عشر تنتهى فترة الضيافة وتذهب الفتيات لاستقبال ضيوف آخرين لأحد عشر يوما ، وأكثر الضيوف كانوا يجيئون محملين بالهدايا ، وفى هذه الجزيرة نساء من كل لون: سمراوات وصفراوات وشقراوات .. ومن عجائب جنة عطا هذه أن الأغلبية الساحقة من سكان الجزيرة من النساء لماذا ؟ يقال أن هناك نباتا لا يعرفه أحد تأكله المرأة أثناء الضيافة فيكون المولود أنثى . حتى إذا كان توأمين فهما فتاتان ولذلك فعدد الرجال قليل جدا .

وفى نهاية القرن التاسع جاء تجار الرقيق وحملوا الفتيات بالقوة إلى استراليا ونيوزيلندا وأمريكا .. وأصبحت الجزيرة خرابا يبابا . لا أحد فيها . ولا حياة أيضا . وإنما أشجار وطيور ولا قطرة ماء ! .

وعندما هبت الريح على السفينة «ليلى» وبعنف على غير ما توقع القبطان داود قرر أن يحتمى فى هذه الجنة المهجورة . وأرسل ثلاثة من رجاله فى زورق صغير يستكشف الجزيرة . ولم يكد الزورق يقترب من الشعاب المرجانية التى هى عبارة عن سيوف مدببة حتى تحطم . وانشطر إلى نصفين . وتعلق الرجال بالألواح الخشبية ..

ولكن السفينة ليلى اقتربت أكثر لإنقاذ هؤلاء الرجال . وحرص القبطان على أن يقتصد فى استخدام الموتور الديزل . فعن طريق الموتور يمكنه التحكم فى السفينة أكثر من استخدام الشراع .. واقتربت السفينة . وفجأة جاءت موجة عاتية عالية وسددت السفينة إلى إحدى الشعب المرجانية . وبسرعة غريبة تحطمت السفينة وبنفس السرعة تفككت ألواحها الخشبية ، كأنها انحلت .. أو كأن السفينة انتحرت وقررت أن تموت هنا فى هذه الجنة التى هى جحيم لهؤلاء الرجال بعد ذلك . انهم لم يقطعوا أكثر من مائتى ميل والآن قد سقطوا جميعا فى الماء . بعضهم تحت السفينة وبعضهم تحت الألواح .. ولكن لحسن الحظ كانت المياه ضحلة نسبيا . فقد بلغت أعناقهم . لذلك كان من السهل عليهم أن يمشوا إلى الشاطئ وعليهم أن يسرعوا أيضا فقد أدمت الصخور أقدامهم وهم يخشون أن تشم أسماك القرش رائحة الدم فتتهاوى عليهم من كل مكان ..

ووقف القبطان يقول : إنه يتوقع أن يهبط الماء عند شروق الشمس فى السادسة صباحا . إذن كان عليهم أن يبيتوا على الشاطئ حتى تطلع الشمس وهم على الشاطئ سأله أحد رجاله : قل لى يا قبطان إنك لم تشرح لنا الغرض من هذه الرحلة ؟ .

ولاحظ القبطان أن السؤال ينطوى على كثير من الاستخفاف . فقال له القبطان : إنما أردت أرضا ثابتة لأسوى حسابى القديم معك . أنت الذى خطفت منى صفقة القمح . وأنت الذى ذهبت إلى أنطوانيت وقلت لها إننى رجل سكير . وأنها يجب ألا تتزوج رجلا مثلى ، وأنت الذى قلت للحاكم إننى أكرهه وأننى كنت صديقا لزوجته .. والآن أنت الذى اخترت ساعة الحساب .. فانهض واقتلنى أو أقتلك ؟ ..

ولم يخطر على بال أحد من الرجال أن هناك ثأرا قديما بين الرجلين . وحاولوا تهدئة الرجلين ، وبسرعة هدأ الإثنان . وهذا دليل على أنه لا ثأر هناك . ولكن القبطان كان فى حالة غضب . وقال ما فى نفسه . وبعد ذلك أصبح فى هدوء الجزيرة ، بعد أن كان فى هياج المحيط . وضحك الجميع . وانتظروا حتى تطلع الشمس وينحسر ماء المحيط ، وبذلك يستطيعون أن ينقذوا ما يمكن انتشاله من السفينة المحطمة ..

وعندما طلع النهار أدرك البحارة جميعا أن هذه هى جزيرة منرفا .. ثمانى جزر معروفة . وهذه الجزر قد أطلق عليها اسم « منرفا » آلهة الحكمة عند الإغريق ، لأن سفينة أسمها منرفا قد غرقت هنا . وقبلها سفن كثيرة ، وبعدها سوف تغرق سفن أيضا .. الوقت يمضى بسرعة . لا ماء . والطعام ليس مشكلة . فالأشجار عليها ثمار ، والبحر ملئ باللحم . أما الماء فهو الكارثة . وإذا نقص الماء أصيب هؤلاء الرجال بالجنون . ولذلك كان عليهم أن يصطادوا أسماك البحر ويشربوا دمها — فالدم هو السائل الوحيد الذى ليس مالحا . وانهال الرجال على البحر يصوبون رماحهم نحو صدره فإذا اصطادوا سمكة قرش . ثقبوا رأسها وراحوا يعتصرون دمها فى أفواههم .

وفجأة نظر واحد منهم واكتشف وراء الأفق بيتا عاليا من طابقين . فصرخ . بيت ! ..

ونظر الجميع ووجدوا شيئا عاليا .. واتهموا أنفسهم . وعندما ذهب

الضباب قليلا . أدركوا أنها سفينة .. فعلا سفينة تبعد عنهم حوالى ثلاثة أميال .. وركب واحد من البحارة على لوح خشبى وراح يجدف حتى وصل إليها . انها سفينة يابانية . هجرها أصحابها لسبب ما . وعاد يروى لبقية البحارة وعادوا جميعا يلتقطون من السفينة ما ينفعهم . آنية للطعام . ومناشير . وراديو إرسال ترانزستور .. ورماحا للصيد وبعض البطاطين . ولكن لا توجد قطرة ماء واحدة . ووجدوا صندوقا به بوية .. واستخدموا هذه البوية فى كتابة بعض العبارات على الألواح الخشبية وتركوها تسبح مع الموج : انقذونا .. نحن سبعة رجال فى جزر منرفا .. تحطمت السفينة انقذونا لا ماء معنا .. وظل الرجال ينظرون ويقلبون عيونهم فى السماء والبحر . لا شئ . راحوا يصلون . يطلبون النجاة من الله .. وحاول واحد منهم أن يقوم بدور القسيس .. فقال له الجميع : اقعد . إلا أنت !

حاول آخر أن يردد على أسماعهم بعض آيات الإنجيل.فقالوا : وأنت أيضا .. إنك طلقت زوجتك ضد تعاليم الكنيسة ! ..

وحاول الابن الأصغر للقبطان داود فقال له أبوه : وأنت أيضا . وسوف أروى لك فيما بعد لماذا لا تجوز صلاتك ؟ ..

ولم يشأ أن يقول له : إنه لقيط .. وأنه هو الذى تبناه عندما كان رضيعا . وإنما ذكر ذلك فى مذكراته التى عنوانها « سبعة اسمهم داود » فى سنة ١٩٦٤ .

وجلسوا وكأنهم يلعنون أنفسهم .. وكأنهم يطلبون إلى الله ألا يبعث لهم بشئ لأنهم لا يستحقون رحمته . وربما كان ذلك هو المبرر المعقول الذى اختارته السماء لتبعث لهم بالنجدة بعد ذلك .. بمائة يوم ! ..

وكان عليهم أن يلتقطوا الأخشاب ويحرقوها فى الليل لعل أحداً يهتدى إليهم . وصدرت لهم الأوامر بأن يدخروا الأخشاب لما هو أهم بعد ذلك .

ومات واحد منهم فجأة ، ومات آخر فجأة . ونقص فيتامين ج جعلهم

عاجزين عن الرؤية وعن المشى . وظهرت الدمامل على أجسامهم . أما جروحهم فلم تعد تلتئم . وإذا اقترب منهم أحد من الماء صرخ قائلا : ملح على جرح – هذه هى جهنم ! ..

وكأن البحر هو الذى أصبح جريحا .. إن أحدا لا يكاد يقترب منه حتى يبصقه على الشاطئ .. أو حتى تنقض عليه الأمواج وكأنها عضلات قوية فتطوحه على الرمال ! ..

وفجأة أضاءت السماء كلها بلون أخضر ثم أصفر ثم وردى .. وظلت كذلك عشر دقائق . ولم ينزعج أحد . فقد نشرت الصحف قبل ذلك أن الأمريكان سوف يطلقون قنبلتهم الجديدة المعروفة باسم « قنبلة الطيف » أو « قنبلة قوس قزح » .. ثم تجدد عندهم الأمل . فقد نشرت مجلة «لايف» الأمريكية أنها سوف توفد بعثة من محرريها ومصوريها إلى هذه المنطقة لتصور الجزر فى ذلك اليوم .. هناك إذن أمل فى أن يروا هؤلاء الغارقين . ولذلك أعادوا إحراق الأخشاب من جديد . ولم يعرف هؤلاء الغارقون أن المجلة الأمريكية عادت فعدلت عن هذه الرحلة لأن تكاليفها ستكون باهظة ..

وأتوا بالموتور الديزل وأفرغوه على الأخشاب واشتعلت النيران . وفجأة مات رجل ثالث . وفى الصباح مات رجل رابع . ولم يبق إلا داود وولداه .

وفى يوم ٢٧ يوليو قرروا أن يفعلوا شيئا . وقف الأب يقول : إن الله يساعد من يساعد نفسه . إذن يجب أن نساعد أنفسنا .

وقرروا أن يصنعوا لأنفسهم زورقا من بقايا سفينتهم والسفينة اليابانية وأطلقوا على هذا الزورق الجديد اسم : صباح الخير .

وبقوة اليائسين من الحياة صنعوا هذه السفينة وهم واقفون على أقدامهم

فوق أحجار كالرماح الدامية . وأمامهم ووراءهم أسماك القرش يأكلونها نيئة ويشربون دمها . أما طول «صباح الخير» فهو ١٨ قدما وعرضها أربعة أقدام ونصف قدم وعمقها قدم ونصف قدم .

وقرروا أن يتجهوا إلى أقرب جزيرة وكانت الجزيرة تبعد عنهم حوالى ١٨٠ ميلا . وتعاون الثلاثة وتناوبوا على توجيه الزورق الشراعى والبخارى أيضا .

وفجأة صرخ واحد منهم يقول : كل الأنهار تصب فى الأنهار ، لا البحار امتلأت ولا الأنهار جفت ..

وقال الثانى : كل المياه والثمار تنتهى بالمعدة ، لا المعدة شبعت ولا المياه ولا الثمار انتهت ..

وقال الأب : كل ما كسبته قدمته لزوجتى ، لا أنا اتعظت ولا هى رضيت !

ثم سأل الأب : من علمك حكاية الأنهار والبحار هذه ؟

فقال الابن : إنها آية فى الكتاب المقدس ! ..

وقال الأب : وهل قرأت الكتاب المقدس ؟ ..

فقال الابن : نعم يا أبى .. لا تنس أنك تركتنى فى أحد الأديرة ست سنوات .

وقال الأب : آه .. صحيح .. كنت قد نسيت ذلك ؟ .

ثم عاد يسأله : من الذى قال إن البحر مقبرة الشجعان .. والبر مقبرة الجبناء ! ..

وضحك الابن وقال : لم يقلها أحد قبلك !

هكذا كانت روحهم عالية .. لقد نجوا . ونسوا أن اربعة آخرين قد ماتوا . وأن هؤلاء الأربعة قد دفنوهم على الشاطئ حتى لا تأكلهم الأسماك .. وبعد ذلك يأكلون هذه الأسماك .. إن الخوف من الموت يشغلنا عن التفكير فى الموتى ! ..

وبعد أيام رأوا جزيرة بعيدة .. انها جزيرة الملائكة .. مؤكد هى .. ولكن لن يصلوا إليها قبل ست ساعات فالرياح عنيدة معادية والموج عنيف يطردهم عن الشاطئ .. وفجأة ، فكل شئ يحدث هنا فجأة . جاءت موجة وضربت زورقهم وشطرته إلى نصفين .. ووجد الثلاثة أنفسهم فى الماء . وتعلقوا بالزورق المقلوب .. ثم بالألواح الخشبية .. واتجهوا بقوة أو بما تبقى فيهم من قوة إلى الشاطئ .. ونظر الأب إلى أحد من ولديه فوجده يغرق .. يبدو أنه سقط على رأسه فوق صخرة فمات لتوه .. ونظر الأب إلى الولد الثانى فوجده يترنح هو أيضا .. ولكن الأب اقترب منه .. ودفعه أمامه .. ومازال كذلك حتى وصل الإثنان إلى الشاطئ .. وهو فى غير وعيه ..

فهو لا يعرف من أين جاءته هذه القوة .. ولا الرؤية الواضحة . ووصل الإثنان إلى الشاطئ .. وبقوة أخرى هب الأب واتجه إلى إحدى أشجار جوز الهند فى الجزيرة وكسرها .. وألقى بمياهها فى فم ابنه .. ثم عاد يقتلع أقدامه من الرمل ليأتى بجوز هند آخر .. ليشربه هو .. ولم يدر الاثنان بعد ذلك أى شئ .. وإنما أفاقا على صوت أقدام وهمس أناس حولهما .. انهم سكان الجزيرة .. لقد التفوا حولهما .. وأعدوا لهما طعاما وشرابا . وملابس يرتديانها .. وعندما نهض الاثنان راحا يرويان قصتهما .. وأهل الجزيرة يريدون أن يتأكدوا من ذلك .. فكانوا يطلبون إلى كل واحد أن يرويها دون أن يتدخل الآخر . وصدقوهما ، واتصلوا بإحدى نقاط المراقبة الأمريكية . وجاءت طائرة وألقت لهما بالماء والطعام . ثم هبطت الطائرة ونزل طبيب يعالج الأب والابن .

وفى الطائرة سأل داود الصغير داود الكبير . ولكنك لم تقل لى لماذا لا تجوز صلاتى يا أبى ؟.. فقال داود الكبير : إنما كنت أداعبك ..

ثم راح يبكيان وهما ينظران من الطائرة إلى السفينة ليلى والسفينة «صباح الخير» . وعلى الذين ماتوا من العطش .. الأب يبكى على ابنه ، والأبن يبكى على أخيه ! ..

المهرجان
الذى دوّخ الملوك
والرؤساء!

(١)

آه لو كانت شهرزاد معنا فى طهران ، لروت لشهريار أعجب ما رأى وسمع الإنسان فى كل العصور . ولجاء على لسانها عشرون اسما عالميا لدور الأناقة والتجميل والهندسة والإضاءة.. فالذى حدث فى إيران بمناسبة الاحتفال بمرور ٢٥ قرنا على إنشاء كوروش العظيم للامبراطورية الفارسية . لم يره أحد ، ولن يراه ، ولا يجرؤ على أن يكرره . فكل شئ يحسب بملايين الجنيهات ومئات الملايين من الناس !

يومها جاء رجال القصر وقدموا لنا الشاى شربناه فى ملاعق ذهبية .

كان الموعد المحدد للمؤتمر الصحفى الساعة الرابعة وعلينا أن نذهب قبل الموعد بساعة على الأقل . وهذه معاملة خاصة للصحفيين . فقد جرت العادة أن يذهب الناس لأى مكان يذهب إليه الامبراطور قبل وصوله بساعتين على الأقل . ولابد أنهم سوف يقطعون الطرق المزدحمة فى ساعتين أيضا . ومعنى ذلك أن يستعدوا للقاء الامبراطور أو لمجرد الفرجة عليه قبل ذلك بخمس ساعات . والويل للمرأة إذا ذهبت لمقابلة الامبراطور أو الامبراطورة ، فإنها لا تغمض عينيها عن مرآتها طول النهار ..

ولم تكن لنا مشكلة فهناك أتوبيس أنيق يسبقه موتوسيكل تابع للحرس الإمبراطورى يفسح لنا الطريق . والناس على جانبى الطريق يعلمون أننا شخصيات هامة .. ولابد أننا على صلة بهذه الزينات الفخمة فى كل مدن إيران ..

وكنت أنزل فى فندق فرساى . ومعى صحفيون من اليابان والهند ولبنان والسعودية .. وفتيات ورجال التليفزيون الفرنسى الملون ولم تكن هناك أية شروط خاصة فى الملابس . المهم أن تكون قاتمة . وكان يرافقنى شاب إيرانى تعلم اللغة العربية فى العراق . وأدركت خطورة الموقف عندما لاحظت أنه قد بدل الكرافتة التى تشبه السجادة الإيرانية .. فهى عريضة طويلة ونقوشها كبيرة وألوانها صارخة – ربما كانت الألوان هى التى تجعلها أبعد ماتكون عن السجاجيد الإيرانية . وإنما ألوانها أقرب إلى مفارش السفرة . وكانت هذه أول مرة اراه بغير رباط العنق فى عشرة أيام . . ولم يكن مرحا . وعنده أى استعداد لأن أداعبه . إذن الموقف خطير . وهذا طبيعى . فهو شاب إيرانى موظف صغير . شاءت الظروف أن يكون فى حضرة الامبراطور محمد رضا بهلوى شاهنشاه أربا مهرى – أى ملك الملوك حبيب الأربين – وكلمة إيران معناها بلد الأربين .

ومرت بنا السيارة على فندق انتركونتنتال وهناك انضم إلينا صحفيون من أوروبا وأمريكا . ومعهم كاميراتهم وأجهزة التسجيل . ولكن أحدا لم يلفت نظرهم إلى ضرورة الاحتشام فهناك من يرتدى البنطلونات الضيقة . وبنطلونات رعاة البقر . بل هم رعاة بقر بالفعل لأن معهم كاميرات لها قرون وعيون واسعة تدور يمينا وشمالا . حتى الصحفيات ارتدين الميني جيب . والشعر منكوش والعيون أكثر إحمرارا من عيون الكاميرات . فقد جئن مباشرة من البار .

ولابد أن الإمبراطور ، بتجربته الطويلة – امبراطور منذ ثلاثين عاما – قد تعلم كراهية الصحفيين لهذه القيود على حركاتهم فى الشوارع وفى الحوارى ، وتحركاتهم بين ملابسهم أيضا . فهم يفضلون أن تكون القمصان كالأحذية بلا أربطة .

الطريق طويل إلى قصر سعد أباد .. طوله ١٨ كيلو مترا . اسمه شارع بهلوى . الزينات لا يمكن أن توصف . جميلة أنيقة . وفى هذا الشارع مكان إذا وقفت فيه السيارة فإنها ترجع إلى الوراء أى أنها تصعد إلى أعلى مهما كان وزنها — تماما كما يحدث فى طريق صلاح سالم بالقاهرة . الهواء منعش بارد..الأشجار على الجانبين .. وإذا توقفت السيارة عند أية إشارة مرور فإن خرير المياه يمكنك أن تسمعه على جانبى الطريق، فالماء ينزل من الجبال فى قنوات الحجارة والأسمنت المسلح لتروى الأشجار .. بعض الناس يتوقف يغسل يديه أو منديله .. فالماء نظيف .. أما فى الريف فهم يشربون المياه الجارية .

ولكن لم ألاحظ أية احتياطات أمن . لابد أنهم بلغوا من الرقة فى معاملة الصحفيين درجات لاندرى بها . فكل مجموعة من الصحفيين لهم مرافق . ولابد أنه قد وضع عينه التى لا تنام عليهم هكذا قيل لنا . ولكنا لم نلاحظ أى شئ غير عادى فى تصرفات المرافقين . فهو مثلا لم يلق بنفسه على صدرى لكى يعرف ان كنت أحمل مسدسا . لم يحاول أن يأخذنى بالحضن ، ثم يسحب يديه على جانبى أو على ساقى .. إلى آخر الحيل البوليسية للكشف عن وجود أسلحة لا شئ من ذلك .

وعندما اقتربنا من قصر سعد أباد وجدنا عددا كبيرا من الحراس . ولكنهم وقفوا إلى جوار الأسوار العالية ، وتركوا مونوسيكلاتهم لا أحد ينظر إلينا . وإنما كل العيون اتجهت إلى سائق الأتوبيس الذى يركبه الصحفيون . وكان يركبه الدبلوماسيون السفراء والوزاراء توفيرا لجهودهم فى الشوارع بين السيارات وإشارات المرور . ونزلنا من الأتوبيس . ونحن الآن فى داخل الأسوار الأولى للقصر . أشجار عالية عريقة وعتيقة .. عمرها يقدر بعشرات السنين . بعضها تجاوز المائة سنة . الجو أكثر برودة . والهدوء شامل عند الأسوار الثانية للقصر وقف رجال القصر أنفسهم بملابسهم القاتمة ونياشينهم . وكذلك رجال الحرس . ونودى علينا بالاسم . وكان لابد

من مراجعة الأسماء فى كشوف .. والتأكد من الصورة المعلقة على الصدر. والتى توجد منها ست نسخ فى أجهزة الأمن فى إيران ، وقبل هذه اللحظة بعشرين يوما .. ودخلنا السور الثانى للقصر الامبراطورى . الأشجار أكثر أناقة ورشاقة . والبرودة التى تملأ الهواء سببها أن هناك نافورة ترفع الماء فى صمت . والأرض مفروشة بالظلط البنى والأزرق . القصر الذى أمامنا صغير . لابد أنه المكتب الامبراطورى . أو أحد الأجنحة . لا شئ حولنا إلا الأشجار .. وعلينا أن نقطع حوالى مائتى متر . ثم نصعد الدرج . وندخل القصر . لا داعى مطلقا لأن ننظر فى الأرض . انها سجاجيد عجمية — طبعا— فهذه بلاد العجم إيران . وأنت فى القصر الامبراطورى . ولابد أن هذه السجاجيد من كاشان أو تبريز أو مدينة قم . أو أنها نوع خاص بالامبراطور . يجب استبعاد مثل هذه الأفكار . ولاداعى للنظر إلى السقف . فهذه الثريات نادرة . فنحن فى قصر ملك الملوك .. والأفضل أن نصعد الدرج إلى الطابق الثانى سجاجيد وبعدها سجاجيد وفوق الرأس نجف وبعدها نجف .. لا فائدة من النظر أو من مناقشة أى شئ مع أحد أو مع نفسك . وحمدت الله أننى نسيت كتابا عن السجاجيد الإيرانية قد اشتريته منذ أيام . لا معنى له . الحمد لله .. وأشار رجال القصر إلى قاعة أمامنا . وطلبوا إلينا أن ندخل وأن نجلس . وفهمنا أن الامبراطور سوف يدخل من أحد جانبى هذه القاعة وأشار بعضنا إلى أنه من الأفضل أن نجلس فى مؤخرة القاعة قدر المستطاع حتى لا نتعرض للأضواء الباهرة التى يستخدمها مصورو السينما والتليفزيون انها فكرة وجيهة ، وكان يجلس إلى جوارى صحفى ألمانى وصحفية من السويد . وأخرج علبة سجائر . ورحنا ندخن جميعا . وتعالت الأصوات والضحكات والنكت . انه جو صحفى . لا قيود على أحد .

وجاء رجل ضخم طويل عريض . ملابسه حمراء ذهبية . ووجه مشدود وملامحه جادة . وأشار ناحيتى . ولم أفهم . ولا كان من الضرورى أن أفهم . لابد أن لديه سببا معقولا . ولكنى لا أجد عندى أن سبب للدهشة .

فنحن الآن فى القصر الامبراطورى وهذا الرجل موظف يؤدى واجبه ، وسوف يكون من واجبه أن يختار لى مقعدا مريحا أو ورقا أو قلما . إنه فى خدمتى .. فنحن فى ضيافة سيده ..

وبعد اشارته هذه جاء رجل آخر يحمل صينية ذهبية .. وعليها فناجين شاى .. آه .. إنه الشاى الذى يجئ بعدنا دائما فى أى مكان نذهب إليه . وعيبه أنه خفيف . ولكنه يجئ فى الوقت المناسب . الوزير يقدمه لك .. والموظف الصغير . وبائع المجوهرات وبائع السجاجيد فالبراد على النار دائما . ولكن الفناجين هذه المرة من نوع لا نظير له .. ذهبية بنية سوداء كبيرة . أما الملعقة التى سارعنا جميعا الواحد بعد الآخر إلى تقليبها فى أيدينا فهى من الذهب الخالص انها مدموغة . الرؤوس ارتفعت لتؤكد ذلك . الدهشة معناها : طبعا .. ان الذى صنع هذه الزينات كلها ، وأنفق هذه الملايين . وعنده هذه الكنوز لابد أن تكون ملاعقه ذهبا .. وسكاكينه أيضا .

وأقسمت بينى وبين نفسى أن أشرب الشاى بالملعقة الذهبية . . مهما أدى ذلك إلى إفساد طعم الشاى . . ولعلى أردت أن أتفلسف فأقول : إن الشاى بالفنجان أمتع وألذ من الشاى بالملعقة الذهبية .

كلام فارغ طبعا . لأن الذين يملكون المعلقة الذهبية يشربون من الفنجان . ولو كانت عندى هذه الملعقة الذهبية لوضعتها فى دولاب ليتفرج عليها الناس . ولا أستخدمها . والإمبراطور يفعل ذلك . . ولكنى شربت الشاى بالملعقة الذهبية . وطلبت المزيد من الشاى . ولا أعرف إن كانت هذه هى النكتة التى يضحك عليها الصحفيون من حولى بلغات أخرى لا أعرفها ليكن . ولكنى شربت شاى الإمبراطور بالملعقة الذهبية وجاء رجل آخر يحمل صينية من ذهب . واقترب الرجل منا . . ورفعنا الصينية إلى أعلى لنتأكد أنها ذهبية . رأينا التمغة . إنها من ذهب . وعلى الصينية بسكوت وجاتوه

وشوك وسكاكين من ذهب . ودارت عمليات حسابية : كم تساوى الشوكة . كم وزنها . والملعقة كم تساوى . . وإذا كان فى القصر ألف شوكة وألف ملعقة . . ومئات الصوانى . . فكم يساوى ذلك . وماذا يحدث لو أصر أحد الحاضرين على أن يأخذ الملعقة تذكارا . فهل يفضحه الإمبراطور فى المؤتمر الصحفى ألم يخطر على بال الإمبراطور ، أو حتى رجال القصر ، لحظة واحدة أن أحدا من الممكن أن ينسى واحدة فى جيبه . .

ودارت مناقشة : ينساها ؟ هذه حيلة مكشوفة . . . وكيف دخلت الملعقة جيبه . . إن واحدا منا لم ينس قط معلقة أو شوكة أو فنجانا فى جيبه . .

— نفرض أن أحدا فعل ذلك . . مجرد فرض . — ولا حاجة . — سوف يتركون له ذلك . . لأنه من العيب إهانة ضيف الإمبراطور . . هذا مؤكد ؟ . طبعا . إذن لماذا ننسى إننا ضيوف الإمبراطور . . — إن الملعقة لا تساوى . . فعلا — ثم أنها نشاز فى كل بيت ملاعقه من المعادن المختلفة . .

وكان رجال القصر قد اعتادوا على الدهشة فى عيون الزوار . وعلى ما يدور من مناقشات فى كل مرة يقدمون فيها الملاعق الذهبية ، فهم لايهتمون لما يدور حولهم . أو يتظاهرون بذلك . وهم يعرفون جيدا تلك الحركات المكشوفة) . . كان يتعمد الواحد من الزوار أن يلقى الملعقة على الأرض لينتهز فرصة التقاطه لها ، ليتأكد إن كانت عليها تمغة . . وهم يعلمون أن بعض الزوار يختبرون ذكاءهم أو روح المرح عندهم فيقدمون الفنجان ، ثم يتظاهروا بأنهم نسوا الملعقة فى أيديهم أثناء النقاش ولذلك يقف رجال القصر وعيونهم على الفنجان والملعقة . قدرة غريبة اكتسبوها بكثرة الضيوف .

وظهر سكرتير الإمبراطور ينبه الصحفيين إلى أن كل من يريد أن

يسأل يتقدم للأمام ويعلن عن اسم الصحيفة التى يمثلها والبلد الذى جاء منه . وعلى رجال التلفزيون ألا أن يقفوا مباشرة أمام عدسات التلفزيون الإيرانى ، لأن المؤتمر سيذاع على الهواء — أى فى نفس الوقت وبالألوان . . وينقله التلستار إلى جميع أنحاء العالم .

ومضت ساعة ويقال ساعتان . . وحدثت هزة غريبة . وشئ من الفزع والوقار وانحنت الرؤس إلى ما يشبه الركوع — رؤس رجال القصر ، وكل الإيرانيين الموجودين بيننا . . إنه الإمبراطور . لقد جاء من الخلف وليس من الغرف الجانبية . . وليس من اللائق طبعا أن يظهر الإمبراطور من باب جانبى فيفاجأ به الناس . . إنه جاء من نفس الطريق الذى جئنا منه . . الطريق طويل . . ويجب أن يراه الناس من بعيد . . وأن يراهم هو من بعيد أيضا . .

ومر من جوارى . . شاب نحيل . مشدود القامة جدا . كل شئ فيه مشدود : القامة وبشرة الوجه .

ثم جلس الإمبراطور على بعد خطوات . أمامنا على مقعد وتحت الأضواء . . وتزاحم الصحفيون . هوجة مألوفة . الكاميرات التلفزيونية والسينمائية لها صوت الأفاعى وكاميرات الصحف لها فرقعة الأصابع وطلب إلينا سكرتير الإمبراطور أن نبدأ فى الأسئلة . . لا قيود ولا شروط . . والإمبراطور سوف يواجه الجميع . . الآن أستطيع أن أصفه بوضوح . . فبعد أن وجدت نفسى عاجزا عن سماع صوته . فلا توجد ميكروفونات ثم إن أصوات الكاميرات أعلى من صوته ، غيرت مقعدى ووقفت إلى جواره وقد ظن بعض رجال القصر إننى إيرانى فحدثنى بالفارسية . ولم أفهم ولعله أراد أن يقول لى : ارجع قليلا . . أو احتشم أو شيئا من مثل ذلك . .

الإمبراطور نحيف . وإذا جلس بدا قصيرا . ولكن إذا وقف بدا طويلا . لأنه مصلوب الظهر رافع الرأس . . عمره ٥٢ عاما ولكن لاشئ

فى وجهه يدل على ذلك ، فبشرته وردية . فعلا وردية . ولعله اختار لون رباط العنق يتمشى مع لون البشرة ، فالكرافتة لونها أزرق تركوازى وفيها خيوط وردية مثل بشرته تماما . بياض العينين شديد . والسواد أيضا شديد . وملامحه لاتدل على ما يدور فى نفسه فالوجه قد اتخذ سمة واحدة . أما اللغة الفرنسية فسليمة رفيعة . ولغته الإنجليزية أيضا .

ويقال لغته الألمانية والإيطالية . . أما بلغته هو فتحدث من الدرجة الأولى . .

ومن عاداته فى الكلام أنه يتراجع إلى الوراء . ويعيد شد عوده . مع أن عوده مشدود وهو جالس . ويبتلع ريقه . ولكن شيئا لا يحرجه ولا يثيره . جاءت الأسئلة . وكان من الواضح أنها تدور حول تكاليف هذه المهرجانات أى الاحتفال بمرور ٢٥ قرنا على إنشاء كوروش — أو قوروش — العظيم للامبراطورية الفارسية وكان الإمبراطور يستعد لهذا اليوم . فقد قرأ الصحف كلها . وعرف النقد الذى وجه إليه من كل بلدان العالم — الدول الرأسمالية أكثر من الدول الأشتراكية . بعض الإيرانين يقول فى أذنى : سبب ذلك صداقته للعرب وعدم أعترافه بإسرائيل .

ولذلك من الحكمة أن يبدأ هذا النوع من الأسئلة الصحفيون الإيرانيون . وتوالت أسئلة مندوبى صحيفتى إطلاعات .. وكايهان — إطلاعات معناها الأنباء . وكايهان أو جايهان أو جيهان معناها : الكون أو العالم . وأدرك الصحفيون الأجانب أن الإمبراطور هو الذى قرر أن يختار الأسئلة وأن يختار الإجابة عنها . وأن المؤتمر الصحفى بهذ الشكل موجه فى الدرجة الأولى إلى الشعب الإيرانى (٣٠ مليونا) . وأن هذا هو الذى يهم . وما تقوله الدول الغربية لا يهم بالمرة ..

— سؤال يا ملك الملوك .. كيف تكون إيران مدينة بثلاثة آلاف مليون

دولار ، وتنفق هذه الأموال الباهظة من أجل الاحتفال بذكرى كوروش العظيم مؤسس الامبراطورية الفارسية ..

ولابد أن صاحب السؤال يشير إلى الزينات « الجميلة » على البيوت والشوارع والوزارات والميادين . وكلمة « الجميلة » هذه ليست لأن المصابيح مضاءة ولكن لأن المصابيح عبارة عن لوحات فنية اشترك فيها عشرات من الفنانين الإيرانيين والأجانب . ليست الزينات التى أقامتها الدولة ، وحتى الزينات التى أقامها الشعب . انها ليست متروكة للناس . فليس الناس فنانين . انهم يريدون أن يظهروا شعورهم مهما كلفهم ذلك من مال . ولكن هذا الشعور لا يكفى . لابد أن يوضع فى إطار . وكان هذا الإطار على شكل طاووس . أو على شكل براويز لصور رجال مشاهير .. أو على شكل ريش أو أجنحة .. أو أقواس نصر .. أو كأنه لوحات طويلة من الزجاج مرسوم عليها صور تاريخية جميلة ..

ولابد أنه يقصد الولائم الضخمة الفخمة التى أقيمت للملوك والرؤساء وأريقت فيها أنهار من الشمبانيا والكونياك .. وطار الطاووس من الهند . تسعون طاووسا — وذهبت إلى باريس .. ومن باريس جاءت إلى مدينة الخيام المصنوعة من البلاستيك والجلد والقطيفة الذهبية والفنادق التى أقيمت لأول مرة فى صحارى قاحلة . والغابات التى نقلت .. والجرسونات ٥٠٠ جرسون — من مطعم ماكسيم فى باريس .. وأشياء أخرى عجيبة لم تحدث فى أى عصر من عصور التاريخ .

كل ذلك قد سمعه الأمبراطور وعرفه واستعد له. وهذا المؤتمر قد عقده فى ختام المهرجانات ليوضح للعالم ما حدث .

واعتدل الامبراطور أكثر ليقول : انه يعلم أن بلاده مدينة . ولكن أين توجد الدولة التى لا تقترض من أجل الإصلاح .. ان أغنى دول العالم عليها ديون . ثم أن الصحف قد بالغت فى الأرقام . وهذه عادة صحيفة . وإنما

الذى أنفق على المهرجان أقل من ذلك بكثير وسوف أصدر أوامرى بنشر الأرقام الحقيقية لتكاليف المهرجان .

سؤال من فتاة سويدية : قل لى يا ملك الملوك .. إن هناك آراء مختلفة حول تكاليف المهرجان .

رأى يقول أنه تكلف ٢٠٠ مليون دولار .. ورأى يقول بل ثلاثة آلاف مليون دولار .

ربما كان هذا هو السؤال الوحيد الذى أثار الأمبراطور وضايقه فعلا . فقد تراجع فى مقعده وشد نفسه جدا . ثم عاد ليقول : إننى لم أسمع بمثل هذا الكلام الأحمق الأرعن الظالم . . انكم أنتم فى السويد الذين تحرصون على مهاجمتى . ولا أفهم لماذا . ان كل الدول الرأسمالية تهاجمنى : الدول الاشتراكية لا تهاجمنى . لا أفهم . وليس معقولا طبعا أن يتكلف المهرجان هذه الأموال الطائلة .. انى أنفقت الكثير على موائد الملوك والرؤساء ولكن لو كانت هذه التكاليف الحقيقية للمآدب فكم كان يتكلف كيلو اللحم ... أو اللبن أو الأرز .. أنت لا تتصورين كم كانت تتكلف الدولة لو جاء كل واحد منهم على حدة .. ستون ملكا ورئيسا ونائبا للرئيس .. اننا خلقنا على احترام الكبير من الناس .. وإذا كانت بلادكم قلقة على إيران .. فأنا أحب أن أطمئنها على إيران وشعب إيران .. أنه بخير .

وطلعت الصحف الإيرانية وليس فيها هذا التعليق الحاد على الصحفية السويدية .. ولكن السفارة السويدية اعتذرت عما بدر من الصحفية السويدية .. وكان الأمبراطور عندما أمر بحذف هذه الكلمات قد تراجع قليلا ، أو كأنه قاله فى مئات الملايين واعتذر عنه فى مئات الألوف . وفعلت السفارة السويدية نفس الشئ .. أحرجته فى مئات الملايين واعتذرت فى مئات الألوف — سياسة .

ثم جاء سؤال خبيث وإن كان صاحبه قد قاله ببساطة ، قال : ياملك الملوك لماذا هذه الجيوش الكثيرة التي تكلفكم الكثير من ملايين الجنيهات .

واستعاد الأمبراطور السؤال لعله أراد أن يقول لنا وللمستمعين أن صاحب السؤال أمريكي ..

وكان رد الأمبراطور : : لأنه من الصعب أن يكون الإنسان ملكا لشعب ضعيف . وأن جيشنا قوى . ومن أقوى الجيوش فى الشرق الأوسط .

والسؤال خبيث لأن صاحبه يريد أن يقول بشكل آخر ، مادمت تعد جيشا فأنت فى حاجة إلى المال .. وإذا كنت فى حاجة إلى المال ، فلماذا تنفقه على الحفلات والولائم التى لا معنى لها .

وكان رد الأمبراطور أن الجيش ضرورى وأن احترام رؤساء الدول ضرورى . وأن رسالة إيران هى أن تذكر العالم بضرورة أن تكون هناك حقوق ومبادئ . واحترام المبادئ .. واحترام ذكرى أول رجل وضع حقوقا للإنسان واحترام الأديان .

ويشتد ويعتد بنفسه ليقول : ولولا انى ملك على هذه البلاد لانهارت أنا أعلم بذلك ، لا عن غرور . ولكن عن يقين . وأنا لست مغروا . أنا ملئ بالتواضع . لولاى لجاء متطرف من اليمين أو من اليسار وخرب هذه البلاد فى الدفاع عن نفسه .

— سؤال يا ملك الملوك : هل فى نيتك أن تنزل عن العرش لابنك .

— فى نيتى ولكن ليس الآن . وإنما سوف أفعل ما فعله والدى ، وسوف أعنى بابنى وأعلمه وأرشده ليكون ملكا واعيا عادلا . وعندما يبلغ هذه السن سوف أعتزل ، فليس الملك ترفا إنه تعب أكثر مما تتصورون ..

وهذا ما فعله كوروش أيضا . فقد نزل عن الملك لابنه ، ثم ذهب هو على رأس جيش يحارب فى بلاد بعيدة .

وبعد ذلك جاءت أسئلة كثيرة شكلية ..

وأحس الجميع أن المهم قد قيل للأمبراطور وقاله الأمبراطور .. وجاء شئ من البرود خيم على الموجودين .. وعندما تثاءب أحد الصحفيين أحس الجميع أنه يشبه صياح الديك .. وأن النهار قد طلع .. وأن على كل واحد أن يعود إلى الحياة الطبيعية .. أى الحياة التى ليس فيها هذا الحرج .. بعيدا عن الجاذبية الملكية أو القوة الطاردة لنا من رجال القصر أو هكذا كان إحساسنا ..

وانتهى المؤتمر الصحفى .. وأجاب الامبراطور عن عشرين سؤالا بدقة وصراحة وفصاحة رجل الدولة وليس تاج الدولة .. فهو الذى فجر « الثورة البيضاء » فى بلاده .. قبل أن تنفجر فيه .. وكان ذلك عملا ذكيا .. وهو الذى فرض الإصلاح من فوق ، حتى لا تجئ ثورة فتفرضه من تحت .

وكان الطريق إلى حدائق القصر أقصر . وكانت الخطوات أسرع .. والهواء أكثر خفة .. وكانت الأجسام فى وزن ريش الطاووس .. انتهى كل شئ .. قال الامبراطور كل ما فى نفسه على مئات الملايين من الناس ولشعبه هو .. وخلعت الكرافتات على أبواب القصر ..

وركبنا السيارة وبدأنا نتساءل : ومتى يرفعون هذه الزينات من الشوارع ؟

وكان الجواب إن الامبراطور قد اختار هذا الوقت بالذات لحكمه . وقد كان من المفروض أن تحتفل إيران بمرور ٢٥ قرنا على ذكرى كوروش سنة ١٩٥٩ ، ثم أجل هذا الاحتفال إلى سنة ١٩٦١ وأخيرا بعد أن توج الامبراطور على بلاده فى أكتوبر سنة ١٩٦٧ قرر أن يجعل الحفلات فى أكتوبر سنة ١٩٧١ .. ففى هذا الشهر يحتفل بمرور ٢٥ قرنا على ذكرى كوروش ٢٠٠,٠٠ سنة على إنشاء مدينة طهران وعيد ميلاده الثانى والخمسين وعيد الميلاد الثالث والثلاثين للامبراطورة فرح وعيد الميلاد العاشر لولى

العهد وعيد تتويجه الخامس — كل ذلك فى أيام متقاربة .. وبذلك تظل هذه الزينات على جانبى الشوارع كل هذه المدة .. وإن كنا قد لاحظنا أن بعض الزينات قد أطفئت من الشوارع قبل عيد ميلاد الامبراطور بيوم واحد — وهو عيد السلام — ثم أعيدت فى اليوم التالى لكى يدرك الناس هذه المناسبة القومية أما عيد السلام — فهو عيد شاق . إذ أن الامبراطور يتلقى التهنئة باليد من الوزراء ورجال السلك الدبلوماسى . وينتهز الامبراطور هذه الفرصة ويتحدث .. وكذلك الامبراطورة قالت لى حرم سفيرنا فى طهران سميح أنور أن الأمبراطورة فى عيد السلام الماضى قالت لها أنا أسفة للدوشة التى نسببها لكم .. ولذلك اقترح عليك أن تتقدمى بشكوى للحكومة ضدنا .

وكانت الامبراطورة تشير إلى أن بيت السفير المصرى قريب من القصر الأمبراطور . وأن طائرة الامبراطور الهليكوبتر التى ينتقل بها من مكان إلى مكان تحدث هذه الدوشة .. كل يوم وأنه لا أمل فى أن يسكن الامبراطور بعيدا من بيت السفير .

***

ولابد أن الحكومة الإيرانية ، بكل أجهزتها قد استراحت تماما أو أخذت نفساً عندما بدأ الملوك يسافرون من طهران عائدين إلى بلادهم . . فقد كان هؤلاء الملوك أعباء ثقيلة على أجهزة الأمن ، فقد كانت هناك إجراءات شديدة جدا ، وقوات من البوليس السرى فى كل مكان حتى لا يفسد المهرجان .. ولو حدث شئ ما ، لنسى الناس المهرجان ولذكروا هذه الحماقة ..

ولابد أن الامبراطور ورجاله قد انزعجوا عندما قرأوا لكاتب فى صحيفة فرنسية يتمنى أن يذهب أى شاب مجنون ويلقى بالقنابل على مدينة الخيام

حيث الملوك والرؤساء وبذلك يستريح العالم من ملوك الذهب والحديد والبترول والسلاح .

ولم تقترب طائرة أو سيارة من مدينة الخيام بالقرب من شيراز إلا بعد أن تمر فى حصار بعد حصار بعد حصار .. ثلاث دوائر أمن دقيقة وعنيفة ، وفى كثير من الأحيان تتشدد إلى درجة الخروج عن الذوق — ولكنها التعليمات .

لابد أن الدولة قد استراحت ..

ولذلك فأنا أجد عذرا معقولا لرجال السفارة الإيرانية فى مصر .. فقد قال لى الصديق على أكبر كسمانى المستشار الصحفى : إننا نبعث برقيات إلى وزارة الخارجية ولكنها لا ترد ..

وقال لى الدكتور ظالمى وكيل وزارة الخارجية الإيرانية : معه حق .. ان كل أجهزة الدولة وكبرائها قد انتقلوا إلى مدينة شيراز . ونحن معذورون .

ولم يكن من السهل طبعا أن أجد أحدا فى استقبالى فى مطار « عمر أياد » بطهران .. أعرف ذلك ، وأعذر وزارتى الإعلام والخارجية فالدولة كلها مشغولة بأشياء كثيرة ، ولذلك عندما سافرت إلى طهران كنت أعلم علم اليقين أن رحلتى هذه يمكن أن توضع تحت عنوان : عائشة فى سوق الغزل .. كما يقول المثل الشعبى .. أى أن أحدا لا يدرى بى . وأنه من الصعب أن أن أجد فندقا . فهناك مئات الألوف من الزوار والرسميين وأنه لا مكان لأحد فى أى مكان وأنه من الأفضل أن أعدل عن السفر وأن أذهب إلى الفرجة على هذه الزينات بعد نهاية المهرجان أى بعد العيد . . وأنه : أيه يعنى ياشيخ أقعد بلا دوشه .. وإذا كنت تريد أن تبحث عن مكان تستريح فيه من كل ما حدث لك هذا العام ، فاذهب إلى لبنان .. آه إلى إيطاليا يا أخى .. أو سافر إلى إحدى الجزر اليونانية أو الأسبانية ولا من شاف ولا من درى ..
— والله فكرة .

آه أسافر إلى أوروبا وأتفرج على التليفزيون فكل مهرجانات إيران مذاعة على العالم كله فى وقت واحد .

***

ولكن ليس قبل أن أسافر إلى إيران .. ووجدت لى مكانا فى الطائرة بصعوبة شديدة وكان من الضرورى أن أتوقف فى الكويت بضع ساعات وبعدها أسافر إلى إيران .. ساعة واحدة من الكويت إلى طهران ، وكان يوما طويلا مرهقا . والتعليمات أن أذهب إلى الكويت قبل موعد الطائرة بساعتين .. لماذا . لعل له علاقة بإجراءات الأمن الإيرانية لا أعرف . . ربما وكان المطار باهر الضوء . . وهو قطعة من العذاب للعيون الساهرة المكدودة . وفى الطائرة نمت وفى مطار طهران اكتشفت أن البالطو الذى على ذراعى لم تكن له ضرورة . . انها معلومات خاطئة التى سمعتها فى القاهرة قالوا : هناك برودة .

ربما كانوا يقصدون : المقابلة .. أو المعاملة وليس الجو .. وفعلا كانت هناك حرارة فى الجو ، وبرودة فيما عدا ذلك . .

نزل الناس . كلهم إيرانيون . جميعا .. اللافتات كلها بحروف عربية طبعا . وتحت لافتة كمرك – أى جمرك .. دخلت . . وانتظرت الحقائب وجاءت . وسألت عن واحد من رجال الصحافة . أو مكتب وزارة الأعلام . وجاء رجل من بعده رجل ، واحد مهذب رقيق جدا اسمه : نظمى .. أو ناظمى . انه يدور حول نفسه – هذا تعبيره – من شدة التعب فهو لم يبرح هذا المطار منذ أيام المهرجان .. وكأننى عندما ذهبت إليه يدلنى على فندق طلب منى أن أدله على سرير لكى ينام . ومع ذلك حاول أن يجد لى فندقا . وأخيرا وجد فندق (سميراميس) واعتذر عنه .. وقال : انه ليس من الدرجة الأولى . ولكن أنت تعرف وأنا أعرف أن الفنادق كلها مشغولة . صحيح أن الناس عند وصولى إلى طهران كانوا جميعا فى مدينة (برسبوليس)

حيث مدينة الخيام الخيالية .. ولكن سوف يعودون إلى الفنادق أو بالعربى الفنادق مشغولة رغم أن نزلاءها فى مكان آخر – فنادق الدرجة الأولى طبعا . ولكن الدوخة لا تهم المهم أن أجد مكانا أستريح فيه ساعة أو ساعتين قبل أن أسافر إلى مدينة الخيام ..

ووعدنى بأن أحدا من وزارة الاعلام سوف يتصل بى عندما أصحو من النوم ، وسوف يحجز لى فى الطائرة المسافرة إلى مدينة شيراز فى آخر اليوم . وبعينين أكثر احمرارا من عينيه . حاولت أن أشكره . فقد كنت أحمل البالطو وحقيبة فى يدى والحقيبة الأخرى فى اليد الثانية .

وكانت الساعة السادسة صباحا .. الهواء فى الشارع وأمام المطار منعش .. لم يكن حارا كما تصورت . ولكن اضطراب المشاعر فى نفسى هو الذى أربك جهاز التكييف الموجود فى جسمى .. ان هذه الورقة الصغيرة التى فى يدى والمكتوب عليها اسم الفندق وإمضاء ناظمى هذا ، قد خفضت درجة الحرارة .

وناديت أحد التاكسيات .. عندما تقدم ناحيتى رجل قصير القامة سمين بكرش ويتحدث باللغة العربية : انت فلان ..

قلت نعم قال : لقد رأيتك وأنت تنزل من سلم الطائرة – فقلت إنه هو .. تلغرافك وصلنى تعال معى ..

ثم التفت إلى الرجل الرقيق ناظمى وقال له باللغة الفارسية ما ترجمه لى بعد ذلك : كتر خيرك . روح أنت نام ياحبيبى .. أنا عندى لوكاندة ينام فيها ساعة أو ساعتين .. وأنا حاحطه فى الطيارة .. كتر خيرك .. روح نام وحمل هذا الرجل الذى بلغ السبعين من عمره حقيبة ثقيلة وسحبنى بما تبقى لديه من قوة .. ووجدت نفسى فى سيارته .. وقبل أن أدخل السيارة قال : جاءتنى برقيتك .

ووصلته البرقية وخرج الرجل من أحد الكباريهات بعد أن شرب عشرين فنجان قهوة . وجاء لينتظرنى فى المطار . وفى الطريق إلى الفندق عرفت أنه يحب مصر . وأن له إبنة تعيش هنا . وأنها متزوجة وأن له إبنا فى أمريكا وأن له شقة فى القاهرة كلفها عشرة آلاف جنيه ديكورات ولوحات . وأنه يجئ إلى القاهرة ليتعاقد مع الراقصات . وأن راقصة مصرية موجودة فى طهران الآن . . وأنه مليونير . وأنه فى صحة جيدة وأنه لايطلب من الله إلاالستر . وأنه مبسوط خالص. وأنه يحب الناس، ولذلك فله أصدقاء فى كل الدنيا . وأنا اعتقد أنه على حق فى حبه للناس . فأنا شخصيا لا أعرف لو جاءتنى برقية من هذا النوع : هل أذهب ؟ وإذا ذهبت فهل أكون راضيا سعيدا ؟

وهل تكون هناك أية قوة باقية فى جسمى أو فى نفسى لكى أجلس أتحدث ساعتين أخريين أثناء تناول الإفطار ..

ذهب تاكى هذا إلى فند الكروان .. الشوارع مزدانة . وأنا أعرف السبب طبعا ومر على نصب تذكارى شكله غريب . وقال أنه متحف . ونطق اسمه . وعرفت فيما بعد أنه نطق الاسم خطأ . النصب التذكارى اسمه — شاهياد — أى نصب تذكارى للشاه . وهو عمل هندسى لشاب إيرانى هذا النصب التذكارى على شكل قاعدة برج به مصاعد كهربية ومتحف تحت ومطعم فوق — والكويت أيضا تبنى برجا مثل برج القاهرة وفى قمته مطعم .

ونظر تاكى إلى ناحية من السيارة وقال : سوف أذهب إلى شارع الفردوسى. وسألته : هل تعرف الفردوسى ؟

— لا .. لكن لازم راجل عظيم ..

والفردوسى هو الشاعر الإيرانى الكبير مؤلف كتاب « الشاهنامة » أى (كتاب الملوك) وسير الملوك من أقدم العصور .. وفيه الكثير من الأساطير القديمة .

***

والمحلات كلها مغلقة .. والشوارع نظيفة ناعمة .. ودخلت السيارة شارعاً ضيقاً .. ووقفت أمام الفندق .. ونادى بعض الموظفين .. وأصدر إليهم أوامره .. واتجهت إلى المطعم . ونادى بالفارسية . وأصدر أوامره . وسأل : ماذا تريد .

وضحك هو قائلا : طبعا تريد أن تنام .. بعدين .. بعد الفطور وجاء الشاى والجبنة والزبد .. والخبز .. وكان معجبا بالطعام جدا . أكل الخبز وشرب الشاى وأكل الزبد وطلب المزيد .. فأكل الخبز والجبنة والزبد .. ثم قال : جميل عارف إزيه .. بيشتغل إيه ؟ قلت : كويس انه أحد نواب رئيس تحرير آخر ساعة .. قال : جميل روحه حلوه خالص .. أنا لما أروح مصر لازم أسهر معاه .. أو .. نسهر للصبح .. أنت ما تعرفش تاكى لما يكون مبسوط بيعمل إيه ولا بيقول إيه .. أوه تاكى .. ما فيش زيه فى الدنيا كلها .. الحمد لله جوزت بنتى .. وجوزت ابنى .. وعندى خمسون فدانا فى مصر وعمارتين .. الحمد لله .. وأنا مبسوط خالص وصحتى كويسة .. الدنيا حلوة . الواحد مش لازم يزعل نفسه .. شوف ماحدش واخد منها حاجة اسأل جميل عارف .. اسأل وهو يقول لك .

وعرفت فيما بعد أنه أكبر فشار . ولعنت جميل عارف ولياليه مع الخواجة تاكى .. وأريد أن أنام .. لا أنا أريد الشاى ولا القهوة ولا أى شئ آخر . أنام فقط يا خواجة .

— أنت لازم تنام — ياريت . — طيب لازم تشرب قهوة . هنا فيه نوع من القهوة . تأخذه من هنا . . وبعدين تاكل رز بلبن مع الملايكة . .

— الله يلعنك ياجميل .

— ليه .. تشتم جميل ؟

— كنت عاوزه ييجى هنا يتفرج على العذاب اللى أنا فيه .

— عذاب .. لا .. عيب ياحبيبى . . أنت هنا حتنبسط خالص .. البلد حلوه . الناس كويسين .. قوم نام .. — الله يخليك يا خواجة تاكى .. — وإذا عزت أى حاجة . أنا نايم هنا لحد الساعة الرابعة .. اطلبنى الساعة الخامسة . — شكرا .. ومعنى ذلك أنه سوف ينام ١٢ ساعة ومن الذى يستطيع أن يجئ إلى طهران ويبقى فيها ١٢ ساعة دون أن يسارع إلى مدينة الخيام الخيالية .. وبعد ذلك ليكن ما يكون ..

ولكن لابد أن أنام .. الغرفة لا بأس بها .. السرير غير مريح . لا يهم .. تركت ملابسى على الأرض . ونمت .. واكتشفت الغرفة . الستائر ثقيلة . الغرفة باردة .

لاصوت لا أحد وأخيرا جاءت الأصوات من بعيد .. أطفال .. وأمهات .. كم الساعة الآن . لابد أنها تجاوزت منتصف النهار . وأنظر فى الساعة ثم أضعها على أذنى .. انها تدور .. اننا فى الثامنة صباحا . عال جدا لقد نمت ساعتين وفى غاية الانتعاش . الآن أستطيع أن أفعل أى شئ . معى فلوس إيرانية . تأكدت من عددها . وفى الإمكان أن أطلب السفارة المصرية ولابد أن أعرف شيئا . كيف انتقل إلى فندق آخر أحسن حالا .. وأن أذهب إلى الملوك والرؤساء واتصلت بالسفارة المصرية . وطلبت الملحق الصحفى وأخيرا جاء صوت رقيق مطمئن . إنه الأستاذ على ماهر . وكانت هذه الصلة بداية سلسلة من الاتصالات الأكيدة . والخطوات المحسوبة . فبعد أن عرفت السفارة بمكانى . أصبح كل شئ سهلا . وتوالت وجوه رجال السفارة الواحد بعد الآخر الأساتذة : محمود شكرى .. والمستشار يحيى رفعت .. ثم السفير سميح أنور .

ولم تعد عندى مشكلة .. فقد اتصلت السفارة بوزارة الأعلام - أو وزارة اطلاعات وجاءنى مندوب الوزارة الأستاذ نور الدين شاهر وردى شاب مهذب رقيق خدوم تلقى علومه فى العراق وهو صديق لكثير من الصحفيين المصريين : ويعرفهم بالواحد .. وفى بعض الأحيان يروى نوادرهم لكل من يلقاه .. وانتقلت إلى فندق فرساى ..

وهو فندق جميل فخم ويواجه (السوبر ماركت) الجديد الذى اسمه كوروش .. أحدث الأسواق الحديثة فى مدينة طهران . وتوالت الاتصالات .

وأصبحت حياتى منذ هذه اللحظة منظمة جدا فى إيران لمدة إثنى عشر يوما . فأنا أعرف بالضبط من الذى أقابله ومتى وأين .. وكل ما أردت أن أراه من معالم إيران القديمة والحديثة أصبح ممكنا ..

وأدركت الأعباء الملقاة على أكتاف وعقل وقلب وأذن وعين كل المسئولين .. انهم فى أيام عصيبة وظروف قاسية .. لا تتكرر إلا مرة كل ٢٥ قرنا .. فلن يتكرر ما حدث فى إيران . ولن يجرؤ أحد أن يكرره .. ومن الحماقة أن يستطيع الإنسان أن يرى هذه المهرجانات ثم يتردد . انها خيال أعجب من أى خيال .. وإن كانت من أجل حقيقة تاريخية يريد الامبراطور أن يضعها فى مكان عميق من الضمير العالمى الذى لا تحكمه إلا القوة .. والذى يتوارى خجلا إذا كان له مبدأ .. فالاحتفالات الإيرانية تذكر الناس ، على كل المستويات بذكرى رجل هو أول من نادى بحقوق الإنسان ، التى قامت عليها الأمم المتحدة ..

***

قبل الذهاب إلى مدينة الخيام : قفوا للتفتيش

فى مطار « مهر أباد » بطهران .. كان لابد أن أذهب قبل الموعد بساعتين ، لماذا ؟ الجواب بسيط جدا : التفتيش . . الحقائب كلها تفتش باليد وألكترونيا والمسافر لابد من تفتيشه بمنتهى الدقة والشدة ..

والكاميرات لابد من فتحها .. الأيدى التفت حول جسمى .. جيوبى .. الجاكت .. البنطلون كتبى أوراقى .. ضغطت عليها الأيدى الخبيرة .. الحذاء أيضا – الجوارب . فكل الكوارث ممكنة . ممكنة فى الطريق إلى حيث ستون من ملوك ورؤساء العالم . فالمسافة من طهران إلى شيراز حوالى ٩٠٠ كيلو . بعض الناس تضايق من التفتيش . ولكن كيف تعرف أية دولة أنك لست مجرما وأنك لا تريد أن تقتل واحدا من الملوك أو الرؤساء .. ان بعض الإيرانيين حاول ذلك فى المؤتمر الصحفى . ولكن السؤال لم يكن هكذا صريحا . وإنما قيل له : إن هناك شبابا متمردا فى إيران .. وكان صاحب السؤال يشير إلى حوادث الشغب . وكان رد الامبراطور : هناك شباب متمرد فى كل مكان .. وفى بلادكم أنتم أيضا .

كما أن الحكومة الإيرانية قد جمعت اللصوص والمشبوهين وأودعتهم السجون . يقال أكثر من عشرين ألفا .. وأبعدتهم تماما عن مدينة شيراز . كما أن الحكومة الإيرانية منعت أبناء كثير من الدول من دخول إيران .

وقد سمعت فى الكويت من الشيخ صباح الأحمد وزير الأعلام والخارجية أن أحد السفراء العرب قد أوقفوه عند حدود إيران ومنعوه من الدخول لاعتبارات الأمن أيضا .

وأن الحكومة الإيرانية قد منعت السياح من دخول إيران فى أيام المهرجان وقبلها بشهور طويلة كما أن الكثير من الأشجار قد جفت أوراقها وحطمت رؤوسها لاعتبارات الأمن العام أيضا .

إذن فهذا الإجراء البسيط فى المطار طبيعى جدا .. أنا أعتقد ذلك .. وتقدمت إلى السيارة ومنها إلى الطائرة .. وعينى من النافذة على الأرض الايرانية .. إنها صحراوية جبلية .. ولكن منها خرجت حضارة عريقة إلى العالم كله ..

وهبطت الطائرة فى مطار شيراز .. ونحن ما نزال على مدى ٦٥ كيلو مترا من مدينة برسبوليس .. حيث الخيام الخرافية الخيالية .

إلّا المياه المعدنية..
وفساتين الامبراطورة

(٢)

استطاع امبراطور إيران أن يقيم وسط النار والشرار الذى أحرق الحدود بين الدول وأشعل النار فى أعصاب العواصم أن يقيم فرحا ليس له نظير فى كل العصور .. وأن يعطى هؤلاء الناس الرؤساء أجازة بالقوة .. وأن يجعل فى الإمكان أن يتجاور فى الأكل والنوم أكثر الناس عداوة واختلافا بمناسبة ذكرى أكثر الدول تسامحا ... واستطاع الامبراطور أن يواجه العالم وشعبه بمنتهى الهدوء والارتياح . صاحب هذا المولد هو : كوروش . فمن أجله أقيمت الاحتفالات والزينات ودعى إلى إيران الملوك والرؤساء والأمراء ..

هذا الرجل هو أول من أنشأ الامبراطورية الفارسية . وأول من نادى بحقوق الإنسان ولكنه فى نفس الوقت هو أعظم رجل دعاية عرفه التاريخ . فهو قد سبق المؤرخين وسجل تاريخه هو بيده . ويقال إن هذا الرجل كان شجاعا وطيبا فى نفس الوقت . كان قويا ورحيما .

ويقال إن والديه ألقيا به فى الجبال فأرضعته كلبة .

ويقال إنه وهو طفل كان يلعب مع عدد من زملائه ثم اختاروه ملكا عليهم . وإذا به يحكم على واحد من الأطفال بالضرب العنيف . ويتولى هو كل هذه العقوبة .

ويقال إنه كان بعيد النظر فقد نصب ابنه قمبيز على العرش وهو مازال طفلا . وذهب فى إحدى حملاته ولم يعد . لقد مات . أو قتلوه .

ويقال إنه عندما ذهب للاستيلاء على مدينة بابل قرر ألا يقتل أحدا بسلاحه . وكل ما فعله أنه جفف مياه النهر ليستولى على الشعب وهو ميت من العطش . ويقال إن سبب تجفيف مياه النهر أنه كان يعبر النهر وسار وراءه بعض خيوله . وقد سقط واحد من هذه الخيول فى الماء من شدة الإرهاق . ومات الحصان . وقرر كوروش أن ينتقم من ماء النهر : فجففه .

يصفه المؤرخ هيرودوت أنه ملك عظيم شجاع . .

ويصفه الفيلسوف أكزنوفون : إنه بعيد النظر ومتسامح . ويصفه المؤلف المسرحى اسكيلوس بأنه ليس بين الفارسيين واحد مثله فى حزمه وعزمه . .

والتوراة فى سفر أشعياء تقول : هكذا قال الرب لمسيحه كوروش الذى أمسكت بيمينه لادوس أمامه أمما وأحفاد ملوك . . لأفتح أمامه الأبواب لكى تعرف انى الرب الذى يدعوك باسمك . .

وسفر « دانيال » يقول : ليكثر سلامكم . . الكل يرتعد أمامه . .

وسفر عزرا يقول : وفى السنة الأولى لكوروش . أوصانى الرب أن ابنى له بيتا فى أورشليم . .

لقد عاش كوروش ومات فى القرن السادس قبل الميلاد . وهذا القرن يسمونه : القرن الذهبى . ففيه ولد كوروش وولد الزعيم الدينى كونفوشيوس فى الصين .

وفى الهند ولد الزعيم بوذا . . وفى اليونان ولد أبو التشريع سولون . وفى إيران ولد الزعيم الدينى زرادشت . وكان كوروش يؤمن بالديانة الزرادشتية أى بعبادة النور . الشمس والنجوم والنار . . ولا تزال الديانة الزرادشتية واحدة من الديانات الرسمية الأربع فى إيران : الإسلام والمسيحية واليهودية والزرادشتية وعندما ذهب كوروش إلى بابل استولى عليها وتجل

كلمة مشهورة بقيت على اسطوانة من الفخار . ترجمة هذه الاسطوانة تؤكد أن الرجل هو الذى أرسى حقوق الإنسان والتسامح الدينى . ولم ينس طبعا أن ينصب نفسه ملك الملوك . ومنذ أيامه وملوك إيران يحملون لقب « ملك الملوك » أى – شاهنشاه ..

الاسطوانة عثرت عليها بعثة بريطانية بالقرب من بابل جنوبى العراق سنة ١٨٧٩ . وبمناسبة احتفالات إيران الأخيرة أتى د . بارنت أمين المتحف البريطانى بها على سبيل الإعارة ، وإن كانت الصحف الإيرانية تطالب بالاستيلاء عليها . وقد وضعت فى متحف « شاهياد » . وحمل الملوك والرؤساء بين هداياهم من شاه إيران نموذجا صغيرا لاسطوانة كوروش .

تقول الاسطوانة : « أنا كوروش العظيم .. عندما أتيت إلى بابل وأنا فى كامل قوتى أقيمت حكومتى فيها بين الأفراح والابتهاجات والاحتفالات وكانت الجيوش التى لا يحصى عددها لا تلقى فى هذه المدينة أية مقاومة ، ولم أسمح لأى إنسان أن ينشر الخوف والرعب فى أرض سومر وأكاد (العراق) .. لقد حرمت الحلال أهل بابل . وبنيت بيوتهم المهدمة ، وأنهيت سوء حالتهم ، وأعدت جميع الناس من .. إلى مدن « شور » وشوس وأكاد وأشتونا وزبعمان ونيورنو ودر حتى أرض كيوتيوم (الأتراك والمغول) وما وراء نهر دجلة التى تعرضت معابدهم المقدسة للمذابح ، وكذلك الآلهة التى كانت بينهم ، أعدتهم جميعا إلى أماكن سكناهم . لقد جمعت جميع ساكنيها وأعدت لهم بيوتهم » .

ولذلك تغنت التوراة بهذا الرجل لأنه أعاد اليهود إلى فلسطين وأنقذهم من الأسر فى بابل ..

وتحولت وتحورت كلمة « كوروش » إلى كوروس وكريس .. وكريست – أى المسيح – ووصفته التوراة بأنه المسيح .

وفى سنة ١٩٥٨ أصبح معروفا أن أنسب سنة للاحتفال بمرور ٢٥ قرنا على إنشاء الامبراطورية الفارسية هو سنة ١٩٦٢ . ولذلك قرر اليونسكو الاحتفال بذكرى كوروش فيما بين ٦٢ و ١٩٦٣ .. ولكن تصادف أن شاهنشاه إيران قد أعد هذا العام ليفجر ثورته البيضاء . أى الإصلاح الشعب الاجتماعى والسياسى من فوق ، يفرضه على الشعب ، قبل أن يفرضه عليه فتكون بذلك ثورة حمراء . ولذلك تأجلت إقامة هذا المهرجان .

فعاد اليونسكو فى دورته الحادية عشرة فى نوفمبر سنة ١٩٧٠ واتخذ قراره رقم ٤٧٢٣ بأن يكون المهرجان فى سنة ١٩٧١ ..

وكذلك قرر المؤتمر الدولى للمستشرقين الذى انعقد فى استراليا .. وقررت إيران أن تكون سنتها الجديدة هى سنة كوروش — السنة التى بدأت يوم ٢١ مارس سنة ١٩٧١ .

وتشكلت لجنة يرأسها ملوك ورؤساء ٦٩ دولة للاحتفال بمرور ٢٥ قرنا على صدور أول وثيقة لحقوق الإنسان والتسامح بين الناس .

واتخذ الاحتفال رمزا لذلك : اسطوانة كوروش المصنوعة من الطين وحولها اللون الأزرق الملكى محددة بخمس وعشرين زهرة . أى خمسة وعشرين قرنا .

أما مكان الاحتفال فسوف يكون فى مدينة برسبوليس (أى مدينة الفرس) . وفى هذه المدينة التى تبعد عن المدينة شيراز بستين كيلو مترا .. توجد بقايا القصر الملكى لكوروش .. وقصر الضيافة .. والقصر الشتوى .. لم يبق من هذه المدينة شئ .. إلا شيئا قليلا جدا . ولابد أن هذه المدينة بأعمدتها القليلة تهز الزائر الأوروبى . وتلخبط عقل الزائر الأمريكى .. ولكن الزائر المصرى لا تهز شعرة فيه .. فعندنا آثار أضخم وأعظم وأفخم من كل هذه الآثار .. ولكن ليس هنا مجال للمفاخرة والمقارنة ..

ولكى يقام هذا الاحتفال العظيم ، كان لابد من إقامة مدينة جديدة .. وتصبح هذه المدينة الجديدة رمزا للحاضر فى قلب هذا الماضى .. أو دعوة لأبناء العصر الحديث للاحتفال بالماضى . ولذلك عندما تحدث امبراطور إيران إلى ضيوفه قال لهم : يا سادة أنتم ضيوف على التاريخ — وهذا صحيح . .

وقد أزيلت الآثار على مساحات من الأرض شاسعة .. حوالى ٥٠٠ فدان .. وقبل ذلك رصف طريق طوله أكثر من ١٢٠ كيلو مترا . ونقلت ألوف الأشجار إلى هذه المنطقة .. نعم غابة كاملة .. هذه الغابة نقلها مهندسون زراعيون فرنسيون . لتكون مدينة الخيام فى حمى هذه الغابة .. وتكون بعيدة عن العيون .. وتكون سياجا منيعا للملوك والرؤساء ..

أما الطرق التى فتحت ورصفت فلم يكن لها قبل ذلك أى وجود .. كانت دروبا على الأرض الصحراوية . هذه الدروب هى بقايا الطريق المعروف باسم طريق الحرير . أى الذى يمتد من أوروبا إلى بكين عاصمة الحرير ، من ألوف السنين .

وإذا كانت هناك أشجار تمتد على جانب من الطريق فقد اقتضت اعتبارات الأمن العام قطعها بحيث لا يزيد ارتفاعها عن متر ونصف متر ..

وأهم من ذلك أن هذه المنطقة — برسبوليس — تحيط بها الجبال والصحارى الملتهبة فكان من الضرورى اخلاؤها تماما من الثعابين والزواحف ولذلك جاءت الطائرات الهليكوبتر ترش هذه المنطقة بالمبيدات الحشرية .

واستغرق ذلك ستة شهور . حتى قضى تماما على الثعابين والعقارب والأبراص قال لى خبراء الثعابين فى « معهد الرازى » انهم هم الذين تولوا القضاء على الثعابين . خوفا على حياة الملوك والرؤساء .. وانهم اضطروا

فى بعض الأحيان إلى النزول من الطائرات والتأكد من وفاة الأفاعى .. فكانوا يقفون أمام الجحور ويضعون الفئران فى هذه الجحور ثم ينتظرون .. وكانت الفئران مربوطة بأسلاك رفيعة ثم يسحبونها بعد ذلك .. وكانت الفئران تخرج سليمة .

ويقال إن هذه المنطقة شهيرة بثعابينها ولذلك كان من الضرورى القضاء عليها أولا .

أما عدد الثعابين فيبلغ حوالى عشرين ألفا .. وقبل بناء مدينة الخيام هذه ، ألقت الحكومة القبض على عدد كبير من المشبوهين . ومن الغريب أن يبلغ عددهم حوالى ٢٥٠٠ شخص . وقد سئل الامبراطور فى مؤتمره الصحفى : لماذا لم يتمكن أهل هذه المنطقة من رؤية المهرجانات ؟ ولم يكن الامبراطور فى حاجة إلى جواب .. ولو كنت منه لقلت : إنهم سيتفرجون عليها فى التليفزيون الملون .. وهى متعة عظيمة جدا . ولابد أن أول شئ سيفعله الامبراطور هو أن يتفرج عليها فى التليفزيون فهى أمتع وأروع .

وشاءت اعتبارات الأمن أيضا إبعاد بعض الناس من قراهم وبيوتهم بالقرب من هذه المنطقة أما الغاضبون أو الساخطون على ذلك فكثيرون وهم من كل بلد وكل مكان وكل عصر يفعلون نفس الشيء فلا يستطيع أحد ولا استطاع أن يرضى الناس كل الوقت أو حتى بعض الوقت .

أما الاستعراضات العسكرية فقد صممها الامبراطور نفسه ومع قواد جيشه . واتفقوا على أن يقدموا عروضا عسكرية للحياة البرية والبحرية أيام كوروش العظيم - أو كوروس الثانى وأن تكون لهم نفس الملابس وأن تكون لحاهم طويلة . أما الملابس فكانت زاهية أنيقة جدا .

وناقشوا فى مسألة لحية كل جندى . وتقدمت شركة يابانية بأنها على استعداد لإمداد الجيش باللحى الصناعية ..

ولكن الأمبراطور أصدر أوامره للجنود بأن يطلقوا لحاهم . وأطلقوا لحاهم ستة أشهر .

أما الزينات فقد تولاها مهندس إنجليزى هذا المهندس من مواليد قرية الشاعر فيتز جيرالد الذى ترجم رباعيات الخيام إلى الإنجليزية .. هذا المهندس الإنجليزى اسمه ونتون أرفين وهو الذى صمم الزينات الجميلة الرائعة .. هو الذى صمم الأشجار والطواويس وريش الطواويس الملونة . وقد عرف هذا المهندس يوم صمم زينات شارع فى لندن يوم الكريسماس سنة ١٩٦٦ ..

ان هذا المهندس الإنجليزى وحده قد صمم زينات طولها ٩٢ كيلو مترا .. أما المصابيح فقد قدمتها شركة فيلبس العالمية واستخدم أسلاكا كهربية طولها ٤٠٠ كيلو متر .. وزنتها ١٤٠ طنا .. أما عدد المصابيح الكهربائية التى استخدمها فهى مليون مصباح .

أما الحرس الامبراطورى فقد صممت ملابسه مؤسسة لانفان — إحدى دور الأزياء الشهيرة وتكلفت البدلة الواحدة ٢٥٠٠ جنيه .. ففيها خيوط من الذهب طولها خمسة كيلومترات .. وكان عدد رجال الحرس الامبراطورى ثلاثة آلاف رجل ..

وهذه المنطقة التى أقيمت فيها مدينة الخيام كانت صحراء جرداء .. لا يعرفها أحد إلا من كتب التاريخ .. ولم يكن يزورها أحد إلا علماء الآثار .. ولا يدرون عنها أى شئ . ولكن الحكومة الإيرانية طبعت كتيبا وصورا ولوحات فنية جميلة أنيقة بأكثر من مليون جنيه ..

وأقامت فندقين من أروع فنادق الدنيا .. الفندق الأول اسمه كوروش ..

والفندق الثانى اسمه داريوش . وفندق داريوش هذا من طابق واحد . ولكن مظهره الخارجى قديم جدا .. ومن الداخل حديث إلى أقصى درجة .

إن أوراق التواليت وردية اللون وفى نعومة الحرير ومتانة القماش — ولدرجة أن الصابون معطر بالرائحة الجديدة — آنفينى — أى اللا متناهى . ولدرجة أن طفاية السجاير ذهبية اللون وتغريك بأن تحتفظ بها — أكثر الناس فعل ذلك.

وهذه الفنادق وغيرها سوف تبقى بعد ذلك فى خدمة السائحين . أما ملابس موظفى الفنادق الجديدة فمن تصميم كريستيان ديور . وواضح أن الملابس أوسع من الشبان الصغار الذين يرتدونها . . ولكنها أنيقة جدا . سألت مدير فندق كوروش : انهم فى غاية السرعة وفى غاية البطء أيضا . . يردون على نداءات الناس بسرعة . ولكن يحققون رغباتهم ببطء . .

وهنا أحس الرجل أننى أجنبى مثله فقال : انهم تمرنوا لمدة شهرين فقط . . وعدد الضيوف أكثر مما يحتمل الفندق . . وهم لم يذوقوا النوم من شهور .

وهو جاء من فيينا لإدارة هذا الفندق وللاعتذار عن كل تقصير يراه الزائر . . ولكن هذا التقصير لا يهم فهو طبيعى . . ولكن الفندق أقيم . . والخدمات ممتازة والأطعمة جيدة . ولن يتكرر ما حدث من هذا العدد الهائل من الملوك والرؤساء وحاشيتهم التى تبلغ المئات .

وحول هذه المنطقة كلها جيش يحرسها من بعيد . . ويشدد الحراسة إلى أقصى درجة وأكثر من ذلك . . إن كل ملك أو رئيس دولة له مرافق . هذا المرافق على اتصال لاسلكى الكترونى بحارس آخر خارج مدينة الخيام ليلا ونهارا . . وغير مسموح لأية طائرة أن تقترب من هذه المنطقة لا ليلا ولا نهارا . ربما فقط طائرة الامبراطور التى يتنقل بها بين هذه المنطقة وطهران لاستقبال الملوك والرؤساء على أن تهبط الطائرة بعيدا عن منطقة الخيام . .

أما الصحفيون ورجال الأعلام . فقد جاءوا جميعا على حسابهم . ولم توجه الدعوة إلا لإثنين فقط هما : لورد تمسون صاحب صحيفة التيمس البريطانية .. وصحفى أمريكى يرأس مجلس إدارة صحيفة التايم الأمريكية . هذان الإثنان فقط . أما بقية الصحفيين فقد جاءوا على حساب مؤسساتهم الصحفية . وإن كانت إيران قد وضعت كل التسهيلات الممكنة تحت تصرفهم

الاتصالات اللاسلكية والبرقيات .. وكان على كل صحفى أن يبعث بست صور إلى السفارة الإيرانية فى بلده .

والسفارة تبعث بخمس صور إلى وزارة الخارجية وإلى القصر الامبراطورى ووزارة الاعلام ولابد أن تكون للصحفى صورة ملونة بالبلاستيك موقعة بإمضاء السكرتير الخاص للامبراطور ورئيس الحرس الامبراطورى ولابد أن يضعها على صدره . وإلا وجد من يسحبه برفق وبلا مناقشة إلى خارج المكان . حدث ذلك مرة واحدة .. وكان السبب أن أحد الصحفيين الأمريكان قد خلع البول‌أوفر من شدة الحر . فاقترب منه أحد الحراس ونبهه إلى ذلك ولكن الصحفى مشغول بالتصوير . وأشار إلى البول‌أوفر ولكن الحارس لم يستمع إلى الإشارة ولم يكن فى استطاعة الصحفى أن يلتفت فأشار برجله إلى البول أوفر .. فظل الحارس يمسك القميص فى وضعه السليم طول الوقت إلى أن تم التصوير . واعتذر الصحفى الأمريكى مبتسما ولم يبتسم الحارس الامبراطورى .

والامبراطور شديد التمسك بالبروتوكول وهو متشدد فى ذلك إلى أقصى درجة ولابد من وضع النياشين فى المقابلات الرسمية .

وقد سمعت من أحد الأمراء العرب الذى قابل الامبراطور أن رجال المراسم نبهوه إلى ضرورة وضع النياشين . ولكن الأمير احتار أين يضعها وهو يرتدى جلبابا أبيض . قالوا له : لابد أن تضعها على الجلباب .

وقال الأمير : ليست عندى نياشين .. وإذا وضعتها فإنها سوف تسحب الجلباب إلى أسفل وتمزقه .. وأصروا ..

وفى يوم اللقاء لم يجدوا النياشين .. وسلم على الامبراطور وهو يقول : أنا أتيت بالنياشين فى يدى ، لأنى لم أجد لها مكانا على صدرى ..

وضحك الامبراطور . ولكنه لم يقل مثلا : ياراجل ولا يهمك .

وطبعا لم يفعل ذلك ..

أما مدينة الخيام نفسها فهى أحدث ما اخترعه الإنسان فى العصر الحديث .

صحيح أن الناس يستخدمون الخيام فى معسكراتهم .. أو فى نزهاتهم .. أو يضعون فيها الكهرباء وأجهزة التكييف فى بعض إمارات الخليج .

وسوف تستخدمها ألمانيا فى الدورة الأوليمبية القادمة فى مدينة ميونيخ لحماية اللاعبين والمشاهدين من تساقط الجليد ، ولكن مثل هذه الخيام التى أقامها الامبراطور فى مدينة برسبوليس ، فشئ لا نظير له فى التاريخ .. وأنه أقام ٥٩ خيمة .

وأقام خيمتين كبيرتين للحفلات .. الأرض التى عليها الخيام مساحتها ٢٥٠ فدانا .. وبين هذه الخيام طرقات واسعة مزروعة .. نقل إليها الزرع ..

وهذه الخيام على شكل زهرة ذات خمس ورقات .. والخيام مصنوعة من البلاستيك غير القابل للاحتراق . والذى يستطيع أن يواجه الريح بشرط ألا تزيد سرعتها على ١٢٠ كيلو مترا فى الساعة .

وبعد طبقة البلاستيك توجد طبقة من الجلد ..

وتحت الجلد توجد طبقة من القطيفة .. والديكورات الداخلية تتغير من واحدة إلى واحدة .. أى بما يتفق مع ذوق وتاريخ الضيف الكبير الذى ينزل فيها ..

ولكن الخيام من الخارج يغلب عليها اللون الأزرق الامبراطورى .. واللون البنى الذهبى أيضا — وهو لون الامبراطور والإمبراطورة .

هذه الخيام استغرق صنعها ستة شهور واشتغل فى إعدادها وتركيبها أكثر من ثلاثة آلاف عامل .

والخيام من تصميم وإعداد شركة يانس الفرنسية المشهورة بصناعة المطاط .

وفى الوقت الذى أقيمت فيه مدينة الخيام حرص الامبراطور على أن يبنى للشعب ٢٥٠٠ مدرسة وأن يدخل النور إلى ٢٥٠٠ قرية .

وأن تتبنى زوجته أسرة مكونة من ٢٥ طفلا جاءوا من كل المقاطعات الإيرانية . وكل خيمة مكونة من غرفتين للنوم .. ودورتين للمياه . واحدة للسيدات والأخرى للرجال . على باب دورة مياه السيدات مرسوم وردة . وعلى باب دورة المياه الأخرى مرسوم سيجار .

وقد تضايقت الامبراطورة فرح من هذين الرسمين .. ورأت فى ذلك جليطة وقلة ذوق ولكن سيبقى كل شئ كما هو ..

وكل خيمة مكيفة الهواء .. أو على الأصح فيها تدفئة . فالجو نهارا حار وفى الليل شديد البرودة . وكثير من الزوار الآسيويين والأفريقيين قد شكوا من برودة الخيام ليلا ..

ولكن الخيمة من الداخل مزدانة بألوان هادئة .. تتفق مع مزاج الضيف الكبير . ولا يوجد شئ يذكر الضيف بأنه فى إيران . وأنه ضيف على ملك الملوك ، وأنه من الخير له أن يغتنم هذه الفرصة ويشعر بالارتياح .

وإلى جوار سرير الضيف توجد نسخة من « رباعيات عمر الخيام » بالإنجليزية . ويوجد دفتر صغير مكتوب عليه : إياك أن تنسى .. وفى هذا

الدفتر توجد المواعيد الضرورية . وتوجد أرقام التليفونات التى يحتاج إليها .. وخصوصا خيمة الطعام أو الخدمات .

إن الحياة القصيرة فى مدينة الخيام تشبه الحياة فوق القمر .. فالأرض كلها صحراوية قاحلة .. أما الخيام فهى أشبه بسفن الفضاء الباهرة الألوان المحكمة المكيفة الهواء ..

والتى تجعلك على صلة بأناس كثيرين فى خدمتك لأن عيونهم عليك طول الوقت ..

حتى الملوك والرؤساء كانوا فى حالة انبهار لما يرون مع أنهم يعيشون فى قمة كل شئ فى بلادهم . ولكن الفخامة والأناقة والذوق والمفاجأة قد جعلتهم لايفيقون من هذا الذهول . إن صور بعض الملوك تجعلك تحس أن شاهنشاه إيران قد حولهم جميعا إلى أطفال ولا ينقصهم إلا المراجيح .. بعضهم كان يتمرجح . وبعضهم كان يركب الخيل . وبعضهم كان يضع مقعده خارج الخيمة ويمتص الآيس كريم ..

ان إمبراطور إيران استطاع أن يعزل هؤلاء السادة عن كل مصائب الدنيا التى تصيب غيرهم .. عن الحروب الباردة والساخنة ..

عن المصائب الداخلية فى بلادهم .. عن أوجاعهم الجسمية والنفسية . وجاءوا وأكلوا وشربوا وعاشوا وضحكوا ونسوا .. وعادوا إلى كل ما ينتظرهم فى بلادهم ..

وكل شئ فى الخيام مصنوع فى فرنسا .. الشئ الوحيد الإيرانى هو المياه المعدنية فقط .. أما عدا ذلك ففرنسى ..

والامبراطورة محبة لفرنسا . فقد تعلمت فى مدرسة الفنون الجميلة فى باريس . كان المفروض أن تكون مهندسة ديكور . ولقيها الامبراطور

فى السفارة الإيرانية بباريس أعجب بها سأل عمن تكون هذه الفتاة : قالوا : يتيمة .. أبوها مات وخالها يعولها .. وأحبها وتزوجها .. وهى مثله تتكلم الفرنسية بطلاقة . فقد تعلم هو فى سويسرا . ومربية أطفالها فرنسية . وهى قد أحدثت فى القصر ما أحدثته جاكلين كنيدى فى البيت الأبيض : أدخلت الذوق الفرنسى ..

وكذلك الطعام فقد جاء من مطاعم ماكسيم فى باريس . وهو أشهر وأغلى مطعم فى العالم والذين استطاعوا أن يدخلوا ويخرجوا منه محترمين قليلون جدا .. وعدد السفرجية الذين يقدمون الطعام ١٢٠ .. والذين يعدون الطعام فى داخل خيمة الطعام ١٢٠ .. والذين يقدمون النبيذ والشمبانيا والقهوة والشاى مائة والذين يديرون تقديم الطعام أربعون . . والذين يخدمون السيدات عشرون ..

أما مفارش السرير فهى من صنع بورتو ، أعظم شركة فرنسية للمنسوجات ..

أما الأطباق فهى من صنع ليموج .. وأما الأكواب فمن الكريستال من صنع باكارا ..

وهناك خيمة للتجميل .. هذه الخيمة بإثنين من الحلاقين هما : الكسندر وكاريتا وقد جاء الإثنان وقاما بتسريح شعور السيدات .. وكان كل منهما يحمل معه ٤٠٠ كيلو جرام من الشعر المستعار وأربعين كيلو من البنس . ومائة كيلو من أدوات التجميل وألف زوج من الرموش الصناعية والأظافر الصناعية .. وكان هناك أكثر من أربعين سشوارا (جهاز تجفيف) ..

أما أدوات التجميل كلها فقد أعدتها شركة اليزابيث أردن . وتقول الامبراطورة فرح أنها هدية منها وعلى سبيل الإعلان ..

وقدمت شركة اليزابيث أردن نوعا من الكريم المصنوع من عسل النحل والبيض ولبن الحمير وخلاصة الخيار وعصير بعض الأبصال . لأول مرة وأطلقت عليه اسم برسبوليس . بعض هذا الكريم يستخدم للوجه .. والبعض الآخر لدهان الساقين ..

أما الأشجار المضاءة حول الخيام وعددها ٣٦٠٠ شجرة فقد قدمتها شركة ترينو الفرنسية هذه الأشجار كلها نقلت من فرنسا ..

وعلى مدخل كل خيمة يوجد على الأقل : عشرة من السفرجية فى انتظار أية اشارة .. ومن المفروض أن يقيم فى هذه الخيام : الملوك والرؤساء والأمراء ورؤساء الوزارات ومندوبو الملوك والرؤساء .

وقد ظلت مدينة باريس تعمل أكثر من سنة ونصف سنة ومعها ٤٢ دارا للأزياء والأناقة والديكور والبلاستيك والأعمال الكهربائية .. كما أن شركة بورتو التى صممت المفارش والمراتب والمخدات قد أعادت هذا التصميم مرتين . وهى نفس الشركة التى اعتمدت عليها جاكلين أوناسيس (كنيدى سابقا) فى تغيير معالم البيت الأبيض .

أما هذه الخيام التى أعدت للضيوف الكبار (٥٩ خيمة) فقد روعى فى تسكينها تطبيق ما ورد فى اتفاقية فيينا سنة ١٨١٥ الخاصة بالبروتوكول .. ولذلك غضب بعض الرؤساء بل أن بعضهم لم يشأ أن يحضر منعا لهذا الحرج .. فرئيس جمهورية فرنسا بعث برئيس وزرائه شابان دلماس الذى جاء هو وعروسه — وإن كان رئيس جمهورية فرنسا ليس فى حاجة إلى حضور الاحتفال فقد سبقته إلى إيران فرنسا كلها .

وامبراطور اليابان بعث بأخيه .. وتطبيقا للبروتوكول وجد مندوب البابا الكاردينال فون فورستنبرج نفسه فى أحد الفنادق لأنه لا يرقى إلى مستوى مندوبى الملوك والرؤساء .. ولما غضب . أسكنوه إحدى الخيام فقال : أما أنا فأنسى ، ولكن الفاتيكان لن ينسى ذلك .

أما رئيس مجلس النواب الألمانى فون هاسل فقد أنزلوه جناحا فى فندق كوروش ، وغضب وسحبوا خيمته وأعطوها للأميرة بلقيس أميرة أفغانستان ..

وكذلك تضايق بعض الملوك والرؤساء من أن نائب رئيس جمهورية الولايات المتحدة قد انتقل من شيراز إلى مدينة الخيام فى طائرة هليكوبتر بينما انتقلوا هم جميعا فى سيارات مرسيدس مكيفة أو فى الأتوبيسات .

وفى الترتيب يجئ ملك لينوسوتو قبل الرئيس بودجورنى رئيس الاتحاد السوفيتى . ولكن الامبراطور حريص على حرفية البروتوكول ولا يقبل فيه أى تغيير أو تعديل .. ويبدو أن الملوك والرؤساء ينسون ذلك أو يحبون أن ينسوا ذلك ..

وكان من الصعب إرضاء هذا العدد الهائل من ممثلى ٦٩ دوله : إمبراطور و٩ ملوك و٥ ملكات و١٣ أميرا و ٨ أميرات ، و١٦ رئيس دولة و٣ رؤساء وزارة و ٤ نواب رئيس جمهورية ووزيران للخارجية واثنان من من حكام العموم واثنان من السلاطين و ٩ من أمراء الخليج ..

والعالم كله كان يتوقع أن نرى الأمبراطورة فرح وقد ارتديت أشيك ما قدمته دور الأزياء العالمية .. وأن تضع كل مجوهرات التاج على رأسها ..

ولكن المفاجأة : أن الأمبراطورة فرح قد اختارت مدام ذو الفقار خياطة خاصة لها ..واختارت كل الأقمشة المشغولة باليد من جميع المقاطعات الإيرانية .. كل الأقمشة وكل التفصيلات وكل الشغل .. بينما كانت الأميرات الإيرانيات حريصات على أن يظهرن بفساتين من صنع ديور ولانفان .. ويحرصن على أن يظهرن علامتى ديور ولانفان فى رقة الفستان .. أميرة واحدة هى التى وضعت علامة ديور على شكل حرف « د » على جانب من الكم الأيسر ..

أما الأحذية والشنط التى حملتها الإمبراطورة فرح فقد كانت كلها من فرنسا .. والولاعة الذهبية المرصعة بالماس فرنسية أيضا .. وهى هدية لها فى عيد ميلادها السابق . والشئ الذى تخجل منه الامبراطورة فرح حقا — وهذه الكلمة من عندها وبالفرنسية — فهى انها ترأس جمعيات مكافحة السرطان والتدخين ومع ذلك فهى تدخن كثيرا وسرا .

وقبل أن يسألها أحد عن سر هذا الإسراف يكون جوابها : أن تكون الإنسانة ملكة ليس متعة طول الوقت .. ان متعتى الحقيقية كانت مرة واحدة ولا يمكن أن توصف أو تنسى يوم أنجبت ولى العهد . وأنا منذ ذلك الوقت أعيش فى ظل هذه التجربة الشخصية والقومية أيضا ..

وقد صبغت الأمبراطورة فرح شعرها باللون الأصفر الميال إلى الأحمر .. فقد كان شعرها أسود تماما . أما سبب ذلك فهى ترى أن الشعر الأسود يجعل ملامحها أكثر بروزا ، خصوصا بعد أن نقص وزنها جدا . أما اللون الأحمر فجعل ملامحها أقل قسوة .. وهى لا تنصح أحدا بأن يكون نحيفا جدا إلا إذا كان ملكا أو ملكة .. لماذا ؟ لم تقل .

وهى شديدة الاعتزاز بقوميتها وأناقتها القومية أيضا . ولذلك دعت إلى مائدتها الكبرى يوم عيد ميلادها كل الفنانين المسئولين عن اناقتها .. أى الذين صمموا فساتينها التى ارتدتها فى مهرجان برسبوليس (٢٢ فستانا)

وقد أهدت الامبرطورة بعض التصميمات الإيرانية للأميرات ..

ولابد أن كل الضيوف قد قدموا الهدايا للأمبراطور والأمبراطورة بمناسبة هذا المهرجان الفريد فى التاريخ ..

أما السيد حسين الشافعى فقد أهدى الامبراطور تمثالا للإله أوزوريس .. وهو تمثال نادر . وأهدى الامبراطورة عقدا من حجر الأميتيست يتوسطه الطفل حوروس وقد وضع إصبعه فى فمه ..

أما الرئيس الهندى فقد أهدى ولى العهد مفتاحا من الذهب لقطار كبير يتسع لخمسين طفلا . القطار مكتوب عليه : إيران — الهند وبالعكس ..

وقد تلقى الملوك والرؤساء هدايا من السجاجيد الشهيرة باسم « نايين » وهى من الصوف والحرير . أكثرها حرير .. وهى أغلى وأجمل أنواع السجاجيد ..

وكانت الحكومة الإيرانية قد طلبت إلى الملوك والرؤساء أن يبعثوا بصورهم . بعضهم أرسل . وقد صنعت إيران لوحات من السجاجيد عليها هذه الصورة . معظم هذه اللوحات صنعت فى شيراز .. وقد وجد رئيس وزراء فرنسا شابان دلماس فى خيمته صورة للرئيس ديجول من السجاد .. مصر لم تبعث بصورة ..

ولكن السيد حسين الشافعى قد تلقى سجادة نايين من رئيس الوزراء .. وهناك هدايا أخرى حملها الضيوف الكبار معهم من بينها : رباعيات الخيام وكتاب « شاهنامه » أى كتاب الملوك للشاعر الإيرانى الفردوسى .. ونموذج من الفخار لاسطوانة كوروش .. وكتاب « أرض الملوك » المطبوع طبعا أنيقا جدا عن الحياة فى إيران القديمة وعلى الرغم من أن يوم الاحتفال والليلة الكبيرة وبرنامج « الصوت والضوء » ومدة الإقامة فى مدينة الخيام كانت معروفة قبل ذلك بشهور ، فإن الملوك والرؤساء . لم يحضروا فى الوقت المحدد . بعضهم جاء قبل الموعد بأيام .. وبعضهم ظل عبئا على أجهزة الأمن بعد المهرجان بأيام ..

وقد فتحت عدسات الكاميرات التليفزيونية الملونة والسينما عيونها الباردة الدقيقة على خيمة الحفلات فى الليلة الأولى لأكبر مهرجان وعيد ميلاد عرفها الإنسان فى كل العصور ففى هذه الليلة التقى ٥٠٠ شخص ضيوف الامبراطور والامبراطورة حول مائدة واحدة كبيرة و ٢٦ مائدة ليحتفلوا بأكبر عيد ميلاد ..

عيد ميلاد كوروش (٢٥٠٠ سنة) عيد ميلاد الامبراطور (٥٢ سنة).. عيد ميلاد الامبراطورة (٣٣ سنة) وقد وضعت أمامهم تورتة وزنها ٣٣ كيلوجراما .. وعيد ميلاد ولى العهد (١٠ سنوات) وعيد ميلاد مدينة طهران (٢٠٠ سنة) .

ولم ير أحد من الملوك والرؤساء والنواب شيئا كهذا لا فى الماضى .. ولا فى الحاضر .. ولا الموسيقى .. ولا الأزياء .. ولا الأسماء العالمية فى الأناقة والسياسة والبترول والصناعة .. ولا حدثت مثل هذه النوادر الطريفة والسخيفة .

أنها ليلة فى عمر كل واحد منهم . ليلة بألف ليلة .

الليلة الكبيرة
فى
الخيمة الكبيرة

(٣)

أكثر المدعوين فى استطاعتهم أن يأكلوا الكافيار الذهبى . . وأن يذبحوا الطاووس . . وأن يجعلوا الخمر تسيل أنهارا . . ولكن أحدا لا يستطيع أن يفعل ذلك بهذا الجمال والأناقة والجرأة .

لاأحد يستطيع أن يدخل التاريخ على أنه صاحب أعظم وأغلى وأشيك مائدة تحت أفخم خيمة وبملايين الجنيهات ، وعلى مشهد من مئات الملايين من الناس فى كل مكان ، لا يفكرون إلا فى شئ واحد هو متى وأين يجئ الموت بالأشعة الذرية .

الشمس طلعت مبكرة على مدينة الخيام . .

فالمنطقة صحراوية . . والسماء صافية . . بينما فى أماكن أخرى من العالم باردة كثيفة السحب . بعض الملوك أحس أنه فى كوكب آخر . الكاميرات ظهرت على أكتاف الكثيرين يحاولون أن ينتهزوا الفرصة ويصوروا العالم الجديد . . وكانت الإمبراطورة تؤكد لهم أن كل شئ سوف يبقى فى مكانه على الأقل إلى نهاية أيام المهرجان : الشمس والرمال والآثار . .

أمر الملك أن يتناول طعام إفطاره أمام الخيمة . . وبسرعة جاءت مناضد جميلة عليها مفارش وردية . . ومقاعد لبنية اللون ونصب كل شئ أمام باب الخيمة . . وجاء العيش المحمر الساخن والزبد والمربى والشاى وضحك وهو يقول للجرسون الفرنسى : لم تصل صحف الصباح بعد .

وكأن الجرسون كان يتوقع هذه النكتة فقدم له راديو يابانيا ضخما ليستمع إلى آخر نشرات الأنباء من إذاعة لندن . .

ولابد أن الملك أحس أن هذه النكتة ليست فى محلها . . فكلاهما ، هو والجرسون أجنبيان فعاد يقول .. بل متعة عظيمة ألا يقرأ الإنسان الصحف وألا يرى الصحفيين .

وكان الصمت إتفاقا على هذا المعنى .

أما زوجة الرئيس سنجور فكانت أول سيدة تذهب إلى صالون التجميل فى صباح يوم المهرجان . . أما صالون التجميل فيشرف عليه الحلاق الفرنسى المشهور الكسندر والأختان الأسبانيتان روز ومارى كاريتا وهناك عدد كبير من الحلاقين . . تسعة من الرجال وأربع من الفتيات .

وعندما دخلت حرم الرئيس سنجور تقدم منها الكسندر . . وانحنى وجاءت فتاة وجلست معها . . وأشار إلى جانب من الصالون وجلست حرم الرئيس سنجور . . ودار الكلام عن الجو . . وبعد الجو عن الشعر الطويل وذلك العصر الذهبى الذى لم يظهر فيه الحلاق . . وكانت زوجة الرئيس سنجور رقيقة فقالت : بل العصر الذهبى هو الذى ظهر فيه الحلاق . . فهو صانع الجمال . . وقالت إنه الرجل الذى يصنع الجمال للرجل أيضا .

وطال الحديث ولم تشأ أن تسأل أحدا إن كان فى الإمكان أن تسوى شعرها وتصنع حماما من الزيت وأن تغير فورمته . .

وانحنت الرؤوس كلها . . وجلست على المقعد ولكن الكلام مايزال دائرا . . ومنعها حياؤها أن تستعجلهم ولكن الذى لم تكن تعرفه ، ولم يشأ أحد أن يقول لها ذلك هو أن كل أدوات التجميل لم تصل بعد من باريس (٤٠٠ كيلوجرام) لحلاق الكسندر ومثلها للأختين كاريتا.. ولكن أثناء جلوس حرم الرئيس سنجور جاءت كل هذه الأدوات من باريس . . وبسرعة بدأت عمليات فك الصناديق وإخراج السشوارات وزجاجات العطور والكريمات . . ولم تشعر هى بذلك .

ثم جاءت الإمبراطورة فرح إلى صالون كاريتا ومعها ابنتها ليلى ، وجلست الأميرة الصغيرة : ملامحها إيرانية تماما ووجهها أبيض وعيناها شديدتا السواد والبياض . . وبسرعة جلست الأميرة الصغيرة على المقعد وطلبت إليها أمها أن تقول صباح الخير لكل الموجودين .. وقالت . . ثم طلبت إليها امها أن تستأذن إن كان فى إمكانها أن تجلس بعد أن جلست . . قالت وتقدمت مارى كاريتا . . وسألت ما الذى تريده أن تفعله لشعرها . . وطلبت الأميرة الصغيرة أن يكون شعرها مثل شعر ماما وضحك الجميع . .

وخرجت الأميرة بعد ربع ساعة ونسيت أن تشكر مارى كاريتا . . فعادت بها أمها مرة أخرى لتشكر كاريتا . . وفعلت . .

وظهر فجأة كلب الإمبراطور هيلاسلاسى يلعب بين الخيام . . وكانت تداعبه زوجة الرئيس الهندى جيرى ويبدو أنها تحب الكلاب وانتهز الأمراء الأوروبيون هذه الفرصة ليلتقطوا صورا للكلب وهو يمشى أمام الإمبراطور . .

وفى هذه الأثناء دخلت عربية صغيرة كهربية تحمل علبة من البلاستيك وفى داخلها زهرة غريبة الشكل والحجم . . والتفت العيون حولها . . ولم يكن من السهل على أحد من رجال الحرس الإمبراطورى أن يشرح لهذه العيون المتطلعة معنى هذا الإهتمام الشديد بالزهرة . .

أما الزهرة فقد جاءت من سيلان فقد اكتشف علماء الزهور فى سيلان نوعا جديدا من الأبصال أطلقوا عليه أسم « تيوليب فرح » تيمنا باسم الإمبراطورة . . وفى عيد ميلادها . فأول أيام المهرجان يصادف عيد ميلاد الإمبراطورة الثالث والثلاثين .

وسيارة أخرى تجئ بسرعة . . وتدخل فى هدوء . . ينزل ضابط من الحرس الوطنى ومعه مظروف كبير . يسأل عن خيمة الأمير فيليب زوج

ملكة بريطانيا وابنة الأمير آن لقد حمل إليها صورا لبعض خيول ملك إيران . وقد اختارت الأميرة واحدا من هذه الخيول . . واتوا لها بصور هذا الحصان الذى ركبته وبعثت لأمها ملكة إنجلترا بصورة لها وهى على ظهر الحصان وتحتها هذه العبارة « العاصفة فوق النار » . .

. أما النار فهو اسم الحصان . .

وأما العاصفة فهذا هو الاسم الذى اختارته لنفسها . .

وخارج مدينة الخيام جلس الصحفيون بكاميراتهم الكبيرة الطويلة . . بعضهم ارتقى أعمدة مدينة برسبوليس من الصباح الباكر ليلتقط صورا لأغرب مجموعة بشرية . . ملوك ورؤساء فى مكان واحد . . ومن جميع أطراف الأرض . . إن أحدا لا يعرف ما الذى يفعله هؤلاء الناس فى صباح كل يوم . . ماذا يلبسون ؟ ماذا يأكلون ؟ ماذا يشربون ؟ . . أى نوع من الحياة فى هذه الخيام التى كأنها بقيت فوق سطح القمر . . كل شئ مأمون . . حتى لو سقط زرار من جاكتة جرسون يظهر على الأرض باهرا . . إن الإمبراطور حريص على ألا يضيع شئ . .

ظهرت فابيولا . . وطاردتها عدسات المصورين . . وبعد لحظات عادت إلى خيمتها لتغير ملابسها ولكن لم يكتشف أحد ما الذى دعاها إلى ذلك . . راح الصحفيون ينادون زميلاتهم الصحفيات ويسألونهن إن كن قد لاحظن شيئا خطأ فى ملابسها . . لا شئ . .

وظهر رئيس الوزراء وعروسه . . إنها لا تضع المساحيق على وجهها . . ولم تشأ أن ترفع حاجبيها فحاجباها غليظان كأنها إيرانية وبشرتها ناعمة مشدودة . . وبسرعة التف حولها الصحفيـــون الفرنسيون والتليفزيون الفرنسى . الصحافة الفرنسية مفضلة على غيرها من الصحف العالمية . . وقد غضبت كل الصحف العالمية.. بعض الصحف الأمريكية قاطعت المهرجان لعنته قبل

تراه وبعد أن رأته ، بعض الصحف الأمريكية قالت إن رئيس وزراء فرنسا كان مكشرا عندما رأى صحفيا أمريكيا ولكنه عند ما سمعه يتكلم الفرنسية بطلاقة رحب به مع أنه كان أمريكيا إذا كانت هذه نكتة فهى سخيفة .

أما الملك بودوان فقد ذهب فى ساعة مبكرة للفرجة على الآثار المجاورة . ووراءه أميران إيطاليان عروسان .. لا أحد يعرفهما ولذلك كان الصحفيون يسألون من هما ؟ فيقال لهما أميران من إيطاليا .

ويتساءل الصحفيون من إيطاليا . . ياه . . وهل ما يزال فى إيطاليا أمراء .

فيقال : فى كل مكان أمراء .

ولا يجد واحد من الصحفيين سببا معقولا لكتابة إسمى الأميرين ..

ثم يتغامزون على الصحفيين الألمان ويقولون لهم

هذان قد أخذا خيمة رئيس مجلس النواب الألمانى .

وفى برودة الصباح تتقلص هذه النكتة وتتجه العيون إلى خيام أخرى ..

ومن الأبواب المفتوحة للخيام تظهر ألوانها الداخلية ..

فخيمة مستر اجينو نائب رئيس الولايات المتحدة يغلب عليها اللون الأزرق ..

وخيمة رئيس وزراء فرنسا شابان دلماس يغلب عليها اللون الرمادى ..

وخيمة الرئيس بودجورنى يغلب عليها اللون الأخضر .

أما الملك ليسوتو واسمه موشوشو الثانى فقد كان يلقى اهتماما خاصا من الصحفيين فهو ملك قد قفز من المجهول لم يسمع عنه أحد شيئا خارج أفريقيا . فقط ذهب لزيارة البابا بيوس السادس فعرف العالم أنه كاثوليكى .. وعندما ذهبت إحدى قريباته لتشترى بعض القبعات من شارع فنيتو بروما لم تجد معها مبلغا كافيا من المال .. ولو حدث ذلك فى لندن ، لوجدت الفتاة

معاملة رقيقة جدا من البائع الإنجليزى .. ولكن فى روما يختلف الموقف تماما . فقد اعتاد الإيطاليون على مثل هذه الحيل .. ولكن سائق سيارتها تدخل وفى يده بطاقة وزارة الخارجية الإيطالية .. ويقول إنها أميرة من إحدى الأسر المالكة الأفريقية .

فقط هنا عرف البوليس والصحف شيئا عن الملك موشوشو الثانى ..

وفى صباح يوم المهرجان طلب الملك موشوشو لبن البقر .. وأتوا له بلبن ساخن كما طلب .. ولكنه قبل أن يقربه من فمه .. قال لا .. هذا لبن ماعز .. ولم يفهم الجرسون الفرنسى فهو لا يفرق بين هذا وذاك .. وجاء جرسون آخر يستوضح الأمر فقال له الملك موشوشو الثانى هذا لبن ماعز .. أنا متأكد من ذلك . . أريد لبن بقر .. إذا لم يوجد فإننى أفضل لبن الأغنام وإلا فهات قطعة من اللحم المشوى الساخن .

وكان شى اللحم أسهل .. رغم أنه أول طلب من نوعه فى الصباح .. لأنه مع اللحم لابد أن تجئ البطاطس والجزر والفاصوليا وأن تتغير معالم المائدة التى أمام الملك .. وأن تتغير الأطباق والملاعق والشوك والسكاكين .. وكان من الضرورى أن يحدث أى شىء وبسرعة وبعد أن تناول الملك طعام إفطاره دخل ليستريح فى فراشه ولم يره أحد إلا على مائدة العشاء .

وأما الأميرة جريس كيللى (أميرة موناكو) فقد كانت هدفا للعيون والكاميرات . . وهى تعلم ذلك فكل حركاتها محسوبة .. وملابسها تصلح للتصوير فى أى وقت .. خرجت مشرقة فى الصباح .. وعندما سمعت صرخات الصحفيين وقفت لتحييهم .. واختارت (الوضع الجميل) أى الذى يناسب المصورين .. وفى الصباح كانت ملابسها زاهية ولكنها ليست لامعة .. فقد جعلت اللمعان فى ابتسامتها وعينيها وكان وراءها الأمير رينيه زوجها .. وسألوها : ماذا أكلت فى الصباح ؟ فقالت : لا آكل .. أشرب فقط .

قالوا : ماذا شربت ؟

قالت : عصير الأناناس .. انني لا أفعل ذلك عادة انها أجازة

فما الذي تفعلينه عادة ؟

وهنا صرخ الأمير رينيه قائلا : أوه .. أنتم لا تعرفون ..

وكأنها تعرف هذه النكتة القديمة ولكن فى نفس الوقت لا تستنكرها .. وعاد يقول : الكثير من الألعاب الرياضية .. واليوجا العنيفة جدا ..

وهنا صرخ الجميع .. أوه ..

أى أنهم عرفوا سر هذا الجمال وهذه الحيوية .. انها الرياضة العنيفة ..

وتقدم منها صحفى هندى ليقول لها .. ولكن هذه الروح الحلوة لايمكن أن تكون من الرياضة العنيفة انها من الروح الحلوة .

وقالت جريس كيللى .. هذه أجمل تحية تلقيتها هذا الصباح ..

وأحس الصحفى الهندى بخيبة أمل فقد كان يتوقع منها أن تقول له مثلا هذه أجمل تحية تلقيتها فى حياتى .

ولهذا الرد الدبلوماسى استحقت من زوجها أن يقبلها .

وقالت جريس كيللى تعلق على هذه القبلة وهذه التحية أيضا ..

وظهرت زوجة رئيس الفليبين وابنتها والكل يتساءل أيهما أجمل.. زوجة رئيس الفليبين أو جريس كيللى .. أكثرهم يقولون زوجة رئيس الفليبين فملامحها رقيقة وبشرتها ناعمة ولونها أسمر خمرى .. أو فى لون قهوة خلطوها باللبن والنبيذ معا .. وابتسامتها حلوة .. أو ابتسامتها دائمة .. وهى تبدو أصغر وأجمل من إبنتها .. بعض الخبثاء يقولون أنها أتت بابنتها التى هى صورة من أبيها . . وبذلك تكون هى وزوجها موجودين فى وقت واحد .

وكان ملوك أوروبا مفتونين بسيدة الفليبين وكانوا يتحدثون إليها بالإنجليزية والأسبانية وكانت تعلم علم اليقين أنها جميلة .. وقد اختارت أشياء كثيرة بعناية تامة . أما شعرها الأسود الكثيف والورود التى تضعها فى الشعر إلى الجانب الأيسر.. فهى تذكر الأوروبيين بالأفلام التى ظهرت فيها بنات هاواى وبنات المحيط الهادى .. أما فساتينها فهى كلها ذات طابع فلبينى .. الأكمام قصيرة مرفوعة منشاة تماما والألوان بهيجة وفى غاية الرقة ..

وكان من الطبيعى أن تسألها إحدى الصحفيات : هل تتبعين رجيما خاصا فى الأكل .

قالت : أبدا

سألتها : رأيت لك صورا قديمة كان جسمك فيها أكثر امتلاء

قالت : هذا صحيح وأنا أحب أن أكون أقل وزنا . . ولكن زوجى يفضل أن أكون أكثر وزنا مع أن هذا يؤدى إلى إتلاف كل فساتينى .. ولكنى انتصرت فى النهاية ..

ـــ هل لك رياضات مفضلة فى الصباح ؟

فأجابت : بعض الرياضة الخاصة بشد الوسط والساقين .. ولكن هذه الألعاب لا تستغرق أكثر من عشر دقائق كل يوم ..

ـــ ولكن أليس لك نظام خاص فى الإفطار ..

قالت : أنا أشرب عصير الأناناس مضافا إليه ملعقة من عسل النحل .. وكوب واحد صغير يشبعنى تماما.. وأنا لا أتناول أى عشاء ومنذ وقت قصير ..

قيل لها ما هو عطرك المفضل ..

قالت : ليس لى عطر مفضل .. ان زوجى هو الذى يختار عطوره المفضلة .

أما الأميرة منى زوجة الملك حسين فقد تركت شعرها الطويل على كتفيها وراحت تتمشى بين الخيام .. ثم لحقها الملك حسين .

أحمر الوجه وفى غاية الحيوية .. عندما صرخ الصحفيون وقف يحييهم . ويطلب إلى زوجته أن تفعل ذلك أيضا .. وعندما خرج الملك حسين هو وزوجته سئل .. هل فى نيتك أن تلتقى بكبار المسئولين هنا .. فأجاب إذا سمحت الظروف .. سئل هل لديك مشروع معين ؟ قال إننى مشغول بأشياء كثيرة أنتم تعرفونها .

– وهل عندك حل سريع ..

وضحك ليقول : الله أعلم ..

وكان ذلك اعتذارا عن الدخول فى أية مناقشة عابرة لقضايا شديدة التعقيد .. واتجه مع زوجته إلى الآثار القديمة لمدينة برسبوليس على مدى أمتار من مدينة الخيام .

أما قبل الظهيرة فكان على الملوك والرؤساء أن يتجهوا جميعا إلى قبر الملك كوروش فى مدينة قديمة اسمها بارسارجاد .. وهو اسم إحدى القبائل التى سكنت هذه المنطقة ..

المسافة بينها وبين برسبوليس تزيد على الستين كيلو مترا .. الطريق مرصوف والأرض قاحلة .. وكل شئ صحراوى .. وفى هذا الجو الصحراوى يلسعك الهواء البارد ، وأشعة الشمس الملتهبة .. الإثنان معا فى وقت واحد .. ولأول مرة فى حياتى أرى الزوبعة أو الإعصار .. هذا العمود الحلزونى الطويل جدا من التراب فالهواء ينزل من جبلين ويصطدم التياران ويدوران معا فى وقت واحد .. ثم يتحركان على شكل عمود من الهواء .. وتشاء الصدفة أن يمر هذا الإعصار بالسيارة .. لقد هزها بعنف .. وعرفت انه يقتل الإنسان والحيوان أيضا فى بعض الأحيان يستغرق هذا الإعصار بعض الوقت .. ويكون هذا الوقت القليل كافيا للقضاء على أى إنسان أو حيوان .

وفى مدينة بسارجاد مسحت الأرض وسويت .. ليطل قبر كوروش عاليا بارزا.. حول القبر أقيمت منصة كبيرة للملوك والرؤساء وأمام القبر امتد شريط أحمر ملكى وعلى هذا الشريط تقدم امبراطور وأمبراطورة وولى عهد إيران . وراح الامبراطور يعاهد كوروش قائلا : يا كوروش العظيم فى استطاعتك أن تنام ، أنت ياملك الملوك نم هانئا : أما أنا ملك الملوك فقد أعلنت اليقظة .. نم فى حمايتى وحماية شعبى ..

وليس سرا أن أقول أنه لا يوجد أى أثر لكوروش هذا .. لا فى قبره ولا تحت القبر .. فقد كانت العادة فى ذلك الوقت أن يدفن الملك فوق القبر ..

وكثير من الملوك والأمراء صعدوا الدرجات العالية لقبر كوروش .. ثم تسللوا إلى باب المقبرة من الداخل فهى مفتوحة .. ووجدوا النقوش فى داخل المقبرة بلغات مختلفة .. أنا شخصيا قرأت هذه العبارة : كل من عليها فان .. صدق الله العظيم .. والإمضاء أحمد عبد الكريم العزى سنة ١٩١٤ م

وكلمات بلغات مختلفة واضحة وغير واضحة ..

ووضع امبراطور إيران إكليلا من الزهور عند قبر الملك كوروش ..

وكانت هذه الزيارة لقبر صاحب هذا المولد . البداية الرسمية للأيام التاريخية التى لم يشهد لها أحد نظيرا فى التاريخ القديم أو الحديث ..

ولم تتردد كثير من الصحف فى العالم كله أن تصف ليالى الامبراطور بليالى ألف ليلة وليلة .. مع ان « ألف ليلة » كانت شيئا ساذجا .. متواضعا جدا .. فبطلة ألف ليلة اسمها شهرزاد .. وزوجها اسمه شهريار وأخوه اسمه شاه زمان .. وهذه جميعا أسماء فارسية .. وعلى الرغم من هذه الأسماء الفارسية.. فإن ليالى ألف ليلة لم تجر إلا فى بغداد وفى القاهرة .. ولم يكن هناك ليلة واحدة فى إيران .. وإن كانت مادة هذه الحكايات قد أخذت من إيران والهند وحلات الخليج والمحيط الهادى .

وفى ألف ليلة تجد هذه الأبيات وصفا لفتاة جميلة خرجت من صندوق فى يد عفريت ..

أشرقت فى الدجى فلاح النهار
واستنارت بنورها الأسحار
من سناها الشموس سرى لما
تنبرى وتتجلى الأقمار
تسجد الكائنات بين يديها
حين تبدو تهتك الأستار
وإذا أومضت بروق حماها
هطلت بالمدامع الأمطار

إذا كان هذا المعنى يعجبك ، فاضربه فى ألف .. فى مليون وأنت تجد أمامك صورة باهرة للخيمة الكبيرة التى يقيم فيها الامبراطور ليلته الكبرى للملوك والرؤساء فى العالم .. ولكن عيب ليالى ألف ليلة فى النهاية أنها خلت من ذوق عشرات المؤسسات الدولية التى تخصصت فى الأناقة والجمال والديكور والعطور .. وإذا تضايقت من هذه العملية الحسابية ، لأن هذه قد أفسدت عليك متعة النظر والاستمتاع فعليك أن تذكر بيتين آخرين فى الليلة الأولى من (ألف ليلة) .

قل لمن يحمل هما
ان هما لا يدوم
مثل ما يفنى السرور
هكذا تفنى الهموم

ولا تنس فى أنك فى بلد عمر الخيام .. وأن شاه إيران قد أعلن أكثر من مرة أنه لا يستطيع أن يقدم العيش والمش للملوك والرؤساء ..

وأن رئيس وزراء إيران قال: نعلم كل ما يقال هنا.. ولكن إيران حريصة على أن تبدو كفتاة جميلة تستعد للقاء حبيب . فهى تريده أن يحتفظ لها بذكرى جميلة غالية .

ولكن لاشئ يدل على ماسوف .. يحدث فى الليلة الكبيرة تحت الخيمة الكبيرة .. فكل واحدة من السيدات قد ارتدت فقط أبسط فساتينها .. أما المفاجأة فسوف تكون على مائدة العشاء.. وهذه المباريات فى الأناقة لا يدخل فيها الرجال عادة .. وربما لا يلاحظونها .. ولكنها تنتهى عادة بأن يقول كل واحد لزوجته .. ان فستانها أبسط وأشيك .. أو إذا أراد أن يكون دبلوماسيا فأسلم كلام هو أن يقول : ياللهول لقد كانت الامبراطورة فرح ديبا رائعة .. كل فساتينها .

وهنا تدور المناقشة بينه وبين زوجته ولكن أى فساتينها أعجبك أكثر .. وهنا يتلخبط الزوج لأنه لم يلاحظ جيدا كل فساتين الإمبراطورة .. ولا أخذ باله من الطول والعرض وفتحة العنق . والأكتاف والكسرات .. ولا الديل . . ولاشئ بالمرة . . ويكون جوابه فستانها الذى ظهرت به اليوم .. فهذا الفستان أقرب إلى ذاكرته

ويكون رد الزوجة ولكنى ارتديت فستانا له نفس اللون منذ أسبوع لم يبد عليك اهتمام به ..

وهذا مطب يقع فيه أى زوج ..

ولكن الإمبراطورة كانت أكثر الناس أناقة وشياكة .. وكانت فساتينها كلها من تصميم سيدة إيرانية وكل الأقمشة جاءت من جميع مقاطعات إيران والشغل الموجود فى الفساتين بأيد إيرانية أيضا .. وإن كانت أميرات الأسرة المالكة قد ارتدين فساتين من باريس ..

ومنذ الرابعة بعد الظهر لم يظهر أحد من الملوك أو الرؤساء .. لقد قبعوا

فى خيامهم .. ولكن الامبراطور هيلاسلاسى لا يزال هو الذى يلف ويدور .. ولعل عادة المشى الطويل هى التى أبقت على رشاقته وعلى صحته الجيدة .. وكذلك بعض أمراء الخليج .. فهم يخرجون اثنين اثنين ولم يظهر واحد منهم على انفراد .

وكلما أقبل الليل ازدادت الأنوار وبرقت ولمعت وبهرت فى كل مكان ..

وعند موعد العشـــاء اتجه الملوك ومعهم ضعف عددهم من ضيوف الامبراطور والامبراطورة من إيران ومن جميع أنحـــاء العالم إلى خيمة الامبراطور والامبراطورة .. والإنحناء ضرورى والتراجع إلى الوراء قليلا ثم السير إلى اليسار وبعد ذلك دخول الخيمة .. وكانت الأميرة جريس كيللى حريصة على أن تركع على ركبتها تحية للامبراطور والامبراطورة .. أما الامبراطور هيلاسلاسى فقد أحنى رأسه بشدة للمضيفين وتوالت الإنحناءات .. أما أمراء الخليج فقد سلموا مع الاحترام وبلا ركوع فالركوع لله وحده . .

وتوالى الملوك والرؤساء والأمراء والسلاطين والشيوخ ونواب الرؤساء والوزراء وكبار المستشرقين والأطباء والفنانين ..

وظهرت بوضوح ملابس الملوك والرؤساء كلهم يرتدى الملابس الرسمية والعسكرية والمدنية .. وتعلقت الميداليات على الصدور أما السيدات فقد ارتدين آخر ما عندهن ..

الامبراطورة ارتدت التاج طبعا الذى اشتركت فى تصميم ألوانه وأحجاره .. وكان فستانها طويلا من البروكار الذهبى المشغول بالبرودرى الأزرق .. وكانت فخورة بهذا الفستان .. وكانت ترد على أسئلة السيدات قائلة .. مصنوع فى إيران من أوله لآخره .. لم تعد بأن تقدم للسيدات خياطتها المعروفه مدام ذو الفقار ..

والأميرة جريس كيللى كانت ترتدى فستانا من اللاميه الأخضر .. أما

تسريحتها المشهورة فكان واضحا أنها مكونة من عدة قصات معا .. ولم تشأ أن تذهب إلى صالون التجميل فقد أتت معها بكل أدوات التجميل وتسريح الشعر وتجفيفه ..

أما عروس رئيس وزراء فرنسا فقد ارتدت فستانا من صنع لانفان .. والفستان اسمه جالا .. وواضح جدا ماركة لانفال عند رقبتها

فهذه هى الموضة الجديدة أن يظهر اسم المحل الذى صمم الفستان نفسه فهو من الساتان فى لون الخوخ ومقفـــل من الظهر بأربعة زراير من نفس لون القماش ..

أما الأميرة إبنة ملكة بريطانيا فقد لفتت العيون أيضا بأناقتها وبساطتها وبريق عينيها .. وقد ارتدت فستانا طويل الأكمام ولما سئلت من الذى فعل لك الفستان أجابت طبعا فى لندن ..

الفستان له أكمام شرقية تشبه أكمام القفاطين المراكشية .. وهو مشغول أيضا ..

وكانت زوجة رئيس الفليبين قد ارتدت فستانا أبيض ورديا .. والفستان مشغول باللؤلؤ . . وقد وضعت عددا من حبات اللؤلؤ الملون عند الصدر وعلى الأكمام .. وكان السؤال هل هو لؤلؤ أو خرز .. وكان جوابها أنه من اللؤلؤ الطبيعى الكبير الحجم .أى اللؤلؤ النادر جدا .. أما ابنتها فقد ارتدت فستانا من الستان الأبيض البنى ووضعت وردة على صدرها.. أما الأم فقد وضعت الوردة فى شعرها ..

وبعد ذلك نودى على الملوك والرؤساء بالاسم .. ليدخلوا اثنين اثنين ..

فنودى على الامبراطورة فرح والامبراطور هيلاسلاسى – سيدة طويلة ورجل قصير . . ثم نودى على الملكة فابيولا والملك حسين سيدة طويلة ورجل أقصر منها ..

وتوالت الأسماء الواحدة بعد الواحد ..

ثم نودى على السيدة حرم السيد حسين الشافعى وأمير الكويت ..

ولم يكن عدد النساء معادلا لعدد الرجال .. ولذلك فقد جاءت بقية الأسماء رجالا مع رجال .. فالسيد حسين الشافعى نودى اسمه مع واحد من أمراء سيام .

أما الخيمة الكبيرة فطولها سبعون مترا وعرضها ثلاثون مترا .. وتعلق فيها الثريات الكهربية التى صنعتها شركة فيليبس والنور فيها يتغير ويقوى ويضعف ويتلون أيضا .. اللون الغالب على الخيمة من الداخل هو اللون الأزرق الملكى والذهبى أيضا .

المائدة الرئيسية طولها ستون مترا مصنوعة من خشب الموجنا .. وشكلها ثعبانى .. وبذلك يستطيع كل إنسان أن يحس أنه فى الصدارة وهناك ست وعشرون مائدة صغيرة جلس عليها ضيوف الامبراطور أيضا .. وهناك أشجار صغيرة فى جوانب الخيمة بعضها من أشجار الموز التى قطعت من أماكن قريبة .. ويبدو أنها قطعت منذ زمن طويل فبعض أوراقها قد ذبلت .. أما هذه الوردة فقد جاءت من هولندا وفى غاية النضارة .

أما هذه الروائح الفرنسية فى كل مكان فهى خليط هائل من العطور الفرنسية ..

الامبراطورة وضعت عطرا اسمه برسبوليس أعد خصيصا لها ..
جريس كيللى وضعت عطرا اسمه (انيفنى) أى اللامتناهى ..

الأميرة آن تضع كابوشار منذ خمس سنوات ولم تغيره ..

فابيولا وضعت عطر مارجريف .. وهو عطرها المفضل منذ عشر سنوات ..

عروس رئيس وزراء فرنسا قد وضعت عطرا مزيجا من الشنشيلا وعطر

ديورسيمو بنسبة واحـد إلى أربعة .. وهى تفضل الكولونيا على العطر .. لأن العطر يضايقها خصوصا انها لا تستخدم كل مواد التجميل.. وتفضل أن تتغذى بشرتها من داخلها لا من الكريمات .

اما أكثر الرجال فقد وضعوا التاباك الألمـانى وهذه ظاهرة غريبة ..

بل إن أمير ليختنشتين الألمـانى الأصل قد ذهب إلى صالون الكسندر وسأله إن كان لديه صابون للحلاقة ماركة تاباك .. وقد اعتذر إليه الكسندر الفرنسى . فلم يخطر على باله أن يطلب إليه أحد ذلك ..

ولـكن التعليمات صريحة بأن كل ما يطلبه أى ضيف يجب أن يعثروا عليه من تحت الأرض وانشقت الأرض وجاء صابون الحلاقة الألمـانى بعد دقائق .. وكان ذلك قبل مائدة العشاء بلحظات ..

وعندما جلس المـلوك والرؤساء إلى موائدهم بعضهم تضايق جدا من مكانه .. ولـكن هذا هو البروتوكول .. كان واضحا أن الاميرة آن تضايقت عندما جاء مقعدها إلى جوار الرئيس تنكو عبد الرحمن (ماليزيا)

وجلست زوجة رئيس وزراء فرنسا إلى جوار أمير البحرين .. ولمـا سئلت ما الذى كنت تتحدثين فيه مع الأمير .

قالت انه رجل ذكى وأنا انتهزتها فرصة لا تمرن على اللغة الانجليزية ..

وعلى مائدة اخرى جلس أحد الشيوخ مع الدكتور كارل فلنجر طبيب الامبراطور ودار الكلام حول : هل صحيح ما يقال عن فوائد الكافيار ؟ وضحك الدكتور فلنجر وقال : الذين جربوه يقولون ذلك .

وأنت الم تأكله ..

قط ..

ولمـاذا .. ؟

لمـاذا .. لأنه يصيبنى بالحساسية ..

ولمـــاذا لا تعالج الحساسية وأنت طبيب عظيم ؟

ليس لهـا علاج إلا الامتناع عن الأطعمة التى تشبهها ..

وكانت هذه المناقشة قد بدأت عندما دخل الجرسونات بملابسهم الأنيقة الفخمة يقدمون طبق الكافيار الذهبى مع بيض السمان .. الكميات كبيرة .. وقد تناول الضيوف بالهناء والشفاء — مائة كيلو جرام من الكافيار الذهبى .. بعضهم كان يتناوله مع كل الوجبات ..

وفى نفس الوقت كان يجئ جرسونات آخرون يقدمون النبيذ ..

النبيذ الذى قدم فى تلك الليلة اسمه إذا كان يهمك الأمر « شاتولا فيناو تشيلد» ١٩٥٤ ولونه وردى ذهبى ومعطر أقرب إلى نبيذ الموزل الألمانى وهـــو أقرب طعما إلى الشمبانيا الفرنسية أرجو أن أكون واضحا ودقيقا .

وإذا كان الأمر لا يزال يشغلك فثمن الزجاجة الواحدة مائة دولار .. أى حوال السبعين جنيها ..

وفى خيمة الطعام ٣٧ ألف زجاجة نبيذ من هذا النوع ..

وهناك ١٧ ألف زجاجة ويسكى من جميع الأصناف .. أغرب هـــذه الأصناف نوع اسمه (من السماء) . وعشرة آلاف زجاجة فرنسى معتق .. جاء معظمه من مقاطعة بورجونيا فى فرنسا .. وبعض المـلوك جاءوا بها هدايا للامبراطور ..

والمفرش الموضوع على المـائدة الـكبير مصنوع ومشغول فى فرنسا .. ولم يحدث أن عرف التاريخ كله مفرشا واحدا طوله ثمانون مترا وعرضه ستة أمتار ..

والأطباق كلها من صنع ليموش .. وقد صنعت لهذه المناسبة التاريخية .. والنقوش على الأطباق تشير إلى هذا المعنى .. فعلى الأطباق اسطوانة كوروش

وحولها ٢٥ زهرة دلالة على مرور ٢٥ قرنا .. بعض الأطباق لها لون وردى ..

أما الأكواب فهى من كريستال باكارا .. العالمى وعلى قاعدة هذه الأكواب إشارة إلى المناسبة التاريخية .

أما هؤلاء السفرجية فبعضهم ترك العمل فى معظم ماكسيم الشهير .. وترأس كل هؤلاء الجرسونات ورؤسائهم أيضا سيدة فرنسية من العائلة المالكة القديمة . .

وقد استهلكت هذه الليلة الكبيرة ٨٠٠ رطل من اللحوم ..

٨٠٠ رطل زبدة ..

ألف علبة قشدة ..

ولم تظهر عباءة واحدة من التى ادعت كثير من العواصم الشرقية والعربية انها قد صنعتها لأميرات الأسرة المالكة الإيرانية .. ولا عباءة صنعت فى بيروت أو فى مراكش .. ولابد أنها فرصة استغلتها بعض دور الأزياء للدعاية .

ولكن الشئ الذى كان يتوقعه وينتظره الجميع فهو الطواويس التى اشترتها ايران من الهند .. الواحد ثمنه ستون جنيها .. وقد اشترت ايران ٩٢ واحدا واشترطت أن يكون صغير السن حتى لا يكون لحمه جافا ..

أما هذه الطواويس فقد أرسلت حية إلى باريس .. فقد اشترط ماكسيم أن يطبخها بعد ذبحها بلحظات والا يضعها فى الثلج مهما كانت الظروف .. ولذلك فهذه الطواويس قد ذبحت وسويت صباح هذا اليوم وحملتها الطائرات من باريس إلى طهران إلى مدينة الخيام فى نفس اليوم .. وكانت هذه هى الرحلة رقم ٢٠١ بين طهران وباريس ..

وجاءت الطواويس فى صناديق من البلاستيك .. كل طاووس ومعه حاشيته من الأرز ولحم الطيور الأخرى ..

وقدم الطاووس على سرفيس من الفضة الخالصة .. الطاووس محمر ومحشو من الداخل بالفواجرا والفستق والجوز وقد التصقت على الطاووس من الخارج ورقة بلاستيك لينة .. وعلى هذا الغطاء البلاستيك أعيد ريش الطاووس كله من أوله لأخره .. يبدو وكأنه ما يزال على قيد الحياة .. وقد أفلح مطعم ماكسيم فى أن يجعل الطواويس كأنها لم تمت ..

وعندما أمتدت أيدى كبار الجرسونات إلى الطاووس وداخله كانوا قد تدربوا على ذلك قبلها بيوم .. ولذلك أمكن اخلاء الطاووس تماما ومايزال البلاستيك فى مكانه ..

اما الدهشة التى علت وجوه الملوك والرؤساء فلابد أن يكون معناها أن طعمه لا يختلف عن بقية الطيور وإن كان من الأفضل الديك الرومى .. أو الخراف التى تتربع على عرش من الأرز والفستق.. ولكن الجميع أكلوه لأول مرة .. وفى استطاعتهم أن يأكلوه بعد ذلك .. أمير أبو ظبى اشترى من حديقة حيوانات الجيزة أربعة طواويس . وشحنت له .. ووصلت ويقال إنها للزينة وليست للأكل .

إنها أكلة غريبة غير متوقعة .. ولابد أن يتحدث عنها من أكلها فيقول لذيذة ..أو عادية ..

ولكن لا يستطيع أن يسكت عن الطاووس وشكله ..

ولو تنبه الملوك والرؤساء إلى الموسيقى التى سبقت الطاووس لأدركوا أنها موسيقى سيمفونية اسمها (برسبوليس) لموسيقار ايرانى عاش معظم سنوات حياته فى باريس .. وهذه السيمفونية قد عرفت سنة ١٩٤٦ فى (البرت هول) بلندن .. وظهر مؤلفها أمين الله حسين (٦٠ سنة) على المسرح وتستغرق حوالى أربعين دقيقة ..

وجاءت الحلوى من التوت والتين .. وأنا لا أدعى العلم بشئون الطهى ولا فهمت الشروح الطويلة التى قيلت فى تفسير الجمع بين التوت والتين مع الفستق فى ملعقة واحدة ..

ولا كيف يمكن أن تكون حلوة ومالحة فى نفس الوقت ولا تعرف إن كان السكر هو الذى أضيف إلى الملح أو الملح أضيف إلى السكر .. وإذا حاولت أن تفهم أكثر وجدت من يهز لك رأسه ويقول سيدى إنه ماكسيم ..

ومعناها أن هذا سر وسحر ماكسيم ..

اما التورتة الكبرى فهى بمناسبة عيد ميلاد الامبراطورة .. وزنها وطولها لهما علاقة برقم ٣٣ الذى هو عيد ميلاد الامبراطورة .. على كل حال وزنها ٣٣ كيلو جراما .. وبها ٢٢ شكلا هندسيا .. أما شكل التورتة فهو من تصميم الامبراطورة .. وقد صممتها الامبراطورة بحيث يمكن تقسيمها إلى ٣٣ قطعة وكل قطعة يمكن تقسيمها إلى ٣٣ قطعة أخرى وهو بالضبط عدد المدعوين فى هذه الليلة الكبرى ..

وكان من المفروض أن يبقى العشاء ثلاث ساعات ونصف ساعة .. ولكن الملوك والرؤساء لم يتحركوا الا بعد خمس ساعات ونصف ساعة ..

وبعدها انتقلوا إلى خيامهم .. استعدادا لسماع برنامج (الصوت والضوء) وهو فرنسى التسجيلات والأصوات والأضواء .. والصوت والضوء يحكيان قصة آثار مدينة برسبوليس ودخول الإسكندر الأكبر الذى أطاح بالمدينة .. لدرجة أن الكثير من النقوش لم تتم .. والسبب فى ذلك أن الاسكندر جاء فتوقف كل فنان عن عمله ..

وفى الصوت والضوء نستمع إلى صوت روبير حسين وأصوات أخرى جميلة معبرة .

وكل ما نسمعه من حوار هو من إعداد اندريه كاستيلو ..

الجو شديد البرودة .. بعض الملوك والرؤساء طلب كمية من الكونياك والفودكا والروم قبل أن يذهب لسماع الصوت ورؤية الضوء فى الهواء الطلق .. فالجو بارد جداً ولذلك ذهب كل واحد وقد ارتدى البالطو ويوجد على مقعده بطانية .. والبطانية الواحدة لم تكن كافية .. ولذلك أسرع الحرس والجرسونات ليأتوا بمزيد من البطاطين ..

وظل العرض ساعة وراء ساعة .. بعضهم نام من شدة البرد .. وعندما سمع الامبراطور العطس والسعال المتوالى .. أدرك أنه يجب الا ينقص عدد الملوك والرؤساء واحدا .. وفى نفس الوقت الا يمرضوا فتطول إقامتهم أكثر من اللازم ..

ونهض الامبراطور ومن بعده الامبراطورة والملوك والرؤساء .. واحدا واحدا .. وكان البرد أقوى من الجميع ..

ولذلك ذهبوا إلى الخيام .. أحدث ما صنع الإنسان فى إحدى ضواحى باريس وجاءت على ستين عربة لورى من فرنسا إلى طهران فى رحلة استغرقت ٣٠٠ ساعة متواصلة عبر الدول الأوروبية والآسيوية .

وبسرعة جاء عدد من الأطباء ومعهم كل العقاقير الضرورية للبرد والزكام والاسهال والانفلونزا .. وفى ساعة متأخرة من اليوم التالى دبت الحياة بين الخيام .. وفى الخيام .. لقد ناموا طويلا .. ليصحوا تحت سماء صافية . وشمس حارقة والوان زاهية .. وكان انشط الجميع هو الامبراطور هيلاسلاسى .. ثم الرئيس بودجورنى والأميرة جريس والملك حسين .. وقد حملوا كاميراتهم ليعاودوا التصوير من جديد وعلى مهل ..

وكان عليهم أن يروا بعد ذلك أهم معالم مدينة مجاورة لهم .. مدينة شيراز اجمل وأروع وأعرق مدن ايران .. انها مدينة البلابل والزهور ..

مدينة الشاعرين سعدى وحافظ .. مدينة تجرى فى عروقها الموسيقى والنبيذ .. أن شيراز هى نصف الدنيا ..

ينام الشعراء
وتصحو البلابل

(٤)

أنت لم تشاهد مدينة شيراز .. أنت لا تعرف نصف الدنيـا .. هكذا يقول أهلها ولا سمعت نصف الحكمة إذا لم تنصت إلى شبابها .. ولا عرفت لون العنب وطعم النبيذ ونشوة الخمور .. إذا لم تذهب إلى حيث ينام .. الشاعر سعدى .. والشاعر حافظ .. أنت لا تفهم معنى الكيمياء إلا إذا وقفت تحت اشجار البرتقال وامتلأت حواسك وفاضت بالعطر والحرير والغناء والزهد فى كل شئ إلا أن تكون محبا عاشقا .. انهم هنا يقولون نصف الدنيا لك إذا كنت عاشقا .. والنصف الآخر لك إذا كنت معشوقا .. وكل واحد هنا هو دنيا كاملة .. انهم يقولون .. وهم لذلك سعداء ..

لكل سؤال جواب عند شاعرهم سعدى ..

حدث نفس الشئ مرة أخرى .. فعندما كنت فى روسيا زرت جمهورية أوزبكستان .. وكانت ترافقنى إحدى المترجمات وكان من أهم الأشياء التى تحرص على أن أراها مساجد سمرقند . . وبخارى . . وكان الجليد يغطى الأرض شبرا شبرا . ودرجة البرودة اطبقت شفتى وجمدت لسانى .. فكانت كلما اقترحت فكرة هززت رأسى موافقا فأنا لا استطيع أن أعبر لها عن موافقتى بفمى أو يدى ..

ولكن المترجمة لاحظت أننى أنظر إلى المساجد بشئ من عدم الاهتمام .. مرة أراها ببعض العين ومرة أراها ولا اسمعها .. أى لا اسمع ما تقوله المترجمة ولم يكن من الصعب عليها أن تسألنى .. الاحظ أنك ولا أنت هنا ..

واعترفت لها بأننى جئت من مدينة بها عشرون ألف مسجد .. وبها

جامع الأزهر ومساجد أخرى لاتعرفها. واندهشت .. ولم تفهم .. ولم أحاول أن أجعلها تفهم .. خصوصا عندما قالت لى .. إن الفرنسيين عندما يجيئون إلى هذه البلاد يطلبون رؤية المساجد قبل أى شئ آخر .

وحذفت المترجمة كل المساجد التى كان من الضرورى أن أراها .. خصوصا أن هذه المساجد مرهقة .. ولا أعرف لمـاذا يضعونها فى مكان مرتفع جدا .. ثم يجعلون الصعود إليها نوعا من التعذيب الشديد .. وهى أماكن مهجورة باردة وعليها آيات قرآنية وأحاديث وبها اخطاء كثيرة أو هكذا بدا لى ..

وكان من الصعب على طبعا أن أقابل حماسها الشديد واخلاصها فى عملها بهز الكتفين واطباق الشفتين ودفن لسانى بينهما .. كنت أفتعل الحماس .. واخيرا جاهرت بأننى لا أريد ولا أجد شيئا يبهرنى ..

وحاولت ذلك مرة أخرى فى مدينة شيراز وشيراز هى بداية الطريق الجميل جدا إلى مدينة الخيام فقد تفنن المهندسون فى زيناتها .. بل إن أروع الزينات فى ايران كلها فى شيراز .. فقد استخدمت شركة فيليبس انواعا من المصابيح جديدة .. فهى ليست باهرة وليس لهـا لون صريح .. فالأصفر باهت .. والأزرق سماوى والأحمر فى لون الشفق .. وقد اتخذت هـــذه الزينات شكل أجنحة الطيور والطائرات .. وربما كانت مستوحاة من الطاووس .. أو من أن كل الملوك والرؤساء يهبطون بطائراتهم فى مدينة شيراز قبل ذهابهم بالسيارات أو الاوتوبيسات إلى مدينة الخيام .

أن شيراز من أقدم المدن الايرانية .. وهناك مثل يقول عندما كانت شيراز أم الدنيا .. كانت القاهرة إحدى ضواحيها ..

وعلينا أن نسمع مثل هذه العبارات ولا نقول شيئا .. انهم معتزون بمدينتهم وهذا طبيعى صحيح أن شيراز تقع على نفس خط عرض القاهرة . .

ولكنها أعلى منها بحوالى ٥٠٠٠ قدم فوق سطح البحر .. ولذلك فالجو فيها بارد ليلا نهاراً ودافئ نهاراً .. أو شديد الحرارة صحراوى فى الصيف .

وفى شيراز .. أو بالقرب منها أحدث فنادق العالم .. أقيمت من أجل الضيوف وحاشية الملوك والرؤساء وحاشية صاحبة الجلالة الصحافة ..

ولكن المدينة نفسها قديمة . . فارسية مائة فى المائة . . أن تنظر إلى الوجوه .. فهؤلاء نوع من البدو.. ويمكنك أن تقول انهم نوع من الغجر وهم أحب الناس إلى قلبى . . هؤلاء الغجر . . هؤلاء الذين يعيشون على اطراف المدن . . لا هم من أهلها ولا هم مطرودون منها . . وإنما هم على الحدود .. على الحافة . . على المنطقة الرقيقة بين القانون والخروج على القانون . . من اين جاءوا . . لا أحد يعرف . . إلى اين يذهبون . . لا أنت تعرف ولا هم يعرفون . . انهم غجر . . يحملون متاعهم القليل إلى أى مكان . . ينامون تحت أى شئ . . ويشربون من أى نبع ويتحركون كما تتحرك الكرة الأرضية . . إلى الأبد بلا هدف تعرفه . . انها تتحرك فقط . . وهؤلاء الغجر بشعرهم الأسود . . وحواجبهم الغليظة السوداء . . وملامحهم الخليط من الفارسى والمغولى والآرى .. وخليط من كل شئ .. ولهم صلابة الجبال ونعومة الرمال .. وحرارة الشمس وزمهرير الليـــل .. ماذا يريدون من هذه المدينة .. لا شئ .. فقط يريدون أن يشتروا بعض الأغطية والقبعات .. وفى مدينة شيراز هذه سوق فارسية عجيبة .. تذكرك بموسيقى رمسكى كورساكوف .. فيها هيصة .. وإيقاع جميل من الألوان والعطور .. عجزت عن وصفه ألف ليلة وليلة .. والسوق له شوارع ضيقة .. وعلى الجانبين شلالات من الألوان الزاهية على شكل أقمشة وسجاجيد وفوانيس .. وهنا يحب الناس الألوان ولا يملونها .. وإن كانت ألوانهم هم واحدة .. بياض الوجه وسواد العينين والشعر ..

لم أر الوجه وسواد العينين .. وكنت أتصورهم كذلك .. ولا أعرف

من أين جاءت هذه الفكرة . . ربما كان ذلك أنى تصورت أن الآريين جميعا زرق العيون وكلمة ايران معناه بلد الآريين .

وهؤلاء الغجر يمشون فى موكب واحد .. والناس يشيرون إليهم فى صمت : هؤلاء غجر .. ولو نظرت إلى وجوه الناس لما وجدت احدا يحتقرهم أو يشمئز منهم . . أو يعجب لحالهم . . انهم جماعة فى حالهـا . . وفى ايران مئات الجماعات المنعزلة التى تعيش فى حالها دينيا أو لغويا .. الأرض واسعة والقلوب أوسع من الأرض ..

وفى السوق مكتبة لبيع الكتب العربية سألنى صاحبها : هل تعرف الخانجى ؟

قلت : نعم

هل تعرف الحلبى ؟

نعم ..

هل تريد أن تشترى بعض الكتب ..

نعم

ولـكنى لم أجد كتبا تستحق القراءة .. فكلها مخطوطات قديمة .. ومنشورات لـكتب فى السيرة أو التفسير عندنا مئات الألوف منها وأفضل منها ..

وفى إحدى المـكتبات توقفت عند كتاب موضوعه مغامرة مضيفتين فى إحدى شركات الطيران .. المغامرة مثيرة ولكنها لم تخل من الدعاية السياسية ومن غير مناسبة فيها هجوم على مصر وعلى العرب .. والكتاب أمريكى ومن ثلاثة أجزاء ..

ولـكن فى كل هذه الكتب تجد دواوين شعراء ايران .. الفردوسى وسعدى وحافظ الشيرازى وعمر الخيـام .. وهناك ترجمات وطبعات رائعة لشعر أشهر شعراء ايران ..

وفى الحضارة الإسلامية عدد كبير جدا من أبناء ايران قد أضافوا الجديد والعميق والمثير إلى الشرق والغرب..

مثلا فى علوم النحو سيبويه والكسائى والفراء والزمخشرى .

وفى الشعر والنثر : عمر الخيام وأبو نواس وبشار بن برد وابن الرومى وبديع الزمان وابن المقفع .

وفى اللغة : ابن قتيبة والجوهرى وابن فارس .

وفى الفقه : أبو حنيفة والغزالى والنسفى والشهرستانى .

وفى الأحاديث النبوية : البخارى .

وفى علوم التاريخ الطبرى والبلاذرى والدينورى .

وفى الرياضيات فجر الدين الرازى وأبو ريحان البيرونى (الذى عقد له مؤتمر أخيرا فى الهند وحضره من الكويت العالم المصرى الدكتور عبد الفتاح اسماعيل مدير جامعة الكويت) ونصر الدين الطوسى .

اما الشعراء غير الفردوسى وعمر الخيام وسعدى وحافظ فهم رودكى ودقيقى والترمذى ومنطقى الرازى وغضائرى وعنصرى ومسجدى وخاقانى ومحمد إقبال وباسمى ومحمد بهاز وغيرهم .

وفى الفلسفة ابن سينا ..

ولكن مدينة شيراز هذه تفخر بأن الملوك والرؤساء زاروها وتوقفوا عندها .. وطلبوا أن يتحركوا على مسئوليتهم فيها .. وانها أمان ولا خوف على أحد من أحد إذا دخل إليها .. ولكن هان فيها أعز أبنائها عليها ..

الشاعر السعدى الشيرازى ..

والشاعر حافظ الشيرازى ..

وأهل شيراز يرون أن من الطبيعى أن يكون أبناؤها يحبون الشعر ..

و يكونوا شعراء .. فهى مدينة العنب والنبيذ والورد والبلابل .. ومن مئات السنين كان فى شيراز شركات انجليزية وهولندية وبرتغالية لتصدير عنب شيراز إلى أوروبا .. فالعنب له لون خاص .. أحمر .. وأقرب إلى الكريز منه الى العنب .. والناس هنا يشربون النبيذ ونبيذ شيراز أفضل بكثير جدا من نبيذ إيطاليا وفرنسا .. فالنبيذ الإيطالى أثقل والنبيذ الفرنسى أخف .. ولكن نبيذ شيراز أقرب إلى النبيذ الألمـانى الشهير موزل .. وهذا النبيذ هو أغلى من الشمبانيا وله رائحة معطرة ..

وكان الشاعر سعدى يقول .. إن السماء نفسها تسكر من نبيذ شيراز ..

وكان الشاعريقول : وكيف لا تغنى البلابل انها تشرب من ماء شيراز ..

إن الشاعر سعدى قد عاش أكثر من مائة سنة .. ولمـا سئل عن ذلك قال .. أحببت كثيرا ولا شئ كالحب يطيل العمر .. أن الكراهية تقصف العمر .. والحقد يدفنه .. احبوا .. احبوا .. تطل أعماركم .

وأهل شيراز يزورون قبر الشاعر سعدى .. لا على أنه شاعر عاش فى القرن الثانى عشر ومات فى الثالث عشر .. ولكن على أنه من أوليـاء الله الصالحين .. وكيف لا يكون وليـا من يقول (آمنت بالله خالق كل شئ آمنت بالله خالق الورق والزهر والعصفور والدمعة والنشوة والسعادة والألم .. آمنت بالله الذى جعل نوره فى كل قلب .. آمنت بالله الذى جعل القلب هادينا إلى نعمته الخالدة وإلى الامتنان له حتى الموت) .

والشعراء فى ايران هم أصحاب المقابر الجميلة .. المقابر التى تغرى بالموت .. إن مقبرة سعدى حديقة واسعة .. الطريق إليها مرصوف بالظلط الملون .. على الباب جلس رجل يبيع التذاكر للزوار وصور المقبرة .. وصور الحديقة .. وديوان (حديقة الورد) للشاعر سعدى .. أجمل وأروع واحكم ما كتب إنسان .. فالديوان ملئ بالنوادر والحكم والموعظة الحسنة عن اخلاق الملوك والرؤساء والأمراء .. والأصدقاء والاعداء والجمال

والنبيذ والشعر .. وعلى جانبى الطريق اشجار البرتقال واشجار العنب .. وهذه البلابل قد سبقتك إلى مقبرة أروع البلابل الايرانية .. إن هذه الأصوات التى تسمعها ليست تسجيلا صوتيا .. أو ليست اسطوانات معلقة على الأشجار ومناقير البلابل كالابر تدور تحتها ..

اما الزحام على المقبرة فهم أهل شيراز .. يدورون حول الضريح المصنوع من الرخام .. وعليه أبيات من شعر سعدى .. والضريح مفتوح الأبواب .. وعلى الجدران أبيات من الشعر باللغة الفارسية ..

وكان يرافقنى شاب متحمس سألته: وما الذى يقصده بالخمر ؟

وقال: إن سعدى لا يشرب الخمر .. إن الخمر معناها النشوة .. ومعناها أقصى درجات الحب .. إن المستشرقين هم الذين اساءوا إليه عندما قالوا إنه يشرب الخمر .

إذن فهذا الشاب يرى الشاعر سعدى أحد أولياء الله الصالحين ولو كان الشاعر حيا لرفض هذا الشرف العظيم .. إنه شاعر يشرب من ماء الأرض ويغنى للسماء .. وهو نشوان بنعمة الله .

اما هذا الخرير الذى تسمعه وأنت تهبط درجات قبر الشاعر سعدى الشيرازى فيقال إنها مياه مقدسة .. وهذه المياه تغسل الذنوب .. بعض الناس يغتسلون بها فى يوم الأربعاء الأخير من كل سنة .. ويقال أن هناك أسماكا مقدسة تعيش فى هذه المياه .. وأن احدا لا يمد يده إليها .. فكل شئ هنا مقدس فهنا قبر الشاعر العظيم سعدى أفخر مفاخر مدينة شيراز ..

وعندما جاء ملك الدنمرك لزيارة قبر سعدى قيل له .. هل أنت شاعر ؟ فأجاب كنت أنظم الشعر وأنا صغير فقيل له: إن سعدى يحب أن يسمع شعرك ..

ولم يناقش الملك ذلك فقال: ولكنه باللغة الدنمركية ..

فقال رجل كبير فى السن .. سعدى يعرف كل اللغات .. إنه هو الذى قال .. الشعراء والمعجبون يتفاهمون بغير الكلام ..

فلما قال ملك الدنمرك: ولكنى لا أذكرمنه شيئا .. قال له حارس قبر سعدى : ولكن سعدى يقول : إن الشاعر ليس فى حاجة إلى ذاكرة .. إن الذى ينساه يولد فيه من جديد ..

ولـمـا قال ملك الدنمرك : ولكنى لا أرقى إلى مستوى شاعركم الكبير ..

قال له حارس قبرسعدى: ولكن سعدى يقول فى كل الأكواب الشفافة يكون لون النبيذ واحدا .. القليل فى لون الكثير .. والكثير فى لون القليل ..

ولـمـا قال ملك الدنمرك: إذن لابد أن أعتذر لشاعركم الكبير .. فقد نسيت الآن كل ما كان يدور فى رأسى من شعرى أو شعر غيرى .

فقال حارس مقبرة سعدى : ولكن سعدى يقول : إن المحب لا يعجز أن يجد كلمة يقولها لحبيبه بيده .. بعينه .. حتى لو تنهد قال هذا يكفى دلالة على أن شيئا فى أعماقه قد خرج من غير إرادة ..

وقال ملك الدنمرك : إن سعدى ليس هو الشاعر الوحيد فى شيراز .. فكلكم شعراء ..

فقال له حارس مقبرة سعدى : ولكن سعدى يقول .. ينتشى من النبيذ من يشربه ومن يصنعه ومن يسعده الحظ بالنظر إليه ..

ومن الغريب أن قطرات من المطر قد هبطت من السماء فى هذه اللحظة .. ولـمـا سأل ملك الدنمرك أن كان هذا موعد سقوط المطر هنا قيل له .. ولكن سعدى يقول السماء وقلوب المحبين وعناقيد العنب تتساقط حباتها عندما تنضج .. فلا تضيع وقتا فى انتظـارها .. اصعد إليها .. المحبون وحدهم القادرون على أن يأتوا بالصيف فى الشتاء وبالشتاء فى الصيف .. والمحبون

وحدهم القادرون على أن يجعلوا عناقيد العنب هى كاسات النبيذ .. والمحبون وحدهم القادرون على أن يشربوا دموعهم وينتشوا .. كذلك تفعل البلابل .

وحارس مقبرة سعدى ليس أعجوبة بين أهل شيراز .. كلهم يفعل ذلك .. فلا تكاد تتحدث إلى واحد منهم حتى يقول لك سعدى قال ..

وكذلك فى أوروبا فى العصور الوسطى كانوا يحسمون كل خلاف بأن يقولوا : هكذا قال أرسطو ..

وعند سماع اسم الفليسوف اليونانى أرسطو .. يجب أن ينتهى الخلاف .. لأنه قد فكر ودبر واتخذ قرارا وهذا القرار نهائى ..

حاولت أن أداعب الشاب المرافق لنـــا ..

فقلت له : وماذا قال سعدى فى الجائع الذى يريد أن يأكل طبقا ايرانيا ؟

قال سعدى : من جاء إلى شيراز فليس فى حاجة إلى أن يأكل أو يشرب .. عطرها يروى .. وهواؤها ينعش .. ونبيذها يفتح العين ..

فقلت : وإذا كان قد جاء إلى شيراز ويشعر بالجوع والتعب والرغبة فى النوم لأنه لم ينم منذ يومين .. فما قول سعدى فى ذلك ؟

قال : يقول سعدى .. كم عيون سهرت .. وقلوب نامت .. كم قلوب سهرت وعيون اقتلعت .. إن المحبين هم الذين لا يعرفون النوم لأنهم لا يعرفون اليقظة .. ولا يعرفون الجوع لأنهم لا يعرفون الشبع .

اما الشاعر الآخر لمدينة شيراز فهو حافظ الشيرازى.. وقد سمى حافظا لأنه حفظ القرآن الكريم .. وحافظ شاعر غنائى رقيق وليس فى ايران من لا يحفظ شعر حافظ ويتغنى به ..

وقبر حافظ هو روضة من رياض ايران .. الأشجار عالية .. والطيـــور تغنى من تلقاء نفسها .. ويقولون انها فى الشتاء تغنى أيضا .. إن حافظ يقول ..

ن يمنع البلابل من تغريدها .. من يمنع الشمس من شروقها .. من يمنع الشاعر من شدوه .. من يمنع العين من دمعها .. من يمنع الروح من اناتها .. من يمنع البلابل أن تغرد بالقرب من الشعراء ..

والناس يذهبون إلى قبر حافظ كما يذهبون إلى اضرحة الأولياء والشهداء ويكفي أن يذهب الواحد إلى قبر حافظ ويشكو من عذابه .. ويشكو له . ويشكوه إلى صديق فيقول .. يا حافظ يا حاج حافظ .. آلامى مبرحة .. أوجاعى .. يا حافظ .. يا على .

اما (يا على) هذه فلابد منها .. لأن ايران شيعية .. وعلى بن أبى طالب هو نورهم الذى يهتدون به .. وعلى بن أبى طالب مكتوب على كل لسان وعلى كل مسجد .. وعلى هو الذى يربط ايران بالعراق .. وهذا الإرتباط هو مصدر التعاسة والقداسة معا .. فالشيعة يتجهون إلى النجف وكربلاء إلى حيث يرقد جثمان على رضى الله عنه وأولاده الشهداء .. يذهبون إلى هذه الأراضى المقدسة أغنياء وفقراء يضعون الذهب والماس وكل الأحجار الكريمة .. ويحملون افخم السجاجيد ليعيشوا عليها هناك ..

حاول بعض الملوك والرؤساء زيارة مسجد الجمعة المشهور .. ولكن قيل له .. صعب .. فقال على مسئوليتى .. قيــل له أصعب .. فقال إذن سوف اتسلل إليه ..

قالوا .. مستحيل .. لأننا نسير وراءك .. ثم إنه لابد أن تكون مسلما ..

فقال .. هذا هو المستحيل ..

فمسجد الجمعة لا يدخله الا المسلمون .. وأحيانا الا الشيعة .. ومن السهل جدا أن يعرفوا المسلم الشيعى والمسلم السنى .. فالشيعى إذا وقف ليقرأ الفاتحة فإنه يضم يديه أمامه وكثيرا ما وجد المسلم السنى العيون وقد اتجهت إليــه تستنكر دخوله المسجد .. وعليه بسرعة أن يضم يديه أمامه كأنه شيعى قد نسى أو انشغل عن هذه الحركة البسيطة ..

ولابد أن يندهش الإنسان جدا جدا عندما يجد صورا للرسول عليه السلام تباع فى المحلات العامة .. وأن يجد صورا ايضا للامام على بن أبى طالب وصور على كثيرة .. بعضها مطبوع على الورق .. وبعضها مطبوع على البلاستيك .. وفى بعض البيوت قد رسمت على السجاجيد الفخمة ..

وأذكر أن أول صورة لعلى بن أبى طالب رأيتها فى احدى المكتبات الخاصة فى مدينة كربلاء بالعراق وقيل أن هذه الصورة المرسومة على سجادة فاخرة قد صنعتّها بنات الأسرة المالكة فى ايران .. وقيل إن صناعتّها استغرقت عشر سنوات .. وإن هذه السجادة تساوى مئات الألوف من الجنيهات لأن خيوطها من الذهب الخالص .

ولكن فى شيراز وجدت صورة الرسول عليه السلام .. صورة ساذجة .. ففيها تجد رجلا اسمر الوجه له لحية متوسطة الطول .. ومن السماء تجئ شعاعات مكتوب عليها آيات القرآن الكريم .. مجرد صورة خيالية .. ولكن هذه لها ملامح المسيح والعائلة المقدسة .. كلها صور خيالية ليس لها أى اساس تاريخى .

وهناك بعض الصور المصنوعة فى اليابان .. الصورة الواحدة إذا نظرت إليها من ناحية اليمين وجدت على بن أبى طالب .. وإذا نظرت إليها من اليسار وجدت صورة الرسول عليه السلام .. والفرق بين الاثنين أن على بن أبى طالب يمسك سيفا ..

وأعجب من ذلك أن هناك صورا تتعلق فى سلسلة المفاتيح ..

قلت للبائع : أهذه صورة محمد عليه الصلاة والسلام ..

قال : نعم ..

ثم اتجه إلى شئ آخر .. كأننى لم اسأله عن شئ عجيب غريب .. وعدت

اسأله وهذه يحملها كل الناس وأشار بيده إلى صندوق به مئات الألوف من السلاسل والمفاتيح ..

وعندما انفض الزبائن اتجه ناحيتي ليسألني ان كنت أريد شيئا آخر .. قلت : أريد بعض هذه الصور والسلاسل .. ولكنه لم يلاحظ دهشتي .. وحرصت على أن أجعله يراها فقال : ما ذا يدهشك ..

قلت : لا شئ .. ولكن هذا غير مألوف فى أى بلد إسلامى ..

قال : أعرف ذلك ..

قلت : حتى صورة الرسول أقرب إلى صورة القديسين فحول رأسه توجد هالة ..

قال : نعرف ذلك ..

قلت : يدهشنى ذلك .. أو يدهشنا ذلك وكأنه يعرف هذا الرد .. ولذلك لم يناقشنى فيه .. ولابد أنه تناقش فيه مع كثيرين والنتيجة واحدة .. الناس يندهشون ويشترون وهو يبيع ويكسب .. ولم أجدها مناسبة لأناقشه فى أى شئ .. فهو بائع وليس فيلسوفا ولا أحد فقهاء الدين .

وحملت الأوراق والسلاسل وتوجهت إلى شارع السوق .. ومن شارع السوق إلى عمارة كبيرة .. مدخلها فخم .. وسألت : وأين توجد حارة اليهود ؟

وأحسست انى ارتكبت غلطة لا ضرورة لها فلم أجد احتراما كافيا أو مساعدة من أى أحد .. ولم تسعفنى لغتى بأن أشرح مثلا أننى لست يهوديا أريد أن أرى .. مجرد رؤية لست يهوديا ..

وذهبت إلى مكتبة قريبة ورحت أتفرج على الكتب . وناقشت واشتريت ثم اقتربت من البائع وكأننى نسيت : فقلت قيل أن حارة اليهود قريبة من هذا المكان ..

فأجاب .. امش من هذا الشارع .. وبعد أن تترك معبد زاردشت اتجه إلى اليسار ثم إلى اليمين ..

يقول زاردشت ذلك النبي الفارسي القديم إلى أي أرض أذهب .. إلى أي أرض أجر قدمي إلى أي مكان ألجأ ؟ ان الحكام والنبلاء قد هجروني .. ان الفلاحين لا يسعدونني أيضا انهم جميعا يقفون إلى جانب الكذب .. فإلى أين أذهب ؟ وما الذي أصنعه لكي أرضيك يارب إنني أعلم أنني لا أستطيع يا إلهي .. لأنني كثير الشكوى .. كثير البكاء .. ساعدني كما يساعد الصديق صديقه .. امسك يدي كما تمسك الأم بصغيرها .. افتح عيني كما تفتح الشمس عيون الطيور ..

وأشار أحد المشاة إلى معبد زرادشت .. الباب مفتوح .. لا أحد .. المقاعد على الجانبين لا أحد يجلس .. الإضاءة خافتة .. ثم جاء رجل يرتدي ما يشبه البيجاما البيضاء .. اقترب وسأل إن كنت أريد شيئا .. فقلت أتفرج ..

وأشار إلى حذائي فخلعته .. وأشار أن أمشي وراءه .. ومشيت .. ووجدت نفسي أمام غرفة من الزجاج في داخل الغرفة المظلمة تماما قنديل من الزيت .. مصدر ضوئي .. وأمام هذا القنديل أو هذه الشمعة .. يجب أن يقف الإنسان ويصلي وهو ينظر إليها .. أي إلى النور فالنور هو سر الكون .. هو الحياة .. هو الله (العلم الحديث يقول أن كل شئ في الدنيا يتحول إلى طاقة .. إلى نور .. فالنور هو جوهر الأشياء .. والله وحده هو القادر على أن يحول الطاقة إلى مادة .. أي أنت تستطيع أن تحول المادة إلى طاقة بسهولة يكفي أن تحرق ورقة .. مادة الورقة تحولت إلى طاقة ولكن الله وحده القادر على أن يحول هذه الطاقة مرة أخرى إلى نفس الورقة فالنور هو الله .. والقرآن الكريم يقول .. الله نور السموات والأرض ..

وعرفت أن هذا الراهب أو هذا الكاهن هو إمام الديانة الزرادشتية هنا .. سألته : وما الذى يقوله الإنسان أمام النار وهو يصلى ؟

قال : وما الذى تقوله عندما تصلى ؟

قلت : وهل هذه النار مقدسة ؟

قال : ليست مقدسة .. ولكنها رمز كما يقف المسيحى أمام الصليب .. فالصليب رمز .. وكما يتجه الناس إلى الكعبة فالكعبة رمز ..

قلت : أريد أن أدعو الله وراءك فماذا أقول ؟

قال : قل ورائى .. يا أهورا مزدا انك وحدك القوى العارف .. وأنا ضعيف ولكنى بك قوى .. اعطنى ما أعطيت النور .. صفاء وحرارة .. اعطنى ما أعطيت الأرض خصوبة واتساعا .. اعطنى ما أعطيت الرياح قوة وحسما ..

ثم التفت ناحيتى ليقول : هل هذا يكفى .. وقبل أن أقول اننى أريد من الله شيئا آخر قال : إذن ردد ورائى .. يا أهورا مزدا أنت وحدك تعلم ما الذى يمزق قلبى وعقلى .. أجمعها على رأى واحد.. فقد تحطم بعضى على بعض .. أنت وحدك الذى أستريح إليك .. املأ وحدتى .. وافرغ همومى .. واعطنى الصبر على النفس وللنفس .. والصبر على الناس لأعيش معهم وبهم . اعطنى ما أعطيت زوجة زرادشت من الجمال الأبدى الصدق مع نفسها ومع جسمها .. ومع الناس ..

قلت : آمين

سألنى : إن كان هذا يكفيك ..

ولم أقل اننى لم أسترح ..

ولكن الرجل كأنه تعهد بشفائى اقترب أكثر من القنديل المقدس ،

وكأنه اقترب من نفسى ليقول وأنا وراءه ، وهو ينظر إلى شئ وأنا أغض عينى وأنظر إلى شئ آخر ووجهة أخرى .. يا هورا مزدا .. اننى تعبت من الناس .. وتعبنا من الحياة .. ولاندرى ما هى حكمتك .. اننا لا نعرف لهذه الحياة معنى .. ولا ندرى حكمتك .. اننا ضائعون لولاك .. اننا حائرون بغيرك .. أهدنا كما هديت الرضيع إلى أمه خفف عنا ويلات أنفسنا .. وخفف عن أنفسنا ويلات أجسادنا .. وخفف عن أجسادنا ويلات أجساد الآخرين .. فإذا كان الموت فاجعله سهلا علينا .. فإذا كان الفراق فلقاؤك هو أعظم الجزاء يا هورا مزدا .. اهد هذا الضال .. واشف هذا المريض .. وأضئ جوانبه المظلمة .. واحلل العقدة من لسانه .. ومن يده .. ومن نفسه .. اطلق شعاعا من نورك .. مطرا على بحرك اعطه حتى يضج بالشكر لك .

ولم يسألنى ان كنت قد اكتفيت .. لقد اكتفى هو بذلك .. وتوجه إلى الباب الخارجى .. ووضع قدميه فى حذائه .. ثم أعطانى نسخة من كتاب بالإنجليزية عنوانه (زرادشت وديانته) والكتاب جمعه ونشره مهرابان خودا افندى ..

وسألته : من الذى ينفق عليكم ..

وعرفت أن هناك عشرات الألوف من الأثرياء فى إيران وفى أمريكا ينفقون على هذه الديانة الرسمية .. والديانة التى اعتنقها قبل ذلك كوروش العظيم .. ولذلك عندما مات طلب أن يدفن فوق قبره وأن يكون وجهه لا يغيب عنه النور متى أشرقت الشمس ويقال أن بعض كهنة زرادشتا قال إن قبر كوروش هذا يتحرك مثل عباد الشمس مع الشمس مع شروقها إلى غروبها أما كيف اختفى جثمان كوروش فيقولون أيضا أن الشمس سحبته وأخفته فى مكان بعيد وراء هذا الكون .. ويسمونه وراء الوراء ..

وجاءت فتاة حلوة ترتدى البلوزة البيضاء الحرير ذات الأكمام ..

وعلى الصدر عقد أزرق وعلى رأسها إيشارب أحمر دموى وفى أذنيها قرط من الزمرد وسألت : طبيعى ؟

فقالت : الزمرد طبيعى

ولم تقل أن جمالها طبيعى أيضا .. أما الحذاء فهو فى لون البنطلون .. أسود .. وشعرها على غير العادة أشقر .. واللون طبيعى فلونها أشقر أيضا .

ولم أسأل أول الأمر .. وعدت أسأله : ابنتك ؟

قال : مثل ابنتى

قلت : بنت أخيك ؟

قال : كبنت أخى ..

وسكت ولكنه هو الذى قال : زوجتى ؟

وهى مثل ابنته لأن فارق السن يزيد عن الثلاثين عاما .. ولكنه هو الأقوى والأصح ..

قلت : وزوجة واحدة ؟

قال : واحدة تكفى .. المسلمون يعددون الزوجات .. واليهود أيضا ..

قلت : المسلمون أحيانا واليهود نادرا

قال : اليهود هنا يتزوجون بأكثر من واحدة ..

وضحك ليقول أنهم يريدون أن يكونوا كثيرين .. اننى قرأت أن بابا الكاثوليك قد سمح بتعدد الزوجات عندكم . قلت .. ليس عندنا .. ولكن فى أواسط أفريقيا .. فقد كان من الصعب على رجال التبشير أن يطلبوا إلى شيخ القبيلة أن يكتفى بزوجة واحدة وأن يطلق سراح عشرات النساء اللائى فى عصمته ..

ثم التفت إلى ابنته ليقول : تشرب معنا

قلت : بكل سرور .. ماذا ؟

قال : ما شربه أمراء الخليج عندما جاءوا لزيارتنا أول أمس .

واتجهنا إلى فيلا مجاورة نظيفة خالية من الناس .. هناك رائحة بخور خفيفة ولا أعرف مصدرها وسألته من أين البخور ..

قال : من فتحات الجدران ..

قلت : تطلقونها فى أوقات محدودة ..

قال : فى كل وقت

قلت : لها معنى خاص ..

قال : إشاعة جو مختلف عن الشارع انها عادة متبعة فى كل الأديان فيما أعتقد ..

وظهرت فى نهاية السلم فتاة أخرى أصغر سنا ولكنها فى نفس الملامح .. وترددت فى أن أسأله ..هل هى اختها .. وهل الديانة الزرادشتية تسمح بالزواج من الأختين مثلا .. ولم أقل .. ولكن السؤال وقف فى حلقى .. وسألته : أختها ؟

قال : نعم

قلت : زوجتك ؟

قال : لا ..

قلت : زوجة من ؟

قال : زوجها فى أمريكا وسوف يعود الليلة .. ربما الآن ..

ولم ألاحظ أن الفتاة ارتدت زيا يدل على فرحتها بعودة الزوج القادم من أمريكا .. ولكن عندما رأيت الخواتم فى أصابعها والأقراط فى أذنيها والبروش على صدرها ولاحظت الأحجار الكريمة على حزامها .. وعلى جانبى البنطلون الذى ترتديه .. وبعض الأحمر الخفيف فى شفتيها والكحل فى

عينيها .. أدركت أنها سعيدة لعودته .. وأنها حملت له كل ما عندها من زينة .. وكانت هذه الفتاة تتكلم الفرنسية ..

وجاءت فتاة ثالثة وقلت: أنت تسكن وحدك هنا قال نحن كثيرون .. ولكنهم يعملون ..

وكانت الفتاة الثالثة تحمل أكوابا كبيرة بها مشروب فى لون النبيذ .. ولكن ليست له شفافية النبيذ ..

وقال : تفضل ..

وشربت أول عصير للرمان فى إيران . . ولاحظت أن الأكواب من الكريستال .. وأن الصينية من الفضة وأن المفارش من الحرير الطبيعى المشغول .. وأن الفوط التى وضعت على ركبتى من الحرير الطبيعى اليابانى .

فقلت : حرير يابانى

قال : إيرانى ..

وكان فى نيتى أن أقول له إننى زرت اليابان وإننى أعرف القليل عن الحرير الطبيعى . . ووجدت فى اجابته رد اعتبار لى فقد كان فى نيتى أن أتعالى عليه قليلا . . ولكن لماذا احسست بأنه قد تعالى على . . لا أعرف من أين جاء هذا الشعور . . ربما بساطته . . ربما هذه جعلتنى أحس أنه أحسن حالا . . ربما هذه الثروات الطائلة التى حملتها زوجته وأختها على الصدر والأصابع والساقين والقدمين لا أعرف لماذا أحسست أننى يجب أن أقول شيئا لا يعرفه وقلت له وأنا لا أعرف كيف أمنع نفسى من الكلام : لقد سافرت إلى اليابان ومكثت بها شهرا .

وكان رده بسيطا : لابد أنها أعجبتك أنا عشت فيها عشر سنوات .

وكان لابد أن أبتلع لسانى . . وابتلعت وسكت . .

ونهضت أشكره وأودعه . . وأتمنى لهم حياة هانئة سعيدة . .

عجيبة جدا . . لقد قبلونى جميعا عند توديعى لهم . . فلم يكن هذا فى حسابى فلا شئ يدل على هذه النهاية الرقيقة . .

وعند السلم قال لى الكاهن الكبير : أنت أول واحد لا يجد حرجا فى أن يقف ويدعو فى معبد زرادشت قلت : أريد أن أعرف .

قال : إذن . . سوف تتعب كثيرا .

قلت : فعلا

قال : هل تريد أن تصلى من جديد معى أنا وابنتى . . لا زوجتى .

وضحكت . . واتجهت إلى الشارع . . إلى الزحام فى الناس . .

الهواء بارد منعش . . نحن فى رمضان ولاشئ يدل على ذلك . . فعند الغروب . . لايزال الناس فى الشارع . . هل هم صائمون . . يقال نعم . . ولكنى لم ألاحظ أحدا صائما . . فى كل الذين قابلتهم وعلى كل المستويات . . ويقال أنهم يفطرون إذا رأوا نجمة فى الأفق . . وليس عند غروب الشمس كما يفعل أهل السنة .

لابد أن اتجه إلى الناحية الأخرى . . هذه إذن حارة اليهود . . حارة كأية حارة . . رأيت مثلها فى روما وبرن والقاهرة وطوكيو . . حارة ضيقة . . خالية من الناس . . الأبواب مغلقة . . الأطفال الصغار يلعبون فى الشارع ملامحهم شرقية . . العيون سوداء . . الأنوف أكثرها معقوف وتتردد كلمات شالوم . . شالوم . . وأنا لا أعرف ماذا يقولون . . الليلة ليلة السبت . لا أضواء . . لا مصابيح . . فاليهود يتركون الأضواء كما هى منذ يومين . . فإذا أنطفأ نور فإن أحدا لايوقده . . إنهم أحيانا ينادون بعض المسلمين أو المسيحيين ليوقدوا لهم النور . . لأن العمل والطبخ والإضاءة حرام فى هذا اليوم . . يوم السبت المقدس . . ولكن بعض المحلات اليهودية الصغيرة مفتوحة . .

هذا البار على رأس الحارة . . الباب ليس مغلقا . . فى استطاعة أى أنسان أن يدخل ودفعت الباب ودخلت وجاءت سيدة كبيرة فى السن . . وتكلمت الفارسية .

فقلت : لا أحديعرف الإنجليزية؟ ثم جاءتسيدة أخرى . . تعرف الإنجليزية . ثم جاء رجل آخر . . وجاءت فتاة وظهر طفل والباب لاهو مقفل ولاهو مفتوح . . الملامح واحدة . . ومفروض أنا أقول لماذا جئت . . أو ما الذى أريد أن أشربه . . وتظاهرت بأننى مريض وإنى أريد أن أشرب كوبا من الشاى إن أمكن . .

وكان لابد أن أجد ما أقوله من اختيارى لهذا المحل . . ومن الواضح أنى أجنبى وقلت : أجنبى .. صحفى .. جئت أتفرج على هذا المهرجان ..

ولما سألونى من أين أنت قلت . . من جنوب أوروبا . . قالت واحدة إيطاليا . . قلت نصفى من إيطاليا والنصف الآخر من اليونان .

وكانت واحدة منهم تعرف الإيطالية . . وتذكرت فى هذه اللحظة أن الأصدقاء الإيرانيين من شيراز . . وأقول الأصدقاء لأنه من السهل أن تجد صديقا من شيراز . . يكرهون اليهود . . ولا يطيقونهم ولا يشترون منهم ويتهمون بالكفر كل من يتعامل معهم . . واليهود يعرفون هذه الحقيقة ولكنهم لا يشكون ولو ضربتهم بالجزمة فى الطريق لا يرفعون رؤسهم . . وبعض التجار ليس أمامه إلا التعامل معهم . . فالتجارة لا دين لها والمال لا دين له . . وكثيرا ما وقعت معارك بينهم وبين اليهود . .

وقد فهمت أن التعليمات مشددة جدا ألا يذهب سائح أجنبى أو زائر أثناء المهرجان إلى هذه المناطق اليهودية بأى حال . . فالدولة حريصة على ألا يكون هناك أى خلاف أو شقاق أو متعب من أى نوع . .

وسألت السيدة التى تعرف الإيطالية إن كان المهرجان قد اعجبها . .

فقالت بتحفظ . . إنى كما ترى كبيرة . . لم اراه . . ولكن أولادى قد رأوه . . مارأيك .

قلت . . رائع .

قالت . . ما الذى أعجبك فيه .

قلت . . دعاية كبرى لإيران . . وسوف يجئ ملايين الناس من كل الدنيا ليتفرجوا . . ثم الفكرة نفسها .

قالت . . ماذا تقصد .

قلت إن كوروش العظيم هو أول من وضع حقوق الإنسان . . وأول من نادى بالتسامح . . تفهمين طبعا . .

قالت : هذا هو الذى يسعدنا جميعا . . أنه نادى بالتسامح . .

أذن هى سعيدة . . وهم سعداء جميعا بالاحتفال بكوروش العظيم الذى أعاد اليهود إلى فلسطين وأنقذهم من السيف البابلى . . ومن عذاب الملك بختنصر . . ولذلك أشادت التوراة بكوروش العظيم . . ووصفته بأنه المسيح . . المنقذ . . المخلص لهم . .

ولكن الرجل اليهودى صاحب المحل لم يخف . . وهذا أدهشنى رغم أنه ليس على يقين من جنسيتى أو دينى ان أسرائيل لم تدع إلى هذا المهرجان . . رغم أن عددا كبيرا من ضباط الأمن قد جاءوا من إسرائيل هكذا . . وأن عددا من اطباء إسرائيل يعملون فى معهد الرازى فى مدينة كيرج بالقرب من طهران . . ولم يقل رغم أن عددا كبيرا من أصحاب الملايين من اليهود فى طهران وأن أكبر تجار السجاد فى إيران وفى العالم كله من اليهود . . طبعا من حقه أن يقول هذا ولكن السياسة لها رأى آخر . . فإيران قد اتجهت إلى العرب وساندتهم . . وحريصة على ذلك . . وبعملية حسابية بسيطة تجد أنها تكسب أكثر إذا وقفت إلى جانب العرب . . وخصوصا عرب الخليج . .

نحن نسميه . . الخليج العربى .

وفى إيران يسمونه . . الخليج الفارسى .

وفى كل مكاتب المسئولين خريطة للخليج (الفارسى) ولا يقبلون المناقشة فى هذه التسمية التاريخية . .

أما من الذى أطلق عليه أسم الخليج (العربى) فشرف عظيم تدعيه كثير من الدول العربية .

قال لى أحد وزراء الكويت أن الكويت هى أولى الدول التى أطلقت عليه هذه التسمية . .

وأذكر أنه عندما انعقد مؤتمر الأدباء فى الكويت وقف أحد شعراء اليمن يقول إن الأمة العربية تمتد من المحيط الأطلسى إلى الخليج الفارسى . .

فضحك الحاضرون وقال واحد منهم . . الخليج الفارسى . . وليس المحيط .

فرد الشاعر اليمنى قائلا . . لقد صيره كرمكم محيطا . .

وعندما غادرت إيران قلت للصديق الذى رافقنى واسمه نور الدين شاهرودى : والله ستوحشنا يا أستاذ نور الدين .

ولكى أؤكد هذا المعنى فسوف ألقى بنفسى من الطائرة فى الخليج العربى حزنا على فراقك .

فقال وهو متجهم الوجه : الخليج الفارسى يا أستاذ أى أنه لا يهم أن أموت أو لا أموت . . المهم أننى عندما أسقط من الطائرة يكون ذلك فى مياه فارسية .

وعندما اتجهت إلى مطار شيراز . . كنت أعرف ما الذى سوف يحدث . . لقد جربته قبل ذلك . . وضقت به ولكن عذرت الحكومة الإيرانية . .

لابد من التفتيش . . التفتيش الدقيق على كل مامعى . . وعلى كل مافى جيوبى إنها اجراءات الأمن . .

ولكن بمجرد أننى أنتقلت بعيدا عن شيراز ومدينة الخيام شعرت أن إنسانيتى قد ردت إلى . . إننى أصبحت فلانا الفلانى وعلى حريتى . .

وحتى عندما كنت فى شوارع طهران أشعر بأننى فى أحدى العواصم الأوربية وإن كان أكثر الذين يمشون فى الشارع لهم ملامح مصرية . .

إلا عندما دخلت البنك الكبير (بنك ملى إيران) أى البنك الوطنى الإيرانى .

وإلا عندما نزلت بضع سلالم . . ثم بضع سلالم مارا بالحرس ، ومزيدا من الحرس . . ثم من الباب الحديدى . . أغلظ باب حديد رأيته فى حياتى . . الباب يشبه الخزانة تماما . . ومتصل به أسلاك كهربية وعيون الكترونية . . ما هذا . . هنا مجوهرات التاج الإيرانى . . هنا فقط يشعر الإنسان بأنه هو وما يملك وما يملك غيره من الناس . . إنه ولا حاجة ولا أى حاجة . .

هنا منطقة
انعدام الوزن
ولكن تحت الأرض!

(٥)

الذين عادوا عقب المهرجان من إيران يقولون ان الشوارع ما تزال مضيئة .. الزينة معلقة .. الخيام مفتوحة .. ان الحكومة مصرة على أن تضئ الطريق بين أيدى السياح وجيوبهم .. لأنها تريد أن تجمع من كل الناس ما أنفقته على مهرجان الملوك والرؤساء .. .. أن تتقاضى ثمن الشراب والنوم .. ووزن كل ريشة من جناح الطاووس .. ذهبا وماسا ..

إن طهران عاصمة إيران . ولكنها مدينة فقدت ذاكرتها .. فليست لها ذكريات إلا هذا المهرجان .

هناك أسطورة إيرانية تقول .. إن هناك أخوين .. الأصغر هو الغنى .. والأكبر هو الفقير ، وهو كذلك شديد الحزن ولكنه لايدرى سببا لهذا الظلم الواقع عليه والواقع فيه ، ومشى على وجهه فى الجبال قابله رجل يرتدى ملابس سوداء ..

قال له الأخ الأكبر من أنت ؟

أنا حظ أخيك

آه .. أنت إذن مصدر تعاستى . ألم تقابل حظى

حظك نائم فى أحد الكهوف إذهب وابحث عنه

سوف أذهب إلى هذا الكهف وأوقظ حظى النائم .. أو حظى الميت ؟

وانطلق الأخ الأكبر بين الجبال يفتش بين الكهوف لعله يجد حظه الذى نام عنه .. فقابله فى الطريق أسد .. قال له إلى أين ؟

قال أبحث عن حظى الذى نام عنى

قال له الأسد إن قابلته فأرجوك أن توجه إليه هذا السؤال

لماذا كلما أكلت ازددت جوعا .. فوعده أن يفعل .

وفى الطريق قابله فلاح فى حقله .. وطلب إليه الفلاح إذا ما قابل الحظ أن يوجه إليه هذا السؤال لماذا لم تعد أشجارى تحمل الثمار .

فوعده بأن يسأل له الحظ عن ذلك .. واستأنف الأخ الأكبر بحثه عن الحظ بين الوديان والجبال ثم دخل إحدى المدن .. وأمسكه رجال البوليس فالملك قد أمر بأن كل غريب يدخل المدينة يجب أن يلقوا القبض عليه وسأله الملك ما الذى أتى بك إلينا ؟

فقال الأخ الأكبر مولاى إنما جئت أبحث عن حظى الذى اختفى فى أحد الكهوف وراحت عليه نومة ..

قال له الملك إذا قابلت هذا الحظ النائم فاسأله .. لماذا أصبح الإفلاس سائدا أرضى والإفلاس قد قتل شعبى .

ووعده الأخ الأكبر ومضى يبحث عن الحظ ونزل واديا وصعد إلى جبل .. ودخل كهفاً وراء كهف .. وأخيرا وجد طريقا مرصوفا .. والطريق ينتهى بأحد الكهوف .. وفى جانب من الكهف وجد رجلا نائما .. وكان نومه صارخا فهو ينفخ الهواء بعنف ويسحبه بعنف .. واقترب منه ثم ضربه برجله .. وصحا الرجل النائم .. وفتح عينيه ..

فقال له الأخ الأكبر جئتك من آخر الدنيا وعندى لك ثلاثة أسئلة .. ولابد أن أسمع الإجابة عنها . وإجابة الحظ عنها .

وانصرف الأخ الأكبر ..
وقابله الملك عند مدخل المدينة .. وقال له ..
هل أيقظت الحظ ؟
فقال .. نعم
فماذا قال لك ؟
ان مملكتك مشرفة على الإفلاس لأنك امرأة والمرأة إذا حكمت تحكمت ..
وإذا تحكمت خربت الدنيا ..
هذا صحيح . . وأنت الوحيد الذى تعرف سرى فتزوجنى فيكون لك العرش والمال والجمال .
لا يجب .. أن أعود إلى بيتى .. فما دام الحظ قد صحا فسوف أكون غنيا مثل أخى .
سأجعلك أغنى من أخيك وأسعد منه .
ولكن الأخ الفقير رفض وترك المدينة
وبعد أن هبط أحد الجبال وصعد الذى يليه وجد الفلاح ينتظره فى الحقل فسأله :
ما الذى قاله لك الحظ الذى صحا ؟
قال نعم قابلته وهو يقول إن أشجارك لا تزهر ولا تثمر .. لأن تحتها كنزا .
وبسرعة جاء الفلاح بفأس وراح يحفر الأرض فوق الكنز .. ملايين القطع الذهبية .. وقال له الفلاح من حقك أن تقاسمنى هذا الكنز .. لولاك ما اهتديت إليه ..
فقال الأخ الفقير .. لا .. بل سأعود إلى بيتى ..
ان حظى قد صحا من نومه وسوف أكون غنيا مثل أخى
وقال له الفلاح إن نصف هذا الكنز يجعلك أغنى من أخيك
وقال الأخ الأكبر .. بل أريد أن أكون غنيا مثله وهذا يكفى

ولم يستمع الأخ الأكبر إلى صيحات الفلاح ومضى فى طريقه عائدا إلى البيت ووراء إحدى الصخور برز له الأسد .. هل قابلت الحظ ؟

نعم

وكيف وجدته ؟

نائما

وماذا قال لك ؟

قال لى .. قل للأسد إذا قابلت رجلا مغفلا فسارع بالتهامه .. وبعد ذلك لن تجوع أبدا ..

فقال له الأسد .. هذا هو حظك

وهذا هو حظى .

إننى إذن لم أر رجلا أكثر تغفيلا منك

وانقض على الأخ الفقير وأكله

انتهت الأسطورة الإيرانية

واختلفت تفسيرات الناس لها .. ولكن أسهل هذه التفسيرات هو أن كل شئ تحت قدميك وعند يديك .. فالذى تجده استمتع به ولا تذهب بعيدا والذى يريحك هو الموجود ولا تفسد متعتك بالبحث عن أشياء لا وجود لها إلا فى خيالك .. أو فى الكتب

أو بعبارة أخرى من رضى بالقليل عاش

هذه هى طهران.. الإيرانيون ينطقونها .. طهرون أو على الأصح تهرون وهى مدينة كبيرة .. وشوارعها واسعة وعماراتها عالية . ولم تكن لها أهمية قبل مائتى سنة .. ثم أصبحت عاصمة الملك من حوالى خمسين سنة وتركزت فيها الفلوس وأقام أصحاب الفلوس بعض أوقات السنة فلهم وللأمير أيضا بيوت أخرى فى أماكن مختلفة للشتاء والصيف .

تقول الأديبة الإيرانية أمينة باكروان أن طهران مدينة ليست لها ذاكرة أو ليست لها ذكريات فلا تحاول أن توجع رأسك بالبحث عن أصلها وفصلها .. ففيها شوارع لها أسماء .. والأسماء لا معنى لها .. وفيها أحياء ما كان يجب أن توجد فيها .. المدينة كانت مدفونة تحت الأرض ثم خرجت والناس نيام .. خذها كما هى .

شكرا يامدام أمينة .. فقد أرحتنى من البحث من كلمة (خيابان) الموجودة فى كل شارع وتشاءمت عن هذه الكلمة فقد تصورت أنها هتافات معادية لى . وكانت ترن فى أذنى هكذا خيبان .. أى إننى خيبان .. مع أن هذه الكلمة معناها : شارع ..

وعلى النواصى تجد بائع الصحف .. الصحف بكل اللغات المتباعدة العبرى والروسى والصينى والألمانى والفرنسى .. والأغلفة تدلك على المؤلفين فهذه مؤلفات ماوتسى تونج .. وماركس ولينين .. وهنجواى ومالرو .. ولا تجد عند أكشاك الصحف كتبا إيرانية .

وورائى وجدت بائع السجائر . وسألته عن نوع من السجائر انتجته إيران بمناسبة المهرجان ولكن حركة تناول البائع لهذه السجائر تدل على مدى احتقاره لها .. أو احتقاره لمن يشربها لم أفهم .. ولكن لاحظت أننى عندما أقدمها للإيرانيين يقولون أنهم لم يسمعوا بها .. ولا داعى طبعا للمناقشة لأن المعنى أن هذه السجائر قد ظهرت فى الهيصة وأن أحدا لا يمكن أن يتنبه إلى ظهورها على الأرصفة فى نفس الوقت الذى يصل فيه الملوك والرؤساء .. ربما كان هذا هو المعنى .. ولكن بعد ذلك لاحظت أن معظم السجائر التى تباع على الرصيف أمريكية .. وعلب الكبريت من أعواد الشمع الأمريكية .. وأن هذه السجائر قد عبثت فى إيران.أدركت أن أحدا من الناس المحترمين

لا يشرب السجائر الإيرانية .. مهما كانت جديدة .. وامتدت يدى إلى السجائر الأمريكية كما فعل الناس فى مصر أيضا وامتدت الأيدى إلى سجائرى.

ولاحظت أنهم فى طهران يكتبون الأسماء الأجنبية خطأ .. كما يحدث فى القاهرة .. انهم التجار الجهلة .. وإنهم الزبائن الكسالى الذين لا ينبهون أصحاب المحلات إلى أنهم جهلة .. وإنما يشعرون بشئ من الإرتياح عندما توجد الفلوس مع الجهل فى دكان واحد .

وما هذا!

إن عددا من الشبان يعاكسون الفتيات .. كما يحدث فى شوارع سليمان وعماد الدين وقصر النيل .. وشارع الجامعة فى الجزيرة فى الشارع الأخير بعد أن أظلم تماما فى الليل .. سألت الذين يعرفون الفارسية وماذا يقول هؤلاء الشبان؟..بعضهم أحمر وجهه خجلا.ولكن اهتديت إلى واحد لايصعد الدم إلى وجهه فهو أيضا أحد الذين يعاكسون .. قال لى .. ولا حاجة أنهم يقولون للفتاة .. ياقمر .. أنا قتيل شفتيك .. ساقيك .. نهديك ..

آه .. نفس الكلمات التى يقولها الشبان فى كل البحر الأبيض المتوسط .. انهم فى شوارع روما يقولون نفس الكلمات مع تأكيد المعنى الذى يقصدونه باللمس .. وأحيانا بالنكت القبيحة .. لأن هناك نظرية فى المعاكسة تقول من استطاع أن يفتح شفتى الفتاة يفتح قلبها .. ونظرية أخرى تقول .. الفتاة وكل فتاة .. كالشجرة المحملة بالثمار .. هزها .. تتساقط هى قبل ثمارها ولأن هناك نظرية ثالثة تقول : ليست الكلمات الرقيقة هى التى توقعها وإنما الكلمات التى تصدمها وتصطدم بها .. والنهاية مضمونة .

وفى شوارع طهران يجربون كل هذه النظريات ويبدو أن هناك نظريات أخرى يجربونها ولكنى لم أفهمها أو لم أجد أحدا يشرحها لى .. مثلا هذا المنظر .. كنت أمشى فى شارع الفردوسى أجمل شوارع طهران ، الفردوسى هو أمير الشعراء .. الفتاة صغيرة عمرها ١٤ عاما إذا نظرت إلى وجهها

و١٨ إذا نظرت إلى صدرها .. وإذا نظرت إلى ساقيها .. أو هكذا تصورت.. اقترب منها شاب .. ولمس كتفها بكتفه .. ثم ابتعد عنها .. وعاد إليها .. ولمس كتفها الآخر بكتفه .. وتركها ثم عاد إليها من جديد وهو يصر . . وأنا مصر على أن أفهم ماذا جرى هنا .. وعند كشك الصحف وقفنا نحن الثلاثة لا هو تكلم .. ولا هى . . وإنما يقلبان فى المجلات والصحف . . ولا شئ أكثر من ذلك .. وهما يتباعدان .. وبسرعة امتدت يد الشاب إلى صورة الحسين بن على .. ثم امتدت يدها إلى صورة على بن أبى طالب .. وتجاورت الصورتان .. وعن غير قصد سقطت فوقهما صورة بريجيت باردو .. وانتهز الفتى والفتاة هذه الفرصة ليمشيا متجاورين ويضع يده فى يدها ويتكلمان .. ويحول بينى وبينهما عشرات الناس لابد أنها نظرية جديدة ..

وأدخل مدينة الملاهى .. انها أقرب إلى ما يحدث فى الموالد عندنا .. هذه المدينة لا أعرف سبب اختيارها بجوار السفارة العراقية .. إنها مقلقة للراحة .. كما أن العراق مقلقة لراحة إيران كلها .. وفى المدينة أطفال يغنون بأصوات جميلة .. والناس يقولون ما معناه .. الله ياسيدى .. كمان وحياة على — هنا طبعا لا يقولون

كمان والنبى .. وعلى هو على بن أبى طالب .

ووجدت فتاة ترقص . . ووجدت ضرب النار ولعبة النشان . . ومن يقول فتح عينك تأكل الملبن .

وأعود إلى الأديبة أمينة باكروان فى كتابها (صاحب البيت ذلك المجهول) تقول ومدينة طهران أعجوبة فى أنها لا تحتاج منك إلى وقت طويل لتعرف من هى فالذى تعرفه عنها يكفيك أنها سيدة بلا أسرار .

وهذه السوق الفريدة العجيبة أسمها (سوق الحرامية) ففى هذه السوق

من الممكن أن تجد كل شئ فقده أى إنسان ومن الممكن أن تجد أشياء كثيرة مفقودة منك .. ولكن السوق لا تبيع شيئا الآن .. الحرامية فى السجون والسبب المهرجان الكبير والملوك والرؤساء من ٧٠ دولة .

ويقال إن الأتوبيسات هنا يملكها ضباط الشرطة وبذلك فهذه الأتوبيسات عبارة عن أقسام بوليس متحركة لا سارق ولا مسروق فكرة معقولة جدا .

ومن الشئ الذى يلفت نظرك فى طهران ، كما كان فى القاهرة من عشرين عاما ، أو مدن الريف فى مصر أن المشاة من الرجال . أو من الفتيات الصغيرات والإيرانيات الصغيرات أجمل .. ولكن شيئا غريبا يحدث للفتاة الإيرانية بعد الزواج .. إنها تكبر بسرعة .. وهذه مشكلة لم أسأل عنها أحدا من الرجال .. ولكن مهما تقدمت المرأة فى السن بسرعة فإنها تموت على مهل .. أما الرجال فى كل الدنيا فيموتون بسرعة ولا تغرك هذه الشوارب الضخمة التى يحرص عليها الإيرانيون والتى يحبونها .. لعلها تعجب النساء أو لعلها نكتة .. الرجل يربى شواربه والمرأة تربى الرجل .

ومن الغريب أن نجد فى القصر الملكى جولستان قصر التتويج — قاعة بها من ملوك أوروبا مثل اسكندر الأول والثانى .. والامبراطور النمساوى فرنتس ويوسف والملك الإيطالى فيكتور عمانويل . ولا صـلة بين الأربعة ،ولكن لو أعدت النظر لوجدت الصلة أكيدة فهم جميعا من أصحاب الشوارب الإيرانية الغليظة .. وهم يمتازون أيضا وليس هذا واضحا فى الصور بأن لهم زوجات قد اختارهن الموت برفق . . مع أن الشنق كان ملجأهن الوحيد .

وبعض المشاة فى طهران مثل المشاة فى بولاق .

ولكن أحياء طهران أنظف .. يرتدون البيجامات .. بعض البيجامات مرفوعة إلى ما فوق الركبة .. الساق اليمنى فقط .. سألت : ايه الحكاية ؟

قالوا .. ولا حاجة مجرد دلع .. ورأيت صاحب البيجاما المرفوعة فوجدته من أبناء الريف ، ولا شئ يدل على هذا الدلع .. ولا توجد مناسبة لاستعراض الساق المعروقة والتي هي جلد على عظم .. سألت فقيل لى: أبدا ولا حاجة .. انه رجل كامل .. وهذا نوع من التهوية .. كما يفتح الإنسان زراير القميص بسبب شدة الحر ..

قلت معقول ..

وكان الجو باردا .. وسكت ولم أفهم .. ورأيت هذا المنظر كثيرا .

أما الشبان فهم على الموضة .. البنطلونات ضيقة والقمصان حمراء والشعر خنافس والياقات بيضاء يمكن خلعها فى أية لحظة .

ويسمون هذه الياقات بالفرنسية .. فوس كول أوفوكول .. أى الياقة الزائفة .. وأطلق عليهم الإيرانيون كلمة فوكولى (المايصون) .. والبغبغانات كما يسمونهم الإيطاليون لأنهم (يغنون على) البنات فى الطريق

وبعض النساء يرتدين الملاءات السوداء..لابد أنهن متحفظات .. بعض الفتيات الصغيرات جدا – فى العاشرة يرتدين الملاءة أيضا – مع أن الملاءة لا تخفى أى شئ.. فى العراق ترتديها المرأة وتحتها فساتين فوق الوكبة.. ومن الغريب أن المرأة لا تقف فى الشارع وإنما على الناصية فقط .. وبذلك تتعرض – عن قصد – للهواء الذى يظل يطوح بالم ويرفع الفستان..وفى الكويت كذلك .. وإن كانت فى الكويت توجد فسات شيك وأقصر ..

وفى شارع الفردوسى توجد أضخم المحلات وأكبرها . وكل فلوس أهل طهران أو سكان إيران تضيع هنا فى شارع الفردوسى كما تضيع كل فلوس رجال القاهرة أو رجال مصر فى شارع قصر النيل .. أو فى مائة متر اسمهاشارع الشواربى ولكن لاحظت أن بعض المحلات الكبرى مقفلة.. فقط المحلات الكبرى ليست فى حاجة إلى الفلوس .

ولم يكن الجواب صحيحا فنحن فى يوم السبت وأصحاب هذه المحلات من اليهود .. والأسماء واضحة كوهين وليفى وجولد برج وسليمان وشولوم.. وشالون واشتين .. وهم أكبر تجار السجاد فى إيران وفى العالم كله .

— قولى من فضلك ..

أنا الذى أسأل إحدى السيدات .. ولكن الذى حدث جعلنى أتذكر عبد الحليم حافظ وهو يقول قولى لى مين زيك .. لم يجيب على ذلك .. والله مالك زى ..

لأننى عندما قلت لك ذلك اعتدلت على الآخر .. وتعلقت العباءة من كتفيها..وبرزت من تحتها وكأنها تمثال من الرخام الأبيض.. واننى يجب أن أمد يدى إلى الأمام حتى لا يسقط فوق .. وكان فى نيتى أن أسألها كم يساوى الريال الإيرانى ..

ولكن عندما رأيت إزاحة الستار الأسود عن هذا التمثال المفاجئ قلت لها بالإنجليزية : هل صحيح أن كل ثروة إيران فى البترول والسجاجيد والكافيار والقطن ..

وقالت .. لم أفهم .. ولا تؤاخذنى ..

وأعدت السؤال وأجبت عنه .. اعتقد أن ثروتها فى ذوق نسائها أيضا .. أو ذوق رجالها الذين يختارون أجمل الألوان لنسائها .

ولم أكن هذا الذى أريده .. وإنما اضطررت إلى ذلك . وعرفت فيما بعد أننى كنت فعلا أريد أن أسأل عن البنك المركزى .. أى عن المكان الذى توجد فيه وتحته .. نعم تحته .. ثروة إيران كلها .

وكأن الفتاة أحست أننى تراجعت فى كلامى وأن سؤالى لم يكن .. قولى لى مين زيك وإنما فقط سؤال آخر وسارت أمامى .. تماما كما فعلت الفتاة (صفورة) أو عصفورة التى تزوجها النبى موسى عليه السلام .. مشت

أمامه وهى تعلم أنه ينظر إليها جيدا .. وأنها تقصد ذلك .. وكان الهواء يجئ من الأمام .

وعبرت الشارع .. هذا هو البنك المركزى (أو بنك ملى إيران) .. الزينات التى على البنك من الخارج جميلة .. منسقة وهناك بعض الجنود يروحون ويجيئون . . حركة رتيبة لا تدل على أنهم حراس . . أو على أنهم يحرسون أى شئ .. فعيونهم على الناس وهذا اللمعان المفاجئ يدل على أن فتاة على الجانب الآخر من الشارع قد اقتربت أو بعدت فى آخر لحظة مع الأسف ــ أما كيف عرفت (مع الأسف) هذه فهى ترجمة من اجتهادى لمط الشفتين عند هؤلاء الجنود ، وقد لاحظت أن واحدا منهم له فردة بنطلون أطول من الأخرى .. وسألت فقيل لى .. ليست لها معنى .. وغير مقصودة .. ويمكن أن تحدث لأى إنسان وسويت بنطلونى حتى لا يحدث لى نفس الشئ أو حتى لا يقال بالفارسية طيب يا أخى شوف نفسك .

والموقف بعد ذلك فى حاجة إلى أن اتحدث عن نفسى .. شخصيا عن كل حركة قمت بها .. وكل شعور دخل وخرج منى .. لأن الذى احسست به ليس له نظير فى حياتى كلها .. والآن أتابع نفسى .

وأسلط نفسى على نفسى .. نزلت بعض الدرجات والسلالم عادية .. الناس يضحكون .. وأنا أيضا .. ولا يوجد سبب لذلك .. ولكن عندما لا يجد الانسان ما يفعله فمن الأسهل ــ والأفضل أيضا أن يضحك .. ونزلت بعض الدرجات كانت هناك سيدات يبعن الصور الملونة ــ لا شئ يلفت النظر فى مداخل متاحف العالم مثل هذا المنظر .. ونزلت بضع درجات .. الإبتسام على الوجوه أقل .. بعض الناس قد جلسوا على المقاعد لابد أنهم تعبوا من اللف أو الدوران أو أى شئ آخر .. فقط هنا أثنان من الحراس .. ليس معهما سلاح .. ولكن الملامح جادة .. والباب .. هذه هى البداية .. الباب من الحديد سمكه ٧٥ سنتيمترا .. وضعت يدى على الباب أنه.. حديد فى

حديد .. مفتوح .. مدخل المتحف حديد فى حديد .. الإضاءة خافتة .. العين لا تستريح بسرعة .. فأنت محتاج إلى بعض الوقت لـكى تعتاد عيناك على الظلام — وسوف أعرف فى النهاية أن العين لا يمكن أن تستريح ولا النفس أيضا ..

هذه أول خطوة إلى داخل متحف (مجوهرات التاج الايرانى) .. فترينات من الزجاج السميك الذى لا ينفذ منه الرصاص .. وإن كان من المستحيل أن يدخل أحد ومعه مسدس أو سكين أو قنبلة يدوية .. فالباب الذى دخلت فيه به عيون ضوئية الكترونية لاكتشاف مثل هذه الأسلحة .. فإذا كان معك مسدس طفل دقت الأجراس وأغلق الباب فى ثانية واحدة ..

أول فترينة تواجهنى هى فترينة مخصصة لأكبر قطعة من المـاس فى العالم .. أدور حولهـا مع الناس .. بعض الناس لا يصدق أن هذه القطعة التى وزنها ١٨٢ قيراطا من المـاس .. يقولون إنها لا تلمع .. ويقولون لابد أنها من الزجاج ..

لا تنس أن هذه أصوات نسائية .. ولا تنس أن أكبر قطعة فى إصبع أية واحدة لا تزيد عن قيراط ونصف أو قيراطين أو ثلاثة على الأكثر .. وأن هذا الخاتم الذى فى إصبعها قد انفقت عليه الشئ الكثير .. عددا من الفساتين والأحذية والشنط وحفلات الغذاء والعشاء لكى تحرق بهذا الخاتم قلوب النساء الأخريات .. ولا تحرق دم الرجال الذين يشترون هذه القراريط من المـاس والأحجار الأخـــرى .

وبعض الذين يتفلسفون يقولون لابد أنهم نقلوها إلى مكان آخـــر خوفا من اللصوص .

ولكن لمـاذا لا ينقلون هذه المئات من ألوف قطع المـاس الأخرى وإلى أين ينقلونها ؟

وتتوالى بعد ذلك الأسرة المالكة الايرانية أو على الأصح العائلات المالكة فى ايران .. فلم تحكم ايران أسرة واحدة .. وإنما عشرات من الأسر المالكة .. وقد تركوا التيجان والعروش ومئات البروشات الفخمة النادرة والأقراط والعقود .. وأدوات الكتابة وأدوات الطعام .. مئات من الزمرد والياقوت والعقيق والزبرجد لعلك تلاحظ أننى لم أصف الكثير من الفترينات الموجودة .. ولم أقل كم عددها ولا حتى محتوياتها .. و لاتاج الإمبراطور ولا تاج الإمبراطورة ولا عرش الطاووس .. والسبب هو أنى يئست بسرعة من الذى رأيته .. ويئست بسرعة من أن أجد كلاما أصف به جبال الماس والياقوت والزمرد والعقيق والزفير والسبيلين والكتريكراز .. فالذى أراه أمامى من أغطية الرأس وأغطية الأطباق والأكواب لا يمكن أن توصف ولا يمكن أن تقدر بمال .. ملايين من الأحجار الكريمة بملايين من الجنيهات وبعض الخبثاء حولى يقولون يمكن أن تكون كل هذه الأحجار فى خزائنها المالية .. ثم وضعت بدلا منها احجار زائفة .

ولكن وهذا شعورى المتواضع كل المتفرجين فى حالة دفاع عن النفس — وخصوصا السيدات كل واحدة أحست أن الذى تحمله فى صدرها وحول عنقها وحول أصابعها وفى بيتها يساوى وزنه ترابا .. وان هناك احجارا أفخم ملايين الملايين من المرات من الذى عندها وعند أهلها .. أى عند شعبها من أوله لآخره أيا كان هذا الشعب أوربيا أو أمريكيا .. وانها أى كل سيدة أحست أنها ولا حاجة .. إن هذا المتحف قد جردها من أعز ما تملك .. وأنها شعرت بخيبة أمل .

هنا أتذكر العبارة الجميلة التى قالها الشاعر الألمانى فريدريش شيلر فى قصة « الحب والدسيسة » يقول أن الله كان رحيما بنا عندما اخفى عن الناس عظمته .. ليشعر كل إنسان بأنه عظيم .

وعندما طلب موسى أن يرى الله ..

قال سبحانه لا تستطيع أن تراني .. ولكن تستطيع أن ترى أثاري على هذه الشجرة مثلا ..

ولما تجلى الله على الشجرة احترقت . . ولكن موسى – كأى يهودى عنيد – اراد أن يرى الله .. وكان من الصعب عليه أن يراه ومن المستحيل أن يقوى على ذلك .. فنحن لا نستطيع أن نفتح عيوننا فى قرص الشمس .

ولذلك فالإنسان عظيم إلى أن يقف أمام الله .. تافه .. والإنسان طويل إلى أن يقف أمام الجبل .. فهو قزم .. وكل سيدة ملكة إلى أن تدخل هذا المتحف فهي متسولة على باب الله .. فالذى فى أصبعها لا يزيد عن سمسمة أمام بطيخة نمس .

كأنها كانت ترى الدنيا على ضوء عود كبريت وسعيدة بذلك .. ولكن فجأة دخلت برجلها إلى قرص الشمس فما الذى يفعله عود الكبريت والشمس طالعة .

هذه هى منطقة انعدام الوزن ..

أو منطقة انعدام الوزن على الأرض .. تحت سطح الأرض ..

ولا أقول إننى شامت فى عشرات السيدات اللآتى ذهبن .. ولكن هو نفس شعورى وشعور أى إنسان إذا ذهب إلى البنك المركزى فى القاهرة أو البنك الوطنى فى الكويت أو بنك انجلترا فى لندن . . ثم رأى العربات محملة بالدولارات والجنيهات .. فإذا سقط على الأرض فلأن هذه العملات تحولت إلى كائنات حية .. وفى نفس واحد .. سحبت الأوكيسجين الموجود فى الجو .. فكان لابد أن يختنق ويموت .. أو يكون قريبا من الموت ..

ولا يمكن أن يكون هذا الشحوب على الوجوه سببه الإضاءة الضعيفة .. لأن الإضاءة وردية مدروسة .. ولكن الوجوه انسحب منها الدم .. فجبال الماس تخطف نور العين وتنشف الدم فى وقت واحد .. ثم ماذا ..

والجواب : لا شئ .. عليك أن تستمر ..

ووجدت متعة فى الفرجة على الذين يتفرجون.. وعلى اللاتى يتفرجن .. فهذه السيدة مليونيرة أمريكية .. وهى تصرخ كأى طفل .. أوه .. ياه .. ياللهول .. يا خبر .. يا دهوتى .. نهاره اسود .. لعلها تقصد زوجها أو شاه إيران .. إنها مليونيرة وتصرخ كأنها لا تملك شراء بعض البروشات أو الدبابيس أو العقود .. أو تملك ولكنها لا تستطيع أن يكون لديها هذا كله ..

وهذه مليونيرة فرنسية يقولون إنها من أسرة روتشيلد اليهودية .. إنها تصرخ بحساب .. أو كأن صرخاتها نوع من التقسيم أو من الطبقات .. فأمام العرش مدت شفتيها لتقول .. رائع ولكنه غير مريح ..

أى أن كرسى العرش رائع من ناحية الصناعة ولكن ليس مريحا أن يجلس الإنسان على هذه الأحجار الكريمة .. لأنها احجار فى النهاية جافة باردة.

وأمام تاج الأمبراطورة فرح ديبا وقفت سيدة من اليابان تقول ممكن .

ولابد أنها تريد أن تقول أن اليابان القادرة على التقليد فى استطاعتها أن تقلد هذا التاج وكل التيجان والتحف والبنك والناس الذين يتفرجون عليه — أنا لا أصدق هذه السيدة فقد رأيت العجائب فى اليابان .

وكنت أول من خرج من المتحف .. وعندما مددت قدمى من الباب .. ووراءها القدم الأخرى أحسست أننى طفوت على وجه الدنيا .. وأننى كنت أحمل البنك طوبة طوبة فوق رأسى .. وأننى تعبت .. وأننى لم أعد قادرا على الرؤية ولا حتى على سماع شئ كأن كل الاحجار تصرخ بصوت مثل صوتها غير مسموع وانها الهبت خلاياى .. وأننى خرجت مشغول التفكير وقد عذرت الناس الذين تساقطوا على المقاعد إنهم فى حالة إغماء .. وإغماؤهم هذا تحية عظيمة لصاحب فكرة إقامة متحف مجوهرات التاج .. أعظم مجوهرات لأى تاج فى العـــالم .

فقط .. عندما صعدت درجات السلم واحدة .. واحدة .. ثم خرجت إلى الشارع .. هنا أحسست أننى فلان الفلانى .. وأن حذائى أحسن من حذاء الخمسة الذين خرجوا معى .. وأن الصوف الذى أرتديه إنجليزى .. والكرافتة فرنسية .. والسجائر أمريكية .. لقد أحسست أن كل ما كنت املكه قد عاد لى .. فهذا المتحف جردنى من كل شئ .. والآن .. كل شئ فى مكانه من نفسى ومن جسمى .. وأن شعورا قويا فى داخلى يقول .. ولكن هل أنا فى حاجة إلى كل هذا والجواب طبعا لا ..

ولكن هناك شعورا بالضيق واليأس عند كل الناس .. فلا أحد يملك شيئا من ذلك ولا أمل عنده .. ولابد أن شعورا آخر يرد على هذا الشعور ولكن احدا من ملوك الدنيا لا يملك شيئا من ذلك .. فنحن والملوك كلهم أمام هذا البنك على قدم المساواة من الفقر واليأس والغيظ .. وعدم الارتياح .. وأن الراحة الكبرى فى الشارع .. ففيه الحرية وفيه الناس يتباعدون .. وفيه الناس معا .. وفيه هواء أكثر .. وكميات لا تنتهى من الأوكسجين الذى ينعش العين والأذن والقلب والعقل .. وفتح الشهية لكل شئ .. للطعام مثلا .

ولا أعرف كيف جاءت كلمة الطعام هذه .. ولكن أعتقد أن الإنسان فى حالة الدفاع عن النفس يستهلك الكثير من حرارته .. فيجوع .. ومعظم الذين يغضبون يأكلون أكثر .. لأن حاجتهم إلى مواد جديدة .. مثل حاجة الفرن إلى وقود .. ثم إننا أمام هذه الإشعاعات الميته يتمسك الإنسان بالحياة .. بالطعام .

وفى شوارع طهران نجد لافتات كبيرة كلها تقول .. شيلو كباب .

وهذا الشيلوكباب فيها أهم طعام يومى وهو على كل مائدة .. مثل الملوخية أو فتة الكوارع عندنا فى مصر .

ومعظم الأطعمة الإيرانية أرز .. والأرز الإيرانى طويل .. ثلاثة أمثال الأرز المصرى .. وأخف وطعمه أحسن .. والسمن فيه أقل .. أو هم

لا يستخدمون السمن .. هذا المطعم مليء .. والإيرانيون برعوا فى النقش على الزجاج واستخدام الجبس .. لا أظن أحدا قد تفوق عليهم فى ذلك ..

جاء الجرسون وقال له أحد الأصدقاء بالفارسية ما لا نعرف بالتفصيل .. وجاءت زجاجات الزبادى .. الزبادى مع المياه المعدنية .. وأنا أحد مدمنى الزبادى وعسل النحل الذى هو من نعيم الدنيا والآخرة . . وجاء الخبز طويلا عريضا مليئا بالثقوب ويخبزونه على الحجر أو على التراب الساخن .. ثم جاءت الزبدة بكمية كبيرة ثم جاء البيض ثم جاء الأرز ساخنا . . وعليك أن تأتى بالزبد وتقليه على الأرز الساخن وسوف تسمع للزبدة صوتا وهى تسيح .. ثم تقوم بعمل فجوة فى طبق الأرز .. وتضع فى هذه الفجوة البيضة التى كسرتها .. صفار البيضة فقط .. ثم تلقى بالبياض بعيداً وبعد ذلك عليك أن تقلب الأرز والزبدة والبيض وتضع بعض اللحوم وتأكل بالهناء والشفاء فإذا لم تجده لذيذاً فعلك حق .. أنا لم أجده كذلك .

والمطبخ الإيرانى لا هو كالهندى المليء بالتوابل والبهارات ولا هو كالمطعم الصينى الذى هو أعشاب مسلوقة وتوابل ولا هو كالمطبخ العربى القائم على اللحم المشوى .

إنه شئ آخر وأفضل أن تأكل الأرز أينما وجدته فهو أحسن وألذ .. وأما الفواكه فعندهم كل الأنواع وهم يأكلون البطيخ .. ونوعه أخضر وقشرته غليظة ولكن طعمه لذيذ .. أما الخيار فهو كثير أيضا .. ويأكلونه على أنه نوع من الفاكهة . كذلك فى العراق .

سألت الجرسون عن معنى الأبيات المنقوشة على الجدار : هل هذا شعر عمر الخيام ؟ قال : نعم ..

قلت : ماذا يقول .. فقال ما معناه لا تضع وقتك فى السؤال عن شئ .. وإنما انتهز الفرصة وأستمتع بالطعام فليست لك إلا هذه الحياة .

وضحكت وقال ما الذى أضحكك ؟

قلت : إنك اخترت أحسن ما فى رباعيات الخيام .. أخذت ما يناسبك تماما ..

وهز رأسه بما معناه أن هذا صحيح ..

وعدت إلى رباعيات الخيام أبحث عن هذا المعنى فوجدت الخيام يقول من ترجمة أحمد رامى :

اشرب فمثواك التراب المهيل فلا حبيب مؤنس أو خليل
وانشق عبير العيش فى فجره فليس يزهو الورد بعد الذبول

وفى الليل قررت أن أتناول عشاء ايرانيا وضغطت على الكلمة الأخيرة .. وجاء العيش أشكالا وألوانا .. إنه كالعيش الفلاحى عندنا لذيذ .. وجاء الكافيار الذهبى الأسود .. أحسن كافيار فى العالم .. إنه فى متناول أى أحد .. ولم يعد فى متناول الألف عائلة الإيرانية التى كانت تحكم إيران وتملك ارضها وغاباتها — الغابات ١٨ مليون فدان .

الكافيار موجود فى أماكن كثيرة للاستهلاك والتصدير وهو يجئ فى المرتبة السادسة بعد البترول والمنسوجات والسجاد والغابات .

وفى عيد النيروز أو السنة الجديدة يأكلون سبعة أطباق تبدأ كلها بحرف س .. وعلى المائدة يضعون زهرة ورد النيل الملعونة فى مصر والتى تهدد الترع والمصارف وتقتل الأسماك والتى نخشى أن تغطى بحيرة ناصر يوما ما وفى ذلك هلاك للأراضى المزروعة فى مصر كلها .. ثم يضعون حوضا زجاجيا به سمكتان .. ويتفاءلون بورد النيل والسمك .. مع أن الكثيرين فى البلاد الأخرى يتشاءمون من وجود السمك الصغير فى البيوت .. أكثر النساء يرين أن السمك يؤدى إلى الفراق بين الأزواج تماما كضياع منديل أو أخذ منديل .

ومن الأسهل أن تتناول طعاما أوربيا .. ولكنه ليس أفضل طعام لمن يريد أن يعرف .. فإذا عرف كتب للناس عما رأى ..

وبعد تناول الطعام يستحسن أن تشرب الشاى .. ولا اختيار لك فى شرب الشاى .. فهو ضرورى فى كل مكتب وكل بيت .. ولم ألاحظ أن الإيرانيين يضعون السكر فى أفواههم ثم يشربون عليه الشاى كما تقول الكتب .. فكل الذين رأيتهم من كبار رجال الدولة لا يفعلون ذلك .. إنهم أوربيون جميعا .. أى تعلموا فى أوربا .. ولكن فى أحد المقاهى ضبطت عشرين واحدا يلتقطون السكر ويضعونه فى أفواههم ووراءه الشاى .. الآن فقط عرفت سر تساقط الأسنان .. إنه هذا السكر .. وكنت أتصور نفس الشئ فى جزيرة مالى فى أندونيسيا .. ولكن فى هذه الجزيرة لابد أن يجئ المأذون بمبراة ويزيل الطبقة اللامعة فوق الاسنان وبين أسنان العروسين لأن الشر يسكن بين الأسنان .. ولا يمضى وقت طويل حتى تكون أسنان العروسين قد تساقطت .

أما البيوت الإيرانية التى دخلتها فمن الطبيعى أن تجد فيها السجاجيد أشكالا وألوانا وأحجاما .. وعلى الأرض وتحت الأقدام وعلى الجدران .. وأن تجد النجف والفازات الكريستال والصناعات المعدنية الرائعة .. وفى إيران قصور جميلة غير القصور الملكية .. هناك السفارات .. فسفارات روسيا وأمريكا وبريطانيا عبارة عن مدن منفصلة بحدائقها الرائعة الفخمة .. بعض السفارات لها فروع صيفية أو شتوية .. السفارة الأمريكية هى التى تولت دهن مقاعد الحدائق العامة على حسابها وفى حدائق هذه السفارة بعض الفيلة التى اشترتها من الهند .

وأكثر السفراء من المستشرقين ..

والسفارة المصرية كانت تسكن فى ذلك القصر الجميل الذى أهداه الشاه إلى مصر أيام كانت زوجته هى الأميرة فوزية أخت الملك فاروق .. والقصر

آيل للسقوط الآن .. ولكنه من الداخل تحفة فنية .. وما تزال أدوات الطعام عليها التاج الملكي المصرى تماما كأدوات الطعام فى معظم سفاراتنا فى الخارج كسفارتنا فى لندن مثلا ومعظم هذه الأدوات ملقاه على الأرض عهده .. وهناك تحف من الزجاج والخشب فى مبنى السفارة القديم .

أما المبنى المؤقت فهو مبنى متواضع المدخل والغرف ولذلك فمبنى السفارة القديم متحف سوف يتحول إلى كوم تراب قريبا إن شاء الله ..

لا أعرف ما الذى جعلنى أتذكر قول عمر الخيام :

زخارف الدنيا . . أساس الألم وطالب الدنيا .. نديم الندم
فكن خلى البال من أمرها فكل ما فيها .. شقاء وهم

ولكن كيف يا أستاذنا الخيام يعيش الانسان ويضطر إلى أن يعيش وأن يرى ويسمع ويتعب ويستشعر الظلم ثم لا يطلب العدل .. أى المزيد من الطعام والشراب والمجوهرات .. كيف ؟

عاشر من الناس كبار العقول وجانب الجهال أهل الفضول
واشرب نقيع السم من عاقل واسكب على الأرض دواء الجهول

ولكن يا استاذنا الخيام إذا كان الجهال هم الأغلبية .. وإذا كانت الأغلبية فى الدنيا هى التى تتحكم فى مصائر الأقلية من أمثالك . . فماذا نفعل ؟

يقول عمر الخيـــام :

إذا بلغت المجد قالوا زنيم وإن لزمت الدار قالوا .. لئيم
فجانب الناس ولا تلمس معرفة تورث حمل الهموم

وأستاذنا الشاعر الصوفى الفلكى عمر الخيام لم يطبق بيتا واحدا من شعره .. فمات وهو يحلم بأن يطيل الله عمره لعله يستطيع .. ولم يطل عمره وإنما طال عمر شعره وسوف يطول إلى نهاية العالم .

أما كيف تستطيع فتاة صغيرة لا تقرأ ولا تكتب أن تمد اصابعها فى الضوء الباهت وتختار خيطا واحدا من أربعين خيطا وأحيانا من ثمانين فهذه معجزة صناعة السجاد فى ايران .

وأما كيف أن معهدا كل همه أن يجمع الثعابين من كل ايران.والعالم ويضغط على رأسها لتبصق السم،الوف الثعابين أنا جربت ذلك .. فهذا هو كفاح رجال العلم من أجل كثير من الأمراض فى العـــالم .

وأما كيف أنك إذا وقفت على مئذنة فى يدك كوب من المـاء ثم وقف إنسان آخر فى مئذنة مجاورة ثم تحول يمينا وشمالا فإن المـاء فى يدك يتحرك ويهتز ثم يسقط .. فليس هناك أى تفسير علمى لذلك .

منتهى الأفراح
والليالى الملاح

يقال أن أحد الملوك بعث بأبنائه إلى أحد المعلمين وقال له : أريد أن يكون أولادى فى أدب وثقافة أولادك .. ثم تركهم بضع سنوات ، وعاد يقول : ولكن أولادك أكثر أدبا وعلما .. فقال له المعلم : إن العلم واحد ولكن الطبائع مختلفة .

يقول الشاعر سعدى : ليس المهم أن يتعلم الناس ، ولكن أن تكون لهم طبائع متشابهة .

يقول الشاعر الإيرانى سعدى : إذا أردت أن تكون لك ثروة والدك يجب أن تكون عندك خبرته .. ثروته يمكن إنفاقها فى ساعات .. أما خبرته فلا يمكن تحصيلها إلا فى سنوات .

لم أسمع هذه النصيحة من أحد .. ولا كان من الضرورى أن أسمعها .. ولكنها جاءت فى أذنى وأنا اتفرج على طبقات السجاجيد التى أمامى .. مئات .. ألوف .. عشرات الألوف .. وبملايين الجنيهات أيضا .. فأنت تمسك السجادة الايرانية — العجمية فتجدها سميكة متينة .. خشنة من ناحية وحريرا من الناحية الأخرى .. أول ما يخطر على بالك أنها مصنوعة ميكانيكيا . هذه الفكرة غلط . ولكى يثبت لك أنك غلطان لن تحتاج إلى وقت طويل . فالناس هناك يعرفون دهشتك . ويعرفون كيف يقضون عليها وعليك فى لحظة واحدة .. تفضل حضرتك . وادخل .. ثم ادخل .. أنت أمام أحد المكاتب . المكتب عليها خرائط وأرقام ورسوم بيانية دقيقة .. هذه الرسومات هى مشروع سجادة عجمية .. هذا المشروع يعطى لبعض العمال .. لا تسأل عن

ثقافتهم .. إن تجاربهم أدق من ثقافتهم ، بل انهم لم يقرأوا الكثير كما تتصور وهذه الرسومات سوف يطبقونها تماما حرفيا . . أو خطيا إذا صح هــذا التعبير .. لأن الرسومات بها مربعات .. والمربعات بها خطوط . والخطوط تصل إلى ١٢٠ خطا فى السنتيمتر الواحد . . ليس مفهوما هذا الكلام . أنا مثلك لم أفهمه بسهولة .

ولكنى أحاول أن أنقل إليك ما فهمته هناك .. ولم أجربه ولن أجربه هنا .. نحن فى مصر ، وفى شارع قصر النيل عندما تتفرج على سجادة نسأل : كم عقدة من فضلك ؟

ويجى التاجر ويكون من أصل ايرانى عادة ويقول : ٣٦ عقدة . ونقول نحن بسرعة : ياه ! وهذه « الياه » ليس لها أى معنى .. غير أننا نبدى الدهشة كأننا كنا نعرف شيئا من الحقيقة مثلا كأن تكون ٣٦ عقدة هذه هى أكبر ما يمكن عمله فى السنتيمتر الواحد من السجادة .. أو يكون عددها قليلا ونحن نحتاج إلى سجادة أكثر تعقيدا .. أنا أيضا قلت : ياه .. عندما قالوا لى : أن هذه السجادة ثمانون عقدة . . وسجادة أخرى مائة عقدة .. ولم أفهم أى شئ مما قالوا .. أو مما حاولت أن أقول ..

ويبدو أنهم فى ايران قد اعتادوا على أدعياء العلم . ولذلك بدأ الواحد منهم يشرح لى كأننى لا أعرف أى شئ . فقال : إن العامل الايرانى فى استطاعته أن يجعل فى السنتيمتر الواحد أكثر من مائة عقدة . أى أكثر من مائة خيط طالعة ونازلة ومعقودة بدقة وقوة .. فى قوة الحديد وصلابته ونعومة الحرير أيضا .. ويبدوا أن هذا الكلام ليس واضحا بدرجة كافية .. ولكن هذه معلوماتى .. وبقى أن أفهم كيف يربطون العقد .. أو يعقدونها . إن لهم انوالا يدوية كالأنوال العادية التى نصنع عليها السجاد العادى فى القاهرة وأسيوط ، وليس فى المحلة الكبرى . فنى المحلة أنوال آلية .. وبعض هذه السجاجيد يتم صنعه فى خمس سنوات وفى عشر سنوات وأقل هذه

السجاجيد مساحة وقيمة فى ستة شهور .. وكل شئ له ثمن .. والثمن غال .. فالدولة تبيع من هذه السجاجيد سنويا بما يزيد عن ٣٠٠ مليون جنيه .

والوان السجاجيد ثابتة .. طبعا وكلما دست على هذه السجاجيد بالجزمة لابقدميك ازدادت جمالا .. وازدادت قيمتها الفنية .. وكلما قدمت ارتفع سعرها .

أشار أحد المرافقين لى إلى سجادة وقال : تحب تتفرج .. قلت : أحب قال : تحب تلمسها قلت : أحب . قال : تحب تشتريها ؟ قلت : لا أحب . قال : ولم لا . قلت : لأننى لا استطيع . فقال : ولكن ثمنها لايزيد عن ألف جنيه . فقلت : لهذا السبب .

السجادة لا تزيد مساحتها عن متر ونصف فى متر وبضعة سنتيمترات .. ملمسها حرير وسعرها نار ..

والدولة لها محلات خاصة لبيع السجاجيد .. وعلى السجاجيد رقابة شديدة فى البيع والشراء والتصدير .. وفى أحد المحلات وجدت أن هناك رسائل من اليابان واستراليا وكندا والسويد وجنوب أفريقيا .. ومعروف متى سيرسلون هذه السجاجيد وكل شئ يمشى بنظام ودقة وهدوء غريب .. لا كلام .. لا سلام .. لا أحد يدرى من الدنيا التى حوله مسافة أطول من خيط فى يده .. بعض العاملين من الفتيات الصغيرات .. رأيت فتاة تستطيع أن تفرز خيطا واحدا من أربعين خيطا متلاصقة فإذا قلت لها : أريد الخيط رقم ٢٧ البنى الفاتح الميال إلى الأخضر مع شئ من الزرقة .. ثم أعطيتها حبلا من مائة لون .. فإنها بسرعة الملقاط تخرج لك هذا الخيط .. وأنظر إلى عينيها . العينان عاديتان .. ليس فيهما أى بريق عجيب .. ليستا عينى الصقر الذى ينظر من الف متر على دودة فوق الحجر فى ظل الشجر .. ولكنها الخبرة الطويلة والممارسة المثمرة .

إن ايران قد تفوقت فى هذه الفنون الصغرى : الأبسطة والمنسوجات

والأوانى الخزفية والتحف المعدنية والحلى وتجليد الكتب وتذهيبها وتحليتها بالصـــور .

سألت عن عدد السجاجيد التى اشتراها الملوك والرؤساء .. فقال واحد : تقصد السجاجيد التى أهديت لهم ؟

ولم أقصد ذلك طبعا .. فلم أتصور أن أحدا يعرف .. وحتى إذا عرف فإنه لا يستطيع أن يقول .. فقلت نعم . قال : لا أعرف بالضبط .

وهذا ما توقعته .. فقلت إنما أقصد السجاجيد التى اشتروها .. فبعضهم اشترى الكثير .

قال متحفظا : إن أحد الملوك اشترى سجادة من مقاس واحد .. مع أننا عرضنا عليه أشكالا وألوانا .. قلت : هل اشترى ملك بلجيكا ٣٩ سجادة ؟ قال : سمعت أن هذا صحيح . قلت : هل اشترت عروس رئيس وزراء فرنسا ١٢ سجادة .

فقال : سمعت أنها اشترت ١٥ سجادة .. ولكن من أحجام والوان مختلفة . فهى ذات ذوق جميل .

قلت : من هو الأمير العربى الذى طلب أن تصنعوا له سجادة طولهـــا عشرون مترا وعرضها تسعة أمتار ؟

فقال الرجل : لا أعرف .. قلت : ولكنه لم يغضب عندما اقترح عليه واحد منكم أنه من الأفضل أن يبنى بيتا أحسن من البيت الذى يقيم فيه .. لأن السجادة سيكون ثمنها أغلى من البيت ؟ قال : سمعت ذلك .. قلت : هل صحيح أن زوجة الرئيس الفلبينى طلبت سجادة مرسوما عليها صورتها هى وابنتها وابنها وزوجها .. صورة عائلية ملونة واشترطت أن يكون ذلك قبل ثلاثة شهور مهما كان الثمن .

قال : حدث .. قلت : ولكن لمـــاذا اعتذرتم ؟ فقال : السجادة تحتاج إلى سنة ونصف سنة .. ولكنها تستعجل صناعتها لأنها تريد أن تجعلها هدية لزوجها فى عيد ميلاده .

قلت : من هو الأمير العربى الذى عرض عليكم أن يبيع ما عنده من السجاجيد بنصف الثمن .. ثم أنكم رفضتهم ؟

قال : لم نرفض الصفقة ولكن رفضنا هذه الصفعة .

ولو وضعت السجاجيد الموجودة فى شارعى الفردوس وبهلوى الواحدة فوق الأخرى لأصبحت فى أرتفاع فندق شيراتون القاهرة بشرط أن نضع بعض السيارات فوق السطوح أيضا .

وفى مدينة أصفهان التى تقع على مدى الف ميل من العاصمة طهران . أو طهرون كما ينطقونها توجد المعالم الأخرى التى يفخر بها أهل ايران .

فأصفهان هذه — وأصلها أى الجنود — كانت عاصمة قديمة لإيران ولمئات السنين . المدينة يسمونها : نصف الدنيا .. وإذا كانت شيراز أصبحت الآن نصف الدنيا لأن بها الخيام الملكية الرائعة . فأصفهان نصفها الآخـــر لأن بها المساجد الرائعة البناء والنقش .. وهى مساجد لا نجد فيها مصليـــا واحدا فى أى وقت .. فالمساجد تدخلها بالجزمة .. وتمشى على البلاط .. أو على الحجارة .. وتندهش كيف أن هذه المساجد تحولت إلى متاحف .. وفى إيران وفى العراق لا يصلون الجمعة .. أو لا يعرفون الصلاة الجامعة ، لأن الإمام غائب .. فلا صلاة بغير إمام .. وغياب الإمام والأئمة ، أحد خطوط الفلسفة الشيعية — وهذه قصة أخرى .

وهم لا يصلون الصلوات فى اوقاتها الخمسة .. ثلاث مرات فقط : الصبح .. والظهر والعصر معا .. والمغرب والعشاء معا .. ويقولون : سنة عن رسول الله — وهذه قصة أخرى :

يقول الشاعر سعدى : إذا رأيت ما يدهشك ، فانتظر قليلا حتى لا تقول شيئا يدهش الناس .. ويتركوا ما فى أيديهم ليسألوا : من أى الغابات جاء هذا الحيـــوان .

معك حق .. ولذلك ابتلعت دهشتى .. ولابد أن المدن الأخرى تحقد على هذه المدينة أصفهان .. ويقولون ان أهلها : ليس عندهم أى ذوق ولا دم .. انهم تجار فقط .. يبيعون ويشترون فقط .. ولا يعرفون الله ..

وسعدى يقول : إن الذين يسكنون إلى جوار المساجد يذهبون إلى الصلاة متأخـــرين .. معك حق .. ولكن لم ألاحظ شيئا من ذلك .. فعندما دخلت السوق الجديدة الأنيقة ذات البواكى نهض تجار الذهب والأحجار الكريمة .. وهات يا سلام ويا كلام ..

واحد منهم قال : إن خاله استاذ اللغة الفارسية فى القاهرة .. وواحد آخر قال : إن أخته زوجة استاذ الشريعة فى الأزهر .. والثالث قال : أبى كان فى مصر ودفن فيها .. ثم قدموا لنا علب الحلوى .. والسجائر الإيرانية الرديئة .. منتهى الذوق .. وليس من الضرورى طبعا أن تشترى أى شئ .. ولكن هناك مشكلة ، تماما كالتى واجهتها فى هونج كونج .. فأنت لا تطلب شيئا إلا وجده لك البائع .. تقول : أريد قطعة من الماس نصف قيراط .. موجودة : ثلاثة قراريط .. موجودة .. عشرة قراريط .. موجودة .. ولو قلت ١٨٢ قيراطا لقال لك موجودة فى متحف مجوهرات التاج فى طهران .. قالت سيدة : أريد قطعة من التركواز أزرق فى أخضر من التى يبيعونها فى الصين .

قال التاجر : يا سلام ياهانم .. عمرك أطول من عمرى .. أختى فى الصين .. وقد أرسلت لى هذه الهدية .. ثم أخرج قطعة التركواز المطلوبة .

فترد السيدة : آه حلوة جدا .. لكن عيبها أنها مشروخة قليلا .. أنظر ..

ياخسارة لو كانت أصغر قليلا .. ومدببة .. لأن المبططة تجعل الخاتم أكبر .. والموضة الآن هى الخاتم الصغير والحجر الكبير .. خسارة .

ويقول التاجر : فعلا خسارة .. لكن من أجل حضرتك وتشريفك هذا المحل لأول مرة لن استخسر فيك أى شئ .. عندى طلبك ياهانم .. تفضلى .

إنها قنبلة .. لقد عثر لها على الحجر المطلوب .. ولكن النساء قد أعتدن على مثل هذه القنابل فى البيع والشراء والمفاصلة والمحاورة والمداورة فإنها تقول : حلوة جدا .. بالضبط هذه هى التى أريدها .

ولكنها فى نفس الوقت تقلب فيها يمينا وشمالا .. ومن بعيد ومن قريب .. وفى الضوء وتخرج بها إلى ضوء النهار .. والبائع يعلم أن السيدة تبحث عن عيب لكى ترفضها .. يعلم ذلك جيدا .. وهى أيضا تعرف أنه يعلم ، ثم تعود بسرعة — وقد نظرت إلى قطعة من الياقوت أو الزمرد ..

والبائع ينتظر رأيها فتقول له : جميلة قوى .. ولكن حضرتك يجب أن تعرف أننى إذا وضعت هذا الحجر فى خاتم فى يد طفلة صغيرة بمناسبة عيد ميلادها .. سيكون مضحكا ..

فيقول البائع : إنه يصلح اسورة فى يدها .. أو عقدا فى عنقها .. أو يمكن الاحتفاظ به فى علبة ذهبية جميلة إلى أن تكبر ..

ويلاحظ أن السيدة قد وجدت السبب وتنتظر أى واحدة من النساء لتجئ فتخرج هى فى الزحمة .. فيقول لها البائع : سيدتى أنا لا أنصحك بشراء هذا الحجر .. فعندنا اسطورة شعبية تقول أن الحجر التركواز يمنع الحسد إذا كان صغيرا ، اما إذا كان كبيرا فإنه يلتقط الحسد .

منتهى الذكاء والرقة من البائع .. وبذلك تخرج السيدة دون أن تشترى .

أنهم فى هونج كونج اساتذة فى البيع .. ومن المستحيل أن تهرب من البائع الصينى .. تقول له : أريد ساعة صغيرة لطفل عمره ستة شهور .. يأتى لك بساعة بلا عقارب .. تدق فقط .. تقول : أريد ساعة لأم هذا الطفل .. أنها عمياء خرساء صماء .. فيأتى لك بساعة على شكل عقربة تلسع الأم فى أى مكان تضع الساعه فيه .

هذه البراعة فى البيع والشراء قد جعلت المدن والقرى المجاورة تكره أهل اصفهان .. قالوا عنها أنها كانت عبارة عن مدينتين أدمج بعضهما فى بعض .. واحدة من المدينة اسمها : جاى .. وفى هذه المدينة عاش اليهود الذين هربوا من الأسر البابلى .. أى من الملك بختنصر فجاء الملك كوروش العظيم وأعادهم إلى بلادهم .. أو أبقاهم فى هذه البلاد .. وتعلم أبناء اصفهان فن التجارة والإستغراق فيها من اليهود .. ولذلك فهم أناس فى حالهم .. وحالهم هو بيع الذهب .. أو بيع الناس للناس .. ولابد أن هذه المساجد كل مالها من قيمة هنا : أنها للسياحة فقط .. فكل الصناعات الصغيرة فى المدينة التصقت بالمساجد .. وأمامها ووراءها .. وكل الطرق التى تتجه إلى المساجد تؤدى إلى هذه الدكاكين الكثيرة .

والمدينة كان حولها سور طوله ١٥ خطوة وله ١٢ بوابة . وكان ذلك أيام الملك محمود الغزنوى .. وهو ملك يحب العلم والعلماء .. ولكنه يحب المنافقين له أيضا . أكثر الملوك يحبون ذلك وكان فى حاشيته عدد من العلماء، والعلماء يكرهون العلماء أيضا ويحتقرون الملوك وينافقونهم ومن أهم الذين ظهروا فى بلاط محمود الغزنوى العالم الفلكى الكبير أبو ريحان البيرونى. كانت الهند تحتفل بذكراه قبل حربها الأخيرة .

والبيرونى هذا كان عالما كبيرا .. وكان كارها كبيرا .. ولابد أنه هو المسئول عن الذى أصاب أمير شعراء ايران الفردوسى . فالفردوسى بعد أن الف كتابه الشهير « شاهنامه » أى كتاب الملوك ، توقع من الملك محمود الغزنوى أى يبعث له بمكافأة .. بهدية .. بأى قدر من المال .. فالشاعر قد كبر ومرض وكف بصره .. ولكن الملك لم يفعل .. ولذلك قرر الشاعر أن يهاجر من بلاده .. وخرج من مدينة طوس .. وقرر أن ينتحر .. ثم عدل عن الانتحار حتى لا يكون موته سببا فى سعادة الملك وحاشيته من العلماء والمنافقين . . ولكن واحدا من حاشية الملك تشجع وقال له : يامولانا .. أن الفردوسي يموت جوعا .. وهو ليس فى حاجة إلى طعام .. كلمة منك أمتع من أى طعام .

وقرر محمود الغزنوى أن يبعث للفردوسى بهدية .. أرسل له جملا محملا بالهدايا .. بالفلوس والحرير والآنية .. ووراء الجمل سار عدد من حراس الملك .. وأمام الجمل أناس يدقون الطبول إعلانا لهذه البشرى العظيمة والرضا السامى .. ومن الغريب أن أحدا من الناس لم يلتفت إلى رجال الملك .. بل إن رجال الملك قد اعترضتهم جنازة .. وحاولوا تفريق الناس .. وأكراههم على الألتفات إلى اللفتة الملكية .. ولكن الناس لم يرفعوا عيونهم عن النعش .. لقد كان نعش الشاعر الفردوسى .

أهم مساجد مدينة أصفهان : المسجد الجامع .. أو مسجد الجمعة .. بنى فى القرن الرابع عشر .. وأدخلت عليه تعديلات كثيرة .. وملحق بالمسجد مكتبة بها مخطوطات أدبية وعلمية .. هذه المخطوطات أحرقها حسن الصباح شيخ الجبل أو زعيم الحشاشين فقد كان يستخدم الحشيش فى تخدير رجاله ثم إدخالهم إلى بعض القلاع التى فيها الفتيات العاريات والموسيقى واللبن الذى يجرى فى الأرض والخمر التى تنزل من السقف .. ثم يوهمهم بأن هذه هى الجنة .. ثم يلقى بهم خارج القلعة .. ويطلب إليهم أن يقتلوا فلانا من الملوك

فإذا فعلوا ادخلهم الجنة .. وإذا لم يفعلوا قتلهم جميعا .. وكانوا عادة يفعلون ..

أحرق المكتبة سنة ١١٢١ ويقال ان أثار النيران ما تزال موجودة .. ويقال من أيام الاسكندر الأكبر .. ويقال إن وراء كل هذه المساجد معابد للنار ، أى لعبادة النار على طريقة النبى زرادشت .

ولا يوجد أثر واحد فى أصفهان أو فى ايران كلها لم يقربه الاسكندر الأكبر « ؟ » ولم يحرقه تيمورلنك وهولاكو وجنكيزخان .. فهم جميعا همجيون — منتهى التعصب القومى .

ومن أهم المعالم أيضا قصر عالى كابو .. أو عالى قابو .. أو « القبو العالى» وهذا من اجتهادى فلم أجد أحدا يشرح لى معنى هذه التسمية ولا وجدت فى الكتب هناك أو عندما عدت إلى القاهرة .. وأن كان « القبو العالى » هو أقرب إلى شكل القصر الذى له مدخل عال .. على شكل قبو .. ومكون من سبعة أدوار .. وكان الملوك يجلسون فى الشرفات يتفرجون على الناس من فوق .. وهذا عيب الملوك لأنهم عادة لا يرون الناس إلا عن بعد .. ويبدوا أن الناس من فوق شكلهم أصغر .. وملامحهم أتفه .. وهذا يريح الذين يرون كل شئ من فوق ويجعلهم يستشعرون بالعظمة مرة أخرى .. وأنهم فوق ، أى فى السماء ، أو من السماء .

وهذا القصر بناه الملك شاه عباس الذى حكم ايران ٤٢ سنة — الشاه الحالى يحكم ايران من ثلاثين سنة .. ولابد أن حرصه على حيويته وشبابه سيجعله يضرب الرقم القياسى فى الحكم فى العالم كله — والله أعلم .

وكان الملك وضيوفه يتفرجون من الشرفات على لعبة البولو .. ووراء القصر توجد مدرسة بها أطفال يلعبون نفس اللعبة .

وهذه المدينة عندما زارها الرحالة الإيطالى بيترو ديلافاله سنة ١٦١٧ قال : إنها أجمل مدينة فى العـــالم .

ماركو بولو الرحالة الإيطالى قال : إن لنسائها أجمل بشرة فى العالم ..

أعترف بأننى لم أر واحدة لها هذه الصفات - الفتيات الصغيرات فقط .. خصوصا عندما يضحكن للنكتة النابية .

الرحالة الفرنسى ساردان عندما رأى أصفهان فى منتصف القرن السابع عشر قال : لا شوارع اصفهان ولا رجالها ولا كرم ملوكها ولا فاكهتها ولا قوة نسائها .. ولا شئ من ذلك فى العالم كله .

ولم نعرف أن كان رأيه أنه لا شئ من ذلك فى العالم كله بمعنى أنه يجب الا يكون فى العالم كله .. وأن الذى فى اصفهان يكفى العالم كله .. ولكن لابد أنه معجب بالمدينة وأن المكتبة الأهلية فى باريس تحتفظ له برسالة يقول فيها لأحد اصدقائه فى اصفهان : « أيام لا أنساها .. وكيف أنسى الليالى الدافئة والخمر .. وكيفا انسى الأصوات من وراء الباب .. إننى تعذبت كثيرا لأننى سمعت فقط .. ولم أر تلك الشفاة السحرية التى تقول أحلى الكلام » ..

لابد أن نساء اصفهان لهن صوت جميل .. وليس من الصدف أن يكون أبو الفرج الاصفهانى مؤلف كتاب الأغانى (٢٤ جزءا) قد سجل الشعر والغناء العربى بالكلمة والصوت وحركات الأصابع على الآلات الموسيقية .. أنه أيضا اصفهانى أو أصبهانى . .

وهذا القصر « القبو العالى » أو قصر الضيافة يبهرك إذا دخلته ولا يترك فى نفسك أى أثر إذا خرجت منه .. فهو ضيق وأمامه ميدان فسيح .. كأن الميدان تعويض عن الضيق الذى خنقك وعن السلالم الحلزونية التى دوختك . ولكن فى هذا القصر حدث أدبى عام .. فالفنان الذى رسم النقوش فى داخل القصر قد وقع بإمضائه ..

وهذا الفنان اسمه رضا عباس .. وهذا شئ جديد .. فلم يكن مألوفا

من أقدم العصور أن تعرف اسم الفنان الذى نقش أو المهندس الذى بنى . أن الهرم الأكبر قد بقى بلا توقيع من المهندس الذى أنشأه .

ولكن يظهر أن الايرانيين أو أن الملوك قصار القامة ، فالأبواب كلها صغيرة .. أو أن المهندس جعل الأبواب منخفضة حتى إذا دخل الناس على الملك انحنوا — الفرنسيون فعلوا نفس الشئ فى مقبرة نابليون فى باريس .. فالمقبرة تحت والناس ينظرون إليها من فوق .. انهم يقفون أعلى من المقبرة . هذا صحيح ، ولكن لكى يروها لابد أن ينحنوا .

وفى اصفهان « مسجد الشاه » .. وفى منطقة من المسجد اسمها « السليمانية » لا أعرف معناها .. ولم أجد احدا يشرح لى معنى هذه الكلمة .. وفيها حجر . هذا الحجر تقف عليه الشمس الساعة ١٢ من كل يوم صيفا وشتاء .. ولابد أن تقف عليه .

ومن أهم مساجد اصفهان : مسجد الشيخ لطف الله .. المسجد تحفة فى العمارة والزخرفة .. وليس له نظير فى كل ايران .. هذا المسجد أنشأه أيضا الملك شاه عباس .. أما الشيخ لطف الله هذا فرجل لبنانى من الشيعة .. ترك بلاده وجاء يعيش فى مدينة مشهد بايران .. ودعاه الشاه سنة ١٦١٢ ، ولما توفى الشيخ لطف الله اطلق اسمه على هذا المسجد وهذا المسجد خاص بالملك .. وهو فى مواجهة قصر الضيافة .. ولذلك فالمسجد ليست له مئذنة لأنه لا يدعو أحدا للصلاة . . وإنما الذين سوف يصلون موجودون فى داخل المسجد .. والمسجد له مدخل عبارة عن ممر ضيق .. تمشى فيه بالحزمة أيضا . ثم تدخل إلى قاعات صغيرة للصلاة والنقوش على الجانبين تحفة .. والألوان الزرقاء غالبة على كل شئ .. وفى نفس الوقت مريحة للعين .. والذى صمم المسجد اسمه الاستاذ محمد رضا اصفهانى . وهو لم ينس نفسه فقد كتب أيضا على أحد الجدران : الفقير إلى الله تعالى والمحتاج إلى رحمته ورضاه . محمد رضا ابن الاستاذ حسين الذى انشأ اصفهان » .. أما المسجد نفسه فليس فيه واحد

يوحد الله .. لا صلاة .. لا سجاجيد .. لا حصر .. على الأرض .. لا ماء ولا حنفية .. لا أحد يصلى .. ولم أفهم .. ولا أجد احدا يقول لى شيئا عن ذلك .

إنهم فى اليابان حلوا مشكلة الذهاب إلى المعابد بأن أقاموا نماذج صغيرة للمعابد فى بيوتهم .. يتوجهون إلى هذه المعابد الترانزستور ويصلون .

ويقول الناس عن أهل أصفهان أنهم بخلاء وأنهم غارقون فى الذهب . ولو صنع الذهب عجلا . لخروا ساجدين .. وأعتقد أن هذا النوع من الحقد .. حقد المدن على المدن الأخرى .. كما يحقد الفلاحون على الصعايدة.. أو الصعايدة على البحاروة . . انهم فى ألمانيا يحقدون على سكان مدينة تبينجن . فهذه المدينة جامعية .. وهى حريصة على أن تكون نموذجية للذين يطلبون العلم . ولذلك لا توجد بها مواصلات من أى نوع لا سيارات ولا عربات ولا ترام ولا قطارات الناس جميعا يمشون على أقدامهم . أى لا ضوضاء هذه المدينة كان يعيش فيها الفيلسوف هيجل والشاعر هيلدرلن وتقع فى واد أخضر جميل .. وبعد هذا الوادى تجد الجبال والغابات وفى هذه المدينة نهر صغير كان يقع عليه البيت الذى عاش فيه ومات الشاعر الألمانى هيلدرلن (عاش ٨٠ سنة) أربعون منها فى مستشفى الأمراض العقلية . وأهل هذه المنطقة يسمون سكان تبينجن بالمصريين . أى أنهم ليسوا ألمانا . وإنما مصريون . وهم بهذا لا يكرمونهم وإنما يسخرون منهم . لماذا ؟ لأن أراضيهم خصبة ونهرهم يجرى كأنه النيل . انه حقد المدن بعضها على بعض . حقد سكان الجبال القاحلة ، على سكان الوديان الخصبة .

وكذلك يقولون عن أهل أصفهان أنهم من اليهود . أى مشكوك فى نسبهم ، وأنهم من أصل فارسى .

وفى أصفهان قصر اسمه قصر « الأربعين عمودا » .. إن هذه الأعمدة ليست أربعين وإنما عشرون فقط .. ولكن إذا انعكست فى حمام السباحة

الذى أمام القصر أصبحت أربعين ربما كان هذا هو السبب . لأن كلمة « أربعين » فى اللغة الفارسية معناها الكثير .. فنحن نقول فلانا هو ابن ستين فى سبعين .. أو تقول : أنا قلت لك ستين مرة .. وهم فى إيران يستخدمون « الأربعين » للدلالة على الكثير ..

ومن أهم عجائب أصفهان المسجد الذى له مئذنتان ترتجفان . المسجد اسمه « منارة الجنبان » . المسجد له قصة غريبة .. إذا أنت وقفت فى مئذنة وهززتها بيدك اهتزت المئذنة الأخرى .. أو إذا وقفت على مئذنة المسجد ووضعت كوبا من الماء فى المئذنة الأخرى اهتزت .. واهتز الزيت الموجود فى القناديل . والعلماء والأثريون الأجانب الذين جاءوا إلى هذه المنطقة لم يجدوا تفسيرا علميا لذلك . واستراحوا إلى أن الناس يقولون أنها معجزة الشيخ الكلاردانى .. هذا الشيخ راهب أو درويش اسمه عم عبد الله الكلاردانى جاء إلى أصفهان أيام المغول أى فى أوائل القرن الرابع عشر . ويقال أن الرجل جاء هاربا من الناس . فماذا فعل ؟ هرب من الناس إلى الناس وقد ظن أن الناس فى أصفهان من طينة أخرى .. وظن أن المساجد تطهر الناس وتذكرهم بالله ولكن لم يعرف عنهم نسيان المسجد والإنشغال عن الآذان ..

يقول الشاعر سعدى : إذا غسلت الكلب فى المحيطات السبعة ، فسوف يخرج منها أكثر قذارة . وإذا ذهب الحمار الذى ركبه المسيح إلى الكعبة ، لعاد الحمار حمارا ..

وقد بنى هذا المسجد سنة ١٣٢٦ ودفن فيه هذا الراهب .. واهتزاز المئذنتين معناه أن الرجل ما يزال يقول : لا — وهو تحت التراب — لا خير فى الناس .. لا خير فى هذه الحياة .

ان الجامع المرتجف هو معجزة الرجل الطيب المدفون تحته .. إنه مثل برج بيزا فى إيطاليا ومثل قبة كنيسة القديس بولس فى لندن .

وعلى مدى ساعة من أصفهان توجد مصانع الحديد والصلب التى أقامها الاتحاد السوفيتى وشاه إيران حريص على كل الأطراف : فتسليح الجيش أمريكى ومشية الجيش هى مشية الأوزة النازية ومصانع السيارات معظمها ألمانى وأمريكى وروماني وياباني ..

ومن أهم معالم أصفهان — التى ليست مثل ألف ليلة وليلة كما يتوهم الناس — كنائس الأرمن ومقابرهم أيضا . ومن أهم مقابر الأرمن مقبرة شخص سويسرى اسمه جاكوب روسو . مكتوب على قبره : جاكوب روسو صانع ساعات سويسرى .. عاش ٧٤ سنة منها ٤٨ سنة فى مدينة أصفهان . توفى يوم ٢٩ مارس سنة ١٧٩٣ ..

هذا الرجل هو عم الفيلسوف الفرنسى السويسرى أيضا : جان جاك روسو .

وأمام فندق الشاة الجديد وقفت أشترى بعض الكتب سقط منى واحد على الأرض فانحنيت طبعا لكى التقطه ومرت سيارة ووجدت فيها رجلا يابانيا ينحنى لى .. انه أخو امبراطور اليابان ظن أننى إنحنيت له فانحنى لى .. ولم يكن هذا قصدى .. على كل حال لقد فعل مئات اليابانيين ذلك من أجلى ..

ولو عاد الأمير مرة أخرى لفعلت له ذلك خصوصا أنه أيضا يحب الكتب..

الفندق الجديد تحفة فى العمارة . وكل شئ قد أضيف إلى الفندق القديم . المدخل والقاعات وقاعة الطعام ودورة المياة . والسخانات والمجففات للأيدى وللشعر ..

أما الحديقة الجميلة والنافورات البديعة وسط الورود فما يزال فيها رجال الحرس الملكى .. لأن الملوك والرؤساء قد هربوا من البروتوكول وانطلقوا فى الطائرات بين جوانب إيران ووراءهم البوليس السرى . وكل مرافق للملك أو رئيس دولة قد وضع على صدره زرارا أحمر .

هذا الزوار عبارة عن جهاز إرسال يلتقطه جهاز استقبال يحمله أحد رجال الحرس الملكى وهكذا يستطيع أن يعرف بالضبط وبمنتهى الدقة تحركات الحارس والملك ورئيس الدولة ليلا ونهارا .

وفى السوق الجديد وجدنا مصورا يعرض أعماله الفنية ومعها رسائل من تشرشل وروزفلت وستالين أيام انعقاد مؤتمر طهران سنة ١٩٤٣ ..

ورغم هذه الخطابات فإن الفنان ليس كبيرا وليست له تلك الزوايا الفاتنة .. ولا القدرة على توزيع الضوء والظل .. أى على إبراز الشخصية وتعميقها وإقناع الناس بها ولعله ليس فى حاجة إلى الأبعاد لأن الناس قد اقتنعوا بهؤلاء الثلاثة وبأنهم خربوا الدنيا على رؤوس من فيها مع الأسف لم أجد عنده صورة لهتلر وسولينى ..

ولم أتمكن طبعا من متابعة أخبار الدنيا فالراديو يتكلم بالفارسية فيما عدا راديو الأهواز الذى يشتم العراق بالعربية أما الصحف ففارسية طبعا .

وإن كانت هناك صحف إنجليزية .

هذه الصحف ليست فى متناول كل الناس .. وبالقرب من باعة الصحف نجد باعة الفستق .. واللوز والجوز والبندق المقشر .. لابد أنهم هنا يقولون عن الشئ الكثير الرخيص : انه كالفستق .. تماما كما نقول كالأرز .. أو نزلت عليه النعمة كالمطر ..

فالفستق هنا ممتاز .. ورخيص أيضا .. وموجو فى كل مكان . وعندما اشتريت بعض الفستق مددت يدى على آخرها للسائق فد أطراف أصابعه وأخذ حبتين أو ثلاثا .. هنا فقط تنبهت أن الفستق له معنى خاص عندى أنا .. أما السائق فلا يرى ذلك .. الفستق عندهم كاللب الأسمر عندنا .. لا أحد يتحمس له عندنا ، ولا أحد يتحمس للفستق عندهم .. أذكر أننى عندما ذهبت إلى دار الأوبرا التى اتخذت اسم الشاعر الإيرانى « رودكى » ..

انها تحفة فى العمارة والإناقة والإضاءة .. كان الجرسونات يمرون علينا أثناء الاستراحة .. بالسندوتشات الصغيرة والمشروبات الكحولية ، وعصير البرتقال والطماطم .. وكان الإيرانيون يأكلون السندوتشات . أما الأجانب وما أكثرهم فقد اتجهوا إلى الفستق .. جبال الفستق، يملأون أفواههم وجيوبهم. انه فستق متفتح .. فستق مثقف ..

يقول الشاعر سعدى : ان الماء ترعة صغيرة والإنفاق ساقية ترفع الماء فإذا كانت مواردك كبيرة فاجعل سواقيك كبيرة أيضا ..

وسواقى إيران أكبر من الفستق والكافيار والخيام الأنيقة .. وكلما تعلم الناس فى إيران استطاعوا أن يعرفوا إن كانت السواقى أكبر من القنوات أو أن القنوات أصغر من السواقى ..

وإن كان من الضرورى أن ينفقوا ما فى القنوات على الحفلات .. أو أن الحفلات هى التى تملأ القنوات وتدير السواقى بفلوس السياح من جميع أنحاء الدنيا ؟ .

إيران مساحته مليون كيلو متر مربع .. وبها خمسون ألف قرية .. وحول هذه القرى خمسون ألف كومة أو « كبشة » من الناس يطلقون على أنفسهم : قرية أيضا . ومطلوب تعليم هؤلاء الناس .

تعليمهم أن يأكلوا ويشربوا ويزرعوا أحسن وينتجوا أفضل . مطلوب ثورة لمحو أمية ٨٠٪ من الشعب الإيرانى (٣٠ مليون نسمة) . ولذلك يجب أن يصل العلم إليهم إما أن يذهبوا فى طلب العلم ، أو يذهب العلم إليهم ، إما أن يذهبوا فى طلب العلم ، أو يذهب العلم فى طلبهم .

أن ينتقل الجبل إليهم أو ينتقلوا هم إلى الجبل ..

قررت إيران أن تنقل الجبل إلى الناس .. هذه هى البطولة .. وهذا ما يجب أن يفعله كل شعب غير متعلم .. أو فيه أغلبية أمية .. مصر مثلا .

إيران بها ثمانى جامعات .. ثلاث منها فى طهران والخمس الباقية فى : أصفهان وشيراز وتبريز والأهواز ومشهد . وبها أيضا أكثر من مائة معهد للدراسات العليا .. وعدد طلبة المعاهد العليا أكثر من مائة ألف ..

ولكن أهم ما تفعله إيران هو محو الأمية . وهى تجربة استحقت إعجاب العالم كله . وقد تبنت اليونسكو هذا المشروع .. وهذا ما درسه الوزراء فى الإسكندرية أخيرا ..

وعندما ذهب شاه إيران إلى جامعة هارفارد فى أمريكا فى يونيو سنة ١٩٦٨ دعا العالم إلى مشروع محو الأمية : تعالوا لأول مرة نؤلف جيشا دوليا هدفه الإنتصار على أعداء الإنسانية : الفقر والجهل والظلم الإجتماعى . دعو التاريخ والأجيال تشهد بأن السلاح الذى فى خدمة البشرية أن يتجمعوا ليدوى نشيدهم الروحى فى أسماع الملايين دعوا المشعل الإلهى يتوهج بأنوار التضحية حتى يتمزق الظلم والفوارق بين الطبقات :. دعوهم يرددون ما قاله الشاعر سعدى :

وإن كنت للإنسان لم تتألم   فكيف سميت نفسك إنسانا .

أما مشروع « جيش التعليم » فهو أن محو الأمية فى الريف لا يحتاج إلى مدرس قد تخرج فى الجامعة . وإنما الحاصل على التوجيهية يكفى جداً . وحتى لا يكوى محو الأمية مبررا للفرار من الجندية أو الخدمة العسكرية . فإن هؤلاء الشبان يتدربون على حمل السلاح أيضا وعلى الإسعافات وعلى زراعة الأرض .. وعلى بناء البيوت . والسنوات التى يقضونها فى الريف تعتبر خدمة عسكرية .. وهؤلاء الشبان لهم ملابس خاصة .. شبان وشابات . وهم يذهبن بعشرات الألوف إلى القرى النائية فى الريف وفى الصحراء وفى الجبال . ليست هناك أية مشكلة .. فهم يعلمون الصغار والكبار فى أى مكان .. فى الحقل .. تحت خيمة .. فى غرفة .. فوق السطوح . يجمعون الأميين حول شجرة .. الشجرة تعلقت فيها « السبورة » ويعلمون

الفلاحين فى الحقل .. ومن الطبيعى أن يقاوم الفلاحون هذا الغزو .. هذا الرعب .. ولكنهم بعد ذلك يستسلمون .. ويتطوعون لإقامة البيت أو المدرسة . ويتكفلون بإطعام المدرس الشاب .. هذا المدرس يقيم وحده .

أما الفتيات فهن يقمن بالتدريس فى القرى القريبة من المدن .. الفتاة أمانة فى عنق أهل القرية .. انها أخت الجميع .. كانت القرى تقاوم .. ولكنها استسلمت .. الفتاة ترتدى زيا خاصا . إنها تعلم المجتمع القراءة والكتابة والإسعافات الأولية وتحسين الزراعة وتربية الطيور .. وهى صديقة الأمهات .. فإذا عادت الفتاة إلى المدينة فى أجازة سنوية ، خرجت القرية كلها وراءها حتى يصل الأوتوبيس الذى ينقلها إلى المدينة ، وقد ارتدت زى جيش التعليم الذى هو شرف لها .. ومدعاة لكى يحترمها الناس .

قال لى أحد مديرى جيش التعليم فى طهران أنه كان يقوم بجولة تفتيشية على بعض هذه القرى . ووجد إحدى فتيات جيش التعليم تقف فى الطريق الزراعى فى انتظار الأتوبيس .. فتوقف بسيارته . وطلب إليها أن تركب معه لكى يوصلها .. ورفض أهل القرية .. وهجموا عليه وكادوا يحطمون سيارته .. ولما سألهم عن السبب قالوا : إنها إبنتنا وشرفنا .. وهى أمانة فى أعناقنا ..

وحاول أن يقنعهم بأنه مدير جيش التعليم وأنه هو الذى أصدر هذا القرار .. ثم أطلعهم على بطاقته الشخصية .. وحاول السائق والفتاة أن يقنعاهم . . واقتنعوا وركبت الفتاة .. وعادت إلى المدينة ..

سمعت أيضا أن الأمبراطورة فرح تلقت رسالة من فتاة تطلب إليها سلفة لكى تتمكن من بناء غرفة لتكون مدرسة لأبناء القرية . وقالت الفتاة أن والدها غنى وكان فى استطاعتها أن تطلب منه ، ولكنها لو طلبت من والدها لرفض لأنه غير راض عن ذهاب إبنته إلى الريف .

وأرسلت الأمبراطورة مبلغا من مالها . وأقامت الفتاة الفصل الأول فى المدرسة ، ولما انتهت سنوات خدمتها فى الريف ، رفضت العودة إلى المدينة وتزوجت أحد أبناء القرية .. أحد تلاميذها .

وهناك مكافأة أخرى تنتظر جنود التعليم . فالدولة تعتبر سنوات محو الأمية هذه نوعا من الخدمة العسكرية الوطنية فى الدرجة الأولى ، ويصبح من حق كل جندى أن ينتسب للجامعة التى يريدها . وله الأولوية على غيره من الطلاب . معظم هؤلاء الجنود الحاصلين على التوجيهية ذوى المجاميع المتوسطة . وهذا معناه : أن الجامعات فى إيران – وفى كل الدنيا – لا يدخلها إلا أصحاب المجاميع الكبيرة . ومعناه أيضا أن الحاصلين على مجاميع متوسطة لا يتسكعون فى الشوارع ، وإنما يذهبون إلى الريف – مع عظيم الاحترام والإمتنان – يعلمون اخوانهم المواطنين . وليس بعد العلم ولا قبله شئ يؤدى إلى بناء الدولة العصرية والدولة فى كل عصر .. ولا فرق بين فتى وفتاة بين ابن الأمير وابن الخفير .. فعندنا ألوف القرى فى مصر أيضا .. وعندنا ملايين الأميين وكل واحد من هذه الملايين هو عقبة فى سبيل مصر .. وهو فى نفس الوقت ، إذا تعلم : مصباح فى طريق التحرر من الجوع والجهل والخوف ..

إن عندنا جيوشا من الشبان لا عمل لهم إلا المشى فى الشوارع .. إن مجالات العمل لا حد لها .. وضرورة العمل ليست فى حاجة إلى خطيب وإلى شعارات .. عندنا هذه الحقيقة المؤلمة : أغلب المصريين أميون .. لا يعرفون القراءة والكتابة وهذه حقيقة معروفة فى العالم .

هذا هو العمل : جيش التعليم .. جيش أولا له كل قواعد وأصول الضبط والربط يحمل السلاح .. والنور أقوى سلاح ..

يقول الشاعر سعدى : ليس المهم أن تحمل الشعلة لتضئ للآخرين بل يجب أن ترى أنت أيضا .. لقد أضاءت إيران للعالم كله الطريق إلى ماضيها وكانت الأضواء باهرة باهظة .. ولكنها أيضا أنارت كل الطرق إلى حاضرها. وإلى ما أنفق من أجل الذين لم يرو النور .. ملايين الملايين فيها .. وفى كل مكان ..

١ ـ دراسات

١ ـ وحدى مع الآخرين — الطبعة الثانية .
٢ ـ عذاب كل يوم — الطبعة الثانية .
٣ ـ طريق العــذاب — الطبعة الرابعة .
٤ ـ مع الآخرين — الطبعة الثالثة .
٥ ـ الوجــودية — الطبعة الثانية .
٦ ـ يسقط الحائط الرابع — الطبعة الرابعة .
٧ ـ كرسى على الشمال — الطبعة الثانية .
٨ ـ ساعات بلا عقارب — الطبعة الثالثة .
٩ ـ قالوا — الطبعة السادسة
١٠ ـ وداعاً أيها الملل — الطبعة الرابعة .
١١ ـ ألوان من الحب — الطبعة الثالثة .
١٢ ـ مدرسة الحب — الطبعة الثالثة .
١٣ ـ من نفسى — الطبعة الثالثة .
١٤ ـ شارع التنهدات
١٥ ـ الخبز والقبلات — الطبعة الثالثة .
١٦ ـ الحائط والدموع — الطبعة الخامسة
١٧ ـ الذين هبطوا من السماء — الطبعة السادسة .
١٨ ـ يوم بيوم — الطبعة الثالثة .
١٩ ـ يا من كنت حبيبى — الطبعة الثالثة .
٢٠ ـ من أول نظرة — الطبعة الثالثة .
٢١ ـ وكانت الصحة هى الثمن — الطبعة الثانية .
٢٢ ـ أرواح وأشباح — الطبعة الثالثة .
٢٣ ـ الذين عادوا إلى السماء — الطبعة الثانية .
٢٤ ـ قلوب صغيرة — الطبعة الثالثة .
٢٥ ـ شيء من الفكر — الطبعة الثالثة .

٢ — قصص

٢٦ — بقايا كل شيء — الطبعة الثالثة .
٢٧ — عزيزي فلان — الطبعة الثالثة .
٢٨ — هي وغيرها — الطبعة الثالثة .

٣ — رحلات

٢٩ — حول العالم في ٢٠٠ يوم — الطبعة الثالثة عشر
٢٠ — اليمن . . ذلك المجهـــول — الطبعة الثانية
٣١ — بلاد الله . . خلق الله — الطبعة الثالثة .
٣٢ — أطيب تحياتي من موسكو — الطبعة الثانية
٣٣ — أعجب الرحلات في التاريخ — الطبعة الخامسة
٣٤ — غريب في بلاد غريبة
٣٥ — لعنة الفراعنة — الطبعة الثانية .
٣٦ — أوراق على شجر

٤ — مسرحيات

٣٧ — الأحياء المجاورة !
٣٨ — حلمك . . يا شيخ علام !
٣٩ — مين قتل مين ؟
٤٠ — جمعية كل واشكر !
٤١ — كلام لك يا جـــارة

٥ — مترجمات

٤٢ — الإمبراطور جونز اونيل
٤٣ — رومولوس العظيم — (ديرنمات)
٤٤ — هبط الملاك في بابل — (ديرنمات)
٤٥ — أمير الأراضي البور — لماكس فريش
٤٦ — فـــوق الكهف — (تنسي وليامز)
٤٧ — بعد السقوط — (أرثر ميللر)
٤٨ — هي . . وعشاقها — (أربع مسرحيات) — لديرنمات
٤٩ — الشهاب — (ديرنمات)
٥٠ — سواد عينيها — (جيردو)

رقم الايداع ٥٢٥٥/٧٨
الترقيم الدولى ISBN ٩٧٧ – ٧٠٤٩ – ٨٠ – ٣







المكتب المصرى الحديث